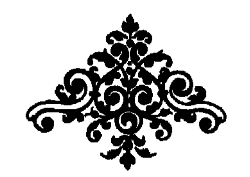
رسائل العدل والتوحيد



الجزء الأول

تأليف

إمام أهل السنة
الحسن البصري

إمام الزيدية
القاسم الرسي

إمام المعتزلة
القاضي عبد الجبار

إمام الاثني عشرية
الشريف المرتضى

مقدمة الطبعة الثانية

عندما تبلغ المواجهة بين أمة من الأمم وبين أعدائها مستوى «**الصراع الحضاري، ومحاولة السحق القومي**» ـ كما هو حال المواجهة اليوم بين أمتنا العربية الإسلامية وبين أعدائها ـ.

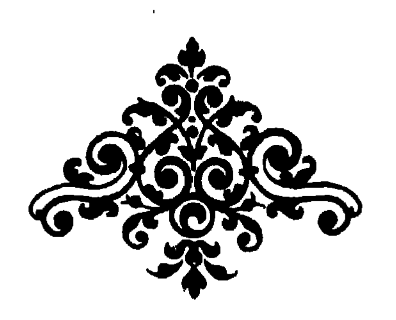
وعندما تكون هذه الأمة مالكة لتراث فكري غني ومتنوع وعملاق. . وصاحبة ماض حضاري يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، ورائدة لإنجازات متألقة، في الفكر والتطبيق، عبر التاريخ الإنساني. . وذات بصمات حضارية امتدت إلى ما وراء حدودها القومية والوطنية. . ومالكة لقسمات حضارية متميزة، ومرغوبة من عقلاء العالم ومفكريه، باعتبارها طوق النجاة المنقذ للإنسان من الآثار السلبية والمدمرة للحضارات التي تطرفت، إن إلى المادية المفرطة واللذة الشهوانية، أو إلى نقيضها.

عندما يكون هذا هو حال تراث الأمة ـ وهو حال تراث أمتنا العربية الإسلامية ـ.

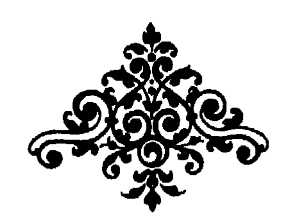
عندما يكون الأمر كذلك. . فإن من أكبر السفه وأعظم التفريط أن تهمل هذه الأمة أسلحتها الفكرية وطاقاتها التراثية في صراعها مع الأعداء الذين يفرضون عليها التحديات.

ولقد كانت هذه القضية. . قضية «**الوعي**» بما لدينا، في تراثنا الفكري والحضاري، من إمكانيات. . وضرورة وأهمية استخدام هذه الإمكانيات في الكشف عن هويتنا الحضارية المتميزة، وأيضاً في التصدي للمخاطر المحدقة بحاضرنا وغدنا. . كانت هذه القضية، بأهدافها المتعددة والمترابطة، هي الباعث

رسائل العدل والتوحيد



من تراث العقلانية الإسلامية



رسائل العدل والتوحيد

دراسة وتحقيق
الدكتور محمد عمارة

دار الشروق

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا: شروق ـ تلكس 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا: داشروق ـ تلكس: SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL: 316/316 REGENT STREET, LONDON W1. UK, TEL 637 2743/4, TELEX SHOROK 267790

في هذا الجزء

١ ـ دراسة . . بها مقدمات ، وتعريف بالمؤلفين ، وخمسة فصول ، يليهـا حديث عن تقويم النصوص .

٢ ـ للحسن البصري : رسالة في القدر .

٣ ـ للقاسم الرسى : أ ـ كتاب أصول العدل والتوحيد

ب ـ كتاب العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الله الواحد الحميد .

جـ ـ الأصول الخمسة .

د ـ الرد على المجبرة .

هـ ـ في التوحيد .

٤ ـ للقاضي عبد الجبار : المختصر في أصول الدين .

٥ ـ للشريف المرتضى : إنقاذ البشر من الجبر والقدر .

الدراسة

الذي دفعنا الى اختيار هذه [الرسائل] وجمعها، وتحقيقها، والتعليق على نصوصها، والتقديم بين يديها . . وتقديم طبعتها الأولى للقراء منذ نحو خمسة عشر عاماً.

● فهي نصوص إسلامية من عيون الفكر العقلاني الإسلامي . .

● وهي تدور حول قضيتين هما من أهم وأخطر قضايا فكرنا الإسلامي، بل والإنساني . . قضية «العدل» . . أي: **الحرية والمسؤولية والاختيار للإنسان، كفرد وكمجتمع، وعلاقة ذلك بخالق هذا الإنسان، سبحانه وتعالى . . وقضية «التوحيد» . . أي: التصور الأرقى الذي بلغه العقل الإنساني عندما تفكَّر في ذات الخالق سبحانه وتعالى، من خلال تفكُّره فيما أقام هذا الخالق المبدع بين يدي الإنسان وأمام بصره وبصيرته من آثار ودلائل وآيات بينات . .**

● وهي رسائل كتبها أعلام تألقوا في عصور تراثنا المتعاقبة، وبقاع أوطان أمتنا المختلفة، وفي إطار المدارس الفكرية التي توزع عليها وانقسم إليها أسلافنا العظام ـ معتزلة . . وشيعة إمامية . . وشيعة زيدية . . وأهل سنة ـ ومع ذلك، **فلقد اتفقوا جميعاً، كما اتفقت مدارسهم وتياراتهم الفكرية، في هذه الأصول الفكرية الجوهرية، والقضايا الأمهات . . في «العدل» و «التوحيد» . . وهما جُماع فلسفة الإنسان المسلم، وتصوره للذات الإلهية، ونظرته للكون والحياة والأحياء! . .**

● **وهي شاهد صادق على أصالة فكر الإسلام ـ أسلوباً ومنهجاً ـ في هذه القضايا الجوهرية والمحورية، ذلك أن عصر تأليفها سابق على عصر ترجمة الإنسانيات وتمثل المسلمين لفلسفة اليونان . .**

● **وفيها أقدم النصوص التي كتبها أعلام الفكر الإسلامي في «العدل» و«التوحيد» . .**

فهذه [الرسائل] إذن:

١ ـ تضع بين يدي المفكر والباحث والقارىء نصوصاً أصلية، هي بمثابة «المنابع» لفكرنا في فلسفة الإسلام المتميزة، تتناول الأصول الفكرية التي جمعت

وتجمع مختلف تيــارات الفكــر الإسلامي، والتي اجتمع عليها أسلافنا العظام. . وكأنها تقول ـ اليوم ـ لأمتنا، الباحثة عن مصادر قوتها كي تتصدى لأعدائها الكثيرين: إن «الوحدة» ـ وليس مجرد «التقريــب» ـ بين المذاهب والتيارات الإسلاميــة هي أمر «ممكن»، بقدر ما هي «ضرورة». . . «ممكن» يشهد تراثنا بإمكـــانه. . و«ضرورة» يدعو إليها ما فرضه الأعداء ويفرضونه على حاضرنا وواقعنا من تحديات!. .

٢ ـ وتضع بين يدي أجيالنا الحاضرة والمستقبلة بعضاً من أعظم ما أبدعته عقول أعلام تراثنا الفكري العظيم. . وذلك حتى يظهر جليــاً أن هذا التراث ليس «أكفان موتى»، كما يزعم البعض، ولا «قيــوداً تشد خطا الأمة إلى الماضي السحيق»، كما يزعم آخرون. . وإنما هو طاقة مبدعة وخلاقة، وروح سارية في عقل الأمة ووجدانها، يضمن لحاضرها التواصل الحضاري مع المنابع والمنطلقات. . ويشحن الأجيال الحاضرة بالكبريــاء المشروع الذي يعينها على إنجاز مهام النهضة الحضارية الحديثة، ويدفع خطاها على هذا الدرب دفعاً حثيثاً، ومحسوباً إلى الأمام!. . وذلك حتى يكون غدها: «الاستمرار ـ المتطور» لخير ما في أمسها من صفحات وقيم وإنجازات.

* * *

وكما وقفت هذه القضيـــة، وكمنت هذه المعاني وراء اختيــارنا ودراستنا وتحقيقنا ونشرنا لهذه الرسائل في طبعتها الأولى. . فإنها تقف اليــوم وراء إعادة طبعها ـ بعد أن نفدت طبعتها الأولى منذ سنوات ـ وذلك حتى تواصل فعلها في التنوير الفكري الإسلامي، وتبصير الإنسان المسلم بجوهر ذاته الفكري، وحقيقة هويته الحضارية، من خلال تبصيره بجواهر تراثه، الوثيقة الصلة بحاضره، والتي هي بعض من أمضى أسلحته في الصراع الذي تخوضه أمته اليوم، على جبهة الفكر والحضارة، ضد أعداء كثيرين؟!.

* * *

ولقد كان الاستقبال الطيــب الذي استقبلت به الطبعة الأولى من هذه

[الرسائل] - وهي التي صدرت عن «دار الهلال» بالقاهرة سنة ١٩٧١ م - كان هذا الاستقبال الطيب دليلاً معبراً عن حقيقة الدور الذي قدر لهذه [الرسائل] أن تنهض به في حياتنا الفكرية، وفي ميدان «علم الكلام» الإسلامي - وهو فلسفة الإسلام - على وجه الخصوص. .

ففي العديد من الجامعات ومراكز البحوث والدراسات الإسلامية، في وطن العروبة وعالم الإسلام، غدت هذه [الرسائل] مصدراً لفكر «العدل» و «التوحيد»، كما تصوره المسلمون وكما تبلور في تراث الإسلام. . حدث ذلك في كل المواطن، على اختلاف المذاهب الإسلاميــة التي يتمذهب بها أهل هذه المواطن! . .

بل لقد تعدى الأمر نطاق عالمي العروبة والإسلام إلى الجامعات الأوروبية - شرقية وغربية - والجامعات الأمريكية. . فاتخذت هذه [الرسائل] مكانها اللائق. بين مصادر مراكــز البحث والاستشراق وأقسام الدراسات الإسلاميــة بتلك الجامعات. .

ونحن نعتقد أن هذا الاستقبال الطيب الذي استقبلت به الطبعة الأولى لهذه [الرسائل] إنما يترجم عن تلبيتها لحاجات ماسة وضرورية قائمة في حركة الفكر الإسلامي المعاصرة. . بما توفره للباحث والقارىء المعاصر من «**منابع جوهريــة ونقية» لفكر تحتاجه «حياته العصرية»**.

وإذا كنا لا نريد الإطالة في تعداد المظاهر والأدلة على الاستقبال الطيــب الذي استقبلت به هذه [الرسائل] في «العدل» و «التوحيد»، فإننا نكتفي بالإشارة إلى أن نصوصها قد غدت مادة في العديــد من الكتب المتخصصة. . بل لقد ترجمت العديـد من صفحاتها لتكـون مادة كتاب جامعي متخصص عن الديــانة الإسلامية، نشرته شركة «ديكنسون» (Dickenson) ، وأعده الأستاذان «مارستون سبيجت» (R. Marston Speight, Ph.D) و «كينيث كراج» (Kenneth Cragg) . . نشر بالانجليزية ولغات أخرى أوروبية.

حدث ذلك في سنة ١٩٧٨ م، بعد أن استأذنني الأستاذان «مارستون

سبيجت» و «كينيث كراج»، فأذنت لهما، بعد مراجعة ترجمة الصفحات التي وقع عليها الاختيار. .

* * *

واليوم. . وبعد أن نفدت الطبعة الأولى من هذه [الرسائل]، منذ سنوات، نعود فنقدمها، في هذه الطبعة الجديدة، للمفكرين والباحثين والقراء، آملين أن تواصل فعلها وفعاليتها في حركة «التنوير الإسلامي»، وفي قيادة العقل المسلم إلى مصادر القوة الكامنة في تراثه، والقادرة على دفع مسيرة الأمة على درب النهضة الإسلامية خطوات وخطوات إلى الأمام. .

والله نسأل أن يكون لهذه الطبعة الجديدة ما كان لسابقتها من الاستقبال الحسن، والتأثير المفيد. . إنه، سبحانه وتعالى، سميع مجيب.

دكتور محمد عمارة

القاهرة: ١٢ ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ.

٥ ديسمبر سنة ١٩٨٤ م.

التعريف بالأئمة المؤلفين

الحَسَن البَصرُي

هو: أبو سعيـد الحسن بن أبي الحسن البصري [٢١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨ م] . . واحد من أبرز العلماء الأعلام، والمفكـرين المصلحين، والساسة الزهاد في تراث أمتنا العربية الإسلاميـة وتاريخها . . وهو أبرز علماء عصره على الإطلاق! . .

وإذا كان بعض أعلام التراث والتاريخ قداختلطت وقائع حياتهم بالأساطير، فإن واقع حيـاة الحسن البصري ووقائعها تبلغ في العظمة درجة الإغراب، حتى ليحسبها البعض أسطورة من الأساطير! . .

● فلم يكن عربي الأصل، إذ كان أبوه - يسار - من سبي«ميسان»- وهي«كـورة» بين البصرة وواسط وكانت أمه: «خيرة» مولاة لأم سلمة، زوج الرسول، عليه الصلاة والسلام - ومع أنه لم يكن عربي الأصل، فلقد بلغ في علوم العربية والإسلام إلى الحد الذي أصبح فيه الانتساب إليه جواز مرور وإجازة اعتماد للعلماء! . . . وهو من التابعين - وليس من جيل الصحابة - ومع ذلك بلغ في الفصاحة وجمال الترتيل للقرآن والحديث في مسائل العلم إلى الحد الذي جعل أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، تقول، عندما سمعته: «من هذا الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء؟!».

● وهو لم يكن، فقط، واحداً من ثقاة المحدثين والرواة للحديـث النبوي الشريف، وإنما كان رأس أول مدرسة للتاريخ العربي والإسلامي على الإطلاق! . . فالناظرون في كتب التاريخ القديمة ومصادره الأولى في تراثنا وحضارتنا يرون ،عند التأمل،أن الحسن البصري وتلامذته هم نواة أول مدرسة روت أحداث هذا التاريخ . . وكانت أحداث التاريخ السياسي الإسلامي، بما فيه من صراعات على الخلافة والإمارة، في مقدمة الأحداث التي حظيت بالرواية والنقد

من قبل الحسن البصري ومدرسته. . . وكانت «الحروب» تسمى: «الدماء»، و«الثورات» تسمى: «الفتن»! ولريادة الحسن البصري وتبحره في تاريخ «الحروب» و«الثورات»، تحدث عنه المؤرخون فقالوا: إنه كان عالماً في «الفتن» و«الدماء»! أي عالماً في تاريخ «الثورات» و«الحروب»؟!. .

● وكان الحسن البصري في معسكر المعارضة لمظالم الدولة الأموية، فلم يؤيد من خلفائها إلا عمر بن عبد العزيز [٦٢ - ١٠١ هـ ٦٨١ - ٧٢٠ م] إذ تولى قضاء البصرة في عهده، وكان له ناصحاً، يكتب إليه الرسائل قبل وبعد توليه إمارة المؤمنين. . لكن معارضة الحسن البصري للدولة الأموية لم تصل إلى درجة الثورة وحمل السلاح ضد هذه الدولة، لا لأنه كان ضد الثورة عليها، وإنما لأنه كان - كمؤرخ - يدرك ما جرته الثورات الفاشلة من مآسي وآلام على الثوار، بل وعلى عامة الناس. . فكان يشترط لتأييده للثورة أن تجتمع لأصحابها أسباب النصر، أو ما يرجح الانتصار. . ولقد تعرض الحسن البصري لمتاعب جمة، من قبل الثوار، بسبب موقفه هذا. . لأنهم كانوا يحرصون الحرص كله على كلمة تأييد منه لهباتهم وانتفاضاتهم ضد الأمويين، ويرون في ذلك حافزاً للعامة والجماهير على الانخراط في الثورة، كما يرون فيه ضغطاً أدبياً يشل تردد المترددين!. .

ومع ذلك فلم يسلم الحسن البصري من أذى بني أمية واضطهاد عمالهم على العراق، وخاصة أذى الحجاج بن يوسف الثقفي [٤٠ - ٩٥ هـ ٦٦٠ - ٧١٤ م]. فقطعوا عنه العطاء - (المعاش) - وأحاطوه بالعيون والجواسيس. . بل لقد هرب عندما هموا بسجنه، حتى ماتت ابنته فلم يصل إليها ولم يحضر مواراتها التراب!. .

ولكن ذلك لم يمنعه من المعارضة والرفض لمظالم الدولة الأموية والإدانة لتجاوزاتها عن نهج الخلافة الراشدة. . فكان يدين حكم معاوية بن أبي سفيان [٤١ - ٦٠ هـ ٦٦١ - ٦٨٠ م] ويسب الحجاج بن يوسف الثقفي، علناً، وعلى الملأ، فيقول: «يا أخبث الأخبثين وأفسق الفاسقين. . أما أهل السماء فمقتوك، وأما أهل الأرض فغروك!». . وعندما كان فقهاء الدولة ووعاظ السلاطين ينهون الناس عن ذم الحكام، بدعوى أن هذا الذم «غيبة» ينهى عنها الإسلام، كان

الحسن البصري يفتي: «ليس للفاسق المعلن غيبة! ولا لأهل الأهواء والبدع غيبة! ولا للسلطان الجائر غيبة!! . .» فأعمالهم ملك للرأي العام، يبحثها ويصدر فيها الأحكام؟! . .

وعندما كان فقهاء السلاطين هؤلاء يجتهدون لإلهاء الناس بالفروع عن الجوهر والأصول وسياسة الأمة وحكمها، فيجعلون من «الفقه» علماً يبحث في طهارة أو نجاسة دم البراغيث! . . كان الحسن البصري يعجب ويتعجب ويقول: «يا عجباً ممن يلغ في دماء المسلمين كأنه كلب، ثم يسأل عن دم البراغيث؟!»[1].

● وعندما أخذت الدولة الأموية تبرر مظالمها وتحويلها الخلافة من «الشورى الراشدة» إلى «الملك العضود» بفلسفة «الجبر والجبرية»، تصدى الحسن البصري، كإمام لمدرسة [أهل العدل والتوحيد]، لفلسفة «الجبر» هذه، فدافع عن حرية الإنسان واختياره، وكشف الوجه المشرق للإسلام عندما انحاز إلى الحرية والاختيار. . وكانت رسالته في «القدر» أثراً من آثار موقفه الفكري هذا، وشاهده عليه، بل لقد ظلت أقدم شاهد على فكر الحرية والاختيار في تراثنا العربي الإسلامي على الإطلاق! . .

* * *

لكن بعض الناس يشكك في انحياز الحسن البصري إلى معسكر القائلين بالحرية والاختيار - (القدر) - رغم أن المعتزلة يؤكدون هذا الانحياز، مستشهدين برسالته هذه التي كتبها في (القدر)، ومن ثم نراهم يضعونه في الطبقة الثالثة - (الجيل الثالث) - من طبقات أعلامهم، وهي الطبقة التي تضم التابعين. . يشكك البعض في ذلك ويقولون: «كان أهل القدر ينتحلون الحسن بن أبي الحسن. . وكان قوله مخالفاً لهم». . وهناك من يقول: إنه قال بالقدر ثم عدل ورجع عن القول به[2]! . . الأمر الذي يشكك في نسبة (رسالة القدر) إليه، أو على الأقل يلقي ظلال الشك على تمثيلها لموقفه الجديد في هذا الموضوع! . .

---

(١) د. محمد عمارة [الإسلام وفلسفة الحكم] ص ٦٥٤ - ٦٦٢. طبعة بيروت - الثانية - سنة ١٩٧٩م.
(٢) [طبقات ابن سعد] جـ ٧ ق ١ ص ١٢٧. طبعة دار التحرير القاهرة.

ولكن الدراسة لأسس هذا الخلاف حول الحسن البصري تؤكد أن الرجل كان من أئمة الذين قالوا بالقدر ـ أي قدرة الإنسان وحريته واختياره ـ على مذهب أهل العدل والتوحيد. . أما الشكوك التي أحاطت بانحيازه لهذا الموقف فإن مصدرها الشبهة ليس إلا؟! . .

فابن سعد يروي في (الطبقات الكبرى) عن «أيوب» قوله: «أنا نازلت الحسن في القدر غير مرة حتى خوفته السلطان، فقال: لا أعود فيه بعد اليوم. .» كما يقول «أيوب»: «أدركت الحسن والله وما يقوله». . أي ما يقول القدر. . ويروي مثل هذا الكلام عن «حميد الطويل». . فلقد كان «أيوب» و «حميد» ـ وهما من الرواة أصحاب الحسن البصري ـ يريان في القول بالقدر «العيب الوحيد» الذي يمكن أن يعاب به الحسن، يقول «أيوب»: «لا أعلم أحداً يستطيع أن يعيب الحسن إلا به ـ» أي بالقدر. . ويتحدث «أبو هلال» فيقول: «سمعت حميداً وأيوب يتكلمان، فسمعت حميداً يقول لأيوب: لوددت أنه قسم علينا غرم وأن الحسن لم يتكلم بالذي تكلم به. . قال أيوب: يعني في القدر. .»[2].

كما يروي «حماد» عن «أيوب» قوله: «ما أعياني الحسن في شيء ما أعياني في القدر، حتى خوفته بالسلطان»[3]. . «فأيوب» ـ الراوية، وصاحب الحسن ـ وقد خوف الحسن، بعد أن أعياه أمره في القول بالقدر، خوفه بالسلطان، حتى ترك القول به، وقال: لا أعود فيه بعد اليوم! . .

تلك هي النصوص والوقائع التي فهم منها البعض رجوع البصري عن القول بالقدر والحرية والاختيار. . لكن الأمر لم يكن على هذا النحو الذي فهمه هذا البعض! . . فأيوب وحميد. . مثل الحسن، يقولون جميعاً بالقدر! . . وهم جميعاً من أعلام مدرسة أهل العدل والتوحيد. . وأيوب قد خوف الحسن من القول بالقدر، أي من إعلان القول وإذاعته والجهر به وإظهاره، إشفاقاً عليه من سطوة السلطان، سلطان بني أمية، وليس عن مخالفة له في الرأي وتهديد له بإبلاغ

(١) المصدر السابق. جـ ٧ ق ١ ص ١٢٢.

(٢) القاضي عبد الجبار [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] ص ٨٣. تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

السلطان عنه، فهو يخوفه من السلطان لا بالسلطان! . .

ويضع أبو القاسم البلخي يدنا على هذه الحقيقة عندما يقول: «إن أيوب لم يخوفه بالسلطان على سبيل السعاية به إليه. كان أعظم قدراً من ذلك. ولكنه خوفه لسطوة عليه إن علم به، هذا على جهة النصح له، لأن بني أمية كانت مجمعة على الإجبار - إلا من عصم الله! -»[1].

وعلى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم معنى قول الحسن البصري: «لا أعود فيه بعد اليوم» . . أي لا أعلنه الإعلان الذي يعرضني لعقاب السلطان، وأن نفهم كذلك معنى قول أيوب: «أدركت الحسن والله وما يقوله!» فالحسن البصري كان، بلا جدال ولا شك، من أوائل الذين قالوا بالقدر، على مذهب أهل العدل والتوحيد. . كل ما في الأمر أنه قد اختلف مع المعتزلة - وهم التيار الأساسي، في هذه المدرسة الفكرية، الذي انشق على الحسن البصري - اختلف معهم في أحد أصولهم الفكرية، وهو أصل: «المنزلة بين المنزلتين» . . لكن ظل الاتفاق قائماً وراسخاً بين أعلام تيار العدل والتوحيد، بالمعنى الواسع لهذا التيار، في هذين الأصلين: أصل [العدل] - الذي يعني القول بالقدر والحرية والمسؤولية والاختيار - وأصل [التوحيد] الذي يعني الذهاب في تنزيه الذات الإلهية عن مشابهة المحدثات إلى حد التجريد. .

وعلى ضوء هذه الحقيقة نفهم لماذا ذكر المعتزلة الحسن البصري في الطبقة الثالثة - (الجيل الثالث) - من طبقات رجالهم، ونفهم كذلك قول الذين أرخوا لفرق المعتزلة عندما يذكرون «فرقة الحسنية» - نسبة للحسن البصري - كإحدى فرق المعتزلة[2]. .

وأيضاً. . نبلغ درجة الاطمئنان في صحة نسبة [رسالة القدر] إلى صاحبها الحسن البصري. . ذلك العلم الشامخ، الذي يحسب المرء أن جميع علماء عصره قد خرجوا من تحت عباءته. . عباءة ذلك العالم الناسك العظيم! . .

---

(1) المصدر السابق. ص ٨٣.

(2) الخوارزمي [مفاتيح العلوم] ص ١٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ.

القاسم الرَّسِّي

هو: أبو محمد القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل، بن إبراهيم بن الحسن المثنى، الحسني، العلوي، الشهير بالرسي [١٦٩ - ٢٤٦ هـ ٧٨٥ - ٨٦٠ م]. . متكلم، وفقيه، وشاعر، ومن أئمة الزيدية الثوار. . نشأ بالمدينة، وسكن جبال «قدس»، بأطرافها. . وهو شقيق الإمام الزيدي الثائر: محمد بن إبراهيم بن إسماعيل، المعروف بابن طباطبا [١٩٩ هـ ٨١٥ م] الذي ثار بالكوفة، على عهد المأمون العباسي [١٩٨ - ٢١٨ هـ ٨١٣ - ٨٣٣ م] وبايعه أهل الكوفة في جمادى الأولى سنة ١٩٩ هـ (ديسمبر سنة ٨١٤ م - يناير سنة ٨١٥ م). .

وبعد وفاة ابن طباطبا نهض القاسم الرسي بأمر الدعوة العلوية، وتمت له البيعة والنهوض بأمر الثورة سنة ٢٢٠ هـ سنة ٨٣٥ م، ولقدسميت البيعة له «بالبيعة الجامعة»، وذلك لاجتماع وجوه أهل البيت من نسل علي بن أبي طالب على البيعة له. . وكان ذلك على عهد المعتصم العباسي [٢١٨ - ٢٢٧هـ ٨٣٣ - ٨٤٢م]. .

وقبل عقد البيعة بالإمامة وظهور أمره، كان مختفياً عن أعين بني العباس، يمارس الدعوة، سراً، للرضا من آل محمد، ﷺ، ولقد ظل مختفياً بمصر عشر سنين، والمأمون العباسي يجد في طلبه، وعامله على مصر: عبد الله بن طاهر يوالي البحث عنه.

وعندما انتقل القاسم الرسي من مصر إلى الحجاز واليمن، وأخذ أمره في الذيوع والانتشار، دخلت الجيوش العباسية إلى اليمن لمطاردته، فاضطر إلى الاختفاء ثانية، وعاش بأحد أحياء البدو مستتراً حتى مات الخليفة المأمون، فعاد إلى الظهور في عهد المعتصم، وتمت له البيعة الجامعة. .

لكن الامكانيـات لم تساعد القاسم الرسي على الصمود في وجه الدولة العباسية، فاعتزل في أرض الحجاز، واشترى هناك جبلاً أسود بالقرب من «ذي الحليفة» ـ على مسافة ستة أميال من المدينة ـ اشتراه بخمسين ديناراً ـ وجعل منه حصناً، ومزرعة، ودار هجرة له ولأولاده وذويـه. . واسم هذا الجبل: «جبل الرس»، الذي نسب إليه فعرف بـ «الرسي». . وهناك عاش، بقية عمره، ومات، ودفن بجبل الرس. .

وفي كتب الطبقات عند الزيدية يصفون القاسم الرسي بأنه «نجم آل رسول الله وفقيههم وعالمهم المبرز في أصناف العلوم، ومن يضرب به المثل في الزهد والعلم. . ». . وهو إمام فرقة من فرق الزيدية اشتهرت بـ«القاسمية»، نسبة إليه. .

وكان القاسم الرسي، مثله في ذلك مثل كل الزيدية، يرون رأي المعتزلة في الأصول الخمسة، التي تكون «نظرية» المعتزلة. . ولقد ألف وصنف العديـد من الكتب والرسائل، منها:

١ ـ [الدليل على الله الكبير]. . وهو رد على الملاحدة الذين يطلبون الدليل على وجود الله.
٢ ـ [المكنون]. .
٣ ـ [أصول العدل والتوحيد، ونفي الجبر والتشبيه]. .
٤ ـ [العدل والتوحيد ونفي الجبر والتشبيه]. .
٥ ـ [صفة العرش والكرسي وتصريفهما]. .
٦ ـ [كتاب الهجرة للظالمين]. .
٧ ـ [الدليل الصغير]. .
٨ ـ [مسألة الطبريين]. . وهو في التوحيد. .
٩ ـ [الإمامة]. .
١٠ ـ [تثبيت الإمامة]. .
١١ ـ [المسترشد]. . في الرد على من زعم أن الله في السماء دون ما سواها. .
١٢ ـ [سياسة النفس]. .

١٣ ـ [القتل والقتال] . .

١٤ ـ [المديح الكبير للقرآن المبين] .

١٥ ـ [المديح الصغير] . .

١٦ ـ [الناسخ والمنسوخ] . .

١٧ ـ [تفسير القرآن] . .

١٨ ـ [الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع] . .

١٩ ـ [الرد على الملحد] . .

٢٠ ـ [الرد على الروافض من أصحاب الغلو] . .

٢١ ـ [الرد على الرافضة] . .

٢٢ ـ [كتاب ما حددت النصارى من قولها . . قد استحصينا فيه جميع أصولها] . .

٢٣ ـ [الرد على المجبرة] . .

٢٤ ـ [الرد على النصارى] . .

٢٥ ـ [احتجاج في الإمام] . .

٢٦ ـ [الكامل المنير في الرد على الخوارج] . .

٢٧ ـ [الأصول الخمسة] . .

٢٨ ـ [مجموعة رسائل] . .

٢٩ ـ [رسالة إلى بعض بني عمه] . .

٣٠ ـ [كتاب المسائل المنثورة] . . وفيه إجابات على أسئلة لابنه محمد . .

٣١ ـ [كتاب مسائل مما سأل عنه الحسن] . . والحسن هذا هو ابن القاسم الرسي . .

ولقد اخترنا وحققنا من آثاره الفكرية هذه ما تعلق بأصلي «العدل» و«التوحيد»[1] . .

---

(١) انظر في ترجمته والحديث عن آثاره الفكرية: [الفهرست] ص ١٩٣ . و[شرح عيون المسائل] جـ ١ لوحة ٢٨ . و[المقصد الحسن والمسلك الواضح السنن] اللوحة ١٨٢ ، ١٨٣ . و[مقاتل الطالبيين] للأصفهاني ص ٥٥٣ ـ ٥٥٦ . تحقيق: سيد صقر، طبعة دار المعرفة، بيروت. و[تاريخ التراث العربي] لفؤاد سزجين. ج ٢ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٧ . ترجمة: د. محمود فهمي حجار، د. فهمي أبو الفضل. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨م. و[الأعلام] للزركلي، طبعة بيروت.

قاضي القضاة
عبد الجبار بن أحمد الهمذاني

هو: قاضي القضاة، عبد الجبار بن أحمد بن خليل بن عبد الله الهمذاني الأسد آبادي [٤١٥ هـ ١٠٢٤ م].. أعظم أئمة المعتزلة في عصره، وصاحب التراث الذي لولاه لما بقي لنا من تراث المعتزلة ما يجلو موقفهم الفكري ـ على حقيقته، وبمنطقهم هم ـ في الكثرة الغالبة من أمور الدين والدنيا!..

ولد في مدينة أسد آباد، حوالي العقد الثالث من القرن الرابع الهجري.. وفيها وفي قزوين بدأ يتلقى دروسه الأولى، في الفقه والأصول والكلام والحديث، على أبرز علماء أسد آباد وقزوين الذين يتمذهبون بالمذهب الأشعري، وكان هو مذهب القاضي في صدر حياته الأول.. ومن هؤلاء العلماء: الحافظ الزبير بن عبد الواحد [٣٤٧ هـ ٩٥٨ م] وأبو الحسن بن سلمة القطان [٣٤٥ هـ ٩٥٦ م].. وفي سنة ٣٤٠ هـ سنة ٩٥١ م انتقل القاضي إلى همذان، وفيها تلقى العلم على شيوخها وفقهائها ومحدثيها... ثم غادرها إلى أصفهان، فاستوعب علومها من حلقات دروس أعلامها... ثم كانت رحلته عن أصفهان إلى البصرة حوالي سنة ٣٤٦ هـ سنة ٩٥٧ م.. وفي البصرة ـ وهي مركز الاعتزال العتيد والشهير ـ كان تحوله من المذهب الأشعري إلى مذهب المعتزلة، وذلك بعد تعرفه على شيخ المعتزلة أبو إسحاق إبراهيم بن عياش [توفي في النصف الثاني من القرن الرابع].. وبعد ذلك انتقل إلى بغداد، فواصل دراسته للاعتزال على الشيخ أبو عبد الله بن الحسين بن علي البصري [٣٦٩ هـ ٩٧٩ م] فكان أن بلغ مرتبة العلماء في الاعتزال..

وفي أوائل سنة ٣٦٩ هـ سنة ٩٧٠ م غادر القاضي بغداد إلى زامهرمز، بنواحي خوزستان ـ وهي من قلاع المعتزلة الفكرية ـ وفيها شرع يلقي دروسه على

تلامذته، بمسجد أبي محمد الرامهرمزي، فأملى كتابه (المغني)، الذي عاش ليصبح ديوان فكر المعتزلة الذي نجا من الإبادة فحفظ لنا أصولهم الفكرية من الضياع!..

ولقد ظل القاضي في رامهرمز حتى استدعاه الصاحب بن عباد [٣٢٦ - ٣٨٥ هـ ٩٣٨ - ٩٥٥ م] إلى الري، عاصمة الدولة البويهية، وهناك تولى منصب قاضي قضاة الدولة - وزير العدل بها - في سنة ٣٦٧ هـ سنة ٩٧٧ م.. وواصل هناك الحياة والإملاء والتأليف، مع رحلات للعلم والتعليم والحج والقضاء، كان يعود بعدها إلى الري، حتى وافاه الأجل بها سنة ٤١٥ هـ سنة ١٠٢٤ م بعد عمر مديد، أثمر آثاراً فكرية هي اليوم أغنى مصدر لدراسة الاعتزال.. كما أثمرت حياته العلمية مدرسة من العلماء جسدت صحوة الاعتزال ومقاومته للاضطهاد الذي اشتدوتكاثر عليه في الكثير من الدويلات والحواضر والأمصار!..

والأمر الملفت للنظر أن هذه الصحوة الاعتزالية التي مثلها القاضي عبد الجبار وتلامذته قد عاصرت بلوغ اضطهاد المعتزلة والاعتزال ذروته، فلقد بلغت الدولة العباسية في ذلك الاضطهاد إلى حد تحريم فكر المعتزلة بمرسوم هو أشبه ما يكون بمراسيم الحرمان والتحريم الكنسية - مع غرابة هذا السبيل عن روح الإسلام - وهو المرسوم المسمى بـ«الاعتقاد القادري»، نسبة للخليفة العباسي القادر بالله. [٣٨١ - ٤٢٣ هـ ٩٩١ - ١٠٣١ م].. فكان أن منع تدريس علم الكلام، وحظر القول برأي المعتزلة في أصولهم الخمسة.. أما الذين حامت حولهم شبهة الاعتزال فإنهم عوملوا معاملة المواطنين من الدرجة الثانية، بل والثالثة، فجردوا من حقوقهم المدنية، حتى لقد أسقطت شهادتهم أمام القضاء؟!.. وذلك فضلاً عن العقوبات الاقتصادية، ومنها المنع من «تقبل» الأراضي[1].. ناهيك عن النفي والسجن والحرمان من العطاء؟!..

لكن الأمر الرئيسي الذي أعان روح المقاومة الاعتزالية على الصمود، حتى

---

(١) أي الدخول في «مزادات» أخذ امتيازات «الالتزام» في استثمار الأرض الزراعية..

مثلت وجسدت تلك الصحوة الفكريـة، هو المناخ الذي هيأته الدولة البويهيـة [٣٣٤ - ٤٤٧ هـ ٩٤٥ - ١٠٥٥ م] لتلك الصحوة. . فلقد كان البويهيـون شيعة زيدية، والزيدية معتزلة يتمذهبون بالأصول الخمسة للمعتزلة، والخلاف بينهما لا يعدو جزئيـات محدودة في قضيـة الإمامة، يتصل أغلبها بتقييـم فترات مضت وانقضت من تاريخ الصراع على الخلافة في صدر الإسلام. . فكان ذلك الاتفاق في الأصول، بين المعتزلة والزيدية، هو المهيء للمناخ الملائم في حواضر الدولة البويهيـة وعاصمتها كي تنمو فيـه الصحوة الاعتزاليـة التي جسدها القاضي عبد الجبار. .

وإذا كان الحديث عن حجم هذه الصحوة الاعتزالية ومكـان القاضي فيها سيخرج بنا، حتماً، عن حدود هذا التعريف، فإن هذه الحدود تقضي أن نكتفي بالاشارة إلى عناوين الثروة الفكريـة التي أملاها وصنفها القاضي عبد الجبار. . وأيضاً إلى أسماء نفر من العلماء الذين تتلمذوا على يديه، فاستمرت من خلالهم صحوة الاعتزال وعقلانية المعتزلة التي جسدها في تطورنا الفكري. .

فمن مؤلفاته:

١ - الأدلة في علوم القرآن.
٢ - بيان المتشابه في القرآن
٣ - التفسير الكبير.
٤ - التفسير المحيط.
٥ - تنزيه القرآن عن المطاعن.
٦ - نظم الفوائد وتقريب المراد للرائدفي الحديث النبوي.
٧ - تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمدﷺ.
٨ - آداب القرآن.
٩ - نصيحة المتفقة.
١٠ - الاختلاف في أصول الفقه.
١١ - أصول الفقه.

١٢ ـ شرح العمد.
١٣ ـ العمد.
١٤ ـ مجموع العهد.
١٥ ـ النهاية.
١٦ ـ الاختيارات.
١٧ ـ الخلاف بين الشيخين أبي علي وأبي هاشم.
١٨ ـ شرح أدب الجدل.
١٩ ـ فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة.
٢٠ ـ الاعتماد.
٢١ ـ التجريد.
٢٢ ـ تقريب الأصول.
٢٣ ـ تكملة الجوامع.
٢٤ ـ تكملة الشرح.
٢٥ ـ تهذيب الشرح.
٢٦ ـ الجمل.
٢٧ ـ جوابات مسائل أبي الرشيد.
٢٨ ـ الحكمة والحكيم.
٢٩ ـ الخاطر.
٣٠ ـ الخلاف والوفاق.
٣١ ـ الخوارزميات.
٣٢ ـ الدواعي والصوارف.
٣٣ ـ رد النصارى.
٣٤ ـ الرازيات.
٣٥ ـ زيادات الأصول.
٣٦ ـ شرح الأصول الخمسة.
٣٧ ـ شرح الجامع الصغير.

٣٨ ـ شرح الجوامع .
٣٩ ـ شرح الجمل .
٤٠ ـ شرح كشف الأغراض عن الإعراض .
٤١ ـ شرح المحيط.
٤٢ ـ شرح المقالات .
٤٣ ـ الطرميات .
٤٤ ـ العسكريات .
٤٥ ـ الفعل والفاعل .
٤٦ ـ القاشانيات .
٤٧ ـ كتاب في القضاء والقدر .
٤٨ ـ الكوفيات .
٤٩ ـ ما يجوز فيه التزايد وما لا يجوز.
٥٠ ـ المحيط بالتكليف .
٥١ ـ مسألة في الغيبة.
٥٢ ـ مختصر الحسني .
٥٣ ـ مسألة في الموجبات والمؤثرات .
٥٤ ـ المسائل الواردة على أبي الحسين .
٥٥ ـ المسائل الواردة على أبي القاسم .
٥٦ ـ المصريات .
٥٧ ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل .
٥٨ ـ المقدمات .
٥٩ ـ المكيات .
٦٠ ـ المنع والتمانع .
٦١ ـ نقض الإمامة .
٦٢ ـ نقض اللمع .
٦٣ ـ النيسابوريات .
٦٤ ـ نقض البدل .

٦٥ ـ الحدود
٦٦ ـ شرح العقود.
٦٧ ـ العقود.
٦٨ ـ المبسوط.
٦٩ ـ المجدي.

ومن هذه الأمالي والكتب والرسائل بقي لنا أربعة عشر كتاباً، منها [المغني]، الذي اكتشف منه أربعة عشر جزءاً تقع في ستة عشر مجلداً.. وهي الكتب التي حفظت لنا ـ كما سبق وأشرنا ـ أصول المعتزلة الفكرية، كما صاغوها هم، لا كما تحدث عنها خصوم الاعتزال!.. كما بقي لنا ذلك [المختصر] الذي حققنا نسبته إلى قاضي القضاة!..

أما العلماء الأعلام الذين تكونت منهم كوكبة تلاميذ القاضي عبد الجبار، فإن أبرزهم:

١ ـ أبو رشيد بن سعيد بن محمد النيسابوري [٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م].
٢ ـ أبو الحسين بن علي البصري [٤٣٦ هـ ١٠٤٤ م].
٣ ـ أبو محمد الحسن بن أحمد بن متويه [٤٦٨ هـ ١٠٧٥ م].
٤ ـ أبو يوسف عبد السلام بن محمد القزويني [٤٨٨ هـ ١٠٩٥ م].
٥ ـ الإمام الزيدي المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون الأملي [٣٣٣ ـ ٤١١ هـ ٩٤٤ ـ ١٠٢٠ م].
٦ ـ أبو عبد الله محمد بن سعيد اللباد [أو: أبو محمد عبد الله بن سعيد اللباد].
٧ ـ أبو القاسم إسماعيل بن أحمد البستي [٤٢٠ ـ ١٠٢٩ م].
٨ ـ الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي [٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ ٩٦٦ ـ ١٠٤٤ م].
٩ ـ أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي [٤٤٧ هـ ١٠٥٥ م].

وهم علماء أعلام واصلوا الحفظ والتطوير والتقديم لعقلانية المعتزلة

وصحوتهم الفكرية ومقاومتهم للاضطهاد الذي فرضه عليهم خصومهم، فكانوا، مع مؤلفات القاضي عبد الجبار، صفحة من أكثر الصفحات إشراقاً وتألقاً في تراثنا الحضاري والتاريخ الفكري لأمتنا العربية الإسلامية على الإطلاق[1]!

---

(١) في ترجمة القاضي عبد الجبار ورصد آثاره الفكرية، أنظر: دكتور عبد الكريم عثمان [قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني] ص ١١ - ٧٢ - ٧٢ طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م. و[تاريخ التراث الغربي] جـ ٢ ص ٤١١ - ٤١٣.

الشريف المرتضى

هو: علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم [٣٥٥ - ٤٣٦ هـ - ٩٦٦ - ١٠٤٤م] الموسوي، يصعد نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما. . وُلد وتوفي ببغداد. .

تولى نقابة الطالبيين في عصره، فكانت له الصدارة عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وكان مع أخيه الشريف الرضي [٣٥٩ - ٤٠٦ هـ - ٩٧٠ - ١٠١٥ م] من وجوه العلماء الأجلاء في العراق. . ولقد أهلت الشريف المرتضى لهذه الإمامة غزارة علمه في الكلام والأصول والفقه، والنحو والتفسير ورسوخ قدمه في الأدب، وذوق رفيع في الشعر العربي، حتى كان حجة في هذه العلوم والفنون. .

ورغم نشأته الشيعية الإمامية الاثني عشرية، وإمامته لهذه الفرقة الإسلامية، فلقد تتلمذ على الإمام المعتزلي قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني [٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م] وكان واحداً من مدرسته الفكرية، اللهم إلا في مسألة الإمامة والخلافة، فلقد ظل فيها على مذهب الإمامية الاثني عشرية، وبلور خلافهم فيها مع المعتزلة بكتابه [الشافي في الإمامة] الذي ضمنه رده على فكر القاضي عبد الجبار في هذا الموضوع! . . ومن أساتذته - غير قاضي القضاة - ابن نباته، الذي تتلمذ عليه صغيراً، والشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان [٣٣٦ - ٤٢٣ هـ - ٩٤٧ - ١٠٢٢م]. وهو من أبرز فقهاء الشيعة في عصره.

ولقد كانت بلاغة الشريف المرتضى من السمو إلى الحد الذي جعل البعض - ومنهم الذهبي [٦٧٣ - ٧٤٨ هـ - ١٢٦٤ - ١٣٤٨ م] ينسبون إليه تأليف [نهج البلاغة] المنسوب للإمام علي بن أبي طالب. . وهو الكتاب الذي يقول عنه الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]: « . . . . وليس في

أهل اللغة إلا قائل بأن كلام الإمام علي بن أبي طالب هو أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله تعالى وكـلام نبيـه، وأغزره مادة، وأرفعه أسلوباً، وأجمعه لجلائل المعاني»[1]!.. فقول هؤلاء القائلين بأن [نهج البلاغة] من وضع الشريف المرتضى ـ رغم ما لنا عليه من اعتراضات ـ يعكس مكان الشريف في الأدب واللغة والبلاغة، لا عند محبيه فقط بل عند الجميع؟!..

ولقد أثرى الشريف المرتضى المكتبة الإسلامية، كما أثرى مجتمع العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء في بغداد، فامتد أثره حتى يومنا هذا، وأصبح واحداً من أعلام العروبة والإسلام الذين ضمن لهم فكرهم خلود العلماء.. وتشهد على ذلك أماليه ومؤلفاته، التي قيل إنها بلغت سبعة وثمانين مؤلفاً.. ومنها:

١ ـ [الأمالي ـ «الغرر والدرر» ـ].. وهـو ديوان شامل للأدب والكلام، وغيرهما من فنون العربية وعلومها..

٢ ـ [الشهاب في الشيب والشباب]..

٣ ـ [الشافي في الإمامة].. وهو الذي رد به على نظرية المعتزلة في الإمامة، كما صاغها أستاذه القاضي عبد الجبار في كتابه [المغني في أبواب التوحيـد والعدل]..

٤ ـ [تنزيه الأنبياء]..

٥ ـ [الذخيرة].. في علم الأصول..

٦ ـ [الانتصار].. وهو في الفقه الشيعي..

٧ ـ [المسائل الناصرية].. وهو في الفقه الشيعي أيضاً..

٨ ـ [تفسير القصيدة المذهبة].. وهو شرحه لقصيـدة السيـد الحميـري [١٠٥ ـ ١٧٣ هـ ـ ٧٢٣ ـ ٧٨٩ م].

٩ ـ [أوصاف البروق].

١٠ ـ [ديوان شعر].. يضم من شعره ما يزيد على عشرة آلاف بيت..

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٤٢٠. دراسة وتحقيـق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

١١ - [إنقاذ البشر من الجبر والقدر] . . وهو النص الذي اخترناه ليمثل رأيه ورأي الإمامية الاثني عشرية في أصلي «العدل» و«التوحيد»[1] . .

(١) انظر [الأعلام] للزركلي. و[معجم المؤلفين] لكحالة. طبعة دمشق. و[معجم المطبوعات العربية والمعربة] لسركيس. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

مقدمة

لعل أنسب مكان يمكن الحديث فيه عن التراث العربي الإسلامي، وقضايا إحيائه ونشره، وما يثار في هذا الحقل من قضايا ووجهات نظر وآراء، وما يحفل به هذا الجانب من جوانب حياتنا الفكرية من تيارات وصراعات، لعل أنسب مكان للحديث عن كل ذلك، أو بعضه، هو هذا المكان الذي تحده هذه الصفحات التي نقدم بها بين يدي هذه الرسائل المخصصة لموضوعي «العدل والتوحيد».

ذلك لأن مناسبات التقديم والدراسة التي تمهد للقارىء المعاصر سبيل السياحة الفكرية الخصبة مع نصوص مفكرينا القدماء، هي أولى المناسبات بالحديث عن فكر هؤلاء القدماء، والدور الذي يمكن لهم ولفكرهم أن يؤديه في حياتنا المعاصرة، وصنع المستقبل الذي نجاهد لصنعه على هذه الأرض وفي هذه الظروف، لأن الحديث في هذا المقام عن التراث وقضاياه هو أبعد ما يكون عن التجريد، وأبرأ ما يكون من ذلك الداء الذي يصيب الكثير من الكتابات التي يقدمها أصحابها في هذا الصدد، داء الانفصام بين «النظريات» التي يتحدث عنها بعض الذين يظنون في أنفسهم الكفاءة للحديث عن التراث، وبين «المعايشة» لنصوص هذا التراث، والاحتكاك بتياراته الفكرية، ووعي القسمات الرئيسية التي تحدد ملامح المدارس الفكرية التي تكون مادة هذا التراث، والفهم الواعي لما بين هذه القسمات، ومن ثم هذه المدارس، من تداخل ومشاركة وتفاعل، وأيضاً ما بينها من تمايز وحدود وانفصال.

أي أنه إذا كان أكثر الناس حديثاً عن التراث وقضاياه، هم أقل الناس

معايشة لنصوصه ووعياً بمدارسه وقدرة على فهمه وإدراكاً لأهميته، كما أن أكثر الناس معايشة لنصوصه هم أقل الناس حديثاً عنه، وأحياناً أقلهم وعياً بالمنهج العلمي الذي لا بد من التزامه إذا شئنا أن يكون لهذا التراث، وبعثه وإحيائه، فعالية أكبر في دفع عجلة التطور الحضاري لأمتنا نحو الأمام. إذا كان الأمر كذلك، وهو ما نعتقده، فلقد آن لنا أن نجعل الارتباط وثيقاً بين الذين يعايشون نصوص التراث، ويبذلون الجهد، بل والعمر، في بعثه واحيائه، وبين التخطيط لهذا البعث وهذا الاحياء، لا عن طريق الاستبداد والانفراد بهذا الحقل واحتكار الحديث فيه، وإنما بالمزاوجة ما بين المعطيات التي يقدمها لنا المنهج العلمي عندما نعي به قضايا تراثنا، وبين الخبرة العملية التي هي ثمرة المعايشة لنصوص التراث ومدارسه وقضاياه.

وليس سوى مناسبة التقديم لنص أو نصوص من هذا التراث، مقاماً لا يعدله مقام آخر يجتذب النفس والقلب والعقل والضمير، ومن ثم القلم، للحديث عن هذا الموضوع، لأنه حديث من أرض الواقع، ومن خلال مشاكل الممارسة وقضايا التطبيق، ومن ثم فإن معطياته وأحكامه، و«الصياغات النظرية» التي يمكن الخروج بها من مثل هذا الحديث، إنما هي وثيقة الصلة بهذا الواقع، نابعة منه، وأيضاً منطلقة من ميدانه إلى حيث التعميم والتقنين والكليات.

وإذا كانت هذه النظرة سليمة وصادقة، فإن المقام عندما يكون خاصاً بالتقديم لنصوص كتبها مفكرون ينتمون إلى مدرسة المعتزلة، أهل العدل والتوحيد، وعندما تكون هذه النصوص معقوداً لواؤها لموضوعي «العدل والتوحيد»، فلا أعتقد أن باستطاعة المرء أن يقاوم الرغبة الملحة التي تدعوه للحديث، ولو بإيجاز عن بعض قضايا تراثنا العربي الإسلامي من خلال هذه النصوص، وبين يدي هذه النصوص.

تراث متنوع

والقضية الأولى التي يجب أن نشير إليها، وأن ندلي فيها برأي نعتقده صواباً، بل نعده من البديهيات، على الرغم مما نقرأ حوله، أحياناً، من وجهات نظر متعارضة، وغير واعية ولا صائبة، هي أن في تراثنا العربي الإسلامي تيارات فكرية متعددة، وأيضاً متعارضة ومتناقضة، وأن بعض هذه التيارات والأحكام والنظريات، مما يخدم التطور والتقدم، ويناصر العدالة الاجتماعية، ويعلي من قدر العقل، ويمجد الإنسان، وأن البعض الآخر من هذه التيارات، إما أنه لا يفيد الإنسان المعاصر بصدد قضايا التطور والتقدم والعدالة، أو أنه يناهض سعي الإنسان في هذا السبيل، ويجاهد في شد العقول، ومن ثم الحركة، إلى الخلف، وباستطاعته أن يشل الكثير من قدرات الإنسان عن الانطلاق إلى الأمام.

وإذا كان هذا الكلام، ومنذ هذه اللحظة، لا يرضي أولئك الذين ينظرون إلى كل ما هو قديم نظرة «التقديس»، ويرتفعون بكل ما مر عليه الزمن وطالت عليه العصور عن مقام النقد أو حتى التساؤل وإثارة علامات الاستفهام، بل وينأون به عن المجال الذي يسمحون للعقل بالتفكير فيه، إذا كان الأمر كذلك مع هذا الفريق، فإني أعتقد أن النظرة الموضوعية التي سنحاول الدراسة من خلالها لهذه القضية، ستجعلنا نلتقي بهذا الفريق، وتجعلهم يلتقون بنا على كلمة سواء، شريطة أن يكون الاخلاص هو الرائد، والتجرد من الأحكام المسبقة والجامدة هو السبيل.

كما نود أن نشير، منذ البداية، أن حكمنا هذا على تراثنا العربي

الإسلامي، من حيث شموله لتيارات فكرية وقيم حضارية متعارضة ومتناقضة، فضلاً عن أنها متنوعة، إنما هو حكم لن يرضى هؤلاء الذين يلغطون كثيراً بالحديث عن «تنقية التراث من الشوائب» وذلك عندما يجيء الحديث عن الموقف من إحياء التراث في صفحات هذا التقديم.

* * *

أما الأدلة التي تؤكد أن تراثنا العربي يحفل بين جنباته، ليس بما هو متنوع فقط، بل وبما هو متناقض كذلك، فهي كثيرة، بل ومن الكثرة بحيث تجعل من هذه القضية بديهة من البديهيات، كما سبقت إشارتنا منذ قليل، ذلك لأن هذا التراث إنما جاء ونتج وتكون كثمرة عقلية ووجدانية لحياة أمة، بل أمم توزعتها شعوب مختلفة، ذات بيئات متعددة، وخلفيات حضارية متنوعة، ومرت بها عصور وقرون وأجيال طويلة ومتطورة، كما أن هذه المجتمعات التي أنتج فيها مفكرونا العرب المسلمون هذه الآثار الفكرية إنما كانت تحفل بالتيارات الفكرية المتصارعة والمتداخلة، المتعارضة والمتفاعلة، والمعبرة في نهاية الأمر عن موقف سياسي أو حضاري أو اجتماعي أو مذهبي لهذا المفكر أو ذاك، ولهذه المدرسة أو تلك، ومن ثم فإننا اليوم عندما نتصفح هذه المخطوطات، ونعرض القضايا التي حوتها بين جنباتها على عقولنا لا بد وأن نميز فيها ما بين الأعمال الفكرية التي تصلح أن تكون بالنسبة لنا، حاضراً ومستقبلاً، خلفيات فكرية تؤصل القيم المتقدمة التي نؤمن بها أو التي يجب أن نؤمن بها، ومنطلقات ثقافية تذكي في ضمير أمتنا ووجدانها روح البحث عن الجديد واستخراج المجهول من المعلوم وريادة الآفاق البكر، ومولدات تشحن نفوسنا بالكبرياء المشروع حتى نسرع الخطا في البناء، مع ثبات في الخطو وجودة في البنيان، وذلك حتى نكون الخلف الجدير بالانتساب لهذا السلف الذي أبدع منذ قرون مثل هذه الأبنية الفكرية التي تكون صفحات هذا التراث.

وليس غير الأمثلة التطبيقية سبيلاً للوصول بنا جميعاً إلى الكلمة السواء التي نتفق بها وعليها في هذا الموضوع. فمن الذي ينكر أن في تراثنا الفكري والثقافي مدرسة متميزة أعلت من قدر العقل، وقدمت ثمار تفكيره الناضج على «قدسية» النصوص، وهي مدرسة المعتزلة، أهل «العدل والتوحيد»؟

* وأننا إذا شئنا أن نقدم لأجيالنا الحاضرة والمستقبلة تراثاً يمجد العقل، ويؤصل فكرنا العقلي المتقدم، ويشيع في صفوفنا مناخاً يساعد على ازدهار التفكير العلمي، فلا بد لنا من البحث عن البقايا التي تركها الزمن وخلفتها أحداثه من تراث أهل العدل والتوحيد، وإحياء هذه الآثار ونشرها بين الناس.

* وأننا إذا شئنا أن نزيل من حياتنا الآثار الضارة للتواكل والاتكالية والسلبية، بل والأنانية، وأن نشيع روح المسئولية لدى إنساننا العربي المسلم المعاصر، فلا بد وأن ندعم قيم الحرية والمسئولية التي نقدمها له اليوم، بذلك التراث الغني الذي قدمه أهل العدل والتوحيد في ميدان حرية الإنسان ومسئوليته عن أعماله ونتائجها، وكيف أنه حر مختار صانع لأعماله، بل خالق لها، على سبيل الحقيقة لا المجاز، كما قرروا ذلك منذ قرون وقرون؟

* وأننا إذا شئنا تنقية معتقداتنا الدينية وشعائرنا الروحية من مظاهر الوثنية التي عادت بحكم القصور العقلي وترسبات البيئة إلى الاعتداء على نقاء «التوحيد» الإسلامي، في أرقى صوره، كما جاء به القرآن الكريم، فلا بد لنا من الانتفاع بالخصوبة الفكرية التي قدمتها لنا مدرسة أهل العدل والتوحيد في هذا المجال.

* وأننا إذا شئنا خلفية فكرية تؤصل قيم العدالة الاجتماعية والاقتصادية التي نستهدفها، فلا بد لنا من التمييز بين تلك الصفحات من التراث التي فسر

أصحابها أصول تشريعنا، قرآناً وحديثاً، ذلك التفسير المتقدم الذي يناصر الجمهور ويحرص على إعطاء الحقوق المادية لأصحابها ويقف بالمرصاد للغاصبين والظالمين، التمييز بين هذه الصفحات وبين صفحات الذين سكتوا عن الجور أو ناصروه.

* وأننا إذا شئنا أن نغرس في عقولنا وقلوبنا وضمائرنا القيم الثورية، والتي تدعو للخروج على الظلم والطغيان والإطاحة بالظلمة والطغاة، فلا بد لنا من أن نشيع في حياتنا المعاصرة ذلك الجانب من تراثنا الذي دعا مفكروه للثورة على الظلم وامتشاق الحسام لتغيير الأوضاع الجائرة المفروضة على الناس، دون أن يشاءها الله أو يريدها، لأن الله لا يأمر بالفحشاء ولا بالمنكر، ولأنه ليس بظلام للعبيد.

* وأننا إذا شئنا أن نشيع في حياتنا المعاصرة، وفي صفوف جماهيرنا وجموع أمتنا الديموقراطية والمساواة والحرية السياسية، لا بد من أن نقدم لهذه الجموع صفحات تراثنا التي تمجد الشورى، وتجعل صلاحيات الحاكم نابعة من توافر الشروط فيه، دونما التفات إلى النسب أو المال أو العصبية، والتي هي أفضل زاد فكري يمكن أن يؤصل في أمتنا روح الديموقراطية كخلق وممارسة وسلوك، لا كمجرد شعارات.

* وأننا إذا شئنا لأمتنا أن تتنفس الطقس العلمي والتفكير العلمي ملء رئتيها، فلا بد لنا من أن نقدم لها كنوز الفكر العلمي العربي الإسلامي الذي تتلمذت على يديه الدنيا لعدة قرون، لأن لذلك الدور الكبير في الثقة بالنفس في هذا السباق الذي نبدو فيه اليوم متخلفين بالنسبة للآخرين، هؤلاء الذين كانوا منذ قرون قليلة يحتلون مكان المتخلفين، بينما كنا نحن طليعة الانسانية في كثير من الميادين، بما فيها ميادين العلوم.

* وأننا إذا شئنا لجيلنا الحاضر وأجيالنا المستقبلة أن تؤمن إيماناً لا يتزعزع

بالتطور، وبقدرة هذا التطور على أن يلد كل جديد، وأن نهزم في وجداناتنا ووجدانات شبابنا وشباب المستقبل قيم الجمود وروح الرتابة والسكون، فلا بد لنا من تقديم النصوص التي حفل بها تراثنا عن قضية التطور، والتي نستطيع بها أن نرجع التطور والتغير المستمر في الماديات والمعنويات إلى أصول عربية قديمة، رأت التطور قانون الحياة في الأحياء والجمادات والأفكار.

* وأننا إذا شئنا أن نجنب أمتنا وحضارتها المرجوة مأساة ذلك الانفصام الذي تشهده الحضارة الأوروبية الغربية اليوم ما بين التقدم في تطبيقات العلوم «التكنولوجيا» وما بين التخلف، إن لم نقل الانحلال والانحطاط، في القيم الإنسانية، اللذين يفترسان أغلب قطاعاتها الفكرية والبشرية، إننا إذا شئنا أن نجنب أمتنا وحضارتها ذلك الخطر، وتلك المأساة وآثارها المدمرة، فلا بد من أن نلقي أشد الأضواء على صفحات تراثنا العربي الإسلامي التي تؤكد على ضرورة الربط ما بين الفكر والممارسة، والنظرية والتطبيق، والعقيدة والفعل، والإيمان والعمل، لأننا إذا استطعنا أن يكون تراثنا في هذا الباب منطلقاً لنا في هذا الطريق، كانت لنا إمكانيات النجاة مما يعاني منه الآخرون، مما يهدد روح حضارتهم وجوهريات إنسانهم بالتحلل والدمار.

***

وإذا كانت هذه الأمثلة كافية في التدليل على أن حقل تراثنا العربي الإسلامي، إنما توجد به، وفي الكثير من آثاره، ولدى بعض مدارسه الفكرية، الخلفيات الفكرية والمنطلقات الثقافية، والأرضيات الحضارية، التي نستطيع إن نحن بعثناها ودرسناها وقدمناها لجمهور مثقفينا، أن ندعم بها وننمي قيمنا المتقدمة التي تسعى أمتنا اليوم لاكتسابها وترسيخها في العقول والضمائر والقلوب، إذا كانت هذه الأمثلة كافية في التدليل على ذلك، ومن ثم مغنية

عن الاسترسال في إضافة المزيد، فإن الكلمة الضرورية الأخرى التي يستدعيها المقام، هي حول تلك الجوانب من تراثنا العربي الإسلامي التي تعادي القيم والأفكار والمبادىء التي أشرنا إليها، والتي تناصبها وتناصب أصحابها أشد العداء، بل والتي تراهم كفرة وزنادقة وملحدين قد تنكبوا طريق الفكر العربي الإسلامي الصحيح.

* ففي مقابل القسمات التي تمجد العقل في تراثنا الإسلامي، هناك «النصوصيون» الذين يقدسون ظاهر النص ويمنعون التأويل للنصوص التي تتعارض ظواهرها مع ثمار العقول، أو على الأقل يتحرجون من هذا التأويل فيقيدونه التقييد المخل والمقيد لطاقات العقول، كما أن هناك من ينكر «العلية» في الكون ونظامه وتطوره، وينفي فعل الأسباب للمسببات، كأثر من آثار التقليل من قيمة العقل وقدراته وقيمة ما يقدمه من معطيات.

* وفي مقابل الآثار الفكرية التي تؤكد حرية الإنسان واختياره، وخلقه لأعماله ومصيره، هناك الذين ينكرون كل ذلك، ولا يرون في الإنسان أكثر من أداة مجبرة على التنفيذ، وريشة معلقة في الهواء تلعب بها الريح ما شاءت لها التيارات والأنواء، أو الذين لا يرونه صانعاً وفاعلاً إلا على سبيل المجاز.

* وفي مقابل الأفكار التي خلفها لنا أهل «التوحيد»، والتي بلغت في ميدان «تنزيه» الخالق والمؤثر في هذا الكون درجة من الخصوصية والنقاء تشهد لعقولهم بالمقدرة ولعقيدتهم بالسمو ولأرواحهم ونفوسهم بالشفافية، نجد المجسمة والمشبهة الذين انحدروا إلى حضيض التشبيه والتجسيم.

* وفي مقابل الذين فسروا نصوص القرآن والحديث وتجربة المسلمين الأولى في الحكم والسياسة والاقتصاد تفسيراً متقدماً متطوراً، ومناصراً للمستضعفين في الأرض وجماهير الفقراء نجد الذين أغفلوا هذا الجانب، أو وضعوا طاقاتهم وإمكانياتهم في خدمة الظلمة والطغاة والمستبدين،

وبرروا لهم ما يفعلون ويقترفون ويجترمون.

* وفي مقابل الذين قدموا لنا فكراً ثورياً ومواقف ثورية في الصراع السياسي في تاريخنا العربي الإسلامي، نجد الذين دعوا إلى الاستكانة، وطاعة أئمة الجور والمتغلبين، وعطلوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحت مختلف الحجج والمعاذير.

* وفي مقابل الذين رأوا قدسية مبدأ الشورى والمساواة نجد الذين أعلوا من قدر الدم الذي يجري في عروق بعض السلالات، ودانوا بمبدأ العصمة للأئمة، وتعلقوا بأوهام كاذبة عن الأئمة الذين اختفوا في السحب ومعاقل الجبال والذين سيعودون يوماً ليملأوا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، وحظروا على نشاطهم العملي أن ينهض هو بعملية التغيير هذه، كما حظروا على عقولهم أن تفكر في تصرفات الإمام، فضلاً عن أن تسائل هذا الإمام.

* وفي مقابل الذين آمنوا بالمنهج العلمي في البحث، وربطوا بين الظواهر، ورصدوا التغيرات وعمليات التطور في هذه الظواهر، وقدموا لنا تراثاً علمياً خالداً، نجد الذين أنكروا حقائق العلم، أو غضوا من شأن هذه الحقائق، ووضعوا كل طاقاتهم في الرياضات الذاتية الفردية، واستبدلوا قوانين الكون وكليات العلم «بالذوق» و«الشهود» و«الإشراق» و«الحلول» و «الاتحاد»..

* وفي مقابل الذين آمنوا بالتطور، ورأوه قانوناً للحياة والأحياء، نجد الذين لم يعيروا هذا القانون الأزلي الأبدي اهتماماً مذكوراً، أو أنكروه كل الإنكار أو بعض الإنكار.

* وفي مقابل الذين ربطوا ما بين العلم والممارسة، والنظرية والتطبيق، والإيمان والعمل، نجد الذين فصلوا ما بين الاثنين، وقالوا إنه لا تضر مع الإيمان معصية، وحكموا بالجنة للعصاة الظالمين، فأورثوا أنفسهم، كما أورثونا، تخلفاً في العلم وتخلفاً في العمل، وضحالة في الفكر، ونفاقاً

استشرى في الحياة العملية لا زلنا نعاني منه حتى الآن.

* * *

وإذا كانت هذه الأمثلة التي قدمناها إنما تمثل أدلة موضوعية وبراهيناً لا تنقض على صدق هذه الحقيقة التي نتحدث عنها، وهي شمول تراثنا العربي الإسلامي وتنوعه واحتواؤه على ما هو متمايز من القيم والمبادىء والصياغات النظرية، بل وما هو متعارض ومتضاد من المناهج في التفكير والممارسة، فإن هناك دليلاً على هذه الحقيقة يستطيع أن يدركه الناس دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث المضني والجهد المثابر الطويل، ذلك أن الكثير من المدارس الفكرية في تراثنا العربي الإسلامي قد صارع بعضها البعض الآخر، بل وحكم بعضها بكفر البعض الآخر، بل وهناك الكثير من المفكرين الذين تضمهم المدرسة الواحدة، ويجمعهم الإطار المتحد للتيار الفكري الموحد، نجدهم يعارض بعضهم البعض الآخر، ويكفر أحدهم الآخر في موقف من المواقف أو رأي من الآراء.

فمع من سيقف أولئك الذين يحسبون أن كل ما هو تراث طيب وجيد وصالح ومفيد؟! وعلى أي تيار وأية مدرسة وأية نصوص سيلقون صفات التمجيد؟! ولأية قيم ومبادىء وقوانين سيمنحون «القدسية والتقديس»؟!.

إننا لسنا فقط الذين نضع أيديهم على هذه الحقيقة، ولسنا فقط الذين ندعو إلى تبنيها، بل إن مفكرينا الأوائل الذين أورثونا كنوز هذا التراث، يشيرون بما خلفوا من كنوز إلى هذه الحقيقة، ويدعون، قبلنا، وسيظلون يدعون، من بعدنا، إلى هذه الحقيقة، وهذا هو السبب في أنها، كما قدمنا، تكاد أن تكون بديهة من البديهيات.

الضروري.. هل هو كل التراث؟

أما الحقيقة الثانية، أو القضية الثانية التي نود أن نشير إليها في هذا التقديم، فهي أننا على الرغم من النتائج التي أثبتناها، والتي ندعو إليها، والتي تميز ما بين جوانب التراث العربي الإسلامي التي بإمكانها الإسهام في تقدمنا الحضاري وتطورنا الإنساني ونهضتنا العلمية والعملية، وما بين الجوانب الأخرى التي لا تساعد على هذا التقدم أو تعوق سيرنا في طريقه، إنه على الرغم من هذه الحقيقة، وإيماننا الشديد بها، إلا أننا نؤمن إيماناً لا يتزعزع بأننا لن نستطيع الاستفادة المرجوة من جوانب التراث المتقدمة إلا إذا بعثنا ونشرنا إلى جانبها جوانب التراث المتخلفة، ولن نفيد من الجانب العقلي والعلمي في تراثنا إلا إذا نشرنا إلى جواره ذلك الجانب الذي جاهد أصحابه للحد من سلطان العقل وصرف الناس عن المنهج العلمي في البحث والتفكير، ولن نستطيع تعميق مفاهيم الحرية الإنسانية، التي يحفل بها تراثنا في نفوس أمتنا، إلا إذا وضعنا بين يدي مفكريها ومثقفيها ما كتب، في تراثنا، عن «الجبر» المفروض على الإنسان والمحكوم به على الناس.

ذلك أنهم قد قالوا قديماً، وهم صادقون تماماً: «والشيء يظهر حسنه الضد». كما قالوا كذلك: «وبضدها تتميز الأشياء». ومعنى ذلك، بواسطة الأدلة المستمدة من واقع التراث الذي نتحدث عنه، أننا، مثلاً، لن نستطيع أن ندرك العظمة والسمو لفكر المعتزلة، مثلاً، عن «التوحيد» إلا إذا أدركنا مدى التخلف و«الحشو»[1]. الذي حفلت به آثار المجسمة والمشبهة وهم

(١) الحشو هو الحديث اللغو الذي لا يبلغ مستوى الموضوع الذي يساق فيه، و «أهل الحشو» تعبير ـ

يتحدثون عن الخالق سبحانه وتعالى، وإلا فكيف ندرك ذلك العمق والسمو اللذين تتحلى بهما أفكار المعتزلة في هذا الباب، والمصاغة في كثير من الكتب والرسائل والنصوص، والتي نختار منها ذلك النص الوارد في إحدى الرسائل التي نقدم بين يديها، والذي يقول صاحبه فيه:

«إن سأل سائل مسترشد، أو قال متعنت قال[1]، أو ملحد: ماذا يعبد الخلق؟

قيل له: يعبدون الخالق الذي فطرهم وصورهم وابتدعهم وأوجدهم.

فإن قال: وأين معبودهم؟ أفي الأرض؟ أم في السماء؟ أم فيما بينهما من الأشياء؟

قيل له: بل هو فيهما، وفيما بينهما، وفوق السماء السابعة العليا ووراء الأرض السابعة السفلى، لا تحيط به أقطار السماوات والأرضين، وهو المحيط بهن وبما فيهن من المخلوقين، فكينونته فيهن ككينونته في غيرهن مما فوقهن وتحتهن، ككينونته قبل إيجاد ما أوجد من سماواته وأرضه، فهو الأول الموجود من قبل كل موجود، والمكوِّن غير مكوَّن، والخالق غير مخلوق، والقديم الأزلي الذي لا غاية له ولا نهاية، الذي لم يحدث بعد عدم ولم تكن لأزليته غاية في العدم، البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، المتقدس عن القضاء بالفساد، والصادق الوعد والوعيد، المحتج بالبراهين النيرة على العبيد، الداني في علوه، والعالي في دنوه، فاطر السماوات والأرضين، وهو الموجد لأولهن، والمبيد آخراً لما أوجد منهن، والمبدل بهن في يوم الدين غيرهن.

فإن قال: فما معنى كينونته فيهن وفي غيرهن مما بينهن؟ ألِعظم جسم

- أطلقه المعتزلة على خصومهم الذين تكلموا في العلوم الإلهية دون أن تؤهلهم علومهم وعقولهم للبحث في هذا الميدان.

(١) أي كاره مبغض.

أحاط بهن، وكان كذلك فيهن؟ أم لسرعة تحول وانتقال منهن إلى غيرهن ومن غيرهن إليهن؟

قيل له: ليس إلهنا، سبحانه، كذلك، ولا يقال فيه بذلك، وهو: سبحانه، متعال عن الانتقال، متقدس عن الزوال، وعن التصور في صور الأجسام، تعالى عن ذلك ذو الجلال والإكرام، ولكن معنى قولنا: إنه فيهن، هو أنه مدبر لهن، قاهر لكل ما فيهن، مالك لأمرهن ولأمر ما بينهن وما تحتهن وما فوقهن، لأنه مسخر لهن، لا داخل كدخول الأشياء فيهن»[1].

كيف نستطيع أن ندرك خصوبة هذا الفكر وقدرته على التجريد والتنزيه بصدد هذه القضية الهامة من قضايا العقيدة، إذا لم ندرك مدى الضحالة والبدائية التي يمثلها فكر المجسمة والمشبهة عندما «يزعمون أن معبودهم جسم وله نهاية وحد، طويل، عريض، عميق، طوله مثل عرضه مثل عمقه، لا يوفي بعضه على بعض[2] أو أنه «كالبلورة» أو «كالسبيكة» أو «أنه بشبر نفسه سبعة أشبار»[3].

وهل نستطيع أن نبعث تراث ثورة الزنج مثلاً (سنة ٢٤٩ هـ سنة ٨٧٣ م) ونقدم صورة حقيقية ومتكاملة عن قائدها «علي بن محمد»، دون أن نبعث التراث الذي يصور الجبهة الأخرى التي ثار عليها علي بن محمد وخاض ضدها المعارك، وهي جبهة النظام العباسي الذي كان يحكم يومئذ في بغداد؟، وهل نستطيع أن نقدم لأدبائنا وفنانينا مادة تاريخية واجتماعية وإنسانية عن هذه الثورة تتيح لهم أن يقدموا منها مثل ما قدم الكاتب الأمريكي «هوارد فاست»، مثلاً، عن ثورة العبيد بقيادة «اسبارتاكوس» دون أن يكون بين يدي

(١) اللوحات ٢٧، ٢٨ من رسالة: (الرد على أهل الزيغ من المشبهين) للإمام يحيى بن الحسين. مصورة. دار الكتب المصرية (٢٩٠٧٠ ب).

(٢) (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) لأبي الحسن الأشعري جـ ١ ص ٣١. تحقيق هـ. ريتر. ط استانبول سنة ١٩٢٩ م.

(٣) المصدر السابق. جـ ١ ص ٣٣.

هؤلاء الأدباء والفنانين كل النصوص التي تصور جميع هذه الأحداث والقيم والصراعات، المتقدم منها والمتخلف، المناصر منها للمجموع والمعادي لقضية تقدم الإنسان؟[1].

وقس على ذلك كل ما أشرنا إليه من رؤوس القضايا الفكرية الكبرى التي حفل تراثنا بأكثر من وجهة نظر بصددها، فنحن إذا شئنا الفهم العميق لوجهة النظر المتقدمة والمفيدة لنا في تطورنا الحضاري، لا بد لنا من دراسة النقيض، والتي جاءت وجهة النظر المتقدمة هذه كثمرة للصراع الفكري ضده، لأن وجهتي النظر هاتين هما وجها عملة واحدة، هي الحياة الفكرية التي أثمرتها حياة هؤلاء المفكرين الكبار، والتي هي «التراث» الذي نتحدث عن إحيائه ونشره الآن.

أي أن حركة البعث والاحياء والنشر لهذا التراث يجب أن تتناول مختلف جوانبه وأهمها، ومختلف مدارسه، ومختلف عصوره كذلك، فقط يجب علينا أن نيسر للجوانب المتقدمة من هذا التراث سبل الوصول إلى جمهور أوسع من المثقفين والقراء، بينما لا يضيرنا أن تكون نصوصه الأخرى مقصورة على دوائر الباحثين والدارسين والراغبين، مع مراعاة الاهتمام بالجانب المتقدم عندما تفرض علينا الامكانيات إنجاز بعض ما نريد إنجازه، لا كل ما نريد... وكل ذلك لن يتحقق إلا إذا كان هناك وعي حقيقي يفرض سيطرته على عمليات التخطيط والتحقيق والنشر والدراسة الخاصة بهذا الموضوع.

---

(١) محمد عمارة (فجر اليقظة القومية) ص ٨٧ - ٨٩. ط القاهرة سنة ١٩٦٧ م.

أبرز معالم التراث

وأنا أعتقد أن هذه النتيجة التي انتهينا إليها في السطور الأخيرة السابقة، لا بد لها من إيضاح، إذا نحن شئنا البعد عن التعمية والتعميم اللذين هما من أكثر العيوب شيوعاً فيما يكتب عن هذه القضية من قضايا إحياء التراث، ذلك أن تعداد المخطوطات العربية الإسلامية التي لم تنشر حتى الآن، والمبعثرة في مختلف مكتبات العالم، المنظم منها وغير المنظم، المعروف لنا منها والمجهول لنا، تبلغ الملايين عدداً، فإذا كان إحياء التراث والاستفادة منه، إنما هو مرهون بإحياء مختلف جوانبه وكل ألوانه، وهو ما نعتقده وما قدمنا الحديث عنه، فهل معنى ذلك أننا لن نستفيد الاستفادة المرجوة من هذا الأمر إلا بعد نشر كل هذه المخطوطات والاستفادة من مادتها الفكرية؟؟ .. وإذا كان الأمر كذلك، فلعلنا سيطول بنا العهد، وتتطاول علينا الحقب والقرون قبل أن نبلغ هذا اليوم الذي نجد فيه آثار الأولين الفكرية في مكتبة المطبوعات، ومن يدري يومها ماذا سيكون عليه موقف الكتاب المطبوع إلى جانب الكلمة المسموعة والمرئية إلى غير ذلك من الاحتمالات والآفاق التي لا حدود لمنجزات العلم والمعرفة بصددها.

إذاً، فما هو على وجه التحديد القدر الذي يمكن بتحقيقه، في ميدان إحياء التراث ونشره، نستطيع أن نستفيد الاستفادة الضرورية، إن لم تكن الكاملة، من كنوز هذا التراث؟؟ .. إننا نحدد هذا القدر باستطاعتنا إنجاز عدة أهداف ومهام، أهمها:

١ ـ أن نصل إلى القدر الذي نستطيع أن نقول عنده: إن الأعمال

الفكرية الأساسية المعبرة تعبيراً كافياً عن القسمات الأساسية للتيارات الفكرية والمدارس التي حفل بها تراثنا، قد حققت ونشرت وأصبحت بين أيدي المفكرين والباحثين والقراء.

ذلك أننا نستطيع أن نجد فكر الأشاعرة[1] وأصحاب الأثر[2] والحديث بكثرة، محمودة، في القاهرة مثلاً، كما نستطيع أن نجد فكر الشيعة الإمامية[3] في النجف الأشرف بالعراق وفي طهران، كما نستطيع كذلك أن نجد فكر الشيعة، وخاصة الإسماعيلية[4] في الهند وباكستان، وليس السر وراء ذلك هو التخطيط، الذي نراه ضرورياً لإحياء التراث ودراسته ونشره، وإنما هو سيادة هذه المذاهب والاعتقادات في جمهور هذه المناطق الإسلامية وعلمائها، وما نريده هو شيء آخر، هو إحياء هذا التراث، لا من موقع التعصب لمذهب أو فرقة أو عقيدة، وإنما من موقع الإدراك لأهمية إحيائه

(١) أتباع أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ سنة ٩٣٥ م، وهم القائلون في أفعال الإنسان بالكسب، وهو موقف وسط بين الجبر الخالص وبين الاختيار، ويسمون المجبرة المتوسطة، ولقد كان الأشعري معتزلياً ثم رجع عن الإعتزال، ومن مؤلفاته غير مقالات الإسلاميين، اللمع، والموجز، والبرهان، والتبيين عن أصول الدين، والشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل. راجع (الفهرست) لابن النديم. ص ١٨١. ط ليزج سنة ١٨٧١ م.

(٢) وهم مدرسة أهل الظاهر، ومن أبرز رجالاتهم الإمام أحمد بن حنبل، وابن حزم، وابن تيمية.

(٣) ويلقبون كذلك بالاثني عشرية لوقوف سلسلة أئمتهم عند الإمام الثاني عشر محمد المنتظر «المهدي»، الذي إختفى سنة ٢٦٥ هـ سنة ٨٧٨م، ولقد انتشرت الفرقة في إيران بعد سنة ١٥٠٢م بفعل الدولة الصفوية التي ادعت انتسابها الى الإمام السابع موسى الكاظم سنة ١٨٣ هـ سنة ٧٩٩م، وهذه الفرقة من أهم فرق الشيعة من حيث النفوذ والانتشار. راجع: (فرق الشيعة) لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي. ط النجف سنة ١٩٥٩م و (تاريخ العرب) «مطول» لفيليب حتي، وآخرين. جـ ٢ ص ٥٢٩. الطبعة الثانية. بيروت سنة ١٩٥٣م.

(٤) وهم إحدى فرق الشيعة الإمامية، فلقد وافقوهم في تسلسل الإمامة حتى جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ سنة ٧٦٥م، ثم جعلوا الإمام ابنه إسماعيل سنة ١٤٣ هـ سنة ٧٦٠م، بينما الاثني عشرية جعلته ابنه موسى الكاظم. ولقد تأثرت الإسماعيلية كثيراً بالأفلاطونية المحدثة، والأفكار «الغنوصية» التي تهدف الى ادراك كنه الأسرار الربانية، والتي كانت منتشرة في فارس وشمال العراق منذ ما قبل الاسلام. راجع (تاريخ العرب) جـ ٢ ص ٥٣٢، و (المعجم الفلسفي) للأساتذة: يوسف كرم، ود: مراد وهبة، ويوسف شلالة. ط القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

باعتباره الخلفية الفكرية لأمة نريد لها أن تنهض، أمة يجب أن يدرك مفكروها أن فروق الأمس التي باعدت ما بين الناس ليست هي الفروق التي تباعد أو تقارب ما بين الإنسان المعاصر وأخيه الإنسان، موقع المدرك أن في الكثير من هذا التراث، والذي تتوزعه آثار الفرق المختلفة والمذاهب المتعددة، ما لو أحسن إحياؤه وتقديمه والاستفادة منه، لأمكنه أن يتحول إلى زاد يبلور للأمة شخصيتها المتحدة والمتميزة، بدلاً من أن يستخدم، مع الأسف، في إذكاء الخلافات التي تخطاها التطور وعفى عليها الدهر منذ قرون.

وإذا كانت أفكار الأشاعرة، وكذلك أفكار الشيعة، وخاصة الإمامية والإسماعيلية، قد وجدت من يحييها هذا اللون من الإحياء، الذي لا يكفي، رغم أهميته العظمى، في تحقيق ما نريد، فإن هناك تيارات فكرية ومدارس عربية إسلامية، لا أمل في الاستفادة المرجوة من تراثنا إذا لم تقدم مقالاتها وأعمالها الفكرية للمفكرين والباحثين والقراء، وهي لا تزال حتى اليوم، في الأغلب الأعم، حبيسة المخطوطات، مبعثرة في مختلف المكتبات.

فالمعتزلة، أهل العدل والتوحيد، مثلاً، وهم أكثر المدارس الفكرية تعبيراً عن أصالة الشخصية العربية الإسلامية، والذين استخدموا المنهج العقلي في البحث، دون أن يكونوا أسرى للفكر اليوناني، ودون أن ينفصلوا عن قضايا العقيدة التي كانت تزخر بها المجتمعات العربية الإسلامية في عصورهم، والذين كانوا رجال فكر وسياسة وثورات وعلم وهندسة وزهد، هذه المدرسة لا تزال آثارها الكبرى حبيسة المخطوطات موزعة في مختلف المكتبات، والكثير مما طبع من هذه الآثار لم يلق العناية الكافية في التحقيق والدرس والتقديم، ولم تثر حول نصوصه المناقشات الضرورية واللازمة للاستفادة من هذه النصوص، وذلك على الرغم من قلة هذه النصوص التي بقيت لأهل الاعتزال، حيث إن الجانب الأكبر من آثارهم قد أبيد بفعل أعدائهم منذ قرون.

والخـوارج، بفرقهم المختلفـة، والذين يمثلون قسمـة من أهم قسمـات الفكر العربي الإسلامي، لا زلنا نقرأ في كل بحث أو مقال يعرض لهم أو يشير لأحدهم، إن ندرة المراجع عنهم إنما تحول دون إنصافهم، وأننا نأخذ آراءهم وأخبارهم من مؤلفات أعدائهم ومناهضيهم، يحدث هذا ونقـرأه بينما عشـرات المكتبات في مختلف بلاد العالم، تحفل بالعديد من الآثار الفكرية التي كتبها علمـاؤهم، والتي فيها، رغم قلتهـا النسبية، الكثيـر عن «مقـالاتهم» و«فقههم» وقسماتهم الفكرية المميزة لهم عن باقي المدارس والتيارات.

فلا بد إذاً من أن نوجد التخطيط والتنفيذ، اللذين بهما نستطيع الوصـول إلى تحقيق هذا الهدف، هدف وجود الآثار الفكرية المعبرة بصدق وأمانة ووفاء وموضوعية عن المدارس الفكرية المتعددة في تراثنا، من الشيعة، والأشـاعرة، والنصـوصيين أهـل الأثـر والحـديث، والمعتـزلـة، والخـوارج، مـع الاهتمـام بالقسمات التفصيلية والفرعية التي توجد داخل كل مدرسة من هذه المدارس، والتي يقدم وجودها وازدهارها وتميزها دليل خصوبة لفكرنا العـربي الإسلامي، وبرهان حيوية لهذا الفكر، وشاهداً مادياً على أثـر الحريـة الفكريـة التي طبقها هؤلاء الأسلاف الأعلام، والتي هي جديرة بالاحتذاء والاقتداء.

٢ ـ أن نسعى جـاهدين لتحقيق الهـدف الثاني، وهـو الخاص بـوجـوب وجود «الأعمال الكاملة» لمجموعة من مفكرينا الكبار الـذين حفل بهم تـاريخنا الفكري وازدان بهم ميدان التراث.

وموضوع تحقيق «الأعمـال الكاملة» لمفكـر من المفكرين ونشـرها، هـو أمر يجب أن لا يخضع، كمـا هو حـادث في أغلب أعمالنـا في إحياء التـراث للصدفة أو الاهتمـام الفردي أو الميـل المذهبي أو مـا ماثـل ذلك من الـدوافع والأسبـاب، وفي تقديـرنا أن هنـاك عـاملين يجب أن يحكمـا عمليـة الاختيـار والأولوية في هذا الميدان:

(١) فهناك على درب تطورنا الفكري والثقافي مفكرون قد تفردوا ببـريق

أكثر ولمعان أشد، وعمق وتنوع في البحث والتفكير، بحيث نستطيع أن نقول إن تقديمنا للأعمال الكاملة بالنسبة لأحدهم إنما يعد تقديماً لأهم قسمة فكرية للعصر الذي عاش فيه، فنحن إذا قدمنا مثلاً «الأعمال الكاملة» للإمام أبي حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٩ ـ ١١١٢ م) استطعنا أن نجسد في مجموعة من المجلدات المطبوعة ظاهرة فكرية ذات جوانب خصبة ومتعددة، في الفلسفة، والتصوف، والتعليم، والأخلاق، والسياسة، والوعظ والإرشاد.. الخ.. الخ. فإذا ما كانت الدراسة التي تقدم بها هذه «الأعمال» جادة وعميقة، وعلى هدى من قواعد المنهج العلمي في الترجمة والبحث، استطعنا أن نعرف القارىء الحديث بوجهات نظر الغزالي، ونجعله يتتبع مسار تفكيره إزاء القضايا الأساسية التي عرض لها: موقفه من العقل، مثلاً، وكيف مجده حيناً، وغض من شأنه حيناً آخر، ولماذا حدث ذلك؟ وما هو مسار الخط البياني لهذا الموقف من هذه القضية؟ وموقفه من التصوف، ومن فكر الباطنية، وما هي المؤثرات التي تأثر بها في هذا المقام؟ ماذا أخذ من فكرهم، وماذا فرضت عليه السياسة والظروف أن يقول؟ وموقفه من الفلسفة والفلاسفة، ماذا استفاد من معطياتها وأخذ من أساليبهم، وماذا رفض؟ وما هي مؤثرات البيئة، والمكونات الذاتية للمفكر، والظروف؟

لأننا إن فعلنا ذلك في ميدان نشر «الأعمال الكاملة» لأبرز مفكرينا، استطعنا أن نقدم تجسيداً حياً وملموس لعصور متعددة من حياتنا الفكرية، وأعمالاً كاملة تبلور مختلف المدارس والتيارات الفكرية التي حفل بها تراثنا العربي الإسلامي، وخاصة للمفكرين ذوي التأثير الهام في حياة هذا الفكر وهذا التراث.

(ب) وهناك على درب تطورنا الفكري والثقافي مفكرون أعلام قد اختلف الناس من حولهم ومن حول أفكارهم، وتصوروها كل حسب مجموعة النصوص التي عثر عليها، أو التي وجدها موافقة لما يراه، ومن ثم فلقد قدم هؤلاء الأعلام، بصدد مجموعة من القضايا، بصور مختلفة ومتباينة، بل وأحياناً متناقضة ومتعارضة، وليس كالنشر لأعمالهم الكاملة والتبويب الموضوعي والتاريخي،

معاً، لهذه الأعمال، سبيلاً أميناً لجلاء الحقيقة حول موقفهم من هذه القضايا والأمور.

وفي «الأعمال الكاملة» لجمال الدين الأفغاني، والدراسة التي قدمناها بين يديها، نموذج لهذه المشكلة التي نتحدث عنها، فلقد عالجنا فيها قضية الاختلاف المثار حول موقف الأفغاني من قضية القوميات وعلاقاتها بالروابط الملية والجامعة الاسلامية، وقضية العروبة والقومية العربية بالذات[1]، وكذلك موقفه من قضية التطور وفكرة النشوء والارتقاء[2] وأيضاً موقفه الاجتماعي، وهل هو نصير للاقتصاد الحر والفكر الرأسمالي على وجه التحديد؟ أم أنه داعية للفكر الاشتراكي، وقائل بحتمية سيادته جميع أرجاء العالم في يوم من الأيام؟[3]

ونحن نعتقد أن سلوك هذا السبيل هو أولى السبل بالاتباع ونحن نحقق وننشر ونحيي «الأعمال الكاملة» لهؤلاء الأعلام المتميزين في ميدان التراث، سواء القديم منه أو الحديث.

٣ ـ أن نسعى جاهدين إلى أن تضم مكتبة مطبوعاتنا قدراً كبيراً من كتب التراث التي نؤلف نحن بينها، بعد أن ألف أصحابها لبناتها المتفرقة وجزئياتها الصغرى، ذلك أن هناك الكثير من الرسائل الصغيرة، والمقالات المتناثرة، والأجوبة على أسئلة، والخطب والأحاديث والأمالي، التي تتناول موضوعات هامة وحيوية جداً في فكرنا العربي الإسلامي، ونحن نجد الأغلبية الساحقة من المتخصصين في تحقيق التراث ونشره يحجمون عن الاهتمام بهذه الرسائل، بينما نحن نستطيع إذا وعينا أهمية التجميع والتأليف فيما بينها على أساس موضوعي، أن نقدم مجموعة من المراجع والمصادر الممهد لها بالدراسات اللازمة والضرورية، تسد الكثير من الثغرات الموجودة في مكتبة تراثنا العربي الإسلامي القديم.

---

(١) راجع (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، مع دراسة عن حياته واثاره) ص ٢٨ ـ ٨٠ دراسة وتقديم محمد عمارة. ط القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٢) المصدر السابق. ص ١٠٦ ـ ١٠٩.

(٣) المصدر السابق. ص ٨١ ـ ٩٨.

وما هذه الرسائل التي اخترناها في «العدل والتوحيد»، والتي نقدم الآن بين يديها إلا نموذج تطبيقي لهذه الفكرة التي نتحدث عنها الآن.

فنحن نجد الكثير من الدارسين والباحثين، ومن بينهم عدد من المستشرقين، يقفون أمام موضوع الحرية الإنسانية، وموقف الإنسان العربي المسلم منها، واحتفال التراث العربي الإسلامي بها، موقف المقلل من شأن هذا الموضوع في تراثنا، والباخس لأعلامنا ومفكرينا قدرهم في الاهتمام بهذا الموضوع[1].

ونحن لا نستطيع أن نتهم كل الذين يقفون هذا الموقف الظالم، من تراثنا، إزاء هذه القضية، بأنهم مغرضون ومنكرون للحقيقة «الساطعة سطوع الشمس»، كما لا نستطيع أن نرد جميع الأسباب التي تقف خلف موقفهم هذا، وتصنع أحكامهم هذه، إلى ذلك الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون منهم، عندما لم يدركوا أن التعبير بمصطلح «الاختيار» كان هو التعبير السائد في الحديث، والبديل لمصطلح «الحرية»، كما أن كلمة «الجبر» كانت هي المصطلح الذي ساد في الاستعمال، طوال عصور ازدهار حضارتنا العربية الإسلامية، بدلاً من اصطلاح

---

(١) مونتجمري وات (الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام). الفصل السابع ص ٥٨ - ٧١ الطبعة الانجليزية. أدنبرة سنة ١٩٦٢م. وذلك حيث يقول إن المعتزلة «لم يكونوا مفكرين احراراً بل كانوا مسلمين حقيقيين. وبالرغم من أنهم مارسوا التأمل النظري في بعض المسائل، فلم يكونوا متحررين بمعنى الكلمة في نظرتهم، إنهم كانوا مدافعين متحمسين عن الاسلام ضد أصحاب الأديان الأخرى، كما كانوا مستغرقين بالسياسة».

وهو هنا يخلط ما بين الحرية وعدم الالتزام.

كما يقول «فرانز روزنتال» في (المفهوم الاسلامي للحرية، قبل القرن التاسع عشر) (ص ١٦. ط ليدن الانجليزية سنة ١٩٦٠م) إنه لم يحدث في الاسلام إطلاقاً أن عقدت صلة بين «الاختيار» (كمشكلة كلامية) و«الحرية» بوجه عام، وكذلك لم يعتبر «الاختيار» جانباً من جوانب الحرية، بل ظل مصطلحاً محدوداً، بل وجرد من قوته الكامنة، وذلك بالاتجاه الذي اتخذه علماء الكلام المسلمون حول مشكلة حرية الارادة، فقد قصرت حرية الارادة الإنسانية، في الغالب، على القدرة على الاختيار بالنسبة لمواقف فردية.

«الاستبداد»[1]، ولكننا نتعدى ذلك ونلتمس لكثير منهم العذر، لأن الكثير من المقالات والرسائل التي عالجت موضوع «الاختيار» إما أنها بعيدة عن متناول أيديهم، أو مبعثرة في ثنايا المؤلفات الكبيرة وبين صفحاتها وفصولها، مما يجعل جمعها، ومن ثم إقامة بنيان فكري يبلور نظرتنا العربية الإسلامية لهذا الموضوع، هو أمر صعب، وفوق طاقة الباحث الذي يريد التعليق على موقف تراثنا من هذه القضية، او الإشارة إلى ذلك في ثنايا بحث من الأبحاث.

والذين يقرأون الموسوعة الفكرية الغنية والهامة التي خلفها لنا قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م)، والتي أسماها «المغني في أبواب التوحيد والعدل» لا شك يدركون صعوبة تجميع بناء فكري قائم بذاته حول هذا الموضوع من ثنايا كتاب واحد، فما بالنا بالكتب العديدة التي تناثرت بين فصولها وصفحاتها أجزاء هذا الموضوع؟!

ومن هنا كانت الأهمية الكبرى لتجميع الرسائل والمقالات التي تتعلق بموضوع واحد، لدى مفكرين من مدرسة فكرية واحدة، وتقديمه كأثر فكري يخدم هذا الموضوع، ومصدر للباحث والدارس والمفكر، والقارىء الحديث بوجه عام.

فإذا ما أصبحت لدينا، وفي مكتبة مطبوعاتنا، المعالم البارزة للمدارس

---

(١) وفي (لسان البلاغة) للزمخشري أن الجبار هو الملك، وما كانت نبوة إلا تناسخها ملك جبرية، أي إلا تجبر الملوك بعدها، وفي الحديث الشريف: «هون عليك، فما أنا بملك ولا جبار». وفي خطبة الإمام علي بن أبي طالب، وهو يدعو لقتال معاوية: «سيروا الى القاسطين... سيروا الى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين، يتخذهم الناس أرباباً، ويتخذون عباد الله خولاً، وما لهم دولاً». وفي معاوية، أيضاً، تقول «هند بنت زيد» الانصارية، عندما قتل «حجر بن عدي» ظلماً:

تجبرت الجبابر بعد حجر ... وطاب لها الخورنق والسدير

ويقول شاعر الخوارج في هرب «ابن زياد» من قتالهم، الى الشام:

يا رب جبار شديد كلبه ... قد صار فينا تاجه وسلبه

والصلة هنا واضحة بين «الجبر» و «الاستبداد» في السياسة، وشئون الحكم بوجه عام، وذلك يعطي مصطلح «الاختيار» كل أبعاد مصطلح «الحرية» بإطاراتها التي عرفت في تلك الظروف. راجع كذلك: (النظريات السياسية الاسلامية) للدكتور محمد ضياء الدين الريس. ص ١٠١، ١٠٢ الطبعة الثالثة. القاهرة سنة ١٩٦٠م.

الفكرية المختلفة والمتعددة التي شهدها تراثنا العربي الإسلامي، وكذلك «الأعمال الكاملة» لأبرز أعلام هذه المدارس الفكرية، وأيضاً المراجع التي تضم بين جنباتها كل، أو أهم، ما يتعلق بموضوع بعينه، من الرسائل والمقالات والفصول، فإننا نكون بذلك قد أنجزنا شيئاً هاماً وضرورياً في ميدان إحياء تراثنا العربي الإسلامي ونشره، وحققنا إقامة القاعدة الأساسية التي تجعل استفادة هذه الأمة، حاضراً ومستقبلاً، من كنوز هذا التراث أمراً ممكن التحقيق، بل مؤكد الحدوث.

ونحن نعتقد أنه ببلوغنا هذا القدر من صفحات هذا التقديم، نكون قد أشرنا إلى ما نود الإشارة إليه مما يتعلق بقضية إحياء تراثنا العربي الإسلامي ونشره على النحو الذي نعتقده محققاً لما نرجوه من المنفعة العامة من وراء هذا الموضوع.

كما نعتقد بضرورة إلقاء بعض الضوء على موضوع هذه الرسائل التي نقدم بين يديها هذا الحديث.

منهج الرسائل
وصلته بأصالة التراث

وأول ضوء نريد إلقاءه على هذه الرسائل، مستخرج من داخلها، ومتعلق بالمنهج الذي سلكته في التدليل على ما عرضت له من قضايا ومعضلات، ذلك أن هذا المنهج الذي استخدمته هذه الرسائل إنما يقدم لنا دليلاً مادياً على أصالة هذا الفكر في تراثنا العربي الإسلامي، وسبق التأليف فيه للمرحلة التي ترجمت فيها اليونانيات الفلسفية إلى اللغة العربية.

وأهمية الاستدلال على هذه الأصالة من خلال هذا المنهج، أنه يضعنا أمام دليل لا يقبل الجدل ولا التشكيك حول تاريخ ترجمة هذا الكتاب أو ذاك، ولا تأثر هذا المفكر بهذه الثقافة الوافدة أو عدم تأثره بها، ولا الاعتراف بأثر المراكز الحضارية والثقافية الهلينية، التي شهدها الشرق قبل الإسلام، أو عدم الاعتراف بما كان لهذه المراكز من آثار وإشعاعات. نقول إن أهمية الإشارة إلى هذا المنهج، بالدرجة الأولى، أنه يضع يدنا على أن منهج هذه الرسائل إنما كان وثيق الصلة إلى أبعد الحدود بالقرآن الكريم، وأسلوب العرب الأولين في الاستدلال، فإذا أضيف إلى ذلك الأسلوب العربي البسيط الواضح والمبين الذي صيغت به هذه الرسائل[1] أدركنا مدى جدية دعوانا حول أصالة هذا التراث الخاص بالحرية الإنسانية في تراث العرب المسلمين..

ونحن نستطيع أن نتتبع ونبلور مجموعة من العناصر التي تكون لنا هيكل هذا المنهج.. وفي مقدمتها:

---

(١) ونحن إذا قارنا مثلاً رسائل: الحسن البصري والقاسم الرسي ويحيى بن الحسين برسالة (المختصر في أصول الدين) للقاضي عبد الجبار وضح لنا بجلاء كيف كان يكتب الأولون قبل ترجمة اليونانيات وتمثلها، وكيف كتب القاضي عبد الجبار بعد تحصيل فلسفة اليونان.

(١) الاعتماد على الحجج القرآنية:

فعلى الرغم من أن أهل العدل والتوحيد قد امتازوا جميعاً، وتميزوا عن غيرهم بإحلال العقل وحججه ومعطياته مكاناً عالياً، بالقياس إلى النقل والسماع وأدلته، إلا أننا نجدهم ـ خلافاً للفلاسفة المسلمين الذين حذوا حذو فلاسفة اليونان ـ لا يقيمون تعارضاً بين حجج العقل وحجج القرآن بل يقدمون قضاياهم، وبالذات في هذه الرسائل، كثمرات للحجج التي أتى بها القرآن الكريم، وهو الأمر الذي يجعل هذا الفكر وثيق الصلة بفكر العرب المسلمين ودينهم، وحضارتهم وبيئتهم، ومن ثم يقوم شاهداً على الأصالة التي نذلل عليها هنا.

حقيقة، هم يقدمون العقل على النقل، ولكنه التقديم الذي لا يلغي النقل ولا يغض من شأنه، وإنما التقديم الذي يدل على وجوب تأويل ظاهر النص بما يتفق مع معطيات العقل وحججه، وأيضاً التقديم النابع من تقدم «موضوع» الحجة العقلية على «موضوع» الحجة النقلية، فهم قد اعتبروا أن هناك «ثلاث حجج احتج بها المعبود على العباد، وهي العقل، والكتاب، والرسول. . فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود، وجاءت حجة الكتاب بمعرفة التعبد، وجاءت حجة الرسول بمعرفة العبادة. والعقل أصل الحجتين الأخيرتين، لأنهما عرفا به ولم يعرف بهما. . ثم للإجماع بعد ذلك حجة رابعة مشتملة على جميع الحجج الثلاث وعائدة إليها»[١].

ولذلك كانت هذه الحجج الثلاث متآزرة في البلوغ بالإنسان إلى درجة اليقين، كل في موضوعها الذي خلقت وجعلت للوصول بالإنسان إلى معرفته، لأنهما جميعاً مخلوقة للمعبود، فهي «حجج الله على الخلق، يؤكد بعضها بعضاً، ويشهد ناطقها من القرآن لمستحى[٢] مركبها في الإنسان، ويشهد عقل الإنسان لنواطق حجج القرآن، وكذلك ما نطق به الرسول يشهد له القرآن والعقول»[٣].

---

(١) انظر: الإمام القاسم الرسي (كتاب أصول العدل والتوحيد).

(٢) مستتر.

(٣) الإمام يحيى بن الحسين (الرد على أهل الزيغ من المشبهين). انظره في «الجزء الثاني من هذا الكتاب».

ونحن نجد في هذه الرسائل عشرات من المواضع التي يمكن الإشارة إليها كمواطن استدلال على هذه الجزئية من جزئيات هذا المنهج الذي يزاوج ما بين المعقول والمنقول، ويفسر النصوص القرآنية بمقاييس العقل ومعاييره، وكمثال على ذلك نشير إلى حديث الإمام يحيى بن الحسين الذي يناقش فيه قضية «اختيار الرسل وحريتهم» في التبليغ عن ربهم الوحي والرسالات، فالمجبرة يرون أن الرسل مجبرون على التبليغ، لأنهم مأمورون به: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾[1] ومن ثم فلا فكاك لهم من هذا التبليغ.. بل هم يشككون في صدق التبليغ، وفي وفائهم بالتكليف في حالة ما إذا أثبتنا لهم الاختيار في هذا الباب.. ولكن الإمام يحيى يناقشهم فيقول: «إن الله، سبحانه، لم يكلفهم أداء الرسالة، حتى أوجد فيهم ما يحتاجون إليه من الاستطاعة، ثم أمرهم بعد، ونهاهم، وكلفهم من أداء الوحي ما كلفهم، فبلغوا عنه ما به أمرهم على اختيار منهم لذلك وإيثار منهم لطاعته وحياطة لمرضاته، لم يكن منه جبر لهم على أدائه ولا إدخال لهم قسراً في تبليغه، بل أمرهم بالتبليغ فبلغوا، وحثهم على الصبر فصبروا، فقال سبحانه: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾. فقال: ﴿بلغ ما أنزل إليك﴾، ولو لم يكن التبليغ منه صلى الله عليه وآله، باستطاعة وتخير، لم يقل: (بلغ)، إذ الأمر لمن لا يقدر أن يفعل فعلاً حتى يُدخَل فيه إدخالاً ويقلَّب فيه تقليباً محال، لأن الفاعل هو المدخِل لا المدخَل والمقلِّب لا المقلَّب، فلم يأمر الله عز وجل أحداً بأمر إلا وهو يعلم أنه يقدر على ضده، فحثه بأمره على طاعته ونهاه عن معصيته، ألا تسمع كيف يقول: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾[2]؛ فأمره باحتذاء ما فعل من هو قبله من الرسل من الصبر على الأذى والتكذيب والشتم والترهيب، ولو كان الله سبحانه هو المدخِل لهم في الصبر إدخالاً، ولم يكن منهم له افتعالاً لقال: صبرناك كما صبرناهم، ولم يقل: اصبر كما صبر أولوا العزم من

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

الرسل. وكيف يأمر ذو الحكمة والفضل مأموراً بما يعلم أنه لا يفعله من الفعل؟!»[1].

فهو هنا يفسر حجج القرآن وأسلوبه في الأمر على ضوء من حجج العقل الذي ينكر أن يؤمر بالفعل من لا يستطيع الدخول فيه بنفسه دونما جبر أو إكراه.

بل إننا نلحظ كذلك عنصر «الكم» في اهتمام هذا المنهج بالحجج القرآنية عندما تطالعنا في كل صفحات هذه الرسائل، تقريباً، آيات القرآن الكريم، ونحن مثلاً إذا تصفحنا رسالة (الرد على المجبرة القدرية) نجد الإمام يحيى قد أورد للمجبرة إحدى عشرة شبهة ساقوا فيها أربع عشرة آية قرآنية، توهموا أن لهم فيها أدلة على ما يزعمون، ولكنه تتبع هذه الآيات ففسرها بما يوافق مذهبُ أهل العدل والتوحيد، بواسطة السياق الذي جاءت الآية فيه، أو عن طريق تخريج لغوي ينهي توهم الاشتباه، وفي أثناء ذلك يورد عشر آيات محكمات يفسر على ضوئها الآيات المتشابهات.. ثم يورد لأهل العدل إحدى وعشرين حجة قرآنية، يستشهد فيها بثلاث وسبعين موضعاً من القرآن الكريم.

وغير «حجم» الحجج القرآنية، «وكم» الآيات المسوقة في هذه الرسالة، نجد ترتيب الأدلة كذلك يؤيد المعنى الذي نرمي إليه، فهو عندما يأخذ في إيراد أدلة أهل العدل والتوحيد على «حرية الإنسان واختياره» نراه يقدم الحجج القرآنية، وبعد استيفاء بحثها، يتبعها بالأدلة العقلية، ويكاد هذا الترتيب أن يكون ملتزماً دائماً في هذه الرسائل.

(ب) المحكم والمتشابه:

ولقد كان لزاماً على هذا المنهج الذي يعتمد على الحجج القرآنية اعتماده على الحجج العقلية، أن يتخذ موقفاً من الآيات التي توحي ظواهرها بوجود تناقض بينها وبين ظواهر آيات أخرى تناولت ذات القضايا ونفس الموضوع. وهو الموقف

---

(١) الإمام يحيى بن الحسين (الرد على ابن الحنفية) جواب الشبهة الأولى. انظره في «الجزء الثاني من هذا الكتاب».

الذي جعلهم يقسمون آيات القرآن إلى «محكمة ومتشابهة»، «وواضحة وخفية»، و«أصول وفروع» ومن ثم فإن علينا أن نفسر المتشابه والخفي والفروع على ضوء المحكم والواضح من الأصول التي جاء بها القرآن . .

فعند الإمام القاسم نجد أن منزلة المحكم من المتشابه هي منزلة الأصل من الفرع، وعند الإمام يحيى نجده يشبه المحكم بالإمام والمتشابه بالمأموم.

والأصل هو «ما أجمع عليه العقلاء ولم يختلفوا فيه، والفرع ما اختلفوا فيه» ومن ثم فإن «مرجع الفروع إلى الأصول . . ومرجع المتشابه إلى المحكم، لأن المتشابه كالفرع بالنسبة للمحكم ـ على عكس ما زعمت الحشوية ـ والمجمع عليه من السنة بمثابة الأصل للمختلف عليه منها»[1] فعلى العبد أن . . يرجع إلى المحكمات من الآيات . . ويؤمن بالمتشابهات، ولا يظن أنها وإن جهل تأويلها وصرف عن تفسيرها أنها تنقض المحكمات»[2] و«ليس ينبغي لعاقل أن يدع ما علم لما جهل، وليس لك أن تشك في الواضح إذا ذهب عنك الخفي، فينبغي للعاقل أن يتمسك بالواضح من كتاب الله وبالمحكم من كتابه، فقال: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به**﴾[3].

أما الإمام يحيى فإنه يحدثنا عن «أن القرآن: محكم ومتشابه، وتنزيل وتأويل، وناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وحلال وحرام، وأمثال وعبر وأخبار وقصص، وظاهر وباطن، وكل ما ذكرنا يصدق بعضه بعضاً، فأوله كآخره، وظاهره كباطنه، ليس فيه تناقض . . فإذا فهم الرجل ذلك أخذ حينئذ بمحكم القرآن، وأقر بمتشابهه، أنه من الله، كما قال الله سبحانه: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون**

---

(١) الإمام القاسم الرسي (أصول العدل والتوحيد).

(٢) الإمام القاسم الرسي (كتاب العدل والتوحيد ونفي التشبيه).

(٣) الإمام القاسم الرسي (الرد على المجبرة). والآية رقم ٧ من سورة آل عمران.

ما تشابه منه﴾. . . فلذلك جعل المحكم إماماً للمتشابه» ثم نراه بعد هذا التحديد يورد لنا عدداً من الأمثلة التوضيحية للآيات المحكمة والمتشابهة، ففي باب «التوحيد»، وبصدد قضية «الرؤية» نجد من الآيات المحكمة، مثلاً، قوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾[1] و﴿ليس كمثله شيء﴾[2] و﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾[3]، ومن الآيات المتشابهة، مثلاً، قوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[4] و﴿من كان يرجو لقاء ربه﴾[5] وكمثال على كيفية رد المتشابه إلى المحكم هنا يقول الإمام يحيى أن الآية الأولى تفسر على معنى «إن الوجوه يومئذ تكون ناضرة مشرقة ناعمة، إلى ثواب ربها منتظرة» وعلى أن المراد من رجاء لقاء الله في الآية الثانية هو رجاء لقاء ثوابه.

ومثال آخر في باب «العدل» يسوق لنا فيه من الآيات المحكمة قوله تعالى ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾[6] و﴿لا يرضى بعباده الكفر﴾[7]، ومن الآيات المتشابهة قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض﴾[8] و﴿قضينا إليه ذلك الأمر﴾[9] و﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾[10] و﴿فقضاهن سبع سموات في يومين﴾[11]. ثم يقدم التفسيرات التي ترد هذه الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات فيقول: إن معنى ﴿لتفسدن في الأرض﴾ «أي تختارون اسم الفساد»، ومعنى القضاء في الآيات الثلاث الأخيرة هو: التعليم، والأمر، والخلق. . على الترتيب[12] فلا جبر هنا، ومن ثم فلا تجوير، والمعنى هنا متفق مع معنى الآيات المحكمة التي تشهد بالعدل للخالق سبحانه وتعالى.

---

(١) الاخلاص: ٤.
(٢) الشورى: ١١.
(٣) الأنعام: ١٠٣.
(٤) القيامة: ٢٢.
(٥) الكهف: ١١٠.
(٦) الاعراف: ٢٨.
(٧) الزمر: ٧.
(٨) الإسراء: ٤.
(٩) الحجرات: ٦٦.
(١٠) الإسراء: ٢٣.
(١١) فصلت: ١٢.
(١٢) الإمام يحيى بن الحسين (كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد) الفقرة الخاصة بالمحكم والمتشابه. انظره في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وليس المجبرة من المتكلمين فقط هم الذين رفضوا الحكم على بعض القرآن ببعضه الآخر، وتفسير خفيه بواضحه، ومتشابهه بمحكمه، بل لقد ذهب إلى ذلك ابن رشد كذلك، عندما رأى أن «التعارض» قائم بين ظواهر النصوص، بل «وربما ظهر في الآية الواحدة التعارض في هذا المعنى»، وأن الأدلة العقلية تتعارض هي الأخرى في هذه «المسألة»، وأن الواجب ليس تفسير جانب بآخر، وآية بأخرى، وإنما هو اتخاذ الموقف الوسط الذي «يجمع» بين طرفي الخلاف، وأن ذلك «هو الذي قصده الشرع بتلك الآيات العامة والأحاديث التي يظن بها التعارض»[1]. ومن ثم فإن موقف أهل العدل والتوحيد هذا متميز عن كثير من المواقف التي وردت في هذا المقام.

(جـ) تفسير الآيات بالسياق:

وسبيل آخر لنفي شبهات التناقض المزعومة بين آيات القرآن ـ وهي الشبهات التي أدت إليها تفسيرات المجبرة لبعض الآيات ـ نجده في هذه الرسائل عندما يفسر أصحابها هذه الآيات بالسياق الذي جاءت فيه، وكثيراً ما يتعجب الإنسان كيف خفي على المجبرة أن تفسر هذه الآيات في سياقها وهو الأمر الذي يكاد أن يصل إلى حد البديهيات؟! وهي لو فعلت ذلك لأراحت واستراحت من كل هذا العناء!؟

فالآية التي تقول: ﴿**يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء**﴾[2]، والتي توهم المجبرة فيها دليلاً قاطعاً على ما يقولون، يفسرها الإمام يحيى بواسطة آية أخرى عندما يقول: إن الله سبحانه «لم يقل: أضللت ولا هديت في هذا الموضع، لأنه ذكر الضلال والتثبيت منه في موضع آخر، فانظر كيف ذكر ذلك وكيف قاله ومن فعله، فقال سبحانه: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء**﴾[3]، كل هذا التثبيت والضلال لم يكن إلا مادة وزيادة للمؤمنين، وحرباً ونقمة للظالمين، ألا ترى كيف يقول:

---

(١) مناهج الأدلة في عقائد الملة. ص ٢٢٣.

(٢) النحل: ٩٣ والمدثر: ٣١.

(٣) إبراهيم: ٢٧.

﴿الـذين آمنـوا﴾، ولـم يقـل: الـذين ظلمـوا؟ غير أنـه لم يثبـت إلا المؤمنين والمستحقين اسم الإيمان بعملهم، ولم يضـل إلا الظـالمين المستـوجبين اسـم الضلالة بفعلهم. ويخبر سبحانه عن قدرته في خلقه... وأنه لو أراد أن يضلهم أو يهديهم جميعاً لكان ذلك غير غالب له، غير أنه لم يرد ذلك إلا من جهة التخيير منهم والاختيار لعبادته والرغبة فيما رغب فيه والوقوف عما حذرهم منه... وإنما قوله: **﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾** خبراً عن نفسه وإثباتاً له القدرة على كل شيء»[1]، ومن ثم ينعي الإمام يحيى على المجبرة عدم ربطهم الآيات بسياقها، إذ لو ميزوا ما قبل هذه الآيات وما بعدها لتبين لهم الحق ووضح»[2].

والآية التي تقول: **﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾**[3]، والتي يحتج بها المجبرة ويتعلقون بظاهرها.. هذه الآية يجب أن تفسر على أنها حكاية لما قاله المشركون عن أنفسهم في الآية التي تقول على لسانهم: **﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾**[4]، «فقال الله سبحانه لنبيه يحكي قولهم، ويرد كذبهم عليهم، فقال: **﴿إنَّا جعلنا﴾** يريد سبحانه: إنَّا جعلنا على قلوبهم أكنة كما قالوا، وفي آذانهم وقراً كما ذكروا، بل الزور في ذلك قالوا وبالباطل تكلموا، فأراد بذلك معنى الإنكار عليهم والتكذيب لهم والتقريع بكذبهم»[5].

ومثل السياق في إزالة الشبهات التي ألصقها المجبرة بأمثال هذه الآيات، مثل أسباب النزول وملابساته، إذ قد استخدمته أيضاً هذه الرسائل في تحديد المعنى الحقيقي المقصود من مثل هذه الآيات... فالله سبحانه لم يزين الشر للعصاة، ولا الشرك للكافرين، وأما قوله سبحانه: **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من**

---

(١) (الرد على المجبرة القدرية) جواب الشبهة الأولى. انظره في الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٢) المصدر السابق. المقدمة.
(٣) الكهف: ٥٧.
(٤) فصلت: ٥.
(٥) الإمام يحيى بن الحسين (الرد على ابن الحنفية) جواب الشبهة التاسعة عشرة.

دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم، كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾[1]، وهي الآية التي تعلق بها المجبرة ضمن ما تعلقوا به من آيات القرآن، فإن أهل العدل والتوحيد يرونها أبعد ما تكون عن أن تشهد للمجبرة في شيء، لأنها قد «نزلت في أبي جهل بن هشام المخزومي، لعنه الله، وذلك أنه لقي أبا طالب فقال: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويقع في أدياننا، واللات والعزى لئن لم يكف عن شتمه آلهتنا لنشتمن الهه، فأنزل الله في ذلك ما ذكر من هذه الآية». . . وأيضاً فإن التزيين الذي جاء للعصاة من قبل «القرناء» في قوله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم﴾[2] لا ينسب إلى الخالق، بسبب من أنه هو الذي «قيض» لهم هؤلاء القرناء، لأنه لم يأمرهم باتباعهم، بل نهاهم عن ذلك»[3].

(د) تحديد معنى المصطلحات:

وسبيل آخر من سبل هذا المنهج في نفي مظنة التناقض عن آيات القرآن الكريم، وجعلها تشهد للعقل، وتزامل حججه، البحث عن التحديد الدقيق لمعاني المصطلحات التي استخدمت في الجدل حول موضوع «الجبر والاختيار»، والتي وردت في القرآن، وفي هذا التحديد لمعاني هذه المصطلحات يلجأ أصحاب العدل والتوحيد إلى استقراء آيات القرآن فيحصون المواضع التي وردت فيها هذه المصطلحات، ثم يحددون معناها على ضوء من هذه النظرة الشاملة، وبذلك يسهم الاستقراء، مع السياق، مع تفسير الآيات بآيات أخرى، مع إبصار الفروق في المعنى التي جاءت بسبب ملابسات النزول وظروفه، تسهم كل هذه العوامل في التحديد الأدق لمعاني هذه المصطلحات. . وفي (كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد. . .) للإمام يحيى نموذج تتضح فيه بجلاء هذه الخاصية من خصوصيات هذا المنهج، فهو يفرد جزءاً رئيسياً من هذا الكتاب لتحديد المراد من عدد من المصطلحات مثل: «الهدى» و«الضلال» و«العبادة»

---

(1) الأنعام: ١٠٨.

(2) فصلت: ٢٥

(3) الرد على ابن الحنفية، جواب الشبهة الثامنة عشرة.

و«الارادة» و«الإذن» و«الكفر» و«الشرك» . . الخ . . الخ . . ومرجعه في هذا التحديد هو القرآن نفسه، يستقرىء آياته التي ورد فيها كل مصطلح من هذه المصطلحات، فهو بعد أن يستقرىء الآيات التي وردت في «الكفر»، مثلاً، يصل إلى أن له معنيين أحدهما: كفر جحود وإنكار وتعطيل، وثانيهما: كفر نعمة. وفي تحديد مصطلح «الإذن» مثلاً، نرى كيف يسهم هذا التحديد في دحض حجج المجبرة وتبديد شبهاتهم، فهم قد توهموا أن في قوله تعالى: **﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾**[1] و**﴿ما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾**[2] **﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾**[3] توهموا في ذلك حججاً لهم، ولكن الإمام يحيى يقول إن معنى الاذن في الآيتين الأولى والثانية هو العلم، فإذن الله هنا هو علمه، وليس علمه بالحادث مجبر للمحدث على إحداثه، وأن معناه في الآية الثالثة هو أمر الله، فما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله «بأمر الله، لولا أن الله أمرها بالإيمان لم تؤمن به، ولكن جعل في الإنسان العقل، ثم أمره بالإيمان، فآمن بإذن الله وأمره»[4]، فكأن الاذن هنا بمعنى التشريع والتكليف.

والاستخدامات اللغوية البليغة التي استخدم فيها العرب هذه المصطلحات، عامل من عوامل تحديد معانيها، وكذلك شواهد الشعر التي وردت فيها هذه الكلمات . . فالمجبرة، مثلاً، يتعلقون بقول الله سبحانه: **﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾**[5]، زاعمين أن (أغفلنا) هنا تعني أن «الإغفال» صنع الله، ولكن الإمام يحيى يهاجمهم ويقول: إن الغافل ليس الله هو الذي أدخله في الغفلة، وحال بينه بذلك وبين الطاعة . . . ولو كان ذلك من الله لم يكن العبد متبعاً لنفسه هواه، بل كان داخلاً لله فيما شاء وارتضى . . . وأما معنى الإغفال فقد يخرج على معنيين: أحدهما الخذلان من الله والترك لمن اتبع هواه . . . وأما المعنى الآخر فبين في لسان العرب موجود، معروف عند كلها

(١) التغابن: ١١.

(٢) البقرة: ١٠٢.

(٣) يونس: ١٠٠.

(٤) الإمام يحيى بن الحسين (كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد) فقرة الإذن.

(٥) الكهف: ٢٨

محدود، وهو أن يكون معنى قوله ﴿أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي تركناه من ذكرنا. . . تركنا قلبه من تذكيرنا وعوننا وهدايتنا، بما أصر عليه من الإشراك بنا والاجتراء علينا، تقول العرب: يا فلان أغفلت فلاناً، ويقول القائل: لا تغفلني، أي لا تتركني. . (والشاعر يقول):

أغفلت تغلب من معروفك الكاسي فخلت قلبك منهم مغضباً قاسي

فقال: «أغفلت تغلب من معروفك، أي تركتها من عطائك»[1].

(هـ) الاستشهاد بالواقع المحسوس:

وخاصية من خصائص هذا المنهج استخدامه للوقائع المحسوسة والحقائق البديهية في الحياة الإنسانية لمؤازرة الحجج العقلية والحجج القرآنية في البرهنة والاستدلال، وكنموذج على ذلك نسوق حوار الإمام يحيى مع المجبرة حول قضية خلق العقول، وخالقها، وقسمتها وتوزيعها بين المخلوقين، وعلاقة كل ذلك بالعدل الإلهي ومدى حرية الإنسان، فهو يدير حواره قائلاً: إن المجبرة إذا قالت لأهل العدل: «ألستم تزعمون. . . أن الله قسم العقول بين خلقه، وجعلها لهم حجة فيهم، نعمة أنعم بها عليهم، وأيادي أكملها لديهم، ثم تقولون: إنه افترض عليهم فروضاً فجعلها عليهم كلهم شرعاً سواء، إن أدوها أثيبوا وإن تركوها عوقبوا، ثم تقولون ونقول: إن ذلك لا ينال إلا بالعقول، وقد نرى اختلاف العقول في الناس أجمعين، فنعلم أنهم فيها متفاضلون، وأن ليس هم فيها على القسمة متساوين، فأين ما تحوطون به من عدل رب العالمين، وقد ساوى بين عباده فيما افترض عليهم، وجعل ذلك سبحانه سواء فيهم، ثم فضل بعضهم على بعض فيما لا ينال أداء ما فرض من الطاعات ولا يوصل إلى تمييز شيء من شيء إلا به من الآلات، من العقل الرصين والفهم المبين»؟ . .

قلنا لهم: إن الله افترض على خلقه فروضاً، وأوجب عليهم أموراً، ثم أعطاهم ما بأقل قليله ينال أداء ذلك من الآلات ويقتدر على أدائه متى قصد من الساعات، فجعل في أقلهم عقلاً من العقل ما ينال بأقل قليله تمييز ما أوجب الله عليه

---

(١) الإمام يحيى بن الحسين (الرد على ابن الحنفية) جواب الشبهة الثانية والثلاثين.

تمييزه، والإحاطة بما أوجب عليه الإحاطة به من معرفته والإقرار بوحدانيته والأداء لكل فرائضه، فساوى بين عباده فيما إليه يحتاجون، وله في فرائضه يستعملون، ثم زاد بعد أن ساوى بينهم في الحجة من شاء... أرأيتم رجلاً له بيتان من حشيش، وله غلامان، فدفع إلى أحد غلاميه شمعة واحدة متوقدة، ودفع إلى الآخر ثلاث شمعات، ثم قال لهما: ليحرق كل واحد بما معه ما في أحد هذين البيتين من الحشيش. فهل ترون لصاحب الشمعة الواحدة المتوقدة الملتهبة على مولاه حجة في أن أعطى صاحبه ثلاثاً وأعطاه واحدة، فيقول: لا والله، ما أقدر أن أحرق بيتاً من حشيش بهذه الشمعة الواحدة، فأعطني ثلاثاً مثل صاحبي وإلا فلا حيلة في إحراقه؟!»[1].

وكذلك في الحديث عن الفرق بين ما هو فعل للإنسان يمارسه بحرية، وما هو فعل للخالق من قدرات الإنسان، نلتقي في هذه الرسائل بالأمثلة المحسوسة التي يمارسها الإنسان في حياته اليومية، فصناعة الجلود، والقطن، والصوف، والحديد، وبناء الدور وتشييد القصور، يتحدث الإمام يحيى عنها، وكيف خلق الله المواد الأولية لهذه الصناعات، ثم كيف أخذ الناس بالاستطاعة والقدرة المركبة فيهم يحولونها من مواد أولية إلى ما نرى من مصنوعات ودور وقصور، فالله سبحانه «أوجد الأصل الذي نقل وصنع وعمل من... الجلود والكرسف (القطن) والصوف والحديد، والعباد فعلوا الحدث الذي صرفوها به وأحدثوه فيها من عملها ونسجها وصناعتها وغزلها بالأكف والأدوات التي جعلت لهم والاستطاعة التي ركبت فيهم، فالتأم في ذلك جلود وأيد وحركات، فكان الله، عز وجل، الخالق للأيدي والجلود، وكان العباد الفاعلين للحركات الصانعين لتلك المصنوعات، كذلك الله سبحانه خلق الحجارة والطين والعباد بنوا الدور وشيدوا ما بنوا من القصور، فاجتمعت في ذلك الحجارة والأكف العمالة والحركات التي دبرت لها الحجارات، فكان الله جل ثناؤه خالق الأيدي والصخور، والعباد أحدثوا الحركات وبنوا الدور. وأفعال الله سبحانه كائنة عندما يريدها بلا تخيل ولا حركات

---

(١) المصدر السابق: جواب الشبهة الحادية عشر.

ولا تأليف شيء إلى شيء بالأكف العمالات، ففي هذا أبين الفرق بين أفعال المخلوقين وبين أفعال رب العالمين، فما كان من فعل الله فليس من أفعال العباد، وما كان من أفعال العباد فليس من أفعال ذي العزة والأياد»[1].

والوقائع التاريخية كان لها نصيب هي الأخرى في الحجاج والاستدلال الذي جاء بهذه الرسائل على صدق أهل العدل والتوحيد، وفي هذا النطاق تجري عمليات نقد للروايات التاريخية التي يحاول المجبرة تزويرها كي تنتصر لآرائهم.. فعملية.. «الكف» التي تمت لأيدي اليهود عن إيذاء الرسول عندما تآمروا عليه والتي جاء ذكرها في الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم، إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾**[2] أراد المجبرة أن ينسبوها إلى الذات الإلهية بينما أهل العدل يرونها من فعل الرسولﷺ، الذي «نهض مسرعاً هو ومن معه حتى رجعوا» إلى المدينة وتركوا حي يهود بني النضير، بعد إخبار الوحي للرسول بنبأ المؤامرة [3].

ومن الوقائع التاريخية التي جرى الاستشهاد بها كذلك إسلام أهل مكة عام الفتح، فلقد زعم المجبرة أنهم قد أسلموا جبراً وقسراً فراراً من القتل، وفند أهل العدل ذلك الزعم، وقالوا إن القرآن لم يتحدث به، ولو حدث ذلك لاعترف به المطلع على أسرار القلوب، ولأخبر به كما أخبر عن المؤمنين الذين أكرهوا على إظهار الكفر **﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾**[4].. فصححوا بذلك الواقعة التاريخية واستخدموها في الاستدلال[5].

(و) الالزام:

ومن بين السبل التي استخدمها منهج هذه الرسائل سبيل «الالزام» إلزام

---

(١) المصدر السابق. جواب الشبهة الواحدة والاربعين.

(٢) المائدة: ١١.

(٣) الإمام يحيى بن الحسين (الرد على ابن الحنفية) جواب الشبهة الثالثة والعشرين.

(٤) النحل: ١٠٦.

(٥) الإمام يحيى بن الحسين (الرد على ابن الحنفية) جواب الشبهة الثانية والاربعين.

الخصوم موقفاً شنيعاً يصعب عليهم الرضاء به والاعتراف بتبعاته، وهو أسلوب جدلي يحرك في نفوس الخصوم وعقولهم العوامل التي تدعوهم إلى إعادة النظر فيما يقولون . .
ومن أمثلة ذلك:

١ ـ أن على الذين يقولون بالجبر، أن يصفوا الذات الالهية بأقبح الصفات، بل أن يقولوا أن الذات الالهية هي التي وصفت نفسها بهذه الصفات، لأن القرآن يقول: **﴿قال قرينه هذا ما لدي عتيد، ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير متعد مريب، الذي جعل مع الله الهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾**[1] . .
«أفترى الله سبحانه الذي أضله وأمره أن يجعل معه إلهاً آخر؟! ثم يقول: ألقياه، يعني: الضال والمضل، أفتراه أراد بهذا نفسه إذ كان في قولهم (المجبرة) أنه المضل لهم، والمدخل لهم فيما دخلوا فيه من خير وشر؟!»[2] . . إن الجبر يلزم أصحابه هذه الشناعات.

٢ ـ وقول الله سبحانه: **﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم﴾**[3]. يتخذ منه أهل العدل دليلاً يلزمون به المجبرة الموقف الشنيع والقول البشع إن هم أصروا على جبريتهم، إذ لو كان الله هو المزين للمشركين قتل أولادهم، لكان هو الشريك، ولو كان كذلك «فقد عنى إذا نفسه بهذا القول، وهذا غير معروف في اللغة، يذكر غيره ويخاطبه وهو يريد بالذكر نفسه، هذا محال في القول لا يقبله العقل»[4]. وهم هنا يضيفون إلى الشناعة الفكرية محالات لغوية تترتب على قول المجبرة هذا.

٣ ـ وقول الله سبحانه لموسى عليه السلام: **﴿إذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل: هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى، فأراه الآية الكبرى، فكذب وعصى، ثم أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال: أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله نكال**

---

(١) ق: ٢٣ ـ ٢٦.

(٢) الإمام يحيى بن الحسين (الرد على المجبرة القدرية) الحجة الثالثة عشرة من حجج أهل العدل القرآنية.

(٣) الأنعام: ١٢٧.

(٤) الإمام يحيى بن الحسين (الرد على المجبرة القدرية) الحجة الرابعة عشرة من حجج أهل العدل القرآنية.

الآخرة والأولى﴾[1]. يلزم المجبرة على تفسيرهم له ـ القول بأن الله هو الذي أضل فرعون، وخلق على لسانه ما قال من شناعات، وعندئذ يحق للانسان أن يسأل: لماذا أرسل الله موسى إلى فرعون، إذا كان هو الذي خلق ضلال فرعون وصنع كل هذه الشناعات؟ ![2].

٤ ـ وقول الله سبحانه **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾**[3] يلزم المجبرة ـ على تفسيرهم له ـ القول بأن العصاة لم يكن في وسعهم إلا أن يفعلوا المعاصي، وبذلك يكون «من عصي وكفر وظلم وقتل أنبياءه وأولياءه وقال عليه بالزور والبهتان معذوراً عنده، سبحانه، ساعياً في قضائه وقدره، ولم يكن يوجد على الأرض عاص، إذ كان المطيع يسعى بقضاء الله وقدره، وكان العاصي كذلك يسعى ببعض قضائه وقدره»[4] ويترتب على ذلك أن يصبح إرسال الرسل عبثاً، والشرائع لغواً، والجزاء جوراً، إذ لا طائل من وراء التكليف، ولا ذنب للعصاة ولا فضل للمطيعين حتى يكون الجزاء عدلاً من الله.

* * *

وهكذا نجد الكثير من عناصر المنهج الذي استخدمته هذه الرسائل وثيقة الصلة بالقرآن الكريم، والعادات اللغوية العربية، والوقائع المادية المحسوسة في البيئة المحلية، والأحداث التاريخية العربية الإسلامية، مما يؤكد أصالة هذا الفكر الذي جاء ثمرة لهذا المنهج في تراثنا العربي الإسلامي.

ولعل مما يدعم هذا الدليل على هذه الأصالة أن نلقي نظرة متأملة على مدى تغلغل هذا الفكر، فكر العدل والتوحيد، في مدارس الفكر العربي الإسلامي، وكيف كاد أن يكون أرضاً مشتركة وقفت عليها أنضج مدارسنا الفكرية، وأكثر أعلامنا أصالة وعبقرية لعدة قرون.

---

(١) النازعات: ١٧.

(٢) الإمام يحيى بن الحسين (الرد على المجبرة القدرية) الحجة الخامسة عشرة من حجج أهل العدل القرآنية.

(٣) البقرة: ٢٨٦.

(٤) الإمام يحيى بن الحسين (كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد) الفقرة الخاصة بمعنى الضلال.

اجتماع المسلمين على العدل والتوحيد

وإذا كنا سنتجنب في هذا التقديم، خشية الإطالة والخروج عن الإطار المرسوم، الحديث المفصل عن مدرسة المعتزلة، أهل العدل والتوحيد، ونشأتها، والروافد التي صبت، فكرياً وتنظيمياً، في نهرها، وكيف تبلورت مدرسة فكرية ذات نشاط سياسي عملي، وكيف لعبت دوراً بارزاً ولامعاً في حياتنا الفكرية والسياسية طيلة قرون عدة، وكيف لا تزال لها حتى اليوم في حياتنا آثار وآثار.

إذا كنا لا نريد هنا الحديث عن هذه النقاط، فإننا نفسح هذا المكان لحديث موجز عن جوهريات البنية الفكرية لهذه المدرسة، لأن ذلك الحديث وثيق الصلة جداً بموضوع هذه الرسائل التي نقدم بين يديها هذا الحديث[1].

وبادىء ذي بدء، فإننا نود أن نقول إن وصفنا لأهل العدل والتوحيد بأنهم مدرسة، بالمعنى المتعارف عليه عند الحديث عن المدارس الفكرية هو أمر غير دقيق تماماً، ويحتاج إلى إبداء ملاحظات هي أشبه ما تكون بالتحفظات على هذه التسمية بلفظ «المدرسة». . ذلك لأن الأصول الخمسة التي اتفق عليها أهل العدل والتوحيد منذ أن تحدث عنها وبلورها مفكرهم الكبير أبو الهذيل العلاف (١٣٥ - ٢٣٥ هـ ٧٥٢ - ٨٤٩ م)[2] في كتابه الذي أسماه «الأصول الخمسة»[1] إنما هي:

---

(١) أما الحديث المفصل عن مدرسة المعتزلة وتيار أهل العدل والتوحيد في الفكر الاسلامي فمكانه كتابنا «مشكلة الحرية الإنسانية عند المعتزلة».

(٢) هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي، الملقب بالعلاف. بصري، من موالي قبيلة عبد القيس، وفي ميلاده خلاف بين سنة ١٣١ وسنة ١٣٤ هـ، وسنة ١٣٥ هـ، وفي وفاته خلاف بين سنة ٢٢٧، سنة ٢٣٥ هـ، درس الاعتزال ببغداد على «بشر بن سعيد» و «عثمان الزعفراني»، وحضر مجالس المأمون منذ سنة ٢٠٤ هـ، وكان له إلمام بالفلسفة، ويقال إنه كتب ١٢٠٠ رسالة ضد أعداء المعتزلة، ومن كتبه: كتاب الحجج، ورسالة في العدل والتوحيد، وكتاب

١ ـ العدل. . . وفي إطاره كان الصراع الفكري والعملي مع كل القائلين بالجبر، ساسة كانوا أم مفكرين(٢).

٢ ـ التوحيد. . . وفي إطاره كان الخلاف والصراع ضد كل تيارات الملاحدة والمعطلة والدهرية واليهود والنصارى والقائلين بالتشبيه.

٣ ـ الوعد والوعيد. . . وفي إطاره كان الخلاف مع أصحاب الإرجاء(٣).

٤ ـ المنزلة بين المنزلتين. . . وفي إطاره كان الخلاف مع المرجئة من جانب، والخوارج من جانب آخر.

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . وفي إطاره كان الخلاف والجدل مع فرق الشيعة الأمامية، وأصحاب الإرجاء.

ولقد حددها على هذا النحو الخياط، صاحب (الانتصار) عندما قال: «وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلين، والأمر بالمعروف

= الاعراض، ولم يبق لنا من آثاره الفكرية شيء، وهو معدود في الطبقة الخامسة من رجالات المعتزلة، راجع (الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد) للخياط. ص ١٦، ١٧٩. تحقيق د. نيبرج. ط القاهرة سنة ١٩٢٥ م، و(أمالي المرتضى) للشريف المرتضى ق ١. ص ١٨٠. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط القاهرة سنة ١٩٥٤ م، و(فلسفة المعتزلة) للدكتور ألبير نصري نادر. جـ ١ ص ١٦، ١٧، ط الاسكندرية.

(١) (بحر الكلام) لأبي معين النسفي (ت سنة ٥٠٨ هـ) ص ٣٤. مخطوط. دار الكتب المصرية (٥١٤ عقائد تيمور).

(٢) وفي كثير من كتب أهل العدل والتوحيد نجد الصلة بين «الجبر» وبين «السياسة» ولقد قالوا: «إن أول من قال بالجبر وأظهره معاوية، وأنه أظهر ان ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه ليجعله عذراً فيما يأتيه، ويوهم أنه مصيب فيه، وإن الله جعله إماماً وولاه الأمر، وفشى ذلك في ملوك بني أمية، وعلى هذا القول قتل هشام بن عبد الملك غيلان، رحمه الله. ثم نشأ بعدهم يوسف السمني فوضع لهم القول بتكليف ما لا يطاق، وأخذ هذا القول عن ضرير كان بواسطة زنديقاً بنوياً» (المغني في أبواب التوحيد والعدل) للقاضي عبد الجبار جـ ٨ ص ٤ ط القاهرة.

(٣) والإرجاء نوعان أحدهما يتعلق بالإيمان، وهو الذي يفصل أصحابه بين الإيمان وبين العمل، والثاني هو التوقف في الحكم على المشتركين في صراع علي ومعاوية وإرجاء أمرهما لله يحكم فيه. راجع (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ١٣٢ ـ ١٥٤، (تهذيب التهذيب) لابن حجر العسقلاني جـ ٢ ص ٣٢٠. ٣٢١. الطبعة الأولى. حيدر آباد سنة ١٣٢٥ هـ، و(التعريفات) للجرجاني ص ١٨٤ ط القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

والنهي عن المنكر، فإذا أكملت في الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلي»[1].

وإذا كان هذا التحديد لهذه الأصول الخمسة قد شاع الشيوع الأكبر، وانتشر الانتشار الأعم لدى أهل العدل والتوحيد، كما شاع عنهم لدى كتاب المقالات[2]، فإننا نجد الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسي (١٦٩ - ٢٤٦ هـ ٧٨٥ - ٨٦٠ م)، وهو معاصر لأبي الهذيل العلاف يحدد هذه الأصول بأنها:

١ - التوحيد، ٢ - والعدل، ٣ - والوعد والوعيد، ٤ - والمنزلة بين المنزلتين، ٥ - والقرآن الكريم والسنة المطابقة له، ٦ - وأصل سادس يمكن أن نسميه العدالة الاجتماعية والمالية والاقتصادية، وذلك عندما يقول إن الأصول التي يجب على المؤمن اعتقادها هي:

١ - «أن الله واحد ليس كمثله شيء».

٢ - «أن الله سبحانه عدل غير جائر».

٣ - «أن الله سبحانه صادق الوعد والوعيد».

٤ - «أن من صيره إلى العذاب فهو فيه أبداً خالد كخلود من صيره إلى الثواب الذي لا ينفد».

٥ - «أن القرآن المجيد فصل محكم وصراط مستقيم ولا خلاف فيه ولا اختلاف، وأن سنة رسول الله ﷺ ما كان لها ذكر في القرآن ومعنى».

٦ - و«أن التقلب بالأموال والتجارات والمكاسب في وقت ما تعطل فيه الأحكام وينتهب ما جعل الله للأرامل والأيتام والمكافيف والزمنا[3] وسائر الضعفاء ليس من الحل والاطلاق كمثله في وقت ولاة العدل والإحسان والقائمين بحدود الرحمن»[4].

---

(١) راجع (شرح الأصول الخمسة) للقاضي عبد الجبار. بتعليق «مانكديم» ص ١٢٤، ١٢٥. تحقيق د. عبد الكريم عثمان. ط القاهرة سنة ١٩٦٥م، و (الانتصار) ص ١٢٦، ١٢٧.

(٢) مقالات الاسلاميين. جـ ١ ص ٢٧٨.

(٣) جمع «زمن» هو العاجز.

(٤) مجموعة رسائل الإمام القاسم. اللوحة ١١٥. مصورة. دار الكتب المصرية (٢٩٠٨٦ ب).

فهو هنا يصل بها إلى أصول ستة، مع بعض التعديلات والاختلافات، اللهم إلا إذا جعلنا الأصلين الأخيرين مما يشملهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

بينما نجد هذه الأصول عند مفكر آخر هو أحمد بن يحيى بن المرتضى (٧٦٤ - ٨٤٠ هـ ١٣٦٢ - ١٤٣٦ م)[1] مذكورة على النحو التالي:

١ - وجود القديم المحدث بلا معاني، (أي التوحيد).
٢ - والمنزلة بين المنزلتين.
٣ - وأن فعل العبد غير مخلوق فيه، (أي العدل).
٤ - وتولي الصحابة، والاختلاف في عثمان بعد الأحداث، والبراءة من معاوية وعمرو بن العاص.
٥ - وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

ومعنى هذا:

أولاً: أن خلاف، أهل العدل والتوحيد - ولا نقول المعتزلة - حول هذه الأصول، هو أمر غير مستبعد تماماً، وإن عدتها الأغلبية الساحقة من مفكريهم خمسة، على النحو الذي قدمناه في أول هذا الحديث، وإذاً فليس خلافهم فقط في فروع هذه الأصول، كما يقول البعض[3]، بل وأحياناً في بعض هذه الأصول.

ثانياً: وذلك هو الأهم، أن أصلي العدل والتوحيد، هما الأصلان اللذان ليس حولهما خلاف البتة بين أحد ممن قال بهذا اللون من ألوان التفكير، ومن ثم فإنهما جماع الفكر الاعتزالي والأساس الراسخ لعقيدة هذا التيار الفكري الهام، بل

---

(١) هو صاحب (المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل) وغيره من المؤلفات الكلامية والفقهية، تولى إمامة الزيدية باليمن سنة ٧٩٣ هـ، ثم خلع وسجن سبع سنوات حتى أفرج عنه سنة ٨٠١ هـ، فتفرغ لدرس العلم، وأغلب ما ذكره من أخبار المعتزلة منقول عن شرح عيون المسائل للحاكم أبي سعد محسن بن كرامة الجشمي البيهقي. راجع مقدمة (البحر الزخار) لابن المرتضى. جـ ١. ط القاهرة سنة ١٩٤٧ م.

(٢) باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل. لابن المرتضى. ص ٦ تحقيق توما أرنلد. ط حيدر آباد سنة ١٣١٦ هـ.

(٣) فلسفة المعتزلة. جـ ١ ص ٧.

إننا نجد أحد تلاميذ القاضي عبد الجبار، وهو «مانكديم»[1] يتحدث عن أصل «العدل» وكيف أن «أصولاً» كثيرة من أصول المعتزلة داخلة فيه، وذلك عندما يقول:

«إن النبوات والشرائع داخلان في العدل، لأنه كلام في أنه، تعالى، إذا علم أن صلاحنا في بعثة الرسل، وأن نتعبد بالشريعة، وجب أن يبعث ونتعبد، ومن العدل أن لا يخل بما هو واجب عليه.

وكذلك فالوعد والوعيد داخلان في العدل، لأنه كلام في أنه تعالى، إذا وعد المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب، فلا بد من أن يفعل، ولا يخلف في وعده ولا في وعيده، ومن العدل أن لا يخلف ولا يكذب.

وكذلك المنزلة بين المنزلتين داخل في باب العدل، لأنه كلام في أن الله، تعالى، إذا علم أن صلاحنا في أن يتعبدنا بإجراء الأسماء والأحكام[2] على المكلفين وجب أن يتعبدنا به، ومن العدل أن لا يخل بالواجب.

وكذلك الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[3].

وثالثاً: أن أصل العدل، من أصول المعتزلة، كما يدل على ذلك الاقتباس الذي فرغنا من إيراده هنا، إنما تنطوي تحته ثلاثة أصول أخرى، هي: الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك بالإضافة إلى النبوات والشرعيات، فإذا ما أضفنا إلى أصل «العدل» أصل «التوحيد»، كنا قد جمعنا كل أصول الاعتزال.

أي أن هذه الرسائل التي نقدم بين يديها، وإن استهدفنا منها الاختيار والدراسة والتحقيق لآثار فكرية في العدل والتوحيد، إلا أننا حقيقة وموضوعاً، قد

---

(١) هو قوام الدين مانكديم أحمد بن أحمد بن الحسين بن أبي هاشم الحسيني ششديو، أحد أئمة الزيدية، خرج بالري سنة ٤١١ هـ، وتوفي بها سنة ٤٢٠ هـ. وهو أحد من جمع شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار وعلق عليها.

(٢) والمقصود بالأسماء والأحكام ما يعنيه اسم «مؤمن» و«كافر» و«فاسق».. الخ...

(٣) مقدمة (شرح الأصول الخمسة) ص ٢٥..

اخترنا مجموعة من الرسائل التي تبلور لنا فكر المعتزلة، وتقدم لنا هذا التيار الفكري بملامحه وقسماته، واضحاً وضاءً، غير باهت ولا منقوص.

* * *

وحقيقة أخيرة وهامة حول هذه النقطة، تتعلق بتلك التيارات الفكرية غير الاعتزالية، والمدارس الفكرية التي يعدها أصحاب كتب المقالات والفرق خارج إطار الاعتزال، والتي شاركت المعتزلة في القول بالعدل أو بالتوحيد أو بهما معاً، أو بجزئيات وعناصر من هذين الأصلين الجامعين لفكر أصحاب الاعتزال.

ونحن لن نبدأ هذا الحديث بالكلام عن «الزيدية»[1] وتبنيهم أصول الاعتزال، لأن ذلك أمر مفروغ منه، وعنهم يقول الشهرستاني[2]: «أما في الأصول فيرون رأي المعتزلة حذو القذة بالقذة[3]، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت»[4].

وإنما الذي نود الإشارة إليه أن أصلي العدل والتوحيد اللذين دان بهما مفكرو المعتزلة قد وجدت لهما قاعدة عريضة في مدارس إسلامية أخرى وكثيرة، ولدى مفكرين مسلمين كثيرين آخرين لا يعدون في عداد أعلام مدرسة الاعتزال.

فالمعتزلة يرون أنه «لا خلاف بين جميع أهل العدل والتوحيد في أن القرآن

---

(١) نسبة الى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، خرج بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٠ أو سنة ١٢٢ هـ، واستشهد وصلب في نفس العام الذي خرج فيه، وهم يرون بالوصية للأئمة الثلاثة الأول: علي والحسن والحسين، أما غيرهم فهم إما دعاة، وإما مقتصدون، والدعاة إما محددون، وإما غير محددين.. الخ.. الخ... وراجع (المقصد الحسن والمسلك الواضح السنن) لاحمد بن يحيى بن حابس الصعدي اليماني اللوحات ١٧٨، ١٧٩. مصورة. دار الكتب المصرية (٢٩١٣٧ ب).

(٢) هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ) صاحب كتاب (الملل والنحل).

(٣) القذة هي ريشة السهم.

(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٢ تحقيق محمد سيد كيلاني. ط القاهرة سنة ١٩٦١م. والمقصود بأهل البيت هنا أئمة الشيعة غير الزيدية.

مخلوق محدث مفعول لم يكن ثم كان»[1] ، وذلك لأنهم رأوا في القول بقدم القرآن ما «يشبه القول بقدم الكلمة»[2] وإذا كان المسيح هو كلمة الله ، فإن القول بقدم الكلمة يعني موافقة النصارى في ألوهية المسيح «فالقول بخلق القرآن جاء رداً على ركن من أركان المسيحية وهو الاعتقاد بأن المسيح هو كلمة الله الأزلية[3]، فهو قول ، إذاً ذو صلة وثيقة بأصل التوحيد.

ومع المعتزلة في هذا الموقف «الجعد بن درهم»[4]، المربي والمؤدب لمروان بن محمد ، آخر خلفاء الأمويين.

ومع المعتزلة في هذا الموقف كذلك وقف الخوارج والمرجئة وكثير من الرافضة[5] إذ قالوا «أن القرآن كلام الله ، سبحانه ، وأنه مخلوق لله ، لم يكن ثم كان»[6].

* * *

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل جـ ٧ ص ٣.

(٢) فلسفة المعتزلة. جـ ١ ص ١١٠.

(٣) المصدر السابق. نفس الصفحة.

(٤) قتله بالعراق «خالد القسري» بأمر من هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ ، وكان قد أظهر القول بخلق القران ، وتنزيه الله عن الصفات بدمشق سنة ١٠٤ هـ ، وعندما طلبه هشام بن عبد الملك خرج الى الكوفة. ولقد جعل خالد القسري من الجعد بن درهم أضحيته في يوم عيد الأضحى! . . إذ قال للناس في نهاية خطبة العيد: «انصرفوا ، وضحوا ، تقبل الله منكم ، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فإنه يقول: ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً. ثم نزل فذبحه».
ومما هو جدير بالذكر أن خالد القسري هذا كان طاغية شديد العداء لأهل البيت ، مبالغاً في سب علي بن ابي طالب ، ممالئاً للنصارى ، وكانت أمه نصرانية رومية بقيت على دينها ، ولقد هدم منارات المساجد بحجة منع المؤذنين من رؤية النساء على السطوح؟! . وعندما ختن نائبه على الكوفة ولده ، كان في هديته إليه ألف وصيف ووصيفة ، غير الأموال والثياب. راجع : (الفهرست) ص ٣٣٧، ٣٣٨ ، و (فلسفة المعتزلة) جـ ١ ص ١١٠ ، و «هامش» ١٥ ، و (تاريخ الجهمية والمعتزلة) لجمال الدين القاسمي الدمشقي ص ٢٧ ، ٢٨ - ٣١. ط القاهرة سنة ١٣٣١ هـ .

(٥) هم من غلاة الشيعة ، وسموا رافضة لرفضهم تولي أبي بكر وعمر ، وقيل لرفضهم زيد بن علي ، على خلاف في ذلك.

(٦) مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ١٠٨ ، ١٢٤ ، جـ ٢ ص ٥٨٢ ، و (بحوث في المعتزلة) للمستشرق كارلوا الفونسونلينو. ص ٢١٧ (وهي منشورة ضمن مجموعة عنوانها: التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية. ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي) الطبعة الثالثة. القاهرة سنة ١٩٦٥ م.

وقال المعتزلة بأن العبد خالق لأفعاله، فأثبتوا «القدر» للإنسان، ونفوه عن الله سبحانه فيما يتعلق بأفعال الانسان.

ومع المعتزلة في هذا الموقف من فرق الخوارج «الميمونية»، فلقد قالوا «بالقدر على مذهب المعتزلة»[1] وكانوا «لا يرون أن الشر من الله تعالى»[2].

وأيضاً فرقة «الحمزية»، وهم الفرقة الرابعة من الخوارج «العجاردة»، أصحاب رجل يدعى «حمزة» «ثبتوا على قول الميمونية بالقدر»[3].

وكذلك فرقة الخوارج «الخلفية»، وهم أتباع رجل يدعى «خلف»، فلقد رأوا رأي المعتزلة في أن العبد فاعل للخير والشر، وأن كلاهما ليس من الله تعالى[4].

وكذلك فرقة «أصحاب السؤال»، وهم أتباع «شبيب النجراني» من الخوارج «البيهسية»، أصحاب «أبي بيهس»، فلقد «قالوا بقول المعتزلة في القدر»[5].

وكذلك أصحاب «حارث الأباضي»، وهم الفرقة الثالثة من الخوارج «الأباضية»[6] «قالوا في القدر بقول المعتزلة»[7].

كما أن موقف الخوارج بإزاء جزاء الأطفال الذين يموتون دون البلوغ والتكليف، إنما كانت تتوزعه ثلاثة آراء، أحدها للفريق الثالث الذين يسميهم

---

(١) وهم أتباع «ميمون بن عمران»، وإحدى فرق الخوارج «العجردية» المنسوبة إلى «عبد الكريم بن عجرد». راجع مقالات الاسلاميين. جـ ١ ص ٩٣.

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ـ لفخر الدين الرازي. ص ٤٨. مراجعة وتحرير د. علي سامي النشار. ط القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

(٣) مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ٩٣، ٩٤.

(٤) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. ص ٤٨.

(٥) مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ١١٥، ١٦٦.

(٦) نسبة إلى (عبد الله بن أباض التميمي)، المولود في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وصاحب كتاب (العقيدة) الذي كتبه في خلافة عبد الملك بن مروان، والذي يقول فيه: «إن الله لا يخلف وعده ولا يدع وعيده يذهب سدى» راجع: بحوث في المعتزلة. ص ٢٠٦.

(٧) مقالات الاسلاميين. جـ ١ ص ١٠٤.

الأشعري «القدرية»، وهم قد قالوا بقول المعتزلة في هذا الموضوع، ورأوا أن «أطفال المشركين والمؤمنين في الجنة»[1].

وكذلك من مال من الخوارج إلى قول المعتزلة في «القدر» نجده قد قال بقولهم في «الأرزاق»، ورأى أن الله لا يرزق عباده الحرام إذا غلبوا عليه واغتصبوه وأكلوه[2]، وأنه غصب يجب عليهم رده لأهله وذويه.

وأخيراً فإن المستشرق الإيطالي «نلينو» يلاحظ أن في كتاب (العقيدة الأباضية) الذي كتبه عمر بن جميع[3]، أوجه شبه كبيرة بين عقيدة الأباضية وبين فكر المعتزلة، وذلك مثل:

١ ـ إن القرآن مخلوق.
٢ ـ إنه ليس من الممكن رؤية الله في الدار الآخرة.
٣ ـ تأويل بعض مسائل الحياة الأخرى تأويلاً مجازياً، وذلك مثل «الميزان» و«الصراط»، وغيرهما.
٤ ـ وجوب تأويل كل النصوص التي ظاهرها التشبيه.
٥ ـ إن الله لا يغفر الكبائر لمرتكبيها إلا إذا تابوا قبل الموت.
٦ ـ إن عذاب النار أبدى حتى لمرتكب الذنب من المسلمين، وهو إذا مات دون أن يتوب لا تنفع له شفاعة الملائكة أو الرسل أو الأولياء.
٧ ـ إن صفات الله ليست زائدة على ذات الله.

ومن هنا كان حديث «نلينو» عن أن «الجزء الأكبر من مذهب الأباضية في شمال أفريقية إذاً معتزلي»[4].

* * *

وقالت المعتزلة بتوحيد الله، سبحانه وتعالى، وتنزيهه، ونفي الصفات عنه،

---

(١) المصدر السابق. جـ ١ ص ١٢٦.
(٢) المصدر السابق. جـ ١ ص ١٢٧.
(٣) من أباضية القرن التاسع الهجري، والكتاب نشره المستشرق «موتيلنسلكي» بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ.
(٤) بحوث في المعتزلة. ص ٢٠٤؛ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨.

وفي هذا المقام «فإن قول الخوارج فيه كقول المعتزلة»، وذلك باستثناء الإرادة فقط، حيث نجد «الأباضية» تقف فيها موقف «بشر بن المعتمر»[1] من المعتزلة، وتخالف جمهور أهل الاعتزال[2]، كما يوافق جميع الخوارج فريقاً من المعتزلة يقول بأنه لا يصح «الوصف لله سبحانه بالقدرة على أن يظلم»[3].

كما يلاحظ الأشعري أن الفرقة الرابعة من فرق «الخوارج الأباضية» «يقولون بطاعة لا يراد الله بها، على مذهب «أبي الهذيل»، ومعنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعاً لله إذا فعل شيئاً أمره الله به، وإن لم يقصد الله بذلك الفعل ولا أراده به»[4].

* * *

كما أننا نلاحظ أن الجاحظ (١٥٩ - ٢٥٦ هـ ٧٧٥ - ٨٧٢ م)[5]، تعبيراً منه عن هذا القدر من الأرض المشتركة بين المعتزلة والخوارج، يتحدث عن مميزاتهم وميزاتهم في الحرب، حيث يتميزون «بخفة الأزواد وقلة الأمتعة، وأنها (أي الخوارج) تجنب الخيل وتركب البغال، وإن احتاجت أمست بأرض وأصبحت

---

(١) هو أبو سهل الهلالي بشر بن المعتمر، المتوفى سنة ٢١٠ وسنة ٢٢٦ هـ على خلاف في التحديد، وهو بغدادي، أخذ الاعتزال بالبصرة عن «بشر بن سعيد»، و «أبي عثمان الزعفراني»، وكانت له ميول شيعية سجنه من أجلها هارون الرشيد. ذكره ابن المرتضى في الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة. راجع الانتصار ص ١٣٣، ١٣٤، ١٩٤، ٢١٦، وأمالي المرتضى. ق ١ ص ١٨٧، وفلسفة المعتزلة جـ ١ ص ٢٦، ٢٧.

(٢) مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ١٢٤.

(٣) المصدر السابق. جـ ١ ص ١٢٥.

(٤) المصدر السابق. جـ ١ ص ١٥.

(٥) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، من موالي البصرة، اخذ الاعتزال عن إبراهيم بن سيار النظام، وكان موسوعي المعرفة ذا مذهب متكامل، وصاحب إلمام بثقافات الأمم القديمة من هند وفرس ويونان، وألف في الدين والفلسفة والكلام والاجتماع والسياسة والأدب والتاريخ الطبيعي والأجناس وغيرها من الفنون والعلوم، وكانت ولادته في عصر المهدي ثم عاصر الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمستنصر والمستعين والمعتز ومات في عهد المهتدي، وهو معدود في الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة. راجع الانتصار ص ١٥٤، وأمالي المرتضى ق ١ ص ١٩٤، ١٩٩، فلسفة المعتزلة جـ ١ ص ٢٠ - ٢٣.

بأخرى، وأنهم قوم حين خرجوا لم يخلفوا الأموال الكثيرة، والجنان الملتفة، والدور المشيدة، ولا ضياعاً ولا مستغلات، ولا جواري مطهمات، وأنهم لا سلب لهم ولا مال معهم فيرغب الجند في لقائهم، وإنما هم كالطير لا تدخر ولا تهتم لغد، ولها في كل أرض من المياه والأقوات ما تتبلغ به، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجنحتها تقرب لها البعيد وتسهل لها الحزون»[1].

كما نجد الخياط يدافع عن موقف الجاحظ هذا، ويراه إنصافاً واعترافاً بحقيقة موضوعية، وتفضيلاً للخوارج على الرافضة، وذلك على الرغم من أن الجاحظ لم يكن يتولى الخوارج ولا يميل إليهم[2].

وإذا كان المعتزلة إنما يرجعون بأصولهم الفكرية إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[3]، فإننا نجد منه موقفاً موضوعياً ومنصفاً للخوارج، رغم حربهم له وحربه لهم، ورغم تطرف الكثيرين منهم تجاهه، وذلك عندما «استأذنه قضاته في البصرة في القضاء بشهادة أهل البصرة من الخوارج وغيرهم أو ردها فأمرهم بقبولها، كما كان قبل الحرب، لأنهم حاربوا على تأويل، وفي رد شهادتهم تعصب وتجديد خلاف»[4].

ولعل هذا الموقف، إلى جانب المواقف الفكرية التي جمعت ما بين الخوارج وأصحاب الاعتزال، هي التي أوجدت هذه الأرض المشتركة ما بين الفرقتين من فرق المسلمين.

* * *

كما أننا نلاحظ أن أصل «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، قد ورثه المعتزلة، وأكدوا وجوبه، بعد أن تبلور على يد الخوارج، الذين كانوا فرسانه الذين لا يشق لهم غبار في هذا المجال.

ومن الذي لا يستطيع أن يلحظ صلة أصل «العدل»، فيما يتعلق بجوانب

(1) رسائل الجاحظ. جـ ١ ص ٤٢. تحقيق عبد السلام هارون. ط القاهرة سنة ١٩٦٤ م.
(2) الانتصار. ص ١٤١، ١٤٢.
(3) شرح الأصول الخمسة. ص ٢٤ هامش.
(4) تاريخ الجهمية والمعتزلة. ص ٨.

«الاختيار» والحرية الإنسانية بموقف الخوارج المجسد «للحرية والشورى والمساواة» إزاء قضية اختيار الإمام، الذي لم يشترطوا فيه غير الصلاحية واجتماع الشروط، بصرف النظر عن العرق والقبيلة أو اللون، أو ما شابه ذلك من المميزات، وكما يقول الجاحظ فلقد «طلب أوائل الخوارج الخلافة بالدين وحده دون النسب»[1].

إذاً فلقد كان «العدل والتوحيد» رباطاً فكرياً جمع ما بين كل المعتزلة والأغلبية الساحقة من فرق الخوارج طوال القرون العديدة التي عاشها «العدل والتوحيد» في ضمير العرب المسلمين وعقولهم، وهو لا يزال يجمع بينهم حتى الآن.

* * *

أما عن الأرض الفكرية المشتركة التي تجمع ما بين المعتزلة وبين الشيعة الإمامية، فإنها طويلة عريضة ثابتة، لا تخفى على الباحث في هذا المقام، وذلك شريطة أن نحدد أن إطار هذه الأرض الفكرية المشتركة إنما هو:

١ ـ اعتقاد الجميع بالعدل والتوحيد.

٢ ـ إلى جانب رفض المعتزلة للتشيع المتطرف، ومحاربتهم للفرق الغالية في هذا الميدان.

وعلى الرغم من عدم الود الذي كان من الإمام الشيعي جعفر الصادق[2] تجاه واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١ هـ ٦٩٩ ـ ٧٤٩ م)[3]، عندما التقى واصل بعدد من

---

(١) الحيوان، للجاحظ. جـ٢ ص ١٠٢. تحقيق عبد السلام هارون. ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

(٢) هو سادس الأئمة الاثني عشر لدى الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ومن كبار علمائهم، توفي سنة ١٤٨ هـ ٧٦٥ م.

(٣) هو ابو حذيفة واصل بن عطاء، الملقب بالغزال، من الموالي، ولد بالمدينة ثم ذهب الى البصرة، وتردد على حلقة الحسن البصري، والتقى في البصرة كذلك بمعبد الجهني القائل بخلق الإنسان لأفعاله، وبالجهم بن صفوان المنزه لله عن الصفات، وتزوج أخت عمرو بن عبيد، وهو أول من نظم حركة الاعتزال وأوجد لها هيكلاً تنظيمياً وأرسل لها البعوث والدعاة في مختلف الأقاليم، وله مؤلفات كثيرة ضاعت كلها، ومنها: طبقات المرجئة، وطبقات العلماء والجهلاء، وكتاب التوبة، وكتاب المنزلة بين المنزلتين، ومعاني القرآن وخطبة في التوحيد والعدل، والطريق لمعرفة الحقيقة، وكتاب الدعوى. راجع (البيان والتبيين) للجاحظ جـ١ ص ١٥، ١٦، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٩،=

أئمة أهل البيت يدعوهم لأفكار المعتزلة في أحد مجالس المدينة[1]، إلا أننا إذا التمسنا الشواهد والأدلة على تبني الشيعة الإمامية، في جملتها، لأصلي «العدل والتوحيد»، فإننا واجدون أنفسنا إزاء سيل من الأدلة والشواهد والحقائق الايجابية في هذا الميدان.

بل إن من بين هذه الأدلة ما نجده في هذه الرسائل التي نقدم بين يديها هذا الحديث، وذلك أن إحدى هذه الرسائل، وهي (إنقاذ البشر من الجبر والقدر) إنما هي من إملاء الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ ٩٦٥ - ١٠٤٤ م)، وهو علاوة على أنه من فضلاء الشيعة الإمامية والمقدمين في صفوفهم، بل والذي انتهت إليه رئاسة نقابة الطالبيين في عصره، فإنه تلميذ للشيخ أبي عبد الله المرزباني، والذي كان أديباً وشيخاً من شيوخ المعتزلة[2]، كما أخذ أصول العدل والتوحيد كذلك عن قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني[3]، ولقد عده الحاكم أبو سعد المحسن بن كرامة[4] في الطبقة الثانية عشرة من طبقات المعتزلة، وكذلك فعل ابن المرتضى[5].

فإذا نحن التمسنا موقف قدماء الشيعة من فكرية «العدل والتوحيد»، فإننا واجدون أن المعتزلة، بوجه عام، إنما يرجعون بفكرهم هذا ويرجعونه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ويعدون أئمة التشيع الأول في مقدمة طبقات المعتزلة والرعيل الأول لرجالاتهم، وفي مقدمة شرح القاضي عبد الجبار للأصول الخمسة بتعليق أبي محمد إسماعيل بن علي الفرزاذي[6] يقول: إنه أخذ هذه

= ٣٣، ٣٦، ٥٠، ٥١، تحقيق عبد السلام هارون، ط القاهرة سنة ١٩٤٨ م، والمنية والأمل ص ٢٠٦، وأمالي المرتضى. ق ١ ص ١٦٣، ١٦٥، وفلسفة المعتزلة جـ ١ ص ١٣ - ١٥.

(١) المنية والأمل. ص ٢٠.

(٢) أمالي المرتضى. ق ١ ص ٧.

(٣) شرح الأصول الخمسة. ص ١٨.

(٤) شرح عيون المسائل جـ ١ مصورة. دار الكتب المصرية (٢٧٦٢٣ ب)

(٥) المنية والأمل، وهو في ذلك ينقل عن (شرح عيون المسائل).

(٦) مصورة بدار الكتب المصرية (٢٧٧٩٩ ب).

الأصول من الفقيه الإمام الأوحد نجم الدين أحمد بن أبي الحسين الكني، وهو عن الفقيه الإمام الأجل محمد بن أحمد الفرزاذي، وهو عن عمه الشيخ السعيد البارع إسماعيل بن علي الفرزاذي، وهو عن محمد بن مزدك، وهو عن أبي محمد بن متوية[1]، وهو عن الشيخ أبي سعيد النيسابوري[2]، وهو عن قاضي القضاة عماد الدين عبد الجبار بن أحمد، رحمه الله، وهو عن الشيخ المرشد أبي عبد الله البصري[3]، وهو عن الشيخ أبي علي بن خلاد[4]، وهو عن الشيخ أبي هاشم[5]، وهو عن أبيه الشيخ أبي علي الجبائي[6]، وهو عن أبي يعقوب الشحام[7]، وهو عن عثمان الطويل[8]، وهو عن الشيخ أبي الهذيل، وهو عن واصل بن عطاء، وهو عن أبي هاشم محمد بن الحنفية[9]، وهو عن أبيه أمير

(١) صاحب كتاب (التذكرة). مصورة. دار الكتب المصرية (٢٧٨٠١ ب).

(٢) هو أبو رشيد سعيد بن محمد النيسابوري، وهو من الطبقة الثانية عشرة من طبقات المعتزلة. ذكره الحاكم في (شرح عيون المسائل) وكذلك ابن المرتضى في (المنية والأمل).

(٣) وهو معدود عند الحاكم وابن المرتضى في الطبقة العاشرة من رجال الاعتزال، ولقد ولد سنة ٣٠٨ هـ توفي سنة ٣٩٩ هـ. راجع كذلك فلسفة المعتزلة. جـ ١ ص ٣٣.

(٤) ذكره الحاكم وابن المرتضى في الطبقة العاشرة.

(٥) هو أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي (٢٧٧ - ٣٢١ هـ ٨٩٠ - ٩٣٣ م)، جاء البصرة سنة ٣١٤، وله مصنفات كثيرة منها: كتاب الجامع الكبير، وكتاب الأبواب الكبير، وكتاب الإنسان، وكتاب العوض، وكتاب المسائل العسكرية، وكتاب النقد، أي (نقد الكون والفساد لأرسطو) وكتاب الطبائع، وكتاب الاجتهاد، والأبواب الصغير، ونقض الالهام، وجواب الجحيدي، ونقض النصوص، والاشروسنيات والبغداديات، ونقض المرجان، راجع المغني في ابواب التوحيد والعدل. جـ ٨ ص ٤٧، ٦٣، ١٦٧، ١٧٢، جـ ٩ ص ٨٩، ١٢٤، ١٣٨، وفلسفة المعتزلة جـ ١ ص ٢٥، ٣٣.

(٦) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سالم بن خالد بن عمران بن أبان، الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣ هـ ٨٤٩ - ٩١٥ م) من مواليد «جبا» في الخوزستان، أخذ الاعتزال بالبصرة عن الشحام، وكان أستاذ للأشعري، ومن مصنفاته: كتاب في الأصول، ونقد ابن الراوندي الملحد، وتفسير القرآن بلغة أهل «جبا»، والتعديل والتجوير، والأسماء والصفات، راجع المغني في أبواب التوحيد والعدل جـ ٦ ق ١ ص ٢٧، وجـ ٢٠ ق: ص ٢٣٢، وفلسفة المعتزلة. جـ ١ ص ٢٤، ٢٥، ٣٣١.

(٧) هو أبو يعقوب يوسف بن عبدالله بن اسحق الشحام (١٥٣ - ٢٣٣ هـ ٧٦٧ - ٨٤٧ م)، بصري، أخذ الاعتزال عن أبي الهذيل العلاف، راجع الانتصار ص ١٩١، ١٩٢، وفلسفة المعتزلة. جـ ١ ص ٣٢.

(٨) وهو الذي بعث به واصل بن عطاء الى «ارمينيا» لينشر فيها الاعتزال.

(٩) وكنيته أبو القاسم (٢١ - ٨١ هـ ٦٤٢ - ٧٠٠ م) وهو القائل: «أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس =

المؤمنين علي، عليه السلام[1].

فإذا نحن نظرنا في الكتب التي تحدثت عن طبقات المعتزلة، وخاصة عند الحاكم أبي سعد المحسن بن كرامة، وأحمد بن يحيى بن المرتضى وجدنا الحسن بن علي بن أبي طالب وأخاه الحسين، معدودان في الطبقة الثانية من رجال الاعتزال، كما نجد في الطبقة الثالثة: الحسن بن الحسن، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، والنفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، وأبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، والحسن بن محمد بن الحنفية، ومحمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وزيد بن علي، كما أننا واجدون في الطبقة التاسعة الحسن بن موسى النوبختي، وهو من أعلام الشيعة الإمامية[2].

كما أننا نجد ابن المرتضى يذكر لنا، تدليلاً على قول الحسن بن علي بن أبي طالب بالعدل، كتابه إلى أهل البصرة، والذي يقول فيه: «. . . من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر، إن الله لا يطاع استكراهاً، ولا يعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين ما فعلوا، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي أجبرهم على ذلك. فلو أجبر الله الخلق على الطاعات لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عجزاً في القدرة. . الخ. . الخ. . »[3].

كما أننا نجد الشريف المرتضى يذكر جواب موسى الكاظم[4] لأبي حنيفة النعمان بن ثابت[5] على سؤاله: «ممن المعصية؟» والذي يقول فيه: «إن المعصية لا بد أن تكون من العبد، أو من ربه، أو منهما جميعاً، فإن كانت من الله تعالى،

= أنداداً من دون الله، نحن وبنو عمنا هؤلاء، يعني بني أمية» راجع (كتاب الطبقات الكبير) لمحمد بن سعد. جـ ٥ ٩٨. طليدن سنة ١٣٢٢ هـ.

(١) شرح الأصول الخمسة. ص ٢٤ «هامش».

(٢) وهو صاحب كتاب (فرق الشيعة).

(٣) المنية والأمل. ص ١٠.

(٤) هو ابن جعفر الصادق، والإمام السابع من أئمة الشيعة الأثني عشرية، توفي سنة ١٨٣ هـ سنة ٧٩٩ م.

(٥) صاحب المذهب الفقهي المشهور، ولد سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٥٠.

فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده، ويأخذه بما لم يفعله، وإن كانت منهما فهو شريكه، والقوي أولى بإنصاف عبده الضعيف، وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر، وإليه توجه النهي، وله حق الثواب والعقاب، ووجبت الجنة والنار»[1].

وإذا كان المعتزلة قد أسهموا مع الشيعة، وكجزء من نشاطها العملي السياسي في إسقاط الدولة الأموية، وإذا كان «مذهب واصل ومذهب المعتزلة الأوائل كان هو المذهب الكلامي الرسمي للحركة العباسية»[2]، فإن المعتزلة اختلفوا مع عدد من خلفاء بني العباس لتنكر هؤلاء الخلفاء للشيعة العلويين واضطهادهم، واستئثارهم دونهم بالحكم والسلطان.

فعلى الرغم من صلات أبي جعفر المنصور (١٣٧ - ١٥٩ هـ ٧٥٤ - ٧٧٥ م) بفكر المعتزلة، واختلافه إلى حلقاتهم، إلا أننا نجد المعتزلة يناصرون إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي أبي طالب، ويقاتلون معه عندما خرج على الدولة العباسية «بالبصرة، فغلب عليها وعلى الأهواز وعلى فارس وأكثر السواد، وشخص عن البصرة في المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور، ومعه عيسى بن زيد بن علي، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى، وسعيد بن سلم، فحاربهما إبراهيم حتى قتل، وقتلت المعتزلة بين يديه»[3].

فإذا جاء عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٤ هـ ٧٨٦ - ٨٠٩ م) نجده يسجن بشر بن المعتمر[4] «لاتهامه بميول شيعية»[5] كما نجد أبا جعفر الاسكافي[6] معدوداً

---

(١) أمالي المرتضى. ق ١. ص ١٥٢، كما يذكر الشريف المرتضى أيضاً «إن محمداً وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن كانا ممن دعاهما واصل إلى القول بالعدل فاستجابا له، وذلك لما حج واصل ودعا الناس بمكة والمدينة» نفس المصدر. ق ١ ص ١٦٩.

(٢) الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام. الفصل السابع ص ٥٨ - ٧١. والكاتب هنا ينقل عن الدكتور نيبرج وجهة النظر هذه.

(٣) مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ٧٩.

(٤) ولقد قال في سجنه شعراً في العدل والتوحيد أخذ الناس في ترديده، حتى قالت حاشية الرشيد له في ذلك: إن بشراً في سجنه أخطر مما كان حراً. راجع فلسفة المعتزلة جـ ١ ص ٢٦، ٢٧، وتعليقات د. نيبرج على كتاب الانتصار ص ١٩٤، ٢١٦.

(٥) الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام. الفصل السابع. ص ٥٨ - ٧١.

(٦) هو محمد بن عبد الله، المتوفى سنة ٢٤٠ هـ سنة ٨٥٤م، اخذ الاعتزال عن جعفر ابن حرب =

«من رؤساء متشيعة المعتزلة»[1].

كما نجد الجاحظ ينفي عن نفسه الخروج «من حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه إلى حد السرف والإفراط فيه»[2].

فإذا جاء الخياط وجدناه يحدد بجلاء ووضوح تلك الوشائج التي تربط ما بين حركتي التشيع والاعتزال، فيدافع عن «من تشيع من المعتزلة» قائلاً إنه «ليس يضر قول الغلاة لأهل الاقتصاد من المتشيعة، لأن الاقتصاد في التشيع حق، وهو ديننا، وهو وضع آل أبي طالب حيث وضعهم الله، وليس يضر الحق شيء من الباطل»[3].

ومما هو جدير بالذكر، أن هذه الأرض الفكرية المشتركة التي جمعت ما بين معتدلي الشيعة وما بين المعتزلة، وجعلت منهم جميعاً أهلاً وأصحاباً لفكرية «العدل والتوحيد»، لم تنقرض أو تذهب بها القرون والحقب، بل لا تزال الشيعة الإمامية، سواء في العراق أو في إيران أو في الهند أو في الشام، تذهب في الأصول، ما عدا الإمامة والعصمة طبعاً، مذهب أهل العدل والتوحيد حتى هذه الأيام[4].

* * *

وليست الخوارج فقط، ولا الشيعة الإمامية فحسب، هما الاتجاهان

= الحمداني، ومن مصنفاته: كتاب يفضل فيه علياً على أبي بكر، والرد على أبي الهذيل في مسألة المتناهي، وكتاب في مجالس دارت بينه وبين السكاك، وهو معدود في الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة. راجع الانتصار. ص ١٤٢، ٢٠٢، وفلسفة المعتزلة جـ ١ ص ٣١.

(١) الانتصار. ص ١٠٠.

(٢) الحيوان. جـ ١ ص ٧. وهذا الاقتصاد في التشيع والاعتدال فيه هو الذي يعبر عنه بشر بن المعتمر، شعراً عندما يقول:

لسنا من الرافضة الغلاة ولا من المرجئة الجفاة
لا مفرطين بل نرى الصديقا مقدماً والمرتضى الفاروقا

نبرأ من عمرو ومن معاوية.

راجع تطبيقات د. نيبرج على الانتصار. ص ٢١٦.

(٣) الانتصار. ص ١٥٦.

(٤) تاريخ الجهمية والمعتزلة. ص ٤٢.

الفكريان، في تراثنا العربي الإسلامي، اللذين بينهما وبين المعتزلة أرض فكرية مشتركة، تجعلهم جميعاً يقفون على أرضية فكرية أهم قسماتها هي القول «بالعدل والتوحيد»، بل إننا نجد الأشعري يحدثنا عن أوجه للشبه والاتفاق في عدة نقاط ما بين المرجئة وأهل الاعتزال.

فعندما تختلف فرق المرجئة حول الموقف من التوحيد نرى فريقاً منهم يقول فيه بقول المعتزلة[1].

وعندما يختلفون حول رؤية الله نجد أن «منهم من مال في ذلك إلى قول المعتزلة، ونفى أن يرى الباري بالأبصار»[2].

وبصدد الخلاف حول القرآن، فلقد «قال قائلون منهم أنه مخلوق»[3].

وعندما يختلفون بصدد «القدر»، فإننا نجد أن «منهم من مال إلى قول المعتزلة في القدر»[4].

وعندما يختلفون في أسماء الله وصفاته فإن منهم من يميل «إلى قول المعتزلة في ذلك»[5].

كما أننا نجد «النجارية» من فرق المرجئة الجبرية، وهم أتباع محمد بن الحسين النجار «يوافقون المعتزلة في مسائل الصفات والقرآن والرؤية»[6].

كما أننا نجد أنه «ليس بين المعتزلة، والمرجئة، وأصحاب الحديث كبير خلاف في أمر الصحابة والولاية لهم، وإنما خلافهم في تفضيل بعض الأئمة العادلة عندهم على بعض، فأما ولاية الجميع، والترحم عليهم، والتقرب إلى الله بمحبتهم، فلا خلاف بينهم في ذلك[7].

* * *

(١) مقالات الاسلاميين. جـ ١ ص ١٥٢.
(٢) المصدر السابق. جـ ١ ص ١٥٣.
(٣) المصدر السابق. جـ ١ ص ١٥٣.
(٤) المصدر السابق. جـ ١ ص ١٥٤.
(٥) المصدر السابق. جـ ١ ص ١٥٤.
(٦) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. ص ٦٨، و (كشاف اصطلاحات الفنون) محمد أعلى بن علي التهانوي. ص ١٣٨٢، ١٣٨٣. ط كلكتة سنة ١٨٩٢.
(٧) الانتصار. ص ١٣٩.

وإذا كانت الشيعة بفروعها المختلفة، وكذلك الخوارج، ومعهم القائلون بالإرجاء، لا يمثلون الأغلبية في تعداد جماهير العالم الإسلامي، وإذا كانت أغلبية تعداد المسلمين هم أولئك الذين اصطلح على تسميتهم بأهل السنة والجماعة، فإن علينا أن نشير إلى موقف أئمة هذا الفريق من أصلي «العدل والتوحيد»، استكمالاً لبناء البحث الذي نحاول به اكتشاف مدى اتساع الأرض التي تمثلها فكرية «العدل والتوحيد» في حقل الاعتقاد عندنا نحن المسلمين، ومن ثم مدى صلاحية هذه الفكرية لأن تكون أرض لقاء للأمم الإسلامية، ومنطلقاً متحداً لشعوب هذه الأمم في تطور حضاري مستقبل يعيد لها المجد الذي سلبه منها الأعداء.

ولعله من المفيد، بل والضروري كذلك، أن نحدد المقصود باصطلاحي «أهل السنة» و«أهل الجماعة» اللذين يطلقان، دونما دقة أو تدقيق، على جمهور المسلمين الذين يرون رأي الأشاعرة في الاعتقادات.

فإذا كان المقصود «بالسنة» سنة رسول الله ﷺ، من قول وفعل وإقرار، فليس ذلك الأمر مقصوراً على الأشاعرة والأشعريين، لأن الشيعة والخوارج والمعتزلة، جميعهم يلتمسون الهدى والإرشاد، ضمن ما يلتمسونه من أحاديث الرسول، عليه الصلاة والسلام. وليس في المعتزلة، وهم قمة من مجد العقل وأعلى من شأنه في مدارس الفكر العربي الإسلامي، من يرفض الاحتجاج بالحديث، فقط هم يقدمون العقل على النقل، ويسلكون سبيل التأويل لظواهر النصوص عندما تتعارض هذه الظواهر مع معطيات العقل وثمرات البرهان، ويكفي أن نلقي نظرات، ولو سريعة، على كتب طبقات المحدثين لنجد من بينهم عشرات من أهل «العدل والتوحيد»، ومن بين الرواة الذين روى عنهم «البخاري» و«مسلم» نجد من أهل «العدل والتوحيد» الكثير من الأسماء، مثل: بشر بن السري، وثور بن زيد المدني، وثور بن يزيد الحمصي، وحسان بن عطية المحاربي، والحسن بن ذكوان، وداود بن الحصين، وزكريا بن إسحق، وسالم بن عجلان، وسلام بن عجلان، وسلام بن مسكين، وسيف بن سليمان المكي، وشبل بن عباد، وشريك بن أبي نمر، وصالح بن كيسان، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن أبي الوليد، وعبد الله بن أبي نجيح، وعبد الأعلى بن عبد الأعلى،

وعبد الرحمن بن إسحق المدني، وعبد الوارث بن سعيد الثوري، وعطاء بن أبي ميمونة، والعلاء بن الحارث، وعمرو بن أبي زائدة، وعمران بن مسلم القصير، وعمير بن هانيء، وعثوف الأعرابي، وكهمس بن المنهال، ومحمد بن سواء البصري، وهارون بن موسى الأعور النحوي، وهشام الدستوائي، ووهب بن منبه، ويحيى بن حمزة الحضرمي.

بل إن من هؤلاء الرواة من نجد أحاديثه التي رواها واردة في كتب السنة الستة، ومن اعتمدت روايته لدى الإمام أحمد بن حنبل، أكثر أصحاب الأثر والحديث عداء للمعتزلة وبعداً عن التأويل[1].

وإذاً، فإن اصطلاح «أهل السنة»، إذا عنينا بها أحاديث الرسول، عليه الصلاة والسلام، وآثاره، فإنه لا يخص فريقاً دون فريق، وليست الأشعرية أو أصحاب الأثر بأولى به من أهل «العدل والتوحيد».

أما إذا كان المقصود «بالسنة» هو «المحافظة» و«التقليد»، بالمعنى الحديث لهذه المصطلحات، فإن أهل «الحديث وأصحاب الأثر» هم أولى بهذا اللقب من الأشعريين، وذلك لأنه من المعلوم جيداً أن الأشاعرة، في ميدان الفكر والعقيدة، قد وقفوا موقفاً وسطاً بين المعتزلة وبين أصحاب الحديث، وكانت فكرة «الكسب» التي وصفوا بها فعل الإنسان، محاولة، وإن تكن غير ناجحة، لحل وسط بين المعتزلة القائلين بخلق الإنسان لأعماله، وبين الجبرية الخالصة الذين رأوه كالريشة المعلقة في الهواء بلا حول ولا سلطان[2]، ومن ثم فإن أصحاب الجبر الخالص، وهم الجهمية، أولى بمصطلح «أهل السنة»، إذا كان يعني «المحافظة والتقليد»، أما إذا كان المقصود سنة الرسول، عليه الصلاة والسلام، فليس أحد من هؤلاء الفرقاء بأولى من الآخر، وليس أحد منهم بأولى به من أهل «العدل والتوحيد» بأي حال من الأحوال.

---

(١) تاريخ الجهمية والمعتزلة. ص ٥٧، ٥٨.

(٢) في كشاف اصطلاحات الفنون. يحدث التهانوي ص ٢٠ عن «الجبرية» قائلا: إنها «فرقة من كبار الفرق الاسلامية كالجهمية. قالوا لا قدرة للعبد أصلاً، لا مؤثرة ولا كاسبة، بل هو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منها... وأما أهل السنة والجماعة وكذا النجارية والضرارية مجبرة متوسطة، أي غير خالصة، بل متوسطة بين الجبر والتفويض، لانهم مثبتون للعبد كسباً بلا تأثير فيه».

أما عن مصطلح «أهل الجماعة»، فإنه مصطلح سياسي أكثر منه مصطلح خاص بمجال الاعتقادات، وهو مصطلح سياسي، أموي النشأة، على وجه التحديد، ذلك أن معاوية بن أبي سفيان قد أطلق على العام الذي تنازل له فيه الحسن بن علي بن أبي طالب عن السلطة، وهو عام ٤١ هـ عام «الجماعة»، والجماعة هنا هم الذين بايعوا معاوية، ولم يبايعه يومئذ الخوارج، ولا الشيعة الذين لم يرضوا عن «استسلام» الحسن لابن أبي سفيان.

فإذا ما شئنا الحديث بمنطق العقيدة والفكر الخاص بعقائد المسلمين، فإننا لن نجد لهذا المصطلح ميزة يفضل بها فريق فريقاً آخر، أما إذا شئنا الحديث بمنطق السياسة والساسة، فإننا نجده مرتبطاً بأحداث سياسية تخطتها القرون، وليس بمنطقي، ولا هو من الصواب في شيء، أن نعيش في النصف الثاني من القرن العشرين أسرى لحزازات وعصبيات وملابسات صنعتها سنوات القرن السابع للميلاد.

ولكننا سنتجاوز، مؤقتاً، عن هذه الملاحظات التي قدمناها حول دقة استعمال هذه المصطلحات، ومدلولاتها، وصلاحياتها الحالية، ونحاول استكشاف مواقع المفكرين والأئمة الأول لمن نسميهم «أهل السنة والجماعة» من فكرية «العدل والتوحيد»..

ومرة أخرى نقول إن في مجموعة الرسائل التي نقدم بين يديها دليلاً قوياً يسعفنا في هذا المقام، ذلك أن أولى هذه الرسائل التي تنتصر لفكرية «العدل والتوحيد» إنما هي للحسن البصري (١ - ١١٠ هـ ٦٤١ - ٧٢٨ م)[1]، وهو من هو علماً وورعاً ومقاماً لا يدانيه مقام في قلوب «أهل السنة والجماعة»، بل وسائر فرق المسلمين بوجه عام.

---

(١) هو الحسن بن أبي الحسن: واسم ابيه يسار، وكان أبوه من سبى «ميسان»، وهي «كورة» بين البصرة وواسط افتتحها المغيرة بن شعبة زمن عمر بن الخطاب، وكانت أمه «خيرة» مولاة لأم سلمة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانت ترضعه أحياناً في غياب أمه، ولقد شهد بالمدينة مقتل عثمان بن عفان وهو ابن أربعة عشر عاماً، وهو معدود في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة. راجع (تهذيب التهذيب) جـ ٢ ص ٢٧٠، والملل والنحل جـ ١ ص ٤٧، وشرح عيون المسائل جـ ١ اللوحة ٧٢، والمعارف لابن قتيبة ص ٤٤١، ٤٤٢، وآمالي المرتضى ق ١. ص ١٦٢.

بل إننا نود أن نشير إلى أن سمو مقام الحسن البصري في نظر الجميع، قد جعلت العديد من الفرق الإسلامية تتنازع نسبته إليها، وتضع له بين أئمتها وجهابذتها المكان البارز والرفيع.

فصاحب (تهذيب التهذيب)، وهو من المجبرة المتوسطة، لا يستطيع أن يغفل قول الحسن البصري «بالعدل»، ولكنه يروي عن بعض من يروي عنهم أن الحسن قد رجع عن قوله هذا، وهو يجتهد ليعدد روايات القائلين «بتوبته» عن هذا القول[1].

أما ابن قتيبة فإنه يرى في قول الحسن البصري بقول أهل «العدل والتوحيد» في موضوع أفعال العباد، مجرد «شبهة» سببها خوضه في السياسة ضد الأمويين[2].

غير أننا نجد المعتزلة، أهل العدل والتوحيد، يعدون الحسن البصري في الطبقة الثالثة من طبقات أئمتهم[3]، ويذكرون له آراءه في العدل والتوحيد، ومن بينها الرسالة التي كتبها إلى عبد الملك بن مروان جواباً عن سؤاله إياه أن يكتب له حول مقالته في «القدر»، وهي التي صدرنا بها هذه الرسائل في العدل والتوحيد.

بل إننا لم نعدم من يشكك في صحة نسبة هذه الرسالة للحسن البصري، فنجد الشهرستاني يقول: «ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصري، كتبها إلى

---

(١) يقول ابن حجر العسقلاني: «روى معمر عن قتادة عن الحسن (البصري) قال: الخير بقدر، والشر ليس بقدر. قال أيوب: فناظرته في هذه الكلمة، فقال: لا أعود. وقال حميد الطويل: سمعته يقول: خلق الله الشياطين، وخلق الخير، وخلق الشر. وقال حماد بن مسلمة، عن حميد: قرأت القرآن على الحسن ففسره على الاثبات، يعني على إثبات القدر، وكذا قال حبيب بن الشهيد ومنصور بن زاذان. وقال رجاء بن أبي مسلمة، عن ابن عون: سمعت الحسن يقول: من كذب بالقدر فقد كفر» راجع (تهذيب التهذيب). ص ٢٧٠. الطبعة الأولى. حيدر آباد سنة ١٣٢٥ هـ.

(٢) يقول ابن قتيبة عن الحسن البصري: «... وكان قد تكلم في شيء من القدر، ثم رجع عنه... وكان عطاء بن يسار، قاصاً، ويرى القدر، وكان لسانه يلحن، فكان يأتي الحسن هو ومعبد الجهني، فيسألانه، ويقولان: يا أبا سعيد، إن هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون الأموال، ويفعلون، ويفعلون، ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله، فقال: كذب أعداء الله. فتعلق عليه بهذا وأشباهه» المعارف ص ٤٤٢. تحقيق د. ثروت عكاشة. ط القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

(٣) راجع (شرح عيون المسائل جـ ١ اللوحة ٧٢، والمنية والأمل. ص ١٥).

عبد الملك بن مروان، وقد سأله عن القول بالقدر والجبر، فأجابه فيها بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بآيات من الكتاب ودلائل من العقل. ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خيره وشره من الله تعالى، فإن هذه الكلمات كالمجمع عليها عندهم[1].

فإذا عن للبعض أن يشكك في مكان الحسن البصري بين أئمة أهل العدل والتوحيد، بخلافه الشهير مع واصل بن عطاء، وخروج واصل عن حلقة الحسن البصري التعليمية، وتلقيب واصل وأصحابه بالمعتزلة لاعتزالهم مجلس الحسن وخلافهم معه، فإننا نود أن نقول رداً على هذا الاعتراض، بأن الخلاف بين الحسن وبين واصل إنما كان حول أصل «المنزلة بين المنزلتين»، وهل مرتكب الكبيرة «منافق»، كما رأى ذلك الحسن، أم «فاسق»، كما قال واصل؟ وهل هو خالد في النار؟ أم لا؟ . . ولم يكن خلافهما حول أصلي «العدل والتوحيد» [2].

و«المنزلة بين المنزلتين»، هو أشبه بالموقف السياسي منه بأي شيء آخر، فلقد كان المقصود به تحديد الموقف من الأمويين، باعتبارهم مرتكبي الكبائر، هم وعمالهم وأنصارهم في حق جماهير المسلمين، فهم في نظر الحسن البصري «أعداء الله» كما قال لعطاء بن يسار[3]، وعندما يسأله رجل: هل يأخذ عطاءه الذي فرضه له بنو أمية، أم يدعه حتى يأخذه من حسناتهم يوم القيامة؟ يسرع الحسن

---

(١) راجع: الملل والنحل جـ ١ ص ٤٧. ونود أن نشير إلى أن روايات الشهرستاني عن مقالات المعتزلة، إنما هي متحاملة، بل ومصدرها الأساسي كتاب ابن الراوندي، المسمى (فضيحة المعتزلة)، فإنه يكاد أن يكون «كلام كل من الشهرستاني والبغدادي عين ما يقوله الراوندي مما يدعو إلى الشك في قيمة روايتهما. وقد كان ابن الراوندي من المعتزلة، فخرج عليهم، فطردوه، فألف الكتاب في الطعن عليهم وفي الطعن في الإسلام». د. محمد عبد الهادي أبو ريدة (إبراهيم بن سيار النظام) ص ١٤٠، ١٤١ ط القاهرة سنة ١٩٤٦.

كما يقول فخر الدين الرازي عن «الملل والنحل» وصاحبه: إنه «كتاب حكى فيه مذاهب أهل العالم، بزعمه، إلا أنه غير معتمد عليه، لأنه نقل المذاهب الاسلامية من الكتاب المسمى بالفرق بين الفرق، من تأليف الأستاذ أبي منصور البغدادي، وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين» تاريخ الجهمية والمعتزلة. ص ٢٣، ٢٤.

(٢) آمالي المرتضى. ق١ ص ١٦٦.

(٣) المعارف لابن قتيبة. ص ٤٤٢.

فيجيبه بقوله: «قم . . ويحك!! خذ عطاءك، فإن القوم مفاليس من الحسنات يوم القيامة»!؟[1] وهو الذي يقول للحجاج بن يوسف الثقفي: «يا أخبث الأخبثين وأفسق الفاسقين، فأما أهل السماء فمقتوك، وأما أهل الأرض فغروك»، كما يقول عنه: «ما زال النفاق مقموعاً حتى عمم هذا عمامة وقلد سيفاً»[2].

ولقد اختلف الحسن البصري مع واصل بن عطاء حول الموقف من هؤلاء، أمنافقون هم؟ أم فسقة؟ أمخلدون هم في النار؟ أم معذبون فيها إلى حين، طال هذا الحين أم قصر؟ . . أما «العدل والتوحيد» فلم يكن بين الحسن البصري وبين واصل بن عطاء، أو غيره من المعتزلة، خلاف فيه بأي حال من الأحوال.

وكما تختلف «الزيدية» مع المعتزلة حول الإمامة، وهو موقف سياسي، دون أن يخرجهم هذا الخلاف من إطار أصحاب «العدل والتوحيد»، وكما تختلف الشيعة الإمامية، غير الغالية، مع المعتزلة حول الإمامة، وهو موقف سياسي، دون أن يخرجهم هذا الخلاف عن إطار القائلين بجوهريات «العدل والتوحيد»، فكذلك المواقف السياسية التي توزعت الكثير من السلف الصالح، لا يمكن لها أن تبعد بهؤلاء الأعلام عن أرضية «العدل والتوحيد» الفكرية، التي جمعت خيرة السلف الصالح من أتباع الرسول، عليه الصلاة والسلام.

وإذا نحن شئنا دليلاً ليست عليه شبهات «المجبرة المتوسطة»، التي يثيرونها حول مكان الحسن البصري من أصحاب «العدل والتوحيد»، فإننا واجدون في الحسن بن محمد بن الحنفية (١٠٠ هـ ـ ٧١٨ م)[3] هذا الدليل. . . فهو معدود، دون نزاع أو خلاف، في الطبقة الثالثة من طبقات رجال الاعتزال، وهو أستاذ غيلان الدمشقي[4]، الذي تعلم على يديه أصول «العدل والتوحيد»، وذلك على الرغم من

---

(١) أمالي المرتضى. ق ١ ص ١٥٩.

(٢) المرجع السابق. ق ١ ص ١٦٠، ١٦١.

(٣) وهو من التابعين، وكنيته: أبو محمد، وكان من ظرفاء بني هاشم وأهل العقل فيهم، ولقد توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ولم ينجب ولداً، راجع: طبقات ابن سعد. جـ ٥ ص ١٤١. وتهذيب التهذيب جـ ٢ ص ٣٢٠، ٣٢١، وشرح عيون المسائل جـ ١ لوحة ٧٢.

(٤) هو أبو مروان غيلان بن مسلم الدمشقي، من الطبقة الرابعة للمعتزلة، قتله هشام بن عبد الملك بعد أن صلبه ومثل به بباب دمشق، لانه كان ينادي على متاع بني أمية، عندما استعان به عمر بن =

الموقف السياسي الذي توقف فيه الحسن بن محمد عن إدانة، أو تولي، كل من الفريقين المتقاتلين، فريق معاوية بن أبي سفيان، وفريق جده علي بن أبي طالب، فلقد تولى أبا بكر وعمر بن الخطاب، للاجماع عليهما، ثم «أرجأ» أمر الآخرين إلى علم الله وحكمه، وكان هذا هو اللون الخاص من ألوان الإرجاء الذي قال به فريق من أهل «العدل والتوحيد»، بل لقد وضع الحسن بن محمد في ذلك كتاباً، وأمر بقراءته على الناس، وعن ذلك يقول ابن حجر العسقلاني: إن «المراد بالارجاء الذي تكلم الحسن بن محمد فيه غير الارجاء الذي يعيبه أهل السنة، المتعلق بالإيمان، وذلك أني وقفت على كتاب الحسن بن محمد، المذكور، أخرجه ابن عمر العدني في كتاب: الإيمان، له، في آخره قال: حدثنا إبراهيم بن عيينه، عن عبد الواحد بن أيمن، قال: كان الحسن بن محمد يأمرني أن أقرأ هذا الكتاب على الناس: أما بعد. . فإنا نوصيكم بتقوى الله، فذكر كلاماً كثيراً في الموعظة والوصية لكتاب الله، واتباع ما فيه، وذكر اعتقاده، ثم قال في آخره: ونوالي أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، ونجاهد فيهما، لأنهما لم تقتتل عليهما الأمة، ولم تشك في أمرهما، ونرجىء من بعدهما ممن دخل في الفتنة، فنكل أمرهم إلى الله، إلى آخر الكلام. فمعنى الذي تكلم فيه الحسن: أنه كان يرى عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين في الفتنة بكونه مخطئاً أو مصيباً، وكان يرى أنه يرجىء الأمر فيهما. وأما الارجاء الذي يتعلق بالإيمان فلم يعرج عليه»[1] وذلك هو تفسير قول الحاكم أبي سعد عن الحسن بن محمد بن الحنفية إنه «كان يميل إلى شيء من الارجاء، وكذلك الغيلانية»[2].

= عبد العزيز في بيعه بعد مصادرته، فيقول: تعالوا إلى متاع الخونة، تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف رسول الله في أمته بغير سنته وسيرته. . فمر به هشام بن عبد الملك، وسمع قوله فقال: هذا يعيبني ويعيب آبائي، والله إن ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه، وعندما تولى هشام الحكم، نفذ وعيده، فصلب غيلان، وقطع يديه ورجليه، فأقبل على الناس، وهو مصلوب، قائلاً: قاتلهم الله، كم من حق أماتوه، وكم من باطل قد أحيوه، وكم من ذليل في دين الله أعزوه، وكم من عزيز في دين الله أذلوه. فقيل لهشام: قطعت يدي غيلان ورجليه وأطلقت لسانه، إنه قد بكى الناس، ونبههم على ما كانوا عنه غافلين. فأرسل إليه من قطع لسانه، فمات. راجع: المنية والأمل ص ١٦. والانتصار ص ٢١٣، ٢١٤. والمعارف ص ٤٨٤.

(١) تهذيب التهذيب. جـ٢ ص ٣٢١.

(٢) شرح عيون المسائل جـ١ اللوحة ٧٢.

فإذا كانت المواقف السياسية قد تفرقت بهذا السلف حيال أصل «المنزلة بين المنزلتين»، وصراعات بني هاشم مع الأمويين، دون أن تؤثر على اتفاقهم جميعاً، واعتقادهم جميعاً، لأصلي «العدل والتوحيد»، فإن زوال هذه الظروف السياسية منذ قرون وقرون، إلى جانب نمو سلطان العقل والعلم، وارتفاع شأن المنهج العقلي في التفكير، وتعاظم الحاجة إلى الانطلاق، في البحث والتفكير، من فوق أرضية العقل سيدها المطاع، إن كل ذلك يجعل من الدعوة لاجتماع شمل الأمم الإسلامية، وفي مقدمتها الأمة العربية، على كلمة سواء، سداها ولحمتها فكرية «العدل والتوحيد»، أمراً ليس ضرورياً فحسب، بل ومحسوباً في عداد البديهيات.

على أن هذا ليس كل ما في جعبتنا من الأدلة في هذا الميدان، فمن الذين توقفوا في أمر الفتنة الأولى بين الهاشميين والأمويين، عبد الله بن عمر بن الخطاب، وهو محل التقدير والتعظيم من كثير من الاتجاهات الفكرية الإسلامية، وخاصة أهل الأثر والحديث، الذين يروون عنه ألفاً وستمائة وثلاثين حديثاً[1].

عبد الله بن عمر، هذا، يعده المعتزلة في الطبقة الأولى من رجالاتهم، ويذكرون له هذا القول عندما «قال له بعض الناس: يا أبا عبد الرحمن، إن قوماً يزنون، ويشربون الخمر، ويسرقون، ويقتلون النفس، ويقولون: كان في علم الله، فلم نجد بدأ منه، فغضب، ثم قال: سبحان الله العظيم!! قد كان ذلك في علمه إنهم يفعلونها، ولم يحملهم علم الله على فعلها، حدثني أبي، عمر بن الخطاب، أنه سمع رسول الله، ﷺ، يقول: مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم والأرض التي أقلتكم، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب، كذلك لا يحملكم علم الله عليها»[2].

وإذا كان المعتزلة إنما يرجعون بسلسلة أفكار «العدل والتوحيد» إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فإنهم لا يقصرون هذا الأمر عليه من دون بقية

---

(١) تاريخ العرب، جـ ٢ ص ٤٨٠ «وهو ينقل ذلك عن النووي. ص ٣٥٨».

(٢) المنية والأمل. ص ٨، ٩.

الخلفاء الراشدين، بل هم يذكرون في الطبقة الأولى من رجال «العدل والتوحيد»: أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وكذلك عثمان بن عفان.

وهم يذكرون لأبي بكر قوله عندما سئل عن «الكلالة»[1]: «أقول فيها برأيي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان»[2] ويذكرون لعمر بن الخطاب حديثه يوم «أتي بسارق، فقال: لم سرقت؟ فقال: قضى الله علي. فأمر به فقطعت يده، وضرب أسواطاً، فقيل له في ذلك، فقال: القطع للسرقة، والجلد لما كذب على الله»[3].

أما عثمان بن عفان فإن أهل «العدل والتوحيد» يذكرون له، تدليلاً على قوله بالعدل، جوابه للذين حاصروه في بيته أثناء الثورة عليه، عندما رموه، ثم قالوا له: «الله يرميك» فأجابهم قائلاً: «كذبتم، لو رماني ما أخطأني»[4].

فهل بعد ذلك زيادة لمستزيد من الأدلة على أن جمهور السلف قد رأى رأي «أهل العدل والتوحيد»، وعلى أن فكرية «العدل والتوحيد» هي أكثر الفكريات الإسلامية تعبيراً عن الموقف النقي للمسلم المستلهم جوهريات القرآن وروحه، على ضوء من هدى العقل الذي لم يمجده دين من الأديان كما مجده دين الإسلام؟

وهل بعد حديث الرسول، عليه الصلاة والسلام، عن أن «أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له الله، عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب»[5].

هل بعد كل ذلك مكان للشك في أصالة هذه الفكرية، فكرية «العدل

---

(١) الكلالة: هي القرابة التي ليست بالبعضية، والمراد بها من توفي ولم يترك ولداً ولا والداً، وهي احدى مسائل الميراث التي جاء ذكرها في القرآن حين يقول الله سبحانه: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس﴾ الاية «النساء: ١٢».

(٢) المنية والأمل. ص ٨

(٣) المصدر السابق. ص ٨.

(٤) المصدر السابق. ص ٨.

(٥) إحياء علوم الدين. للغزالي. جـ ١ ص ٨١. الطبعة الأولى.

والتوحيد» فضلاً عن صلاحياتها لتكون الأرض المشتركة لاجتماع كل المسلمين الراغبين في الخروج من التخلف الحضاري والمنزلق الذي يعمل أعداؤهم جاهدين على استمرارهم منحدرين فيه؟

* * *

وإذا كنا قد قدمنا الكثير من الشواهد والأدلة على وجود الأرض المشتركة، أرض «العدل والتوحيد»، ما بين التيارات الإسلامية التي تتوزعها اليوم اعتبارات وملابسات عفى عليها الدهر، وذكرنا الوشائج التي تربط الخوارج، والشيعة الإمامية غير الغالية، وأنصار السلف والسلفيين، وبعضاً من القائلين بالإرجاء، تربطهم بخيوط «العدل والتوحيد».

وإذا كنا قد أشرنا إلى مكان الشيعة «الزيدية» من هذا الأمر، وإلى تبنيهم، في الأصول، فكرية «العدل والتوحيد» فإننا لا نحتاج إلى أن نورد على ذلك دليلاً من خارج هذه الرسائل التي نقدم بين يديها هذا الحديث، ذلك لأن علمين من الأعلام الذين اخترنا بعضاً من رسائلهم هنا، هما إمامان من أئمة الزيدية مقدمان في رجالاتهم كل التقديم.

وأول هذين العلمين هو الامام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسي (١٦٩ - ٢٤٦ هـ ـ ٧٨٥ - ٨٦٠ م)[1].

---

(١) وإليه تنتسب الزيدية القاسمية، وكانت بيعته وقيامه بالأمر سنة ٢٢٠ هـ ، تسمى البيعة الجامعة، لاجتماع وجوه أهل البيت من العلويين على بيعته، ولقد عاش بسصر مختفياً عن أعين العباسيين عشر سنين، والمأمون يبحث عنه، وعبد الله بن طاهر، عامله على مصر، يجد في طلبه. وعندما انتقل الى الحجاز، واخذ أمره في الانتشار، دخلت الجيوش العباسية الى اليمن في طلبه، فاضطر الى إخفاء أمره والعيش بأحد أحياء البدو مستتراً حتى مات المأمون، ثم جدد محاولة الخروج ثانية في عهد المعتصم، لكن الامكانيات لم تساعده، فاشترى جبلاً في أرض الحجاز بخمسين ديناراً وجعله حصناً ومزرعة ودار هجرة له ولأولاده وذويه، وهو جبل الرس الذي دفن فيه مع عدد من أولاده، والذي ينسب إليه، وفي كتب الطبقات عند الزيدية يصفونه بأنه «نجم آل رسول الله وفقيههم وعالمهم المبرز في أصناف العلوم، ومن يضرب به المثل في الزهد والعلم، وله رسائل وكتب كثيرة اخترنا منها هنا ما يتعلق بأصلي «العدل والتوحيد»، وهي تعتبر أقدم نصوص بين أيدينا في هذا الباب بعد رسالة الحسن البصري إلى عبد الملك بن مروان. راجع: الفهرست. ص ١٩٣، وشرح عيون المسائل جـ ١ اللوحة ٢٨، والمقصد الحسن والمسلك الواضح السنن. اللوحة ١٨٢، ١٨٣.

وإذا كانت لرسالة الحسن البصري، التي صدرنا بها هذه الرسائل أهمية كبرى، من زاوية صدورها من أحد الأعلام الأفذاذ في رجالات السلف، ولأنها تكاد أن تكون أقدم نص في «العدل والتوحيد» قد حفظ لنا من بين الآثار التي صنفت في هذا الموضوع، فإن للرسائل التي اخترناها للإمام القاسم الرسي في هذه المجموعة نفس الأهمية، بل ما يزيد على ذلك من بعض الوجوه.

فنحن جميعاً نتحدث عن أن لأهل «العدل والتوحيد» أصولاً خمسة بلورها أبو الهذيل العلاف في كتاب له بهذا الاسم، أما أين كتاب أبي الهذيل هذا، بل أين الكتاب الذي يتحدث عن هذه الأصول؟.. لا أحد يدري.! وليس سوى شرح القاضي عبد الجبار «٤١٥ هـ ـ ١٠٢٤ م» لهذه الأصول كتاباً بين أيدينا قد خصصه صاحبه لهذا الموضوع، وهو شرح لنص موضوعه «الأصول الخمسة»، ولكن هذا النص غير موجود، بل وغير معروف لمن هذا النص الذي تولى شرحه القاضي عبد الجبار؟

فإذا علمنا أن أحد النصوص التي نقدمها هنا للإمام القاسم الرسي، إنما هو عن «الأصول الخمسة» لأهل «العدل والتوحيد»، وأضفنا إلى ذلك أن الإمام القاسم كان معاصراً لأبي الهذيل العلاف، وسابقاً للقاضي عبد الجبار بنحو قرنين من الزمان، أدركنا مدى أهمية هذا النص وقيمته العظمى، كأقدم نص موجود بين أيدينا عن الأصول الخمسة لأهل «العدل والتوحيد».

وإذا أضفنا إلى ذلك أن بقية الرسائل التي اخترناها للإمام القاسم، والتي تتناول «أصول العدل والتوحيد» و«الرد على المجبرة»، إنما توفي هذا الموضوع حقه، فضلاً عن أنها قد قصرت كل صفحاتها عليه، ولم تتناوله عرضاً وبين ثنايا الموضوعات المختلفة، كما صنعت آثار فكرية اعتزالية أخرى، أدركنا القيمة الفكرية التي تضيفها عملية التحقيق والنشر بالنسبة لهذه النصوص.

أما العلم الثاني من علمي الأئمة الزيدية اللذين اخترنا لهما بعض الرسائل في «العدل والتوحيد»، فهو حفيد الإمام القاسم المتقدم الذكر، الإمام يحيى بن

الحسين بن القاسم (٢٤٥ ـ ٢٩٨ هـ ٨٥٩ ـ ٩١٠ م)[١]، وهو فضلاً عن مواصلة جياته الفكرية لحياة جده الإمام القاسم، فلقد أفاض كثيراً في تدعيم الحجج الفكرية لأهل «العدل والتوحيد»، كما أفرد الكثير من رسائله وكتبه لهذا الموضوع، واهتم بتفنيد كل ما يخطر للمجبرة على بال من الحجج والشبهات، وخاصة في كتابه الذي رد به على الحسن بن محمد بن الحنفية[٢]، والذي اخترناه ضمن ما اخترنا من رسائله، والذي يعد عملاً فكرياً بالغ الأهمية والخطورة في موضوع «العدل والتوحيد».

* * *

وعلى هذا الأساس، وبعد هذا الحديث عن أصالة فكرية «العدل والتوحيد» في فكرنا العربي الإسلامي، وتجسيدها لأكثر الأفكار عمقاً وأصالة، وأيضاً تطوراً وعقلانية في حضارتنا العربية الإسلامية، وبعد أن نضيف إلى هذا الحديث كل ما في مجموعة الرسائل التي نقدم بين يديها من حجج وأدلة تنتصر جميعها للعدل والتوحيد، وهي الرسائل التي كتبها وأملاها أعلام خمسة، منهم من يقتدي به المسلمون السلفيون، والذي يدين بإمامته الشيعة الزيدية، والذي يعقد له لواء الزعامة الشيعة الإمامية والذي يعده المعتزلة علماً من أهم أعلامهم، بعد هذا

---

(١) ويلقب بالهادي إلى الحق، وإليه ينسب مذهب الهادوية الزيدية في الفقه باليمن وهو أول من أقام دولة زيدية باليمن، عقدت له البيعة سنة ٢٨٠ هـ وهو ابن خمس وثلاثين سنة، زمن المعتضد العباسي، وتردد بين اليمن والحجاز، كما زار الديلم والعراق وآمل حتى استقرت دولته في صعدة سنة ٢٨٤، وكان شجاعاً يخوض الحرب بنفسه، ودخل معارك بلغت عدتها ثلاثة وسبعين معركة ضد القرامطة الذين تغلبوا على صنعاء حينئذ بزعامة نجار من اهل الكوفة يدعى علي بن الفضل، حتى أجلاهم عنها، ومات مسموماً بصعدة سنة ٢٩٨ هـ . راجع: الفهرست. ص ١٩٤، وشرح عيون المسائل. جـ ١ اللوحة ٢٨، والمقصد الحسن والمسلك الواضح السنن. اللوحة ١٧٨، ١٨٣، وخبر الإمام الهادي إلى الحق ودخوله اليمن. لأبي جعفر محمد بن سليمان الكوفي. اللوحة ٣٠١. مصورة دار الكتب المصرية (٢٩٠٩٣ ب) وكتاب البحر الزخار، لابن المرتضى جـ ١ ص ث من المقدمة، الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٩٤٧ م.

(٢) هو غير الحسن بن الحنفية، حفيد علي بن أبي طالب، الذي سبقت الاشارة اليه والترجمة له، وسيأتي الحديث عن ذلك فيما بعد، بالتعليقات.

الحديث الذي قدمناه وبعد هذه الإضافة التي سنترك أمرها للقارىء، بعد رحلته الفكرية الخصبة خلال ما سيأتي من أبواب هذا الكتاب، نعتقد، عن رضى واطمئنان نفس وراحة ضمير، إننا قد بلغنا من هذه الإشارات القدر الذي نريد، والذي لا يخرج بنا عن إطار التقديم الموجز لهذه الرسائل في «العدل والتوحيد».

* * *

تقويم النص

أولاً: بالنسبة لرسالة الحسن البصري إلى عبد الملك بن مروان، فلقد اعتمدنا في تقويم نصها على:

١ - مصورة دار الكتب المصرية «٢٢١ ه آداب»، وهي مأخوذة عن مخطوطة «أيا صوفيا» المنسوخة في القرن التاسع الهجري «سنة ٨٨٢ هـ»، ومنها نسخة كذلك بمكتبة جامعة الدول العربية «ف ١٩٧» «٧٩٢».

٢ - نص التلخيص الذي أورده لهذه الرسالة الإمام الحاكم أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمي البيهقي «٤٣١ - ٤٩٤ هـ» أثناء حديثه عن الحسن البصري في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة بالجزء الأول من كتابه «شرح عيون المسائل»، وذلك في اللوحات ٧٢ - ٧٤ من مصورة دار الكتب المصرية «٢٧٦٢٣ ب»، ولما كنا نعتبر هذه الرسالة بمثابة الوثيقة الأقدم في تراثنا الخاص بالعدل والتوحيد، آثرنا نشر النصين بعد تحقيقهما دون أن ندخل أحدهما في الآخر، ليتيسر وجودهما بشكلهما الكامل في يد الباحثين والقراء[1].

* * *

ثانياً: بالنسبة للرسائل التي اخترناها للإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسي، فلقد اعتمدنا في تقويم نصها على مصورات دار الكتب المصرية الآتية:

---

(١) في المنية والأمل، لابن المرتضى، ذكر لعبارات من رسالة الحسن هذه، ولكنه يقول إن الذي سأله رأيه في القدر هو الحجاج بن يوسف الثقفي. راجع: المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل. مصورة دار الكتب المصرية (٢٧٧٩٨ ب) اللوحة ٤٧، ٤٨.

١ ـ (٢٩٠٨٥ ب)
٢ ـ (٢٩٠٨٧ ب)
٣ ـ (٢٩٠٦٨ ب)
٤ ـ (٢٩٠٨٦ ب)

وجميعها مأخوذة عن مجموعة رسائل الإمام القاسم المحفوظة بالمكتبة المتوكلية اليمنية بالجامع الكبير بصنعاء تحت رقم ١٦٧ علم الكلام، وهي منسوخة بخط قديم، وبدون تاريخ، وهذه النسخة مراجعة على غيرها، والمراجعات مثبتة بالهوامش وبين السطور.

* * *

ثالثاً: بالنسبة للرسائل التي اخترناها للإمام يحيى بن الحسين بن القاسم فلقد اعتمدنا في تقويم نصها على:

١ ـ الفيلم رقم (٢٢١٧) بدار الكتب المصرية، والشامل لكتاب المجموع من كتب الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم، وهو مأخوذ عن الأصل المحفوظ بالمكتبة المتوكلية اليمنية بالجامع الكبير بصنعاء، وخط هذه النسخة قديم، وهي بدون تاريخ، كما أنها مراجعة على نسخة أقدم منها، والفروق والتصحيحات مثبتة بالهامش أو بين السطور، ولعل هذه النسخة الأقدم هي الموجودة بمكتبة جامع صنعاء تحت رقم (٣٨ علم الكلام) والتي يقول عنها المرحوم الأستاذ فؤاد سيد: إنها نسخة (أثرية، ولكنها مشوهة»[1]، ولقد رمزنا لهذه النسخة بالحرف «ا».

٢ ـ مصورات دار الكتب المصرية:
ا ـ (٢٩٠٩٥ ب)
ب ـ (٢٩٠٨١ ب)
جـ ـ (٢٩٠٥٥ ب)

---

(١) بطاقة المصورة (٢٩٠٩٦ ب) بدار الكتب المصرية.

د ـ (٢٩٠٦٣ ب)
هـ ـ (٢٩٠٧٠ ب)

وجميعها مأخوذة عن مجموع الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، المحفوظ بالمكتبة المتوكلية اليمنية بالجامع الكبير بصنعاء تحت رقم ٣٩ علم الكلام، وهي منسوخة بخط النسخ في سنة ١٠٤١ هـ، وناسخها هو «علي بن مهدي بن علي بن أحمد».

والنسخة المأخوذة عنها هذه المصورات، مراجعة على نسخة غير النسخة «ا» والفروق والتصحيحات مثبتة بالهامش أو بين السطور، بخط غير خط الناسخ. ولقد رمزنا لها بالحرف «ب».

* * *

رابعاً: بالنسبة للمختصر الذي حققناه للقاضي عبد الجبار، كتبنا كلمة عن تحقيقه ونسبته لمؤلفه أثبتناها عند مكان هذا المختصر في هذا الكتاب.

* * *

خامساً: بالنسبة للرسالة التي اخترناها للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، فلقد اعتمدنا في تقويم نصها على:

١ ـ مخطوطة المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية (١٦٩ عقائد تيمور)، وهي مجلدة ضمن مجموعة، وتقع في أول المجموعة، منسوخة بخط معتاد، وعلى هوامشها تعليقات فارسية، وناسخها هو عبد الرضا بن خليل بن إبراهيم بن شاه في سنة ١٠٩٥ هـ[١] عن النسخة التي كتبها محمد بن حماد بن فاتك بن محمد بن حيان الشيباني المحرزي في سنة ٥٤٥ هـ[٢]، أي بعد وفاة المؤلف بقرن من الزمان تقريباً[٣]. ولقد رمزنا لهذه النسخة بالحرف «ا».

---

(١) اللوحة ٤٢ من المخطوط.
(٢) اللوحة ٧٥ من المخطوط.
(٣) في اللوحة ٢ من هذه المخطوطة يخطىء الناسخ في اسم المؤلف، فيسميه علي بن أحمد بدلاً من ـ

٢ ـ النسخة المطبوعة من هذه الرسالة في النجف الأشرف بالعراق سنة ١٣٥٤ هـ سنة ١٩٣٥ م بتصحيح وتعليق الأستاذ علي الخاقاني النجفي، ولقد لاحظنا أنه قد اعتمد في نشرها على إحدى المخطوطات، ولكنه لم يحدثنا عنها، كما لاحظنا أنها ليست مخطوطة التيمورية التي اعتمدنا عليها. ولقد رمزنا لهذه النسخة بالحرف «ب».

* * *

سادساً: بالنسبة للتعليقات، ذات الطابع الفكري، التي أثبتناها في الهوامش، فلقد اجتهدنا عن طريقها في خدمة النص خدمة جيدة، وذلك على الرغم من الجهد الكبير الذي قدمناه في صفحات التقديم التي مرت في الفصول السابقة، وذلك إدراكاً منا لأهمية النص، واستحقاقه الجهد الكبير الذي بذلناه فيه، ولاهتمامنا بأن تصل هذه النصوص إلى دائرة أوسع من دائرة المتخصصين.

كما قمنا بوضع العناوين الفرعية التي تساعد القارىء على الاهتداء إلى الموضوعات، وكذلك جعلنا من فهرس الموضوعات في آخر الكتاب دليلاً يمكن أن يخدم القارىء إذا هو استخدمه في محاولة الوصول إلى الموضوع أو الفكرة التي يريد الاطلاع عليها من بين الموضوعات والأفكار الكثيرة التي حوتها هذه الرسائل.

* * *

والله ولي التوفيق.

القاهرة: مايو سنة ١٩٧١ م

محمد عمارة

= علي بن الحسين، ولعل السر في ذلك أن والد المؤلف كانت كنيته أبو أحمد، ولكن المؤلف يسميها في صلب النص: «إنقاذ البشر من الجبر والقدر».

الحسن البصري:

رسالة في القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

نسخة كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحسن بن أبي الحسن البصري، رحمة الله عليهما:

من عبد الملك، أمير المؤمنين، إلى الحسن بن أبي الحسن:

سلام عليك..

أما بعد.. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله.

وبعد. فقد بلغ أمير المؤمنين عنك قول في وصف القدر لم يبلغه مثله عن أحد ممن مضى، ولا نعلم أحداً تكلم به ممن أدركنا من الصحابة، رضي الله عنهم، كالذي بلغ أمير المؤمنين عنك[1].

وقد كان أمير المؤمنين يعلم منك صلاحاً في حالك، وفضلاً في دينك، ودراية للفقه، وطلباً له، وحرصاً عليه.

ثم أنكر أمير المؤمنين هذا القول من قولك، فاكتب إلى أمير المؤمنين بمذهبك، والذي به تأخذ، أعن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ؟.. أم عن رأي رأيته؟.. أم عن أمر يعرف تصديقه في القرآن؟.. فإنا لم نسمع في هذا الكلام مجادلاً ولا ناطقاً قبلك[2] فحصّل لأمير المؤمنين رأيك في ذلك وأوضحه.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

---

(١) والذي يفهم هنا أن الجديد الذي أثار عبد الملك بن مروان، ودعاه للكتابة إلى الحسن البصري، إنما هو المستوى الجديد الذي أصبحت تتناول به مشكلة القدر، لا أن القضية لم تثر على عصر الصحابة قبل ذلك الزمان. وهو المستوى الذي استدعته الصراعات االسياسية التي شهدها العالم العربي الاسلامي على زمن الأمويين.

(٢) عبد الملك هنا لا ينفى تقدم من كان يرى القدر ويعتقد به، وإنما ينفي تقدم من جادل في ذلك ونطق=

(رسالة الحسن البصري في القدر)

فكتب إليه الحسن البصري، رحمة الله عليه:

بسم الله الرحمن الرحيم[1].

لعبد الملك، أمير المؤمنين، من الحسن بن أبي الحسن البصري.

سلام الله عليك يا أمير المؤمنين.

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد.. أصلح الله أمير المؤمنين، وجعله من الولاة الذين يعملون بطاعة الله ويتبعون رسوله ويسارعون في اتباع ما أمرهم به. فإن أمير المؤمنين، أصلحه الله، أصبح في قليل من كثير مضوا من أهل الخير، منظور إليهم ومغفول عنهم ومقتدى بأعمالهم، وقد أدركنا، يا أمير المؤمنين، السلف الذين عملوا بأمر الله، ورووا حكمته، واستنوا بسنة رسوله، ﷺ، فكانوا لا ينكرون حقاً ولا يحقون باطلاً، ولا يلحقون بالرب، تبارك[2] وتعالى إلا ما ألحق بنفسه[3]، ولا يحتجون إلا بما احتج الله به على خلقه في كتابه[4]، فإن الله تبارك[5] وتعالى يقول، وقوله الحق: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون**﴾[6] فأمرهم الله بعبادته التي لها خلقهم، ولم يكن ليخلقهم لأمر ثم يحول بينهم وبينه، لأنه تعالى ليس ﴿**بظلام للعبيد**﴾[7].

ولم يكن أحد ممن مضى من السلف ينكر هذا القول، ولا يحاول عنه،

= وجهر بهذا الرأي، وهو ما صنعه الحسن البصري، والرعيل الأول من المعتزلة، الذي جعلوا من هذه القضية فكراً جماهيرياً ذا صلة وثيقة بالسياسة والأحداث التي عاشها الناس.

(١) بدء جواب الحسن البصري على عبد الملك بن مروان.

(٢) في المصورة تبرك.

(٣) وذلك على عكس المجبرة ـ الذي هم المنظرون الفكريون لدولة بني أمية ـ الذين ينسبون، بطريق مباشر أو غير مباشر، الظلم والسيئات إلى الله، باعتبارهم لها أفعالاً مرادة منه، سبحانه.

(٤) وفي ذلك إشارة إلى أن فكر المجبرة في هذه القضية إنما هو غريب عن القرآن الكريم.

(٥) في المصورة تبرك.

(٦) الذاريات (٥١): ٥٦.

(٧) آل عمران (٣): ١٨٢، الأنفال (٩): ٥١، الحج (٢٢): ١٠.

لأنهم كانوا على أمر واحد متفقين[1]، ولم يأمروا بشيء منكر، كما قال الله تبارك[2] وتعالى: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون. قل أمر ربي بالقسط﴾[3] وكان نهيه عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴿يعظكم لعلكم تذكرون﴾[4].

فكتاب الله تعالى حياة عند كل موت، ونور عند كل ظلمة، وعلم عند كل جهل، فما ترك الله للعباد بعد الكتاب والرسول حجة، وقال عز وجل: ﴿ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾[5].

ففكر أمير المؤمنين في قول الله تعالى ﴿فمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر، كل نفس بما كسبت رهينة﴾[6].

وذلك أن الله تعالى جعل فيهم من القدرة ما يتقدمون بها ويتأخرون، وابتلاهم لينظر كيف يعملون، وليبلو أخبارهم. فلو كان الأمر كما يذهب إليه المخطئون لما كان إليهم أن يتقدموا ولا يتأخروا، ولما كان لمتقدم أجر فيما عمل ولا على متأخر لوم فيما لم يعمل، لأن ذلك بزعمهم ليس منهم ولا إليهم ولكنه من عمل ربهم. وإذا (لما قال)[7]: ﴿ويضل الله الظالمين، وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون﴾[8].

---

(١) والحسن البصري، يرد هنا ضمناً، على قول عبد الملك بن مروان: «ولا نعلم أحداً تكلم به ممن أدركنا من الصحابة، رضي الله عنهم»، ويعلل عدم «جهرهم» و«جدالهم» في هذا الأمر «لأنهم كانوا على أمر واحد متفقين»، أي أن القدر كان رأيهم بوجه عام. راجع في ذلك: أحمد بن يحيى بن المرتضى (باب ذكر المعتزلة. وهو الباب الرابع من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل) ص ٤، ٥، ٧، ٨، ٩، ١٠ طبعة حيدر آباد. بالهند سنة ١٩٠٢م.

(٢) في المصورة: تبرك.

(٣) الأعراف (٧): ٢٩.

(٤) النحل (١٦): ٩٠.

(٥) الأنفال (٨): ٤٢

(٦) المدثر (٧٤): ٣٨.

(٧) الأصل: يقال. والسياق يرفضه.

(٨) البقرة: (١٢): ٢٦، ٢٧.

فتدبر، يا أمير المؤمنين، ذلك بفهم، فإن الله عز وجل يقول: ﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾[1]. واسمع إلى قول الله تعالى حيث يقول: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[2]. وقال: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا، فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾[3].

واعلم يا أمير المؤمنين، أن الله لم يجعل الأمور حتماً على العباد[4]، ولكن قال: إن فعلتم كذا فعلت بكم كذا، وإن فعلتم كذا فعلت لكم كذا. وإنما يجازيهم بالأعمال، كما قال: ﴿فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾[5].

ولكن الله قد بين لنا من قدم لهم ذلك، ومن أضلهم، فقال: ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾[6] «فالسادات والكبراء هم الذين قدموا لهم الكفر وأضلوهم السبيل بعد أن كانوا عليها، لأن الله تعالى يقول: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾[7]. إما يشكر لهدايتنا له السبيل وإنعامنا عليه، وإما أن يكفر. ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾[8] وكذلك قال الله عز وجل: ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾[9].

فقل، يا أمير المؤمنين، كما قال الله: فرعون الذي أضل قومه، ولا تخالف

---

(١) الزمر (٣٩): ١٨.
(٢) النساء (٥): ٦٥، ٦٦.
(٣) الأعراف (٧): ٩٦.
(٤) أي قدراً محتوماً وجبراً لا اختيار فيه.
(٥) ص (٣٨): ٦١.
(٦) الأحزاب (٣٣): ٦٧.
(٧) الانسان (٧٦): ٣.
(٨) النحل (٢٧): ٤٠، والآية في المصورة (فمن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني حميد) وفي سورة لقمان (٣١) الآية: ١٢ (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد)، فما في المصورة تحريف.
(٩) طه (٢٠): ٧٩.

الله في قوله، ولا تجعل من الله إلا ما رضي لنفسه، فإنه قال: ﴿إن علينا للهدى، وإن لنا للآخرة والأولى﴾[1] فالهدى من الله، والضلال من العباد.

ثم فكر يا أمير المؤمنين، في قول الله عز وجل: ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾[2]، وقوله: ﴿وأضلهم السامري﴾[3]، وقوله: ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾[5]، يعني ما أنتم بناجين من عذابه إن أتاكم ولا بممتنعين منه، ولا ينفعكم نصحي حينئذ إن أردت أن أنصح لكم عند حلول العذاب بكم.

وقد علم نوح، عليه السلام، أن العذاب إذا نزل بهم وعاينوه لم ينفعهم الإيمان عند ذلك، وقد بين الله تعالى في الأمم التي أهلكها بقوله: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك الكافرون﴾[6]. فهذه سنة الله، لا تقبل التوبة عند معاينة العذاب.

وأما قوله: ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون﴾[7] فإنما يعني بالغي في هذا الموضع العذاب، وهو قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾[8] أي عذاباً أليماً. وقد تقول العرب: لقي فلان اليوم غياً، أي ضربه الأمير ضرباً مبرحاً شديداً أو عذبه عذاباً أليماً.

ومما يجادلون فيه قول الله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾[9]. فتأولوا، بجهلهم، على أن الله، تعالى، خص قوماً بشرح الصدور بغير عمل صالح قدموه، وقوماً بضيق

---

(1) الليل (٩٢): ١٣.
(2) الشعراء (٢٦): ٩٩.
(3) طه (٢٠): ٨٥.
(4) الاسراء (١٧): ٥٣.
(5) هود (١١): ٣٣.
(6) غافر (٤٠): ٨٥.
(7) هود (١١): ٣٤.
(8) مريم (١٩): ٥٩.
(9) الأنعام (٦): ١٢٥.

الصدور، يعني القلوب بغير كفر كان منهم ولا فسق ولا ضلال، ولا لهؤلاء سبيل إلى ما كلفهم من الطاعة، وهم مخلدون في النار طول الأبد، وليس ذلك، يا أمير المؤمنين، كما ذهب اليه الجاهلون المخطئون. ربنا أرحم وأعدل وأكرم من أن يفعل ذلك بعباده. كيف، وهو يقول: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[1]، وإنما خلق الجن والإنس لعبادته، فجعل لهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة يطيقون بها أضعاف ما كلفهم الله من عبادته، فمن أطاع منهم فيما أمر به فقد شرح الله صدره للإسلام ثواباً منه بطاعته في العاجل من الدنيا، ويخفف به عليه أعمال البر ويثقل به الكفر عليه والفسوق والعصيان. فإن كان في حاله تيك مطيقاً لجميع ما أمر به ونهى عنه، وكذلك حكم الله في كل من بلغ من الطاعة مبلغه من شريف أو وضيع، ومن ترك ما أمره الله به من الطاعة، وتمادى في كفره وضلاله عاجل الدنيا، وهو مع ذلك مطيق للانابة والتوبة، جعل الله صدره ضيقاً حرجاً، كأنما يصعد في السماء، عقوبة منه له بكفره وضلالته في عاجل الدنيا. والتوبة مأمور بها، ومدعو إليها، كذلك حكم الله، عز وجل، فيمن بلغ من الكفر والفسوق مبلغه.

وإنما ذكر الله، يا أمير المؤمنين، الشرح والضيق في كتابه، رحمة منه لعباده وترغيباً منه لهم في الأعمال التي يستوجبون بها، في حكمته، أن يشرح صدورهم، وتزهيداً منه لهم في الأعمال التي يستوجبون بها، في حكمته، تضييق الصدور، ولم يذكر لهم ذلك ليقطع رجاءهم، ولا ليؤيسهم من رحمته وفضله[2]، ولا ليقطعهم عن عفوه ومغفرته وكرمه، إذا هم صلحوا. وقد بين الله، عز وجل، في كتابه، فقال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[3].

وقال[4] يذكر أن السلف الماضين من صحابة النبي، عليه السلام، كانوا على

---

(١) البقرة (٢) ٢٨٦.

(٢) في المصورة: فصله، بالصاد المهملة، وهو خطأ في النسخ.

(٣) المائدة (٥): ١٦.

(٤) وفاعل «قال»، هنا هو الحسن البصري، إذ من هنا حتى نهاية الرسالة، قد تصرف الراوي والناسخ في نصها.

كلامه[1]، لا ينكرون منه شيئاً، ولا يجادلون فيه، لأنهم كانوا على أمر واحد متفق متسق، لا ينكرون منه حقاً ولا يحقون منه باطلاً، ولا يلحقون بالرب إلا ما ألحق بنفسه، ولا يحتجون إلا بما احتج الله به على خلقه.

وذكر[2] لأمير المؤمنين أنه إنما أحدث الكلام فيه حين أحدث الناس النكرة له، فلما أحدث المحدثون الكلام في دينهم ذكرت من كتاب الله خلافاً لما قالوا وأحدثوا. وذكر[3] من ذلك ما لا ينكره أمير المؤمنين، بل يعرفه ويعرف تصديقه في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ[4]. ففي كتاب الحسن بعد كتاب الله الشفاء والبرهان، وقد بعث إليك يا أمير المؤمنين نسخة كتاب الحسن لتنظر فيه وتفهمه ليزيدك الله هدى إلى هداك وعلماً إلى علمك، فافهمه وتدبره واعمل فيه برأيك وعقلك لنفسك وللمسلمين، ولا تدخل عليه فيه شبهة، فإنه واضح لمن تدبره وعقله وقبل عدل الله فيه.

واعلم أنه لم يبق ممن أخذ عن السلف الماضي من أصحاب رسول الله ﷺ، أحد هو أعلم بالله تعلى وأفقه في دين الله وأقرأ لكتاب الله من الحسن، مع صلاح حاله وثقته في دينه وأمانته واهتمامه بأمور المسلمين، فأكرمه كرامة ترجو بها ثواب الله تعالى في الآخرة والأولى[5].

(ملخص رسالة الحسن البصري في القدر)

«[6] وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحسن:

بلغنا عنك في القدر شيء فاكتب إلينا بقولك.

فكتب إليه رسالة طويلة، أوردنا منها جملة، فمنها:

---

(1) أي كلام الحسن البصري.

(2) أي الحسن البصري.

(3) أي الحسن البصري.

(4) ومن هنا حتى آخر الرسالة، سطور هي أقرب إلى التعليق والتقريظ على الرسالة والحسن البصري منها إلى النص الذي يمكن أن ينسب إلى الإمام الكبير.

(5) هنا ينتهي نص مصورة أيا صوفيا.

(6) بداية تلخيص الحاكم أبي سعد المحسن بن كرامة لرسالة الحسن البصري.

سلام عليك . . أما بعد . . فإن الأمير أصبح في قليل من كثير مضوا ، والقليل من أهل الخير مغفول عنهم ، وقد أدركنا السلف الذين قالوا بأمر الله واستنوا بسنة رسول الله ، فلم يبطلوا حقاً ، ولا ألحقوا بالرب تعالى إلا ما ألحق بنفسه ، ولا يحتجون إلا بما احتج الله به على خلقه ، وقوله الحق : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1] ولم يخلقهم لأمر ثم حال بينهم وبينه ، لأنه تعالى ليس ﴿ بظلام للعبيد ﴾[2].

ولم يكن في السلف أحد ينكر ذلك ولا يجادل فيه ، لأنهم كانوا على أمر واحد ، وإنما أحدثنا الكلام فيه من حيث أحدث الناس النكرة له ، فلما أحدث المحدثون في دينهم ما أحدثوه ، أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يبطلون به المحدثات ويحذرون به من المهلكات ، ومنها أن الذي أوقعهم فيها بسنة الأهواء وترك كتاب الله تعالى .

ألم تر إلى قوله : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[3]، فافهم أيها الأمير ما أقوله ، فإن ما نهى الله فليس منه ، لأنه لا يرضى ما يسخطه هو[4] من العباد ، فإنه تعالى يقول : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[5] فلو كان الكفر من قضائه وقدره لرضى ممن عمله ، وقال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾[6]، وقال تعالى : ﴿ والذي قدر فهدى ﴾[7]، ولم يقل قدر فأضل ، لقد أحكم الله آياته وسنة نبيه فقال : ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي ﴾[8]. وقال تعالى : ﴿ والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[9]، ولم يقل : أضل ، وقال : ﴿ إن علينا للهدى ﴾[10]، ولم يقل : علينا إلا ضلال ، ولا يجوز أن ينهي العباد عن شيء في العلانية ويقدره[11] عليهم في السر . ربنا أكرم من ذلك وأرحم ، فلو كان الأمر كما يقول الجاهلون ما كان يقول تعالى : ﴿ اعملوا ما

---

(١) الذاريات : ٥٦
(٢) آل عمران : ١٨٢ ، والأنفال : ٥١ ، والحج : ١٠
(٣) البقرة ١١١ ، والنمل ٦٤
(٤) في الأصل : وهو
(٥) الزمر : ٧ .
(٦) الإسراء : ٢٣
(٧) الأعلى : ٣
(٨) سبأ : ٥٠
(٩) طه : ٥٠ .
(١٠) الليل : ١٢
(١١) في الأصل : يقدر

شئتم﴾[1]، ولقال: اعملوا ما قدرت عليكم، ولو كان الأمر كما قال المخطئون لما كان لمتقدم حمد فيما عمل ولا على متأخر لوم، ولقال: جزاء بما عُمل بهم، ولم يقل: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾[3]، أي بين لها ما تأتي وتذر، ثم قال: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾[4]، فلو كان هو الذي دساها ما كان ليخيب نفسه، تعالى الله عما يقولون.

وقال تعالى: ﴿من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً﴾[5]، فلو كان تعالى هو قدم لهم العسر ما قال ذلك.

وقال تعالى: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾[6]، فالكبراء أضلوهم دون الله تعالى، بل قال: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾[7]، و ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾[8]، وقال: ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾[9]، وقال تعالى: ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾[10] وقال: ﴿وأضلهم السامري﴾[11] وقال: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾[12]، وقال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾[13] فكان بدو[14] الهدى من الله تعالى، واستحبابهم العمى بأهوائهم.

وظلم آدم نفسه ولم يظلمه ربه، فقال: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾[15]، وقال موسى: ﴿هذا من عمل الشيطان﴾[16]، وذكر[17] أن أهل الجهل قالوا: إن الله يضل

---

(1) فصلت: ٤٠
(2) الواقعة: ٢٤
(3) الشمس: ٨
(4) الشمس: ١٠
(5) ص: ٦١
(6) الأحزاب: ٦٧
(7) الإنسان: ٣
(8) النمل: ٤٠
(9) طه: ٧٩
(10) الشعراء: ٩٩.
(11) طه: ٨٥
(12) النمل: ٢٤، العنكبوت: ٣٨
(13) فصلت: ١٧.
(14) بدء وظهور
(15) الأعراف: ٢٣
(16) القصص: ١٥
(17) أي الحسن البصري

من يشاء ويهدي من يشاء، ولم ينظروا[1] إلى ما قبل الآية وبعدها ليستبين لهم أنه تعالى يضل بتقدم الفسق والكفر، كقوله: ﴿ويضل الله الظالمين﴾[2]، وقال: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[3]، ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾[4] ففيها الوعيد[5].

ثم إنه تعالى قال: ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾[6]، وقال: ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾[7]، وقال تعالى: ﴿ادخلوا في السلم كافة﴾[8] فكيف يدعوهم إليه وقد حال بينهم وبينه!؟

وقال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾[9]، كيف ذلك وقد منع خلقه من طاعته؟! ومنها قال: رحمه الله[10]:

والقوم ينازعون في المشيئة، وإنما يشاء الله الخير، فقال تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[11]، ومنها أن الله تعالى أرحم وأعدل من أن يعمي عبداً ثم يقول له: أبصر وإلا عذبتك، فكيف يضله ثم يقول له: اهتد وإلا عذبتك؟!، وإذا خلق الله الشقي شقياً، لم يجعل له سبيلاً إلى السعادة، فكيف يعذبه!؟

ومنها[12]: بعث الله الرسول آية ورحمة ونوراً، وقال: ﴿استجيبوا لله وللرسول﴾[13]، وقال: ﴿استجيبوا لربكم﴾[14]، وقال: ﴿أجيبوا داعي الله﴾[15]،

---

(1) في الأصل: ينظر
(2) إبراهيم: ٢٧
(3) الصف: ٥
(4) البقرة: ٢٦
(5) في الأصل: في الوعيد
(6) الزمر: ١٩
(7) يونس: ٣٣
(8) البقرة: ٢٠٨
(9) النساء: ٦٤
(10) أي الحسن البصري: والضمير في «منها» يعود على الرسالة إلى عبد الملك بن مروان.
(11) البقرة: ١٨٥
(12) أي الرسالة، رسالة الحسن البصري.
(13) الأنفال: ٢٤
(14) الشورى: ٤٧
(15) الأحقاف: ٣١

و﴿أن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾[1]، ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾[2]، فكيف يفعل ذلك ثم يعميهم عن القبول؟![3].

وقال الشيطان: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[4] فمن أجاب الشيطان كان من حزبه، ولو كان كما قاله الجاهلون لكان إبليس أصوب من الأنبياء: إذ[5]، دعا إلى إرادة الله وقضائه ودعت الأمة إلى خلاف ذلك وإلى ما علموا[6] أن الله حال بينهم وبينه.

وقال القوم فيمن أسخط الله: إنه تعالى حمله على إسخاطه، وكيف يسخط إذا عملوا بقضائه وإرادته؟! وأنه تعالى يقول: ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾[7] وهؤلاء[8] الجهال يقولون: إن الله قدمه لهم وما أضلهم سواه.

ومنها[9]:

واعلم أيها الأمير أن المخالفين لكتاب الله وعدله يخرصون في أمر دينهم بزعمهم على القضاء والقدر، ثم لا يرضون في أمر دنياهم إلا بالاجتهاد والبحث والطلب والأخذ بالحزم فيه، ولا يعملون في أمر دنياهم على القضاء والقدر.

ومنها[10]:

ومما يحتجون به أن الله تعالى قبض قبضة فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فإن كان هذا الحديث حقاً، فقد علم تعالى أهل الجنة وأهل النار قبل خلقهم، وكيف يصح قوله: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾[11] الآية، مع أنه حملهم عليه؟! وما معنى قوله: ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾[12]وقد منعهم منه.

---

(١) الأنعام: ١٥٣

(٢) الاسراء: ١٥

(٣) في الأصل: القول

(٤) فاطر: ٦

(٥) في الأصل: إذا

(٦) في الأصل: عملوا

(٧) الحج: ١٠.

(٨) فاطر: ٦

(٩) أي رسالة الحسن البصري.

(١٠) أي رسالة الحسن البصري.

(١١) مريم: ٨٩، وتمام الاية: ﴿... وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا﴾.

(١٢)الانشقاق: ٣٠

ومنها[1]:

وقال[2] في قوله في الضلال والهدى، وفي قوله: ﴿لو شاء ربك[3]، أن المراد إظهار قدرته على ما يريد، كما قال: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾[4]، وقال: ﴿لو نشاء لمسختناهم﴾[5]، وإنما دل بذلك على قدرته، فذلك غير الذي شاءه منهم.

ومنها[6]:

وقد قال تعالى، بعدما حكى عنهم: ﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾[7]، تكذيباً لهم: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾[8]. ونعوذ بالله ممن ألحق بالله الكذب، وجعلوا القضاء والقدر معذرة فكيف يصح ذلك مع قوله: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾[9]، وقال: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾[10]أي العقوبة التي أصابتك إنما هي من قبل نفسك بعملك.

والرسالة طويلة تشتمل على مسائل من العدل ذكرنا منها لمعاً.

* * *

(1) أي الرسالة
(2) أي الحسن البصري
(3) الأنعام: ١١٢، ويونس: ٩٩ وهود ١١٨
(4) سبأ: ٩
(5) يس: ٦٧
(6) أي الرسالة.
(7) الزخرف: ٢٠
(8) الانعام: ١٤٨
(9) الزخرف: ٧٦
(10) النساء ا٧٩

القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسِّي:

كتاب
أصول العدل والتوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

(مقام العقل . .)

اعلم، يا أخي، علمك الله الخير والهدى، وجنبك جميع المكاره والردى، أن الله خلق جميع عباده العقلاء المكلفين لعبادته، كما قال، عز وجل: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[1]، والعبادة تنقسم على ثلاثة وجوه:

أولها: معرفة الله.

والثاني: معرفة ما يرضيه وما يسخطه.

والوجه الثالث: اتباع ما يرضيه واجتناب ما يسخطه.

وهذه الثلاثة هي[2] كمال العبادة، وجميع العبادات غير خارجة منها، فمعرفة الله عبادة كاملة لمن ضاق عليه الوقت، وهي منفصلة من العبادة الثانية لمن تراخت به الأيام إلى أصول[3] التعبد، وهو الأمر والنهي الذي فيه رضى المعبود وسخطه، ثم العمل بما يرضيه واجتناب ما يسخطه عبادة ثالثة منفصلة من الوجهين الأولين لمن تراخى به الوقت إلى استماع كيفية العبادة على لسان الرسول الذي جاءت الشريعة على يديه.

فهذه ثلاث عبادات من ثلاث حجج احتج بها المعبود على العباد، وهي:

* العقل . .
* والكتاب . .
* والرسول . .

فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود، وجاءت حجة الكتاب بمعرفة التعبد، وجاءت «حجة»[4] الرسول بمعرفة العبادة. والعقل أصل الحجتين الأخيرتين،

---

(١) الذاريات: ٥٦

(٢) في الأصل: فهي

(٣) في الأصل: وصول

(٤) مزيدة من عندنا

لأنهما عرفا به، ولم يعرف بهما. فافهم ذلك.

ثم للاجماع من بعد ذلك حجة رابعة مشتملة على جميع الحجج الثلاث وعائدة إليها.

ثم اعلم أن لكل حجة من هذه الحجج أصلاً وفرعاً، والفرع مردود إلى أصله، لأن لها أصول[1] محكمة على الفروع.

فأصل المعقول ما أجمع عليه العقلاء ولم يختلفوا فيه، والفرع ما اختلفوا فيه ولم يجمعوا عليه، وإنما وقع الاختلاف في ذلك لاختلاف النظر والتمييز فيما يوجب النظر والاستدلال بالدليل الحاضر المعلوم على المدلول عليه الغائب المجهول. فعلى قدر نظر الناظر واستدلاله يكون دركه لحقيقة المنظور فيه والمستدل عليه.

وكان للإجماع من العقلاء على ما أجمعوا عليه أصلاً وحجة محكمة على الفرع الذي وقع الاختلاف فيه.

وأصل الكتاب هو[2] المحكم الذي لا اختلاف فيه، الذي لا يخرج تأويله مخالفاً لتنزيله، وفرعه المتشابه من ذلك فمردود إلى أصله الذي لا اختلاف فيه بين أهل التأويل.

وأصل السنة التي جاءت على لسان الرسول ما وقع عليه الإجماع بين أهل القبلة، والفرع ما اختلفوا فيه عن الرسول ﷺ، فكل ما وقع فيه الاختلاف من أخبار رسول الله ﷺ، فهو مردود إلى أصل الكتاب والعقل والإجماع.

وقد أنكرت الحشوية من أهل القبلة[3] رد المتشابه إلى المحكم، وزعموا أن

---

(١) في الأصل: صول

(٢) في الأصل: فهو

(٣) الحشوية: وأهل الحشو، هم المشبهة والمجسمة وأهل الظاهر الذين لا يسلكون سبيل التأويل للمتشابه من آيات القرآن، وهو تعبير يستخدمه المعتزلة للتدليل على أن هؤلاء ليسوا أهلاً لمثل هذا الميدان، وأن كلامهم حشو لا منطق فيه ولا عقل وراء مقدماته ونتائجه.

الكتاب لا يحكم بعضه على بعض، وأن كل آية منه ثابتة واجب حكمها بوجوب تنزيلها وتأويلها، ولذلك[1] ما وقعوا في التشبيه، وجادلوا عليه لما سمعوا من متشابه الكتاب فلم يحكموا عليه بالآيات[2] التي جاءت بنفي التشبيه. فاعلم ذلك، فإن هذه جملة في معرفة المعبود والتعبد والعبادة، ومعرفة الحجج التي بها وجب التعبد على جميع المكلفين.

ثم نعود إلى تفسير هذه الجملة وشرحها وتبيين عللها وما تكمل به المعارف من تقسيمها.

فأول ما نذكره من ذلك، معرفة الله عز وجل، وهي عقلية، منقسمة على وجهين، وهما: إثبات، ونفي، فالإثبات هو اليقين بالله والإقرار به، والنفي هو نفي التشبيه عنه، تعالى، وهو التوحيد، وهو ينقسم على ثلاثة أوجه:

أولها: الفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، حتى ينفي عنه جميع ما يتعلق بالمخلوقين في كل معنى من المعاني، صغيرها وكبيرها وجليلها ودقيقها، حتى لا يخطر في قلبك في التشبيه خاطر شك ولا توهم[3] ولا ارتياب، حتى توحد الله، سبحانه، باعتقادك وقولك وفعلك، فإن خطرت على قلبك في التشبيه خاطرة شك فلم تنف عن قلبك بالتوحيد خاطرها وتمط باليقين البت والعلم المثبت حاضرها، فقد خرجت من التوحيد إلى الشرك ومن اليقين إلى الشك، لأنه ليس بين التوحيد والشرك وبين اليقين والشك منزلة ثالثة. فمن خرج من التوحيد فإلى الشرك مخرجه، ومن فارق اليقين ففي الشك موقعه.

والوجه الثاني: (هو)[4] الفرق بين الصفتين، حتى لا تصف القديم بصفة من صفات المحدثين.

والوجه الثالث: (هو)[5] الفرق بين الفعلين حتى لا تشبه فعل القديم بفعل المخلوقين.

---

(١) أي كان ذلك هو سبب ما وقعوا من تشبيه الله سبحانه، وعدم تنزيه عن مشابهة المحدثات، و«ما» هنا زائدة.

(٢) في الأصل: للآيات

(٣) في الأصل: توهيم

(٤) في الأصل: فهو

(٥) في الأصل فهو

فمن شبه بين الصفتين ومثل بين الفعلين فقد جمع بين الذاتين، وخرج إلى الشك والشرك بالله، وبرىء من التوحيد والإيمان، وصار حكمه في ذلك حكم من أشرك وامترى فشك.

فهذه جملة التوحيد المضيقة، التي لا يعذر من اعتقادها والنظر في معرفتها، عند كمال الحجة، أحد من العبيد.

فمن مكن، بعد بلوغه وكمال عقله، وقتاً يكمل فيه العدل تمكنة فتعدى إلى الوقت الثاني وهو جاهل بهذه الجملة فقد خرج من حد النجاة ووقع في بحور الهلكات حتى يستأنف التوبة ويقلع عن الجهل والغفلة بالنظر فى معرفة هذه الجملة التي لمعرفتها خلق الله الخلق، وهي **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**.

والدين القيم هو المستقيم الواصب الثابت الدائم المتصل، وذلك قوله: له الدين واصباً يريد منصباً متبعاً وهو التوحيد والخلصانية التي لا تزول عن قلوب المتعبدين العارفين بالله المخلصين بزوال التشريعات[1] التي تزول بزوال الاستطاعات والعلل المانعات عن القيام بالفروض الشرعيات.

ثم اعلم أن هذه الجملة هي أصل التوحيد، فكل ما ورد من الشرح والكلام مردود إلى هذا الأصل الذي أجمع عليه أهل القبلة. فما ورد عليك من فروع الكلام والشروح يؤكد لك أصول دينك اعتقدته ودنت الله به، وما ورد عليك مما بنقض الأصل تركته واعتزلته، فإن بذلك صحت المقالة لأهل الفرقة الناجية.

فالواجب على الطالب لنجاته حراسة الأصول من النقض لها بالتفسير حتى لا ينقضها بالتفسير طول عمره مضطرباً في عمادة التوحيد برد الفرع إلى أصله حتى لا يضيف إلى معبوده شيئاً من صفات خلقه وعبيده في كل فعل منه وذات وفي كل صفة من الصفات حتى تنزه القلوب والضمائر وخواطر الأوهام والسرائر، فإن دقيق ذلك كله كجليله، والكبير من ذلك كقليله، فافهمه، وتدبر تجده كذلك إن شاء الله.

تم. وصلى الله على رسوله سيدنا محمد النبي وآله، وسلم تسليماً.

---

(١) في الأصل: الشريعات.

كتاب العدل والتوحيد
ونفي التشبيه عن
الله الواحد الحميد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على ما أسبغ علينا من نعمه، ومنّ علينا من إحسانه وكرمه، وبين لنا من الهدى، وأنقذنا من الضلالة والردى بإقامة حججه، وتواتر رسله، صلوات الله عليهم، ومحكم آياته وتفصيل بيناته، رحمة لعباده ودعاء لهم إلى ثوابه وإخراجاً لهم من عقابه، ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة﴾[1]، و﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم﴾[2].

أما بعد. . فإن الذي يجب على العبد أن يكون عاملاً بطاعة الله التي لا يقبل الله عز وجل غيرها من طاعته إلا بأدائها، ولا يكون مؤمناً حتى يفعلها، أن يؤمن بالله وحده لا شريك له، ولا يتخذ معه إلهاً ولا من دونه رباً ولا ولياً، وأن يؤمن بملائكة الله وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، وبالحساب وبالجنة وبالنار وبالجزاء بالأعمال، وأن الآخرة هي دار القرار، لا ينقطع ثوابها ولا يبيد عقابها، ولا يموت فيها أهلها، وهم في جزائهم خالدون. ويؤمن بوعد الله جل ثناؤه ووعيده وأخباره، وكل ما جاء به محمد، صلى الله عليه وعلى أهله وسلم، مما أمر به ونهى عنه، صلوات الله عليه، من العمل بالمفروض بطاعة الله والاجتناب لجميع معاصي الله، والولاية لأولياء الله والمعاداة لأعدائه، والرضى بقضاء الله، والتسليم لأمر الله فإذا فعل ذلك كان مؤمناً مسلماً محسناً من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ولا يكون العبد مؤمناً حتى يعلم أنه مخلوق مرزوق، وأنه ذليل مقهور، وأن له خالقاً قديماً عزيزاً حكيماً، ليس كمثله شيء في وجه من الوجوه ولا معنى من

(١) النساء: ١٦٥.

(٢) الأنفال: ٤٢.

المعاني، وأن ما سواه من الأشياء كلها، من عرشه وملائكته، ورسله وسماواته وأرضه وما فيهن وما بينهن وما فوقهن وما تحتهن، مما أخرجه الله، جل ثناؤه، من تمكين العباد وأفعالهم لم يجعل لأحد عليه قدرة ولا استطاعة، ولا جعل عند أحد منهم معرفة في شيء من بدو[1] ذلك وإنشائه. ومن أعمل منهم فكره ليبلغ معرفة شيء من ذلك بقي حسيراً منقطعاً مبهوراً، ولا جعل لأحد[2] في شيء منه سبيلاً، ولا جعل لأحد فيه محمدة ولا ذماً، لأنه، عز وجل، لم يستعن على إنشاء ما أنشأ بأحد، ولم يشاركه في ملكه أحد، ولم يؤامر[3] في تدبيره أحداً، فهو الواحد الأحد الذي لا من شيء كان ولا من شيء خلق ما كان، فهو الدائم بلا أمد، الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، فهو **﴿الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾**[4] وجميع ما أدركتَه ببصرك ووهمك ووقع عليه شيء من حواسك أو كيفته بتقديرك أو حددته بتمثيلك أو شبهته بتشبيهك، أو وقَّتَّ له وقتاً، أو حددت له حداً، أو عرفت له أولاً، أو وصفت له آخراً فهو مُحدَث مخلوق، والله، تبارك وتعالى، خالق للأشياء، لا من شيء خلقها، ولا على مثال صورها، بل أنشأها إنشاء وابتدأها ابتداء، ودبرها بأحكم تدبير، وقدرها بأحسن تقدير، فهو، جل ثناؤه، لا يشبه الخلق ولا يشبهه الخلق، لأنه الخالق الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لم يخص بذلك شيئاً دون شيء، بل عم الأشياء كلها ما كان منها وما يكون، فلا شبيه له ولا عديل، لا الضياء ولا الأنوار ولا الظلمات ولا النار، وذلك أن النور والظلمة مخلوقان محدثان يوجدان ويعدمان ويقبلان ويدبران ويذهبان ويجيئان ويوصفان ويحدان، والخالق، جل ثناؤه، ليس كذلك، لأن الخالق، جل وعز، قديم لم يزل، والمخلوق لم يكن، فآثار الصنعة في المخلوق بينة وأعلام التدبير قائمة والعجز ظاهر والحاجة لازمة والآفات به نازلة، فأنت تراه مرة ماثلاً ومرة آفلاً زائلاً، فلما كانت هذه صفة كل مخلوق لم يجز أن تضاف صفة المخلوق إلى الخالق، عز وجهه، لأن الخالق لا يكون في صفة المخلوق، تبارك وتعالى الخالق أن يكون له شبه البشر.

---

(١) ظهور.
(٢) في الأصل: الواحد.
(٣) أي يشاور.
(٤) الحديد: ٣.

هو الحامد نفسه قبل أن يحمده أحد من خلقه، فقال تبارك وتعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾[1]، يقول جل ثناؤه، إن الكفار عبدوا إلهاً غير الله، فقالوا: هو ضياء ونور، ومن جنسه النار والنور، وجعلوا معه إلهاً آخر، وقالوا: هو ظلمة، ومن جنسه كل ظلمة[2]، فعدلوا بالله، جل ثناؤه، حين شبهوه بالأنوار، وجعلوا معه آلهة من الظلمات، فأكذبهم الله جل ثناؤه إذ قال: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ تكذيباً لهم إذ شبهوه وعدلوا به، وأكذب، جل ثناؤه، الذين شبهوه بالإنس، من اليهود وغيرهم من المشركين، جهلاً به وجرأة عليه، فقال، جل ثناؤه: مع ما بين لهم في عقولهم من وحدانيته ونفي شَبَه الخلق عندما يرون من أدلته وأعلامه التي تدعوهم إلى معرفته وتوحيده من خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ومن أنفسهم لو أحسنوا النظر وأعملوا في ذلك الفكر، فقال، جل ثناؤه: ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾[3] وقال: ﴿ليس كمثله شيء﴾[4]، وقال: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾[5]، وقال: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم أينما كانوا﴾[6]. كذلك الله، عز وجل، شاهد على كل نجوى، عالم السر وأخفى، قريب لا بمجاورة، بعيد لا بمفارقة، شاهد كل غائب، آخذ بناصية كل دابة، وعليه رزقها[7]، يعلم مستقرها ومستودعها، أقرب إلينا من حبل

---

(١) الأنعام: ١.

(٢) وهم الثنوية المانوية، وربما قيل لهم: المنانية، وفرقهم متعددة أهمها: المزدقية، والديصانية، والمرقيونية، والماهانية، والصيامية، والمقلاصية، وينتسبون إلى «ماني» صاحب «السابرقان» الذي يعتبرونه خاتم النبيين، ويجمع هذه الفرق جميعاً، على ما بينها من خلافات في التفاصيل، القول بإله للخير هو النور وآخر للشر هو الظلمة. راجع المغني في أبواب التوحيد والعدل، لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد. الجزء الخامس. تحقيق محمد الخضري. ص ٩ - ٧٠. طبعة القاهرة.

(٣) الاخلاص: ١ - ٤.

(٤) الشورى: ١١.

(٥) الانعام: ١٠٣.

(٦) المجادلة: ٧.

(٧) ففي الآية ٦ من سورة هود نقرأ قول الله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ وفي الآ

الوريد، وحائل بيننا وبين قولنا لا بتحديد، وهو مع قربه منا مدبر السموات العلى، وهو على العرش استوى وهو مع كل نجوى، وهو في ذلك لا كشيء من الأشياء.

الرد على المشبهة

ولقد ضل قوم ممن ينتحل الإسلام من المشبهة الملحدين الذين شبهوا الله، جل ذكره، بخلقه، وزعموا أنه على صورة الإنسان، وأنه جسم محدود وشبح مشهود، واعتلوا بآيات من الكتاب متشابهات حرفوها بالتأويل ونقضوا بها التنزيل، كما حرف من كان قبلهم من اليهود والنصارى كلام الله عن مواضعه، وبأحاديث افتعلها الضُّلال من بغاة الإسلام، فحملها عنهم الجهال، فيها الإلحاد والكفر بالله، وأحاديث لم يعرفوا حسن تأويلها، ولم يعنوا بتصحيحها، فضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل، فكان مما تأولوا قول الله عز وجل: **﴿وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة﴾**[1]، فقالوا: إن الله، عز وجل، يُرى بالأبصار في الآخرة وينظر إليه جهرة، خلافاً لقول الله، جل ثناؤه: **﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾**[2] جهلاً بمعاني الآية وتأويلها. فأما أهل العلم والإيمان ففسروها على غير ما قال أهل التشبيه المنافقون، فقالوا: وجوه يومئذ ناضرة، نقول: مشرقة حسنة، إلى ربها ناظرة، نقول: منتظرة ثوابه وكرامته ورحمته وما يأتيهم من خيره وفوائده، وهكذا ذلك في لغات العرب، وبلغاتها ولسانها نزل القرآن.

يقولون، إذا جاء الخصب بعد الجدب: قد نظر الله، جل ثناؤه، إلى خلقه، ونظر لعباده، يريدون أنه أتاهم بالفرج والرخاء، ليس يعنون أنه كان لا يراهم ثم صار يراهم.

وقال الله، جل ذكره، وهو يذكر أهل النار: **﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾**[3] تأويل ذلك:

= ٥٦ من نفس السورة نقرأ قوله، جل شأنه: ﴿وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط المستقيم﴾.

(١) القيامة: ٢٢.

(٢) الأنعام: ١٠٣.

(٣) آل عمران: ٧٧.

أنهم لا يرجون من الله، جل ثناؤه، ثواباً، ولا يفعل لهم خيراً، وأهل الجنة ينظر الله إليهم وينظرون إلى الله، جل ثناؤه، ومعنى ذلك أنهم يرجون من الله خيراً، ويأتيهم منه خير ويفعله بهم. ليس معنى ذلك أنهم ينظرون إلى الله جهرة بالأبصار، عز ذو الجلال والإكرام. وكيف يرونه بالأبصار وهو لا محدود ولا ذو أقطار[1]، كذلك جل ثناؤه، لا تدركه الأبصار، ومن أدركته الأبصار فقد أحاطت به الأقطار، ومن أحاطت به الأقطار كان محتاجاً إلى الأماكن وكانت محيطة به، والمحيط أكثر من المحاط به وأقهر بالإحاطة، فكل من قال: أنه ينظر إليه، جل ثناؤه، على غير ما وصفنا من انتظار ثوابه وكرامته فقد زعم أنه يدرك الخالق، ومحال أن يدرك المخلوق الخالق، جل ثناؤه، بشيء من الحواس، لأنه خارج من معنى كل محسوس وحاس. فكذلك نفى الموحدون عن الله، جل ثناؤه، درك الأبصار وإحاطة الأقطار وحجب الأستار، فتعالى الله عن صفة المخلوقين علواً كبيراً، لا إله إلا هو رب العالمين.

وتأولت أيضاً المشبهة قول الله، تبارك وتعالى: ﴿خلقت بيدي﴾[2]، وقوله: ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾[3]، وقوله: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾[4]، وقوله: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾[5]، وقوله: ﴿سميع بصير﴾[6]، وقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾[7]، وقوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[8]، ففسروا ذلك على ما توهموا من أنفسهم، وبأن الله، عز وجل، عندهم في ذلك كله (على) [9] معاني المخلوقين وصفاتهم في هيئاتهم وأفعالهم، فكفروا بالله العظيم، وعبدوا غير الله الكريم.

---

(١) كلمة ذات معاني كثيرة، والمراد هنا: الجوانب والحدود.
(٢) ص: ٧٥
(٣) الزمر: ٦٧
(٤) الفجر: ٢٢
(٥) النساء: ١٦٤.
(٦) الحج: ٦١، ٧٥. ولقمان: ٢٨. والمجادلة: ١.
(٧) آل عمران: ٢٨، ٣٠.
(٨) القصص: ٨٨.
(٩) في الأصل: عن.

وتأويل ذلك كله عند أهل الإيمان والتوحيد، أن الله، عز وجل، ليس كمثله شيء، فأما قوله تبارك وتعالى: ﴿خلقت بيدي﴾ يعني بقدرتي وعلمي، يريد أني على ذلك قادر به وعالم (تسوليت)[1] ذلك بنفسي، لا شريك لي في تدبيري وصنعي، لا أن قدرتي وعلمي ونفسي غيري، بل أنا الواحد الذي لا شيء مثلي. وقد بين معنى هذه الآية في آية أخرى، فقال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون﴾[2]، وقال، جل ثناؤه: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[3]، يريد إذا كونا شيئاً كان.

وقال، تبارك وتعالى: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون﴾[4]، يقول: ما عملت أنا بنفسي.

وقال، جل ثناؤه: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[5]، وتأويل ذلك عند أهل العلم: بل نعمتاه مبسوطتان على خلقه: رزق موسع، ورزق مضيق، ينفق كيف يشاء أي يفعل لذلك ما هو أصلح لعباده.

كذلك قال، جل ثناؤه: ﴿بيده الملك﴾[6] يعني له الملك، وكذلك تقول العرب: الملك بيد فلان، وقد قبض فلان الملك والأرض، وذلك في قبضته وبيمينه، يعنون في قدرته وملكه، كذلك السموات والأرض وما بينهما وما فيهما في قبضة الله وبيمينه يعني في قدرته وملكوته وسلطانه اليوم ويوم القيامة وفي كل وقت.

كما قال، جل ثناؤه: ﴿والأمر يومئذ لله﴾[7]، فالأمر يومئذ، واليوم لله.

وقال، تبارك وتعالى، لمن عصاه، وهو يساق إلى النار: ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾[8]، و﴿بما كسبت أيديكم﴾[9]، يريد بما كسبت أنت بقولك وفعلك، ليس يعني يده دون بدنه وجوارحه.

---

(١) مكررة في الأصل.
(٢) آل عمران: ٥٩.
(٣) النحل: ٤٠
(٤) يس: ٧١.
(٥) المائدة: ٦٤.
(٦) الملك: ١ .
(٧) الانفطار: ١٩.
(٨) الحج: ١٠.
(٩) الشورى: ٣٠.

وقال، جل ثناؤه، لنبيه، صلوات الله عليه وعلى أهله: ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾[1]، يعني ما ملكتَ أنت.

وقال، تبارك وتعالى: ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾[2]، يعني ما ملكتم أنتم. وتقول: أسلم فلان على يدي فلان، يريدون بقوله وأمره، ويقولون:

* بيد الله عُمرنا والفناء *

يريدون بالله عمرنا والفناء.

ويقولون: نواصينا بيد الله، ونحن في قبضة الله، يريدون بهذا كله: أنا في قدرته وملكه، ليس يذهبون إلى يد كيد الإنسان أو غيره مِن الخلق.

ومعنى قوله: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾[3]، يقولون: جاء الله، جل ثناؤه، بآياته العظام في مشاهد القيامة، وجاء بتلك الزلازل والأهوال، وجاء بالملائكة الكرام فتجلت الظلم وانكشفت عن المرتابين البهم، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتبسون. وليس قوله: ﴿وجاء ربك﴾، أنه جاء من مكان، ولا أنه زائل ولا حائل، ولا منتقل من مكان إلى مكان، أو جاء من مكان إلى مكان، تبارك الله وتعالى عن ذلك، بل هو شاهد كل مكان ولا يحويه مكان، وهو عالم كل نجوى وحاضر كل ملأ.

كذلك قوله: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلل من الغمام﴾[4]، كما قال، جل ثناؤه: ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون﴾[5]، وكذلك قال، جل ثناؤه: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾[6]، وقال: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾[7]، يعني بذلك كله أنه أتاهم بعذابه وأمره، ليس أنه أتاهم بنفسه زائلاً، وكان في مكان فكانَ عنه منتقلاً. وكذلك يقول القائل للرجل إذا جاء بأمر عجيب: لقد أتيت بأمر عظيم، ولقد أتى فلان أمراً عجيباً، يريدون أنه فعل شيئاً أعجبه، فذلك تأويل المجيء من الله، جل ثناؤه، لا هو بالانتقال ولا

---

(1) الأحزاب: ٥٢.
(2) النساء: ٢٤.
(3) الفجر: ٢٢.
(4) البقرة: ٢١٠.
(5) يس: ٤٩.
(6) النحل: ٢٦.
(7) الحشر: ٢.

بالزوال، لأن الزائل مدبَّر محتاج ، لولا حاجته إلى الزوال لم يزل، فلذلك نفى الموحدون عن الله ، جل ثناؤه، الزوال والانتقال.

وقوله: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾[1]، فذهبت المشبهة إلى أن الله، تعالى عما قالوا علواً كبيراً، يكلم بلسان وشفتين، وخرج الكلام منه كما خرج من المخلوقين، فكفروا بالله العظيم حين ذهبوا إلى هذه الصفة. ومعنى كلامه، جل ثناؤه، لموسى صلوات عليه، عند أهل الايمان والعلم، أنه أنشأ كلاماً خلقه كما شاء فسمعه موسى، صلى الله عليه، وفهمه، وكل مسموع من الله فهو مخلوق، لأنه غير الخالق له، وإنما ناداه الله، جل ثناؤه، فقال: ﴿إني أنا الله رب العالمين﴾[2]، والنداء غير المنادِي، والمنادي بذلك هو الله، جل ثناؤه، والنداء غيره، وما كان غير الله مما يعجز عنه الخلائق فمخلوق، لأنه لم يكن ثم كان بالله وحده لا شريك له.

وكذلك عيسى، صلوات الله عليه، كلمة الله وروحه، وهو مخلوق، كما قال الله، وكذلك قرآن الله وكتب الله كلها، قال جل ثناؤه: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾[3]، يريد خلقناه، كما قال: ﴿جعلهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾[4]، يقول: خلق منها زوجها. وقال، جل ثناؤه: ﴿وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم وأسروا النجوى﴾[5]، وقال، تبارك وتعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾[6]، وقال، سبحانه: ﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾[7]، فكل محدث من الله، جل ثناؤه، فمخلوق، لأنه لم يكن فكان بالله تعالى وحده لا شريك له. فالله أول لم يزل و«لن»[8] يزول.

وأما قوله: ﴿سميع بصير﴾، فمعنى ذلك أنه لا تخفى عليه الأصوات ولا اللهوات[9] ولا غيرها من الأعيان أينما كانت وحيث كانت في ظلمات الأرض والبر

---

(١) النساء: ١٦٤.
(٢) القصص: ٣٠.
(٣) الزخرف: ٣.
(٤) الأعراف: ١٨٩.
(٥) الأنبياء: ٣.
(٦) القلم: ٤٤.
(٧) طه: ١١٣.
(٨) في الأصل: لم.
(٩) جمع لهاة، لحمة مشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.

والبحر، ليس يعني أنه سميع بصير بجوارح أو بشيء سواه، فيكون محدوداً أو يكون معه غيره موجوداً، تعالى عن ذلك.

وأما قوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[1]، وقوله: ﴿ويبقى وجه ربك﴾[2]، فإنما يعني إياه لا غيره، يقول: كل شيء هالك إلا هو. وقوله: ﴿ويبقى وجه ربك﴾ ليس يعني بذلك وجهاً من جسد، ولا جسداً ذا وجه، تعالى الله عن هذه الصفات التي هي في المخلوقين موجودات.

وأما قوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾[3]، يريد يحذركم الله إياه لا غيره، وقوله: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾[4]، يريد تعلم أنت ما أعلم ولا أعلم أنا ما تعلم إلا ما علمتني، ليس أن له نفساً غيره، بها يقوم، تعالى عن ذلك.

وقد يقول القائل: هذا نفس الحق، ونفس الطريق، وكذلك هذا وجه الكلام، ووجه الحق، يريدون لذلك كله: هو الحق، وهذا هو الكلام، وهذا هو الطريق، ليس يذهبون إلى شيء غير ذلك، فتعالى الله عن صفات المخلوقين علواً كبيراً، هو الذي لا كفو له ولا نظير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فكل من وصف الله، جل ثناؤه، بهيئات خلقه، وشبهه بشيء من صنعه، أو توهمه صورة أو جسماً أو شبحاً أو أنه في مكان دون مكان أو أن الأقطار تحويه وأن الحجب تستره وأن الأبصار تدركه وأنه لم يخلق كلامه وكتبه والقرآن وغيره من كلامه وأحكامه، وأنه كشيء مما خلق، وأن شيئاً من خلقه يدركه مما كان أو يكون بجارحة أو حاسة، فقد نفاه وكفى[5] به وأشرك به. فافهموا ذلك، وفقنا الله وإياكم لإصابة الحق وبلوغ الصدق.

---

(١) القصص: ٨٨.
(٢) الرحمن: ٢٧.
(٣) آل عمران: ٢٨.
(٤) المائدة: ١١٦.
(٥) المراد جعل له كفواً أي مشابهاً ومناظراً.

وعلى العبد إذا وحَّد الله، جل ثناؤه، وعرف أنه ليس كمثله شيء أن يتقيه في سره وعلانيته، ويرجوه ويخافه، ويعلم أنه عدل كريم رحيم حليم لا يكلّف عباده إلا ما يطيقون ولا يسألهم إلا ما يجدون، ولا يجازيهم إلا بما يكسبون ويعملون، وهكذا جل ثناؤه قال، يدل بذلك على رحمته لنا وإحسانه إلينا: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾[1]، و﴿ إلا ما آتاها ﴾[2]، وقال «جل»[3] ثناؤه: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[4]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾[5]، فلم يكلف الرحيم الكريم أحداً من عباده ما لا يستطيع[6]، بل كلفهم دون ما يطيقون ولم يكلفهم كل ما يطيقون، وعذرهم عندما فعل بهم من الآفات التي أصابهم بها، ووضع عنهم الفرض فيها، فقال، لا شريك له: ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾[7]، لأنهم لا يقدرون أن يؤدوا ما فرض الله عليهم، ولم يقل، جل ثناؤه: ليس على الكافر حرج، ولا على الزاني حرج، ولا على السارق حرج، وذلك أنه لم يفعل بهم ولا يدخلهم فيه ولم يقض ذلك ولم يقدره، لأنه جور وباطل، والله، جل ثناؤه لا يقضي جوراً ولا باطلاً ولا فجوراً، لأن المعاصي كلها باطل وفجور وجور، والله يتعالى أن يكون لها قاضياً أو مقدراً، بل هو، كما وصف نفسه، جل ثناؤه، إذ يقول: ﴿ إن الحكم «إلا»[8] لله يقضي الحق وهو خير الفاصلين ﴾[9]، بل قضاؤه منها كلها النهي عنها والحكم على أهلها بالعقوبة والنكال في الدنيا والآخرة إلا أن يتوبوا فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات. أليس قال، جل ثناؤه، في الصيام: ﴿ إن كنتم مرضى أو على سفر فعدة من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[10] فوضع عن المرضى الصيام لأنهم لا يقدرون عليه ووضعه عن المسافر، وإن كان يقدر عليه، يخبرهم أنه إنما يفعل ذلك لأنه يريد بهم

---

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) الطلاق: ٧.
(٣) غير موجودة بالأصل.
(٤) التغابن: ١٦.
(٥) آل عمران: ٩٧.
(٦) هنا بالأصل كلمة: كل.
(٧) النور: ٦١.
(٨) غير موجودة بالأصل.
(٩) الأنعام: ٥٧.
(١٠) البقرة: ١٨٥

اليسر ولا يريد بهم العسر، ووضع عنه الصلاة قائماً إذا لم يقدر على الصلاة إلا جالساً، فإن لم يقدر على الصلاة جالساً صلى مضطجعاً أو مستلقياً، فإن لم يقدر على شيء من ذلك من جوارحه فلا شيء عليه، فعل ذلك رحمة ونعمة ونظراً لعباده.

ومن لم يكن له مال فلا زكاة عليه، وإن كان ذا مال فحال عليه الحول، وهو مائتا درهم، فعليه خمسة دراهم، وإن نقص «عن»[1] مائتي درهم شيئاً قل أو كثر فلا شيء عليه فيها، وكل أمر لا «يستطيعه»[2] العبد فهو عنه موضوع، وكلف مما يستطيعه اليسير، يريد الله، جل ثناؤه، بذلك التخفيف «عن»[3] عباده، تصديقاً لقوله: ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[4]، وقال، جل ثناؤه: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾[5]، يقول: من ضيق. وقال، تبارك وتعالى: ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾[6]، فلم يؤت واحد من قبل الله، تبارك وتعالى، في دينه، وإنما يؤتى العبد من نفسه، بسوء نظره، وإيثاره هواه، وشهوته من قبل الشيطان عدوه الذي يوسوس في صدره ويزين له سوء عمله، ويتبعه فيضله ويرديه ويهديه إلى عذاب السعير. وقال، جل ثناؤه، يحذر عباده الشيطان: ﴿ يا بني آدم، لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ﴾[7]، وقال، تبارك وتعالى: ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾[8]، وقال، سبحانه: ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه «عدواً»[9] إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[10] أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

وعلى العبد «أن»[11] يعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الكريم الحليم، وأن الله، جل ثناؤه عالم بما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون، وأنه أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، وأنه لم يجبر أحداً على معصية،

---

(١) في الأصل: من.
(٢) في الأصل: يستطيقه.
(٣) في الأصل: من.
(٤) النساء: ٢٨.
(٥) الحج: ٧٨.
(٦) الانعام: ١٦٤.
(٧) الأعراف: ٢٧.
(٨) البقرة: ٢٦٨.
(٩) غير موجودة في الأصل.
(١٠) فاطر: ٦.
(١١) غير موجودة في الأصل.

ولـم يحل بيـن أحد وبيـن الـطاعة، فالعباد عاملـون، والله، جل ثناؤه، العالـم بأعمالهم والحافظ لأفعالهم، والمحصي لأسرارهم وآثارهم، وهو بما يعملـون خبير.

وعلى العبد أن يعلم أن الله، جل ثناؤه، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه لا يضل أحداً حتى يبين لهم ما يتقون، فإذا بين لهم ما يتقون وما يأتون وما يذرون فأعرضوا عن الهدى وصاروا إلى الضلالة والردى أضلهم بأعمالهم الخبيثة حتى ضلوا. كذلك قال، جل ثناؤه: ﴿ **ويضل الله الظالمين** ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾[2]، وقـال تعالى: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾[3]، وقال، جل ثناؤه: ﴿ **بل طبع الله عليها بكفرهم** ﴾[4].

وقد يجوز أيضاً أن يكون معنى «ذلك» [5] أن سماهم ضلالاً وشهد عليهم بالضلال ووصفهم به من غير أن يدخلهم في الضلالة ويقسرهم عليها، فإن رجعوا عن الضلالة وتابوا وصاروا إلى الهدى سماهم مهتدين وأزال عنهم اسم الضلالة والفسق، ولم يبتدىء ربنا، جل ثناؤه، أحداً بالضلالة من عباده ولا وصف بها أحداً من قبل أن يستحقها، وكيف يبتدىء أحداً من عباده بالضلالة، كما قال القدريون الكافرون الكاذبون على الله، والله، جل ثناؤه، ينهى عباده عنها ويحذرهم إياها ويقول: ﴿ **يبين الله لكم أن تضلوا** ﴾[6]، يعني لأن لا تضلوا، وقال، جل ثناؤه: ﴿ **الر، كتاب أنزل إليك لتخرج الناس من الظلمات إلـى النور بإذن ربهم إلـى صراط العزيز الحميد** ﴾[7]، وقال، سبحانه: ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيـراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[8]، ولو ابتدأهم بالضلالة كان قد غيَّر ما بهم من النعمة قبل أن يغيروا. سبحانه هو الرحمن الرحيم، وخير الناصرين، يريد بذلك وصف نفسه، وأمَّن الخلق أن يكون لهم ظالماً أو بغير ما علموا مجازياً،

---

(١) إبراهيم: ٢٧.
(٢) البقرة: ٢٧.
(٣) الصف: ٥.
(٤) النساء: ١٥٥.
(٥) غير موجودة بالأصل.
(٦) النساء: ١٧٦.
(٧) إبراهيم: ١.
(٨) الأنفال: ٥٣.

فقال، جل ثناؤه: ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾[1]، وقال، جل ثناؤه: ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ﴾[2]، وقال، سبحانه: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[3]، وقال، تبارك وتعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[4]، وقال عز ذكره: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[5]، فلعبادته خلقهم، وبطاعته أمرهم، ومن ظلمه أمَّنهم، وبنعمته ابتدأهم بما جعل لهم من العقول والأسماع والأبصار وسائر الجوارح والقوى التي يصلون بها إلى أخذ ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، ثم ابتدأهم، جل ثناؤه، بالنعمة في دينهم بأن بين لهم ما يأتون وما يذرون، ثم أمرهم بما يطيقون، أراد بذلك إكرامهم ومن المهالك إخراجهم، يبين ذلك قوله في الانسان: ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ﴾[6]، والنجدان هما طريق الخير والشر، فيما سمعنا، يقول، سبحانه: بينا له الطريقتين ليسلك طريق الخير ويجنب طريق الشر، وقال، تبارك وتعالى: ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾[7]، وقال، عز وجل: ﴿ إن علينا للهدى ﴾[8] وقال، جل ثناؤه: ﴿ الذي قدر فهدى ﴾[9]، وقال، تبارك وتعالى: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ﴾[10]، وقال، سبحانه: ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[11] وقال لنبيه ﷺ، وعلى أهله: ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي، وأن اهتديت فيما يوحي إليَّ ربي إنه سميع قريب ﴾[12] فأمر نبيه ﷺ، أن ينسب ضلاله، إن كان منه، إلى نفسه، والهدى إلى ربه، تبارك وتعالى، وقد علم الله، جل ثناؤه، أن لا يكون من نبيه ضلالة أبداً، وأن لا يكون منه إلا الهدى، وإنما أمر بذلك تأديباً لخلقه، وأن ينسبوا ضلالتهم إلى أنفسهم وينزهوا منها ربهم وأن ينسبوا هداهم إلى

---

(1) النساء: ١٤٧.
(2) النساء: ١٢٣.
(3) فاطر: ١٨.
(4) الزلزلة: ٧.
(5) الذاريات ٥٦.
(6) البلد: ١٠.
(7) النجم: ٢٣.
(8) الليل: ١٢.
(9) الأعلى: ٣.
(10) النحل: ٩.
(11) فصلت: ١٧.
(12) سبأ: ٥٠.

الذي به اهتدوا وبعونه وتوفيقه رشدوا.

والقدريون المفترون يكرهون أن ينسبوا الضلالة إلى أنفسهم والفواحش، ولا يقرون «أن»[1] الله، جل ثناؤه، ابتدأ عباده بالهدى ولا بالتقوى قبل أن يصيروا إلى هدى وتقوى، خلافاً لقوله ورداً لتنزيله وإبطالاً لنعمه، وهو يقول، جل ثناؤه: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[2]، يأمرهم بالتقوى إذ كانوا إليها مستطيعين، ولولم يكن لهم عليها استطاعة لما أمرهم بها، ولو كانت استطاعة لغيرها لم يجز أن يقول: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتهم ﴾، إذ كانت الاستطاعة لغير التقوى، وقال، جل ثناؤه: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة، واذكروا ما فيه ﴾[3]، وقال، تبارك وتعالى: ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾[4]، فقد أمرهم أن يأخذوا كتبه بقوة وأمرهم أن يأخذوا كتبه ومواعظه بالقوة التي آتاهم قبل أن يأخذوا لأن الأخذ فعلهم والأمر والقوة فعل ربهم، فلم يأمرهم، جل ثناؤه، أن يأخذوا حتى قواهم على ذلك قبل أن يأخذوا. وكذلك قال في الصيام: ﴿ وعلى الذين يطيقونه فديه ﴾[5]، يعني على الذين يطيقون الصيام ولا يصومون فدية، ونحو ذلك مما في القرآن. وذلك كله دليل على أن القوة قبل الفعل إذ كان الفعل لا يكون إلا بالقوة، وكل ما كان بشيء يكون «أو به»[6] يقوم فالذي يكون الشيء أو يقوم به فهو قبله، كذلك الأشياء كلها بالله، جل ثناؤه، كانت، وبه قامت، وهو قبلها، وكذلك القوة فينا قبل فعلنا، إذ كان الفعل لا يكون ولا يقوم ولا يتم إلا بها، وكذلك يقول الناس: بقوة الله فعلنا، لا كما تقول القدرية المشركون أن الله، جل ثناؤه، لم يبتدىء العباد بالقوة فأنعم عليهم بها قبل فعلهم ولكنها كانت منه مع فعلهم. ففيما وضعنا دليل وبرهان أن القوة من الله، جل ثناؤه، في عباده قبل فعالهم، إذ كان بطاعته لهم آمراً وعن معصيته لهم ناهياً، نعمة أنعمها عليهم وأحسن بها اليهم.

والقوة عندنا على الأعمال هي الصحة والسلامة من الآفات في النفس والجوارح وكل ما «يوصل»[7] به إلى الأفاعيل، إذ كانت الصحة والسلامة تثبت

(1) غير موجودة بالأصل.
(2) التغابن: ١٦.
(3) البقرة: ٦٣.
(4) مريم: ١٢.
(5) البقرة: ١٨٤.
(6) مكررة بالأصل.
(7) في الأصل: يوصف.

الفرض، وإذا زالت زال الفرض، وذلك موجود في المعقول وفي أحكام الله، جل ثناؤه، وسنة رسوله، صلى الله عليه وعلى أهله، وفي إجماع الأمة، لا يعرفون غير ذلك ولا يدينون إلا به، فليتق الله عبد وليعلم أن الله، جل ذكره، يبتدىء العباد بالنعم والبيان ولا يبتدئهم بالضلال والطغيان، صدق ذلك قوله، لا شريك له: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾[1]، وقال، جل ثناؤه: ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ﴾[2]، فمن أحسن فليحمد الله، جل ثناؤه، إذ أمره بالخير وأعانه عليه، ومن أساء فليذم نفسه، فهي أولى بالذم وليضف المعصية، إن كانت منه، إلى نفسه الأمارة بالسوء وإلى الشيطان إذ كان بها آمراً ولها مزيناً، وكما أضافها الله، جل ثناؤه، إليه، وأضافها الأنبياء، صلوات الله عليهم، والصالحون حين عصوا الله، إلى أنفسهم، قال آدم، وحواء، صلوات الله عليهما، حين عصيا في أكل الشجرة: ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[3]، فأخبر سبحانه أن الشيطان «دلهما»[4] بغرور، ثم حذر أولادهما من بعدهما إعذاراً إليهم وتفضلاً عليهم، فقال: ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾[5].

وقال موسى، صلوات الله عليه، حين قتل النفس: ﴿ هذا من عمل الشيطان، إنه عدو مضل مبين ﴾[6]، وقال: ﴿ رب إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، فغفر له، إنه هو الغفور الرحيم ﴾[7].

وقال يونس، صلوات الله عليه، وهو في بطن الحوت، تائباً من ظلمه لنفسه ومقراً بذنبه: ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾[8].

وقال غيرهم من الأنبياء، صلوات الله عليهم، نحو ذلك، وقال الصالحون نحو ذلك عند زلتهم، فنقول كما قال أنبياؤه ورسله، صلوات الله عليهم، وكما قال الصالحون من عباده، فنضيف المعاصي إلى أنفسنا وإلى الشيطان عدونا كما أمرنا

---

(١) الاسراء: ١٥.
(٢) التوبة: ١١٥.
(٣) الأعراف: ٢٣.
(٤) في الأصل: دلاهما.
(٥) الأعراف: ٢٧.
(٦) القصص: ١٥.
(٧) القصص: ١٦.
(٨) الأنبياء: ٨٧.

ربنا، ولا نقول كما قال القدريون المفترون إن الله، جل ثناؤه، قدر المعاصي على عباده ليعملوا بها، وأدخلهم فيها وأرادها منهم وقلبهم فيها كما تقلب الحجارة وشاءها لهم وقضاها عليهم حتى لا يقدرون على تركها، وأنه، في قولهم، يغضب مما قضى، ويسخط مما أراد، ويعيب ما قدر ويعذب طفلاً بجرم والده، وأنه يحمد العباد ويذمهم بما لم يفعلوا أو يجزيهم بما صنع بهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والدليل على أن ما فعلوا من طاعة الله ومعصيته فعلهم، وأن الله، جل ثناؤه، لم يخلق ذلك، إقبال الله تبارك وتعالى، عليهم بالموعظة والمدح والذم والمخاطبة والوعد والوعيد، وهو قوله: جل ثناؤه: ﴿ **فما لهم لا يؤمنون** ﴾[1] وقوله: ﴿ **وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر** ﴾[2]، ولو كان هو الفاعل لأعمالهم، الخالق لها، لم يخاطبهم ولم يعظهم ولم يلمهم على ما كان منهم من تقصير، ولم يمدحهم على ما كان منهم من جميل وحسن، كما لم يخاطب المرضى فيقول: لم مرضتم، ويخاطب العميان فيقول: لم عميتم، ولم يخاطب الموتى فيقول: لم متم، ولم يخاطبهم على خلقهم فيقول: لم طلتم ولم قصرتم، وكما لم يمدح ويحمد الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب في مجراهن ومسيرهن، وإنما لم يمدحهن لأنه، جل ثناؤه، هو الفاعل ذلك بهن، وهو مصرفهن، ومجريهن، وهو منشئهن، فكان في ذلك دليل أنه لم يخاطب هؤلاء وخاطب هؤلاء الآخرين، فعلمنا أنه خاطب من يعقل ويفهم ويكسب، وإنما خاطبهم إذ هم مخيرون وترك مخاطبة الآخرين إذ هم غير مخيرين ولا مختارين.

فهذه الحجة وهذا الدليل على «تميز»[3] فعله من فعل خلقه.

والدليل على أن المعاصي ليست بقضائه ولا بقدره ما أنزل في كتابه من ذكر قضائه بالحق وأمره بالعدل وتعبده عباده بالرضى بقضائه وقدره، وإجماع الأمة كلها على أن جميع المعاصي والفواحش جور وباطل وظلم، وأن الله، جل ثناؤه، لم يقض الجور والباطل ولم يكن منه الظلم، وأنهم مسلمون لقضاء الله مناقدون لأمر الله، وإذا نزلت بهم الحوادث من الأسقام والموت والجدب والمصائب من الله،

(١) الانشقاق: ٢٠.

(٢) النساء: ٣٩.

(٣) غير موجودة بالأصل.

جل ثناؤه، قالوا: بقضاء الله رضينا وسلمنا، ولا يسخطه منهم أحد ولا ينكره منكر، وإن سخطه منهم ساخط كان عندهم من الكافرين، وإذا ظهرت فيهم الفواحش وانتهكت فيهم المحارم كانوا لها كارهين وعلى أهلها ساخطين ولهم معاقبين، يتبرؤون منهم ويلعنونهم ويذمونهم وأعمالهم، ففي ذلك دليل أن ذلك ليس من قضاء الله ولا من قدره، وذلك لأنه فعل مذموم قبيح فاحش هو ومن فعله، وقضاء الله لا يكون جوراً ولا فاحشاً ولا قبيحاً ولا باطلاً ولا ظلماً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد وصفنا حجج الله في عدله، وما بين من ذلك لخلقه، فإن اعتلت القدرية السفهاء ببعض الآيات المتشابهات، نحو قول الله: ﴿ يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾[1]، وقوله: ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾[2]، و﴿ طبع الله عليهم بكفرهم ﴾[3]، ونحو ذلك من متشابه الآيات، وتأولوها على غير تأويلها، فإن كسر مقالتهم يسير والحجة عليهم بالغة، وذلك أن الله، عز وجل، أخبر أن الشيطان وجنوده من الجن والإنس يضلون، وإنما إضلالهم للعبد إنما هو من طريق الصد عن الطاعة بالغرور والكذب والخداع والتزيين للقبيح الذي قبحه الله والتقبيح لما زين الله وحسنه، فذلك معنى إضلال الشيطان وأوليائه. والله، جل ثناؤه، يضل، لا من طريق أولئك، لأنه يتعالى عن الكذب والصد عن سبيله والتقبيح لما حسَّن من طاعته والتزيين لما قبح من معصيته، وإنما معنى إضلاله، جل ثناؤه، للعباد الذين يضلون عن سبيله، عند كثير من أهل العلم، التسمية لهم بالضلالة والشهادة عليهم بها، كما يقال: فلان أكفر فلاناً، وكفر فلان فلاناً، وفلان عدل فلاناً، وفلان جور فلاناً، يريد أنه سماه بذلك لما هو عليه من ذلك. فكذلك يقال: أضل الله الفاسقين وطبع على قلوب الكافرين، معنى ذلك عند كثير من أهل العلم أنه شهد عليهم بسوء أعمالهم ونسبهم إلى أفعالهم، مسمياً لهم بذلك وحاكماً عليهم به كذلك لما كان منهم، فذلك تأويل الآيات المتشابهات في هذا المعنى عند من وصفنا من أهل العلم.

---

(١) المدثر: ٣١.
(٢) البقرة: ٧.
(٣) النساء: ١٥٥.

فعلى العبد أن يتقي الله وينظر لنفسه، ولا يقبل ما تأولته القدرية والمجبرة مما لا يجوز على الله، جل ثناؤه، في الثناء، وأدنى ما عليه أن يحسن الظن بربه ويأمنه على نفسه ودمه، ويعلم أنه أنظر له من جميع خلقه، وليرجع إلى المحكمات من الآيات التي وصف الله، جل ثناؤه، فيها نفسه[1] بالعدل والاحسان والرحمة لخلقه والغنى عنهم والأمر بالطاعة والنهي عن المعصية، فيعمل بتلك الآيات ويكون عليها، ويؤمن بالمتشابهات ولا يظن أنها وإن جهل تأويلها و« صرف »[2] عن تفسيرها، أنها تنقض المحكمات، وأن كتاب الله، عز وجل، ﴿ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه، اختلافاً كثيراً ﴾[3]، فنفى أن يكون في كتابه اختلاف. فليتق الله عبده ولينظر لنفسه، وليحذر هذه الطائفة من القدرية والمجبرة فإنهم كفار بالله، لا كفر أعظم من كفرهم، لما وصفنا من فريتهم على الله، جل ثناؤه، في كتابنا هذا، لأنهم شهدوا لجميع الكفار أن الله أدخلهم في الكفر، شاؤوا أو أبوا، وشهدوا للفساق وجميع العصاة أنهم إنما أتوا في ذلك كله من ربهم، ولذلك هم مجوس هذه الأمة.

الرد على المرجئة

وليحذر العبد أيضاً هذه الطائفة من المرجئة[4]، فإن قولهم من شر قول وأخبثه وقد روي عن رسول الله، صلى الله عليه وعلى أهله، أنه قال: « صنفان من أمتي لعنوا على لسان سبعين نبياً: القدرية والمرجئة. قيل: ومن القدرية والمرجئة يا

(١) هنا في الأصل كلمات زائدة هي: جل وفية.

(٢) في الاصل: حرف.

(٣) النساء: ٨٢.

(٤) فرقة إسلامية فصلت ما بين النية والاعتقاد وبين العمل، ولا يعطون العمل والتطبيق كبير وزن في تحصيل الايمان، ويقولون: إنه لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، ولقد كانت أفكار هذه الفرقة محل تشجيع الدولة الأموية، وكل الحكام الذي لا ترضى عن سلوكهم تعاليم الاسلام. وفي إطار فكر المرجئة نجد مجموعة من الفرق والمدارس أهمها: اليونسية، والعبيدية، والثوبانية، والثومنية، والكرامية. راجع (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين). لابي الحسن الأشعري. جـ ١ ص ١٤١، ١٤٣. تحقيق هـ. ريتر. ط استانبول سنة ١٩٢٩م. و(كشاف اصطلاحات الفنون) للتهانوي، و(التعريفات) للجرجاني. ط القاهرة سنة ١٩٣٨م، ص ١٨٤.

رسول الله: فقال: أما القدرية، فالذين يعملون بالمعاصي ويقولون: هي من عند الله وهو قدرها علينا. وأما المرجئة فهم الذين يقولون: الإيمان قول بلا عمل. فهذان قولان فيهما ذهاب الاسلام كله ووقوع كل معصية» وذلك أن القدرية زعمت أن الله جل ثناؤه أدخل العباد في المعاصي وحملهم عليها وقدرها عليهم وخلقها فيهم، فهم لا يمتنعون منها ولا يستطيعون تركها.

وأما المرجئة فرخصوا في المعاصي وأطمعوا أهلها في الجنة بلا رجوع ولا توبة، وشككوا الخلق في وعيد الله، وزعموا أن من «ارتكب»[1] كبيرة من معاصي الله مؤمن كامل الإيمان عند الله بعد أن يكون مقراً بالتوحيد، وأن جميع أعمال المؤمنين: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك ليس من الإيمان ولا من دين الله، مع أشياء كثيرة تقبح من قولهم، فكان في قولهم ذلك انتهاك حرمات الله وتعدي حدوده وقتل أوليائه وخفر[2] ذمته واستخفاف بحقه والفساد في الأرض والعمل بالظلم في عباده وبلاده.

فهذان قولان مما أهْلِك العباد والبلاد بهما. فنعوذ بالله منهما ونبرأ إلى الله من أهلهما ونسأله فرجاً عاجلاً، إنه سميع مجيب.

* * *

فإذا أقر العبد بما وصفنا من توحيد الله وعدله، فعليه بعد ذلك أن يؤدي إلى الله ما افترض عليه من الصلاة والزكاة والصيام والحج، إذا كان لذلك مطيقاً، والجهاد في سبيله لجميع أعدائه من الكافرين والفاسقين، إذا أمكنه ذلك واحتيج فيه إليه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، إذا لزمه ذلك بنفسه ومع غيره، إذا أمكنه ذلك، ويؤدي ما افترض الله، جل ثناؤه، عليه من شرائع دينه، وعليه أن يجتنب ما نهى الله عنه من معاصيه كلها، من الكفر كله، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، وأخذ أموال الناس، مسلمهم ومعاهدهم بغير حقها، والظلم لهم والعدوان عليهم، وأكل أموال اليتامى ظلماً، وأكل الربا، والسرقة، وقذف

(١) في الأصل: ركب.

(٢) أي نقضها.

المحصنات والمحصنين، وشرب الخمر، وإتيان الذكران من العالمين، والفرار من الزحف في المواطن التي لا ينبغي له الفرار فيها «وإسلام»[1] المسلمين وهلاكهم، وعقوق الوالدين المسلمين، وان كانا عاصيين صحبهما معروفاً، وكل معصية يعلمها الله معصية، وكل ما عليه أن يعلم أنه لله معصية فلا يعمله ولا يقربه، فإن الله، تبارك وتعالى قد نهى عن الذنوب كلها، كبيرها و« صغيرها »[2]، كبيرها فيه الوعيد والحدود، وصغيرها هو موهوب لمن اجتنب الكبير، وذلك قول الله: ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً**﴾[3].

فليتق الله عبده، ولا يقدم على معصية ربه، وهو يعلمها، ولا يعتقدها متأولاً متديناً بها، وقد جعل الله إلى معرفتها وتركها، وليكن أبدا متحرزاً متحفظاً وبأمر ربه متيقظاً، فإن الله، عز وجل، وصف المتقين من عباده المؤمنين فقال: ﴿ **ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[4] ولم يقل: فإذا هم مصرون.

المنزلة بين المنزلتين

ثم أخبر، تبارك وتعالى، عن إخوان الشياطين، فقال، جل ثناؤه: ﴿ **وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون** ﴾[5]، فالمؤمن متيقظ متحفظ داج[6] خائف، يرجو الله لما هو عليه من الاحسان، ولما يكون منه من ذلك رجاء لا قنوط فيه، ويخافه على الاساءة الموبقة إن فعلها خوفاً لا طمع فيه إلا بتوبة منها، فالخوف والرجاء لا يفارقانه بذلك وصف الله، جل ثناؤه، من عباده فقال: ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون**

---

(١) في الأصل كلمة غير واضحة الدلالة، ورسم حروفها هكذا: اصطلام.

(٢) في الأصل: صغير.

(٣) النساء: ٣١.

(٤) الأعراف: ٢٠١.

(٥) الأعراف: ٢٠٢.

(٦) من معانيه: تابع العسكر، ويفيد هنا معنى الاحتراس واليقظة.

عذابه ﴾[1]، وهكذا صفة المؤمنين.

وليس أحد يقدر أن يؤدي كل ما استحق الله، جل ثناؤه من عباده من أجل شكر نعمته وإحسانه بالكمال والتمام، حتى لا يبقى مما يحق لله، جل ثناؤه، شيئاً إلا أداه، هيهات، فكيف وهو يقول، تبارك وتعالى: **﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾**[2]. فكيف يؤدي شكر ما لا يحصى؟ ولم يفترض على خلقه ذلك، ولا سأل كل ما له عليهم مما يستحق لديهم، لعلمه بضعفهم، وأن في بعض ذلك استفراغ جهدهم وما تعجز عنه أنفسهم، وأنهم لا يقدرون على ذلك ويقصرون عن بلوغ ذلك، فتبارك الله، جل ثناؤه عن الاستقصاء عليهم، ولم يسألهم كل ما له عليهم، وغفر لهم صغير ذنوبهم كله إذا اجتنبوا كبيرة رحمة بهم ونظراً لهم[3]. فأما من رجا الرحمة وهو مقيم على الكبيرة فقد وضع الرجاء في غير موضعه، واغتر بربه، واستهزأ بنفسه، وخدعه وغره من لا دين له، إلا أن يتوب فيغفر له التوبة، فأما الاقامة على الكبائر فلا، بل وصف الله، جل ثناؤه، الراجين لرحمته، وكيف وضعوا الرجاء في موضعه، فقال: **﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾**[4]. فهكذا يكون الرجاء، وذلك أن الجنة والنار طريقان، فطريق الجنة، طاعته المجردة من الكبائر من معاصي الله، وطريق النار معصية الله، وإن لم تكن مجردة من بعض طاعات الله، لأنا قد نجد العبد يؤمن بكتاب الله كله ويكفر ببعضه، فلا يكون مؤمناً، ولا بما آمن به منه من النار ناجياً، يصدق ذلك قول الله، عز وجل: **﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾**[5]، فلم يسموا بما آمنوا مؤمنين، بل سموا بما كفروا به منه لكله كافرين، وعلى هذه الطريق فيمن لم يكفر من الفاسقين أهل الكبائر العاصين، فمن كان على المعصية الكبيرة مقيماً فهو على طريق النار، فكيف يرجو البلوغ إلى الجنة وهو يسلك ذلك الطريق، كرجل توجه إلى طريق خراسان فسلكه وهو يقول: أنا

---

(١) الاسراء: ٥٧.
(٢) النحل: ١٨.
(٣) أي رعاية لهم.
(٤) البقرة: ٢١٨.
(٥) البقرة: ٨٥.

أرجو أن أبلغ الشام، فهذا مثل من وضع الرجاء في غير موضعه.

فإن اعتل معتل بقول الله، جل ثناؤه: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[1]فأطمع من فعل فعلاً دون الشرك من الكبائر في المغفرة بهذه الآية، قيل له: إن الله، عز وجل، قد قال في موضع آخر في كتابه لنبيه، صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله[2] إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[3]، ففي هذه الآية إطماع لجميع المؤمنين والمشركين بغفران الذنوب وغيرهم، وليست تلك الآية بأوضح في القرآن من هذه الآية فيُطمع للمشركين فيها.

فإن قال قائل: لا أطمع للمشركين، لإجماع المسلمين، بطل الاعتلال بالآية، وقيل له: أن الأمة لم تجمع إلا من قِبَل خَبر الله، وكذلك نحن أثبتنا وعيد الله على الفاسقين من قبل خبر الله بقوله: ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾[4]، ونحو ذلك من الآيات.

فكل من مات على معاصي الله مصراً غير تائب إلى الله فهو من أهل وعيد الله وعقابه، ومعنى قول الله: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دونه ذلك لمن يشاء ﴾ إنه يغفر للمجتنبين الكبير الصغير وهو أيضاً دون الشرك وإن كان صغيراً، فوقع الاستثناء على ذلك الصغير إذ أخرج الكبير من أن يكون مغفوراً بقوله: ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[5]، وبغير ذلك من الوعيد، وبين أنه يعد بالمغفرة الصغير قوله: ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾[6]، وقد يغفر لمن تاب منه فيكون قوله «لمن يشاء»، أي لمن تاب من الكبائر.

وعلى العبد أن يوالي أولياء الله حيث كانوا وأين كانوا، أحياءهم وأمواتهم، وذكورهم وإناثهم، ويكون أحبهم إليه، وأكرمهم عليه وأفضلهم عنده وأتقاهم لربه وأكثرهم طاعة له، والمؤمنون هم الذين وصفهم الله، جل ثناؤه، في كتابه وبين

---

(١) النساء: ٤٨، ١١٦.
(٢) في الأصل هنا كلمة: جميعاً، وهو خطأ.
(٣) الزمر: ٥٣.
(٤) النساء: ١٤.
(٥) غافر: ١٨.
(٦) النساء: ٣١.

أحكامهم في سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، فقال: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾[1] وقال، جل ثناؤه: ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون ﴾[2]، فوصفهم بأعمالهم الصالحة، حتى قال، جل ثناؤه: ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[3] وقال، تبارك وتعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[4] فقد دخل في هذه الصفة كل طاعة، لأن الجهاد في سبيل الله يأتي علىُ كل طاعة، فمن أطاع الله في أداء فرائضه واجتناب محارمه فهو مجاهد بنفسه لربه في اتباع أمره وترك هواء نفسه، فلا جهاد أفضل من مجاهدة النفس ليردها عن هواها فيما يرديها، ومن مجاهدة الشيطان عدو الرحمن، فمن عمل ذلك فهو مؤمن، لأن الايمان طاعة لله وللمؤمنين، يقول الله، جل ثناؤه: ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾[5]، وقال، جل ثناؤه: ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً، تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم رزقاً كريماً ﴾[6]، فهذا ما وصفهم الله به في كتابه: وحكم لهم فيه، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وعلى أهله، وبالولاية لهم وثبوت عدالتهم وشهادتهم وحسن الظن بهم والنصيحة لهم والاحسان إليهم وحسن الثناء عليهم.

وعلى العبد أن يعادي أعداء الله الكافرين أين كانوا وحيث كانوا، أحياءهم وأمواتهم، وذكورهم وإناثهم، وقد وصفهم الله، جل ثناؤه، وبين أحكامهم كلهم. أهل الكتابين[7] والمجوس[8] والصابين[9]، وغيرهم من المشركين والملحدين

(1) الأنفال: ٢.
(2) المؤمنون: ١ ـ ٥.
(3) المؤمنون: ١١، ١٢.
(4) الحجرات: ١٥.
(5) الأحزاب: ٤٧.
(6) الأحزاب: ٤٤.
(7) التوراة والإنجيل، أي اليهود والنصارى.
(8) وهم عبدة النيران، والذين قالوا بإلهين: أحدهما للخير وثانيهما للشر، وهم فرق وتيارات متعددة، راجع (المغني في أبواب التوحيد والعدل) جـ ٥.
(9) وهم من عبدة الكواكب، الذين نسبوا تدبير العالم وخلقه إلى الكواكب السبعة والنجوم. راجع اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. ص ٦٠.

والمصرين والمرتدين والمنافقين، فأمر بقتل بعضهم وترك قتل بعضهم، وأخذ الجزية وترك نكاح نسائهم، وترك أكل ذبحهم.

وأما غيرهم من الأديان من العرب والعجم والمرتدين عن الاسلام إلى هذه الأديان المنصوصات من الكفر أولي الإلحاد أو أولي صفة الله بالتشبيه له بخلقه والافتراء عليه بالتظليم له في عباده بأن كلفهم ما لا يطيقون وعذب أطفالهم بما لا يكسبون، إذ خرجوا مما عليه الأمة مجتمعون من سنة نبيهم، صلى الله عليه وعلى أهله، إذ أجمعوا أن الخارج منها كافر، فهؤلاء كلهم يستتابون من كفرهم وإلا قتلوا، لا يقبل منهم غير ذلك، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم إن كن كفاراً، ويفرق بينهم وبين نسائهم إذا أسلمن من حرائرهن وإمائهن، ولا يورثون ويرث المؤمنون أموالهم. وهذا حكم المرتدين منهم، وبهذا حكم الله، جل ثناؤه، في جميع الكافرين ما خلى من كان منهم له عهد من رسلهم[1] أو دخل بأمان إلى المسلمين في دارهم أو كان بينه وبينهم صلح وعقد فهؤلاء يوفي لهم بعهدهم ولا ينقض شيء من عهدهم.

وعلى العبد أن يعادي أعداء الله الفاسقين الذين أقروا ثم فسقوا، من كانوا، وحيث كانوا، أحياءهم وأمواتهم وذكورهم وإناثهم، الذين يسعون في الأرض فساداً، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، « ويرتكبون »[2] كبائر الإثم والفواحش، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار، ويلعنهم الله ويتبرأ منهم، من كانوا، وحيث كانوا، من قريب أو بعيد، وهكذا قال الله، تبارك وتعالى: ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾[3]

---

(١) ليس المراد بالرسل هنا رسل السماء، وإنما رسل الملوك والحكام الحاملين الرسائل والقائمين بالمهام بين مراكز الحكم وبلاطات الحاكمين.

(٢) في الأصل: يركبون.

(٣) المجادلة: ٢٢.

فكل من أتى كبيرة من الكبائر، أو ترك شيئاً من الفروض المنصوصة، على الاستحلال لذلك، فهو كافر مرتد، حكمه حكم المرتدين، ومن فعل شيئاً من ذلك اتباعاً لهواه وإيثاراً لشهواته كان فاسقاً فاجراً ما أقام على خطيئته، فإن مات عليها غير تائب منها كان من أهل النار خالداً فيها وبئس المصير، بين ذلك قول الله، تبارك وتعالى: ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين، وما هم عنها بغائبين** ﴾[1]، ومن لم يتب فليس منها بخارج، ومن لزمه الفسق والفجور، من كان، فهو من أهل النار، إلا أن يتوب، لقول الله، جل ثناؤه: ﴿ **سأريكم دار الفاسقين** ﴾[2]، وقوله: ﴿ **إن الفجار لفي جحيم يصلونها** ﴾، ومن أتى كبيرة فهو فاجر فاسق، بين ذلك قول الله، جل ثناؤه: ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً أولئك هم الفاسقون** ﴾[3]، وقال، تبارك وتعالى: ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم** ﴾[4]. فإذا كان قاذف المحصنة فاسقاً ملعوناً، فالزاني بالمحصنة أعظم جرماً، والسارق، وقاتل النفس بغير الحق، وآكل أموال اليتامى ظلماً، وغير ذلك من كبائر الذنوب، وكذلك من فعل ذنباً من الكبائر فهو فاسق في إجماع الأمة، والفاسق لله، جل ثناؤه، عدو، حكم الله فيه ما أنزل من حدوده، من قتله إذا قتل ظلماً أو أفسد في أرض الله بغياً، وقطع يده إذا كان سارقاً، وجلده إذا زنا، وإن زنا وهو محصن قتل بالحجارة رجماً، وإذا قذف المؤمنين والمؤمنات جلد الحد، وغير ذلك لما تكون من النكال لما يكون منه من الفعل، ذلك له خزي في الدنيا وله في الآخرة عذاب عظيم، مع ما نهى الله، عز وجل، عنه من ولايته وإمرته، من جرح عدالته وإبطال شهادته، وسوء الظن به، والحجر عليه في ماله إذا أنفقه في معاصي ربه حتى يؤنس[5] رشده، وغير ذلك من الأحكام عليه، من سوء الثناء، وإلزامه القبيحة من الأسماء، فليس هو من المؤمنين ولا رضي أفعالهم، لمجانبته المؤمنين في أعمالهم و« طيبتهم »[6] ولا من

---

(١) الانفطار: ١٤.
(٢) الأعراف: ١٤٥.
(٣) النور: ٤.
(٤) النور: ٢٣.
(٥) أي يبصر ويحس.
(٦) رسمها في الأصل هكذا: طيتهم.

الكافرين، ولا يسمى بأسمائهم، لمخالفته الكافرين في جحدهم وفريتهم على ربهم واستحلالهم لما حرم الله عليهم، ولا هو من المنافقين لاستسرار المنافقين الكفر في قلوبهم، ولكنه فاسق، ذلك اسمه، وعليه حكمه، وقد بين الله، جل ثناؤه، أن الفسق اسم من أسماء الذنوب، لقوله: ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾[1]، ومن لم يتب من فسقه وظلمه فهو من أهل النار ليس بخارج منها، ولكنه وإن كان في النار فليس عذابه كعذاب الكفار، بل الكفار أشد عذاباً.

فلا يغتر مغتر، ولا يتكل متكل على قول من يقول من الكاذبين على الله وعلى رسوله صلوات الله عليه وعلى أهله: إن قوماً يخرجون من النار بعدما يدخلونها، يعذبون بقدر ذنوبهم، هيهات، أبى الله، جل ثناؤه، ذلك، وذلك أن الآخرة دار جزاء، والدنيا دار عمل وبلواء، فمن خرج من دار البلوى إلى دار الجزاء على طاعة الله أو معصيته فهو صائر الى ما أعد الله له، خالداً فيها أبداً.

فالله الله في أنفسكم، بادروا وجدوا وتوبوا قبل أن تحجبوا عن التوبة ومع ذلك إن الأمة مجمعة على أن أهل الوعيد من أهل النار، قال بعض الناس: إنما عني بالوعيد المستحلين، وتواعد به المذنبين لزجزهم عن أعمال الفاسقين، فقيل لهم: فيجوز على أحكم الحاكمين أن يوعد بعقوبة الكافرين من ليس منهم، من المذنبين، وهو يعلم أنه لا يوقع بهم ذلك يوم الدين، فهل يكون من الكذب والهزل من القول إلا ما وصفهم به أرحم الراحمين، إذ كان توعد قوماً بعقوبة قوم آخرين، لم يكونوا لمثل أعمالهم، التي أوجب الله لهم العقوبة عليها، عاملين. وقال بعضهم: إن قوماً يخرجون من النار بعد ما يدخلونها، فقيل لهم: إذ اجتمعتم أنتم وأهل الحق على الدخول، ثم خالفتموهم في الخروج، فالحق ما اجتمعتم عليه من الدخول، والباطل ما ادعيتم بلا إجماع ولا حجة من الخروج، والأمة مجمعة على أن من أتى كبيرة أو ترك طاعة فريضة كالصلاة والزكاة والصيام من أهل الملة فهو فاسق، وهي مختلفة في غير ذلك من أسمائه، قال بعضهم: هو مشرك

---

(١) الحجرات: ١١.

فاسق منافق، فكلهم قد أقر بأنه فاسق كافر[١] وقال بعضهم: فاسق منافق، فكلهم قد أقر بأنه فاسق[٢]، واختلفوا في غير ذلك من أسمائه، فالحق ما أجمعوا عليه من تسميتهم إياه بالفسق، والباطل ما اختلفوا فيه، ففي إجماعهم الحجة والبرهان، نسأل الله التوفيق والتسديد لما يحب ويرضى.

والأسماء في الدين والأحكام عند ذي الجلال والاكرام، ليس لأحد من المخلوقين أن يضع اسماً وحكماً على أحد من العالمين فيما هم به مأمورون وعنه منهيون، فمن استحل شيئاً من ذلك برأيه عن غير كتاب الله جل ثناؤه وسنة رسوله ﷺ فهو من الضالين، إذ كان عند الله كبيراً لأن الحكم في ذلك كله لرب العالمين، لقوله جل ثناؤه: ﴿ **إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين** ﴾[٣].

وعلى العبد أن يجتنب الفاسقين والمعونة لهم على فسقهم والمجالسة لهم[٤] على لهوهم ومعاصيهم. وعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لأن على كل مؤمن إذا رأى مما يجوز أن يغيره هو أن يغيره بكل ما يقدر عليه ويحل له، وإن كان مما لا يجوز أن يغيره بكل ما أمكنهم بالسيف إن لم يجز إلا بالسيف، وبما دون السيف إذا اكتفى به، وأدنى ذلك النهي باللسان، وإن لم يمكنه ذلك لتعبه لتخوفه الهلاك أو تقيه[٥] فإنكار ذلك بالقلب والعزم على التغيير إذا أمكن الأمر، ولا يترك صاحب المنكر حتى يتوب منه أو يقام فيه حكم رب العالمين، ويداري أهل المنكر ويوعظون بأرفق الوجوه فإن أبوا إلا المقام على المنكر فقدر على إزالتهم عنه فلا نؤخر ذلك، وإن لم يقدر على إزالتهم جونبوا بمجانبة جميلة، وقطعت الولاية عنهم، ولا يدعى لهم بخير حتى يتوبوا إلى ربهم فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

---

(١) وهذا هو رأي الخوارج في مرتكب الكبيرة، وتسميتهم له.

(٢) وهذا هو رأي الحسن البصري وتسميته لمرتكب الكبيرة.

(٣) الأنعام: ٥٧.

(٤) في الأصل «لهم» مكررة.

(٥) التقية: هي أبطان رفض الطاعة للحاكم الظالم، دون الخروج عليه عملياً، وهو موقف رفضه=

« التوبة » :

وعلى العبد أن يتقي الله في سر أمره وعلانيته، ويستغفر الله ويتوب اليه من ذنوبه، فإنه يقبل التوبة عن عباده، بذلك وصف نفسه، جل ثناؤه، فقال: ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[1]، ثم دعا عباده الى التوبة، ثم أخبرهم أنه يقبلها، فقال: ﴿ استغفروا ربكم ثم توبوا اليه إن ربي قريب مجيب﴾[2]، وقال: ﴿ وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[3]، فمن تاب الى الله قبل توبته وإن كانت ذنوبه عدد الرمل وأكثر من ذلك، لأنه كريم وهو بعباده رءوف رحيم، يقبل التوبة، ويقيل العثرة، ويقبل المعذرة، ويغفر الخطيئة إذا صحت من العبد التوبة، وقال، جل ثناؤه : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً،يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فؤلئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[4]، فمن تاب من ذنبه قبل الله توبته وأحبه، كذلك قال، جل ثناؤه : ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[5]، يعني المتطهر من الذنوب، فمن أحبه الله لم يعذبه وكان من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وكان من أهل الجنة لا يشك فيه، وكذلك[6] أخبرنا، تبارك وتعالى، عن ملائكته ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾[7]، والله، جل ثناؤه، لا يخلف الميعاد.

فالتوبة لها وجوه وتفسير، وكل ذنب بين الله وبين عباده وامائه نحو الزنا وشرب الخمر واتيان الذكران بعضهم واتيان النساء بعضهم بعضاً واستماع محارم

= الخوارج: ولو لم تكن هناك لدى الثوار إمكانيات الانتصار على الحكام الجائرين.

(١) طه: ٨٢.

(٢) هود: ٥٢.

(٣) النور: ٣١.

(٤) الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠.

(٥) البقرة: ٢٢٢.

(٦) مكررة بالاصل.

(٧) غافر: ٧، ٨.

اللغو واللهو والعكوف عليها وقول الزور وقذف أهل الاحصان من الرجال والنساء بالرفث والخنى والكبرياء والرياء والعجب وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم والنظر الى ما لا يحل من العورات وغيرها، والفرار من الزحف لا يتحرك الى قتال ولا يتحيز الى فئة، والكذب والغيبة والنميمة وما أشبه ذلك من الذنوب، ومعاداة أولياء الله، وموالات أعداء الله.

والتوبة من ذلك كله: الندم على ما مضى، والاستغفار بالقلوب واللسان، والاصرار[1] والعزم أن لا يعود الى شيء من ذلك أبداً، قليلاً كان أو كثيراً.

وأحب الينا أن ينظر الى ما كان أذى لمسلم أو معاهد فيستحله ويعتذر اليه منه ويرضيه.

وكل ذنب كان بين العبد وبين الناس، مسلمهم ومعاهدهم، من سرقة أو ربا في أموالهم وأخذ مال بغير حق في جناية أو غصب، أو إدخال ضرر عليهم في الأبدان كالقتل والجراحات والضرب الشديد، كان إذا قدر على ذلك وكان له مال « وجب أن يؤدي إليهم ما لهم عنده »[2] فإن لم يكن له مال كان جعله ديناً وعزم على أن يرده إلى أهله إذا قدر عليه، أو على ذريتهم إن كان أهله ماتوا، ويندم على أخذه وحبسه، ويستغفر الله منه، ويعطي من نفسه أن لا يعود إلى مثل ذلك أبداً، ولا تجزيه التوبة من الأخذ حتى يرد إذ كان حابساً، وإن استوهبه منهم ووهبوه بطيب أنفسهم كان ذلك له حلالاً بعد الاقرار لهم به على أجمل الوجوه، وإن صالحوه وأخذوا بعضاً وتركوا بعضاً غير اقتسار لهم كان جائزاً. وإن لم يعرف أصحاب المال الذين أخذ منهم، وأيس أن يعرفهم أو يعرف ورثتهم تصدق بمقدار ما أخذ منهم على المساكين، فإن جاءوا بعد ذلك إليه أخبرهم أنه قد تصدق بذلك عنهم، فإن رضوا لم يكن عليه شيء، وإن أرادوا حقهم رده عليهم إذا قدر عليه، وكانت صدقته له، وإن كان محتاجاً إليه فأنفقه على نفسه وجعله ديناً عليه لأهله، فإن تاب قبل

---

(١) في الأصل: لا إصرار.

(٢) بياض في الأصل، مقداره كلمات، وتكملة الجملة من عندنا.

القدرة على أدائه إليهم، من غصبه المال وإنفاقه إياه على[1] نفسه كانت توبته مقبولة عند الله، جل ثناؤه، وكان المال لازماً حتى يعينه الله على قضائه. وإن كان الذين[2] أخذ أموالهم غائبين[3] في بعض البلدان، فلم يقدر على الخروج إليهم به لعلة مرض أو آفة حائلة بينه وبين ذلك، أوصى أن يبعث به إليهم، لأن عليه أن يوصل إليهم حقوقهم حيث كانوا، ويستحلهم من أخذه وإنفاقه وغصبه، ثم لا شيء لهم عليه بعد ذلك، وتوبته مقبولة فيما بينه وبين الله، جل ثناؤه، وإن لم يكن يدري كم المال الذي أخذ من أموال الناس، مفترقهم ومجتمعهم، ونسي، وكثر ذلك عليه، فليتحر ما لكل واحد منهم على قدر مبلغ علمه ورأيه، ويحتط ويزد على نفسه، حتى يكون الغالب عليه في حكمه ورأيه أن قد استغرق جميع حقوقهم وأدى إليهم أموالهم وزاد، فان النفقة له في ذلك، فان زاد له أجره، وإن نقص قليلاً لم يضره بعد أن يتعمد الوفاء، وذلك كله توبته إلى الله، جل ثناؤه، مما كان منه في ذلك من أخذ وحبس عن أهله، وهو عنده بندم واستغفار وعزم على أن لا يعود إلى مثل ذلك أبداً.

وإن كان صار عليه مال من ناحية ظالم غاصب، وهو به عالم، بسبب معونة له في ظلمه ودخول معه في غصبه، وأخذ ذلك هبة منه، وهو يعلم أن ذلك ظلم وغصب لغيره، فالتوبة مما أخذ من ذلك أن يخرجه من عنده فيرده إلى أهله المغصوبين إياه، ولا يحل له أن يرد شيئاً من ذلك إلى الغاصب، لأنه ليس له، وإن كان أنفقه وليس عنده شيء منه، كان ضامناً لرده، إن أمكنه، على أهله، ويتوب إلى الله، جل ثناؤه، من إنفاقه.

وأما ما كان من الربا فالتوبة منه ما وصفنا من الندم والاستغفار ويخرج كل فضل فوق رأسماله فيرده على ما وصفنا من رده لكل ما لزمه رده؛

وأما ما كان من قتل، فلا توبة لقاتل المؤمن حتى يندم عن القتل ويستغفر الله

(١) في الأصل: عن.
(٢) في الأصل: الذي.
(٣) في الأصل: غائباً.

منه ويعزم على أن لا يعود إلى قتل أحد أبداً ظلماً، ويمكن أولياء المقتول المؤمن من نفسه، صابراً محتسباً، يقول لهم: إنه قتل صاحبهم ظلماً وعمداً وعدواناً، فإذا فعل ذلك فهو تائب، لا شيء عليه من إثم القتل، فإن قتلوه، تائباً، بحق هو لهم فلا تبعة لهم عليه، ولا للمقتول لديه حق، وإن عفوا عنه فلهم أن يعفوا عنه، لأن الحق بعد المقتول لأوليـاء المقتول، ويعوض الله، جل ثناؤه، المقتول إذا كان مؤمناً صابراً، ألم تسمع إلى الله، جل ذكره، كيف يقول: ﴿ **ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً** ﴾[1]، فقد سلط الله، جل ثناؤه، أولياء المقتول على القاتل، إن شاءوا قتلوه وإن شاءوا عفوا، وإن شاءوا أخذوا الدية، وإن تاب فيما بينه وبين الله، ولم يمكن أولياء المقتول من نفسه لم يسعه ذلك ولم تقبل توبته، فإن لم يعرف أولياء المقتول القاتل عزم القاتل على أن يمكن من نفسه أوليـاء المقتول متى عرفهم، فيصنعون به ما لهم عليه من القتل أو الدية أو العفو، ولا يدفع نفسه إلى سلطان ولا إلى غيره، ولا يدفع نفسه إلا إلى أولياء المقتول، وإن لم يتب إلى ربه، جل ثناؤه ويمكن أولياء المقتول من نفسه كان كما قال الله، جل ثناؤه: ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً** ﴾[2].

وأما ما كان من جراحات، سوى القتل، مما يجب فيه القصاص، فإنه يتوب إلى الله، جل ثناؤه، منها بالندم عليها والعزم على أن لا يعود ويمكن من نفسه بعد التوبة إلى الله، عز وجل، من فعله به، فإن اقتص منه فلا شيء عليه، وإن عفا عنه فذلك إليه.

وإن كانت جراحات قد برأ منها أصحابها، ولم يكن أمكنهم القصاص من نفسه، فلم يعلم مقدارها لبرء، فلا قصاص عليه فيها، لأنه لا يعلـم قدر ذلك، وعليه أرش[3] الجراحات يقيمه عدل يتوخى في ذلك الصواب، فيدفع ذلك إلـى أصحاب الجراحات، فإن لم يعرف أصحابها دفع ذلك إلى ورثتهم الذين يقومون

---

(١) الاسراء: ٣٢.

(٢) النساء: ٩٣.

(٣) الارش: الدية، والرشوة، والمراد هنا الدية.

بذلك، وإن كان لا يعرف أصحاب الحقوق دفع ذلك القدر إلى المساكين، إذا قدر على ذلك.

وما كان من الجراحات مما لا قصاص فيه، مما يكون فيه حكومة عدل، دفع إلى من صنع به ذلك إن كانوا أحياء، وإن كانوا أمواتاً دفع ذلك إلى ورثتهم، فإن لم يعرفهم ولا ورثتهم دفع ذلك إلى المساكين إذا قدر على ذلك.

* * *

ويفعل في كفارة كما أمره الله، جل ثناؤه، في كتابه، وكـذلك في كفارة الظهار، فمن لم يقدر على شيء من ذلك فالتوبة منه على ما أمره الله جل ثناؤه.

وأما ما كان في ضرر مما لا يكون القصاص فيـه، فالتوبة فيـه والاستغفار والندم وأن لا يعود إلى مثله أبداً، ويرضى أصحابها إن عرفهم ويتحللهم. فأما ما كان من ظلم الناس، نحو اغتياب وتجسس أو سوء ظن بمؤمن أو سعاية إلى ظالم أو كذب عليه فالتوبة إلى الله، جل ثناؤه، من ذلك، ويتحلل ذلك من أصحابه الذين فعل بهم، فإنه أحسن وأفضل، ويكـون ذلك من أجمل الـوجوه، فإن لم يمكنه التحلل ولم يفعله بعد أن يتوب إلى الله، جل ثناؤه، رجونا أن لا يضره ذلك.

وكذلك إن أساء إلى مماليكه في تقصير في مطعم أو ملبس مما لا يحل له أن يفعله بهم، أو عاقبهم عقوبة أسرف فيها، أو شتمهم بما لا يحل له، فليتب إلى الله، جل ثناؤه، من ذلك كله وليتحلل من مماليكه.

وإن استدان رجل مالاً ينفقه على نفسه وعلى عياله بالقصد، كما أمره الله، جل ثناؤه، وكان عزمه أن يرده إذا أيسر وأمكنه، فمات قبل أن يؤديه، وليس له مال، ولم يترك وفاء، فلا شيء عليه فيما بينه وبين الله، جل ثناؤه، وبين صاحب الدين، لأن الله العدل الذي لا يكلف نفساً إلا وسعها وإلا ما آتاها.

فإن أخذ ديناً ونسي أن[1] عليه لأحد شيء، فلا شيء عليه عندنا، إذا لم يكن

(١) في الأصل هنا كلمة: «ليس» ولا محل لها.

نسيانه ذلك من تشاغله بمعصية ربه.

فإن أخذ ديناً فلم يرده لأصحابه حتى ماتوا فليؤده إلى ورثتهم، فإن لم يعرف لهم ورثة وانقطعت آثارهم وانقطع ذكرهم فليتصدق به على المساكين وقد سلم من الإثم، إذا تاب من حبسه وقد كان يقدر على أدائه.

وإن استقرض مالاً فأنفقه فيما يحل له أو يحرم عليه، وكان من عزمه أن لا يؤديه إلى أهله، فهو فاسق، وتوبته من ذلك الاستغفار والندم ورده على أهله إن كان يقدر عليه، وإن كان معسراً عزم على أدائه لهم إذا قدر عليه، وأشهد لهم بذلك على نفسه إن أرادوا ذلك منه، فإن ماتوا ولم يكن لهم ورثة تصدق عنهم، وإن كان محتاجاً أنفقه على نفسه وعياله كما يتصدق به على غيره، وهذا إذا كان ضامناً له، وإن كان أخذ أموال الناس من طريق الدين وكان من شأنه أن لا يقضي ولا يؤدي، وجحد ذلك، فأقام أصحاب الدين، بعد موته، على ورثته البينة، أو عرف ذلك الورثة فعليهم أن يؤدوه إلى أهله، والميت من أهل النار، لا ينجيه من ذلك أداء ورثته عنه، لأنه اعتزم على أن لا يؤديه، ومات غير تائب، مصراً على أخذ أموال الناس ظلماً وعدواناً، فهو من الفاسقين، وإن لم يكن لهم بينة، وعرف الورثة أن المال الذي خلف الميت إنما هو أموال الناس، وعرفوا ما عليه من الدين، لم يحل لهم ما أخذوا لأنهم أخذوا ما ليس لهم من حقوق الناس. والسنة الماضية: أنه لا شيء لوارث حتى يقضي الدين، وإن لم يقضوه ولم يمكنهم، وهم يعرفونه كانوا من أهل النار، إذا ماتوا على ذلك مصرين ظالمين.

فإن كان رجل حلف بأيمان الله وهو كاذب متعمد للكذب من غير إكراه أو تخوف فقد فسق إذا بلغت يمينه كبيرة، وتوبته من ذلك أن يستغفر الله من ذلك ويندم على ما كان منه ولا يعود إلى مثل ذلك أبداً، وليس عليه كفارة، وإن كان حلف بما فيه كفارة ثم حنث فعليه كفارة لكل يمين.

والأيمان أربع: فيمينان تكفران، وهو قول القائل: والله لأفعلن كذا وكذا، فلا يفعل، وقوله: والله لا أفعل كذا وكذا، فيفعل. واليمينان اللتان لا يكفران فهو قول القائل: والله ما فعلت كذا وكذا، وقد فعل، وقوله: لقد فعلت كذا وكذا، وما

فعل. وكفارة اليمين، إذا حنث، إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يأكل هو وأهله أو كسوتهم ثوباً ثوباً أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فمن لم يقدر على إطعامهم وغير ذلك من الكفارة فليصم عن كل يمين ثلاثة أيام ويستغفر الله من تضييعه ولا يعد، فإن أدركه الموت ولم يكفر يمينه من إطعام أو كسوة ولم يقدر علي ذلك فليوص أن يطعم عنه المساكين من ماله لكفارة أيمانه إن كان له مال، فإن لم يكن له مال فلا شيء عليه، لأن الله، جل ثناؤه، قد عذر من لم يجد. وإن كان يعرف الأيمان التي عليه، كم هي، فليكفر عددها، وإن كان عددها لا يقف عليه فليتوخ قدراً من ذلك يكون الغالب عنده أنه قد استغرقها وزاد، ثم نرجو أن لا يضره زاد أو نقص إذا لم يتعمد ذلك، وكذلك يوصي بمثل ذلك إذا لم يمكنه قضاء ذلك.

وإن كان ضيع صلاة أو صياماً أو حجاً أو زكاة بعد ما وجب عليه ذلك بالتواني والاستخفاف متعمداً[1] لذلك، فعليه أن يتوب إلى الله، جل ثناؤه، من ذلك ويقضي ما فاته من الصلاة، إن كان يعرف عددها، ومن الصيام أيضاً كذلك، وإن كان لا يعرف كم هو فليتحر الصلوات جهده ويزد حتى يستغرق ذلك، ويقضي ما فاته من الصيام إن كان يعرف ذلك هو، ويزيد حتى يستغرق ذلك[2] ثم نرجو أن لا يضره نقص أو زاد إذا لم يتعمد ذلك. ويقضي تلك الصلوات في أي أوقات النهار أو الليل شاء، فإذا حلت أوقات الصلوات يومه الذي هو فيه صلاها في أوقاتها، ثم عاد فقضى ما عليه حتى يفرغ منها، لا يتشاغل بغيرها، وإن كان يترك صلاة متعمداً فلم يقضها نسياناً جاز ذلك منه ثم ذكرها فليقضها وحدها أيضاً، وإن كان لها ذاكراً فتركها متعمداً[3] حتى مضت لها أشهر أو سنون فليقضها وليتب مما صنع، وقد قال بعض العلماء: يجزيه قضاؤها وحدها، ويتوب من تأخيرها، وقال بعضهم: أسلم له قضاء ما بعدها من الصلوات، وذلك أنه لا صلاة لمن ضيع صلاة حتى يقضي ما ضيع.

وإن كان ترك صياماً من شهر رمضان كله حتى حضر رمضان آخر فعليه أن

---

(١) في الأصل: معتمداً.

(٢) أي ذلك الذي فاته من الصوم.

(٣) في الأصل: معتمداً.

يصوم هذا الذي حضر ويعزم على صيـام ما فاته، فيصوم بعد ذلك، ويتوب مما ضيع.

وإن كان ضيع زكاة حتى أدركه الموت فليتب مما ضيع ويخرج ما عليه منها فيؤديه إلى المساكين إن كان له مال، أو يوصي بذلك إن لم يمكنه الأداء، لأنها دين عليه لأهلها الذين سماهم الله، جل ثناؤه، في أي صنف منهم وضعت أجزت عنه، وإن لم يكن له مال ولا وفاء فلا شيء عليه بعد أن يتوب.

وإن كان ترك الحج وهو يقدر عليه حتى أدركه الموت فليتب إلى الله، جل ثناؤه، من تفريطه، وليعزم على الحج، وليحج أن قدر عليه، وإن لم « يقدر »[1] أوصى أن يحج عنه. فقد قال بعض العلماء ذلك، وقال بعضهم: لا يحج عن أحد، كما لا يصلي عن أحد ولا يصام عن أحد، لأن تلك حقوق الله، جل ثناؤه، أمر عباده أن يتولوها بأنفسهم، فإن لم يقدروا عليها عذرهم ولم يكلفهم غير هذا، فأما ما كان من حقوق الناس فيما بينهم في أبدانهم وأموالهم فعليهم أن يخرج بعضهم إلى بعض منها ويعطي عنه إذا قدروا عليها، وإن أوصى بحج عنه فحسن عندنا، وهو أحوط.

وعلى المرتدين من الاسلام إذا تابوا مع ما ذكرنا من الظلم للناس في أبدانهم وأموالهم من الديون قبل ارتدادهم، وفي ارتدادهم ثم أسلموا، أن يتوبوا إلى الله، جل ثناؤه، من ذلك كلـه، ويـؤدوا الحقوق إلـى أهلها كما يفعل المقرون، لأن حكمهم في ذلك أحكام أهل الحرب، لأنه لا قصاص بينهم وبين أهل الاسلام.

فعلى العبد، مما وصفنا من هذه الذنوب، التوبة النصوح، وقد جعل الله؛ جل ثناؤه، لهم إليها السبيل، والتوبة النصوح هي الندم على ما كان من الذنوب وتركها والاستغفار منها وترك الإصرار عليها والعزم على أن لا يعود أبداً إليها، فتلك التوبة المقبولة، يقبلها التواب الرحيم، فرحم الله عبداً اتقى الله في نفسه، وتطهر بالتوبة قبل الموت والفوت، ولم تغره الحياة الدنيا ولم يغره بالله الغرور، وليبادر بالتوبة قبل أن يسألها فلا يجاب إليها، قال الله، جل ثناؤه: ﴿ **إنما التوبة على الله**

---

(١) غير موجودة بالأصل.

للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾[1].

والتوبة قائمة مبذولة مقبولة من حيث يواقع العبد الذنب إلى قبل حضور أجله بطرفة عين أو أقل عندنا، وحضور الموت هو معاينة ملك الموت والملائكة، صلوات الله عليهم، أو بسبب من إعلام[2] الذي شاهده العبد في تلك الحالات، لا يعلمه أحد من البشر غيره، أو ذهاب عقله، فحينئذ لا تقبل توبته، ولا عند نزول العذاب إذا نزل بأهل المعاصي ولا عند الحواجب من آيات الله المانعة من الرجوع إلى أحكام الدنيا، «والله، جل ثناؤه»[3]، بهذا كله وأوقاته أعلم وأحكم تبارك وتعالى.

وعلى العبد أن يكون أبداً مستعداً تائباً، نسأل الله أن يبارك لنا في الموت إذا نزل بنا، وفي العرض على ربنا، جل ثناؤه، **﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾**[4].

تم الكتاب، والحمد لله رب الأرباب، وصلواته على المصطفى من خير نصاب، محمد وأهله الطاهرين الأطياب، وحسبي الله وحده ونعم الوكيل.

---

(١) النساء: ١٧، ١٨.
(٢) بياض بالأصل، مقداره كلمات.
(٣) مكررة بالاصل.
(٤) آل عمران: ٣٠.

الأصول الخمسة

روي عن علي بن عامر، قال: قال القاسم بن إبراهيم، صلوات الله عليه:
من لم يعلم من دين الاسلام «خمسة الأصول»[1] فهو ضال جهول:

أولهن: أن الله، سبحانه، واحد ليس كمثله شيء، وهو خالق كل شيء، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

والثاني، من الأصول: أن الله، سبحانه، عدل غير جائر، لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يعذبها إلا بذنبها، لم يمنع أحداً من طاعته، بل أمره بها، ولم يدخل أحداً في معصيته، بل نهاه عنها.

والثالث، من الأصول: أن الله سبحانه، صادق الوعد والوعيد، يجزي بمثقال ذرة خيراً ويجزي بمثقال ذرة شراً، من صيره إلى العذاب فهو فيه أبداً خالداً مخلداً كخلود من صيره إلى الثواب الذي لا ينفد.

والرابع، من الأصول: أن القرآن المجيد فصل محكم وصراط مستقيم لا خلاف فيه ولا اختلاف، وأن سنة رسول الله، صلى الله عليه، ما كان لها ذكر في القرآن ومعنى.

والخامس، من الأصول: أن التقلب بالأموال والتجارات والمكاسب في وقت ما تعطل فيه الأحكام وينتهب ما جعل الله للأرامل والأيتام والمكافيف والزمنا

---

(١) هكذا بالاصل.

وسائر الضعفاء ليس من الحلّ والاطلاق كمثلــه في وقت ولاة العدل والاحسان والقائمين بحدود الرّحمن[1].

فجميع هذه الأصول الخمسة لا يسع أحداً من المكلفين أبداً جهلها، بل تجب عليهم معرفتها.

تمت الأصول

* * *

---

(١) أي أن ذلك يشمل جميع وجوه الكسب، واختلاف الكاسبين، ولو كانوا بعيدين عن أعوان الطغاة المعطلين للأحكام، وذلك لان تشابك أمور المعاش والاقتصاد تجعل أي كسب في مثل هذه الظروف لا يمكن أن ينجو من التلوث بمثل هذه الظلامات، وفي هذا الحكم حث على العمل لتغيير الجائر من الاوضاع تطهيراً للكسب والمأكل وإراحة للضمير.

كتاب
الرد على المجبرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(رد مزاعم المجبرة)

قال الإمام القاسم بن إبراهيم، صلوات الله عليه:

الحمد لله المحسن إلى جميع خلقه بما عمهم من فضله وإحسانه، الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً. الذي خلق خلقه لعبادته وقواهم على طاعته وجعل لهم السبيل إلى ما أمرهم به، كما قال سبحانه: **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾**[1]، وقال: **﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾**[2]، وقال: **﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله ﴾**[3]، وقال لموسى وهارون، صلى الله عليهما: **﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾**[4].

فزعمت القدرية[5] الكاذبة على ربها، المجورة، أن الله، عز وجل عن قولهم،

---

(١) الذاريات: ٥٦.
(٢) البينة: ٥.
(٣) النساء: ٦٤.
(٤) طه: ٤٢.
(٥) القدرية اسم تقاذفته كثير من فرق الاسلام، وهو مرتبط «بالقدر» ولقد سمت المجبرة المعتزلة بالقدرية، لأنهم نفوا القدر عن الله وأثبتوه للإنسان، وسمى أهل العدل والتوحيد المجبرة بالقدرية، لأنهم نفوا القدر عن الإنسان واختصوا به الله. والقاضي عبد الجبار يرى أن الذين هم أحق بهذا الاسم هم الأكثر ذكراً له وترديداً للفظه «كما قيل للخوارج محكمة، لما كثر بقولهم: لا حكم إلا لله، وثبت أن المجبرة هي التي تكثر من ذكر القدر، وتضيف إليه (أي الله) ما يحدث من زنا وقطع طريق وغيره، فيجب أن يكون الاسم لازماً لهم. . .» وسبب نفي كل فرقة هذه التسمية عن نفسها أنهم جميعاً قد قبلوا الأحاديث الذامة للقدرية، ومنها «القدرية مجوس هذه الأمة»، و«صنفان من أمتي لعنوا على لسان سبعين نبياً: القدرية والمرجئة. . .». المغني في أبواب التوحيد والعدل. جـ ٨. ص ٢٢٦ - ٢٣٠ - وشرح الأصول الخمسة. ص ٧٧٥. و(الابانة عن مذهب أهل التوحيد والعدل) للصاحب بن عياد. ص ٢٥، ٢٦.

خلق أكثر خلقه ليعبدوا غيره، ويتخذوا الشركـاء والأنداد، مع قوله: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾[1]، ومع قوله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾[2]، وقوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[3]، وقوله: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما ربك بظلام للعبيد﴾[4].

فزعموا أنه لم يرد منهم أن يطيعوا رسله، وأن الله أمر بما لا يريد ونهى عما يريـد، وخلقهم كفاراً، وقال الله: ﴿كيف تكفرون﴾[5] ومنعهم من الايمان، وقال: ﴿وما عليهم لو آمنوا بالله﴾[6] وقال: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾[7] ومنعهم من الهدى، وأفكهم، وقال: ﴿أنى يؤفكون﴾[8]، وصرفهم عن دينه، وقال: ﴿انى يصرفون﴾[9].

فافهموا، وفقكـم الله، ما يتلـى عليكـم من كتاب الله، فإن الله يقول: ﴿وشفاء لما في الصدور﴾[10] ويقول: ﴿كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بيـن يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾[11] ويقول: ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾[12] ويقول: ﴿اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾[13].

وقد بين الله للخلق واحتج عليهم بما بين لهم في كتابه، وأمرهم بالتمسك بما في الـكتاب، والاقتداء بما عن بينه جاءهم، فإنما هلك من كان قبلهم بإعراضهم عن كتاب ربهم، والترك لمن مضى من أنبيـائهم من أهل الـكتاب وغيرهم.

فاتقوا، وانظروا لأنفسكم قبل نزول الموت، واعلموا أنه كان حجة[14] لمن

---

(1) البقرة: ٢٣.
(2) لقمان: ٣٣.
(3) النور: ٥٤.
(4) الاسراء: ١٥.
(5) البقرة: ٢٨.
(6) النساء: ٣٩.
(7) الاسراء: ٩٤.
(8) المائدة: ٧٥، والتوبة: ٣٠ والمنافقون: ٤.
(9) غافر: ٦٩.
(10) يونس: ٥٧. والآية مذكورة في المخطوط خطأ هكذا: (فيه شفاء).
(11) فصلت: ٤٢.
(12) الجاثية: ٦.
(13) الزمر: ٥٥.
(14) في الأصل: كاحجة.

لم يحتج بقول الله، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾[1].

فاسمعوا قول المفترين على الله:

فمن قولهم: إنه لم يعمل أحد خيراً ولا شراً.. فرد الله عليهم مكذباً لهم، فقال: ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾[2]، وقال: ﴿كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾[3]، وقال: ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾[4]، وقال: ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾[5]، وقال: ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾[6]، وقال: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[7]، مع الآيات الكثيرة المحكمة الواضحة من كتاب الله تصديقاً لما قلنا وتكذيباً لما قالوا.

وإنما أنزل الله الكتاب ليُتمسَّك به، قال لنبيه، صلى الله عليه: ﴿ اتبع ما يوحى إليك من ربك﴾[8]، وقال: ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[9]، وقال: ﴿ اتبع ما أوحي اليك من ربك ﴾[10]، ثم قال لجميع الأمة: ﴿ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تبتغوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾[11].

فاتقوا الله ولا تقولوا على الله إلا الحق، فقد بين لكم آثار من مضى من أسلافكم، وقص عليكم قصة من كان قبلكم من المؤمنين والصالحين ومن أوليائه المرسلين، وما أمركم من الاقتداء بهم في مواقفهم، وقد خبركم ما قد أصبح بمن «خالفهم»[12] وسلك عكس[13] طريقهم من قوم لوط وأصحاب فرعون، فأخذهم الله

---

(1) العنكبوت: ٥١.
(2) محمد: ١.
(3) البقرة: ١٠٩.
(4) النجم: ٥٢.
(5) الذاريات: ٥٣.
(6) غافر: ١٧.
(7) الزلزلة: ٧.
(8) الأحزاب: ٢.
(9) طه: ١٢٤.
(10) الأنعام ١٠٦، والآية مذكورة في المخطوط خطأ، هكذا: ﴿اتبع ما أنزل إليك﴾.
(11) الأعراف: ٣.
(12) في الأصل هنا كلمة رسمها هكذا: فحوا.
(13) الأصل: خالفكم.

بذنوبهم، فقال: ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه ﴾[1]، وقال، سبحانه، لنبيه: ﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾[2]، وقال: ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب ﴾[3].

ثم قال: ﴿ ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم وأملى لهم ﴾[4]، فهذا ما أخبر الله، عز وجل ذكره، عن جميع عباده، كيف ضل من ضل منهم واهتدى من اهتدى منهم. ومن بعدما قد حكى الله من أنبيائه، صلوات الله عليهم وعلى آدم وحواء، قال الله: ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾[5]، ثم قال: ﴿ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾[6]، فاعترفا بذنبهما فقالا مقرين تائبين عن معصيتهما: ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[7] ولم يقولا: معصيتنا من الرحمن وإرادته.

والقدرية والمجبرة يقولون: معصيتنا بقضاء الله وإرادته خلافاً على أبي البشر، عليه السلام.

وقال الله، عز وجل، يخبر عن موسى، صلى الله عليه: ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه، قال هذا من عمل الشيطان ﴾[8]، ولم يقل: هذا من الله ومشيئته. وقال يعقوب، عليه السلام: ﴿ بل سولت لكم أنفسكم ﴾[9]، والقدرية تقول: أن الله سول لهم ذلك. وقال يوسف، صلى الله عليه: ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾[10]، وقال، يخبر عن يونس، عليه السلام: ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾[11] والقدرية تزعم أن الظلم قضاء رب العالمين.

وقال النبي ﷺ: ﴿ إن ضللت فإنما أضل على نفسي، وإن أهتديت فبما يوحى إليَّ ربي ﴾[12] فجعل ضلالته من قبل نفسه وهداه من قبل

---

(1) العنكبوت: ٤٠.
(2) الأنعام: ٩٠.
(3) الزمر: ١٨، ١٩.
(4) محمد: ٢٥.
(5) طه: ١٢١.
(6) الأعراف: ٢٢.
(7) الأعراف: ٢٣.
(8) القصص: ١٥.
(9) يوسف: ١٨.
(10) يوسف: ١٠٠.
(11) الأنبياء: ٨٧.
(12) سبأ: ٥.

ربه، موافقة لله إذ يقول سبحانه: ﴿ **إن علينا للهدى** ﴾[1]، وقال: ﴿ **الذي قدر فهدى** ﴾[2]، وقال: ﴿ **يبين الله لكم أن تضلوا** ﴾[3]، أي لأن لا تضلوا. وقال: ﴿ **فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾[4]، فكل ما كان من هدى فقد أضافه إلى نفسه، وكل ما كان من ضلال فقد أضافه إلى خلقه، والله أولى بما أضاف إلى نفسه، والعباد أولى بما أضاف إليهم، وكانوا هم المعتدين الظالمين الجائرين المخالفين لقضائه وقدره، تبارك وتعالى.

فأقرت الأنبياء، صلوات الله عليهم بالاساءة والتقصير فيما أغفلت وقصرت، وأضافت ذلك إلى نفسها وإلى الشيطان، معرفة منهم بالله، أنهم لم يؤتوا في ذلك من ربهم، وخالفت المجبرة والقدرية كتاب الله ووافقت الشيطان، قلة معرفة منهم بعدل الله في خلقه ورحمته لهم وانتفائه من ظلمهم في قوله: ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾[5].

فقد ذكرنا جملة مما احتج الله على القدرية الكاذبة على الله، في كتابه، وعلى النبيين. وكيف يتوهم عاقل أو ينطوي قلب مؤمن أنه مصيب مع خلافه لقول أنبيائه؟! إن من ظن ذلك لقد جهل جهلاً مبيناً وضل ضلالاً بعيداً.

فزعموا، من بعدما حضرنا ما ذكرنا وما لم نذكر من حجج الله عليهم وما قد رد الله من مقالتهم وأكذبهم، ما لا يحصى، فزعموا أن الله خلق الخلق صنفين وجعلهم جزءين: فجعل صنفاً يعبدونه وصنفاً يعبدون الشيطان، وجعل من يعبد الشيطان أكثر ممن يعبد الله، فأكذبهم بقوله: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[6].

ثم زعموا أن الله تبارك وتعالى، رضي بذلك وأراده وأحبه وأنه لا يرضى أن يعبده من أرضاه أن يكفر به، تكذيباً بقول الله ورداً عليه إذ يقول: ﴿ **لا يرضى لعباده الكفر وأن تشكروا يرضه لكم** ﴾[7]. ويقول ﴿ **وإذا تولى سعى في الأرض**

---

(١) الليل: ١٣.
(٢) الأعلى: ٣.
(٣) النساء: ٧٦.
(٤) فصلت: ١٧.
(٥) النساء: ٤٠.
(٦) الذاريات: ٥٦.
(٧) الزمر: ٧.

ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾[1]، فتعالى الآمر بالعدل والاحسان أن يكون راضياً بالمنكر والعدوان، لأنه لا يريد الظلم لأنه عدل، «و»[2] لا يريد الفساد لأنه مصلح، ولا يحب المنكر لأنه حكيم حاكم بالحق. وقال سبحانه، رداً على من زعم أن الله أراد الكفر والظلم، فقال سبحانه: ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾[3]، وقال: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[4]، وقال: ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ إلى قوله: ﴿ أن يميلوا ميلاً عظيماً ﴾[5]، فأخبر أنه يريد أن يبين لنا ويهدينا وأن الشيطان يريد خلاف ذلك بنا، إذ كان سبحانه ناظراً لنا رحيماً بنا وكان الشيطان عدواً لنا مبغضاً، فلا يكون الناظر لنا يريد بنا عدواناً. وقال ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾[6]، وقال ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾[7]، وقال ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[8]، في آي كثيرة، ولولا طول الكتاب ذكرتها، وفيما ذكرنا كفاية. والحمد لله.

* * *

زعمت القدرية أن العباد ما شاؤوا شيئاً قط ولا يريدون شيئاً، والله هو المريد للظلم والاغراء[9] عليه، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[10] و﴿ من شاء اتخذ الى ربه سبيلاً ﴾[11] وقال: ﴿ كلا إنها تذكره فمن شاء ذكره في صحف مكرمة ﴾[12] وقال موسى، عليه السلام: ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾[13] وقال أهل الجنة: ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض

---

(1) البقرة: ٢٠٥.
(2) غير موجودة في الأصل.
(3) غافر: ٣١.
(4) البقرة: ١٨٥.
(5) النساء: ٢٦، ٢٧. والآية مذكورة في المخطوط خطأً، هكذا (يريد الله أن يبين).
(6) الصف: ٨.
(7) الأنفال: ٦٧.
(8) النساء: ٢٨.
(9) رسم هذه الكلمة في الأصل هكذا: الفرا.
(10) الكهف: ٢٩.
(11) الانسان: ٢٩.
(12) عبس: ١٣.
(13) الكهف: ٢٩.

نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾[1]، فذكر الله المشيئة في غير موضع من الكتاب، وذكر أن العباد يريدون ويفعلون ويشاؤون تكذيباً لمن قال بخلاف ذلك.

فقد ذكرنا جملة من كتاب الله تبارك وتعالى، مما فيه رد عليهم، وحجة بلاغ لقوم عابدين.

أسئلة إلى المجبرة

ونحن سائلون بعد ذلك، وبالله نستعين، مع أن في المسألة آيات كثيرة مما قد دل الله العباد وبين لهم أنهم يشاؤون ويريدون ويرضون ويحبون.

فأما المشيئة فقال[2]: ﴿ **اعملوا ما شئتم إنه بما تعلمون بصير** ﴾[3]، وقال: ﴿ **ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً** ﴾[4].

فأما الارادة فقال: ﴿ **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** ﴾[5] وأما الرضى فقال: ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[6].. وأما المحبة فقال: ﴿ **يحبون من هاجر إليهم** ﴾[7]، وفي ذلك آيات كثيرة مما لم نذكره.

ثم يقال لمن زعم أن الله خلق أكثر خلقه ليعبدوا غيره: ما حجتك، وما برهانك «على»[8]، ما ادعيت من ذلك؟ أبكتاب الله ما قلت! أم بسنة؟ أم بقياس؟!.

فإن ادعى حجة من الكتاب، سئل، فإن قال: قلت: يقول الله: ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس** ﴾[9]، يقال له: إنا لم نسألك عما أجبت، وإنما سألناك عن قولك: خلق الله أكثر خلقه ليعبدوا غيره، فمن زعم أن الله خلق أكثر خلقه للكفر والمعصية فلا يجد إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) الزمر: ٧٤.
(٢) في الأصل: المشبهة فقالوا.
(٣) فصلت: ٤٠.
(٤) الفرقان: ٥٧، والآية في المخطوط مذكورة خطأ هكذا: (ما أسألكم عليه أجراً).
(٥) آل عمران: ١٥٢.
(٦) المائدة: ١١٩.
(٧) الحشر: ٩.
(٨) في الأصل: عن.
(٩) الأعراف: ١٧٩.

مع أن لقوله: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ تأويل عدل الله، وإنما ذرأ لجهنم من عصاه وابتغى غير سبيله، فجعلهم ذرو جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ويعملون.

ثم يسأل عن قوله سبحانه: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1]، فإن زعم أن ذلك خاص في المؤمنين، سئل عن الحجة في ذلك والدليل على ما قال، ثم يعارض فيقال له: إذا زعمت أن ذلك خاص، ثم زعمتم أن قوله: ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ الآية[2]، فإن كان خاصاً إلى المؤمنين والمؤمنون قد آمنوا، فما معنى قوله: آمنوا، وقد آمنوا؟! فلا يجدون وجه الآية أبداً إلا قول الحق خاصاً في المؤمنين دون الكافرين، ولا يجدون فرقاً في ذلك.

ثم يسألون فيقال: أخبرونا عن إبليس، خلقه الله ليعبده؟ أو ليعبد من دونه؟ . . فإن قالوا: خلقه ليعبده، تركوا قولهم. وإن قالوا: ليعبد من دون الله، زعموا أنه أول من أشرك بنفسه، إذ جعل إبليس ليعبد من دونه ويشركه في عبادته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثم يقال لهم: «إن»[3] زعمتم أن الله خلق خلقه كفاراً وأمرهم بالإيمان، أفليس قد أمرهم أن ينتقلوا من خلقهم وأن يصيروا إلى خلاف ما خلقهم عليه؟ فإن قالوا: نعم، قيل لهم: فلم لا يجوز أن يخلقهم سوداً ويأمرهم أن يصيروا بيضاً كما خلقهم كفاراً وأمرهم بالإيمان؟ فلا بد من إجازة ذلك، أو يتركوا قولهم.

ثم يسألوان، أيضاً، فيقال لهم: إذا خلق الكفار كفاراً، أيجوز أن يكون الكفر فعل الكفار؟ فإن قالوا: نعم، قيل لهم: وكذلك يجوز أن يخلق الأبيض أبيض ويكون البياض فعله، ويخلق الأسود أسود ويكون السواد فعله.

وإن سألوك فقالوا: إذا زعمت أن الله تبارك وتعالى، خلق العباد للإيمان،

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) الأعراف: ١٥٨، وتمام الاية: ﴿ . . الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يومن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ .

(٣) في الأصل: إذ.

فلـم يؤمنوا، لم لا يجوز أن يخلقهم للموت فلا يموتوا؟ فقل لهم: إنما أعني بقولي: إن الله خلقهم ليفعلوا الايمان، ولـم يخلقهم للموت ليفعلـوا الموت.. فهذا فرق ما سألتم عنه.

فإن قالوا: خلقهم للإيمان فلا يؤمنون؟ قلنا: نعم، كما أمرهم بالإيمان فلم يؤمنوا. فإن قالوا: فما أنكرتم من أن يخلقهم للإيمان كما خلقهم للموت؟ قيل لهم، من قبل: إن معنى قولي: خلقهم للموت، أريـد أن الله خلقهم ليميتهم ويضطرهم إلى ذلك، فلـو كان خلقهم للايمان كما خلقهم للموت كانوا كلهم مؤمنين كما كانوا كلهم يموتون، ولو كان ذلك كذلك لم يجز أن يأمرهم بالايمان ولا ينهاهم عن المنكر والكفر، كما لا يجوز أن يأمرهم بالحياة ولا ينهاهم عن الموت ولا يجبرهم على شيء من ذلك ولا يثيبهم به. فمن هاهنا أنكرنا ما ذكرتم.

ثم يقال لهم: إذا زعمتم أن الله خلق الناس كفاراً، فمن جاء بالكفر؟ من خلقه؟ أو من لم يخلقه؟ فإن قالوا: من خلقه، يقال لهم: فما معنى قوله: **﴿لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السموات يتفطر ن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾**[1]، وقوله: **﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾**[2]، فهل يكون هذا على معناكم وأصلكم ومذهبكم إلا كذباً لأنكم زعمتم أن الله، تبارك وتعالى، جاء به، وقال للكفار: أنتم الذين جئتم به، فلو أردتم تصفون ربكم بالكذب كيف كنتم تقولون؟ وهل يجوز هذا عندكم؟ وفي عقولكم أن يكون للصادق أن يفعل شيئاً، ثم يقول لغيره: أنت فعلته، ولو جاز أن يكون فاعل هذا صادقاً جاز أن يكون من فعل شيئاً جاء به، وقال أنا جئت به أن يكون كاذباً، مع أن الله تبارك وتعالى، قد عاب فاعل ذلك وذمه، فقال: **﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾**[3].

وإن زعم أن الكفر جاء به من لم يخلقه ومن خلقه لم يجيء به، خرج من المعقول، ولزمه أن يقول، إن من لم يخلق الموت هو الذي جاء به، ومن خلقه لم

(١) مريم: ٨٩، ٩٠، ٩١.
(٢) الكهف: ٧٤.
(٣) النساء: ١١٢.

يجيء به، وهذا خروج من عقول الخلائق.

فإن سأل سائل عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾[1]، فقال: إذا كان قد أخبر أنه خلق لجهنم كثيراً من الجن والإنس، كيف يزعم أنه خلقهم لعبادته؟ وإلا فتبينوا ما تأويل الآية عندكم؟

فأول ما نجيبه أن نقول له: ينبغي أن تعلم أن كتاب الله لا يتناقض ولا يختلف ولا يكذب بعضه بعضاً، لأن الاختلاف لا يأتي من عند حكيم، وقد قال، تبارك وتعالى: ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[2]، فإذا علمت أن ذلك كذلك فقد وضح لك الأمر أمر الآية من قبل: أنه أخبرنا أنه خلق الإنس والجن لعبادته، «وقال في موضع»[3] آخر:

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ ثم أخبرك «من هم»[4]، فقال: ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها ﴾[5] إلى آخر الآية. فينبغي لك إذا ورد عليك شيء من كتاب الله مما ذهب عنك معناه أن تسأل عنه العلماء، فإن الله، عز وجل، يقول: ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[6]، وقال: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾[7]، وليس ينبغي لعاقل أن يدع ما علم لما جهل، وليس لك أن تشك في الواضح إذا ذهب عنك الخفي، فينبغي للعاقل أن يتمسك بالواضح من كتاب الله وبالمحكم من كلام الله، فإن في ذلك تبياناً وشفاء لمن طلب الحق وأراده، وقد رغب الخلق في التمسك بالمحكم من كتابه، فقال: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء

---

(1) الاعراف: ١٧٩.
(2) النساء: ٨٢.
(3) مكررة في الاصل.
(4) في الأصل: منهم.
(5) الاعراف: ١٧٩. وتكملة الآية: ﴿ ... ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هو الغافلون ﴾، والاية مذكورة خطأ في المصورة، هكذا: (... لهم قلوب لا يعقلون بها...).
(6) النحل: ٤٣.
(7) فاطر: ٢٨.

الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾[1].

وأنا مخبرك بتأويل الآية:

قال بعض أهل العلم: إن معنى قوله: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ يريد الاعادة ولم يرد ابتدأهم لجهنم، ألا ترى أنهم كانوا في الدنيا يتمتعون ويأكلون؟.. ولكن لما علم، تبارك وتعالى، أن أكثر عاقبة هذا الخلق يصيرون إلى جهنم بكفرهم، جاز على سعة الكلام ومجاز اللغة: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم﴾، وإن كان إنما خلقهم في الابتداء بعبادته. وذلك جائز في اللغة، وقد قال، نظير ما قلنا في كتابه، في موسى، عليه السلام، قال: ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾[2]، وإن كانوا إنما التقطوه ليكون لهم قرة عين، وهذا «ما»[3]، حكى الله عن امرأة «فرعون»[4]، إذ قالت: ﴿ قرة عين لي ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أن نتخذه ولداً ﴾[5]، ومثل قوله: ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾[6]، لما كان عاقبة أمرهم إلى ذلك، وإن كانوا لا يأكلون في الدنيا إلا خبيصة[7] والفالوذجات[8] والأطعمة الطيبة. وقد قال الشاعر ما يدل على ما قلنا من ذلك:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها
وللمنايا تربي كل مرضعة ... وللحتوف برى الأرواح باريها

والوجه الثاني: قال فيه بعض العلماء: إن معنى قوله: ﴿ ذرأنا لجهنم كثيراً ﴾: خلقنا، ومعنى خلقنا: على أن سنخلق «و»[9] ليس على: قد خلقناكم في الابتداء

---

(١) آل عمران: ٧.
(٢) القصص: ٨.
(٣) مزيدة من عندنا.
(٤) مزيدة من عندنا.
(٥) القصص: ٩.
(٦) النساء: ١٠.
(٧) الحلواء المخلوطة.
(٨) مفردها فالوذ وفالوذج وفالوذق، وهي كلمة دخيلة تطلق على نوع من الحلواء يدخل في صنعه العسل والماء والدقيق، وجمعه فواليذ، ولكن المؤلف قد جمعه هنا على فالوذجات.
(٩) مزيدة من عندنا.

لجهنم، وإنما أراد به في القيامة، كما قال: ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾[1] علـى معنى: سينادون، وكما: ﴿ قال الذيـن استضعفوا للذيـن استكبروا ﴾[2]، إنما يريد بقوله: سنخلقهم بمعنى الاعادة، وهو يوم القيامة في النشأة الأخرى، فهذا تأويل الآية.

وإنما يدخلـون جهنم بأعمالهم جزاء بما كانوا يكسبون، وجزاء بما كانوا يكفرون، وجزاء بما كانوا يعملون، قال الله، عز وجل: ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ يعني لا يتفقهون بها، وقد كانوا يفقهون ما يقولون ويبصرون ما هو ألطف من الخردل، ويسمعون ما يريدون ويستثقلون ما لا يريدون. فعلى هذا المعنى تأويل الآية، وكل آية تشبهها.

ومن سألك فقال: من خلق الشر؟ فقل له: إن الشر على أمرين: شر هو ألم وأذى وعذاب، وشر هو ظلم وجور وكذب وعيب.. فعن أي الشرين تسأل؟ فإن قال: عن الظلم والجور، فقل: إن الظلم من أفعال الظالمين والجور من الجائرين والكذب من الكاذبين. فإن قال لك «أفيجور»[3] من خلقه؟ فقل له: لم نقل إنه مخلوق، فتسألنا عن خالقه. فإن قال لك: فلم يخلق الله الكذب والجور؟ فقل له: إن معنى خلقه: فعله، والله لم يفعل الجور والكـذب والظلـم، لأن الجور والكذب لا يفعله إلا كاذب جائر ظالم. فإن قال: ما دليلك على أن الحمّى والألم شر؟ فقل له: دليلي على ذلك قول الله، تبارك وتعالى: ﴿ ونبلوكم بالخير والشر فتنة ﴾[4]، وقوله: ﴿ وإذا مسه الشر جزوعاً ﴾[5]، وقول القائل: لم أزل البارحة في شر طويل، من حمى ووجع ضرس أو أذن أو بدن، على «ما»[6] قال المتوجع.

ثم يقال له: أخبرني عن الخير والشر، كله من الله؟ فإن قال: نعم، يقال له: وإذا كان الخير كله من الله، فهل كان من النبي، صلى الله عليه وعلى آله، الخير أيضاً؟ فإن قال: نعم، ترك قوله، وزعم أن النبي فعل خيراً، وفعل النبي غير فعل

---

(١) الأعراف: ٤٤.
(٢) سبأ: ٣٣.
(٣) رسم هذه الكلمة في الأصل هكذا: فايجور.
(٤) الأنبياء: ٣٥.
(٥) المعارج: ٧٠.
(٦) مزيدة من عندنا.

الله. فإن قال: لم يفعل النبي خيراً، فقد شك في الحق وكفره وجحد محمداً، صلى الله عليه، وجهله.

ثم يسأل عن إبليس، يقال: كان من إبليس شر قط؟ فإن قال: نعم، ترك قوله: وإن قال: لا، فقل له: فلا ينبغي لك أن تستعيذ من شر إبليس، لأن من استعاذ من شره فهو أحمق عابث، وإذا استعاذ من شر من لا شر له فقد جهل هذا، مع قول الله عز وجل: ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ إلى آخر السورة[1].

ومن سأل عن ولد الزنا، من خلقه؟ فيقال: الله خلق ولد الزنا، وولد الكافر، والناس أجمعين. فإن قال: فأراد الله أن يخلقه؟ فيقال: نعم، فإن قال: فقد أراد الله الزنا؟ يقال: إن ولد الزنا غير الزنا، والله لم يغضّب من ولد الزنا وإنما غضب من الزنا، وكذلك لم ينه الزاني عن الولد وإنما نهاه عن الزنا، فما نهى الله عنه فليس من الله وما لم يرده فليس منه.

فإن قال: فيكون ولد إذا لم يزن الزاني؟ يقال له: يكون الولد بأن يتزوج، فيكون الولد على غير الزنا، فإن قال: الولد الذي بعد الزنا كأن يكون لا من الزنا؟ يقال له: قد أخبرناك أن الولد لم يكـن من الزنا، وإنما كان لأن الله خلقه. فإن قال: فلو لم يزن الزاني، كان الله يخلقه؟ يقال: لا ندري بعد، الله كان يخلقه ولو لم يزن كأن يتزوج. فإن قال: أرأيتك اذا زعمت أن الله أراد أن يخلق ولد الزنا ولم يرد الزاني يزني، كيف يكون ذلك؟ يقال له: مثل ذلك مثل رجل اغتصب أرض رجل، فبذر فيها، وأراد الله أن ينبته، فالله هو أراد أن ينبت الزرع، ولم يرد الرجل أن يبذر في أرض غيره. فإن قال: فما معنى هذا؟ يقال له: مثل ذلك، رجل زنى وسرق فأراد النبي صلى الله عليه لا يقطعه ولا يجلده حتى يسرق ويزني، فكذلك لم يرد الزنا وان كان الولد لا يكون إلا بعد الزنا.

تم الكلام، والحمد لله ولي الأنعام. وصلى الله علـى رسولـه محمد وآلـه الكرام، وحسبي الله وحده وكفى ونعم الوكيل.

---

(١) سورة الفلق.



في التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

فروض الله على المكلفين

قال القاسم بن إبراهيم، صلوات الله عليه:

سألتم، يا ولدي، وفقكم الله للرشاد، عن أمهات فرض الله على من «كلفهم»[2] من العباد، وأحببتم أن تعلموا من جملهن أصولاً كافية في تفسير كلهن، بقول حزم مختصر، قريب المأخذ والمذكر، ليس فيه حيرة ولا تخاؤل[3]، ولا تكثر منه الأقوال.

فأول - يا بني - فرض الله، ومقدمات أمهات فرضه، الإيمان لله بوحدانيته والاقرار له بربوبيته، لأن من أقر لله بالربوبية عرف أنه لله عبد، ومن أيقن له بوحدانيته علم أنه ليس له والد ولا ولد وبريء عنده من مكافأة الأنداد، وعز وجل ثناؤه عن مناوأة الأضداد، لا يكون معه ند أو خل، ومن له في الأوهام والد أو ولد « لا يكون »[4] أحداً أبداً وصمداً فرداً.

وكيف يكون عبداً من توهم ذلك فيه، سبحانه واحداً، وقد توهم معه أباً وابناً ونداً أو ضداً، ومن شبه الله بشيء من خلقه فقد خرج من المعرفة بالله وحقه، وجعل لله نداً مماثلاً وكفياً[5] ونظيراً معادلاً في كل ما يشبهه به فيه من أوصاف الخلق في معنى واحد وفي كل معنى، لأن في تشبيهه له، سبحانه، بمعنى من الخلق إبطال الوحدانية ومفارقة للأزلية، ومن جور الله في حكمه فقد أشرك به، إذ شبهه بالجائرين، وخرج بتجويره له في حكمه من توحيد الله رب العالمين، وكان بفريته

---

(١) ذكر الناسخ قبل البسملة عبارة: «ومن كلامه صلوات الله عليه وسلامه».

(٢) في الأصل: كلفهن.

(٣) الكلمة في الأصل بلا إعجام ولا همز، والمعنى تكبر، أو ظن، وتهمة.

(٤) مزيدة من عندنا.

(٥) كفى الإنسان هو من يقوم مقامه.

علـى الله في ذلك عند الله من المشركيـن، حكمه حكمهم واسمه اسمهم، لأنه أشرك بين الله وبين الجائرين في الجور، ومثّله، سبحانه، بهم فيما مثل فيه بينه وبينهم من الأمور.

وكذلك كل تمثيل أو تشبيه قيل به فيما بين الله وبيـن خلقه فهو شرك بالله صريح أو معنى[1] «أشرك» صاحبه به، فمعنى شرك في اللسان صحيح، لأنه أشرك بين الله وغيره، وقال به في ذات الله، أو تجويره.

فكل من وصف الله بهيئات خلقه، أو شبهه بشيء من صفاتهم، أو توهمه صورة ما كان من الصور وجسماً ما كان من الأجسام أو شبحاً، أو أنه في مكان أو أن الأقطار تحويه أو أن الحجب تستره أو أن الأبصار تدركه من جميع خلائقه أو شيء منها، أو أن شيئاً من خلائقه يدرك شيئاً مما خلق وذرأ وبرأ أو مما كان أبد الأبد فقد نفاه وكفر به وأشرك وعبد غيره. فافهموا، وفقنا الله، وكـل مؤمن، لإصابة الحق وبلوغ الصدق، إنه قريب مجيب.

* * *

(١) في الأصل: شرك، بدون الهمزة الأولى.

القاضي عبد الجبار

المختصر
في أصول الدين

كلمة عن تحقيق نسبة هذا المختصر لمؤلفه

هذه الرسالة التي أسميناها «المختصر في أصول الدين» قد سماها ناسخها «هذا كتاب فيه أصول للدين على مذهب أهل التوحيد والعدل».

وللوهلة الأولى تدل هذه التسمية التي أطلقها الناسخ على أن اسم المؤلف غير معروف، وعلى أن العنوان الخاص بالرسالة غير معروف كذلك. وأغلب الظن أن الناسخ قد عثر عليها منزوعة صفحة الغلاف، فنسخها، ثم كتب لها صفحة غلاف أثبت عليها قوله: «هذا كتاب فيه أصول للدين على مذهب أهل التوحيد والعدل»، فهو هنا قد أثبت ما يدل على «موضوع» الكتاب، و«المذهب والاتجاه الفكري» المكتوبة فيه هذه الرسالة.

وناسخ هذه الرسالة هو «عبد الرضا كاظمي»، وتاريخ نسخه لها سنة ١٠٩٥ هـ، والأصل الذي نقلها عنه منسوخ بقلم «محمد بن حماد بن بركة بن محمد بن حيان الشيباني المحرزي»، وهو من النساخ الذين عاشوا في النصف الأول من القرن السادس الهجري، وقد نقل «عبد الرضا كاظمي» عن منسوخاته عدة رسائل أخرى، منها مثلاً «إنقاذ البشر من الجبر والقدر» و«مجموع من كلام الشريف المرتضى» وتاريخ نسخ «المحرزي» لها هو سنة ٥٤٥ هـ[1].. والمخطوط الذي ضمنه «الكاظمي» هذه الرسائل، قد جعل هذا المختصر في آخره، أغلب الظن لعدم معرفته اسم المؤلف ولا اسم الكتاب[2]

ونحن قد أطلقنا عليه اسم «المختصر في أصول الدين» لأن مؤلفه قد سماه

---

(١) انظر اللوحات: ١٣٢، ٧٥، ٤٢ من مخطوط المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم (١٦٩ عقائد تيمور).

(٢) وهو يشغل في المخطوط اللوحات من ٧٦ حتى ٩٧. من المجموعة (١٦٩ عقائد تيمور).

بذلك، حسب ما تكشف لنا من مقدمته، ومن خاتمته.. ففي المقدمة يتحدث المؤلف عنه بعبارة صريحة يقول فيها: «.. هذا مختصر في أصول الدين» ثم يشير في الختام بقوله: «... هذا المختصر..».

ولم تكن قضية التسمية بالأمر الصعب، وإنما القضية التي واجهتنا بصعوبات جمة هي التحقق من نسبة هذا الكتاب لصاحبه، ونحن لم نواجه هذا الأمر ولدينا افتراضات أو افتراض مشكوك فيه يتطلب التثبت والتحقق، وإنما واجهناه بلا أي افتراض.

ونحن قد عثرنا على هذا النص منذ سنوات عدة، وبعد قراءته ونسخه ظهرت لنا قيمته العظيمة، فهو يجمع في صفحات قليلة فكر أهل التوحيد والعدل في أغلب المباحث التي تناولوها، وهو يعرض هذه المباحث في شكل أسئلة وشبهات واعتراضات، ثم يقدم عليها الإجابات.. وهو يكاد أن يكون «دليلاً» يجمع بين صفحاته «التلخيص المعجز» لهذه المباحث التي إذا قرأناها في الموسوعات الكبرى لم نتخيل أبداً إمكانية تركيزها في مثل هذا التلخيص.

كل هذا أعجبنا في النص، ولكننا تركنا الشروع في تحقيقه ونشره لعدم معرفة اسم مؤلفه، بعد أن بذلنا في سبيل التوصل لمعرفته عدة جهود لم تثمر لنا اليقين، أو ما هو قريب من اليقين.

ثم اشتغلنا ببحث موضوع «مشكلة الحرية الإنسانية عند المعتزلة»، واقتضانا البحث أن نقرأ كل ما وصلت إليه أيدينا من مخطوطات ومطبوعات في فكر أهل العدل والتوحيد، (وأغلب هذه المصادر مرصود في مراجع هذا الكتاب). وبعد أن قرأنا الموسوعة الكبرى التي ألفها قاضي القضاة بعنوان «المغنى في أبواب التوحيد والعدل»[1]، بدا لنا الخيط الذي سيوصلنا لمعرفة مؤلف هذا «المختصر في أصول الدين».. ذلك أننا وجدنا الاحتمالات تتداعى في الذهن، والافتراضات تتكاثر، وجميعها في اتجاه أن هذا النص للقاضي عبد الجبار... وبالفعل

(١) وهو كتاب في عشرين جزءاً، نشر منه أربعة عشر جزءاً هي ما عثر عليه منه حتى الآن، وبعض أجزائه في أكثر من مجلد واحد.

تحققنا، بالبحث، من هذا الموضوع، وذلك بواسطة أدلة كثيرة، في مقدمتها:

١ ـ إن المصادر التي طالعناها في العدل والتوحيد، منها ما هو قديم جداً، وسابق على ترجمة الفلسفة اليونانية، ومن ثم فقد جاء خالياً من تعقيداتها، ملتزماً الوضوح والبساطة للفكر العربي الإسلامي، وهذا هو طابع رسائل الحسن البصري، والإمام القاسم الرسي، والإمام يحيى بن الحسين، مثلاً.

ومن هذه المصادر ما كتب بعد أن تمثل الفكر العربي الإسلامي الفلسفة اليونانية، فاكتسب أسلوب علماء الكلام المسلمين ـ بسبب هذا التمثل ـ طابع هذه الفلسفة، الذي انعكس بدوره على صياغات المتكلمين ومؤلفات علم الكلام. وأبرز مثال لهذا اللون في فكرنا العربي الإسلامي هو مؤلفات القاضي عبد الجبار. والذين قرأوا له (المغني) يعرفون ذلك دون حاجة لسوق أي دليل.

وهذا المختصر الذي نبحث عن مؤلفه هو من هذا اللون من ألوان مؤلفات العدل والتوحيد.

٢ ـ إن الذين كتبوا في هذا الفكر قد سموا كتبهم ورسائلهم باسم (العدل والتوحيد)، فقدموا «العدل» على «التوحيد»، ويتضح ذلك من الرسائل التي حققناها، ومن غيرها من الآثار، وفي داخل المباحث قدموا مباحث «العدل» على مباحث «التوحيد» في الكتب والرسائل التي جمعت المبحثين بين دفتيها. ولقد خالف في ذلك القاضي عبد الجبار، فعنون موسوعته بعنوان «المغني في أبواب التوحيد والعدل»، وقدم فيها مباحث «التوحيد» على مباحث «العدل»، ولقد تنبه مثلاً الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني إلى نقطة الخلاف هذه، وهو يتحدث عن مميزات القاضي عبد الجبار، فكتب أن «ثمة خلاف أيضاً من جهة التوحيد والعدل. فالقاضي عبد الجبار مستقر في اعتبار التوحيد أسبق من العدل، وهذا السبق إنما جاء لأن التوحيد أولى وآثر وأحرى بالتقديم، لأن «قيمته» أعلى من «قيمة العدل»[1].

ونفس هذا الأمر هو الذي التزمه «المختصر» الذي نتحدث عنه.

---

(١) انظر ص ١٠ من تصديره لكتاب (شرح الأصول الخمسة).

٣ ـ أن مراجعة كتابي القاضي عبد الجبار (المغني) و(شرح الأصول الخمسة) ـ وبالذات (المغني) ـ تثبت بما لا يدع أدنى مجال للشك أن الآراء، والعبارات والألفاظ، والأسلوب، والأمثلة التي تضرب للتدليل، وتقسيم الفصول، والأبواب، والفقرات، أن كل ما جاء بخصوص هذه المسائل في «المختصر» إنما هو عين ما جاء عنها في (المغني) مع فارق واحد هو الفارق بين بسط الموضوع في عشرين جزءاً وبين ضغطه في صفحات، مما جعل الفصل الذي يستغرق في (المغني) عشرات الصفحات يتناوله «المختصر» في سطرين اثنين، مثلاً. ونحن لن نقدم أمثلة على هذا التماثل، وتلك الوحدة، لأنها موجودة في كل صفحات النصين، ويدركها كل من يقرأهما ويقارن بينهما في هذا الباب.

٤ ـ أن الترتيب الذي عرضت به القضايا في «المختصر» يكاد يطابق الترتيب الذي عرضت به نفس القضايا في (المغني)، ولو أن أجزاء (المغني) قد عثر عليها جميعاً، لربما كان الحكم بتمام التطابق في إمكاننا الآن..

فنحن مثلاً نجد «الأصل الرابع» في (المختصر) يتناول ما تناوله القاضي في «الجزء الرابع» من (المغني) كما نجد «الأصل الخامس» في (المختصر) يتناول موضوع «الجزء الخامس» من (المغني). ويأتي في المختصر بعد ذلك الحديث عن «التعديل والتجوير» وهو موضوع «الجزء السادس» من (المغني). ثم يأتي الحديث عن «خلق الأفعال» وهي موضوع الجزءين «الثامن والتاسع» من (المغني)، ثم تتوالى الموضوعات: «الآلام» مثلاً ونجدها موضوع «الجزء الثالث عشر» من «المغني»، و«النبوات»، وهي موضوع «الجزء الخامس عشر» من (المغني)، ثم «نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وموضوع نسخ الشرائع» ونجدها في «الجزء السادس عشر» من (المغني)، ثم الكلام في «الشرائع» وهو موضوع «الجزء السابع عشر» من المغني... وهكذا.. الخ.. الخ..

٥ ـ أن تسمية هذا «المختصر» ـ من قبل مؤلفه ـ باسم (المختصر في أصول الدين)، يمكن أن تكون قرينة ـ وإن لم تبلغ مبلغ الدليل ـ على نسبة هذا «المختصر» للقاضي عبد الجبار، فإن له مثلاً كتاب (المحيط) وهو الذي جمعه

«ابن متويه»، والاسم الكامل لهذا الكتاب هو (المحيط في أصول الدين)[1]. وأكثر من هذا فإن كتاب المغني إنما كان يسمى في المراجع القديمة باسم (المغني في أصول الدين)[2].. «فالمغني» إذن موسوعة في أصول الدين، والنص الذي بين أيدينا مختصر في أصول الدين.

٦ - أن مؤلف هذا «المختصر» يقول في مقدمته إنه عمله لمن سماه «الصاحب الجليل» ووصف هذا «الصاحب الجليل» بأنه «إمام العالمين في العلم والدين والفضل» وفي تراثنا العربي الإسلامي هناك واحد فقط اشتهر «بالصاحب» ويمكن أن تنطبق عليه أوصاف الإمامة والتقدم في العلم والدين والفضل، وهو «الصاحب بن عباد»[3]، وصلة القاضي عبد الجبار «بالصاحب بن عباد» معروفة مشهورة، فلقد اتصل القاضي «بالصاحب» سنة ٣٦٠ هـ سنة ٩٧٠ م وتولى القاضي من قبل «الصاحب» منصب قاضي القضاة (وزير العدل) وتوفي «الصاحب» في حياة القاضي، ويقال إن الوزير الذي خلف الصاحب، وهو «فخر الدولة» قد عزل القاضى عبد الجبار عن منصبه وصادر أمواله لأسباب منها صلته القوية «بالصاحب بن عباد»[4].

ولقد كان مألوفاً أن يطلب «الصاحب بن عباد» من القاضي عبد الجبار الإجابة عن المعضلات الفكرية والكتابة في مثل هذه الأمور، فلقد كان يرى فيه «أفضل أهل الأرض وأعلمهم» ولقد كان «الصاحب» يجيبه إلى ما يطلب، حتى إنه استجاب لطلبه إسقاط ضرائب على أحد تلاميذه مقدارها ٣٣٠ ديناراً «فوضعها

---

(١) تقديم الدكتور أحمد فؤاد الأهواني للقسم الاول من الجزء السادس من (المغني) ص و.

(٢) انظر قائمة مؤلفات القاضي عبد الجبار في تقديم د. عبد الكريم عثمان لكتاب (شرح الأصول الخمسة).

(٣) هو ابو القاسم إسماعيل بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥هـ ٩٣٨ - ٩٥٥ م)، ولقب بالصاحب لصحبته لابن العميد، وقيل لصحبته الامير البويهي «ركن الدولة»، وكان الصاحب بن عباد وزيراً في هذه الدولة وعالماً صاحب مؤلفات، بعضها في العدل والتوحيد. راجع (دائرة المعارف الاسلامية)، ومقدمة (رسائل الصاحب بن عباد).

(٤) مقدمة شرح الاصول الخمسة.

الصاحب بعد أن أجابه القاضي عن عدة مسائل فقهيـة وعقائديـة استعصت عليه»[1].

* * *

وهذا «المختصر» الـذي طلبه «الصاحب» من «القاضي» إنما كان مطلـوباً ليكون بداية يتعلم بها هذه العلوم شخص وصفه المؤلف بأنه «الشريف النجيب» وهو الذي كان محل اهتمام «الصاحب» حتى أحله «محل الولد»، وذلك حتى يكون هذا المختصر «توطئة له إلى دراسة الكتب كلها بعده». ومن هنا تأتي أهمية هذا «المختصر» بين الـرسائل والـكتب التي اخترناها في موضوعي العدل والتوحيـد، أهميته كدليل ومفتاح لعلوم العدل والتوحيد.

ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى تحقيق هدفنا، بتحقيق هذا النص، وتحقيق نسبته إلى قاضي القضاة. فلقد كانت سعادتنا غامرة عندما بلغنا هذا الهدف الذي راود فكرنا نحواً من ثلاث سنوات[2].

محمد عمارة

* * *

(١) شرح الأصول الخمسة. المقدمة. ص ١٥.

(٢) في الترجمة لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني. راجع: (شرح عيون المسائل) جـ ١. و(المنية والأمل) الباب الرابع. وتقديم الدكتور أحمد فؤاد الأهواني للقسم الأول من الجزء السادس من (المغني). وتقديم الدكتور عبد الكريم عثمان لكتاب (شرح الأصول الخمسة).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اللهم بك أستعين، وعليك أتوكل وإياك أستهدي طريق الحسنى، وإياك أرغب في أن تصلي على نبينا محمد وعلى آله الطيبين.

هذا مختصر في أصول الدين، يشتمل على جمل من الأدلة والخلاف، ويحتوي على ما لا يسع جهله وإغفاله، عملناه للشريف النجيب المؤمل لعمارة الدين وإحياء معالم آبائه الطاهرين، صلوات الله على النبي وعليهم أجمعين.

تقدم بجمعه الصاحب الجليل إمام العالمين في العلم والدين والفضل، أدام الله علاه لأهله من حيث أحله محل الولد وشاهد منه آثار الفضل وعلامات النجابة والتقدم، فأحب أن يكون في الحق علماً وفي نصرة دين جده صلوات الله عليه إماماً، فامتثلت ذلك على ما حده ليصير توطئة له إلى دراسة الكتب بعده، واعتصمت بالله جل جلاله من الزلل، وسألته التوفيق في القول والعمل، وفصلته بذكر المسائل والجوابات ليكون أقرب وأمكن. وكفى به ناصراً.

مسألة:

فإن قيل: ما الذي يجب على المكلف معرفته من أصول الدين؟ قيل: أربعة أشياء:

(١) التوحيد.

(٢) والعدل.

(٣) والنبوات.

(٤) والشرائع.

فعلى هذه الأصول مدار أمر الدين.

مسألة:

فإن قيل: فما التوحيد؟.. قيل: هو العلم بما يتوحد الله جل وعز به من الصفات التي يختص بها أو بأحكامها، دون غيره، نحو أنه قديم وما عداه مُحدَث، وواحد لا ثاني له، وما سواه بخلافه، وعالم لا يجوز أن يجهل وما[1] سواه كذلك، على ما نفصله من بعد.

مسألة:

فإن قيل: فما العدل؟ قيل: العلم بتنزيهه تعالى من أمور ثلاثة:

أحدها: القبائح أجمع.

وثانيها: تنزيهه عن أن لا يفعل ما يجب من ثواب غيره.

وثالثها: تنزيهه عن التعبد بالقبيح وخلاف المصلحة، وإثبات جميع أفعاله حكمة وعدلاً وصواباً.

مسألة:

فإن قيل: ألستم تقولون: الأصول خمسة، وتعدون فيها: الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قيل له: كل ذلك يدخل في العدل، لأنا إذا نزهناه عن الخلف والكذب والتعمية، بطل قول المرجئة، فإذا بينا جنس ما تُعُبِّد به ثبت ما نقوله في المنزلة بين المنزلتين، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مسألة:

فإذا قال: فما النبوات؟ قيل له: العلم بحسن بعثة الله تعالى الأنبياء وبأنهم قد بعثوا، ووجب تصديقهم فيما تحملوه من الشرائع، والقبول منهم.

مسألة:

فإن قيل: فما الشرائع؟ قيل: معرفة ما جاء به النبي صلوات الله عليه من الفرائض والواجبات، والحلال والحرام، والفقه يدخل في هذا القسم، فلهذا عظم

---

(١) ما، هنا نافية، أي وليس سواه كذلك.

موقع الفقه، لأن به تعرف هذه الشرائع، وهو على ضربين:

أحدهما: يجب على كل أحد أن يعرفه، كأصول العبادات، نحو أعداد الصلوات، وصوم ورمضان، ونحو ذلك.

والثاني: العلم بفروع هذا الباب، وهو الذي يسوغ فيه التقليد[1].

مسألة:

فإن قيل: أفيجب على المكلف معرفة العربية والنحو واللغة؟.. قيل: يحتاج إلى ذلك العلماء ليفهموا عن الله تعالى وعن رسوله ما خاطبا به، فلهذا الأصل الواحد[2] يحتاج إليها دون ما تقدم من الأصول، لأن تلك تعرف بالعقل، والجهل باللغات لا يؤثر في صحة معرفتها.

مسألة:

فإن قيل: فأول ما يجب على الإنسان «أن»[3] يفعله ما هو؟ قيل له: النظر والتفكر في طريق معرفة الله تعالى.

مسألة:

فإن قيل: ومن أين، أولاً، إن النظر والفكر واجب، ومن الناس من يخالف ويقول: العمل بالتقليد، كأصحاب الحديث وغيرهم؟ وفي العقلاء من يخالف ويقول: إنا نعرف ما يلزمنا ضرورة فلا حاجة بنا إلى التفكير والنظر؟ قيل له: إن العاقل يعلم أن في الناس من يخطىء وفيهم من يصيب، وكل واحد منهما يدعي أنه مصيب، فلم صار تقليد أحدهما أولى من تقليد الآخر؟ وتقليد «الموحد»[4] لم صار أولى «من»[5] تقليد الملحد؟ ومن يقول إن الله يرى، لم صار تقليده «أولى»[6] من تقليد من ينفي الرؤية؟

---

(١) في الأصل هنا عبارة: «الوجوه على بعض» والمراد: على بعض الوجوه.

(٢) أي أصل: الشرائع.

(٣) غير موجودة في الأصل.

(٤) في الأصل: الوحد.

(٥) غير موجودة في الأصل.

(٦) في الأصل: بأولى.

وهذا يبين فساد التقليد، ويدل على أن الحق لا يعرف بالرجال، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام[1] للحارث: يا حارث، إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

فإن قال: تقليد المستور أولى، قيل: أليس مع ستره وإظهاره التدين قد يخطىء كما يخطىء الرهابنة من النصارى؟ وكيف يصح ما قلته؟

فإن قال: تقليد الأكثر أولى، قيل له: أليس الكثير قد يخطئون (و)[2] القليل قد يصيبون؟ فلم جاز ما قلته؟

فإن قال: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وآله: «عليكم بالسواد الأعظم» فدل على أنه يجب ابتاع الأكثر؟ قيل له: من قال بالتقليد لا يعرف أن الرسول نبي، لأنه لا يكون بتقليده أولى من تقليد (مسيلمة)[3] الكذاب فكيف يحتج بهذا الحديث؟ والمراد بالخبر أنه يجب ابتاع الأمة، لأن قولها حجة، لأنها الأعظم من السواد، وما نقص عنها لا يلحقه هذه الصفة.

والذي يدل على أن العلم بالله ورسوله يتوصل إليه بالتفكر أنه لو كان ضرورة لتساوى العقلاء فيه ولما اختلفوا في ذلك، دلالة على أن الأمر كما قلنا. ويدل على ما نقوله، من وجهة السمع، أنه تعالى أوجب النظر وحث عليه ومدح فاعله وذم المعرض عنه، فقال عز وجل: ﴿**قل أنظروا ماذا في السموات والأرض**﴾[4]، وقال عز وجل: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾[5]، وقال تعالى: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[6]، وقال تعالى: ﴿**وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون**﴾[7]، وما نبه الله جل جلاله عليه من الحجاج في كتابه يدل على وجوب النظر وفساد التقليد.

---

(١) المعنى هو: علي بن أبي طالب.
(٢) في الأصل: في.
(٣) في الأصل: مسألة.
(٤) يونس: ١٠١. والاية مذكورة في الأصل خطأ هكذا (قل انظروا في ملكوت السموات والارض).
(٥) الغاشية: ١٧.
(٦) الذاريات: ٢١.
(٧) يوسف: ١٠٥.

مسألة:

فإن قال: ومن أين أن العاقل يجب عليه النظر في طريق معرفة الله تعالى؟ قيل له: لأنه إذا سمع اختلاف الناس في هذه المذاهب، وتكفير بعضهم بعضاً، وتخويف كل واحد منهم صاحبه من خلاف قوله، وعلم أن جميع هذه المذاهب لا يصح أن يكون حقاً، لأن فيها متضاداً، كقول من قال: العلم قديم، وقول من يقول بحدوثه، وقول من قال: إن الله يرى، وقول من ينفي الرؤية عنه، ولا يجوز أيضاً (في)[1] هذه المذاهب أن تكون كلها باطلة، لأن الحق لا يخرج عنها، ولا يمكن أن يعتقد أن العالم لا قديم ولا مُحدَث، فلا بد من أن يكون فيها ما هو حق وفيها ما هو باطل.

وإذا خوف الإنسان فقيل له: إن لم تفكر فتعرف الحق، لم نأمن أن تكون من المبطلين، فيفضى بك ما أنت عليه إلى النار الدائمة والمضار العظيمة، فلا بد من أن يخاف ويعرف بعقله أنه يجب أن يتحرز مما يخافه، فيلزمه أن يفكر وينظر، كما إذا قيل له، في طريق يسلكه ولا بد له منه: إن فيه سبعاً (ولا ما فيه)[2] وخاف من ذلك يلزمه أن يسأل ويبحث. فهكذا ما قلنا بوجوب النظر، مع أنه إذا تفكر في نفسه وتدبر آثار النعم من الصحة والقوة والأداة والآلة والشهوة واللذة وعلم فرق ما بينه وبين السقيم المدنف، وقيل له: إن لم تنظر فتعرف الخالق والمنعم لا (نأمن)[3] أن تقدم على (كفره)[4] (فطاعته)[5] إنما تجب بعد أن تعرفه حق معرفته.

مسألة:

فإن قال: فبينوا لي جمل ما يلزمه في (التوحيد)[6] أن يعرفه، قيل له: يدور ذلك على أصول خمسة:

---

(١) في الأصل: من.
(٢) هكذا بالأصل، والمراد وليس فيه، أي وليس في الطريق سبع.
(٣) في الأصل: نا.
(٤) في الأصل: كفر.
(٥) في الأصل: وطاعته.
(٦) في الأصل: الوحيد.

أولها: إثبات (حدوث)[1] العالم.

والثاني: إثبات المحدث.

والثالث: بيان ما يستحقه من الصفات.

والرابع: العلم بما لا يجوز عليه من صفات المخلوقين.

والخامس: إثبات وحدانيته.

فإذا عرفت هذه (تحصلت جمل ما يلزمه في التوحيد)[2].

* * *

(١) في الأصل: حدث.

(٢) غير موجودة في الأصل: ومكانها فراغ.

الكلام في الأصل[1] الأول

مسألة:

فإن قال: بينوا لي الأصل الأول، ليبطل ما تقول الدهرية من أن العالم قديم، قيل له: إن العالم إنما نعني به هذه الأجسام التي نعلمها بالمشاهدة وعلى سبيل الضرورة، ونعلم من حالها أنها لا يصح أن تكون مُحدَثة قديمة معاً، ولا أن تخرج من أن تكون بهاتين الصفتين، فلا بد من أن تكون إما محدثة وإما قديمة، فلا يعلم ذلك إلا بالنظر والتفكر.

فإن قال: فما الدليل الذي إذا نظرنا فيه علمنا حدوث العالم؟ قيل له: لأن هذه الأجسام لم توجد إلا مع المحدثات التي لم تتقدمها الأجسام في الوجود.

فإن قال: وما تلك المحدثات التي لم تتقدمها الأجسام في الوجود؟ قيل له: هي الأعراض كالحركات والسكون والقرب والبعد.

فإن قال: فدلوا على إثبات ذلك، ففي الملحدة من يخالف في هذا، كما تعلمون، قيل له: الذي يدل عليه، أن كل إنسان يعقل فقد يعلم إن الجسم يجوز أن يقرب من الجسم الآخر بدلاً من بعده، ويبعد بدلاً من قربه، فإذا كان جواز الأمرين عليه واحداً، ثم (رأيناه)[2] يختص بالقرب دون البعد، فلا بد من معنى به صار قريباً، وإذا بعد فلا بد من معنى به يصير بعيداً. وكذلك إذا تحرك وسكن، فهذا يدل على إثبات هذه الأعراض.

مسألة:

فإن قال: فقد ادعيتم أنها محدثة فما دليلكم على ذلك، وقد خالفكم فيه

---

(١) في الأصول: الأصول.

(٢) في الأصل: رأينا.

أصحاب الكمون[1] والظهور من الملحدة، فيقولون: إنها قديمة، فإذا ظهرت الحركة تحرك وإذا كمنت سكن، قيل له: إن الحركة لو لم تكن محدثة، وكانت قديمة، لما صح أن تبطل وتعدم، وقد علمنا أنها تبطل بالسكون والسكون يبطل الحركة، فوجب القول (بحدوثهما)[2].

فصل

فإن قال: دلوا أولاً على أنها تبطل بالسكون وتعدم، قيل: لا يخلو، لو لم يبطل، من وجهين، إما أن يكون موجوداً في مكانه[3] الأول أو متحركاً على ما كان عليه من قبل، ونحن نشاهده وهو ساكن به، فيبطل ذلك، والانتقال على الحركات والأعراض محال، لأن ما ينتقل قد يجوز بدلاً من أن ينتقل أن يبقى على ما هو عليه، كما نعرفه من حال هذه الأجسام، ولا يكون كذلك إلا بنقلة توجد فيه، والحركة لا يجوز أن توجد فيها حركة لأنها ليست بمحل للأعراض، فيجب أن لا يصح الانتقال عليها، وإذا بطل القسمان صح أنها قد عدمت..

إلزام:

فإن قيل: جوزوا في الحركة إذا سكن المحل أن تكون قد كمنت بعد ظهورها، قيل له: إن كمونها لا يخلو من أن يكون بأن زالت عن محلها، وهو الانتقال الذي ذكرناه أو يكمن، وهي موجودة في محلها وهو الذي بينا فساده، فليس الذي ألزمته بطعن فيما قدمناه، ولأن الكمون والظهور إنما يجوزان على الأجسام بأن تستتر مرة بغير بقاسه[4] وتظهر أخرى، وليس هذا حال الأعراض.

---

(١) الكمون مذهب فلسفي قال به بعض المعتزلة، مثل «النظام»، ويعني أن الموجودات قد خلقت دفعة واحدة، وأنه ليس فيها متقدم ومتأخر، إذ المتأخر كامن في المتقدم، والتقدم والتأخر إنما هو باعتبار الظهور من مكانها لا باعتبار الحدوث والوجود. راجع: المعجم الفلسفي. مادة «كمون».

(٢) في الأصل: يحدثهما.

(٣) في الأصل: موجودة في مكانها. ومن قبل كان الأسلوب مؤنثاً باعتبار الحركة، ثم تحول إلى التذكير باعتبار الجسم المتحرك.

(٤) هكذا بالأصل.

فصل

فإن قيل: ولم قلتم إن صحة العدم على الحركة يدل على أنها ليست قديمة؟ قيل: لأن القديم هو الذي لا أول لوجوده، وما كان كذلك فوجوده واجب، لا باختيار مختار ولا لعلة من العلل، وما كان كذلك فليس بعض الأوقات بأن يجب وجوده فيه أولى من بعض، فيجب وجوده أبداً. وإذا صح ذلك فكل ما جاز أن يعدم يجب أن لا يكون قديماً، ويكون محدثاً.

مسألة:

فإن قيل: ومن أين.. «أن»[1] الجسم لا يخلو من هذه الأعراض؟ قيل له: لأنه لا بد من أن يكون إما قريباً من جسم غيره أو بعيداً منه، ومحالٌ مع وجودهما خلوهما من هاتين الصفتين، فيجب أن لا يجوز خلوهما من المعنى الذي به يقرب أحدهما من الآخر ويبعد وبه يجتمع ويفترق ويتحرك ويسكن، فصح بذلك ما قلناه.

إلزام:

فإن قيل: أيخلو الجسم من اللون والطعم والرائحة؟ قيل له: يجوز أن يخلو منها إذا خلقه الله ابتداء ولم يخلق فيها شيئاً من ذلك، وإنما لم يجز أن يخلو من القرب والبعد لأنه محال أن يوجد إلا على إحدى الصفتين وقد يجوز أن يوجد خالياً من كل لون ومن كل طعم، وكذلك نجد الهواء لا رائحة فيه ولا طعم في الأغلب وما كان شديد الغبرة ولا لون فيه.

مسألة:

فإن قال: فلم إذا لم تتقدم الأجسام هذه الأعراض المحدثة في الوجود يجب أن تكون تلك محدثة. قيل: لأنا نعلم ضرورة أن كل شيئين لم يتقدم وجود أحدهما وجود الآخر فإذا كان أحدهما محدثاً فالواجب في الآخر أن يكون بمنزلته، كما يجب في زيد وعمرو، وإذا كان وجودهما معاً ولأحدهما سنة أن يكون الآخر

---

(١) غير موجودة في الأصل.

كذلك، ولا فرق بين أن لا يتقدم شيئاً واحداً هذا حكمه أو أشياء كثيرة، فجميعها أدل في صحة ما ذكرنا.

إلزام:

فإن قال: أليس في الملحدة من يقول: إن الجسم قديم، ومع ذلك فإنه لم يخل من الأعراض، لكنها حدثت شيئاً قبل شيء، فلا حركة إلا وقبلها حركة؟ قيل له: هذا جهل ومناقضة، لأن كل واحد منها له أول، فَحَال أن لا يكون لجميعها أول، لأن «الحدوث»[1] قد عمها، وإذا وجب في الكل أن له أولاً فالجسم إذا لم يخل من جميعها فهو كان لا يخلو من محدث بعينه في أنه يجب أن يكون محدثاً.

* * *

مسألة:

فإن قيل: قد بينتم أن القرب والبعد والحركة والسكون حوادث، وأن الجسم محدث،[2] فما الدليل على أن سائر ما في الأجسام من الأعراض محدث؟ قيل له: لأن الجسم إذا ثبت حدوثه فالألوان والطعوم والروائح لا توجد إلا[3] في الأجسام، فيجب أيضاً أن تكون محدثة، ولأنا نعلم إن بعضها يبطل ويعدم ببعض، فهي كالحركات والسكنات في هذا الباب.

---

(١) في الأصل: الحدث.
(٢) في الأصل: قيل له.
(٣) في الأصل: لا.

الأصل الثاني في التوحيد

مسألة:

فإن قيل: فإذا ثبت أن الأجسام والأعراض محدثة، فما الدليل على أن لها محدثاً وفاعلاً؟ قيل: ينبغي أن تعلم أولاً إثبات حوادث هي أفعالنا، ثم تعلم أنها إنما كانت أفعالنا لأنا أوجدناها وأحدثناها، ومن حيث كانت مُحدَثة احتاجت إلى فاعل. ثم تعلم أن الأجسام وسائر الأعراض إذا كانا محدثين فلا بد من مُحدِث، ثم تعلم أن ذلك المحدث لا يجوز أن يكون إلا مخالفنا، وهو القديم تعالى.

مسألة:

فإن قيل: دلوا على إثبات حوادث هي أفعالنا، قيل له: لأن قيامنا وقعودنا وقربنا وبعدنا يقع بحسب إرادتنا وبحسب علومنا وشهوتنا، مع سلامة الأحوال، وقيام غيرنا وقعوده لا يجب أن يقع بحسب إرادتنا وشهوتنا وعلمنا، فدل ذلك على أن هذه الأمور فعلنا، وهي من جهتنا واقعة، وبنا متعلقة.

مسألة:

فإن قيل: فدلوا على أنا أحدثناها، وعلى أنها تحتاج إلى محدث من حيث كانت محدثة، قيل له: لأن الكتاب في حال يبقى لا يحتاج إلى كاتب، وقبل حدوثه بأوقات لا يحتاج إليه، وفي حال حدوثه لولا قصده إليها وعلمه بها لم تحصل، فعلمنا أنها تحتاج إليه من حيث كانت محدثة، وأنها من جهته واقعة، وكذلك القول في سائر الأفعال.

إلزام:

فإن قال: أليست[1] حركة النائم لا تقع بحسب قصده، وهي فعله، إذا وجب ذلك. قيل له: نعم، وهذا لا يقدح فيما قلناه، لأنا أوجبنا أن كل ما يقع بحسب قصده يقصده وهو فعله إذا وجب ذلك فيه ولم نقل إنها ليست[2] بفعل له، ولا يمتنع في هذا أن تكون فعله بدليل آخر، لأن الحكمين المثلين يثبتان بدليلين مختلفين، وهذا كما أملك الدار بالشرى، ولا يجب فيما لم أشتره أن لا أملكه، بل قد أملكه بالهبة والميراث، ولا يمنع ذلك من أن بالشرى نكسب[3] الملك[4].

مسألة:

فإن قال: فما الدليل على «أن»[5] الأجسام لها محدث وفاعل، وقد خالفكم في ذلك أصحاب الطبائع وغيرهم؟ قيل «له»[6]: لأن أفعالنا إذا وجبت حاجتها إلى فاعل من حيث كانت محدثة، فكذلك الأجسام المحدثة، لأن المشاركة في العلة توجب المشاركة في الحكم، كما أن قيامنا كقعودنا في حاجتهما إلى فاعل لما اشتركا في الحدوث.

مسألة:

فإن قيل: فكيف تعلمون أن محدث الأجسام هو القديم الإله؟ قيل له: لأن القادر منا لا يمكنه أن يفعل الأجسام البتة، لأنه «في»[7] جميع حالاته يتعذر عليه فعلها، فلا بد من أن يكون فاعلها مخالفاً للأجسام، وهو الله تعالى، وكذلك فقد علمنا أن انقلاب النطفة والعلقة إنساناً مصوراً وأعضاء مركبة، ثم كونها حية قادرة حساسة، ثم تنقلها من حال إلى حال ومن رتبة إلى رتبة لا يصح أن يكون من الواحد منا ولا مما هو من أمثالنا، فيجب أن يكون فاعل هذه الأعراض مخالفاً لنا وهو الله جل جلاله.

---

(1) في الأصل: أليس.
(2) في الأصل: أن ما ليس.
(3) في الأصل: تنسب.
(4) مكررة في الأصل.
(5) غير موجودة في الأصل.
(6) في الأصل: لهم.
(7) في الأصل: لأنها.

إلزام:

فإن قيل: هلا جوزتم حدوث ذلك بالطبع، أو بقوة من القوى؟ قيل له: إن «حدوث»[1] ذلك بالطبع لا يخلو من وجهين:

إما أن يحصل للجسم وهو موجود أو معدوم، فإن حصل في حال وجوده فكيف يقع به ويوجد ويحدث؟! وإن حدث وهو موجَب غير مختار، فلم صار بأن يحدث في وقت أولى من وقت؟

وكذلك إن قال: في تركيب الإنسان بالطبع، لأنه لو كان كذلك لم يكن بأن يتركب إنساناً في وقت أولى من وقت، وإنما يجوز ذلك على قولنا لأننا[2] نثبته محدثاً من جهة مختار فاعل يفعله بحسب المصلحة، كما يختاره، وكما يفعل أحدنا فعله بحسب اختياره في حال دون حال.

* * *

(١) غير موجودة في الأصل.

(٢) في الأصل: لأنها.

الأصل الثالث من التوحيد

مسألة:

فإن قيل: فما الذي يستحقه عز وجل من الصفات؟ قيل له: هو قادر، لصحة الفعل منه، والفعل لا يصح إلا من قادر على ما نعقله في الشاهد.

مسألة:

فإن قيل: هو لم يزل قادراً أم لا؟ قيل له: نعم، لأنه لو لم يكن كذلك لكان يقدر بأن يجعل نفسه قادراً، ومن ليس بقادر لا يصح منه الفعل، وهذا يتناقض، فهو إذاً قادر فيما لم يزل ولا يزال، لأنه لذاته قادر.

فصل

وهو عالم، لأن في الشاهد العلم المحكم لا يصح إلا من عالم، كالكتابة والبناء والصياغة، وما خلقه الله تعالى أبلغ في الإحكام من قِبَل ذلك، نحو خلقه الإنسان على عجائب ما فيه من الصنعة والأعضاء والآلات ومجاري الطعام والشراب وغير ذلك، فيجب أن يحكم بأنه عالم.

إلزام:

فإن قيل: أليس العالم منا يعلم شيئاً دون شيء، وفي وقت دون وقت، فما أنكرتم من هذا في الله تعالى؟ قيل له: «هو»[1] عالم لذاته لا بتعلم، ولا بأن جعله غيره عالماً، وهو عالم لم يزل ولا يزال بكل معلوم، كما أنه لما كان موجوداً لذاته لا

---

(١) غير موجودة في الأصل.

يحتاج إلى فاعل كان موجوداً فيما لم يزل ولايزال، وفارق الواحد «منا»[1] في ذلك.

فصل

وهو حي، لأن أحدنا متى خرج من أن يكون حياً استحال أن يعلم ويقدر، ومتى صار حياً صح ذلك فيه، وأحواله كلها على السلامة. فإذا كان الله تعالى عالماً قادراً فيجب أن يكون حياً لم يزل ولا يزال.

فصل

وهو سميع بصير مدرك للمدركات إذا وجدت، لأنه حي لا آفة به، فيجب أن يكون مختصاً بهذه الصفات إذا وجدت المسموعات والمبصرات والمدركات.

إلزام:

فإن قال: إنما يسمع أحدنا ويدرك بالآلات، فإذا استحالت على الله تعالى فكيف يوصف بذلك؟ قيل له: إنا نحتاج إلى الآلات لأنا لأجل الحياة نسمع ونرى لا بآله كما يفعل لا بآله من حيث كان قادراً لذاته.

فصل

وهو، جل وعز، موجود، لأن المعدوم يتعذر فيه أن يكون له مقدور يصح أن يفعله، كما يستحيل ذلك في القدرة إذا عدمت جسد الواحد فإذاً يجب أن يكون موجوداً لم يزل ولا يزال، ولا يجوز أن يعدم لأنه لو كان محدثاً لاحتاج إلى فاعل ولأدى إلى ما لا نهاية له، فإذا بطل ذلك وجب أن يكون قديماً موجوداً لذاته.

---

(١) غير موجودة في الأصل.

باب على الكلابية

مسألة:

فإن قال: أتقولون إنه عز وجل عالم بعلم وقادر بقدرة، على ما يحكى عن الكلابية[1] وهشام بن الحكم[2] في العلم المحدث؟ قيل له: لا، بل نقول هو عالم، قادر، حي، سميع، بصير، قديم لذاته، لا يحتاج إلى أمر سوى ذاته يصح لأجله أن يستحق لهذه الصفات، ولو كان لا يعلم إلا بعلم لكان محتاجاً في كونه عالماً إلى ذلك كالواحد منا، «و»[3] لو لم يوجد إلا بموجد[4] لكان محتاجاً إلى فاعل، كالواحد منا، وقد ثبت أنه غني من جميع الوجوه ولا تجوز عليه الحاجة، ولهذا نقول: لم يزل عالماً ولا يزال كذلك، ويعلم كل معلوم، ولو كان يعلم بعلم لكان قدر علومه كالواحد منا، ولو كان يجوز عليه العلم لجاز عليه الجهل كالواحد منا، كما لو جاز عليه الحدوث لجاز عليه العدم كالواحد منا. وكل ذلك باطل.

فإن قال: فما الدليل على ما قلتم؟ قيل له: لأنه لو كان يعلم بعلم لكان علمه لا بد من أن يكون موجوداً، لأن المعدوم لا يجوز أن يعلم به العالم من حيث يؤدي إلى أن يعلم الشيء ويجهله على وجه واحد إذا عدم العلم والجهل والمعدوم الموجود، أما أن يكون محدثاً أو قديماً، ولو كان علمه محدثاً لأدى إلى أن يكون

---

(١) فرقة جبرية مشبهة، ويتحدث القاضي عبد الجبار عن آرائها فيقول: «إن كلام الكلابية بمنزلة كسب النجار (الفرقة النجارية)، وطبع أصحاب الطبائع، وتثليث النصارى، في أنه لا يعقل». انظر المغني في أبواب التوحيد والعدل. جـ ٧ ص ١١٠.

(٢) وإليه تنسب فرقة الهشامية، وهم من غلاة الشيعة، فضلاً عن قولهم بالتشبيه. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون. ص ٨٠٥.

(٣) غير موجودة في الأصل.

(٤) في الأصل هنا كلمة: الحال.

أحدثه من قبل أن يعلمه «و»[1] من ليس بعالـم لا يجوز أن يفعل العلـم، وهذا فاسد، ولو كان قديماً لوجب أن يكـون وجوده واجباً يستغني عن موجد وفاعل، وهذا موجب إنه مساو لله في الإلهية، وأن لا يكون الله عز وجل بأن يكون إلهاً أولى من علمه وقدرته القديمين، وفساد ذلك يبين إنه تعالى عالم لذاته وقادر لذاته على ما قلناه.

إلزام:

فإن قال: فهل يجوز في الشاهد عالم لا بعلم؟ قيل له: لا، لأنه لا يجوز إثبات عالم إلا ويجوز أن يجهل، فاحتاج إلى علم، كما لما جاز أن يعدم احتاج إلى فاعل، والله تعالى لما وجب كونه عالماً واستحال الجهل عليه وجب استغناؤه عن علم يعلم به، كما يجب أن يستغني عن فاعل.

إلزام:

فإن قيل: أليس إذا لم يكن لنا علم لم يصح أن نكون عالمين، كما إذا لم يكن لنا فعل لم نكن فاعلين؟ قيل: نعم. فإن قيل: فقولوا مثله في الله تعالى، قيل له: إن وجب هذا وجب أن يكون علمه في قلبه، وأن يكون ذا قلـب وجـوارح كأحدنا، وهذا محال. فأما الفاعل فهو الذي فعل، هذا حده وحقيقته، والحقائق لا تختلف. وحد العالم: من تصح منه الأفعال المحكمة، ثم ننظر، ففيهم من يعلم بعلم، والقديم تعالى يعلم لذاته، كما أن حد الموجود: أن يكون ثابت الذات، ثم ننظر، ففيهم من يوجد بفاعل، وفيهم من يكون موجوداً لذاته قديماً.

ويقال لهم: الواحد منا يعلم مع جواز أن يجهل، ويعلم قدراً دون قدر، ويعلم بعلم مُحدَث، فقولوا في الله تعالى مثله، وإلا بطل قياسكم.

* * *

(١) غير موجودة في الأصل.

الأصل الرابع من التوحيد في ذكر ما لا يجوز عليه تعالى من الصفات

مسألة:

فإن قيل: يجوز على الله تعالى العجز؟ قيل له: لا، لأنه قد ثبت أنه قادر على كل مقدور يصح أن يقدر عليه، حتى لا جنس ولا قدر إلا وهو قادر عليه، فمحال أن يعجز، ولهذا لا يجوز عليه الجهل والموت والآفات، لأنه عالم حي سميع بصير لذاته.

مسألة:

فإن قال: أفيجوز أن يعدم ويفنى؟ قيل له: لا، لأنه موجود لا بموجد، بل هو كذلك لذاته، فهو أبداً موجود، ولم يزل ولا يزال.

مسألة:

فإن قال: والحواس، تجوز عليه كما تجوز على الواحد منا، نحو العين والأذن وغيرهما؟ قيل له: لا، لأنه حي لذاته، وإنما يجوز ذلك علينا لأنا بالحياة الموجودة فينا نحتاج إلى حاسة تكون محلاً للحياة.

مسألة:

فإن قال: أفتقولون: إنه تعالى يرى بعض المرئيات، ويجوز أن يمتنع عليه بعضها، كالواحد منا؟ قيل له: لا، بل يرى كل موجود من المرئيات، ومحال الموانع عليه، لأنها تجوز على الواحد منا من حيث يحتاج إلى الحواس فإنما يرى بها الحاضرات دون الغائبات.

باب على المجسمة

مسألة:

فإن قال: فهلا قلتم: إنه تعالى جسم، كما تقول المجسمة[1] والحشوية[2]، حتى قال بعضهم: إنه على صورة آدم، وأنه خلقه على صورة نفسه، وقال بعضهم: إنه لا يحد عِظَما، وقال بعضهم: هو بشبر نفسه سبعة أشبار، وقال بعضهم: إنه منبث في كل مكان، إلى سائر ما قالوه في ذلك مما يجل تعالى عن ذكره؟ قيل له[3]: إنه لو كان جسماً لوجب أن لا يخلو من دلائل الحدوث، كالقرب والبعد والاجتماع والافتراق، وكان يجب أن يكون مُحدَثاً كهذه الأجسام، وأيضاً فكان يجب أن يحتاج إلى مركب ومصور ومؤلف له كما تحتاج الأجسام إلى ذلك، وإلا فإن جاز أن يكون هو قديماً يستغني عن موجد ومركب ومصور ليجوزن أن يستغني الواحد منا عن الله تعالى، وفي هذا إبطال الصانع، وأيضاً فإن الجسم لا يصح أن يبتدي فيفعل إلا في نفسه، فلو كان تعالى جسماً لما صح أن يخترع الأفعال اختراعاً في العالم على ما نشاهده ونعرفه، وأيضاً فلو كان جسماً لكان إنما نرى ونعلم ما يحصره، وإنما يفعل فيما يقرر منه، ولجاز أن تمتنع عليه الأمور كالواحد منا، وهذا كله باطل.

فإن قال: فهلا وصفتموه بأنه جسم، وإن لم يشبه الأجسام؟ قيل له: لو جاز ذلك لجاز أن يوصف بأنه شخص وأنه جثة، وإن لم يشبه الأشخاص والجثث، ولجاز أن يقال: جسيم سمين، كما يقال به في الشاهد، ويتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ولجاز أن توصف الجوارح، حتى يوصف، يصير به الجسم ذكر ويتميز به من الأنثى، والأكل والشرب وبالحاجة والنقصان والزيادة. وهذا يبين أن هؤلاء كعباد الأصنام.

---

(١) كل الفرق التي قالت بالجسمية في الذات الإلهية، ومنهم فرق: السبائية، والبنانية، والمغيرية، والهشامية.. الخ. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ص ٨٠٥، ٨٠٦، والتعريفات للجرجاني ص ٤٠.

(٢) هم أهل الحشو، الذين قصرت بهم مداركهم عن التنزيه والتجريد للذات الإلهية.

(٣) في الأصل هنا عبارة: من قبل إنه من قبل.

مسألة:

فإن قال: فقد قال الله تعالى ما يدل على أنه جسم، فقال: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[1]، و﴿هو الله في السموات وفي الأرض﴾[2]، و﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾[3]، و﴿قال ما منعك أن لا تسجد لما خلقت بيدي﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات التي فيها ذكر الجنب[5]، والساق[6]، والعين[7]، والوجه[8]، قيل له: إن أول ما ينبغي أن تعلمه، أنه[9] «لا» حق[10] بعد أن تتقدم للإنسان معرفة الله تعالى، ويعلم أنه لا يشبه الأجسام ولا يفعل القبائح، فالاحتجاج به[11] في نصرة الجسمية[12] لا يجوز.

يبين هذا أنه «لو»[13] كان جسماً فالحاجة تجوز عليه، ومن هذا حاله لا يعلم أن قوله حق، فكيف يحتج بكلامه؟ على أنه قد ثبت بالقرآن والإجماع أنه ﴿ليس كمثله شيء﴾، ولا يقول أحد إنا نقول هذا القول على جهة المجاز، فيجب أن نتأول ما ذكر من الآي:

فتأويل قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾[14] أنه استوى واقتدر وملك، ولم يرد تعالى بذلك أنه تمكن على العرش جالساً، وهذا كما يقال في اللغة: استوى البلد للأمير، واستوت هذه المملكة لفلان.

وقال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غيره سيف ودم مهراق

---

(1) طه: ٥.
(2) الأنعام: ٣.
(3) فاطر: ١٠.
(4) ص: ٧٥.
(5) مثل قوله تعالى: ﴿أو تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾ «الزمر: ٥٦».
(6) مثل قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ «القلم: ٤٢».
(7) مثل قوله تعالى: ﴿وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾ «طه: ٣٩».
(8) وهي آيات كثيرة، منها: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ «البقرة: ١١٥».
وكذلك الآيات: البقرة: ٢٧٢، الرعد: ٢٢، الروم: ٣٨، ٣٩، الرحمن: ٢٧، الإنسان: ٩، الليل: ٢٠.
(9) غير موجودة في الأصل.
(10) في الأصل هنا: إلا.
(11) أي السمع.
(12) في الأصل: التسمية.
(13) غير موجودة في الأصل.
(14) الرعد: ٢.

ولم يرد جلوسه، وإنما أراد استيلاءه واستعلاءه. ولولا أن الأمر كما قلنا لم يكن ذلك تمدحاً عظيماً، لأن كلا يصح أن يجلس على سريره وعلى مكانه، وإنما خص العرش بالذكر لأنه أعظم خلقه، فنبه به على أنه على غيره أشد اقتداراً، كما قال: ﴿رب العرش العظيم﴾[1]، ونبه ذلك على أنه بأن يكون رباً لغيره أولى.

وتأويل قوله تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾[2]، إن في السماء نقماته وضروب عقابه، لأن عادته أن ينزلها من هناك، ولهذا قال: ﴿أن يخفس بكم الأرض﴾، فنبه به على ذلك.

وتأويل قوله: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾، إنه عالم بهما، حافظ عليهما، عن التغير والزوال، مدبر لهما، ولهذا قال: ﴿يعلم سركم وجهركم﴾.

وتأويل قوله: ﴿اليه يصعد الكلم الطيب﴾، إنه يرتفع الى حيث لا حاكم سواه، كما يقال في الحادثة: ارتفع أمرها[3] الى الأمير، إذا صار لا يحكم فيها سواه.

وتأويل قوله: ﴿خلقته بيدي﴾، خلقته أنا، فأكد ذلك بذكر اليدين، كما يقال للملوم: هذا ما جنته يداك، وقد يقال: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾[4]، ﴿وبشراً بين يدي رحمته﴾[5]، وقيل: إن فائدة ذلك أنه تعالى خلقه ابتداء، لا تدريجاً، على حسب ما خلق ذريته من نطفة ثم درجه حالاً بعد حال.

وتأويل قوله تعالى: ﴿يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله﴾[6]، في ذات الله وفي طاعة الله، كما يقال: ملك فلان في جنب فلان مالاً، فاكتسب جاهاً.

وتأويل قوله: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾[7]، يعني شدة أهوال يوم القيامة، كما يقال كشفت الحرب لنا عن ساقها.

---

(١) التوبة: ١٢٩.
(٢) الملك: ١٦.
(٣) في الأصل: أمرنا.
(٤) الانفال: ٥١ وفي الأصل الاية مذكورة خطأ هكذا: (ذلك بما كسبت أيديكم).
(٥) الأعراف: ٥٧، الفرقان: ٤٨، النمل: ٦٣.
(٦) الزمر: ٥٦.
(٧) القلم: ٤٢.

وتأويل قوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[1]، وقد عبر عن نفسه بذكر الوجه، فيقال: هذا وجه الرأي، ووجه الأمر، ووجه الطريق، وهذا ظاهر.

وتأويل قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾[2]، لممنوعون من رحمته، لأن الحجاب منع، ولهذا يقال لمن يمنع الوصول إلى الأمير إنه حاجب، وقال أصحاب الفرائض[3]: إن الولد يحجب الأم عن الثلث إلى السدس.

وتأويل قوله تعالى: ﴿وجاء ربك﴾[4]، يعني أمر ربك، كما يقال عند الاختلاف في مسألة نحو: هذا سيبويه قد جاءنا، يعني إلى كتابه ودلائله.

وتأويل قوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾[5]، نعمتاه، كما يقال: لفلان عندي يد، ويدان، وأياد، وأراد الله تعالى بذلك نعم الدنيا والدين، إبطالاً لقول اليهود: إن يده مغلولة، لأنهم أرادوا أنه بخيل يقتر الأرزاق على خلقه، ويبين ذلك أنه تعالى شبه بقوله: ﴿لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾[6]، وإنما أراد أن أنفق قصداً، لا إسرافاً ولا اقتاراً.

وتأويل قوله: ﴿تجري بأعيننا﴾[7]، إنها تجري ونحن بحالها عالمون، فكنى بالأعين عن علمه بأحوالها، كما يقال: هذا بمرىء من فلان ومسمع، ويقال[8] لفلان عين، إذا تحسس الخبر ليعرف، ويقال: لا تفعل ذلك إلا بعلمي، إلى غير ذلك.

وحمله على ظاهره يمتنع لأنه يوجب أن لله عيوناً كثيرة، لا عينين. ويقال لهم: إن جازت الأعضاء على الله تعالى، على ما تعلقتم به فيجب أن يكون بمنزلة الواحد منا، وأن يكون ذكراً أو أنثى، وأن يكون محتاجاً. تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

---

(١) القصص: ٨٨.
(٢) المطففين: ١٥.
(٣) علم المواريث.
(٤) الفجر: ٢٢.
(٥) المائدة: ٦٤.
(٦) الاسراء: ٢٩.
(٧) القمر: ١٤.
(٨) في الأصل: في البدلة.

وما يوردون من أخبار الآحاد يقبل في خلاف ما دل عليه الدليل من أنه لا يشبه الأشياء.

مسألة:

فإن قال: فهل يتصور ما ليس بجسم أو عرض؟ قيل له: إن أردت تصور المشاهدة فلا، وإن أردت تصور الدليل فنعم، لأن الدلالة لما دلت على إثبات حياة قضينا بها وبأنها ضد الموت وإن كانت لا تتصور بالمشاهدة، فكذا إذا عرفنا بالدليل للعالَم صانعاً مدبراً، على ما ذكرناه من الصفات، فيجب أن ننبه لذلك.

مسألة:

فإن قال: إن لم يكن تعالى جسماً فيجب كونه عرضاً، قيل له: إن العرض هو عبارة عن الحوادث المخصوصة، والله تعالى قديم لم يزل ولا يزال موجوداً، فلا يوصف بذلك، كما لا يقال جسم لمَّا لم يكن طويلاً عريضاً عميقاً، لأن هذا حقيقة الجسم.

مسألة:

فإن قال: فجوزوا عليه المكان، قيل له: لا يجوز ذلك، ولأن المكان إنما يجوز على الجسم الذي يجاور مكانه أو على العرض الذي يحل كحلول السواد في الأسود، والله جل وعز يتعالى عن الأمرين فلا يجوز عليه الكون في المكان، وإنما وصف بذلك مجازاً من حيث يدبر الأماكن ويحفظها، فيقال إنه فيها، ويراد تدبيره وحفظه.

مسألة:

فإن قال: فمن أين أنه تعالى لا يحل في الأجسام؟ قيل له: لو حل فيها لكان حادثاً، لأن كل ما يجوز أن يحل فإنما يحل بأن يحدث فقط كالأعراض التي هي الألوان والحركات، والله تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

مسألة:

فإن قال: فهلا جوزتم أن يكون تعالى محتاجاً إلى المآكل وغيرها كالحي

منا؟ قيل له: فائدة الحاجة أن يلتذ المحتاج أو يزيل الضرر عن نفسه، وذلك إنما يصح على من يجوز أن تصلح ذاته وتزداد وتنقص وتضعف، والله تعالى ليس بجسم، فكذلك تستحيل عليه، ولو كان محتاجاً لما صح أن يلزمنا شكره، لأنه لا يجوز أن يفعل للإحسان، لحاجته إليه، كما يصح ذلك في الواحد منا، ويتعالى الله عن ذلك، ولو كان محتاجاً «لصحت»[1] عليه الشهوات واللذات ولوجب أن يكون فاعلاً لما لا يتناهى من الأمور التي تنفع، لأن من لا مضرة عليه في شيء، وله فيه منفعة، لا بد من أن يفعله، وهذا محال.

باب الرؤية

مسألة:

فإن قال: إن الرؤية تجوز على الله تعالى؟ قيل له: الرؤية بالأبصار على الله تستحيل، والرؤية بالمعرفة والعلم تجوز عليه. فإن قال: فما دليلكم[2] على هذا، والخلق لكم مخالفون فيه، فيقولون إنه يرى بالأبصار في الآخرة، ويخص الله تعالى المؤمنين بذلك[3] دون الكافرين[4] ويكون من أعظم منته ونعمه عليهم ولديهم، قيل: الذي يدل عليه قوله تعالى: **﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾**[5] وإدراك البصر «و»[6] رؤية البصر سواء في اللغة لا يختلفان، فإذا صح ذلك فيجب أن نقطع بأنه تعالى لا يرى بالأبصار. فإن قال: فقد قال تعالى: **﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾**[7] ففي هذا إثبات الرؤية، قيل له: لم يقل ناظرة بالبصر، وقد يكون الناظر ناظراً على وجوه، بأن يكون مفكراً ومنتظراً للرحمة وطالباً للرؤية، فهو محتمل إذاً، ولا يترك به ما لا يحتمل[8]، وتأويله: منتظرة لرحمة الله وناظرة إلى ثوابه ونعيمه في الجنة على ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام[9] وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين.

---

(١) في الأصل: لصح.
(٢) في الأصل: دليكم.
(٣) في الأصل: ذلك.
(٤) في الأصل: الكافر.
(٥) الأنعام: ١٠٣.
(٦) غير موجودة في الأصل.
(٧) القيامة: ٢٢.
(٨) في الأصل: محتمل.
(٩) المقصود: علي بن أبي طالب.

إلزام:

فإن قالوا: فقد قال تعالى: ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾[1] وذلك يدل على أنه يجوز أن يرى، قيل «لهم»[2] إن دل على ذلك فيجب أن يدل على جسم في مكان، وذلك بين الفساد، والمراد بذلك أنهم عن رحمته ممنوعون.

إلزام:

فإن قيل: فقد قال تعالى، في قصة موسى: ﴿**رب أرني أنظر اليك**﴾[3] وهذا يدل على أنه، صلى الله عليه جوز الرؤية على الله تعالى، فطلبها، قيل له: إن قوله تعالى: ﴿**لن تراني**﴾ يدل على المنع من ذلك، والمراد بهذا طلب الجواب بالمنع من الرؤية من جهة الله، «لكي»[4] يعرف أصحابه أن ذلك مستحيل عليه تعالى، لأنهم لم يقنعوا بقوله، ولذلك قال تعالى: ﴿**يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم**﴾[5].

إلزام:

فإن قيل: فقد قال، صلى الله عليه، لأصحابه، مبشراً لهم: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة» فهلا دل ذلك على أنه يُرى بالأبصار؟ قيل له: إن القرآن لا يعترض عليه بخبر من يجوز عليه الغلط، وإنما روى هذا الخبر واحد أو عدد لا يعلم صحة ما رووه، ولو صح لكان المراد به أنهم يعلمون في الآخرة، ضرورة، من غير كلفة نظر وتفكر. والرؤية بمعنى العلم في اللغة لهي بمعنى الإدراك بالبصر، ولذلك يقول القائل: رأيت الله تعالى قال كذا أو كذا، وهو ظاهر.

دليل آخر: لو كان تعالى يرى بالبصر لوجب أن يجوز أن يكون في جهة، إما بنفسه وإما بمحله، وذلك مستحيل عليه، يبين ذلك أن الواحد منا كما يحتاج إلى حاسة البصر في الرؤية، فكذا يحتاج إلى أن يكون ما يراه مقابلاً لحاسته، إما بنفسه

---

(1) المطففين: ١٥.
(2) في الأصل: له.
(3) الأعراف: ١٤٣.
(4) في الأصل: لكن.
(5) النساء: ١٥٣.

وإما[1] بمحله، وكذلك متى أراد أن يرى ما لا يقابله يستعين بالمرآة، فتصير مقابلته لها كمقابلته لبصره.

إلزام:

فإن قالوا: إذا كان تعالى قائماً بنفسه، يجب أن يرى كالأجسام، قيل لهم: قد يرى في الشاهد اللون وإن لم يقم بنفسه، فليست العلة فيما يراه ما ذكرتم، والجسم لا يقوم بنفسه في كل وجه ومع ذلك نراه من حيث صح فيه المقابلة، لا لأنه قائم بنفسه. ويقال لهم: إن وجب ما قلتم، فقولوا: إنه تعالى يلمس، لأنه قائم، بنفسه ويتحرك ويسكن لهذه العلة، وهذا باطل.

إلزام:

إن قالوا: إذا لم يره أهل الجنة، فكيف يتكامل سرورهم؟ قيل لهم: إنما يسر أحدنا برؤية من يراه إذا كان يشتهي النظر إلى صورته، فقولوا: إنه تعالى ذو صورة، وممن يشتهى، وهذا كفر من قائله، وإنما يتكامل سرورهم بالنعيم الدائم الذي يديمه لهم من كل وجه.

* * *

(١) في الأصل: فإما.

باب في الكلام على الكلابية

مسألة:

فإن قال: هلا قلتم إنه تعالى لم يزل متكلماً بكلام قديم أزلي أو لذاته كما تقولون إنه عالم لذاته؟ قيل له: إن الكلام فعل من أفعاله تعالى، يحدثه ويخلقه في الأجسام إذا أراد مخاطبة الخلق بالأمر والنهي والوعد والوعيد والزجر والترغيب، وإذا بعث الأنبياء وحملهم الشرائع خاطبهم بكلامه وأصحبهم كتبه ليؤدوا عنه ذلك، وما كان من أفعاله تعالى لا يجوز أن يكون قديماً، كما لا يجوز ذلك في إحسانه وسائر نعمه. فإن قال: فإن الكلابية تخالف في ذلك، فما دليلكم على قولها؟ قيل: أدلة، منها:

إن الكلام لا يعقل ولا يفيد إلا بأن يتوالى حدوث حروفه على نظم مخصوص، وما هذا حاله محال أن يكون قديماً، كما أن المشي لا يعقل إلا بتوالي حدوث الحركات، فمحال قدمها مع ذلك.

إلزام:

إن قالوا: نثبت له كلاماً مخالفاً لما نعقله في الشاهد، فما الذي ينكر من ذلك؟ قيل: إن ما خالف هذا الكلام لا يكون كلاماً، لأنه إذا لم يكن حروفاً وأصواتاً فكيف يصح ذلك فيه؟ ولو جاز فيما خالف هذا الكلام على هذا الحد أن يكون[1] كلاماً لجاز أن يكون تعالى جسماً ولوناً وإن خالف حقيقة الأجسام والألوان.

إلزام:

إن قالوا: إن لم يكن تعالى فيما لم يزل متكلماً، فيجب أن يكون

(١) أي الخالق سبحانه.

(أخرساً)[1] أو ساكتاً كالحي منا. قيل لهم: إذا لم يكن ذا لسان وفم، فغير واجب ذلك فيه، وإنما يجب في الحي منا ذلك لأن لسانه إذا لم يلحقه فساد ولا امتنع به عن الكلام فلا بد أن يكون متكلماً أو صائحاً وصارخاً، كما لو عدم اللسان لكان ماءوفاً[2] ويتعالى الله عن ذلك، فيجب أن لا يكون متكلماً إلا إذا فعل الكلام وأحدثه بحسب المصلحة، ولو جاز ذلك لوجب أن يقال: إذا لم يكن ساكناً فيجب أن يكون متحركاً، لأن الحي (منا)[3] هذا حاله. فإذا قالوا: لا يجب ذلك فيه، لأنه ليس بجسم، فالذي قالوا أيضاً، لا يجب لأنه ليس بذي آلة.

ومنها أنه لو كان متكلماً لم يزل لكان منقوصاً، لأنه تكلم لا ليحفظ ولا ليفهم ويفيد، فهو عابث، والله تعالى لا يجوز عليه النقص، وكيف يصير متكلماً لم يزل وهو لا يستفيد بكلامه ولا يفيد؟!

ومنها أنه لو كان لم يزل متكلماً لم يكن بعض ضروب الكلام بأن تثبت له أولى من بعض، لأنه إذا لم يتعلق كلامه باختياره، وكان من صفات ذاته، فيجب ما قلناه فيه، كما يجب في كونه عالماً، وهذا يوجب إضافة الكذب إليه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والقرآن يدل على ذلك، لأنه تعالى عن ذلك قال: ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾[4] وهذا يوجب أنه بعد غيره، وهذا من علاماته (الحدوث)[5] وقال تعالى: ﴿نزل أحسن الحديث﴾[6] ومن حق الحديث أن يكون مُحدَثاً. وقال تعالى: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾[7] والمفعول لا يكون إلا محدثاً، ووصفه تعالى القرآن بأنه ينتسخ وينسى وبأنه «يبتدأ به ومنه»[8] وبأنه ذكر محدث، وبأنه مفصل محكم

---

(1) في الأصل: أخرس.
(2) هكذا بالأصل، ولعلها من الأفة.
(3) غير موجودة في الأصل. وبدلاً منها كلمة: «الباقي»، وهي تعكس المعنى وتفسده.
(4) الأحقاف: ١٢.
(5) في الأصل: الحدث.
(6) الزمر: ٢٣.
(7) الأحزاب: ٣٧.
(8) رسمها في الأصل هكذا: ص ١١ ـ منه.

موصل، وبأنه عربي، وبأنه سور كثيرة، يدل على أنه فعله، لأن كل ذلك من علامات الحوادث والأفعال.

مسألة:

فإن قال: أفكل كلام الله تعالى محدث؟ قيل له: نعم، لأن ما ذكرناه من الأدلة يوجب في جميع كتبه وكلامه أنه محدث، فهو كإحسانه ونعمه، لأنه من النعم في الحقيقة، لأنه إذا أمر ونهى وهدى وأرشد، فقد أجزل النعم.

مسألة:

فإن قيل: أفتقولون: إنه مخلوق؟ قيل له: إن المخلوق هو المقدور من الأفعال، وكما يجب أن تصف السموات والأرضين وسائر أفعاله تعالى بأنها مخلوقة، فكذلك القول في كلامه، لأنه قدره بحسب الحاجة والمصلحة، وقد روي في الخبر ما يدل (على ذلك)[1] وهو أنه صلى الله عليه قال: «كان الله ولا شيء، ثم خلق الذكر وما خلق الله من سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي». وكل ذلك بين.

* * *

(١) مكررة في الأصل.

باب الإرادة

مسألة:

إن قال: هلا قلتم إنه تعالى مريد لم يزل لنفسه، كما يقوله ضرار[1] والنجار[2]، وأنه مريد بإرادة محدثة يفعلها؟ قيل له: إن الدليل الذي دل على أنه مريد هو الذي يدل على أن إرادته فعله، لأنا نعلمه مريداً من حيث خاطب وأمر وأخبر، وقد ثبت أن ما هو خبر واحد يجوز أن يكون خبراً عن غيره، وقوله تعالى: ﴿محمد رسول الله﴾[3] إنما يكون خبراً عن محمد بن عبد الله، عليه السلام، دون غيره، من حيث أراد تعالى ذلك، وهذه الإرادة يجب أن تحدث في حال حدوث الخبر وإلا لم يكن بأن يوجب كونه خبراً عن واحد بأولى من أن يكون خبراً عن جماعة.

إلزام:

إن قال: إنما يريد بأنه (مريد)[4] أنه لا يجوز عليه السهو والغفلة، قيل له: ليس هذا معنى المريد، لأن المريد هو القاصد إلى الفعل والمختار له على غيره،

---

(١) هو ضرار بن عمرو، عاش في أواخر القرن الثاني الهجري وبدايات الثالث، وكان معاصراً لزعيم المعتزلة واصل بن عطاء، وتنسب إلى «ضرار» فرقة «الضرارية» وهم الذين قالوا بالجبر، وينسب إلى ضرار كذلك القول بنفي عذاب القبر. ولقد رد «بشر بن معتمر» على «ضرار» هذا بكتاب أسماه (كتاب الرد على ضرار). انظر: تعليقات د. نيبرج على كتاب (الانتصار) للخياط. ص ١٨٥.

(٢) هو الحسين بن محمد النجار (توفي سنة ٢٣٠ هـ)، وإليه تنسب فرقة «النجارية»، وهم مجبرة قالوا: «إن أعمال العباد مخلوقة لله، وهم فاعلون لها، وأنه لا يكون في ملك الله سبحانه إلا ما يريده» ولقد وافقوا المعتزلة في مسائل: الصفات، وخلق القرآن، ونفي الرؤية. انظر: مقالات الإسلاميين. جـ ١ ص ٢٨٣، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين. ص ٦٨، وكشاف اصطلاحات الفنون. ص ١٨٨٢، ١٨٨٣.

(٣) الفتح: ٢٩.

(٤) في الأصل: مريداً.

وقد يعلم أحدنا الشيء ولا يريده، وقد يعلمه ويريده، فما ذكرته غلط.

مسألة:

والذي يدل على أنه ليس بمريد لذاته، إنه كان يجب أن يكون حاله في كونه مريداً كحاله في أنه عالم، فكان يجب أن يريد كل مراد كما يعلم كل معلوم، فيريد أن يحدث كل ما نريده نحن ونتمناه، وهذا خطأ، وكان يجب أن يريد ما لا يتناهى من النعم من حيث صح كونها مراده، وكان لا يريد بأن نريد تحريك الجسم بأولى من أن يريد تسكينه، بل كان لا يكون بأن يكره الشيء أولى من أن يريده، لأنه كما يصح أن يكره ولذلك ينهى ويزجر كما يأمر ويرغب، ولهذا نعلم أنه لا يكون مريداً لم يزل بإرادة قديمة كما لا يكون عالماً لم يزل بعلم قديم، وقد دللت على فساد ذلك من قبل.

مسألة:

فإن قال: فما الذي يريده تعالى؟ قيل له: إنه يريد كل مراد من أفعال عباده، فإنما يريد منها ما أمر وحث عليه دون المعاصي والمباحات. فإن قال: فما الدليل على ذلك، والجبرية تخالفكم فيه؟ قيل له: لأنه قد نهى عن المعاصي، فلا يجوز أن يكون مريداً لها، وقد ثبت أنه ساخطلها وعلى فاعلها فلا يجوز أن يريدها، كما لا يجوز أن يحبها.

إلزام:

قالوا: لو حدثت المعاصي، وهو غير مريد لها، لوجب أن يكون مغلوباً ضعيفاً، لأن من وقع في ملكه وسلطانه ما لا يريده يجب ذلك. قيل (لهم)[1]: أليس يقع ذلك من العباد، وهو ناه عنه زاجر عن فعله ساخطله غير راض به ذام له غير مادح، ولا يوجب كونه مغلوباً؟ فكذلك لا يجب ما ذكرته. وإذا لم يكن فيه تعالى محبة للمعاصي لهذه الدلالة، فكذا لا يجب أن يكون بفعلهم الطاعة قوياً غالباً فكذلك لا يجب لمعصيتهم أن يكون مغلوباً ضعيفاً، وإذا لم يكن يجب من

---

(١) في الأصل: له.

حيث أمرنا بما لم يرده أن يكون أمراً لغلبته فكـذا لا يجب بفعلهم المعاصي أن يكون ضعيفاً.

مسألة:

إن قالوا: فلا تكون إرادته نافذة إن صح أن (يريد)[1] الإيمان من الكافر ولا يفعله، قيل (لهم)[2]: إن الإرادة لا يقع بها الفعل، فلا يمتنع أن يريد تعالى ما لا يفعله العبد لسوء اختياره، ولا إرادة الله تعالى موجبة لأفعال العبد، فلا يمتنع أن لا يقع مراده منهم، كما قلناه في أمره وترغيبه ومحبته ورضاه. ثم يقال لهم: إذا كان تعالى قد بعث الأنبياء (ليريد)[3] الطاعات وألزمنا أن نريدها دون المعاصي، فكيف يريد هو المعاصي فيخالف ما أمر به؟ فإذا كانت إرادته موجبة، فكيف يأمر بما أراد خلافه؟ وهل ذلك إلا عبث؟ أو إذا نهى إبليس عن إرادة الكفر من الكفار فكيف يريد هو ذلك منهم؟ وإذا لم يكن تعالى أهلاً لأن يعصى وتكفر نعمته، فكيف يريد ذلك؟ وإذا كان من حقه عليهم أن (يشكروه)[4] فكيف يريد منهم الكفر؟ والقرآن يدل على ما قلناه لأنه قال تعالى: ﴿وما الله يريـد ظلماً للعباد﴾[5]، و﴿ظلماً للعالمين﴾[6] كما قال: ﴿والله لا يحب الفساد﴾[7]، و﴿لا يأمر بالفحشاء﴾[8].

* * *

(١) في الأصل: يريده.
(٢) في الأصل: له.
(٣) في الأصل: ليردد.
(٤) في الأصل: يشكره.
(٥) غافر: ٣١.
(٦) آل عمران: ١٠٨.
(٧) البقرة: ٢٠٥. والآية مذكورة في الأصل خطأ هكذا: (إن الله يحب الفساد).
(٨) الأعراف: ٢٨.

الأصل الخامس من التوحيد

مسألة:

فإن قالـوا: فبينوا أن الله تعالـى واحد، لا كما قالته الثنويـة[1] في إثبات قديمين، ولا ما قالته النصارى في التثليث، قيل (لهم)[2] لو كان مع الله تعالى ثان، لم يخل من أن يكون غير واحد، وهذا لا يصح لأنه يجب إذا كان قديماً أن يكون مثلاً له، فإذا كان قادراً لذاته فكذلك الثاني لو كان معه، وهذا يبطل القول بأن معه ثانياً عاجزاً، أو يكون قادراً، ولو كان كذلك لوجب إذا أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته أن لا يكون (فعل)[3] أحدهما بالـوجود أولـى من فعل الآخر، (و)[4] هذا يوجب إما أن لا يوجد مرادهما جميعاً، وفي ذلك إيجاب ضعفهما، أو أن يوجد مراد أحدهما دون الآخر، وذلك يدل على ضعفه وعلى أنه ليس بقديم مع الله، فإذاً لم يجب أن يكون تعالى إلا واحداً، وهذا معنى قوله تعالى: **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾**[5] لأنه كان لا يمتنع أن يريد أحدهما تسكينهما ودوران الفلك فيهما علـى هذا الحد، ويريـد الآخر ضد ذلك، فيقع الفساد ويـزول الصلاح.

مسألة:

فإن قالوا: فكيف يقع الخير ممن يقع (منه)[6] الشر، والآلام ممن يقع منه

---

(١) هم القائلون بإلهين: النور والظلمة، ومن فرقهم: المزدقية، والديصائية، والمرقونية، والماهانية، والصيامية، والمقلاصية. والثنوية هم المانوية. . انظر نقض القاضي عبد الجبار لمذهبهم في المغني في أبواب التوحيد والعدل جـ ٥ ص ٩ ـ ٧٠.

(٢) في الأصل: له.

(٣) مكررة في الأصل.

(٤) غير موجودة في الأصل.

(٥) الأنبياء: ٢٢.

(٦) غير موجودة في الاصل.

(اللذة)[1] قيل (لهم): اختلاف الفعل لا يوجب اختلاف الفاعل، ولهذا يجوز من أحدنا أن يفعل الحركة والسكون والضر والنفع، فلا يمتنع أن يقع من الله تعالى الأفعال المختلفة إذا كانت كلها صواباً وحكمة، والآلام قد تكون حكمة إذا أعقبت منفعة عظيمة، فلا يمتنع أن يفعلها تعالى للمصلحة، فأما الشر فهو الضر القبيح، والله تعالى لا يفعله، وإنما يقع من عباده ذلك بسوء اختيارهم.

مسألة:

فإن قالوا: لو جاز وقوع اللذة والآلام من واحد، لجاز أن يتحرك الشيء ويسكن بمعنى واحد، قيل: [2] الفرق بينهما أن الحركة موجبة، فلا يصح أن توجبه في السكون، والفاعل يفعل باختيار، فلا يمتنع فيه أن يفعل الشيء وضده.

مسألة:

فأما النصارى، فقولهم يتناقض، لأنهم يقولون، في الإلـه: إنه واحد في الحقيقة، ثلاثة في الحقيقة، وهذا محال، لأن كونه واحداً يقتضي أن لا ثاني له، فكيف يصح أن يكون مع ذلك ثلاثة؟!

مسألة:

ويقال لهم: إن عيسى إذا كان شخصاً ماثلاً يأكل ويشرب كالواحد منا، فكيف يجوز أن يقال بالهيته وبأنه يعبد؟! فإن قالوا: لأن الأفعال بإلهيته ظهرت على يده، كإحياء الموتى، قيل (لهم)[3]: إن الله تعالى فعلها عند طلبه، فلا يدل على ما قلتم، ولو دل على ذلك لوجب في سائر الأنبياء أن (يكونوا)[4] آلهة.

مسألة على الثنوية:

يقال لهم: إذا كان النور جسماً رقيقاً، وكذلك الظلمة، فكيف يصح القول بقدمهما؟ وقد ثبت بالدليل حدوث سائر الأجسام، وما دل على ذلك فيها يدل على حدوث هذين؟

---

(١) في الأصل: الفساد.
(٢) في الأصل هنا: و.
(٣) في الأصل: له.
(٤) في الأصل: يكون.

مسألة على المجوس[1]:

يقال لهم، في إثباتهم الشيطان ضد الله، ومناوئاً له: فلم قلتم ذلك؟ قالوا: لأن ما في العالم من الشر والمحن لا بد من أن يكون لها فاعل، فإذا لم يجز أن يكون الله تعالى فاعلها، فلا بد من شرير تضاف إليه. قيل لهم: إن جاز أن يخلق أصل كل شر، فهلا جاز إضافة الشرور إليـه؟! لأن عندهم أن يجب بطبعه لا باختياره، وإنما لا يلزمنا ذلك لأن عندنا أن الله تعالى لم يطبع إبليس على الشر، وإنما «اختار»[2] هو المعصية والشر، فهو الملوم دون الله. فإن قالوا: إبليس قديم، قيل لهم: فيجب أن يكون ثانياً لله، وقد بينا فساد ذلك من حيث يؤدي إلى الفساد والتمانع. وإن قالوا: هو محدث ولا محدث له، قيل لهم: فيجب أن يكون ثانياً لله تعالـى أيضاً وقد يتنافسا، وذلك والتمانع «شيء واحد»[3] انقضى الكـلام في التوحيد.

* * *

---

(١) المجوس هم الزرادشتيون، أتباع «زرادشت» وبدلاً من قول «الثنوية» بالنور والظلمة، يقول المجوس بالله (هرمز) خالق الخير، والشيطان (أهرمن) خالق الشر، ويقولون بقدمهما. ومنهم من يقول هما جسمان، ومنهم من يقول بغير ذلك. المغني في أبواب التوحيد والعدل. جـ ٥ ص ٧١، ٧٢.

(٢) في الأصل: اختيار.

(٣) مكانها بياض في الاصل.

باب الكلام في العدل

فإن قال: بينوا لي جملة ما يلزم معرفته في العدل؟ قيل له: مُعتَمدة، هو أن الله تعالى لا يفعل القبيح، ولا يختار إلا الحكمة والصواب.. ولهذا مقدمات يجب أن تعرف أولاً، منها:

* أن الأفعال معقولة في الشاهد.
* ومنها تميز فعلنا عن فعله تعالى.
* ومنها تمييز الحسن منْ القبيح وضروبه.
* ومنها أن القبيح لا يجوز أن يقع من فاعل دون فاعل.

وله فروع تتصل به من بعد، ومنها:

* أن أفعال العباد حادثة من قِبَلهم، وليس من خلقه تعالى.
* ومنها أنه لا يكلفهم إلا ما يطيقون.
* وأن قدرتهم متقدمة لما يفعلون.
* ومنها أنه تعالى لا يعاقب من لا ذنب له، ولا بذنب غيره، وأن الطفل لا يعذب وإن كان أبواه كافرين.
* ومنها أنه لا يريد القبيح ولا يحبه ولا يرضاه ولا يشاؤه، بل يكرهه ويسخطه.
* ومنها أنه لا بد أن يزيح العلل في التكليف.

ونحن نبين ذلك أجمع، ثم نذكر الكلام في النبوات وغيرها، بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

مسألة:

فإن قال: فبينوا لي الفعل وحقيقته، ليصح أن نتكلم في أحكامه، وقبحه،

وحسنه، قيل له: الفعل هو ما يحدث من القادر، فكل ما يحدث من جهة القادر يقال هو فعله، وهذا معقول في الشاهد، لأنا نجد الكتابة تحدث من الكـاتب، فيقال إنها فعله، ولا يقال في الأشخاص إنها فعل الكاتب لما لم تحدث من جهته.

فإذا علمنا أن الأجسام محدثة من قبل الله تعالى، قلنا: إنها فعله، وكذلك يقال في سائر الأعراض التي يخلقها الله تعالى.

مسألة:

فإن قال: فبماذا يتميز ما يفعله أحدنا مما يفعله تعالى؟ وكيف نعلم الفعل فعلاً لزيـد دون عمر؟ قيـل له: ما يقع بحسب «قصد»[1] العباد[2] وإرادتهم وشهواتهم، وبحسب قدرهم وعلومهم و«بحسب»[3] جهلهم وسهوهم كالكتابة والصيـاغة والمشي والقيـام فهو فعلهم، وما يتعذر عليهم، أو لم يقع بحسب أحوالهم فهو من فعل الله تعالى. فالأجسام والألوان والطعوم والروائح والتصوير، وغير ذلك، وكل ما يثبت أنه قبيح، يعلم أنه من فعل العباد، لأنه تعالى لا يفعل إلا الحسن، وكل ما يثبت أنه من فعله تعالى فيجب أن يكون حكمة وصواباً.

مسألة:

فإن قال: وبماذا يتميز القبيح من الحسن، قيل له: إن العاقل يعلم أن الظلم قبيح، وكفر النعمة، والجهل بالله تعالى وعبادة غيره. ونعلم أن الإحسان حسن، وشكر النعمة، والأكل والشرب، إذا لم يفد المضرة. ونعلم أن رد الوديعة وقضاء الدين وشكر النعمة واجب، والصدقة مرغوب فيها.

مسألة:

فإن قال: فما معنى القبيح؟ قيل: معناه إنه مما يستحق به الذم من الأفعال، لأن الأفعال على ضربين: أحدهما يستحق به الذم، والآخر لا يصح ذلك فيـه. فوصف الأول بأنه قبيح والثاني بأنه حسن إذا فعله المميز بينهما.

---

(١) في الأصل: يقصد.

(٢) في الأصل: بحسل.

(٣) في الأصل هنا: «ما».

مسألة:

فإن قال: فما معنى الواجب؟ قيل: هو الذي يستحق العالم به الذم بأن لا يفعله، والواجب بأن يفعله، ولهذا يجب عليه فعل الواجب وأن لا يفعل القبيح. فأما المرغّب فيه فالعاقل يستحق المدح بفعله، فإذا لم يفعله لم يستحق الذم. فأما المباح: بفعله كأن لا يفعل في أنه لا يستحق به الذم والمدح.

مسألة:

فإن قال: فلماذا يقبح القبيح؟ قيل له: لأنه ظلم أو كذب أو كفر نعمة، لأن العاقل متى علم في العقل أنه هكذا علمه قبيحاً فلذلك يقبح من كل أحد إذا فعله على الصفة، فالواجب إنما يجب لأنه رد الوديعة أو لأنه إنصاف، فمتى علم العالم علمه واجباً فلهذا قلنا: إن معرفة الله واجب، وكذلك معرفة الرسل، والشرائع، والصلوات، والصيام، لأن الله جل وعز قرر في عقولنا أن علينا في تركها مضرة من حيث كانت مصلحة.

* * *

باب
في الدلالة على أن الله تعالى لا يفعل القبائح

مسألة:

فإن قال: فما دليلكم على أنه تعالى لا يفعل القبيح، وقد خالفكم في هذا الجهمية والمجبرة، فزعموا أن كل الأفعال من قبل الله تعالى ومن خلقه وأن العبد لا يفعل في الحقيقة شيئاً حتى قال «جهم» إن الفعل يضاف إليه كما يضاف إليه الموت والحياة، وزعموا أن من قال: إن العبد يفعل فقد جعل «لله»[1] شريكاً فيما خلق؟ قيل له: دليلنا على هذا «أن»[2] الله جل ذكره عالم بقبح كل قبيح، وعالم أنه لا حاجة به إلى فعل القبائح بل هو غني عنها، ومن هذه صفته لا يختار القبيح.

مسألة:

فإن قال: ومن أين أنه عالم بما ذكرتم؟ قيل له: لأنه عالم لذاته، ومن حق العالم لذاته أن يعلم كل معلوم، وإنما يعلم أحدنا شيئاً دون شيء لأنه يعلم بعلم محدث يحدث، فحسب ما يحدث فيه يعلم.

مسألة:

فإن قال: فمن أين أنه غني لا يحتاج؟ قيل له: لأن المحتاج إنما يحتاج إلى أن ينال ما يشتهيه ويلتذ به، فإنما يلتذ الملتذ بما تصح عليه ذاته وتزداد ـ وهذا من صفة الأجسام ـ فيجب أن تستحيل عليه الشهوة، فإذا استحالت استحالت اللذة، فإذا استحالت استحالت المنفعة، فإذا استحالت استحالت الحاجة. وكل حي ليس بمحتاج فيجب كونه غنياً.

---

(١) في الأصل: الله.

(٢) غير موجودة في الأصل.

مسألة:

فإن قال: ولم إذا كان عالماً غنياً، لا يختار القبيح؟ قيل له: لأن القبيح قبحه يدعو إلى أن لا يُفعل، فإنما يفعله بقبحه لحاجة تتحقق أو تبعد، فإنا علمنا أنه تعالى ليس كذلك، فيجب أن لا يختاره. ألا ترى أن المحتاج منا إلى درهم أمكنه أن يصل إليه بالصدق والعدل لم يختر في التوصل إليه الظلم والكذب، وإنما يكذب الناس ويظلمون لحاجة أو لتقدير حاجة أو لجهل، على ما نعلمه من حال السراق وقطاع الطرق، ولذلك لا يجوز من الواحد منا أن يفعل القبيح مع الغني والمعرفة، ولا فرق بين من جوز هذا وبين من جوز أن يفعل أحدنا التشويه بنفسه وتعليق العظام على رقبته وخلاعته من غير حاجة. وبطلان ذلك ظاهر.

مسألة:

فإن قال: فهل يصح ممن خالفكم، مع هذا القول، أن يعرف الحق ويميزه من الباطل؟ قيل له: إن من جوز أن يفعل الله القبائح لزمه أن يجوز أن يفعل الكذب ويبعث الكذابين «للإضلال»[1]، ويأمر بالقبيح، وهذه تؤدي إلى الشك في القرآن وإلى أن يجوز في محمد، صلوات الله عليه، أنه كذاب، فإن كان تعالى أظهر عليه الأعلام[2]، لأنه إذا جاز أن يضل فما الذي يمنع أن يرسل من يدعو إلى الضلال، وتؤدي إلى أن يجوز أن يكون الله قد أمر بكفر نعمه وعبادة غيره كثيراً ممن تقدم من الأمم، وكل «قول»[3] أدى إلى هذا فهو كفر. لا يصح معه إيمان ودين.

إلزام:

فإن قالوا: إنه تعالى يفعل القبيح، ويكون حسناً منه، ويمدح عليه، فيجوز أن يختاره مع علمه بقبحه وغناه عنه، قيل «لهم»[4] إن الظلم ممن وقع «منه، يقبح»[5] ويستحق الذم ويصير به منقوصاً، فلو جوزنا في الله جل وعز خلافه جوزنا

---

(١) في الأصل: الاضلال.

(٢) أي المعجزات.

(٣) في الأصل: قوم.

(٤) في الأصل: له.

(٥) في الأصل: يقبح منه.

«أن يفعل الخبر الذي ليس بخبره على ما تناوله»[1] ولا يكون كاذباً، ويفعل السفه ويكون حكيماً، على خلاف ما نعقله في الشاهد، وهذا يؤدي إلى نقض الحقائق.

إلزام:

فإن قالوا: له أن يفعل في ملكه ما يشاء ولا يقبح منه، قيل «لهم»[2]: أليس أحدنا قد يفعل في ملكه ما يقبح بأن كان يقتل عبده ويضربه لا لذنب؟، فيجب لو فعل تعالى تعذيب الأطفال أن يكون قبيحاً وظلماً ومحال أن يقال في الظلم أن ليس له أن يفعله كما يحال أن يقال في العدل ليس له أن يفعله، لأن في ذلك قلب الحقائق.

* * *

(١) هكذا في الأصل، والعبارة غامضة.
(٢) في الأصل: له.

باب خلق الأفعال

فإن قال: أتقولون في أفعال العباد، إن الله جل وعز لم يخلقها؟ قيل له: نعم، بل هي من جهتهم واقعة حادثة، والدليل على ذلك ما سلف من أنها تقع بحسب قصدهم وعلومهم وقُدَرهم، فلو أراد أحدنا البناء لم تقع الكتابة، ولو جهل الكتابة لم يصح أن تقع، ولو أراد حمل الجبال لم يقع، ولو كان من فعل غيره فيه لكان جهله وعلمه وقلة قدرته وكثرتها بمنزلة واحدة، وهذا يدل على أن أفعالهم حادثة من قبلهم.

وأيضاً فلأنهم يمدحون على الحسن من فعلهم، وعلى القبيح يذمون، فيلزمنا أن نمدح من يفعل الواجب ونذم من يفعل الظلم والسرقة، ولا يحسن منا مدح أحد على كونه وهيئته ولا ذمه على طوله و«صورته»[1] وذلك من أدل الدلالة على أن هذه الأفعال من جهته.

وأيضاً نحتاج في هذه الأفعال إلى آلات وقُدر وارتفاع الحواجز، لأنه إذا أراد الرمي والإصابة فلا بد له من قوس وآلة وأن لا يكون بينه وبين المرمى حاجز، وأن يكون عالماً، وأن يكون قوياً ليبلغ الرمي بشدة اعتماده، ولو كان من فعل الله تعالى لما احتاج إلى ذلك لأنه تعالى فيما يفعله لا يحتاج إلى هذه الأمور، تعالى الله عن ذلك.

وأيضاً فلأن فاعل «ذلك»[2] مذموم ناقص سخيف في العقول ظالم، فإن كان تعالى هو الفاعل لكل ظلم لوجب ذمه وأن يوصف بأنه ظالم، وهذا كفر من قائله، لأن الأمة بأسرها تقول إن من وصف الله بأنه ظالم فقد كفر، لا بالقول لكن

(١) في الأصل: حركته.

(٢) غير موجودة في الأصل.

بالمعنى، ومعناه أنه فعل الظلم. فمن قال ذلك فهو كافر إذاً.

وأيضاً فلو كانت هذه الأفاعيل الله خلقها، لبطل الأمر والنهي وبعثه الأنبياء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقبحت المساءلة والمحاسبة والمعاقبة، لأنه تعالى لا يجوز أن يأمر «بما لا يفعله»[1] وينهي عما «خلقه»[2]. والنبي كيف يدعو الكفار إلى العدول عن الكفر إلى الإيمان والله تعالى هو الخالق للكفر فيهم والمانع لهم عن الإيمان؟! ومن يأمر بالمعروف كيف يأمر به والمعروف ليس من فعله؟! وكيف ينكر المنكر وإنما خلقه فيه؟ ولماذا نجاهد الأعداء والله خلقهم لذلك؟! وكيف يحسن من الله تعالى المساءلة والمحاسبة وجميع ما وقع من الأفعال هو الذي خلقه؟! وهذا سخف من قائله.

إلزام:

فإن قالوا: العبد يكتسب القيام، والله يخلقه «فيه»[3] عند «ذلك»[4] من كل وجه، «قيل»: لئن جاز ذلك ليجوزن أن يكتسب طوله ولونه. فإن قال: وقع قيامه باختياره، قيل له: اختياره أيضاً الله خلقه من كل وجه فكأنه منه، الاختيار والقيام جميعاً، فأي فعل له؟! وكيف يكون فاعلاً إذا خلق فيه أحدهما؟ ومن قال لأنه خلقه قادراً، قيل له: ماذا يقدر والقيام الله خلقه من كل وجه، وكذلك القدرة؟ فما الفرق بين أن يقال: القيام فعله وبين أن يقال: القدرة فعله؟ ثم يقال لهم: إن الكسب معناه أنه فَعَل ما قصد به نفعاً ودفع مضرة، فإن لم يكن له فعل فكيف يصح أن يكتسب؟ ثم يقال لهم: إن كان هناك كسب فليس الله تعالى أوجبه فيه بقدرة لا يمكن العبد «أن ينفك»[5] منها، فكيف يصح مع ذلك أن يُمدح ويُذم؟! ولئن جاز ذلك ليجوزن فيمن يُضرب ويوجَب في الألم بالضرب أن يُذم على ذلك، وهذا من الفساد.

---

(١) في الأصل: بما يفعله.
(٢) في الأصل: لحقه.
(٣) في الأصل: منه.
(٤) غير موجودة في الأصل.
(٥) رسمها في الأصل: أن ينفل.

إلزام:

إن قالوا: إن فَعَلَ العبد كما يفعل الله فيجب أن يكون شريكاً لله، قيل «لهم»[1]: يلزمكم أن لا يكون العبد قادراً أصلاً ولا عالماً ولا حياً لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون مثلاً لله فلو جاز ذلك فهلا جاز أن يكون فاعلاً ولا تكون هناك شركة؟ ثم يقال لهم: إن كان الفعل الواحد يفعله «الله» والعبد من غير تمييز فيجب أن يكون شريكاً لله، وهذا كفر.

إلزام:

فإن قالوا: أليس الإيمان «لله»[2] وكذلك الدين وسائر الطاعات، فكيف يضاف ذلك إلى الله ولم يخلقه؟ بل هو من فعل العبد؟ قيل «لهم»[3] يضاف إليه تعالى لأنه أمر به وأعان عليه ولطف، كما يضاف أدب الولد إلى أبيه من حيث أدبه وهذبه وعلمه، فأما المعاصي فلا تضاف إلى الله لأنه نهى عنها و«كره»[4] فعلها وتوعد عليها بالعذاب، كما لا يضاف فساد الولد إلى الوالد مع اجتهاده في تأديبه. ثم يقال لهم: على قولكم يجب أن تضاف المعاصي إلى الله تعالى، فيقال: إنها من قبله لأنه فعلها كما فعل الطاعات، وقد «تبين»[5] خلافه، لأنه تعالى نفى ذلك فقال: ﴿كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾[6]، وقال: ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[7]، ونسب ذلك إلى الشيطان بقوله في ﴿الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾[8]، وقال: ﴿هذا من عمل الشيطان﴾[9]، وعلى قولكم يجب أن يضاف إلى الله تعالى، وكيف يوصف العبد بأنه يفعل ويعمل ويصنع ويكتسب ويخطىء ويصيب ويحيي ويخترع، وكل ذلك من فعل الله تعالى، وهذا سخف من قائله.

---

(١) في الأصل: له.
(٢) في الأصل: الله.
(٣) في الأصل: له.
(٤) في الأصل: ذكر.
(٥) في الأصل: بين.
(٦) البقرة: ١٠٩.
(٧) آل عمران: ٧٨.
(٨) المائدة: ٩٠.
(٩) القصص: ١٥.

إلزام:

فإن قالوا: أليس الله جل وعز قدر الخير والشر وفعلهما، ويجب الرضا بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، فهلا دل ذلك على أن هذه الأفعال من الله تعالى؟ قيل لهم[1]: المراد بذلك مخالفة الثنوية[2] والمجوس، لأنهم زعموا أن الآلام والمضار والخِلَق القبيحة في المنظر ليست[3] من فعل الله، وهي من فعل الظلمة، وسموا ذلك شراً، وإنما يفعل اللذات والمنافع التي يسمونها خيراً، فوجب التبري من قولهم هذا بأن يضاف الخير والشر من قضائه وقدره إليه على ما أطلقه المسلمون وروي في الآثار، وليس المراد بهذا الشر إلا الأمراض وما شاكلها لأن ذلك أجمع منه تعالى، يفعله لمصالح الخلق فيكون نعماً في الدين ويكون أنفع للعبد من الصحة والسلامة، إذ نفع[4] الدين أعظم من نفع الدنيا، وليس المراد بذلك فعل الزنا والسرقة والظلم والفواحش لأن ذلك لو وجب الرضى به لصح أن يخصه بعينه ويقول: إنا نرضى بالزنا والفواحش، ونقول: إن ذلك من قضاء الله، فلا بد من الرضى به، وذلك كفر من قائله.

مسألة:

فإن قال: فما الشر في الحقيقة، وما الخير؟ قيل له: الخير هو النفع الحسن، وكل أفعال الله تعالى في دار التكليف هذا حاله، والشر هو الضرر القبيح، ويتعالى الله عن فعله، لأنه لو فعله لكان من الأشرار ولكان شريراً إذا أكثر من ذلك، وهذا كفر من قائله. وكذلك الفساد لو كان من فعله تعالى ليس بشر وفساد بل هو حكمة وإن لم يؤلم ويشق لما يؤدي إليه من النفع العظيم وما يفعله الله تعالى من المضار يسمى بهذين الاسمين على جهة المجاز، لما ذكرنا.

مسألة:

ثم يقال لهم: إن كانت[5] كل القبائح والفواحش من خلق الله تعالى، وما

---

(١) في الأصل: له.
(٢) في الأصل: الثنوة.
(٣) في الأصل: ليس.
(٤) في الأصل: لأنفع.
(٥) في الأصل: كان.

خلقه فقد قضاه وقدّره من وجه، فيجب الرضى إذاً بذلك، وهذا كفر، وإن لم يجب الرضى به ففي ذلك دلالة على أنه ليس من قضاء الله تعالى، لأن من دين المسلمين أن الرضى بقضاء الله واجب، وإذا لم يكن من قضائه فليس من خلقه، بل هو من فعل العباد.

إلزام:

قالوا: فما تقولون أنتم في هذا وليس يلزمكم الرضى بما قضاه الله وعندكم أن أفعال العباد من قضائه؟ قيل لهم[1]: إن قضاء الله تعالى، على الإطلاق، هو ما خلقه وقدره وأوجده وأوقعه، وهو الذي أراده بقوله ﴿**فقضاهن سبع سموات في يومين**﴾[2]، فأما ما أقدر العبد عليه، وأمر به ونهى عنه، ينظر فيه: فقد يقال في الواجبات من قضاء الله، من حيث أوجب قطعاً، فشبهت بما يخلقه تعالى لا محالة، ويلزمنا الرضى بذلك، كما قال تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾[3]، وقد يقال في سائر أفعال العبد إنها من قضاء الله، بمعنى أنه أخبر عنها ودلنا عليها، فهذا مجاز، لأن قضاءه هو الخير والدلالة دون الفعل، لما ذكرناه من أنه لو كان من قضائه خلقاً وفعلاً لارتفع الحمد والذم ولوجب الرضى بما يفعله تعالى من الأمراض والأسقام، وهذا كفر.

إلزام:

فإن قالوا: فقد قال تعالى: ﴿**فإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله**﴾[4]، فكيف يصح مع هذا قولكم؟ قيل لهم[5]: إن القوم كانوا يقولون عند نزول القحط والمحن بهم: إن هذا لشؤم محمد، صلى الله عليه وآله، حاشاه من ذلك، كما يقولون عند نزول الرخاء وتجدد النعم: إن المعاصي والكفر من محمد، صلوات الله عليه، فالمراد ما قلناه، وبين الله تعالى بقوله من بعد: ﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾[6] فبين أن القتل والفواحش من الإنسان لا من الله تعالى.

---

(١) في الأصل: له.
(٢) فصلت: ١٢.
(٣) الاسراء: ٢٣.
(٤) النساء: ٧٨.
(٥) في الاصل: له.
(٦) النساء: ٧٩.

إلزام:

فإن قالوا: فلم يقال في الطاعات والحسنات إنها من الله تعالى إن لم يكن خلقها؟ قيل لهم[1]: تضاف إليه من حيث أمر بها وأعان عليها ولطف فيها، كما يضاف صلاح الولد إلى أبيه إذا كان بذل الجهد في تهذيبه وتأديبه، فأما المعاصي فمع نهيه عنها وزجره عن فعلها وتوعده عليها فلا تضاف إليه، كما لا يضاف فساد الولد إلى الوالد الذي بلغ الغاية في صرف الولد عن الفساد.

إلزام:

قالوا: فقد قال تعالى: ﴿خالق كل شيء﴾[2]، وقال: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[3]، وقال: ﴿هل من خالق غير الله﴾[4]، وقال: ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه﴾[5]، فكيف يصح مع هذا أن تضيفوا أفعال العباد إليهم وتقولوا إنها من جهتهم واقعة؟ قيل لهم[6]: صدق الله جل وعز وأخطأتم في التأويل، لأنه تعالى ثَبَّت في العقول ما ذكرناه من الأدلة وأوضح أن فاعل الظلم والكذب العالم بحالهما يستحق الذم والنقص فلا يجوز أن يتمدح بما نصب منصب الذم لتناقض ذلك، وكيف يصح أن يتمدح بقوله: ﴿خالق كل شيء﴾ ويريد بذلك أنه خلق القبائح، وإنما أراد تعالى بذلك أنه[7] الخالق للإنسان وسائر النعم ليبعث الخلق بذلك على الشكر والطاعة، ويحتمل أن يريد بذلك أنه المقدر للأشياء المهمة لأحوالها المعرف فصل ما بين حسنها وقبيحها، فهو إذا خالقها بمعنى التقدير وإن ارتكبها العباد مع النهي والزجر، وهذا ظاهر لأن القائل إذا قال: أكلت كل شيء، فالمراد المأكول دون غيره، فكذا قوله: ﴿خالق كل شيء﴾، المراد به المخلوقات

---

(١) في الأصل: له.
(٢) الأنعام: ١٠٢، الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢، غافر: ٦٢.
(٣) الصافات: ٩٦.
(٤) فاطر: ٣.
(٥) الرعد: ١٦.
(٦) في الأصل: له.
(٧) في الأصل هنا عبارة مكررة هي: خلق القبائح وإنما أراد بذلك أنه.

دون غيرها، فلا مخلوق يوصف بذلك إلا والله فاعله، لأن أفعال العباد لا توصف بذلك إلا مع تقييد.

وتأويل قوله: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ يعني الأصنام التي عملوها، بمعنى عملوا تسويتها ونحتها، لأن ما هذه حالـه يقال أنه عمل الصانع، كما يقال في النجار: عمل الباب والسرير، وإنما عمل فيها، وهذا متعارف في اللغة والاستعمال، ولولا أن هذا هو المراد لم يصح أن يكون تعالى ذاماً ولا مبكتاً بهذا بعد قوله: ﴿قال أفتعبدون ما تنحتون﴾[1]، فلما وبخهم بذلك من حيث بيّن أنه تعالى خلق الأصنام كما خلقهم، فلم عدلوا عن عبادته مع أنه الخالق المنعم عليها؟، ثبت أن المراد ما قلناه.

وتأويل قوله عز وجل: ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾[2]، فالمراد به إبطال قول الثنوية وعباد[3] الأصنام الذين لا يوجبون أن الخالق والمنعم والمحيي والمميت والرازق واحد، يبين هذا، على قولنا بأن العبد يفعل: لا يجب أن يتشابه الخلق، بل خلقه تعالى متميز من فعل العبد وكسبه. ثم يقال لهم: فقد قال تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[4] فنبه[5] على إثبات خالق سواه، وإن كان لا يطلق ذلك، وقال: ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾[6] فأضاف ذلك إلى عيسى عليه السلام، وقال: ﴿وتخلقون إفكاً﴾[7] أفيجوز أن يتناقض الكتاب؟ فإن قال: لا. فالمراد إذاً ما قلناه، ليسلم الآي أجمع ويتفق معناها ولا يختلف. يقال: فكيف يقول تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا﴾[8]، ﴿وما لهم لا يؤمنون﴾[9]، ﴿وكيف تكفرون بالله﴾[10]، ﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾[11]، و﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾[12]، ولا فعل للعبد؟ فإن قالوا: كسب، قيل لهم: إذا كان هو القادر على تصرفه وهو الذي أوجده باختياره، فقولكم

---

(1) الصافات: ٩٥.
(2) الرعد: ١٦.
(3) في الأصل: عبادة.
(4) المؤمنون: ١٤.
(5) في الأصل: فنلت.
(6) المائدة: ١١٠.
(7) العنكبوت: ١٧.
(8) الاسراء: ٩٤، الكهف: ٥٥.
(9) الانشقاق: ٢٠.
(10) البقرة: ٢٨.
(11) يونس: ٤٤.
(12) النساء: ١٢٣.

إنه كسبه وإنه فعله وعمله واحد، وقولكم إنه من خلق الله ، والحال هذه ، كقول من قال إن السماء من فعل العبد وإن لم يكن هناك ما يوجب إضافتها إليه . وهذا بيِّن الفساد .

* * *

باب
في أن القدرة قبل الفعل

إن قال: فما قولكم في القدرة؟ قيل: نقول إنها معنى موجود في الجسم، يصح من العبد الفعل والتصرف بها، ويمكنه لأجلها أن يتحرك بدلاً من أن يسكن، وأن يقوم بدلاً من أن يقعد[1]، والله جل وعز ركّبها في جسم العبد لكي يطيع ولا يعصى، وعرفه حظه إن هو أطاع وما أعد له من الدرجات الرفيعة وأعلمه إن هو عصى فمن قِبَل نفسه أتي وعليها جنى وبها أضر، وأن مأواه النار إذا لم يتب وأصر على المعاصي العظيمة. والقدرة في هذا بمنزلة يده وغيرها من الآلات التي تصلح للضرب والصدقة، وكالسكين التي تصلح للضرب لقتل المؤمن والجهاد في سبيل الله، فإذا دفعت إليه ليقتل عدواً لله فقتل بها ولي الله، فما[2] أتى من قِبَل نفسه. فكذلك إذا أعطى الله، جل وعز القدرة والاستطاعة للعبد فقد مكنه بها من الأفعال أجمع، ويصح منه أن يفعل بها الخير والطاعة كما يمكنه أن يفعل بها الشر والمعصية، فلذلك قلنا إنها مقدمة على الفعل[3] ليصح من القاعد أن يقدر على القيام، ومن القائم أن يقدر على القعود ومن المكلف أن يقدر على الإيمان بدلاً من الكفر فعله باختياره لا على جهة الجبر والاضطرار.

مسألة:

فإن قال: فإن المجبرة تخالفكم في هذا، وتزعم أن القدرة مع الفعل لا تتقدمه ولا تتأخر عنه، فما دليلكم على ما ذكرتم؟ قيل له: لأنها لو كانت مع الفعل لكانت قدرة على الموجود، والموجود بوجوده قد استغنى عن القدرة أصلاً، وأيضاً فلو كان القادر منا إنما يقدر على الفعل وهو فاعل له لكان الله تعالى لا يقدر إلا على

---

(1) في الأصل: يطيع.

(2) في الأصل: فلما.

(3) في الأصل: للفعل.

هذا الحد، لأن حال القادر لا يختلف كما أن أحدنا لما علم بشيء علي «ما»[1] هو به، وكذلك حاله تعالى، وهذا يوجب لله تعالى فاعل لم يزل إذ هو قادر لم يزل، وهذا كفر من قائله.

وأيضاً فإن القدرة لو كانت مع الفعل لكان الكافر إنما يقدر على الكفر فقط دون الايمان، لأنه لو قدر عليه لوجب ـ مع أنه كافر ـ كونه مؤمناً، وهذا متضاد، ولو كان إنما يقدر على الكفر فقط لم يحسن أمر العاجز بالفعل والزَّمِن بالعدو، ولو وجب إذا عذب تعالى الكافر، على أنه لم يؤمن أن يقبح ذلك منه، وأن يكون ظالماً، لأنه إنما أتى في «ما»[2] لم يؤمن من قِبَل الله تعالى، من حيث يقدر على الايمان، وفي هذا إيجاب كونه معذوراً وأنه تعالى ظالم بتعذيبه، تعالى الله عن ذلك.

وأيضاً فمن كمال العقل أن القاعد يقدر على أن يقوم ويمكنه ذلك، بل كثرة من البهائم تعرف ذلك، ولهذا يفصل الحمار بين النهر الذي يمكنه عبوره[3]، وبين المتباعد الطرفين الذي لا يمكنه ذلك، والنملة تفصل بين ما يمكنها جره وبين ما يتعذر عليها، حتى ربما استعانت بغيرها في حمل ما تحمله، وهذا بيِّن، وكتاب الله جل وعز ينطق[4] بذلك، لأنه جعل من شرط وجوب الحج الاستطاعة، وإنما يجب الحج على من لم يحج، فذلك يدل على أنه يستطيع الحج ولما حج، وهو قولنا.

وقال: يقال في الكفارة: ﴿ فمن لم يستطع ﴾ يعني الصيام ﴿ فإطعام ستين مسكيناً ﴾[5]، فيجب، على قولهم، في كل من لم يدخل في الصوم أن يرخص له في الإطعام لأنه غير مستطيع، واتفاق الأئمة على خلافه يدل على أنه يستطيع الصوم ولمّا أخذ فيه. فقالت الأمة بأسرها فيمن لا يستطيع القيام في الصلاة: له أن يصلي من قعود، ولو كان كما يقوله القوم لكان كل من لم يدخل في الصلاة قائماً، غير مستطيع لذلك، فيجوز أن يترخص بالقعود، فإذا بطل ذلك علم أنه قادر على القيام في الصلاة قبل «دخوله»[6] فيها، وهو قولنا.

---

(1) غير موجودة بالأصل.
(2) غير موجودة بالأصل.
(3) في الأصل: غيره.
(4) في الأصل: ينطبق.
(5) المجادلة: ٤.
(6) في الأصل: وجوبه. وهي الحالة التي هو عليها.

مسألة:

فإن قال: وكيف ألزمتم من خالفكم في القول بتكليف ما لا يطاق؟ قيل له: لأن مَن قوله إن الكافر لا يقدر على الايمان، قلنا له: فكيف حسن من الله تعالى أن يأمره بالايمان ويعذبه إذا لم يفعله؟ وإن جاز ذلك ليجوزن أن يأمر العبد العاجز بالفعل ويعذبه إذا لم يفعله، ويأمر من لا رجل له بالمشي ويعذبه إذا لم يفعله، ويأمرنا بالطيران في الهواء ويعذبنا إذا لم نفعله، وإن جاز ذلك ليجوزن أن يعذب الإنسان لأنه ليس بمَلَك ويعذب الأسود لأنه ليس بأبيض ويعذبنا لأن السماء فوقنا والأرض تحتنا، وهذا كفر من قائله.

مسألة:

فإن قالوا: إن الكافر وإن لم يكن فيه قدرة الايمان فهو قادر على تركه[1] وليس كذلك العاجز، قيل لهم[2]: قدرته على الكفر لأن ترك الايمان هو الكفر، وقد علم من قولكم: إن يقدر الكفر لا يصح أن يفعل الايمان كما لا يصح أن يفعل بالعجز فكيف يحسن أمره بالايمان، وإن جاز ذلك ليجوز منه تعالى أن يأمر الزَّمِن بالعدو لأنه قادر على القعود.

مسألة:

فإن قال: إن الكافر يجوز منه فعل الايمان، فخالف العاجز، قيل: على قولك لا يجوز منه الايمان لأنه غير قادر عليه ولا يُشَكّ في اختياره له، وإنما يقال: يجوز منه الشيء إذا كان مقدوراً له فيدخل تحت الجواز، وكنا نشك في اختياره له، فيدخل تحت الجواز، وعندكم: أن مع قدرته على الكفر الايمان محال، لأنه يوجب الجمع بين الضدين وهو غير قادر عليه ولا مشكوك في حاله، فكيف يقال يجوز منه فعل الايمان ويجعل ذلك عليه في حسن أمره وتعذيبه إذا لم يفعل.

وبعد، فإن جاز منه الايمان بمعنى أن تحدث قدرة الايمان وترتفع قدرة الكفر فيقع الايمان، ليجوزن من العاجز بمعنى ارتفاع العجز والصبر وضروب القدرة، وهذا يوجب أن حالهما سواء.

---

(١) أي ترك الايمان للكفر.

(٢) في الاصل: له.

مسألة :

قالوا : متوهم من الكافر الايمان ، فحسن أمره ، وخالف العاجز قيل : التوهم ظن وحسبان ، أفيجوز لأجل ظننا ذلك أن نؤمن؟! أرأيت لو أننا ظننا في العاجز أن يؤمن أكان يوجب حسن أمره.

مسألة :

إن قالوا : الكافر تارك للايمان مطلق مخلي ، فجاز أمره ، قيل لهم[1] : ترك الايمان هو الكفر ، وكأنكم قلتم لأجل أنه كافر يحسن أمره بالايمان وإن لم يقدر عليه ، ولئن[2] جاز هذا ليجوز أن يقال في الزمن لأجل قعوده يحسن أن يؤمر بالسعي ، وقولكم إنه مطلق مخلي أن لا يقدر على الايمان لأن من لا يقدر على الشيء لا يوصف بأنه قد خلي بينه وبينه ، ثم يقال لهم ، في جميع ما تقدم : هبنا سلمنا لكم أن الكافر يجوز منه الايمان ، وهو متوهم منه ، وهو مخلي بينه وبينه ، وهو تارك ، ولو شاء لآمن ، أقبح وقوع الايمان منه لهذه الأمور؟ فإن قالوا : نعم ، فقد قالوا بالاستغناء عن القدرة ، وإن قالوا لا يصح إلا مع القدرة ، قيل لهم : فهي حاصلة له أم لا؟ فإن قالوا : نعم ، فقد قالوا بأنه قادر على الايمان وليس بمؤمن ، وهو مذهبنا ، وإن قالوا : ليس بقادر عليه ، قيل لهم[3] : كيف يحسن أمره والقدرة مفقودة؟ ولئن جاز ذلك فيجوز أن يؤمر الزَّمِن بالسعي لأنه عاقل[4] ولأنه قوي الجسم ، وإن كان زَمِناً ، ولأنه طويل ، وهذا ظاهر ، ثم يقال لهم : أليس القرآن قد دل على فساد قوله فقال تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾[5] ، وقال ﴿ **لا يكلف نفساً إلا ما آتاها** ﴾[6] ، فكيف يصف نفسه بذلك ، وقد كلف الكفار الايمان ، وهم لا يقدرون عليه؟ أوليس تعالى قد قال : ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة** ﴾[7] ، فأوجب تأخير مطالبته مع الاعسار ، فكيف يأمر من لا يقدر على الايمان بالايمان وهو مغور[8]؟ محال.

---

(1) في الأصل : له.
(2) في الأصل : لان.
(3) في الأصل : له.
(4) في الأصل : عاقل.
(5) البقرة : ٢٨٦ .
(6) الطلاق : ٧ .
(7) البقرة : ٢٨٠ .
(8) هكذا بالاصل. ولعلها : معذور، أي عاجز عن الايمان.

ثم يقال لهم: لئن جاز أن يأمر تعالى بالإيمان من لا يقدِر عليه، ليجوزن أن يأمر بالفعل الذي يحتاج فيه إلى آلة من لا آلة له، نحو أن يأمر المفقود اليد بالبطش، ومن لا يجد السلم بالصعود، ومن لا جناح له بالطيران، ومن لا معرفة له بالكتابة الحسنة والصياغة، ويأمر من لا يعرف العربية بالكلام الفصيح، ويأمر الأعمى بنقط المصاحف على جهة الصواب، ويعذبهم أجمع إذا لم يفعلوا ذلك، وهذا بين الفساد.

ثم يقال: إذا كانت القدرة مع الفعل، لا تنفك منه، فيجب أن يكفي في وجود الكتابة الحسنة من العبد حصول القدرة عليها فيه، لا بما يوجب ذلك، فمن أين مع هذا أن الكاتب عالم بالكتابة، والصائغ عارف بالصياغة، وهذا بَيِّن. وهذا يبين أنه تعالى أمر الكافر بالإيمان من حيث كان عليه قادراً، فاختار الكفر عليه، فأتى من قبل نفسه، من حيث كفر مع قدرته على الإيمان، وأضر بنفسه مع قدرته على أن ينفعها، واختار ما يؤديه إلى العقاب على ما يؤديه إلى الجنان.

إلزام:

فإن قال: وهذا يوجب أن يستغني العبد[1] عن الله، جل جلاله، فيما يأتي ويذر إن كان قادراً على كل ما يريده، قيل له: إذا كان الله تعالى يقدره ويعطيه الآلات ويزيل عنه الموانع ويفعل فيه الصحة والسلامة ويقوي دواعيه إلى الطاعة، ويخطر بباله الخير، ويلطف له، ويعصمه، ولو شاء أن يسلبه ذلك أجمع حالاً بعد حال فكيف يصح أن[2] يستغني عنه.

إلزام:

فإن قال: إن كان قد أقدر المؤمن على الكفر، فيجب أن يكون مُقَوِّياً عليه معيناً، قيل له: لا يجب ذلك، لأنه إنما يعين تعالى العبد على الفعل الذي أراده منه وخلقه لأجله وهو الطاعة دون المعصية، كما أن المعطي منا غيره سيفاً ليجاهد به لا يكون معيناً له على قتل المؤمن، وإن صلح السيف لذلك.

---

(١) في الأصل: العبيد.

(٢) في الأصل: يصح فكيف.

باب
تعذيب الأطفال

إن قال: ما قولكم في هذا، قيل له: «الله»[1] تعالى لا يعذب إلا من يستحق العذاب بتقصيره، وأن يكون مقصراً، بأن يفعل ما نهي عنه وقبح فعله من المعاصي، أو بأن لا يفعل الواجب[2] الذي يقدر عليه ولا عذر له في أن لا يفعل، فأما من لا عقل له البتة أو لم[3] يتوجه إليه خطاب كالأطفال[4] والبهائم فإنه تعالى لو عذبهم لكان ظالماً، وأطفال المشركين كأطفال المسلمين في أنهم لا ذنب لهم، فالله، جل وعز، منزه عن تعذيبهم، تعالى الله عن ذلك. ولو جاز أن يعذبهم، ولا ذنب لهم، لجاز أن يعذب الأنبياء وإن أطاعوه، وفي هذا تزهيد في طاعته، وقد قال الله تعالى ما يدل عليه، وهو قوله: ﴿ وإبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾[5]، وقال: ﴿ ليجزي كل نفس بما تسعى ﴾[6]، وقال: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[7]، وقال: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[8]، فإذا كان تعالى لا يعذب حتى يؤكد الحجة بالرسل، فبأن لا يعذب من لا عقل له أولى. وقال صلوات الله عليه: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم» وإنما أراد أن لا يؤخذ بفعله، ولو جاز أن يعذب بغير ذنب لجاز منا أن[9] نؤدبه من غير جرم، ويُذَمَّ من غير إساءة، ولو جاز أن يؤخذ بذنب أبيه لجاز أن يؤخذ بذنب أخيه وعمه وجاره ولجاز أن يحد في الدنيا إذا قذف أبوه ويقطع إذا سرق.

---

(١) غير موجودة في الأصل.
(٢) مكررة في الأصل.
(٣) في الأصل: ولم.
(٤) في الأصل: للأطفال.
(٥) النجم: ٣٧.
(٦) طه: ١٥.
(٧) المدثر: ٣٨.
(٨) الإسراء: ١٥.
(٨) والثاني: النائم حتى يستيقظ. والثالث: المخمور حتى يفيق.
(٩) هكذا بالاصل، ولعلها: أن تؤذيه.

إلزام:

فإن قال: أفليس حكمهم حكم آبائهم في الدنيا، فألا كان «هذا»[١] حالهم في الآخرة؟ قيل له: إن حكمهم في العقوبات لا يكون كحكم آبائهم لما ذكرنا من أن أحدهم لا يجلد ولا يحد ولا يقطع إذا أقدم أبوه على زنا وسرقة[٢] وقذف، وإنما يجعل حكمه حكم أبيه فيما يبطل بالشرعيات نحو التزكي والصلاة والمواريث وحكم الدار[٣]، ولو أن الله تعالى سوى في ذلك بين حكم المؤمن والكافر كان لا ينكر.

إلزام:

فإن قال: يعذبهم لأنهم لو أبقاهم[٤] وكلفهم لكفروا، قيل له: هذا يوجب أن يعذب أطفال المؤمن أيضاً إذا كان هذا حالهم، وأن يعذب الله العبد بمثل عذاب فرعون وهامان إذا كان يعلم أنه لو بقي لبلغ مبلغهم في المعاصي، ولوجب إذا علم الله تعالى إنه لو بلغهم لآمنوا وقتاً وكفروا وقتاً أن يعذبهم ويثيبهم جميعاً، وهذا خطأ، ولو جاز هذا لجاز أن يجلد من لم يؤمن إذا علم أنه لو بقي لزنى وهذا من الفساد.

إلزام:

قالوا: فقد قال:[٥] الله تعالى: ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾[٦]، قيل لهم[٧]: المراد من ذلك أنه سيفجر ويكفر، لأن المولود في حال ما يولد لا شك أنه لا يكون فاجراً كافراً، وإنما أخبر تعالى عن عاقبة حالهم وما يؤول إليه أمرهم، وقد قال تعالى: ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾[٨]، فكيف يجوز أن يقول ذلك وهو يعاقبهم في النار أبد الآبدين من غير ذنب، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

---

(١) غير موجودة بالاصل.
(٢) في الأصل: سرق.
(٣) أي دار الحرب ودار السلم، دار الكفر ودار الاسلام.
(٤) في الأصل: بقاهم.
(٥) في الأصل: قالوا.
(٦) نوح: ٢٧.
(٧) في الأصل: له.
(٨) التكوير: ٨.

ثم يقال: إذا جاز أن يعذبهم من غير ذنب جوزنا إقامة[1] الحدود على من لا ذنب له، وهلا جاز أن يكذب الله في خبره ويأمر بالقبح، وكيف يوثق مع ذلك منه بوعد ووعيد؟ وكيف يرغب في طاعته من أوكد أسباب هلكته. تعالى الله عن قولهم.

إلزام:

قالوا: فقد روي في ذلك عن رسول الله عليه السلام، روايات تدل على ما قلناه، قيل لهم[2]: إن الأخبار التي لها تواتر وتوجب النفي لا تقبل فيما هذا حاله وكل شيء فإنما هو إخبار آحاد لا يوجب الثلج واليقين، فكيف يحتج بها؟ والذي رويناه وتلوناه من القرآن أظهر، فالواجب التمسك به، خصوصاً إذا صحت به أدلة العقول.

* * *

(١) في الأصل: تاقامة.

(٢) في الأصل: له.

باب
في أنه تعالى لا يزيد القبيح

فإن سأل سائل عن قولنا في ذلك وقول خصمنا، فَمِنْ جوابنا: أنه تعالى قد أراد من العباد ما أمر ورَغَّب فيه، فالطاعات منه، وكره منهم كل ما نهى عنه وزجر عن فعله، فالمعاصي وما عدا ذلك من المباحات لا يدخل في هذا الباب.

ومن قول المجبرة: إنه تعالى أرادَ ممن يعلم أنه يكفر الكفر، كما أراد ممن يعلم أنه مؤمن الايمان[1]، فعلى قولهم قد أمر بالايمان وكرهه منه، ونهاه عن الكفر وأراده منه، وما كفر أحد إلا بإرادته، وليس في العباد أحد إلا وقد فعل كمال ما أريد منه، ومع «ذلك»[2] فإنه يعاقب الكافر ويثيب المؤمن، وهما سواء في أنه لم يقع منهما إلا ما أراده وشاءه، ولو أرادا خلاف ذلك لتعذر عليهما.

ونقول: ما أراد تعالى من العبد فهو يحبه ويرضاه ويشاؤه ويختاره، فكل ذلك بمعنى واحد.

وقالوا: إنه تعالى أراد من الكافر الكفر، وألزم محمداً صلى الله عليه وآله أن يريد منه الايمان ويدعوه إليه.

وقالوا: إنه تعالى خلق فيه الكفر وأوجده فيه وأراده[3] منه، وأمرنا بأن نمنعه منه ونجاهده عليه ونحاربه فيه، وزجره بالنار عن الشيء الذي ما أراد منه غيره. ويلزم على قولهم أن الكافر مطيع كالمؤمن، لأنه فعل كل ما أراد منه خلافه كالرسول، ولأنه لا يمكنه الخروج عما أريد منه كما لا يمكن الرسول، على قولهم، فلم صار أحدهما بالعذاب أولى من الأخر بالثواب؟ وهذا المذهب يكفي في بيان فساده بما اقتصصناه من بعض قولهم ومتن مذهبهم، وقد بينا من قبل الحجة في ذلك، وما ذكرناه مقنع.

---

(١) في الأصل: بالايمان. (٢) غير موجودة في الأصل. (٣) في الأصل: أراد.

باب
القول في الآلام

فإن قال: فما قولكم فيها[1] ؟ ومن خالفكم من المجبرة يقول: إنه تعالى يفعلها[2]، لا لمنفعة ولا لعوض ومصلحة، ولكن له أن يفعل في ملكه ما يشاء لا يُسأل عما يفعل، وإن كان مثل ذلك يقبح من العباد، وهو يستحق عليه المدح وهم يستحقون على مثله الذم. ويجعلون ذلك دلالة على صحة مقالاتهم.

قيل لهم: إنه تعالى إنما يفعل هذه الآلام والأمراض لمصلحة المكلفين ليعتبروا بذلك إذا نزلت بهم، ونزلت بولد حميم وقريب لهم، ويكونوا عند ذلك أقرب إلى مجانبة المعصية خوفاً من النار وإلى أن تعلقوا من العقاب فيتوبوا كما يقدمون على المعالجة خوف الزيادة في الأمراض، ويعوضهم في الآخرة مع ذلك بمنافع عظيمة، حتى يود صاحب البلاء، إذا شاهد ما أعد له من أعواضه، الزيادة فيما تقدم من أوجاعه، على ما يروي في الخبر.

فإن قال: أفيحسن منه تعالى أن يؤلم ويسقم لهذا المعنى؟

قيل له: نعم، كما يحسن منا أن نحمل الأجير المشقة إذا كان ما نستعمله فيه نعمة وإحساناً متى أعطيناه أجره، فبهذين الشرطين يحسن. وكذلك ما يفعله تعالى، وقد نبه على ذلك بقوله: ﴿ **أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون** ﴾[3] وبين أنه حسن من صاحب موسى قتل الغلام لئلا يرهقهما طغياناً وكفراً، ولولا أن الأمر على ما ذكرناه لكان تعالى قد فعل عين الظلم؛ لأن الألم لم يكن[4] فيه نفع للمفعول به، وأزيد منه، ولا رفع ضرر، ولا وقع مستحقاً، وهو قبيح وظلم، وإنما يخرج عن أن يكون ظلماً لواحد مما

---

(1) في الأصل: فيهما.
(2) في الأصل: يفعلهما.
(3) التوبة: ١٢٦.
(4) في الأصل: يمكن.

ذكرناه، نحو ما نفعله من الألم بأنفسنا وأولادنا في طلب العلوم والآداب والتجارات، فيحسن ذلك، ويحسن العدو على الشوك هرباً من السبع، ويحسن أخذ الدَّين إذا «كان»[1] مستحقاً، وذم الظالم العاصي وإن غمه ذلك، لأنه مستحق[2]، فأما إذا فعل أحدنا الألم لا لهذه الوجوه فهو[3] ظلم، فلو فعل الله الأمراض «لا»[4] لما ذكرناه لكان ظالماً، ولو جاز عليه لجاز أن يكذب[5] في أخباره ولا يفي بوعده ووعيده ويعذب الأنبياء ويثيب الفراعنة، وفي هذا إبطال التعبد والتكليف أصلاً.

مسألة:

فإن قيل: فلماذا خلق الزَّمِن والقبيح الخلقة؟ وما الفائدة في هذا مع قدرته أن يخلقه كاملاً تام الخلق؟

قيل له: للمصلحة التي ذكرناها، ويعوضه مع ذلك، ووجه المصلحة التي ذكرناها بين، لأنه إذا لحقه غم ببعض نفسه طلب التحرر من الناس والتمس الكمال بالجنة فيدعوه ذلك إلى الطاعات ومجانبة المعاصي ويدعو[6] غيره إلى القيام بشكر نعمه، وكذلك ما يفعله تعالى من المكاره[7] والمصائب إنما يفعله لهذا الوجه، وكذلك يخلق الحيات والعقارب والسباع لضرب من المصلحة، من حيث يدعو الخوف منها والتوقي اتقاء النار، لمجانبة المعاصي، وهذا معنى قوله، عز وجل: ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا** ﴾[8]، ليبين[9] أنه خلق جميع ذلك على الحكمة، فإن خلاف ذلك ظن الذين كفروا، يعني المجبرة وغيرها[10] من المخالفين.

* * *

(١) غير موجودة في الأصل.
(٢) هنا زيادة عبارة: فأما مستحق.
(٣) في الأصل: وهو.
(٤) غير موجودة في الأصل.
(٥) في الأصل: كذب.
(٦) في الأصل: يدعوا.
(٧) في الأصل: المحبره.
(٨) ص: ٢٧.
(٩) في الأصل: لبين.
(١٠) في الأصل: غيرهما.

باب
التكليف وإزاحة العلل فيه

فإن قال: فما قولكم في التكليف؟ أفحسن أم لا؟

قيل له: نعم، لأنه، جل وعز، لما علم أن درجة الثواب، لعظمها ووقوعها موقع التعظيم لا يحسن أن يبتدأ به، كما لا يحسن من أحد أن يبتدىء بشكر من لا نعمة له وتعظيم من لا يستحق ذلك، ولما أراد تعويض كثير من عباده أرفع اللذات، كلفه وأمره ونهاه ليستحق الثواب إذا هو قبل ذلك وامتثله.

مسألة:

فإن قال: ولم يستحق الثواب على الله تعالى إذا أطاعه؟

قيل له: لأنه قد ألزمه الأمور الشاقة، فلولا أنه يستحق بها الثواب لقبح منه أن يوجبها على ما فيها من المشقة.

فإن قيل: فلم يستحق العقاب إذا عصى فيما كلف؟

قيل له: لأنه لولا أنه يستحق العقاب بترك الواجب، لم يحسن منه تعالى إيجابه، كما لا يحسن منه إيجاب النوافل التي لا ضرر في تركها.

مسألة:

فإن قيل: فما صفة الثواب والعقاب؟

قيل له: أما الثواب فهو لذات وسرور يقعان على جهة التعظيم والتبجيل من كل ألم وغم وحزن وأمان لا انقطاع فيهما، يبلغان في الكثرة المبلغ الذي لا يساويهما التفضل وسائر النعم «في»[1] الدنيا، يفعلهما على جهة التعظيم

---

(١) غير موجودة في الأصل.

والاستحقاق. وأما العقاب فهو الألـم الخالص عن كل لذة وسرور، يستغرق البدن، ويـدوم ولا يفتر عنهم، ولا يلحقهم موت وانقطاع. نعوذ بالله من ذلك، والله، عز وجل، يفعله على جهة الاهانة والاستخفاف بالمستحق له.

مسألة:

إن قيل: أفيحسن تكليف من يعلم الله تعالى أنه يكفر؟

قيل له: نعم، كما يحسن تكليف من يعلم الله أنه يؤمن، لأنه قد فعل بذاك من التعريض والألطاف والتسهيل وغير ذلك مثل الذي فعله بهذا، فلو لم يحسن ذاك لم يحسن هذا.

فإن قال: إنما حسن هذا لأنه قبل وآمن، وليس كذلك حال الكافر.

قيل له: لا يجوز أن يصير التكليف من الله نعمة بقبول المكلف، لأنه يوجب أنه تعالى صار منعماً بإيمان العبد، ولولاه لم يكن منعماً، ولو لم يكن قبول العبد له مصيراً له نفعاً ونعمة.

وبعد.. فإذا كان «المكلف»[1] أُتي في مضرته من قبل كفره وسوء اختياره فكيف يخرج تكليفه من أن يكون نعمة؟ ولو جاز هذا لجاز فيمن دل غيره عن طريق رشده أن لا يكون نافعاً له من حيث لا يقبل، وقد علمنا أن تركه القبول قبيح لا يؤثر فيما فعله به نعمة، فكذلك التكليف.

مسألة:

فإن قال: أفيجوز أن يؤمن؟

قيل له: نعم، لأنه قادر عليه، يصح منه فعله، وإنما لا يقع منه فعله بأن لا يختاره، كما لا يقع من الله تعالى إدخال أبي لهب الجنة، لا لأنه لا يقدر عليه ولا يجوز منه لكن لأنه لا يختار ذلك.

فإن قيل: أفتجوزون منه الإيمان؟

قيل: من عَلِمنا أنه لا يؤمـن، لا يجـوز ذلك منـه، من حيث ينبغـي، ولا شك،

(١) في الاصل: الكافي.

ومن لا يعلم من حاله يجوز ذلك منه من حيث يشك.

مسألة:

فإن قالوا: أليس لو آمن، وقد علم تعالى أنه لا يؤمن، لكان ذلك «تجهيلاً لله»[1] وتكذيباً لخبره؟

قيل «لهم»[2] فيجب على هذا إذا علم الله تعالى وأخبر أنه لا يدخل أبا لهب الجنة أن لا يوصف بالقدرة على ذلك لأنه يؤدي إلى أن يقدر على تجهيل نفسه وتكذيب خبره، ويجب إذا أمر تعالى الكافر الذي علم أنه لا يؤمن بالإيمان أن يكون قد أمره بتجهيل نفسه وتكذيب خبره، فهذا فاسد.

مسألة:

فإن قال: أيجب أن يلطف الله تعالى للمكلف أم لا يجب ذلك؟

قيل له: إنه تعالى إذا كلف فغرضه تعريض المكلف للثواب، فلا بد من أن يمكنه بسائر وجوه التمكين من قدرة وآلة صحة، وإذا علم أنه يختار الإيمان عند أمر من الأمور فلا بد من أن يفعله وإلا كان مستفسداً، كما أن أحدنا إذا أراد من غيره أن يجيب إلى طعامه فلا بد من أن يفعل ما يكون عنده أقرب إلى إجابته مما لا يشق.

* * *

(1) في الأصل: تجهيل الله.

(2) في الأصل: له.

مسائل في الوعيد

فإن قال: أتقولون بدوام الثواب والعقاب؟

قيل له: نعم، لأنهما يُستحقان كما يستحق المدح والذم والتعظيم والاهانة، وقد علمنا أن من يستحق هذين يستحقهما على جهة الدوام، ما لم يقلع عن المعاصي، وكذلك الثواب والعقاب، وقد نص الله تعالى على هذا في كتابه في عدة آي.

مسألة:

فإن قال: أفيجوز من المكلف أن يستحقهما جميعاً؟

قيل له: لا، لأن هذا دائم غير مشوب بالآلام، واقع على وجه التعظيم، وذلك دائم خالص لا تشوبه لذة، واقع على جهة الاستحقاق، ومحال فيما هذا حاله أن يُستحقا «جميعاً»[1]، كما محال من الفاعل أن يفعلهما جميعاً به في حالة واحدة.

مسألة:

فإن قال: أفيستحق العقاب بكل معصية، أو ببعضها دون بعض؟

«قيل له»[2]: بل يستحقه بكل معصية، لأن وجه استحقاقه بها أنها قبيحة، وقد فعلها مع تمكنه من التحرز منها، الصغير كالكبير في ذلك، لكنه يُستحق بالمعاصي إذا لم يمنع مانع، والمانع هو التوبة، وأن تكون طاعة أزيد وأعظم ثواباً، فمتى حصل أحد هذين لم يستحق العقاب وإلا استحقه.

---

(١) غير موجودة في الاصل.

(٢) غير موجودة في الاصل.

مسألة:

فإن قال: أفتبلغ المعصية مبلغاً لا يكون في الطاعات ما يزيد عليه؟

قيل له: نعم، الكبائر من الكفر والفسق، لأن من أقدم على خصلة منها لم يزل عقابه إلا بالتوبة.

مسألة:

فإن قال: فما الفسق؟

قيل له[1]: كل معصية وجب فيها حد وعقوبة، نحو القذف، ونحو السرقة والزنا، أو صح عن الرسول أو بالاجماع أنه من الكبائر «وما»[2] عدا ذلك يجوز فيه أنه صغير من المعاصي.

«فإن قال»[3]: «الكبائر التي تقع من أهل الصلاة»[4].

قيل له: لا، وإنما يعرف بعض الكبائر ويقف في الباقي، وفي أن لا يعرف ذلك مصلحة لأنا لو عرفناه وأنه لا مضرة علينا في فعله مع ما لنا فيه من القدرة والشهوة لكان ذلك مما يبعث على فعله ويغري بالإقدام عليه، والله عز وجل، لا يغري بالقبيح والمعاصي.

مسألة:

فإن قال: فما الكفر؟

قيل له: ما يستحق به صاحبه العقاب العظيم الذي من علامته أن لا يدفن في مقابرنا ولا يُصلّى عليه ويقاتل إلا بأخذ الجزية، وما يجري مجراه وإذا كان ذلك حادثاً بعد إيمان يستتاب فإن تاب وإلا قتل. وكل كافر في الشريعة مشرك ومتى كتم كفره وأظهر الإيمان قيل منافق، كما إذا كتم الفسق فأظهر الستر قيل مرائي.

---

(١) هنا عبارة: «الكبائر التي تقع من أهل الصلاة». ومكانها سيأتي بعد، وإنما تقدمت خطأ لعله من الناسخ.

(٢) في الأصل: أوما.

(٣) غير موجودة في الأصل.

(٤) مكانها في الأصل متقدم عن هذا المكان خطأ، كما أشرنا من قبل. ومعنى العبارة هل كل ما يقع من أهل الصلاة (المسلمين) كبيرة؟

مسألة:

فإن قيل: فما التوبة التي يزيل بها عن نفسه العقاب؟

قيل: الندم على ما اقترفه من القبيح لقبحه، والعزم على أن لا يفعل مثله في القبح، لأنه لو ندم عليه لا لقبحه لكن لأنه أضر بجسمه لم يكن تائباً، كما أن من أساء إلى غيره فإنما يمحو ذلك عن نفسه بأن يعتذر فيندم على أنه أساء من حيث أساء بجزم على ما ترك الاساءة في المستقبل. والتوبة بيننا وبين الله، جل وعز، كالاعتذار بين المخلوقين.

مسألة:

فإن قال: أفيزول عقابه إذا تاب هذه التوبة؟

قيل له: نعم، كما يزول الذم عنه إذا اعتذر إلى من أساء إليه، وقد قال تعالى في عدة آي: ﴿ إلا من تاب ﴾[1] فتبين زوال العقاب والوعيد عنه.

مسألة:

فإن قال: فمن يستحق العقاب يجوز من الله أن يتفضل عليه بالغفران، أو يجب ذلك، كما يجب الثواب؟

قيل له: الثواب حق على الله تعالى للمطيع، فلو لم يفعله تعالى للحقه ذم لوجوبه، فلا بد من أن يفعله وإلا كان في حكم الظالم. والعقاب حق له على «العاصي»[2] فله أن يعفو عنه كما له أن يستوفيه، وسبيله سبيل ما لنا من الدّين على الغريم، أن لنا أن نبرئه ولنا أن نستوفيه، فإذا أورد النص أنه تعالى يختار أن يعاقب قضينا به على ما نبينه من بعد.

* * *

(١) المائدة: ٣٩، الأنعام: ٥٤، مريم: ٦٠، طه: ٨٢، الفرقان: ٧٠، القصص: ٦٧.

(٢) في الأصل: المعاصي.

الكلام في النبوات

فإن قال: بينوا لي[1] ما يجب أن أعلمه في النبوات؟

قيــل له: ينبغي أن تعرف أولاً: جواز بعثة الله الأنبيــاء، وأن ذلك حسن وصواب، ثم تعلم أنه تعالى قد بعثهم وحملهم الشرائع، وتعلم ما يدل على نبوتهم من المعجزات وصفتها، وتعلم كيفية التوصل إلى معرفة كون المعجزات بالأخبار وغيرها، وتعلم ما الفائدة في بعثهم، وما الذي يلزمنا أن نعلم في القبول منهم، وتعلم أن نسخ الشرائع جائز من جهة العقل والسمع جميعاً.

مسألة:

فإن سأل فقال: أليس في «البراهمة»[2] من يمنع من جواز بعثة الأنبيــاء ويقول أن ذلك لا يقع من حكيم؟ فما دليلكم على ما قلتموه؟

قيل له: إنه ثبت أن من دعا إلى الواجب، واختاره المكلف عنده، لولاه كان لا يختار، وجب كوجوبه، وما يختار عند القبيح على وجه لولاه كان لا يختار، قبح وليس «للعقل»[3] مدخل في معرفة الأفعال التي هذه صفتها لأنه إنما يعرف بالعقل وجوب رد الوديعة، والانصاف، وشكر النعمة، وقبح الظلم والكذب، والأمر بالقبيح، وغيرهما. وحسن الاحسان، والتفضل وغيره، فأما أن يعرف به أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأن شرب الخمر يورث العداوة والبغضاء فمحال، فلا بد إذاً أن يبعث الله تعالى من يعرفنا هذه الأمور إذا لم يكن هناك ما يقوم مقامه، فحسن لذلك بعثة الأنبياء.

---

(١) هنا في الأصل: «إلى».

(٢) ومن أهم ما يميزهم انكار إرسال الرسل، وهم يستقبحونه عقلياً. انظر (الابانة عن مذهب أهل العدل) للصاحب بن عباد. ص ١٨.

(٣) في الأصل: العقل.

وإذا علم تعالى من يعرفنا هذه الأمور في المكلفين أن مصالحهم فيما عمله بعض الأنبياء وجب بعثة النبي إليهم.

مسألة:

فإن قال: كيف تحسن بعثتهم وهم يقبحون ما لولاهم لقبح فيه، ولو جاز هذا لجاز أن يبعثوا بحسن الكذب والظلم.

قيل له: إنما يعرفونا بتفصيل الجملة المستقرة في العقل، لأنه قد ثبت في العقل أن ما يؤدي إلى الضرر قبيح، فإذا خبرونا في شرب الخمر أن هذا حاله عرفناه قبيحاً بالفعل، وإذا عرفونا في الصلاة أنها تؤدي إلى منافع وتركها يؤدي إلى مضار دخلت في جملة ما يلزم فعله، وإنما صح هذا في المضار والمنافع لأن حسنهما وقبحهما يكون «بإنفاذهما»[1] من الأحكام. والظلم يقبح على كل حال، كذلك الكذب.

مسألة:

فإن قيل: أتقولون إنه لا يكلف الله[2] تعالى «من لم»[3] يبعث إليه نبياً؟

قيل له: إن حال المكلفين على أضرب، فمَن المعلوم من حاله أنه يطيع في كل ما كلفه عقلاً على كل حال «لم»[4] يبعث الأنبياء إليه. ومن يعلم من حاله أنه يعصي على كل حال فكمثل. ومَن المعلوم «من»[5] حاله أنه متى تمسك بشريعة بعض الأنبياء يكون أقرب إلى أن يطيع أو يختار الطاعة ومجانبة المعاصي، فلا بد من بعثة الأنبياء إليهم، وهم على ضربين:

أحدهما: الصلاح لهم في قبول الشريعة من النبي نفسه مشاهدة، فلا بد من أن يكون النبي في زمانهم.

والثاني: أن يكون الصلاح والعمل بشرائعهم فقط فيجوز أن تصل إليهم بالأخبار شرائعه، ولا يجب في زمنهم حصول نبي لا محالة.

---

(١) هكذا في الأصل، والمراد أن المضار والمنافع ليس التقبيح والتحسين فيهما ذاتياً مطلقاً.
(٢) في الأصل هنا: «والله».
(٣) غير موجودة في الأصل.
(٤) في الأصل: له.
(٥) غير موجودة في الأصل.

مسألة:

فإن قيل: فمن أين أنه تعالى بعثهم؟ وأنه اختار ذلك؟

قيل له: من حقه أن يكون من فعله تعالى، ويحدث عند ادعاء النبي وآله، ممن تقدمه من الأنبياء عليهم السلام.

مسألة:

فإن قال: فما المعجز الذي يدل على نبوة الأنبياء؟

قيل له: من حقه أن يكون من فعله تعالى، ويحدث عند ادعاء النبي النبوة، ويكون ناقضاً للعادة، فيعلم أنه تعالى فعله على سبيل التصديق له فيما ادعاه من النبوة.

مسألة:

فإن قال: ولم وجب في صفة المعجز ما ذكرتموه؟

قيل له: لأن ما ليس من فعله لا يدل على النبوات، لأنه الباعث والدال، وما يقدر العباد على جنسه أو فعل مثله لا يكون معجزاً، لأن ما هذه سبيله يقع من العباد، فلا يدل على النبوة، وما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ويفعله بالعادة لا يدل على النبوة، لأنه يجوز فيه أن يكون إنما حدث عند ادعائه النبوة للعادة، نحو طلوع الشمس وغروبها في أوقاتها، فلا بد من أن يكون فيه نقض عادة كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وقلب العصا حية وفلق البحر والقرآن، ولا بد أن يكون حادثاً عقيب دعواه «كأن»[1] يقول لأمته: الدليل على أني رسوله أني أسأله أن يظهر عَلَماً معجزاً، فيظهره، فإذا سأل فأظهره، دل على صدقه، «ولا يكون كذلك»[2] إلا وقد ادعى النبوة، كما لو صدقه تعالى كان لا يصح إلا وقد تقدم منه ادعاء النبوة.

* * *

(١) في الأصل: لا.

(٢) مكررة في الأصل.

باب
نبوة محمد صلوات الله عليه وآله

مسألة:

فإن قال: فبماذا يتبين لكم نبوة محمد، صلى الله عليه وآله؟

قيل له: بالقرآن العظيم.

فإن قال: وكيف يدل على نبوته؟

قيل له: قد علمنا باضطرار: أولاً، أن محمداً هو الذي كان بمكة، ثم هاجر إلى المدينة، وأنه كان يدعي النبوة، ويجعل الدلالة على نبوته القرآن، ويتحدى به العرب. كل ذلك بالنقل المتواتر، كما نعلم البلدان وأخبارها وأخبار الملوك بالنقل، وهذا مما لا يقع فيه التنازع.

فأما أن القرآن معجز فإنا نعلمه من حيث أنه تحدى به العرب، وهم النهاية في الفصاحة، وحرصوا غاية الحرص على إبطال أمره، وقويت دواعيهم في ذلك، ومع هذا فلم يأتوا بمثله ولا مثل بعضه، فدل ذلك على أن الله تعالى خصه به ليدل به على نبوته، كما دل قلب العصا حية على نبوة موسى، لما تحدى به السحرة وعجزوا عن مثله، وكما دل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على نبوة عيسى لما تحدى به الأطباء. وجعل الله المعجز لمحمد صلوات الله عليه وآله ما يجانس الفصاحة التي هي طباعهم وطريقتهم لئلا يلتبس الحال فيه، كما أجرى الأمر في معجز موسى وعيسى صلوات الله عليهما على هذه الطريقة.

فإن قال: ومن «أين»[1] أنهم لما يعارضوه؟ ثم من أين أنهم بلغوا النهاية في الحرص على توهين حاله وإبطال أمره؟

---

(١) غير موجودة في الأصل.

قيل له: لو عارضوه لنقل كنقل القرآن، «لأن»[1] الزمن واحد والدواعي فيه متساوية، بل كانت «الدواعي»[2] إلى نقل المعارضة أكثر، « لأنه كان يقول حجة والقرآن شبه »[3].

فلما لم ينقل أصلاً، مع أنه نقل ما أوردوه من الخرافات، من جنس الهجوو المعارضة التي «يتندر»[4] بمثلها، دل على أنهم لم يعارضوه. والذي «دل»[5] بمثلها، دل على أنهم حرصوا نهاية الحرص على إبطال أمره أنهم بذلوا مهجهم وأموالهم في ذلك، وفارقوا أوطانهم وعشيرتهم لأجله، مع ما عرف من حالهم في الحمية الشديدة والأنفة العظيمة من تقدم الغير وتأخرهم، ومع هذا كله لم يعارضوه. فلو قدروا على ذلك لكان عليهم أسهل، ولما جاز أن يعدلوا عنه إلى الشاق الذي لا فائدة فيه.

إلزام:

فإن قال: لم يكونوا أهل جدل، فلم يعلموا أن الصواب المعارضة.

قيل له: قد كانوا أهل جدال في هذا الباب الواحد، وكذلك قد كانوا يتهاجون ويتبارون ويتعارضون فيما طريقه الشعر وغيره.

وبعد فإن ذلك لا يخفى على أحد فلا يحتاج أن يعرف الحال فيه بالجدال. لأن الصبيان إذا تحدى بعضهم بعضاً بسرعة العدو والطفر الشديد لم يخف عليهم أن المخلص من ذلك هو فعل مثله.

إلزام:

فإن قال: هم وإن علموا ذلك فقد كان عندهم أن محاربته أقرب إلى التخلص منه والاستراحة، فلذلك عدلوا عن المعارضة.

قيل له: إذا كان إنما جعل القرآن دلالة، فالتخلص منه كيف يكون القتل والقتال؟ ولا فرق بين من قال هذا وبين من جوز أن يعدلوا فيما يتحدوا به من الشعر

---

(١) في الأصل: لا.
(٢) في الأصل: الدعاوى.
(٣) هكذا بالاصل.
(٤) رسمها في الأصل هكذا: يتنهرأ.
(٥) غير موجودة في الأصل.

إلى المحاربة، وكيف يصير القتل استراحة وليس فيه إبطال أمره؟ وفي المعارضة إفساد «حاله»[1].

وقد ثبت أيضاً له عليه السلام معجزات كثيرة، نحو إنطاق الله له الذئب، ونحو مجيء الشجرة وعودها إلى مكانها تخد الأرض خداً، ونحو حنين الجذع لما انتقل عليه السلام إلى المنبر ليخطب، ونحو تسبيح الحصا في يده، ونحو ما أخبر به عن الغيوب فوجد خبره صدقاً على التفصيل، ونحو إجابة الله أدعيته «حالاً»[2] بعد حال، إلى غير ذلك «مما»[3] لا يكاد يحصى كثرة، والله لا يظهر المعجزات إلا على أيدي الصادقين.

مسألة:

فإن قال: بماذا تعلمون المعجزات والشرائع؟

قيل له: بالأخبار المنقولة، لأن الأخبار على ضربين:

أحدهما: يوجب العلم وسكون النفس، كالخبر عن البلد وغيرها.

والآخر: يعلم صحته بالاستدلال «كخبر»[4] الله وخبر رسوله وخبر الأمة وخبر العدد الذين لا يتفق الكذب منهم في الأمر الظاهر، فعلى هذين نقول في الديانات. فأما أخبار الآحاد، وما لا يعلم صحته فإنا لا نعول عليه في هذه الأبواب، ونقبله في فروع الفقه على ما يجيء ذكره.

مسألة:

فإن قال: فما الفائدة في بعثة الأنبياء؟

قيل: لنعلم «مِن»[5] جهتهم ما لا طريق لنا إلى معرفته إلا مِن قِبَلهم من الشرائع والعبادات وغيرها، ولولا هذا لما لزمنا النظر في معرفة الله لأنا كنا لا نخاف إن لم ننظر من مضرة تلحق وعقاب يسري ويضر الشرائع «على ما»[6] سنذكره من بعد.

---

(١) في الأصل: حال.
(٢) مكررة في الأصل.
(٣) في الأصل: فيما.
(٤) في الأصل: لخبر.
(٥) غير موجودة بالأصل.
(٦) غير موجودة في الاصل.

مسألة :

فإن نبينا صلوات الله عليه وآله كان على شريعة[1] منفردة ناسخة لسائر الشرائع، لازم للمكلفين إلى آخر الأبد، وهو مبعوث إلى الناس كافة ممن تقوم عليه الحجة، وهذا متظاهر من دينه وشريعته.

* * *

(١) في الأصل هنا عبارة: من الانبياء أو له شريعة.

باب
في نسخ الشريعة على اليهود

فإن قال: فإن اليهود تمنع من صحة نبوة محمد صلوات الله عليه من حيث أتى بنسخ شريعة موسى، وتقول إن نسخ الشريعة يدل على البدل ويوجد تناقض أقاويل الأنبياء، لأن موسى صلوات الله عليه أخبر بأن شريعته لازمة أبداً.

قيل له: إنها في هذه المقالة جاهلة، وذلك لأن الذي يدل على البداء[1] أن يأمر الله جل وعز بنفس ما نهى عنه في وقت واحد على وجه واحد، وهذا مما «لا»[2] نجيز البتة وروده على ألسنة الأنبياء صلوات الله عليهم، ونسخ الشريعة أن يأمر الله تعالى بأمثال ما نهى عنه في المستقبل من أمثال ما أمر به في المستقبل، ومن حق الفعلين وإن كانا مثلين أن لا «يمنع»[3] حسن أحدهما وقبح الآخر وجوب أحدهما و«حظر»[4] الآخر، كما لا يمتنع ذلك في المعاملات والعلاجات مما حاله لا يكون دالاً على البداء.

فإن قال: فإن موسى، صلوات الله عليه، قد خبّر بأن شريعته لازمة أبداً.

قيل: إذا ثبت بالمعجزات أن محمداً صادق في النبوة صرفناً ذلك إلى الحصول إن صح ذلك عنه، كما لما دل الفعل على أنه تعالى لا يكلف الميت والعاجز، صرف ذلك الى أن المراد به القادر.

فإن قال: وما دليلكم على جواز نسخ الشريعة؟

قيل له: لأنه تعالى يتعبد بحسب المصالح، فإذا علم أن الصلاح في بعض الأوقات خلاف ما تقدم تعبد بحسبه، كما يفعل الأفعال بحسب المصالح، وإذا

(١) البداء أن يبدو للفاعل شيء ينقض أمراً أبرمه للتو واللحظة مثلاً. وبعض الفرق تجيز هذا الأمر على الذات الإلهية، ويمنعه المعتزلة وكثيرون غيرهم.

(٢) غير موجودة في الأصل.

(٣) في الأصل يمتنع.

(٤) في الأصل: حصر.

جاز أن يختلف الصلاح في الأوقات، جاز أن يأمر في الأول مطلقاً ثم يثبته في الثاني وينهى عن نظائره، وهذا ظاهر لا شبهة فيه. وإذا جاز أن يتعبد بأن ينكر نبوة موسى قبل البعثة ثم يتعبد بأن يقر بها ولا يكون بداء فكذلك القول في الشرائع، وإذا جاز أن يبيح تزويج الأخت في شريعة آدم ثم «يحظره»[1] في أيام موسى، وكذلك ما قلناه، وهذا ظاهر.

وإنما أنكرنا في شريعة محمد صلوات الله عليه وآله أن تنقطع، ما دام التكليف قائماً، لأنا اضطررنا إلى مراده وأن من دينه أن شرعه دائم لا ينقطع، وهذا لا يجوز في سائر الأنبياء عليهم السلام.

مسألة:

فإن قال: أفيجوز ظهور المعجزات على غير الأنبياء، على ما يقوله كثير من العوام، أنها قد تظهر كرامة على الصالحين، وكما يقول بعضهم إنها تظهر على الصادقين؟

قيل له: لا يجوز ذلك، لأنها تدل على التفرقة بين النبي ومن ليس بنبي، لأن الرسول يقول لغيره: أنا، وإن كنت بشراً مثلكم، فكما كان المعجز يلزمكم الانقياد لي وطاعتي، فلا بد أن يختص بذلك ليصح هذا المعنى، فلهذا لا يجوز ظهوره على غير الأنبياء.

وأيضاً فلو ظهرت على غيرهم لزهد في النظر في معجزات الأنبياء ونفر عن ذلك، من حيث كان عون كل عاقل ظهوره ولا يدل على النبوة، والله تعالى يجنب الأنبياء ما فيه مفسدة، لأنه قد جنب محمداً صلوات الله عليه وآله الكتابة وقول الشعر والفظاظة لهذا المعنى، وهذا ظاهر.

فإن قال: فقد روي عن كثير من الصالحين أن المعجز ظهر عليهم.

قيل له: هذه أخبار لا نصدق بها، لأنهم ربما خبروا عن من ينكر ذلك لنفسه، وربما خبروا بالمحال من هذا الباب، نحو إخبارهم عن بعضهم أنه وجد في وقت واحد في بلدين، إلى غير ذلك مما تنافيه العقول.

---

(١) في الأصل: يحصره.

الكلام في الشرائع

فإن قال: فبينوا لي جملة ما أتى به الرسول صلى الله عليه وآله من الشرائع.

قيل له: إنها على ضربين: أحدهما من باب العلم، والآخر من باب العمل، وفيها أصول وفيها فروع وفيها ما لا يحل فيها التقليد والاتباع وفيها ما يحل ذلك فيه، ونحن نذكر منه جملة:

مسألة:

فإن قال: فما الذي هو أصل منها بنبوة النبي صلى الله عليه وآله؟

قيل له: إن أصول الشرائع التي جاء بها:

الأسماء والأحكام: فبين المكلفين على ضروب هذا الباب: كافر، ومؤمن، وفاسق له منزلة بين هاتين المنزلتين.

فأما الكافر، فهو الذي يستحق العقاب العظيم، ويجب أن يميز حكمه عن المؤمن، فيدفن في غير مقابرنا، ولا يصلى عليه، و«يقتل»[1] ويعامل على بعض الوجوه، ولا توارث بيننا وبينه، ولا يحل لنا نكاح نسائهم، ويسمى بأنه كافر ومشرك. وإذا أبطن الكفر وأظهر الإسلام يوصف بأنه منافق، ويوصف مع ذلك بأنه فاسق، فكل كافر فاسق وليس كل فاسق كافر.

وأما المؤمن فيلزم تعظيمه وتبجيله والرفع من قدره والذب عنه في دينه ونصرته في مذهبه، وهو على ضربين: نبي، وغير نبي، فأما النبي فإنه يستحق الثواب والتعظيم وهذا الاسم بالإطلاق «يؤذن»[2] بالمدح، وكذلك قولنا مسلم وفاضل وبر وتقي وزكي، إلى غير ذلك.

---

(١) غير معجمة في الأصل.

(٢) غير معجمة في الأصل.

وأما الفاسق فليس حكمه حكم الكافر فيما تقدم، لأن عقابه دون «عقابه»[1]، ولا يختص بأحكامه وأسمائه، ولا حكمه حكم المؤمن في التعظيم والأسماء، فله منزلة بين هاتين المنزلتين.

وهذه الأسماء منقولة عن اللغة إلى الشرع، لأن فائدة الكفر في اللغة: التغطية، فنقل إلى ما ذكرناه، وفائدة مؤمن: مصدق، فنقل إلى ما وصفناه، وفائدة فاسق الخروج، على وجه لا يضر، فنقل إلى العدول عن الولاية إلى العداوة، وجعل سمة لمن يستحق العقاب والذم واللعن.

مسألة:

فإن قال: وهؤلاء الذين وصفتهم ما حكمهم في الثواب؟

قيل له: حكم الكافر أن يعاقب دائماً، فقد دل السمع على أنه تعالى لا يغفر له، ويعرف ذلك من دين محمد، عليه السلام، ضرورة.

وقد دل السمع، من جهة الاستدلال، على أن الفاسق، ما لم يتب، يستحق النار مع أهلها مخلداً فيها، وهو قوله تعالى: **﴿ومن يعصي الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها﴾**[2]، وقوله تعالى: **﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿وإن الفجار لفي جحيم، يصلونها يوم الدين، وما هم عنها بغائبين﴾**[4].

وأما المؤمن، فمن أهل الجنة والدرجات العلى إذا مات على إيمانه.

مسألة:

وإن قال: إن الوعيد في الكتاب إنما ورد في الكفار.

قيل له: هذا غلط، لأن ما ذكرناه من الآيات عام، ويجب حمل العموم على عمومه إلا بدليل، كما يجب حمل الخصوص على خصوصه، ومتى جوز خلاف ذلك لم يفهم لخطاب الله تعالى شيء البتة، والله تعالى منزه عن ذلك.

---

(١) في الأصل: عقاب.
(٢) النساء: ١٤.
(٣) النساء: ٩٣.
(٤) الانفطار: ١٤.

إلزام:

فإن قال: فقد قال تعالى، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[1]، وهذا يدل على أنه يغفر الجميع.

قيل له: المراد بذلك العدول عن طريق اليأس إلى طريق الرجاء بالتوبة «والانابة»[2] لأنه يحرم على المسرف أن يظن أن التوبة لا تنفعه، فيصر، ولا يتوب، ولهذا قال: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب﴾[3]، يدل بذلك على أنه لولا الانابة لجاءهم العذاب، وهو الذي قلناه.

إلزام:

فإن قال: فقد قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[4]، وهذا يدل على أن «غير»[5] «الشرك»[6] يجوز أن يغفر.

قيل له: إن هذه الآية توجب التوقف فيمن ليس بمشرك، لأنه تعالى علق غفرانه بالمشيئة، وهذا إبهام وإهمال، وبين بآية أخرى أن الذي يشاء أن يغفر له المجانب لكبائره، بقوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾[7].

إلزام:

فإن قيل: فإن كان الفاسق أبداً في النار، فما الفرق بينه وبين الكافر؟

قيل: هما يستويان في كونهما[8]، ويجعل الكافر أشد عذاباً، كما أن النبي والمؤمن يتفقان، ودرجات النبي أعظم.

---

(1) الزمر: ٥٣.
(2) في الأصل: وإنابة.
(3) الزمر: ٥٤.
(4) النساء: ٤٨.
(5) غير موجودة في الأصل.
(6) في الأصل: المشرك.
(7) النساء: ٣١.
(8) أي وجودهما في النار.

إلزام:

فإن قالوا: فإيمانه لم ينفع إذاً.

قيل «لهم»[1]: ما وقع منه من طاعة وإيمان أفسده بفسقه وأحبطله بمعاصيه، فإنما أُتِيَ فيهما من قبل نفسه، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾[2]، ومع ذلك فإنه لولا إيمانه لما خف عقابه، فيصير ثواب إيمانه مسقطاً من عقابه ما يوازيه ويستحق الزائد، كما نقوله فيمن له على إنسان مائة درهم، ولذاك عليه عشرة، ويستحق الباقي، فكذلك هذا.

إلزام:

فإن قال: فقد قال الله تعالى: ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى، لا يصلاها إلا الأشقى، الذي كذب وتولى﴾[3]، وهذا «يدل»[4] على أن الفاسق لا يدخلها.

قيل «له»[5]: هذا مذهب المرجئة، لأنهم يجوزون فيه أن يدخل، ولا يقطعون بذلك.

«و»[6] المراد بالآية: نار مخصوصة لا نصليها إلا الكفار، ولا يمنع ذلك من دخول الفاسق النار في الجملة، لأن النيران درجات كما أن الجنة درجات، ولهذا قال تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾[7] وهذه الجملة أبطلت قول الخوارج في إكفار الفاسق وقول المرجئة «في»[8] وصفهم «إياه»[9] بالإيمان، و«نكرر»[10] على صحة ما نقوله من أن له منزلة بين هاتين المنزلتين، وهذا المذهب مأخوذ عن أمير المؤمنين عليه السلام[11]، لأنه كان يلعن من بغى عليه ويصفه بالفسق ويميزهم عن الكفار في الإرث والدفن وغيره، كما يفرق بينهم وبين المؤمن في المدح والتعظيم، وهذا مشهور ظاهر من مذهبه وطريقته فيهم.

---

(١) في الأصل: له.
(٢) البقرة: ٢٦٤.
(٣) الليل: ١٥.
(٤) غير موجودة في الأصل.
(٥) في الأصل: ليس.
(٦) غير موجودة في الأصل.
(٧) النساء: ١٤٥.
(٨) في الأصل: ما.
(٩) غير موجودة في الأصل.
(١٠) في الأصل: نكر.
(١١) المراد علي بن أبي طالب.

مسألة:

فإن قال: أفتقولون في الايمان، إنه يزيد وينقص؟

قيل له: نعم، لأن الايمان كل واجب يلزم المكلف القيام به، والواجب على بعض من المكلفين أكثر من الواجب على غيره، فهو يزيد وينقص من هذا الوجه. وقد وصف الله تعالى الصلاة بذلك فقال: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[1]، كما وصفه ديناً، فقال: ﴿وذلك دين القيمة﴾[2] وقال، صلى الله عليه وآله: «لا إيمان لمن لا أمانة له» و«لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»، فجعل من الايمان ترك «السرقة»[3] منه، فبطل قول المرجئة في أن الايمان قول فقط أو قول واعتقاد، وأنه لا يزيد ولا ينقص.

وعلى المذهب يصح تفاضل العباد في الايمان، فيكون «إيمان»[4] الرسول عليه السلام أعظم من إيمان «غيره»[5] على «قولنا»[6]، وعلى قولهم لا يصح.

* * *

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) البينة: ٥.

(٣) في الأصل: السرق.

(٤) غير موجودة في الأصل.

(٥) في الأصل: غير.

(٦) في الأصل: قولهم.

باب
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]

«قد»[2] دل الكتاب «و»[3] السنة والإجماع على وجوب ذلك، «فقال»[4] الله تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾[5]. والأدلة على ذلك لا تحصى، والعقل يبين أن من الإحسان أن نمنع الغير من القبيح، ويكون المانع عند ذلك أقرب.

مسألة:

فإن قال: أفتجوزون ما ورد في الأخبار من عذاب القبر ومنكر ونكير والمساءلة والمحاسبة والميزان والصراط وغير ذلك؟

قيل له: نعم، نؤمن بجميع ذلك على الوجه الذي نُجَوِّز له لا على ما يظنه الحشو من أنه يعذبهم وهم موتى في قبورهم، ولا كما تقوله المجبرة من أنه لا أصل لعذاب القبر، بل نقول: إنه تعالى «يعيدهم»[6] أحياء الوقت الذي يعذبهم فيه، ثم يعودون موتى، وقد قال الله جل وعز ما يدل عليه، وهو قوله: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾[7]، و«أثابهم كذلك»[8] على قولنا.

وقد تظاهرت الأخبار بذلك، ولا يمتنع أن يتولى ذلك من يلقب من الملائكة بمنكر ونكير «ليكون»[9] أعظم في التعذيب.

---

(1) في الأصل: ونهي.
(2) في الأصل: و.
(3) في الأصل: في.
(4) في الأصل: وقال.
(5) المائدة: ٧٨.
(6) في الأصل: معد لهم. هكذا دون إعجام.
(7) غافر: ١١.
(8) في الأصل: أما هم ذلك.
(9) غير موجودة في الأصل.

وكذلك المساءلة والمحاسبة، وغير ذلك، إنما يفعله تعالى، ليس يذع العباد عن المعاصي في الدنيا خيفة من هذه الأهوال.

وكذلك الميزان، يجوز أن يجعل في إحدى الكفتين نوراً وفي الأخرى ظلمة يتبين بهما حال المكلف، وأنه من أهل النار أو الجنة، وإنما الذي لا نجوزه وزن الأعمال لأنها قد قيدت وليست بجسم فيوزن.

والصراط هو الطريق، ولا نجوز ما يذكرونه من حدته وصعوبته في أهل الجنة، وإن جوزناه في أهل النار.

فنحن نؤمن بما جاء في ذلك من الأخبار، على الوجه الصحيح، إلى أن يمتنع من أمثاله فيكون من مصالحه، ولا خلاف بين الأمة «في ذلك»[1].

* * *

(١) غير موجودة في الأصل.

باب
«له»[1] آخر من القول في الشرائع

والشرائع على ضربين:

أحدهما: عبادة تلزمه في نفسه وبدنه إذا كان مكلفاً، حتى لا يخلو منه، وهذا كالصلوات الخمس وما يلزمه في شروطها من طهارة وستر عورة وصوم شهر رمضان «وما»[2] أشبه. ومن هذا الباب ما يلزمه من كف النفس عن المنكر، نحو ترك الظلم، وغض البصر عن المحارم، وترك الزنا، والشرب، إلى ما شاكله، فهذا لازم لكل أحد من المكلفين في نفسه، إلا أن يحدث به، في بعض الأوقات، عجز أو سهو وما شاكله فيتغير حاله.

والضرب الثاني: يلزمه، لا في بدنه ونفسه، بل يعتبر في وجوبه سوى ذلك، وهو على ضروب:

منها ما يلزمه إذا كان له مال، كنحو الزكوات وكنحو الكفارات والوفاء بالنذور، وغير ذلك وكنحو الحج إذا «وجدت»[3] الاستطاعة، والجهاد، على بعض الوجوه، وكل هذا وما أشبهه إنما يلزمه إذا ملك اما قليلاً واما كثيراً، وبحسب ما ورد به الشرع.

ومنها ما يلزمه إذا فعل فعلاً يلزم به، ولولاه كان لا «يلزم»[4]، نحو الكفارات، «فإنها»[5] تلزمه إذا كان منه سببها من الأيمان والجنايات في الحج، وغير ذلك، ونحو كثير من النفقات تلزمه إذا هو فعل فعلاً. ويلزمه رد الوديعة إذا

---

(١) ظاهر أنها من الناسخ.

(٢) مكررة في الأصل.

(٣) في الأصل: وجد، وهي تصح على تقدير الفاعل المذكر.

(٤) غير موجودة في الأصل.

(٥) في الأصل: وانها.

استودعها وتكفل بحفظها، ويلـزمه الـوفاء بالنذر إذا نذر نذراً صحيحاً، وتلـزمه أحكام الطلاق والعتاق إذا كان منه إيقاعهما، فقد يجوز في هذا القسم أن لا يلزمه بأن يتحرر من سبب وجوبه كما قد لا يلزمه الأول بأن لا يتفق له ملك الأموال.

ومنها «ما»[1] يلزمه إذا فعل هو وغيره معه فعلاً كالمعاملات التي لا تتم بواحد نحو البياعات، وغير ذلك، و«كنحو»[2] أحكام النكاح.

ومنها ما يلزمه إذا حدثت جناية من غيره نحو التزام الدية في العاقلة[3].

وقد تلزم كثير من العبادات عند حدوث أمور من قبله تعالى، نحو ما يلزمه من نفقة الولد والوالد عند فقرهما وزمانتهما، ونحو أحكـام النسب إذا حدث الولـد وغيره، ونحو أحكام المواريث إذا حدث الموت.

وقد يلزم الغير نحو تحريم فعل الغير، نحو تحريم حليلة الابن وحليلة الأب عليه، وتحريم امرأته «لحدوث»[4] الرضاع، وغير ذلك.

وأقسام العبادات والشرائع تختلف، لكنه يجب أن يقع الاهتمام بها بحسب الحاجة إليها، فما لا بد له من القيام به يجب أن يشتد اهتمامه به كالصلاة وغيرها، ثم هكذا على التدريج بحسب ما يدفع إليه.

وكـذلك يسهل أمر المعاملات التي تجوز فيها المصالحة لأنها من الباب الذي يمكن «المرء»[5] إسقاطه «عن»[6] نفسه.

وتنقسم العبادت إلى قسمين:

أحدهما: يلزم الكافة علمه وتحمله، وربما يلزم عمله ولا يلزم تحمله، نحو وجوب الصلوات، وأعدادها، والأكثر من شروطها، وكنحو الحج، والزكاة، في الجملة، وتحريم الخمر، والزنا، و«الربا»[7]، إلى ما شاكله.

---

(١) غير موجودة في الأصل.
(٢) في الأصل: كحنو.
(٣) في أساس البلاغة للزمخشري: عقلت عنه: لزمته دية فأديتها عنه «والدية على العاقلة».
(٤) في الأصل: لحدث.
(٥) في الأصل المرالي.
(٦) في الأصل: عمق.
(٧) في الأصل: الربوا.

ومنها: ما يلزم العلماء معرفته، أو يلزمهم معرفة طريق الحكم فيه من حيث لزمهم التعليم والفتيا أو من حيث امتحنوا به في أنفسهم. فللعامي تقليد العالم والرجوع إليه، لأنه قد علم أن من دين النبي صلوات الله عليه وآله[1] أنه يسوغ له القبول منه، وهذا نحو مسائل الاجتهاد، ونحو ما يلزم الحاج عند كثير من الجنايات في قتل الصيد واللباس والطيب.

وما يلزمه في الأيمان، وغير ذلك، والذي لا يخلو منه المكلف، هو الذي يجب أن تشتد به عنايته دون ما يجوز أن يكون فيه مقلداً «وللغير»[2] تابعاً، «وهي»[3] أصول الشرائع، بعد أن يعرف الله جل وعز ويعرف رسله.

مسألة:

فإن قال: أفما يجوز للعوام التقليد في معرفة الله، والرجوع إلى العلماء؟

قيل له: لا، بل يلزمهم إذا كانوا عقلاء مكلفين أن يستدلوا على الله جل وعز ويعرفوه على «ما»[4] بينا، وينزهوه عن القبائح، على ما قدمنا.

فإن قال: أفيلزمهم معرفة كل الذي «تذكرونه»[5] من المسائل؟

قيل له: لا، وإنما يلزمهم الجمل من ذلك، ما لم تحدث عليهم شبهة تشككهم فحينئذ يلزمهم النظر فيما يزيل تلك الشبهة، ولا يلزمهم تلخيص العبادات، لأنه قد تقرر في العقول حاجة الفعل إلى فاعل يجب أن يكون حياً قادراً عالماً سميعاً بصيراً، إذا كان فعله متقناً، وأن خالق السموات والأرضين يجب أن يكون مخالفاً لنا، وأنه لا يجور، وعدل لا يظلم، وأنه واحد لا ثاني له، وأن بيده الثواب والعقاب، وأن الواجب طاعته، وشكره، ومجانبة معاصيه، وتصديق رسله فيما يؤدونه من الشرائع. وهذه جملة متقررة في العقل، لا خلاف بين الأمة فيها، وإنما نقضها قوم فزعموا أن مع الله قديماً في الأزل، نحو الكلابية، وإن «لحنوا»[6] اللفظ فخرجوا عن التوحيد.

---

(١) هنا كلمة: «واسة». دون إعجام.

(٢) في الأصل: ويتغير.

(٣) في الأصل: وهو.

(٤) غير موجودة في الأصل.

(٥) في الأصل: تذكروه.

(٦) هكذا بالأصل.

وقال قوم بقدم القرآن، فكان هذا حالهم، وقال قوم بإضافة كل قبيح إلى الله، فتركوا العدل، وقالوا في ربهم أنه لا قبيح إلا من قبله، وهو، مع هذا، أعدل العادلين. وقال قوم إنه الله «تعالى»[1] ليس كمثله شيء، وهو مع ذلك على العرش يستوي وينزل إلى السماء الدنيا، فناقضوا. وقال قول: إنه لا يجوز عليه المكان والجهات، ومع هذا يرى بالبصر، فناقضوا. وقال قوم: إنه حكيم فيما يقضي، وقد قضى على الكافر الكفر، وأوجده فيه، وكلفه الإيمان ولم يعطه القدرة، ثم يعذبه أبداً، فناقضوا. إلى غير ذلك مما وصفناه.

جرينا نحن على الطريقة المثلى، «فوفيناه من التفصيل»[2] والجملة، «الثابتة»[3] عند الأمة، المتقررة في العقول، ولم ينقض بعضها ببعض، على ما بيناه.

ونحن نسأل الله العصمة والتوفيق في العمل «بما علمنا»[4]، وأن ينفعنا بما أنجزناه في هذا المختصر، «فإننا»[5] لم نأل «فيه»[6] الجهد في التقريب والإيضاح، وأن يختم لنا بالخير والسعادة، إنه ولي الإجابة والقادر على ما يشاء.

والحمد لله حق حمده، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والصلاة على خير الأولين والآخرين محمد المصطفى صلى الله عليه «و»[7] الرسول المجتبى وآله الأبرار الطيبين الأطهار.

* * *

---

(١) في الأصل: لعلي.
(٢) في الأصل: فو معناه من التفضل.
(٣) في الأصل: الثانية.
(٤) مكررة في الأصل.
(٥) في الأصل: فإنما.
(٦) في الأصل: وفيه.
(٧) غير موجودة في الأصل.

الشريف المرتضى:

إنقاذ البشر
من الجبر والقدر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وبه أستعين وأوثق..

نبتدىء رسالتنا هذه بالحمد لله ربنا على نعمه الواصلة «منه»[1] إلينا، وعلى إحسانه المتقدم «لدينا»[2]، «إذ»[3] أصبحنا بتوحيده وعدله قائمين، ولمن جَوَّره في حكمه عائبين، ولمعاصينا عليه غير حاملين، وبآثار أئمة الهدى مقتدين، وبالمحكم من كتابه وآياته متمسكين.

فالحمد لله الذي اختصنا بهذه النعمة، وشرفنا بهذه الفضيلة. وصلى الله على محمد خاتم النبيين ورسول رب العالمين، الذي جعله رحمة للعباد أجمعين، واستنقذ من الهلكة.وهدى به من الضلالة، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، فبلغ عن ربه، واجتهد في طاعته حتى آتاه اليقين؛ وعلى آله الطاهرين.

سألت، أعزك الله وأرشدك، إملاء رسالة في القدر، فقد جالت «فيه»[4] الفكر، وأكثرها عن معرفته قد انحسر، وذكرت أن الذي حداك إلى ذلك ما وجدته ظاهراً في عوام النيل ومعظم خواصها من القول «بالجبر»[5] المؤدي إلى الكفر المحض[6]، وتجويرهم الله في حكمه، «وحمل»[7] معاصيهم عليه، وإضافتهم القبائح إليه، وتعلقهم بأخبار مجهولة «منكرة»[8] أو «مشابهة»[9] في اللفظ مجملة، وحجاجهم بما تشابه من الكتاب، لعدم معرفتهم بفائدته وقصور أفهامهم عن «الغرض»[10] المقصود به.

(١) غير موجودة في النسخة ب.
(٢) في النسخة ب: علينا.
(٣) في النسخة ب: إذا. وهو خطأ.
(٤) في النسخة ب: به.
(٥) غير موجودة في النسخة ب.
(٦) في النسخة ب زيادة «بسبب الجبر».
(٧) في النسخة ب: وحملهم.
(٨) في النسخة أ: منكر.
(٩) في النسخة ب: متشابهة.
(١٠) غير موجودة في النسخة ب.

واعلم أن الكلام في القضاء والقدر قد أعيا أكثر أهل النظر[١]، والذي يجب على من أراد معرفة[٢] هذا الباب «وهو»[٣] العلم بما يستحق الباري سبحانه من الأوصاف الحميدة وما ينفى عنه من ضدها، فإنه متى علم ذلك أمن أن يضيف إليه ما ليس من أوصافه أو ينفي عنه ما هو منها، ويتبع ذلك من الأبواب ما لا بد من الوقوف عليه، نحو: المعرفة بأقوال المبطلين ومعرفة أقوال المحقين وغير ذلك مما سنبينه فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

واعلم أن أول حالة ظهر فيها الكلام وشاع بين الناس في هذه الشريعة هو أن جماعة ظهر منهم القول بإضافة «معاصي»[٤] العباد إلى الله سبحانه، وكان «الحسن»[٥] بن أبي الحسن البصري[٦] ممن نفى ذلك، ووافقه، في زمانه، «جماعة»[٧] وخلق وكثير من العلماء كلهم ينكرون أن تكون معاصي العباد من الله، منهم معبد الجهني[٨]، وأبو الأسود الدؤلي[٩]، ومطرف بن عبد الله[١٠]، ووهب بن

---

(١) في النسخة ب زيادة: «وأتعب ذوي الفكر، والمتكلم فيه بغير علم غاية من الخطر».

(٢) في النسخة ب زيادة: «في».

(٣) في النسخة أ: وهذا.

(٤) في النسخة أ: المعاصي.

(٥) في النسخةأ: الحسين، وهو خطأ.

(٦) وكنيته أبو سعيد، ولد سنة ٣٠هـ بالمدينة، وتوفي سنة ١١٠ هـ وكان أبوه مولى لزيد بن ثابت، ولذلك كانت نشأته في بيت النبوة. وعلى الرغم من مخالفته للمعتزلة في المنزلة بين المنزلتين إلا أنه كان على رأيهم في أهم أصلين من أصولهم الخمسة وهما العدل والتوحيد وابن المرتضى بذكره في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة. (راجع: المنية والأمل. باب ذكر المعتزلة ص ١٥، والمعارف لابن قتيبة. ص ٤٤١، ٤٤٢، والملل والنحل جـ ١ ص ٤٧).

(٧) غير موجودة في النسخة ب، وعبارتها «خلق كثير من العلماء».

(٨) من أوائل من أظهر القول بأن الإنسان صانع أفعاله وخالقها، وهو بصري عذبه الحجاج وصلبه سنة ٨٠هـ بأمر من عبد الملك بن مروان، وكان معلماً للصبيان. ورغم قوله بالقدرة للانسان فالمعتزلة لا تذكره في طبقاتها لأنه كان من المشبهة. (راجع المعارف لابن قتيبة. ص ٥٤٧).

(٩) هو أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي (١٦ - ٦٩هـ) اشتهر بوضعه لمبادىء علم النحو العربي بأمر من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

(١٠) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير، بصري، توفي سنة ٧٨هـ.

منبه[1]، وقتادة[2]، وعمرو بن دينار[3]، ومكحول الشامي[4]، وغيلان[5]، وجماعة كثيرة لا تحصى.

«ولم يك»[6] ما وقع من الخلاف حينئذ يتجاوز باب[7] إضافة معاصي العباد إلى الله، سبحانه عن ذلك، ونفيها عنه، وغيره «من»[8] هذا الباب: بيان القضاء «والقدر»[9] وما أشبهه، فأما الكلام في خلق أفاعيل العباد، في الاستطاعة، وفيما اتصل بذلك وشاكله فإنما حدث بعد دهر «طويل»[10] ويقال إن أول من حفظ عنه القول بخلق أفاعيل العباد جهم بن صفوان[11]، فإنه زعم أن ما يكون في العبد من كفر وإيمان ومعصية فالله فاعله كما فعل لونه وسمعه وبصره وحياته، فلا فعل للعبد في شيء من ذلك ولا صنع، والله تعالى صانعه، وأن لله أن يعذبه من ذلك على ما يشاء ويثيبه على ما يشاء، وحكى عنه علماء التوحيد أنه كان يقول مع ذلك إن الله

---

(1) وينسب الى صنعاء لولادته ووفاته (٢٣ ـ ١١٣ هـ)، وله آثار كثيرة في التاريخ ويذكر ابن قتيبة في ص ٦٢٥ من المعارف انه رجع عن آرائه في القدر.

(2) هو قتادة بن دعامة السدوسي، ذكر ابن المرتضى في الطبقة الرابعة للمعتزلة (راجع المنية والامل. ص ١٥ ـ ٢٥).

(3) وهو بصري، من رواة الحديث.

(4) وهو من أصل سندي، وكان مولي لامرة من هذيل، كتب في الفقه، وتوفي سنة ١١٦ هـ.

(5) هو ذو الرمة ابو الحارث غيلان بن عقبة بن فهيس بن مسعود العدوي، وهو غير غيلان الدمشقي الذي يذكره ابن المرتضى في اطبقة الرابعة للمعتزلة، والذي استعان به عمر بن عبد العزيز في تصفية املاك الامويين المغتصبة من بيت المال، فكان ينادي عليها قائلاً: تعالوا الى مال الخونة، تعالوا الى مال الظلمة. ومر به هشام بن عبد الملك وسمعه، فأقسم على قتله، وعندما ولي الخلافة صلبه بباب دمشق (راجع المنية والامل. ص ١٥، والمعارف لابن قتيبة ص ٤٨٤) (وبالنسبة لذي الرمة راجع أمالي المرتضى. القسم الاول. ص ١٩)

(6) في النسخة أ: وذلك.

(7) في النسخة ب بزيادة: «صفات»

(8) غير موجودة في النسخة أ.

(9) في السنخة ب: والقدرة، وبعدها كلمة: والمقدور.

(10) غير موجودة في النسخة أ.

(11) وكنيته أبو محرز، كان من الثوار ضد بني أمية خلف الحارث بن سريج التميمي أخذ الكلام عن جعد بن درهم، وكان ينفي التشبيه عن الله، وهو ما وافقته فيه المعتزلة واليه تنسب الجهمية. قتل سنة ١٢٨. أو سنة ١٣٢. (راجع الملل والنحل جـ ١ ص ٨٦ ـ ٨٨، ٨ والتعريفات للجرجاني ص ٧١=

خلق في العبد قوة بها كان فعله كما خلق له غذاء «به يكون»[1] قوام بدنه، ولا يجعل العبد كيف يصرف حاله فاعلاً لشيء على «حقيقته»[2]، «فاستشنع ذلك، من قوله، أهل العدل وأنكروه»[3]، مع أشياء أخر حكيت عنه.

ولما أحدث جهم القول بخلـق أفعال العباد، «وقبل»[4] ذلك ضرار بـن عمرو[5]، بعد أن كان «ضرار»[6] يقول بالعدل، فانتفت عنه المعتزلـة وأطرحته، فخلط عند ذلك تخليطاً كثيراً، وقال بمذاهب خالف فيها جميع أهل العلم وخرج عما كان عليه واصل بن عطاء[7]، وعمرو بـن عبيد[8]، بعدما كان يعتقد فيهما من العلم وصحة الرأي، لأنه كان في الأول على رأيهما، بل صحبهما وأخذ عنهما، ثم

= وكشاف السلاحات الفنون للتهانوى ص ٢٩١ وتاريخ الجهمية والمعتزلة لجمال الدين القاسمي. ٧ - ١٢، ومقالات الاسلاميين للاشعري. جـ ١ ص ٢٧٩، ٢٨٠).

(١) النسخة ب: يكون به.

(٢) في النسخة ب: حقيقة.

(٣) العبارة في النسخة ب: «فاستبشع من قول أهل العدل»، وفي النسخة أ: فأنكره بدلاً من أنكروه.

(٤) في النسخة ب نجد كلمة «قبل» بدون أداة العطف.

(٥) واليه تنسب الضرارية، وهي فرقة جبرية، ووافقة في آرائه، حفص الفرد. راجع (الملل والنحل جـ ١ ص ٨٦، ٩٠، ٩١ والفهرست ص ١٧٨).

(٦) غير موجودة في النسخة ب.

(٧) وكنيته أبو حذيفة، ويدعي الغزال (٨٠ - ١٣١ هـ) وهو من الموالي، أخذ أصول الاعتزال عن أبي هشام عبد الله بن محمد بن الحنيفة بن علي بن أبي طالب، وكانت ولادة وأصل بالمدينة، وحياته بالبصرة وبه يؤرخ تبلور الاعتزال كمدرسة لها قسمات خاصة ودعاة وتنظيم. يذكره ابن المرتضى في الطبقة الرابعة للمعتزلة، وله مصنفات كثيرة لم يبق لنا منها شيء. (راجع الملل والنحل جـ ١ ص ٤٦، ٤٧، والمنية والامل ص ١٥ - ٢٥، والتعريفات للجرجاني ص ٢٢، وكشاف اصطلاحات الفنون ص ٥٠٦).

(٨) هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب (٨٠ - ١٤٤ هـ) من موالي تميم، وكان جده من رقيق كابل، وهو مع واصل يعـدان أبرز مؤسسي الاعتزال، وكان زاهداً وثائراً في نفس الوقت، انحاز الى «يزيد الثالث» الأموي المعتزلي ضد «الوليد الثاني» الاموي، وقال فيه أبو جعفر المنصور:

كلكم يمشي رويد . . كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد

(راجع فلسفة المعتزلة للدكتورالبير نصري نادر. ص ١٥، ١٦، وتاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين لعلي مصطفى الغرابي ص ١٠٢ - ١٠٥، والمنية والأمل ص ١٥-٢٥).

تكلم الناس بعد ذلك في الاستطاعة، فيقال إن أول من أظهر القول بأن الاستطاعة مع الفعل يوسف السمني[1]، وأنه استزله[2] إلى ذلك بعض الزنادقة «فنقله»[3] عنه، ثم قال بذلك حسين النجار[4]، وانتصر لهذا القول ووضع فيه الكتاب، فصارت مذاهب المجبرة[5] بعد ذلك على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الله تعالى خلق فعل العبد، وليس للعبد في ذلك فعل ولا صنع، وإنما يضاف إليه «أنه»[6] فعله كما يضاف إليه لونه وحياته، وهو قول جهم.

والثاني: أن الله، تعالى، خلق فعل العبد، وأن العبد فعله «باستطاعة»[7] في العبد متقدمة، وهو قول ضرار ومن وافقه.

والثالث: أن الله «تعالى»[8] خلق فعل العبد، وأن العبد فعله باستطاعة حدثت له في حال الفعل، لا يجوز أن تتقدم الفعل، وهو قول النجار، وبشر المريسي[9]، ومحمد بن غوث[10]، ويحيى بن كامل[11]، وغيرهم من متكلمي

---

(1) هو يوسف بن خالد السمني، من رواة الحديث، توفي سنة ١٨٩ هـ.

(2) أي أوقعه في هذه الزلة.

(3) في النسخة ب: فقبله.

(4) هو محمد بن الحسين النجار، واليه تنسب النجارية، توفي سنة ٢٣٠ هـ، (راجع الملل والنحل. ص ٨٦، ٨٨، ٨٩ والتعريفات للجرجاني ص ٢١٤، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي. ص ١٣٨٢، ١٣٨٣، ومقالات الاسلاميين للاشعري جـ ١ ص ٢٨٣، ٢٨٥).

(5) هم القائلون بالجبر، ويقال لهم بالجبرية، وهم فرق كثيرة يجمعها القول بخلق الله لأفعال العباد. (راجع كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي. ص ١٩٩/ ٢٠٠، والتعريفات للجرجاني ص ٦٥).

(6) في النسخة ب: لأنه.

(7) في النسخة ب: في استطاعة.

(8) غير موجودة في النسخة ب.

(9) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث المريسي، فقيه متكلم، بغدادي، توفي سنة ٢١٨هـ.

(10) ليس في كتب المقالات التي رجعنا إليها من له هذا الاسم، ولعله «برغوث» بدلاً من «بن غوث» وإليه تنسب البرغوثية وهم الذين قالوا كلام الله إذا قرىء فهو عرض وإذا كتب فهو جسم. التعريفات، للجرجاني ص ٣٨، وكان برغوث يميل إلى قول الحسين النجار «ويزعم أن الأشياء المتولدة فعل الله بإيجاب الطبع، وذلك أن الله سبحانه طبع الحجر طبعاً يذهب إذا دفع، وطبع الحيوان طبعاً يألم إذا ضرب وقطع». مقالات الاسلاميين للأشعري. جـ ١ ص ٢٨٤.

(11) هو أبو علي يحيى بن كامل بن طليحة الحذري، كان من أصحاب بشر المريسي وعلى رايه، ثم صار خارجياً أباضياً.

المجبرة. وعند هذا أكثر «متكلمي المجبرة نحو الأشاعرة[1]، وغيرهم»[2].

ثم تكلم الناس بعد ذلك فيما اتصل بهذا من أبواب الكلام في العدل، واختلفوا فيه اختلافاً كثيراً. والكلام في ذلك «من»[3] أوسع أبواب العلم «وجوهاً وأعمقها بحراً»[4]، ونحن نورد في هذا المعنى ما يتحصل به الغرض وتنحسم به شبه الخصوم، ونجعله ملخصاً وجيزاً، بلفظ مهذب، وإلى الفهم مقرب، و«ابتدىء»[5] في أوله بوصف دعوة أهل الحق في ذلك و«أردفها»[6] بما يجب، وقد «سمينا»[7] هذه الرسالة بإنقاذ البشر من الجبر والقدر[8]، وها نحن مبتدئون بذلك ومستعينون بمن له الحول والقوة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

(١) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٣٤هـ، صاحب كتاب «مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين» وهو من أجود كتب المقالات. وكان الاشعري معتزلياً ثم رفض الاعتزال، وحاول عن طريق الاعتراف للإنسان بالكسب مع القول بنسبة خلق الافعال لله أن يتخذ موقفاً وسطاً بين الجبر والاختيار، ولكنه لم يخرج عن إطار المجبرة من ناحية الحقيقة والموضوع.

(٢) مكررة في النسخة ب.

(٣) غير موجودة في النسخة ب.

(٤) غير موجودة في النسخة ب.

(٥) في النسخة ب: نبتدىء.

(٦) في النسخة ب: نردفها.

(٧) في النسخة أ: سمنا، وفي النسخة ب: وسمتا.

(٨) وهذا الاسم الذي اختاره المرتضى لرسالته هذه قد حوره الناسخ للنسخة أ فجعل عنوانها في الصفحة ٢ من المخطوطة: (رسالة في إنقاذ البشر من القضاء والقدر) ولقد جاء عنوان النسخة ب: (انقاذ البشر من الجبر والقدر) وكل الذين أشاروا إلى هذه الرسالة أثناء حديثهم عن المرتضى قد ذكروا اسمها الصحيح.

فصل

في دعوة أهل الحق وبيانها

قالت عصبة الحق: «إن»[1] الله جل ثناؤه اصطفى الإسلام ديناً، ورضيه لعباده، واختاره لخلقه، ولم يجعله موكولاً إلى آرائهم، ولا جارياً على مقادير أهوائهم، دون أن نصب له الأدلة وأقام عليه البراهين وأرسل به الرسل وأنزل «فيه»[2] الكتب، «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة»[3].

وللإسلام حدود، وللقيام به حقوق، وليس كل من ادعى ذلك «أحرزه»[4]، ولا كل من انتسب إليه صار من أهله، وقد علمنا أن أهل القبلة قد اختلفوا في أمور صاروا فيها إلى أن ضلل[5] بعضهم بعضاً وكفر بعضهم بعضاً، وكل يدعي أن ما ذهب إليه من ذلك وانتحله هو دين الله ودين رسوله.

ومعلوم عند كل عاقل أن ذلك كله على «اختلافه»[6] لا يجوز أن يكون حقاً لتضاده «وتنافيه»[7]، ولا بد حينئذ من اعتبار ذلك «وتمييزه»[8]، ليتبع منه الحق ويجتنب الباطل.

وقد «علمنا»[9] بالأدلة الواضحة والبراهين الصحيحة، التي يوافقنا عليها جميع فرق أهل الملة، «بطلان»[10] قول[11] من خالف جملة الإسلام وما جاء[12] به القرآن وصح عن الرسول عليه السلام. «وإذا»[13] كان الأمر كذلك «فواجب»[14]

---

(١) في النسخة ب: وان.

(٢) في النسخة ب: به.

(٣) الأنفال: ٤٢.

(٤) في النسخة ب: اخذه.

(٥) عبارة النسخة ب: «صاروا فيها إلى خلل، فضلل».

(٦) في النسخة أ: اختلاف.

(٧) في النسخة ب: واختلافه.

(٨) في النسخة أ: تميزه.

(٩) في النسخة ب: علمناه.

(١٠) في النسخة ب: وابطل.

(١١) في النسخة ب بزيادة: كل.

(١٢) في النسخة ب: ما جاء، بدون حرف العطف.

(١٣) في النسخة ب: فإذا.

(١٤) في النسخة ب. وجب.

أن يكون كل من قال من الأمة قولاً يكون، عند الاعتبار والنظر، خارجاً مما يوجبه الإسلام ويشهد به الرسول والقرآن، أو موجباً لأن يكون معتقده ليس من جملة الإسلام على سبيل «ثقة»[1] واستبصار، لقوله بما لا يصح اعتقاده الإسلام معه، ولا يوصل إلى معرفته نعم القول به، فهو محجوج في مذهبه، ومبطل في قوله، ومبتدع في الإسلام بدعة ليست من دين الله ولا دين رسوله.

قالوا: وقد تدبرنا ما اختلف فيه أهل القبلة «بفطرة عقولنا وعرضنا»[2] ذلك على كتاب الله سبحانه وسنة نبينا عليه السلام، فوجدنا الحق «من ذلك[3] متميزاً من الباطل تميزاً يدركه كل من يَدَّبر الكتاب والسنة بفكره «ويميز»[4] الأمور بعقله، ولم يجعل هواه قائداً له، وتقليد من لا حجة في تقليده، فرأينا من الواجب علينا في الدين أن نبين «أمور»[5] ذلك «للناس»[6]، ولا نكتمه، وأن ندعوهم إلى الحق ونحتج له ولا نتشاغل عن ذلك ونعرض عنه، ونحن نرى ما حدث من البدع وخولف من سبيل السلف. وكيف يجوز الاعراض عن ذلك والله «عز وجل»[7] يقول: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون**﴾[8]، وقالَ «تعالى»[9]، ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون**﴾[10].

قالوا: وأي منكر أفحش وأي معصية أعظم من تشبيه الله بخلقه، ومن تجويره في حكمه، ومن سوء الثناء عليه، وإضافة الفواحش والقبائح إليه؟.. وكيف لا يكون كذلك، وفي القول بالتشبيه والإجبار الانخلاع «من»[11] معرفة الله تعالى ومعرفة[12] رسله؟!.. إذ كل من شبه الله بشيء من خلقه لم يتهيأ له أن يثبت الله قديماً وقد أثبت له مثلاً محدثاً، وفي ذلك عدم العلم بالصنع والصانع والرسول

---

(1) في النسخة ب: قوة.
(2) هذه العبارة غير واضحة في النسخة أ.
(3) في النسخة ب: بذلك.
(4) في النسخة ب: وتميز.
(5) في النسخة ب: أمر.
(6) في النسخة أ: الناس.
(7) في النسخة ب: تعالى.
(8) آل عمران: ١٠٤.
(9) غير موجودة في النسخة ب.
(10) المائدة: ٧٨، ٧٩.
(11) في النسخة ب: عن.
(12) في النسخة ب بزيادة: جميع.

والمرسل، وإن من «أجاز»[1] على الله، جل وعلا، فعل الظلم والكذب وإرادة الفواحش والقبائح لم يمكنه أن يثبت لرسول من «رسل»[2] الله معجزة أقامها الله تعالى لهداية الخلق دون إضلالهم، ولا لرشدهم دون إغوائهم، وفي ذلك سقوط العلم بصدق الرسل «عليهم السلام»[3] فيما دعت إليه، وذلك يوجب أن لا يكون معتقداً «لسننه»[4] والإخبار على ثقة «ويقين» من صدق الرسل ولا صحة الكتب ولا كون[5] الجنة والنار، وهذا هو الخروج «من الإسلام»[6] والانخلاع «من»[7] دين محمد عليه السلام.

قالوا: ونحن نصف قولنا ونذكر دعوتنا، فليتدبر ذلك السامع منا، «وليقابل»[8] به قول غيرنا، فإنه سيعلم إن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أينا أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً وأولى بالتمسك بالكتاب والسنة واتباع الحجة ومجانبة البدعة.

فأول ذلك «أنا»[9] نقول: إن الله ربنا، ومحمد نبينا، والإسلام ديننا، والقرآن إمامنا، والكعبة قبلتنا، والمسلمون إخواننا، والعترة الطاهرين من آل رسول الله عليهم السلام وصحابته والتابعين لهم بإحسان سلفنا وقادتنا، والمتمسكون بهديهم من القرون بعدهم جماعتنا وأولياؤنا، نحب من أحب الله ونبغض من أبغض الله، ونوالي من والى الله ونعادي من «عادى»[10] الله، ونقول فيما اختلف فيه أهل القبلة بأصول «نحن»[11] نشرحها ونبينها.

فأولها: توحيدنا لربنا، فإنا نشهد أن الله[12] واحد ليس كمثله شيء، وأنه الأول قبل كل شيء، والباقي بعد فناء كل شيء، والعالم الذي لا يخفى عليه شيء، والقادر الذي لا يعجزه شيء، وأنه الحي الذي لا يموت والقيوم الذي لا

---

(١) في النسخة أ: جاز.

(٢) في النسخة أ: رسول.

(٣) غير موجودة في النسخة ب.

(٤) هكذا في النسخة أ، وعبارة النسخة هكذا: «ولا لازم الاجبار على (الاخبار عن خ) ثقة».

(٥) في النسخة ب: وتيقن.

(٦) في النسخة ب: من دين الاسلام.

(٧) في النسخة ب: عن.

(٨) في النسخة ب: وليتأمل.

(٩) في النسخة ب: ان.

(١٠) في النسخة أ: عاد.

(١١) غير موجودة في النسخة ب.

(١٢) في النسخة ب بزيادة: «عز وجل».

يبيد، والقديم الذي لم يزل ولا يزال حياً سميعاً بصيراً عالماً قادراً غنياً غير محتاج إلى مكان ولا زمان ولا اسم ولا صفة ولا شيء من الأشياء على وجه من الوجوه ولا معنى من المعاني. قد سبق الأشياء كلها بنفسه، واستغنى عنها بذاته، «فلا»[1] قديم إلا هو وحده سبحانه عز وتعالى عن صفات المحدثين[2] ومعاني المخلوقين، وجل وتقدس عن الحدود والأقطار، والجوارح والأعضاء، وعن «مشابهة»[3] شيء من الأشياء، أو مجانسة جنس من الأجناس، أو مماثلة شخص من الأشخاص.. «فهو»[4] الإله الواحد الذي لا تحيط به العقول، ولا تتصوره الأوهام، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير الذي يعلم ما يكون قبل أن يكون، ويعلم ما كان وما سيكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون. قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وعلم الأشياء كلها بنفسه من غير علم أحدثه ومن غير معين كان «يعينه»[5]، بل علم ذلك كله بذاته التي لم يزل بها قادراً عالماً حياً سميعاً بصيراً لأنه الواحد الذي لم يزل قبل الأشياء كلها، ثم خلق الخلق من غير فقر ولا حاجة ولا ضعف ولا استعانة، من غير أن يلحقه، لحدوث ذلك، تغير، أو يمسه لغوب، أو ينتقل به إلى مكان أو يزول به عن مكان، إذ كان جل «ثناؤه»[6] لم يزل موجوداً قبل مكان ثم حدثت الأماكن وهو على ما كان، فليس يحويه مكان، وقد استوى على العرش بالاستيلاء والملك والقدرة والسلطان، وهو مع ذلك بكل مكان.

إله عالم مدبر قاهر، سبحانه وتعالى عما وصفه به الجاهلون من الصفات التي لا تجوز إلا على الأجسام من الصعود والهبوط ومن القيام والقعود، ومن تصويرهم له جسداً واعتقادهم إياه مشبهاً «للعباد»[7] يدركونه بأبصارهم ويرونه بعيونهم، ثم يصفونه بالنواجذ والأضراس والأصابع والأطراف، «وبأنه»[8] في صورة شاب أمرد شعره جعد «به»[9] قطط، «وبأنه»[10] لا يعلم الأشياء بنفسه، ولا

---

(١) في النسخة ب: ولا.

(٢) العبارة في النسخة ب هكذا: «ولا قديم إلا وحده سبحانه وتعالى عن صفات المحدثين».

(٣) غير موجود في النسخة أ.

(٤) في النسخة ب: وهو.

(٥) في النسخة: معه.

(٦) في النسخة ب: شأنه.

(٧) غير موجودة في النسخة ب.

(٨) في النسخة ب: وأنه.

(٩) غير موجودة في النسخة ب.

(١٠) في النسخة ب: وأنه.

يقدر عليها بذاته، ولا يوصف بالقدرة على أن يتكلم. ولا يكلم أحداً من عباده. «فتعالى»[1] الله عما قالوا، وسبحانه عما وصفوا. بل هو الإله الواحد الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، العليم القدير، الذي كلم موسى تكليماً، وأنزل القرآن تنزيلاً، وجعله ذكراً محدثاً من أحسن الحديث وقرآناً عربياً من «أبين»[2] الكلام، وكتاباً عزيزاً من أفضل الكتب، أنزل بعضه قبل بعض، وأحدث بعضه بعد بعض، وأنزل التوراة والانجيل من قبل، وكل ذلك مُحْدَث كائن بعد أن لم يكن، والله قدير قبله لم يزل، وهو رب القرآن وصانعه وفاعله ومدبره، ورب كل كتاب أنزله وفاعل كل كلام كلم به أحداً من عباده، والقرآن كلام الله ووحيه وتنزيله الذي أحدثه لرسوله وجعله هدى وسمي نفسه فيه بالأسماء الحسنى ووصفها فيه بالصفات المثلى، ليسميه بها العباد «ويصفونه ويسبحونه بها ويقدسونه»[3] «فلا»[4] إله إلا الله، وحده، ولا قديم إلا الله، دون غيره، من كل اسم وصفة، ومن كل كلام وكتاب، ومن كل شيء جاز أن «يذكره ذاكر أن يخطره على باله مفكر»[5].

هذا قولنا في توحيد ربنا، فأما قولنا في عدله، وهو المقصود من هذا الكتاب، وإنما أوردنا معه غيره لأنا أردنا إيراد جملة الاعتقاد.

«فأما قولنا في عدله»[6]، فإنا نشهد «أنه»[7] العدل الذي لا يجور والحكيم الذي لا يظلم[8]، وأنه لا يكلف عباده ما لا يطيقون، ولا يأمرهم بما لا يستطيعون، ولا يتعبدهم بما ليس لهم إليه سبيل، لأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، الذي أمرنا بالطاعة وقدم الاستطاعة، وأزاح العلة، ونصب الأدلة، وأقام الحجة، وأراد اليسر ولم يرد العسر «ولا يكلف»[9] نفساً إلا وسعها، ولا يحملها ما ليس من طاقتها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ولا «يأخذ»[10] أحداً بذنب غيره، ولا يعذبه على ما ليس من فعله، ولا يطالبه بغير جنايته وكسبه، ولا يلومه على ما خلقه فيه،

---

(١) في النسخة ب: تعالى.

(٢) في النسخة ب: أحسن.

(٣) في النسخة ب: «ويصفوه ويسبحوه ويقدسوه».

(٤) في النسخة ب: ولا.

(٥) هذه العبارة غير معجمة في النسخة مما ساعد على عدم وضوحها وغموض معناها فيها.

(٦) غير موجودة في النسخة ب.

(٧) في النسخة أ: وأنه.

(٨) في النسخة ب بزيادة: «ولا يظلم».

(٩) في النسخة ب: فلا يكلف.

(١٠) في النسخة ب: يؤاخذ.

ولا يستبطئه فيما لم يقدر عليه، ولا يعاقبه إلا باستحقاقه، ولا يعذبه إلا بما «جناه»[1] على نفسه وأقام الحجة عليه فيه. المنزه عن القبائح والمبرأ من الفواحش «والمتعالي»[2] عن فعل الظلم والعدوان، «و»[3] عن خلق الزور والبهتان، الذي لا يحب الفساد ولا يريد ظلماً للعباد ولا يأمر بالفحشاء ولا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

وكل فعله حسن، وكل صنعه جيد، وكل تدبيره حكمة. سبحانه وتعالى عما وصفه به القدرية المجبرة المفترون الذين أضافوا إليه القبائح ونسبوه إلى «فعل»[4] الفواحش، وزعموا أن كل ما يحدث في العباد من كفر وضلال ومن فسق وفجور ومن ظلم وجور ومن كذب وشهادة زور ومن كل نوع من أنواع القبائح فالله تعالى فاعل ذلك كله وخالقه وصانعه والمريد له والمدخل فيه، وأنه يأمر قوماً من عباده بما لا يطيقون ويكلفهم ما لا يستطيعون، ويخلق فيهم ما لا يتهيأ لهم الامتناع منه ولا يقدرون «على دفعه»[5]، مع كونه، على «خلاف ما أمر»[6] به، ثم يعذبهم على ذلك في جهنم بين أطباق النيران خالدين فيها «أبداً»[7].

ويزعم منهم قوم أنه «يشرك»[8] «معهم في»[9] ذلك[10] العذاب الأطفال و«الصغار»[11] الذين لا ذنب لهم ولا جرم، ويجيز آخرون منهم أن يأمر الله العباد، وهم على ما هم عليه من هذا الخلق وهذا التركيب، أن يطيروا في جو السماء، وأن «ينالوا»[12] النجوم، «ويقتلعوا»[13] الجبال، ويدكدكوا الأرض، و«يطووا»[14] السماوات كطي السجل، فإذا لم يفعلوا ذلك، لعجزهم عنه وضعف بنيتهم عن احتماله، عذبهم في نار جهنم عذاباً دائماً. «فتعالى»[15] الله عما يقولون علواً كبيراً، وتقدس عما وصفوه به.

---

(١) في النسخة أ: جاه.
(٢) في النسخة ب: والمعتال.
(٣) غير موجودة في النسخة أ.
(٤) في النسخة أ: جعل.
(٥) غير موجودة في النسخة أ.
(٦) في النسخة أ: «فعل ما أمرهم».
(٧) غير موجودة في النسخة أ.
(٨) في النسخة أ: شرك.
(٩) في النسخة أ: منهم وفي النسخة أ: لا توجد «في».
(١٠) في النسخة أ نجد هنا «في».
(١١) في النسخة ب: الصغار.
(١٢) في النسخة ب: يتناولوا.
(١٣) في النسخة ب: وأن يقتلعوا.
(١٤) في النسخة أ: يطوا.
(١٥) في النسخة ب: فتعال.

بل نقول: إنه العدل الكريم، الرؤوف الرحيم، الذي حسنات «الخلق»[1] منسوبة إليه، وسيئاتهم منفية عنه، لأنه أمر بالحسنة ورضيها ورغب فيها وأعان عليها، ونهى عن السيئة وسخطها وزجر عنها، وكانت طاعات العباد منه بالأمر والترغيب، ولم تكن معاصيهم منه، للنهي والتحذير، وكان جميع ذلك من فاعليه ومكتسبيه بالفعل والإحداث، وكانت معاصيهم وسيئاتهم من الشيطان بالدعاء والاغواء.

فأما من يخالفنا فقد افتضحوا حيث قالوا: إن من الله «تعالى»[2] جور الجائرين وفساد «المعتدين»[3]، فهو عندهم المريد لشتمه ولقتال «أنبيائه»[4]، «وللعن»[5] أوليائه، وأنه أمر بالايمان ولم يرده ونهى عن الكفر وأراده، وأنه قضى بالجور والباطل ثم أمر عباده «بإنكار»[6] قضائه وقدره، وأنه المفسد للعباد والمظهر في الأرض «للفساد»[7]، وأنه صرف أكثر خلقه عن الايمان والخير وأوقعهم في الكفر والشرك، وأن من أنفذ وفعل ما شاء عذبه ومن رد قضاءه وأنكر قدره وخالف مشيئته أثابه ونعمه، وأنه يعذب أطفال المشركين بذنوب آبائهم، وأنه تزر الوازرة عنده وزر أخرى، و«تكسب»[8] النفس على غيرها، وأنه خلق أكثر «الخلق»[9] للنار، ولم يمكنهم من طاعته، ثم أمرهم بها وهو عالم بأنهم لا يقدرون عليها ولا يجدون السبيل إليها ثم استبطأهم لم لم يفعلوا ما لا يقدرون عليه ولم لم يوجدوا ما لم يمكنهم منه وأنه صرف أكثر خلقه عن الايمان ثم قال: ﴿**أنى تصرفون**﴾[10] وأفكهم وقال ﴿**أنى تؤفكون**﴾[11] وخلق فيهم الكفر ثم قال ﴿**لم تكفرون**﴾[12]؟ وفعل فيهم لبس الحق بالباطل ثم قال: ﴿**لم تلبسون الحق بالباطل**﴾[13]؟ وأنه دعا إلى الهدى ثم صد عنه، وقال: ﴿**لم تصدون عن سبيل الله**﴾[14]؟..

وقال خَلْق كثير منهم: إن الله تعالى منع العباد من الايمان، مع قوله: ﴿**وما**

---

(١) في النسخة ب، العباد.
(٢) غير موجودة في النسخة ب.
(٣) في النسخة أ: المعتبدين.
(٤) في النسخة أ: أنبياه.
(٥) في النسخة ب: ولعن.
(٦) في النسخة أ: بانكاره.
(٧) في النسخة ب: الفساد.
(٨) غير واضحة في النسخة أ.
(٩) في النسخة ب: خلقه.
(١٠) يونس: ٣٢.
(١١) الأنعام: ٩٥.
(١٢) آل عمران: ٩٨.
(١٣) آل عمران: ٩٩.
(١٤) آل عمران: ٧١.

منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾[1]، وأنه حال بينهم وبين الطاعة، ثم قال: ﴿وما عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر﴾[2]، وأنه ذهب بهم عن الحق، ثم قال: ﴿فأين تذهبون﴾[3]، وأنه لم يمكنهم من الايمان، ولم يعطهم قوة السجود، ثم قال: ﴿ما لهم لا يؤمنون، وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾[4]، وأنه فعل بعباده الإعراض عن التذكرة، ثم قال: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾[5] «فإنه»[6] يمكر بأوليائه المحسنين، وينظر لأعدائه المشركين. لأن العبد عندهم مجتهد في طاعته، فبينما هو «كذلك»[7] وعلى ذلك، إذ خلق فيه الكفر وأراد له الشرك ونقله مما يحب إلى ما يسخط، وبينما عبد مجتهد في الكفر به والتكذيب له إذ نقله من الكفر إلى الايمان فهو عندهم لعدوه أنظر منه لوليه، فليس يشق وليه بولايته «ولا»[8] يرهب عدوه من عداوته، وأنه يقول للرسل: اهدوا إلى الحق مَنْ عنه قد أضللت، وانهوا عبادي أن يفعلوا ما شئت وأردت، وأمروهم أن يرضوا بما قضيت وقدرت. لأنه عندهم شاء الكفر وأراد الفجور وقضى الجور، وقدر الخيانة.

ولولا كراهية الاكثار «لأتينا»[9] على وصف «مذاهبهم»[10]،وفيما ذكرناه كفاية في «فسخ»[11] مذهبهم. والحمد لله على قوة الحق وضعف الباطل.

---

(١) الإسراء: ٩٤.
(٢) النساء: ٣٩.
(٣) التكوير: ٢٦.
(٤) الانشقاق: ٣١.
(٥) المدثر: ٤٩.
(٦) في النسخة ب: وأنه.
(٧) في النسخة أ: لذلك.
(٨) في النسخة ب: وليس.
(٩) في النسخة أ: من الاتيان.
(١٠) في النسخة ب: مذهبهم.
(١١) في النسخة ب: تقبيح.

فصل

«إذا»[1] سأل سائل، فقال: أتقولون إن الخير والشر من الله تعالى؟ . . قيل له: إن أردت أن من الله[2] العافيــة والبلاء والفقر «والغنى»[3] والصحة والسقم والخصب والجدب والشدة والرخاء، فكل هذا من الله تعالى. وقد تسمى شدائد الدنيا شراً، وهي، في الحقيقة، حكمة وصواب وحق وعدل.

وإن أردت أن من الله الفجور والفسوق والكذب والغرور والظلم والكفـر والفواحش والقبائح، فمعاذ الله أن نقول ذلك. بل الظلم من الظالمين والكذب من الكاذبين والفجور من الفاجرين والشرك من المشركين والعدل والإنصاف من رب العالمين.

وقد أكد الله، تعالى، ما قلنا، فقال: **﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردوكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾**[4]، ولم يقل من عنـد خالقهـم، فعلمنا أن المعصية من عباده وليس هي من قبله، وقال عز وجل: **﴿وإن منهـم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾**[5]، فعلمنا أن الكذب والكفر ليس من عند الله، وإذا لم يكن من عند الله فليس من فعله ولا من صنعه، وقال عز وجل: **﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾**[6]، وما قدمته لهم أنفسهم لم يقدمه لهم ربهم، وقال: **﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾**[7] ولم يقـل حمله على القتل ربه، ولا ألجأه إليه خالقه، وقال: **﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد**

---

(١) في النسخة أ: أر، وفي النسخة ب: أن.
(٢) في النسخة ب بزيادة: تعالى.
(٣) في النسخة ب: الغناء.
(٤) البقرة: ١٠٩.
(٥) آل عمران: ٧٨.
(٦) المائدة: ٨٠.
(٧) المائدة: ٣٠.

جئتم شيئاً إداً.تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً. أن دعوا للرحمن ولداً﴾[1] فأخبرهم أنهم جاءوا بالإد، ولم يقل أنا جئت به فأدخلته قلوبهم، وقال: ﴿أن دعوا للرحمن ولداً﴾[2]، فأخبر أنهم هم ادعوا الولد ولم يَدْعُه لنفسه، ثم أخبر جل وعز عن الأنبياء، صلوات الله عليهم، لما عوتبوا على ترك مندوب وما أشبهه، أضافت ما «ظاهره»[3] الإخلال بالأفضل من الأفعال إلى أنفسها، ولم تضفها إلى خالقها، فقال آدم، عليه السلام، وحواء «عليها»[4] السلام: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[5]، وقال يعقوب «عليه السلام»[6] لبنيه: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾[7]، ولم يقل سول لكم ربكم، وقال بنو يعقوب: ﴿يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا، إنا كنا خاطئين﴾[8]، ولم يقولوا إن خطايانا من ربنا، وقال: «عز وجل»[9]: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه﴾[10]، بمعنى أن نضيق عليه، كما قال: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾[11]، يعني يضيق، وقال: ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾[12]، أي ضيق، ﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾[13]، فأقر على نفسه، ولم يضف الى ربه، وقال «موسى، عليه السلام»[14]: ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾[15]، من بعد ما قال: ﴿فوكزه موسى فقضى عليه، قال هذا من عمل الشيطان﴾[16]، ولم يقل من عمل الرحمن، وقال يوسف عليه السلام: ﴿من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي﴾[17]، وقال الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وآله: ﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي، وإن اهتديت فبما يوحى إلي ربي﴾[18]،وقال فتى موسى[19]: ﴿إني نسيت الحوت وما

---

(1) مريم: ٨، ٨٨، ٨٩، ٩٠.
(2) مريم: ٩٠.
(3) في النسخة أ: ظاهر.
(4) في النسخة أ: عليه.
(5) الأعراف: ٢٣.
(6) غير موجودة في النسخة ب.
(7) يوسف: ١٨.
(8) يوسف: ٩٧.
(9) غير موجودة في النسخة ب.
(10) الأنبياء: ٨٧.
(11) الرعد: ٢٦.
(12) الطلاق: ٧.
(13) الأنبياء: ٨٧.
(14) غير موجودة في النسخة ب.
(15) النمل: ٤٤.
(16) القصص: ١٥.
(17) يوسف: ١٠٠.
(18) يوسف: ٥٠.
(19) في النسخة ب بزيادة: عليه السلام.

أنسانيه إلا الشيطان﴾[1]، ولم يقل وما أنسانيه إلا الرحمن، فما قالوه موافق لقول الله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون[2]، وقال: ﴿رجس من عمل الشيطان﴾، ولم يقل[3] من عمل الرحمن، وقال: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾، فعلمنا أن ما أراد الشيطان غير ما أراد الرحمن، وأخبر أن الشيطان يصد عن ذكر الله، ولم يقل الرحمن يصد عن ذكر الله، وقال: ﴿إنما النجوى من الشيطان﴾[4]، ولم يقل من الرحمن، وقال: ﴿لا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة﴾[5]، يعني بوسوسته وخديعته، وقال عز وجل: ﴿لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾[6]، فأخبر أن الشيطان أضلهم عن الحق، وقال: ﴿إن الشيطان ينزغ بينكم، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾[7]، وقال تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر: إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾[8]، ولم يقل: لا تلوموني ولوموا ربكم، لأنه أفسدني وأفسدكم وكفرني وكفركم، و«لو»[9] قصدنا إلى الإخبار عما أضافه الله تعالى إلى الشيطان من معاصي العباد لكثر ذلك وطال به الكتاب.

فصل

فإن قال «قائل»[10] ما الدليل على «أن»[11] الله تعالى لم يفعل أفعال عباده، وأن فعل العباد غير «خلق»[12] رب العالمين؟

---

(1) الكهف: ٦٣.
(2) المائدة: ٩٠، ٩١.
(3) في النسخة ب بزيادة: رجس.
(4) المجادلة: ١٠.
(5) الأعراف: ٢٧.
(6) يس: ٦٠ - ٦٢.
(7) الاسراء: ٥٣.
(8) إبراهيم: ٢٢.
(9) غير موجودة في النسخة ب.
(10) غير موجودة في النسخة أ.
(11) غير موجودة في النسخة أ.
(12) في النسخة ب: فعل.

«قل»[1] له: الدليل على ذلك من كتاب الله، ومن أخبار رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن إجماع الأمة، ومن حجج العقول..

فأما ما يدل على ذلك من كتاب الله، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿**صنع الله الذي أتقن كل شيء**﴾[2]، «ولما»[3] لم يكن الكفر بمتقن ولا بمحكم، علمنا أنه ليس من صنعه، وقال «عز وجل»[4]: ﴿**ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون**﴾[5]، وقد علمنا أن الله تعالى قد جعل وخلق الشاة والبعير، وإنما ينفي عن نفسه ما جعلوه من الشق الذي فعلوه في آذان أنعامهم، فعلمنا أن ما نفاه الله تعالى عن نفسه هو كفر العباد وفعلهم، وقال «عز وجل»[6]: ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**﴾[7]، فلما كان الكفر متفاوتاً متناقضاً، علمنا أنه ليس من خلقه، «وقال عز وجل: ﴿**الذي أحسن كل شيء**﴾[8]، فلما لم يكن الكفر بحسن علمنا أنه ليس من خلقه»[9] ولا «من»[10] فعله، لأن خلق الله هو فعله، وقد قال «الله»[11] ﴿**يخلق ما يشاء**﴾[12]، وقال: ﴿**كذلك الله يفعل ما يشاء**﴾[13]، وأخبر أن خلقه وفعله واحد.

وإن قال قائل منهم[14]: إن الكفر حسن، لأن الله خلقه، قيل له: لو جاز أن يكون حسناً لأن الله تعالى خلقه، جاز أن يكون حقاً وصدقاً وعدلاً وصلاحاً، «فلما لم يجز أن يكون الكفر حقاً ولا صدقاً ولا عدلاً ولا صلاحاً»[15]، لم يجز أن يكون حسناً، ولو كان الكفر حسناً لكان الكافر محسناً إذ فعل حسناً، فلما كان الكافر مسيئاً مفسداً كاذباً جائراً مبطلاً، علمنا أن فعله ليس بحسن ولا حق ولا صدق ولا عدل ولا صلاح. وقال الله «عز وجل»[16]: ﴿**إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم**

---

(1) في النسخة ب: قيل.
(2) النمل: ٨٨.
(3) في النسخة ب: فلما.
(4) في النسخة ب: تعالى.
(5) المائدة: ١٠٣.
(6) في النسخة ب: تعالى.
(7) الملك: ٣.
(8) السجدة: ٧.
(9) غير موجودة في النسخة ب.
(10) غير موجودة في النسخة أ.
(11) غير موجودة في النسخة ب.
(12) آل عمران: ٤٧، المائدة: ١٧، القصص: ٦٨، الروم: ٥٤.
(13) آل عمران: ٤٠.
(14) أي من المجبرة.
(15) غير موجودة في النسخة ب.
(16)

وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾[1]، ولو كان فاعلاً لها لكان قد أنزل بها أعظم السلطان والحجة، وقال: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة﴾[2] تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقال: ﴿ما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم، وما جعل أدعياءكم أبناءكم، ذلكم قولكم بأفواهكم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾[3]، والله قد جعل الأجسام كلها، وإنما نفي عن نفسه أن يكون قولهم لأزواجهم وقولهم «لأدعيائهم: أنتم»[4] أمهاتنا، وأنتم أبناؤنا، ثم أخبر أنه لا يقول إلا حقاً وأن الكذب ليس من قوله ولا[5] فعله، وقال «عز وجل»[6]: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن، وخلقهم، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون﴾[7]، فأخبر أنهم جعلوا له الشركاء، ولو كان الجاعل لما كان قد جعل لنفسه شركاء «ولا»[8] يخلو من أن يكون هو جعل لنفسه شركاء دونهم، أو يكونوا هم الذين جعلوا له الشركاء، وهو عن ذلك متعال، لم يفعله ولم يجعله، ولو كان هو الذي جعل لنفسه شركاء دون عباده، «أو» [9] إن كان هو جعل ما جعلوا، كان قد جعل لنفسه شركاء كما جعل ذلك عباده، وكان قد شارك عباده في شركهم وكفرهم، ومن جعل «لله»[10] شريكاً فقد أشرك بالله غيره ﴿ويجعلون لله البنات﴾[11]،وقال: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾[12]، وقال: ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله﴾[13]، فلو كان «جاعلاً»[14] ما جعلوه من الكفر، كان قد جعل لنفسه ما يكره، وجعل لنفسه أنداداً، جل الله عن ذلك، وقال، عز وجل: ﴿واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾[15]، فنفى أن يكون جعل من دونه آلهة، فعلمنا أن اتخاذ الإله من دون الله لم يجعله الله، وقال، عز وجل: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾[16]،فلو كان هو الذي جعل الحمية في قلوبهم

---

(1) الاعراف: ٧١.
(2) مريم: ٨١.
(3) الاحزاب: ٤.
(4) في النسخة ب: «لاولادهم أنتن».
(5) في النسخة ب بزيادة: من.
(6) في النسخة ب: عز من قائل.
(7) الأنعام: ١٠٠.
(8) في النسخة أ: لا.
(9) في النسخة أ: و.
(10) في النسخة أ: الله.
(11) النحل: ٥٧.
(12) النحل: ٦٢.
(13) إبراهيم: ٣٠.
(14) في النسخة أ: عاجلاً.
(15) الزخرف: ٤٥.
(16) الفتح: ٢٦.

لم «يقل»[1] «هم»[2] الذين جعلوا الحمية.

فإن قالو[3]: ما أنكرت أن يجعل ما «جعل»[4] العباد؟.. قيل «لهم»[5]: لو جاز أن يكون جاعلاً لما جعله العباد كان عادلاً بعدل العباد ومصلحاً بصلاح العباد وجائراً بجور العباد ومفسداً بفساد العباد وكاذباً بكذبهم، إذ كان لكذبهم وفسادهم وجورهم فاعلاً، فلما لم يجز ما ذكرناه، علمنا أن الله لم يجعل ما جعله العباد، وقال «عز وجل»[6]: **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾**[7]، فنفى عن نفسه أن يكون كفرهم من عنده، تعالى «الله عن ذلك علواً كبيراً»[8]. وقال، عز وجل: **﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾**[9]، وقال تعالى: **﴿إنهم يكيدون كيداً﴾**[10]، فلو كان الله فعل الكيد والمكر بالنبي، كان قد مكر بنبيه وكاده، تعالى الله عن ذلك «علواً كبيراً»[11]، وقال «عز وجل»[12]: **﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾**[13] ولو كان «اتخاذهم»[14] الولد فعل الله، كان قد اتخذ ولداً، ولو كان فعل عباده فعله كان له شريك في الملك، تعالى «الله عز وجل»[15] عن ذلك «علواً كبيراً»[16].

و«لو»[17] قصدنا إلى استقصاء ما يدل «على»[18] مذهبنا في أن الله لم يفعل الظلم والجور والكذب وسائر أفعال العباد، لطال بذلك الكتاب، وفيما ذكرناه كفاية، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) في النسخة أ: نقل.
(2) في النسخة أ: هو.
(3) أي المجبرة المعترضون.
(4) في النسخة أ: جعلنا.
(5) في النسخة أ: له.
(6) في النسخة ب: تعالى.
(7) البقرة: ٧٩، والآية في النسخة أ ناقصة كلمة «فويل».
(8) غير موجودة في النسخة ب.
(9) الأنفال: ٣٠.
(10) الطارق: ١٥.
(11) غير موجودة في النسخة ب.
(12) في النسخة ب: تعالى.
(13) الاسراء: ١١١.
(14) في النسخة أ: الحادهم.
(15) غير موجودة في النسخة ب.
(16) غير موجودة في النسخة ب.
(17) غير موجودة في النسخة أ.
(18) مشطوب عليها في النسخة أ.

«فأما»[1] ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله من إضافة الحسن إلى الله «تعالى»[2] والسوء إلى العباد، وما روي عن «أبي»[3] إمامة الباهلي[4]، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اضمنوا لي أشياء أضمن لكم الجنة، قالوا: وما هي يا رسول الله؟.. قال: لا تظلموا عند قسمة مواريثكم، ولا تجبنوا عند قتال عدوكم، وامنعوا ظالمكم من مظلومكم، وانصفوا الناس من أنفسكم، ولا تغلوا[5] غنايمكم، ولا تحملوا على الله ذنوبكم.

وروي عن أبي هريرة[6] أنه قال: «قام»[7] رجل من خثعم إلى النبي، «صلى الله عليه وآله»[8]، فقال: يا رسول الله، متى يرحم الله عباده؟.. فقال: يرحم الله عباده ما لم يعملوا بالمعاصي ثم يقولون هي من الله.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: خمسة لا تطفى نيرانهم ولا تموت ديدانهم: رجل أشرك بالله، ورجل عق والديه، ورجل سعى بأخيه الى سلطان جائر فقتله، ورجل قتل نفساً بغير نفس، ورجل حمل على الله ذنبه.

وروي «عن النبي»[9] صلى الله عليه وآله، أنه قال: أتاني جبريل فقال: يا محمد، خصلتان لا ينفع معهما صوم ولا صلاة: الإشراك بالله، وأن يزعم عبد أن الله يجبره على معصيته.

«ومن ذلك ما روي»[10] عن ابن مسعود[11] أنه «سئل»[12] عن امرأة توفي عنها

---

(١) في النسخة ب: وأما.

(٢) غير موجودة في النسخة ب.

(٣) غير موجودة في النسخة أ.

(٤) صحابي، اسمه صدى بن عجلان، وهو آخر من توفي من الصحابة بحمص عام ٨١ هـ.

(٥) أي لا تأخذوا شيئاً منها خفية لتدسوه في متاعكم.

(٦) صحابي اشتهر بكثرة روايته للحديث النبوي، توفي بالمدينة عام ٥٧ هـ أو ٥٨ هـ.

(٧) غير موجودة في النسخة أ.

(٨) غير موجودة في النسخة ب.

(٩) في النسخة ب: عنه.

(١٠) في النسخة ب: وروى.

(١١) واسمه عبد الله، اشتهر بتعليم القرآن والسنة، وتوفي عام ٧١ هـ.

(١٢) في النسخة ب: قال سألت. وهو خطأ.

زوجها ولم يفرض لها صداقاً، فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان.

وروي عن أبي هريرة أنه قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وآله، إذا قام بالليل إلى الصلاة قال: لبيك وسعديك، الخير في يديك، والشر ليس إليك.

وروي عن حذيفة[1] عن النبي، صلى الله عليه وآله، أنه قال إذا دعي بي يوم القيامة، أقوم، فأقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك.

وروي عن أنس[2] أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وآله: سيكون في هذه الأمة أقوام يعملون بالمعاصي، ويزعمون أنها من الله، فإذا رأيتموهم فكذبوهم ثم كذبوهم.. وما أشبه هذه الأخبار كثير، ولو قصدنا إلى ذكرها لطال بها الكتاب، وإنما نذكر من الباب «الجملة التي ننبه بها على الحقوق»[3].

وأما حجة العقول على أن الله لم يفعل أفعال العباد، وأن فعل الخلق غير «خلق»[4] رب العالمين، فهو: أنا وجدنا من أفعال العباد ما هو ظلم وعبث وفساد، وفاعل الظلم «ظالم»[5] وفاعل العبث عابث، وفاعل الفساد مفسد، فلما لم يجز أن يكون الله مفسداً، علمنا أنه «لا»[6] يفعل الظلم ولا العبث ولا الفساد.

وأيضاً فإن أفعالهم التي هي محكمة، «منها»[7] ما هو طاعة وخضوع، وفاعل الطاعة مطيع، وفاعل الخضوع خاضع، فلما لم يجز أن يكون الله مطيعاً ولا خاضعاً، علمنا أنه لا يفعل الطاعة ولا الخضوع، وأيضاً فإن الله لا يجوز أن يعذب العباد على فعله ولا يعاقبهم على صنعه ولا يأمرهم بأن يفعلوا «خلقه»[8]، فلما عذبهم على الكفر وعاقبهم على الظلم وأمرهم بأن يفعلوا الإيمان، علمنا أن الكفر

---

(١) هو أبو عبد الله حذيفة بن اليمان بن جابر العبسي، صحابي اشترك في الغزوات وتقلد الولاية توفي في المدائن عام ٦٣هـ. وقيل عام ٥٣هـ.

(٢) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضميم البخاري الأنصاري (١٠ق. هـ - ٩١هـ) وهو آخر من مات من الصحابة بمدينة البصرة. (راجع المعارف لابن قتيبة. ص ٣٤١).

(٣) في النسخة ب: الذي ينبه به على الحق.

(٤) في النسخة ب: فعل.

(٥) غير موجودة في النسخة أ.

(٦) في النسخة ب: لم.

(٧) غير موجودة في النسخة أ.

(٨) في النسخة ب: ما خلقه.

والظلم والايمان ليس من فعل الله ولا من صنعه.

ومما يبين ما قلنا، أنه لا يجوز أن يعذب العباد على طولهم وقصرهم وألوانهم وصورهم، لأن هذه الأمور فعله وخلقه فيهم، فلو كان الكفر والفجور فعل الله «تعالى»[1] لم يجز أن يعذبهم على ذلك ولا ينهاهم «عنه»[2] ولا يأمرهم بخلافه، فلما أمر الله العباد بالايمان ونهاهم عن الكفر، ولم يجز أن يأمرهم بأن يفعلوا طولهم وقصرهم وألوانهم وصورهم علمنا أن هذه الأمور فعل الله وأن الطاعة والمعصية والايمان والكفر فعل العباد، وأيضاً فلو جاز أن يفعل العبد فعل ربه وأن يكسب خلْق إلهه، كما قال مخالفونا: إن العباد فعلوا فعل ربهم، لجاز أن يكون كلامهم كلام الله فيكون كلام العبد كلام ربه كما «كان كسب العبد»[3] فعل خالقه، فلما لم يجز أن يكون كلام العبد كلام خالقه لم يجز أن يكون فعل العبد فعل إلهه ولا كسب العبد صنع خالقه، فثبت أن أفعال العباد غير فعل رب العالمين.

وأيضاً «فإنه»[4] لا يخلو الظلم في قولهم وفعلهم من أن يكون، بخلقه «الظلم»[5]، عادلاً أو ظالماً أو مصيباً بذلك أو مخطئاً، فلو كان الله بخلقه الظلم عادلاً كان الظلم عدلاً وصواباً، لأنه لا يجوز أن يصيب إلا بفعل الصواب، ولا يعدل إلا بفعل العدل، ولو كان الكفر والظلم صواباً وعدلاً كان الكافر والظالم مصيبين عادلين «فلما لم يجز ذلك لم يجز أن يكون الله عادلاً بالظلم ولا مصيباً «بفعله»[6][7]»، فثبت أن الله لا يجوز أن يفعل الظلم والخطأ والفسوق والفجور بوجه من الوجوه ولا بسبب من الأسباب، وأيضاً لو جاز أن يفعل الله الظلم ولا يكون ظالماً لجاز أن يخبر بالكذب، «ويقوله»[8]، ولا يكون كاذباً، فلما لم يجز أن يكون الله يقول الكذب، لأن القائل المخبر بالكذب كاذب، كذلك لم يجز أن يفعل الظلم، لأن الفاعل للظلم ظالم، فلما لم يجز أن يكون، عز وجل، ظالماً،

---

(١) غير موجودة في النسخة ب.

(٢) غير موجودة في النسخة ب.

(٣) في النسخة ب: ان كسب العباد. وهو خطأ.

(٤) في النسخة أ: فان.

(٥) في النسخة أ: الظالم.

(٦) في النسخة أ: بفعل.

(٧) في النسخة ب: ولا مصيب بفعل الكفر والظلم.

(٨) في النسخة ب: بقوله.

لم يجز أن يكون للظلم فاعلاً، «فثبت»[1] أن الظلم ليس من فعل الله، ولا الكذب من قوله، سبحانه «وبحمده»[2] وأيضاً فإن الله سخط الكفر وعابه، وذم فاعله، ولا يجوز على الحكيم أن «يذم»[3] العباد على فعله، ولا يعيب صنعه ولا يسخط، بل يجب أن يرضى بفعله، لأن من فعل ما لا يرضى به فهو غير حكيم، ومن يعيب ما صنع ويصنع ما يعيب فهو معيب، والله يتعالى عن هذه الصفات علواً كبيراً، فلما لم يجز على ربنا أن يعيب ما صنع «ولا»[4] يسخط ما يفعل، علمنا أن أفعال العباد غير فعل رب العالمين، وأيضاً فإن الله قال في كتابه: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾[5]، وقال: ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه﴾[6]، فالله أحكم وأعدل من أن يسخط «من»[7] فعله ويغضب من خلقه ويفعل ما لا يرضى به، وأيضاً فإن الفاعل للفاحشة والظلم والكفر أكثر استحقاقاً للذم من الآمر بالفاحشة والكفر، فلما كان الآمر بالكفر والظلم والفواحش غير حكيم، كان الفاعل لذلك والمحدث له غير حكيم، فلما كان الله أحكم الحاكمين، علمنا أنه غير فاعل للكفر ولا محدث للظلم ولا مبتدع للقبائح ولا مخترع للفواحش، وثبت أن الظلم فعل الظالمين والفساد فعل المفسدين والكذب فعل الكاذبين، وليس شيء من ذلك فعل رب العالمين.

وأيضاً فإنه لا «تخلو»[8] أفعال العباد من أن «تكون»[9] كلها فعل رب العالمين، لا فاعل لها غيره، أو أن «تكون»[10] فعله وفعل خلقه وكسبهم، أو أن «تكون»[11] فعل العباد وليست بفعل الله، فلما لم يجز أن يكون الله تعالى، منفرداً بالأفعال ولا فاعل لها غيره، لأنه لو كان كذلك كان لا يجوز إرسال الرسل وإنزال الكتب ولبطل الأمر والنهي والوعد والوعيد والحمد والذم، لأنه لا فعل للعباد، ولوجب أيضاً أن «يكون»[12] هو الفاعل لشتم نفسه وللعن أنبيائه وللفسوق والفجور

(1) في النسخة أ: ثبت، وفي النسخة ب: فثبت.
(2) غير موجودة في النسخة ب.
(3) في النسخة أ: يذنب.
(4) في النسخة ب: «و». بدون «لا» النافية.
(5) الزمر: ٧.
(6) محمد: ٢٨.
(7) في النسخة ب: في.
(8) في النسخة أ: يخلو.
(9) في النسخة أ: يكون.
(10) في النسخة أ: يكون.
(11) في النسخة أ: يكون.
(12) غير موجودة في النسخة أ.

والكذب والظلم والعبث والفساد، «ولو»[1] كان ذلك منه وحده «لكان»[2] هو الظالم «والكاذب»[3] والعابث والمفسد، إذ كان لا فاعل للظلم والعبث والكذب والفساد غيره، ولو كان فاعلاً لما فعله العباد، كان هو الفاعل للظلم الذي فعله العباد والكذب والعبث والفساد، وكان يجب أن يكون ظالماً كما أنهم ظالمون وكان عابثاً مفسداً، «إذ»[4] لم يكونوا الفاعلين لهذه الأمور دونه ولا هو الفاعل لها دونهم، فلما بطل هذان الوجهان ثبت الثالث، وهو أن هذه الأفعال عمل العباد وكسبهم، وأنها ليست من فعل رب العالمين ولا صنعه.

ولو قصدنا إلى استقصاء «أدلة»[5] أهل العدل في هذا الباب «لطال»[6] بذلك الكتاب.

ومما يُسأل عنه من زعم أن فعل العباد هو فعل الله وخلقه، أن يقال «له»[7]: أليس من «قولك»[8]: أن الله محسن إلى عباده المؤمنين، إذ خلق فيهم الإيمان «وهيأ»[9] بفعل الإيمان؟ . . فإن قالوا: لا نقول ذلك، زعموا أن النبي، صلى الله عليه وآله، لم يحسن في تبليغ الرسالة، وكفى بهذا خزياً لهم، فإن قالوا: إن الإنسان المؤمن محسن بفعل الإيمان وكسبه، يقال لهم: فقد كان إحسان واحد من محسنين[10]: من الله ومن العبد، فإن قالوا بذلك، قيل لهم: فما أنكرتم أن «تكون»[11] إساءة واحدة من مسيئين، فيكون الله عز وجل بما فعل من الإساءة التي العبد بها مسيء كما كان محسناً بالإحسان الذي العبد به محسن، فإن قالوا: إنه مسيء بإساءة «العباد»[12] لزمهم أن يكون ظالماً بظلمهم وكاذباً بكذبهم ومفسداً بفسادهم كما كان مسيئاً بإساءتهم، فإن قالوا: لا «تجوز»[13] أن «تكون»[14] إساءة

---

(١) في النسخة ب: فلو.
(٢) في النسخة ب: كان.
(٣) غير موجودة في النسخة ب.
(٤) في النسخة ب: إذا.
(٥) في النسخة أ: اداه.
(٦) في النسخة أ: لكال.
(٧) في النسخة ب: لهم.
(٨) في النسخة ب: قولكم.
(٩) في النسخة أ: هيء، وفي النسخة ب: وبين الفعل.
(١٠) في النسخة ب بزيادة: بفعل الإيمان وكسبه.
(١١) في النسخة أ: يكون.
(١٢) غير موجودة في النسخة ب.
(١٣) في النسختين أ، ب: يجوز.
(١٤) في النسخة أ: يكون.

واحدة «من»[1] مسيئين، قيل لهم: فما أنكرتم أن لا يكون إحسان واحد «من»[2] محسنين؟. ولا يجدون من هذا الكلام مخرجاً. والحمد لله رب العالمين، وكلما اعتلوا بعلة عورضوا بمثلها.

ويقال لهم: أليس الله «نافع»[3] للمؤمنين بما خلق فيهم من الايمان؟.. فَمَن قولهم: نعم، فيقال لهم: والعبد نافع لنفسه بما فعل من الايمان؟.. فإذا قالوا: نعم، قيل لهم: فقد ثبت أن منفعة واحدة من نافعين، هي منفعة من الله بالعبد، بأن خلقها، ومنفعة من العبد بأن اكتسبها، فإن قالوا: نعم، قيل لهم: وكذلك الكفر قد ضر الله به الكفار بأن خلقه، وضر الكافر نفسه بأن اكتسب الكفر، فإذا «قالوها»[4]، قيل لهم: فما أنكرتم ان يكون الله قد أفسد الكافر بأن خلق فساده، ويكون الكافر هو أفسد نفسه بأن اكتسب الفساد؟.. فإن قالوا: نعم.. قيل «لهم»[5]: فما أنكرتم أن يكون الكافر جائراً على نفسه بما اكتسبت من الجور[6]؟.. «فإن قالوا: جائر.. قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون الله جائراً على نفسه بما فعل من»[7] الجور، أيضاً، كما قلتم في الكافر؟.. فإن قالوا: جائر، خرجوا من دين أهل القبلة، وإن قالوا: لا يجوز أن يكون جائراً «بما»[8] فعله العباد من الجور، قيل لهم: وكذلك ما أنكرتم أن لا يكون مفسداً بفسادهم ولا ضاراً لهم بضررهم، فإن قالوا بذلك، قيل لهم: فما أنكرتم ان لا يكون فاعلاً لما فعلوه من الكفر والفساد وأن يكون فعله غير فعلهم، وكلما اعتلوا بعلة «في هذا الكلام»[9] «عورضوا»[10] بمثلها. ويقال لهم: أليس الله نافعاً للعباد: «المؤمنين»[11] بما خلق فيهم من الايمان؟ فَمَن قولهم: نعم، فيقال لهم: وكذلك النبي صلى الله عليه وآله، قد نفعهم بما دعاهم إلى الايمان، «وإن»[12] أبوا ذلك، وزعموا أن النبي «صلى الله عليه وآله»[13] ما نفع أحداً ولا أحسن إلى أحد، قيل لهم: فما أنكرتم أن لا يجب على المؤمنين شكره ولا حمده، إذكان غير نافع لهم ولا محسن اليهم،

---

(1) في النسخة ب: بين.
(2) في النسختين أ، ب: بين.
(3) في النسخة ب: نافعاً.
(4) في النسخة أ: فالهلوها.
(5) غير موجودة في النسخة ب.
(6) في النسخة ب بزيادة: فعل.
(7) غير موجودة في النسخة ب.
(8) في النسخة أ: ما.
(9) غير موجودة في النسخة ب.
(10) في النسخة أ: هو رضوا.
(11) غير موجودة في النسخة ب.
(12) في النسخة ب: فان.
(13) غير موجودة في النسخة ب.

وإن قالوا: إن النبي صلى الله عليه واله قد نفعهم بدعائه إياهم إلى الايمان، قيل لهم: أفليس الله بما خلق فيهم من الايمان أنفع لهم من النبي صلى الله عليه وآله، إذ دعاهم إلى الايمان؟ فلا بد لهم من نعم، لأن النبي صلى الله عليه وآله قد يجوز أن يدعوهم إلى الايمان، فلا[1] يجيبون إليه، ولا يجوز أن يخلق الله فيهم الايمان إلا وهم مؤمنون.

«ويقال»[2] لهم: أفليس «الله قد ضر الكافر»[3]، في قولهم، بما خلق فيه من الكفر؟.. فَمَن «قوله»[4] نعم، «أفليس»[5] قد ضرهم إبليس بدعائه إياهم إلى الكفر، فلا بد من نعم، وإلا لزمهم أن لا يكون إبليس وسوس إلى أحد بمعصيته، ولا يجب أن يذم على شيء من أفعاله ورددوا أيضاً مع ذلك كتاب الله لأن الله «تعالى»[6] يقول: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾[7].

ويقال لهم: فأيما أعظم، المضرة التي فعلها الله تعالى بالكافر من خلق الكفر «فيه»[8]؟ أو المضرة التي فعلها إبليس من دعائه إياهم إلى الكفر «فإن قالوا: إن منفعة الله للمؤمنين»[9] أعظم من المضرة التي خلقها الله فيهم، وهي خلق الله الكفر فيهم.

قيل لهم: فما أنكرتم أن تكون منفعة النبي صلى الله عليه وآله للمؤمنين أعظم بدعائه إياهم إلى الايمان[10] «فإن قالوا: المضرة التي فعلها بهم إبليس أعظم

(١) في النسخة ب بزيادة: بدلهم من نعم.
(٢) في النسخة أ: وقال، وفي النسخة ب: فيقال، من غير: لهم.
(٣) في النسخة ب تقديم وتأخير، يجعل العبارة: قد ضر الله الكافر.
(٤) في النسخة ب: قولهم.
(٥) غير موجودة في النسخة أ.
(٦) غير موجودة في النسخة ب.
(٧) البقرة: ٢٦٧ والاية مذكورة خطأً في النسخة ب، هكذا: (الشيطان يعدكم الكفر والفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم منه مغفرة وفضلاً).
(٨) غير موجودة في النسخة ب.
(٩) غير موجودة في النسخة أ.
(١٠) في النسخة أ عبارة زائدة نصها: «أعظم منفعة من الله لهم بخلق الايمان فيهم، وأن يكون النبي صلى الله عليه وآله أنفع لهم في خلق الايمان فيهم أعظم من منفعة النبي صلى الله عليه وآله في دعائه إياهم إلى الايمان».

منفعة من الله لهم بخلق الإيمان فيهم»(١).

قيل لهم: فما أنكرتم أن تكون مضرة الله للكافرين في خلق الكفر «فيهم»(٢). أعظم من مضرة إبليس بدعائه إياهم إلى الكفر، فإن قالوا بذلك، قيل لهم: فقد وجب عليكم أن إلهكم أضر على الكافر من إبليس، فإذا قالوا: إنه أضر عليهم من إبليس، قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون شراً عليهم من إبليس كما كان أضر عليهم من إبليس، كما قلتم إن الله أنفع للمؤمنين من النبي وخير لهم من النبي، فإن قالوا: إن إلههم شر من إبليس، فقد خرجوا من دين أهل القبلة وإن أبوا ذلك لم يجدوا منه مخرجا مع التمسك بقولهم، ويقال لهم: أتقولون: الله ضر(٣) الكفار في دينهم؟ فَمَن قولهم: نعم، «يقال»(٤) لهم: فما أنكرتم أن يعذبهم في دينهم كما أنه ضرهم في دينهم، فإن قالوا: إن الله لا يضر العباد في أديانهم قيل لهم: والله لا يضرهم في إيمانهم. وإن قالوا: إن الله يضرهم في أديانهم، قيل لهم: فما أنكرتم أن يموه عليهم ويخدعهم عن أديانهم، وإن قالوا بذلك شتموا الله أعظم الشتيمة، وإن قالوا: إن الله لا يخدع أحداً عن دينه ولا يضر أحداً عن دينه، قيل لهم: فما أنكرتم أن لا يجوز أن يضره في دينه.

وكلما اعتلوا بعلة عورضوا بمثلها.. ويقال لهم: أتقولون: إن الله ضر النصراني في دينه، إذ جعله نصرانياً، وخلق فيه الكفر، وكذلك اليهودي؟.. فإن قالوا: نعم، وهو قولهم، «يقال»(٥) لهم: فما أنكرتم أن «يفسده»(٦) في دينه، فيكون مفسداً لعباده في أديانهم، فإن قالوا: إنه مفسد لهم في أديانهم، قيل لهم: أفيجب عليهم شكره، وهو في قولهم مفسد لهم، فإن قالوا: لا يجب أن يشكر، صح كفرهم وإن قالوا أنه يجب أن يشكر، قيل لهم: على ماذا يشكر؟.. فإن قالوا: على الكفر، فقد افتضحوا وبان خزيهم، وإن قالوا: (٧) يشكر على ما خلق فيهم من الصحة والسلامة، قيل لهم: «أو ليست»(٨) هذه الأمور عندكم قد فعلها

---

(١) غير موجودة في النسخة أ.
(٢) غير موجودة في النسخة أ.
(٣) في النسخة ب: قد ضم.
(٤) في النسخة ب: فيقال.
(٥) في النسخة ب: فيقال.
(٦) في النسخة ب: يفسد.
(٧) في النسخة ب بزيادة: أنه.
(٨) في النسخة أ: أن ليس، وفي النسخة ب: أوليس.

مضرة عليهم في دينهم ليكفروا ويصيروا إلى النار، فكيف يكون ما به «هلاكهم»[1] نعمة عليهم، فإذا جاز ذلك «جاز»[2] أن يكون من أطعمني خبيصاً[3] مسموماً ليقتلني به، منعماً علي ومحسناً «إلي»[4] فإن قالوا: لا يكون محسناً إلى الكافر «بهذه»[5] الأمور «إذا كان إنما»[6] فعلها فيهم ليكفروا ويصيروا إلى النار، فلا بد لهم أن لا يروا الشكر لله على العباد واجباً فيخرجوا من[7] أهل القبلة.

ويقال لهم: أليس الله بفعله للصواب مصيباً؟.. فَمَن قولهم: نعم، يقال لهم: فإذا زعمتم أنه[8] جعل[9] «الخطأ»[10]، فما أنكرتم أن يكون مخطئاً، فإن قالوا إنه مخطىء بان كفرهم[11]، وإن قالوا: لا يكون بفعله الخطأ مخطئاً، قيل لهم: فما أنكرتم أن لا يكون بفعله للصواب مصيباً كما لم يكن بفعله للخطأ مخطئاً؟..

وكلما اعتلوا بعلة عورضوا بمثلها، ويقال لهم: أليس الله، عز وجل، مصلحاً للمؤمنين بما خلق فيهم من الصلاح؟ «فإن»[12] قالوا نعم، قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون مفسداً للكافرين بما خلق فيهم من الكفر والفساد، فإن قالوا بذلك، قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون ظالماً بما خلق فيهم من الظلم، فإن أبوا ذلك «سئلوا»[13] الفصل بينهما، ولن يجدوه، وإن قالوا: إنه ظالم فقد وضح شتمهم الله. ويقال لهم: أتقولون إن الله مصيب عادل في جميع ما خلق؟ فإذا

---

(1) مكانها بياض في النسخة أ.

(2) غير موجودة في النسخة أ، والعبارة في النسخة ب بدون: «أن».

(3) حلواء مخلوطة.

(4) غير موجودة في النسخة ب.

(5) في النسخة ب: لهذه.

(6) في النسخة ب: إذ انما.

(7) في النسخة ب بزيادة: دين.

(8) في النسخة ب بزيادة: قد.

(9) في النسخة أ بزيادة كلمة: «الخالق» مشطوباً عليها.

(10) غير واضحة في النسخة أ.

(11) العبارة في النسختين أ، ب هكذا: «دون جواب على: فإن قالوا، والمفروض أن يكون جواب ذلك: فقد خرجوا من دين أهل القبلة، أو نحو مما يؤدي هذا المعنى».

(12) في النسخة ب: فاذا.

(13) في النسخة ب: يسألوا.

قالوا: نعم، قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون جميع ما خلق صواباً وعدلاً، «إذ»[1] كان عادلاً مصيباً بخلقه، فإن قالوا: إن جميع ما خلق عدل وصواب، قيل لهم: أفليس من قولكم إن الظلم والكفر والخطأ عدل وصواب؟ فإن قالوا: إن ذلك عدل وصواب، قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون[2] حقاً وصلاحاً، فإن قالوا بذلك، فقد وضح فساد قولهم ولزمهم أن يكون الكافر عادلاً بفعله الكفر وأن يكون مصيباً «محقاً»[3] مصلحاً «إذ»[4] كان فعله عدلاً وصواباً وحقاً وصلاحاً، فإن أبوا أن يكون الكفر صلاحاً وصواباً وحقاً وعدلاً، قيل لهم: فما أنكرتم أن لا يكون بفعله الجود عادلاً ولا بفعله الخطأ مصيباً ولا بفعله الفساد مصلحاً، فإن قالوا بذلك قيل لهم: فما أنكرتم أن لا يكون الخطأ والجور من فعله إذ كان مصيباً عادلاً في جميع فعله، فإن قالوا بذلك، تركوا قولهم، وصاروا إلى قول أهل الحق: إن الله لا يفعل خطأ ولا جوراً ولا باطلاً ولا فساداً، ويقال لهم: أتقولون: أن يفعل الظلم ولا يكون ظالماً؟. فَمَن قولهم: نعم، يقال لهم: فما الفرق بينكم وبين «من»[5] قال: إنه ظالم وأنه يفعل ظلماً؟. . وإن قالوا لا يجوز أن يكون ظالماً إلا من فعل ظلماً، قيل لهم: وكذلك لا يجوز أن يكون للظلم فاعلاً ولا يكون ظالماً، بل يجب أن يكون من كان للظلم فاعلاً أن يكون ظالماً. ويقال لهم: أليس من قولكم أن الله خلق الكفر في الكافرين ثم عذبهم عليه؟ فإذا قالوا: نعم، يقال لهم: فما أنكرتم أن يضطرهم إلى الكفر ثم يعذبهم عليه، فإن قالوا: لو اضطرهم إلى الكفر لم يكونوا مأمورين ولا منهيين، لأنه لا يجوز أن يؤمروا ولا ينهوا «عما»[6] اضطرهم إليه، «وقيل»[7] لهم: ولو كان الكفر قد خلق فيهم لم يكونوا مأمورين ولا منهيين، لأنه لا يجوز أن يؤمروا وينهوا بما خلق الله فيهم.

وكلما اعتلوا بعلة عورضوا بمثلها.

وإن قالوا: إن الله اضطرهم إلى الكفر، قيل[8] لهم: فما أنكرتم أن يكون

---

(١) في النسخة ب: أن.
(٢) في النسخة ب بزيادة: ذلك.
(٣) في النسخة ب: حقاً.
(٤) في النسخة ب: أن.
(٥) غير موجودة في النسخة أ.
(٦) في النسخة ب: بما.
(٧) في النسخة ب: قيل.
(٨) في النسخة أ: قل.

«قد»[1] حملهم عليهم، وأجبرهم «عليه»[2] وأكرههم، فإن قالوا بذلك «فقد»[3] صاروا إلى قول جهم: إنه لا «فعل»[4] «للعبد»[5] وإنما «هو»[6] كالحجارة «قتَلت»[7] وإن لم تفعل شيئاً، «و»[8] كالأبواب تفتح وتغلق وإن لم تفعل شيئاً، ولزمهم ما لزم جهماً، فإن صاروا إلى قول جهم، «قل»[9] لهم: إذا جاز عندكم أن يعذب الله العباد على ما لم يكن منهم بل يعذبهم على ما اضطرهم إليه وحملهم «عليه»[10]، فما أنكرتم أن يعذبهم على ألوانهم وصورهم وطولهم وقصرهم، فإن قالوا بذلك قيل لهم: فلم لا يجوز أن يعذبهم، لم خلقهم وخلق السموات والأرض؟ فإن قالوا بذلك، سقطت مؤونتهم ولم يؤمنوا لعل الله سيعذب قوماً على ما ذكرنا، وإن قالوا لا يجوز أن يعذبهم على ما ذكرتم، قيل لهم: فما أنكرتم أن لا يجوز أن يعذبهم على ما اضطرهم إليه وجبرهم عليه، ويقال لهم، إن صاروا إلى قول جهم، إذا زعموا أن لا فاعل إلا الله، فما أنكرتم أن يكون لا قائل إلا الله، فإن قالوا بذلك، قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون هو القائل: إني ثالث ثلاث، وأن لي «ولد»[11] أو هو الكاذب بقول الكاذب، ولزمهم أن تكون جميع أخباره كذباً. وإن قالوا لا يجب أن يكون لا قائل إلا الله، لأن هذا يوجب أنه ظالم عابث، إذ لم يفعل الظلم والعبث غيره، وإن امتنع القوم من أن يقولوا «إنه»[12] اضطرهم إلى الكفر، قيل لهم: فما أنكرتم أن لا يكون قد خلق فيكم الكفر كما لم يضطرهم إليه ويحملهم عليه، ويقال لهم: أليس الله تعالى خلق الكفر والإيمان، وأمر بالإيمان ونهى عن الكفر، وأثاب على الإيمان وعاقب على الكفر؟ . فإذا قالوا: نعم، قيل لهم: فقد أمر الله تعالى العباد أن يفعلوا خلقه ونهاهم وغضب من خلقه، لأن الله تعالى غضب من الكفر «وسخطه»[13] وهو

---

(١) غير موجودة في النسخة ب.
(٢) غير موجودة في النسخة ب.
(٣) غير موجودة في النسخة ب.
(٤) في النسخة أ: فعال.
(٥) في النسختين أ، ب: للعباد.
(٦) في النسخة ب: هم.
(٧) في النسخة ب: تقلب.
(٨) غير موجودة في النسختين أ، ب.
(٩) في النسخة ب: قيل.
(١٠) غير موجودة في النسخة ب.
(١١) في النسخة ب: ولداً.
(١٢) في النسخة أ: أن.
(١٣) غير موجودة في النسخة ب.

خلقه، فإن قالوا بذلك، قيل لهم: فلم لا يجوز أن يغضب من كل خلقه كما غضب من بعض خلقه؟ ولم لا يجوز أن يأمر وينهى العباد ويثيبهم ويعاقبهم على السواد والبياض والطول والقصر كما أمرهم بخلقه ونهاهم عن خلقه وأثابهم وعاقبهم على خلقه؟.. ويقال لهم: أليس الله تعالى «قد»[1] فعل الظلم وليس بظالم؟. فمَن قولهم: نعم، يقال «لهم»[2]: فما أنكرتم أن يخبر بالكذب ولا يكون كاذباً؟.. فإن قالوا بذلك، لم «يأمنوا»[3] أن جميع أخباره عن الغيب والحساب والجنة والنار كذب، وإن لم يكن كاذباً؟ وإن قالوا: لا يجوز أن يخبر بالكذب إلا كاذب، قيل لهم: فما أنكرتم أن لا يفعل الظلم إلا ظالم فإن قالوا: لا يجب أن يكون الله ظالماً، لأنه إنما فعل ظلم العباد، قيل «لهم»[4]: فما أنكرتم أن «لا يكون»[5] كاذباً لأنه إنما قال كذباً للعباد. ولم يجدوا مما سألناهم «عنه»[6] مخلصاً.

ويقال لهم: أليس الله تعالى قد فعل «عندكم»[7] شتم نفسه ولعن أنبيائه؟، فإن قالوا: نعم، قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون شاتماً لنفسه، لاعناً لأنبيائه فإن قالوا: إنه شاتم لنفسه لاعن لأنبيائه فقد سقطت مؤونتهم وخرجوا «من»[8] دين أهل القبلة، «وإن»[9] قالوا: إن الله لا يجوز أن يشتم نفسه ولا يلعن «أنبياءه»[10]، قيل لهم: فما أنكرتم أن لا يجوز أن يفعل شتم نفسه ولا «لعن»[11] أنبيائه. وكلما اعتلوا بعلة عورضوا بمثلها.

* * *

(١) غير موجودة في النسخة ب.
(٢) في النسخة ب: كلهم.
(٣) في النسخة ب: يؤمنوا.
(٤) غير موجودة في النسخة ب.
(٥) في النسخة أ: يكون بدون حرف النفي.
(٦) غير موجودة في النسخة ب.
(٧) غير موجودة في النسخة ب.
(٨) في النسخة ب: عن.
(٩) في النسخة أ: فان.
(١٠) في النسخة ب: عن.
(٩) في النسخة أ: فان.
(١٠) في النسخة ب: أنبيائه.
(١١) في النسخة أ: قتل.

فصل

قد كان أولى أن لا «يُدَل»[1] على مثل هذه المسألة، أعني أن أفعال العباد فعلهم وخلقهم، لأن المنكر لذلك ينكر المحسوسات التي قد تميزت[2] صحتها.

ولولا ما رجوته من زوال شبهة، ومن وضوح[3] يحصل لقارىء كتابي هذا، لما كان هذا الباب مما ينثر[4] فيه القول، ولا عجب، فمن[5] ينفي فعله، مع علمه بأنه يقع بحسب اختياره ودواعيه ومقاصده، نعوذ بالله من الجهل، فإنه إذا استولى وغمر وطبق[6] وعم، وقد قال الرسول عليه أفضل السلام: حبك للشيء[7] يعمي ويصم. وقد قال الله سبحانه في قوم عرفوا الحق[8] ثم عاندوه[9]: ﴿**وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾[10].

فصل

فإن قال منهم قائل: لماذا[11] نفيتم أن يكون الله فاعلاً لأفعالكم؟ أفتقولون: إنه قضى أعمالكم؟.. قيل له إن الله قضى الطاعة إذ أمر بها، ولم يقض الكفر والفجور والفسوق.

فإن قال: فما الدليل على ما قلتم؟.. قيل له: من الدليل على ذلك، قول

---

(١) في النسخة ب: ندل.
(٢) في النسخة أ: تميز، وفي النسخة ب: تبين.
(٣) في النسخة ب بزيادة: حجة.
(٤) في النسخة ب: ينتشر.
(٥) في النسخة ب: ممن.
(٦) في النسخة ب: طبق، بدون أداة العطف.
(٧) في النسخة ب: الشيء.
(٨) غير موجودة في النسخة ب.
(٩) في النسخة ب: عاندوا.
(١٠) النمل: ١٤.
(١١) في النسختين أ، ب: ماذا.

الخالق الصادق عز وجل: ﴿والله يقضي بالحق، وهو خير الفاصلين﴾[1] ، فعلمنا أنه يقضي بالحق ولا يقضي بالباطل ، لأنه لو جاز أن يتمدح بأنه يقضي الحق ، وهو يقضي غير الحق ، ويقضي بالباطل ، لجاز أن يقول: والله يقول الحق وهو يقول غير الحق. فلما كان قوله: والله يقول الحق ، دليلاً على أنه لا يقضي غير الحق ، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿والله يقضي بالحق﴾[2]،فعلمنا أنه يقضي بالحق ولا يقضي بالجور، ويدل على ذلك[3] قوله تعالى : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيهاه وبالوالدين إحساناً﴾[4] ، فعلمنا أنه لم يقض عبادة الأصنام والأوثان ولا عقوق الوالدين.

ومما يبين ذلك[5]، أن الله أوجب علينا أن نرضى بقضائه ولا نسخطه ، وأوجب علينا أن نسخط الكفر ولا نرضاه ، فعلمنا أن الكفر ليس من قضاء ربنا.

ومما يبين ذلك أن الله تعالى أوجب علينا أن ننكر المنكر، وأن نمنع الظلم ، فلو كان الظلم من قضاء ربنا كان قد[6] أوجب علينا أن ننكر قضاءه وقدره ، فلما لم يجز أن يوجب الله إنكار قضائه ولا رد قدره ، علمنا أن الظلم ليس من قضائه ولا قدره.

وأيضاً قال الله تعالى[7]: ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾[8]، وقال: ﴿والله يقضي بالحق﴾[9]، فعلمنا أن ما كان بغير الحق غير ما قضى بالحق ، فلو كان قتل الأنبياء من قضاء الله كان حقاً، وكان يجب علينا الرضاء به ، لأنه يجب علينا الرضاء بقضاء الله ، وقد أمر الله تعالى أن لا «نرضى»[10] بغير الحق «ولا نرضى لغير الحق»[11] ولا نرضى بقتل الأنبياء ، فعلمنا أن قتلهم ليس بقضاء ربنا ولا من فعل خالقنا.

---

(١) «الله يقضي بالحق: ٢٠ غافر» «وهو خير الفاصلين ٥٧ الأنعام». ولقد وردتا هكذا في النسختين أ، ب على أنهما آية واحدة.

(٢) غافر: ٢٠.

(٣) في النسخة ب بزيادة : أيضاً.

(٤) الاسراء: ٢٣.

(٥) في النسخة بزيادة: أيضاً.

(٦) غير موجودة في النسخة ب.

(٧) في النسخة ب بزيادة: في كتابه.

(٨) البقرة: ٦١.

(٩) غافر: ٢٠.

(١٠) في النسخة ب: يرضى.

(١١) غير موجودة في النسخة ب.

ومما يبين أن الله تعالى لم يقدر الكفر، قول الله تعالى في كتابه: ﴿سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾[1] : ولم يقل إنه قدر الضلال على خلقه ولا قدر الشقاء على خلقه، لأنه لا يجوز أن يتمدح بأنه قدر الهدى[2]، وكل ضلال عن الحق فمن تقديره، جل وعزَّ عن ذلك علواً كبيراً.

فصل . .

فإن قيل: فما معنى قول الله تعالى: ﴿خالق كل شيء﴾[3]، ﴿وخلق كل شيء﴾[4]؟ . . قيل له: إنما أراد به خلق[5] السموات والأرض والليل والنهار والجن والإنس وما أشبه ذلك، ولم يرد أنه خلق الكفر والظلم والكذب، إذ لم يجز أن يكون ظالماً ولا كاذباً، عز وجل[6].

وقد بين الله لنا صنعه، فقال: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾[7]، فلما لم يكن الكفر بمتقن ولا بمحكم ولا بحق ولا عدل[8]، علمنا أنه ليس من صنعه، لأنه متفاوت متناقض، وقد قال الله[9] تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[10]، فأخبر أن الاختلاف لا يكون من عنده، وقال تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[11]، والكفر متفاوت فاسد[12] متناقض، فثبت أنه ليس من خلقه، وأنه عمل الكافرين.

فإن قال: فلم زعمتم أن قوله ﴿كل شيء﴾ قد خرج «منه»[13] بعض الأشياء؟ . . قيل له: قد قال تعالى: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾[14]، ولم

---

(١) الأعلى: ٣.
(٢) عبارة النسخة ب: الضلال عن الحق، وهو لا يمشي مع السياق.
(٣) الانعام: ١٠٢، الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢، غافر: ٦٢.
(٤) الفرقان: ٢.
(٥) في النسخة أ: لفظ خلق مكرر.
(٦) غير موجودة في النسخة ب.
(٧) النمل: ٨٨.
(٨) في النسخة ب: يعدل.
(٩) غير موجودة في النسخة ب.
(١٠) النساء: ٨٢.
(١١) الملك: ٣.
(١٢) غير موجودة في النسخة ب.
(١٣) في النسخة أ: من.
(١٤) الحج: ١.

يخلقها، والإيمان الذي أمر[١] الله فرعون والكافرين [٢] لم يخلقه، فثبت أن الأشياء في بعض «الأشياء» [٣] دون بعض، وقد قال الله: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾[٤] ولم تؤت من ملك سليمان شيئاً، وإنما أراد مما[٥] أوتيته[٦] دون ما لم تؤته، وقال تعالى: ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾[٧]، وقد علمنا أنه لم تجب إليه ثمرات الشرق والغرب، وإنما أراد مما يجبى «إليه»[٨] وكذلك[٩] قوله: ﴿خالق كل شيء﴾، مما خلقه، وقال: ﴿فتحنا عليهم[١٠] أبواب كل شيء﴾[١١]، «ولم يفتح عليهم أبواب السماء»[١٢]، وإنما أراد ما فتح عليهم، وقال: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾[١٣]، ولم يرد تبيان عدد النجوم وعدد الإنس والجن، وإنما أراد تبيان[١٤] كل شيء مما بالخلق إليه حاجة في دينهم، وقال: ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾[١٥]، ولم يرد أنها[١٦] تدمر هوداً والذين معه، وإنما تدمر من أرسلت لتدميره، وقال: ﴿أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾[١٧]، ولم ينطق الحجارة والحركات[١٨] والسكون، وما أشبه ما ذكرنا[١٩] كثير. كذلك أيضاً قوله: ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾[٢٠]، أراد الأزواج والأولاد والأجسام لأن هذا رد على النصارى، ولم يرد الفجور

---

(١) في النسخة ب بزيادة: به.

(٢) في النسخة أ: الكافران.

(٣) غير موجودة في النسخة ب.

(٤) النمل: ٢٣.

(٥) في النسخة أ: من.

(٦) في النسخة ب بزيادة: هي.

(٧) القصص: ٥٧.

(٨) غير موجودة في النسخة أ.

(٩) في النسخة أ، كذلك، بدون حرف العطف.

(١٠) كلمة: «عليهم» مكررة في النسخة في النسخة أ.

(١١) الأنعام: ٤٤ وفي النسخة ب الآية: ﴿ ففتحنا عليهم أبواب السماء ﴾، وهو خطأ.

(١٢) غير موجودة في النسخة ب.

(١٣) النحل: ٨٩، وفي النسختين أ، ب نجد الآية: ﴿ فيه تبيان كل شيء ﴾.

(١٤) في النسخة ب: بيان.

(١٥) الأحقاف: ٢٥.

(١٦) في النسخة ب: أنه.

(١٧) فصلت: ٢١.

(١٨) في النسخة ب: والحركة.

(١٩) في النسخة ب: ذكرناه.

(٢٠) الأنعام: ١٠١.

والفسوق، وما ذكرنا[1] في اللغة مشهور، قال لبيد بن ربيعة[2].

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ولم يرد أن الحق باطل، ولا أن شعره هذا «الذي قاله»[3] باطل، وقد قال كل شيء، وإنما أراد بعض الأشياء.

ويقول قائل[4]: دخلنا الشرق[5]فأشترينا كل شيء، ورأينا كل شيء حسن، وإنما يريد كل شيء مما اشتروا وكل شيء مما رأوا[6]. ﴿خالق كل شيء﴾[7] مما خلقه لا مما فعله عباده، لأنه لا يجوز أن يفعل العباد خلق رب العالمين. ويقال لهم: إن كان يجب أن تكون[8] أعمال العباد خلق الله، لقول الله: ﴿خالق كل شيء﴾، فيجب أن يكون كل ما خلقه حسناً، لقوله: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾[9] فيجب أن يكون الشرك[10] حسناً وكذلك الظلم والكذب والفجور والفسوق، لأن ذلك عندهم خلق الله تعالى.

فإن قالوا: إن قوله: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾، إنما أراد بعض الأشياء، قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون قوله: ﴿خالق كل شيء﴾ إنما وقع على كل شيء خلقه دون ما لم يخلقه مما يقدر عليه ويعلم أنه لا يفعله مما يفعله عباده من الطاعة والمعصية.

فإن قال قائل: فما معنى قوله[11]: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[12]؟؟. قيل له: إنما خبر الله عن إبراهيم «عليه السلام»[13]، يقول: نحتم خشباً ثم عبدتموه،

---

(١) في النسخة ب: ذكرناه.

(٢) وهو شاعر عربي مشهور من بني عامر، أدرك الاسلام وأسلم، وتوفي عام ٤١ هـ، وهناك خلاف في تاريخ وفاته هذا.

(٣) غير موجودة في النسخة ب.

(٤) في النسخة ب: القائل.

(٥) في النسخة ب: المشرق.

(٦) في النسخة ب: أرادوا.

(٧) في النسخة أ بزيادة: كل، وفي النسخة ب بزيادة: وكذا.

(٨) في النسخة أ: يكون.

(٩) السجدة: ٧.

(١٠) في النسخة أ: المشرك.

(١١) في النسخة ب: قول الله.

(١٢) الصافات: ٩٦.

(١٣) غير موجودة في النسخة ب.

على وجه التبويخ، ثم قال: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[1]، يقول: خلقكم وخلق الخشب الذي عملتموه صنماً، فسمى الصنم الذي عملوه عملاً لهم، وإن كان الذي حل فيه من التصوير «هو»[2] عملهم.

ولما ذكرنا[3] نظائر من القرآن واللغة، فأما القرآن فقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوّاب وقدور راسيات﴾[4]، وإنما عملهم حل في هذه الأمور، فأما الحجارة فهي خلق الله لا فاعل لها غيره، ومن ذلك أيضاً قوله: ﴿واصنع الفلك﴾[5]، فالخشب خلق الله، والعباد نجروه وعملوه فلكاً وسفناً، ومن ذلك أيضاً قوله: ﴿أن اعمل سابغات﴾[6] فالحديد خلق الله ولكن العباد عملوه دروعاً[7]، فعمل داود عليه السلام، حل في الحديد، والحديد خلق الله، وقال في الحية: ﴿تلقف ما صنعوا﴾[8]، وإنما يريد أنها تلقف الحبال والعصي التي فيها صنعهم، فكذلك قال: ﴿أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾، خلق الخشب الذي يعملون منه صنماً لا[9] أن العباد عملوا خلق الله ولا[10] أن الله خلق أعمالهم.

وقد يقول القائل: فلان يعمل الطين لبناً ويعمل الحديد أقفالاً ويعمل الخوص زبلاً[11]، كذلك أيضاً عملوا الخشب أصناماً، فجاز أن يقال إنها عمل لهم كما قيل إنهم يعملون الطين والخوص والحديد[12].

ثم نرد[13] هذا الكلام عليهم، فنقول لهم: إذا زعمتم أن كفرهم خَلْق الله[14]، وقال إبراهيم محتجاً عليهم، في قولكم[15]، إن الله خلق أعمالكم، فلم

---

(1) الصافات ٩٠، ٩٦، وفي النسختين أ،ب الآية: ﴿لم تعبدون . . ﴾ وهو خطأ.
(2) غير موجودة في النسخة ب.
(3) في النسخة ب: ذكرناه.
(4) سبأ: ١٣.
(5) هود: ٣٧.
(6) سبأ: ١١.
(7) في النسخة ب: درعا.
(8) طه: ٦٩.
(9) في النسخة ب: الا.
(10) في النسخة ب: الا.
(11) أي زنابيل، وهي القفف.
(12) في النسخة ب تقديم وتأخير يجعل العبارة: «الخوص والطين والحديد».
(13) في النسخة ب: انا نرد.
(14) في النسخة ب: لهم.
(15) في النسخة ب: قولهم.

لا[1] قالوا: يا إبراهيم، إذا كان الله خلق فينا الكفر ولا يمكننا أن نرد ما خلق الله فينا، ولو قدرنا لفعلنا، وأنت تأمرنا بأمر لا يكون خلق الله فينا فإنما تأمرنا بأن لا يخلق الله خلقه[2]، حاشا[3] الله، بل لو قالوا ذلك لتبين إبراهيم عليه السلام أن كفرهم غير خلق الله ولو كان خلق الله ما عذبوا عليه ولا نهوا عنه، وقد قال الله تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾[4]، فلو كان خلقاً لله[5] ما بُدِّل وما عذبوا إلا على كفرهم الذي هو غير خلق الله وإن خلق الله حكمة وصواب «و»[6] الكفر سفه وخطأ، فثبت أن الحكمة غير السفه، والخطأ غير الصواب، ولولا كراهة طول الكتاب وخوف ملال القارىء لأتينا على كل شيء مما يسألون عنه من المتشابه في تصحيح مذهبهم. وفيما ذكرنا كفاية ودلالة على ما لم نذكر على أنا قد أودعنا كتابنا «صفوة النظر». ذلك ما فيه بلاغ، والحمد لله رب العالمين.

فصل

إن[7] سأل سائل فقال: أتقولون أن الله هدى الكافر؟.. قيل له: إن الهدى على وجهين: هدى هو دليل وبيان، فقد هدى الله بهذا الهدى كل مكلف بالغ، الكافر منهم والمؤمن..

وهدى هو الثواب والنجاة، فلا يفعل الله هذا الهدى إلا بالمؤمنين المطيعين القائلين عن الله «وعن»[8] رسوله «عليه السلام»[9].

فإن قال[10] وما[11] الدليل على أن الهدى ما تقولون؟.. قيل: الدليل على أن الهدى قد يكون بمعنى الدليل قوله[12] تعالى في كتابه: ﴿**وأما ثمود فهديناهم، فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا**

---

(1) في النسخة ب: ما.
(2) في النسخة ب: خلقاً.
(3) في النسخة ب: ما شاء.
(4) الروم: ٣٠.
(5) في النسخة ب: الله.
(6) غير موجودة في النسخة أ.
(7) غير موجودة في النسخة أ.
(8) غير موجودة في النسخة ب.
(9) غير موجودة في النسخة ب.
(10) في النسخة ب: قالوا.
(11) في النسخة ب: فما.
(12) في النسخة أ: قال الله.

يكسبون﴾[1]، فقد خبَّر الله أنه هدى ثموداً الكفار فلم يهتدوا، فأخذتهم الصاعقة بكفرهم، وقال[2] تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[3]، يعني الدلالة والبيان[4]، وقال: ﴿إنا هديناه السبيل﴾[5]، يعني دللناه على الطريق ﴿وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم قوماً مجرمين﴾[6]، فخبروا في الآخرة أن الهدى قد أتى من الله الكفار[7] وإن[8] لم يهتدوا، وإنما هدى الله هدى الدليل، وقال لنبيه عليه السلام: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[9]، يعني تدل وتبين، وما أشبه ما ذكرنا أكثر من أن نأتي عليه.

وأما ما يدل على ذلك من اللغة، فإن كل من دل على شيء فقد هدى إليه، فلما كان الله تعالى قد دل الكفار على الإيمان ثبت أنه قد هداهم إلى الإيمان، فأما هدى الثواب الذي لا يفعل الله تعالى بالكافرين، فمنه قوله تعالى: ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم، سيهديهم ويصلح بالهم﴾[10]، وإنما يهديهم بعد القتل بأن ينجيهم ويثيبهم، وقال: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾[11]، بأن ينجيهم ويثيبهم، وقال: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾[12]، وقال: ﴿ويهدي إليه من أناب﴾[13]، يعني من تاب.

فهذا الهدى وما أشبهه لا يفعله الله إلا بالمؤمنين القابلين للحق[14]، فأما

---

(1) فصلت: ١٧.

(2) في النسخة ب: وقال الله.

(3) النجم: ٢٣.

(4) في النسخة ب بزيادة: «وقال تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾، يعني الدلالة والبيان ٢٢. وهي الآية ٩٤ من سورة الاسراء.

(5) الإنسان: ٣.

(6) سبا: ٣٢.

(7) في النسخة ب: للكفار.

(8) في النسخة ب: فلم.

(9) الشورى: ٥٢.

(10) محمد: ٥.

(11) يونس: ٩ وفي النسخة ب تكملة للآية: ﴿جنات تجري من تحتهم الأنهار﴾ وإنما يهديهم بإيمانهم».

(12) المائدة: ١٦.

(13) الرعد: ٢٧.

(14) في النسخة ب: القائلين بالحق.

قرين [1] الدليل فقد هدى الله «به» [2] الخلق أجمعين وكلما [3] سُئِلتَ عن آية من الهدى من الله عز وجل[4] فردها إلى هذين الأصلين فإنه لن [5] يخلو من أن يكون على ما ذكرناه.

ولولا كراهة التطويل لسألنا أنفسنا عن أيَّة آية مما يحتاج إلى البيان، وفي هذه الجملة دليل على ما نسأل عنه.

فصل

فإن قيل: أفتقولون إن الله أضل الكافرين؟.. قيل له: نقول إن الله أضلهم، بأن عاقبهم وأهلكهم عقوبة لهم على كفرهم، ولم يضلهم عن الحق ولا أضلهم بأن أفسدهم، جل وعز عن ذلك.

فإن قالوا: لم زعمتم أن الضلال قد يكون عقاباً؟ قيل لهم: قد قال الله تعالى: **﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾**[6] يعني في هلاك وسعر، يعني سعر النار فيهم، إذ ليس في الآخرة ضلال هو كفر أو فسق لأن التكليف زائل في الآخرة، وقد بين الله من يضل فقال: **﴿ويضل الله الظالمين﴾**[7]، وقال: **﴿ويضل الله الكافرين﴾**[8]، وقال: **﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾**[9]، وقال: **﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾**[10]، ثم أوضح الأمر وخبَّر أنه لا يضل إلا بعد إقامة الحجة، فقال: **﴿ما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾**[11]، فأخبر أنه لا يضل أحداً حتى يقيم الحجة عليه، فإذا ضل عن الحق بعد البيان والهدى والدلالة أضله حينئذ بأن أهلكه وعاقبه.

---

(1) غير معجمة في النسخة أ.
(2) غير موجودة في النسخة ب.
(3) في النسخة أ: كلما بدون أداة عطف.
(4) في النسخة ب: تعالى..
(5) في النسخة ب: لا.
(6) القمر: ٤٧.
(7) إبراهيم: ٢٧.
(8) غافر: ٧٤.
(9) البقرة: ٢٦.
(10) غافر: ٣٤، وفي النسختين أ،ب نجد قبل هذه الآية قال: ﴿كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب﴾ وهو خطأ، أما هذه الآية فهي غير موجودة في النسخة ب.
(11) التوبة: ١١٥.

وأما الاضلال الذي ننفيه عن ربنا تعالى فهو[1] ما أضافه الله تعالى إلى غيره فقال ﴿وأضلهم السامري﴾[2]، يقول أضلهم بأن دعاهم إلى عبادة العجل، وقال تعالى: ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾[3]، يريد أضلهم بأن قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [4] وأمرهم بالكفر ودعا إليه، والله لا يأمر بعبادة غيره ولا يفسد عباده قال[5]: ﴿فوكزه موسى فقضى عليه، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين﴾[6]، وقال: ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾[7]، يريد أنه أفسد وغر وخدع، والله لا يغر[8] العباد ولا يظهر في الأرض الفساد. وقال: يخبر عن أهل النار، إنهم يقولون: ﴿ما أضلنا إلا المجرمون﴾[9]، يريد ما أفسدنا ولا غرنا[10] ولا بين «لنا»[11] الكفر والمعاصي إلا المجرمون، ولم يقولوا ما أضلنا إلا رب العالمين، تعالى الله عن ذلك «علواً كبيراً»[12].

وكل إضلال أضل الله به العباد فإنما هو عقوبة لهم على كفرهم وفسقهم وأما من خالفنا فزعموا أن الله تعالى يبتدي كثيراً من عباده بالاضلال عن الحق ابتداء من غير عمل، وأن من قولهم أن عبداً مجتهداً في طاعة الله قد عبده مائة عام ثم لا يأمن أن يضله عما هو عليه من طاعته فيخلق فيه الكفر ويزين[13] عنده الباطل، وأن «عبداً»[14] يعبد غيره مائة عام ويكفر به ثم لا يأمن أن يخلق في قلبه الايمان فينقله عما هو عليه، فليس يثق وليه بولايته ولا يرهب عدوه من عداوته.

فصل

فإن سأل سائل فقال: ما معنى قوله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾[15]،

---

(١) في النسخة أ «واو» زائدة، لا مكان لها.
(٢) طه: ٨٥.
(٣) طه: ٧٩.
(٤) النازعات: ٢٤.
(٥) في النسخة ب: وقال.
(٦) القصص: ١٥.
(٧) يس: ٦٢.
(٨) في النسخة ب: يضر.
(٩) الشعراء: ٩٩.
(١٠) في النسخة ب: غيرنا.
(١١) غير موجودة في النسخة ب.
(١٢) غير موجودة في النسخة أ.
(١٣) في النسخة أ: يربي.
(١٤) غير موجودة في النسخة ب.
(١٥) القصص: ٥٦.

قيل [1] له: معنى إنك[2] لا تنجي من العذاب من أحببت، لأن النبي صلى الله عليه وآله «قد» [3] كان حريصاً على نجاة أقاربه بل كل من دعاه [4].

فإن قيل: فلم زعمتم أن هذا «هو» [5] تأويل الآية؟ قيل له: لما كان الله قد هداهم، بأن دلهم على الإيمان، علمنا أنه لم يهدهم بهدي الثواب[6]، وقد بين الله تعالى أن الهدى بمعنى الدليل قد هداهم «به»[7] فقال: **﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾**[8]، يعني الدلالة والبيان.

فإن قال[9]: فما معنى قوله: **﴿ليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء﴾**[10]، قيل له: إنما أراد به ليس عليك نجاتهم، ما عليك إلا البلاغ، ولكن الله ينجي من يشاء. فإن قيل[11]: فلم قلتم هذا؟ قيل له: لما خبَّر[12] الله تعالى أن النبي عليه السلام قد هدى الكافرين[13]، فقال: **﴿إنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾**[14]، وإنما يريد إنك تدل، فلما كان قد دل المؤمن والكافر كان قد هدى الكافر والمؤمن، فعلمنا أنه أراد بهذه الآية هدي[15] الثواب والنجاة، فقس على ما ذكرنا جميع ما تُسْأل عنه من أمثال هذه الآية.

---

(1) في النسخة أ: فقيل.
(2) في النسخة أ: أنه.
(3) غير موجودة في النسخة ب.
(4) في النسخة أ: «من كان دعاه». وهو غير مستقيم الدلالة.
(5) غير موجودة في النسخة ب.
(6) في النسخة أ: بهذا الثواب.
(7) غير موجودة في النسخة أ.
(8) النجم: ٢٣.
(9) في النسخة ب: قيل.
(10) البقرة: ٢٧٢.
(11) في النسخة أ: قيل له. وهو خطأ.
(12) في النسخة ب: أخبر.
(13) في النسخة ب: الكافر.
(14) الشورى: ٥٢.
(15) في النسخة أ: هذا.

باب الكلام في الإرادة

فإن سأل سائل فقال: أتقولون إن الله تعالى أراد الإيمان من جميع الخلق المأمورين والمنهيين أو أراد ذلك من بعضهم دون بعض؟ قيل له: بل أراد ذلك[١] إرادة بلوى واختبار ولم يرده إرادة إجبار واضطرار، وقد قال الله: ﴿كونوا قوامين بالقسط﴾[٢]، وقال: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾[٣]، فأراد أن يجعلهم هو قردة إرادة إجبار واضطرار، وكانوا كلهم قردة لذلك[٤]، وأراد أن يقوموا بالقسط إرادة بلوى واختبار، فلو أراد أن يكونوا قوامين[٥] بالقسط كما أراد أن يكونوا قردة خاسئين لكانوا كلهم قوامين شاؤوا أو أبوا، ولكن لو[٦] فعل ذلك ما استحقوا حمداً ولا أجراً.

ومما يدل من القرآن على أن الله أراد بخلقه الخير والصلاح ولم يرد لهم[٧] الكفر والضلال قوله سبحانه: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾[٨]، فأخبر أن ما أراد غير ما أرادوا، وقال: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم﴾[٩]، فأخبر أن إرادته في خلقه الهداية والتوبة والبيان، ثم قال: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾[١٠]، فأخبر أن ما أراد الله منهم «غير ما أراد»[١١] غيره من الميل العظيم، وقال: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾[١٢]، فأخبر

(١) في النسخة ب بزيادة: من جميع الخلق.
(٢) النساء: ١٣٥.
(٣) البقرة: ٦٥.
(٤) في النسخة ب: فكانوا كلهم كذلك.
(٥) في النسخة ب: يقوموا.
(٦) في النسخة أ: له.
(٧) في النسخة ب: بهم.
(٨) الأنفال: ٦٧.
(٩) النساء: ٢٥. وفي النسختين أ، ب ذكرت الآية: (يريد الله أن يبين لكم...) . وهو خطأ.
(١٠) النساء: ٢٧.
(١١) غير موجودة في النسخة ب.
(١٢) التوبة: ٣٢.

أنه إنما يأبى ما أراد العباد من إطفاء نوره، وقال: ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾[1]، وقال: ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾[2]، فأخبر أنه لا يريد الظلم بوجه من الوجوه، كما أنه لما قال: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾[3]، لم يجز أن يرضى «به»[4] بوجه من الوجوه، وكذلك ما قال: ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾[5]، لم يجز أن يأمر بالفحشاء بوجه من الوجوه، ولو جاز أن يريد الظلم وهو يقول: ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾[6]، لجاز أن يرضى بالكفر ويحب الفساد ويأمر بالفحشاء مع هذه الآيات، فلما لم يجز ذلك لم يجز أن يريد الظلم.

ومما يدل على أن الله تعالى لم يرد الكفر والفجور أنا وجدنا المريد لشتمه[7] سفيه غير حكيم، فلما كان الله أحكم الحاكمين علمنا أنه لا يريد شتمه ولا سوء الثناء عليه. وأيضاً فإن الكفار إذا فعلوا ما أراد من الكفر كانوا محسنين، لأن من فعل ما أراد الله تعالى فقد أحسن[8]، «فلما»[9] لم يجز أن يكون الكافر[10] محسناً في شتمه لله ومعصيته له علمنا أنه لم يفعل ما أراد الله، وأيضاً فإنه لو جاز أن يريد الكفر به ويكون بذلك ممدوحاً لجاز أن يحب الكفر ويرضى به ويكون بذلك حكيماً ممدوحاً، فلما لم يجز أن يرضى بالكفر ولا يحبه لم يجز أن يريده، وأيضاً فإن من أمر العباد بما لا يريده فهو جاهل، فلما كان ربنا أحكم الحاكمين علمنا أنه لم يأمر بشيء لا يريده، لأن من أمر بمدحه ولم يرد أن يُفْعَل[11] ونهى عن شتمه وأراد أن يُفْعَل فهو جاهل ناقص، فلما كان أحكم الحاكمين علمنا أنه لا يريد أن يشتم ولا يثنى عليه بسوء الثناء، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

---

(1) غافر: ٣١.
(2) آل عمران: ١٠٨.
(3) الزمر: ٧.
(4) غير موجودة في النسخة أ، وهي في النسخة ب بين قوسين.
(5) الاعراف: ٢٨.
(6) آل عمران: ١٠٨.
(7) في النسخة ب: نفسه.
(8) في النسخة ب بزيادة كلمة: ظلماً. وهي لا محل لها.
(9) غير موجودة في النسخة ب.
(10) في النسخة أ: الكفار، وهي غير موجودة في النسخة ب.
(11) في النسخة ب: يفعله.

فصل

«شبهة لهم»[1]:

قالوا: لو أراد الله سبحانه من زيد الإيمان فوقع خلافه وهو مراد الشيطان والعبد لكانا قد عَجَّزا[2] الله سبحانه ووجب أن يكون أقدر منه.

الجواب[3] عن ذلك، أنه يقال لهم: لم قلتم ذلك؟ فإن قالوا لأنا نعلم أن جند السلطان لو فعلوا ما لا يريده[4] لدل على عجزه وقلة[5] قدرته. قيل لهم: إنما صح ذلك لأن السلطان لم يكن ممن يصح منه التكليف أو ممن له قدرة على الانتصاف منهم في أي وقت أراد لا[6] يخاف الفوت، ولم يكن أيضاً ممن يعلم مقدار الحسنة والجزاء عليها والسيئة والأخذ بها، وإنصافاً لسلطان يتألم إذا لم يقع مراده ويسر بوقوعه، وكل هذه الأوصاف منتفية عن القديم «تعالى»[7] فافترق[8] بين الأمرين، ولم يكن للقياس الذي اعتمدوا عليه معنى في هذا الموضع، وإنما يجب أن يُجْمَع بين «المعنيين لعلة تجمعهما»[9] والأمر ها هنا[10] بخلاف ذلك. ثم يقال لهم: إنما[11] كان يجب أن يكون عاجزاً لو أراد منهم الطاعة إرادة اضطرار وإجبار ثم لم تقع، فأما وقد[12] أراد إرادة البلوى والاختبار فهذا ما لا يعصي[13] إلا على المسكين. وإذا كان كل ذلك[14] فلا يكون منا التعجيز لله تعالى إذ فعل العباد ما لا يريده من الكفر ولم يفعلوا ما أراده من الإيمان لأنه لم يرد أن يحملهم عليه حملاً ويلجئهم إليه إلجاء فيكون منهم على غير سبيل التطوع. وقد بين الله «تعالى ذلك»[15] في كتابه فقال: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها

---

(١) في النسخة ب: في شبهة لهم.
(٢) في النسخة ب: عجز.
(٣) في النسخة ب: والجواب.
(٤) في النسخة أ: ما يريده.
(٥) في النسخة ب: عدم.
(٦) في النسخة ب: ولا.
(٧) غي موجودة في النسخة ب.
(٨) في النسخة ب: ففرق.
(٩) في النسخة ب: بين المتساويين بعلة.
(١٠) في النسخة ب: هيهنا.
(١١) في النسخة أ: أن.
(١٢) في النسخة ب: إذا.
(١٣) في النسخة ب: يخبى (يه نفى).
(١٤) في النسخة ب: ذلك كله.
(١٥) غير موجودة في النسخة ب.

خاضعين﴾[1]، فأخبر أنه لو شاء لأحدث آية يخضع عندها الخلق، ولكنه لو فعل ذلك ما استحقوا حمداً وجزاء[2] ولا كرامة ولا مدحاً، لأن المُلْجأ لا يستحق حمداً ولا جزاء، لأنه إنما يستحق ذلك المختار المستطيع، وقد بين الله «تعالى»[3] ذلك، فقال: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾[4] قال[5] الله عز وجل: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾[6]، فأخبر أنه لا ينفع الايمان إذا[7] كان العذاب والإلجاء، وقال تعالى: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾[8]، فأخبر أنه لا ينفع الايمان في حال الإلجاء، وقال عز وجل: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إلـه إلا الذين آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾[9]، قال[10] الله تعالى: ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾[11]، فأخبر أنه لم[12] ينفعه الايمان في وقت الإلجاء والإكراه، وقال عز وجل: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار﴾[13]، فأخبر أنه لا تنفع التوبة في حال المعاينة.

وما أشبه ما ذكرنا كثير، ثم يقال لهم: فإذا كان العبد بفعله ما لم يرد الله قد عَجَّزه[14] فيجب أن يكون بفعله ما يريده قد أقدره، ومن انتهى قوله إلى هذا الحد فقد استغنى عن جداله وزيحت[15] مؤونته.

---

(١) الشعراء: ٤.

(٢) في النسخة ب: ولا جزاء.

(٣) غير موجودة في النسخة ب.

(٤) غافر: ٨٤.

(٥) في النسخة ب: وقال.

(٦) غافر: ٨٥.

(٧) في النسخة ب: إذ.

(٨) الانعام: ١٥٨.

(٩) يونس: ٨٩ والاية في النسخة أ: (فلما أدركه الغرق)، وهو خطأ.

(١٠) في النسخة ب: وقال.

(١١) يونس: ٩٠.

(١٢) في النسخة ب: لا.

(١٣) النساء: ١٧، ١٨.

(١٤) في النسخة ب: أعجزه.

(١٥) في النسخة ب: ربحت.

فصل

فإن سألوا عن معنى قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[1]، قيل لهم: معنى ذلك لو شاء ربك لألجأهم إلى الإيمان، لكنه لو فعل ذلك لزال التكليف فلم يشأ ذلك بل شاء أن يطيعوا على وجه التطوع والإيثار لا على وجه الإجبار والاضطرار، وقد بين الله ذلك فقال: ﴿أفأنت تكره الناس﴾[2] «يريد»[3] إني أنا أقدّر على الإكراه منك ولكنه ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[4]، وكذلك الجواب في قوله: ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾[5]، ﴿لو شاء لهداكم أجمعين﴾[6]، وقوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾[7]، ولو شاء لحال بينهم وبين ذلك، ولو فعل ذلك لزال التكليف عن العباد، لأنه لا يكون الأمر والنهي إلا مع الاختيار لا مع الإلجاء والاضطرار، وقد بين الله «ذلك»[8] بما ذكرنا من قوله: ﴿إنْ نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾[9]، فأخبر أنه لو شاء لأكرههم على الإيمان[10] وقد بين الله في كتابه العزيز أنه لم يشأ الشرك، وكذب الذين أضافوا إليه ذلك، فقال تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾[11]، فأخبروا أنهم إنما أشركوا بمشيئة الله تعالى، فلذلك[12] كذبهم، ولو كانوا

---

(١) يونس: ٩٩.

(٢) يونس: ٩٩.

(٣) غير موجودة في النسخة أ.

(٤) البقرة: ٢٥٦.

(٥) الأنعام: ١١٢.

(٦) النحل: ٩، والآية في النسختين أ، ب: «... لهداهم» وهو خطأ.

(٧) البقرة: ٢٥٣.

(٨) غير موجودة في النسخة ب.

(٩) الشعراء: ٤.

(١٠) في النسخة ب بزيادة عبارة: «وقد بين ذلك ما ذكرناه عن قصة فرعون وغيره، وأنه لم ينفعهم الإيمان في وقت الاكراه».

(١١) الأنعام: ١٤٨.

(١٢) في النسخة أ: فكذلك.

أرادوا أنه لو شاء الله لحال بيننا وبين «الشرك»[1] لما كذبهم الله. قال الله تكذيباً لهم: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾[2]، يعني عذابنا، ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾[3]، يعني «هل»[4]: عندكم من علم أن الله يشاء الشرك؟.. ثم قال: ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾[5] «يعني تكذبون»[6]: ﴿قتل الخراصون﴾[7]، وقال عز وجل: ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾[8]، يعني يكذبون، وقال عز وجل: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾[9]، «غير»[10] أن الرسل قد دعت فلو كان الله تعالى شاء الشرك لكانت الرسل قد دعت إلى خلاف ما شاء الله، فعلمنا أن الله «تعالى»[11] لم يشأ الشرك.

فإن قال بعض الأغبياء: فهل يشاء العبد شيئاً، أو هل تكون للعبد إرادة؟..
قيل له: نعم، قد شاء ما أمكنه الله من مشيئته ويريد ما أمره الله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها﴾[12]، وقال تعالى: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾[13]، وقال: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا﴾[14]، وقال: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء﴾[15] وقال: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء﴾[16]،

---

(١) غير موجودة في النسخة أ، وفي النسخة ب: الايمان.
(٢) الأنعام: ١٤٨.
(٣) الأنعام: ١٤٨.
(٤) في النسخة أ: قال.
(٥) الأنعام: ١٤٨.
(٦) غير موجودة في النسخة ب.
(٧) الذاريات: ١٠.
(٨) الزخرف: ٢٠.
(٩) النحل: ٣٥ والاية في النسخة ب (فهل على الرسول) وهو خطأ.
(١٠) في النسخة ب: خبر.
(١١) غير موجودة في النسخة ب.
(١٢) الكهف: ٢٩.
(١٣) الإنسان: ٢٩.
(١٤) النبأ: ٣٩، والاية في النسختين أ،ب: (من شاء) وهو خطأ.
(١٥) الأحزاب: ٥١.
(١٦) يوسف: ٥٦.

وقال: ﴿فكلا من حيث شئتما﴾[1]، وقال: ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾[2]، وقال: ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾[3]، وقال تعالى «مما»[4] «يبين»[5] أن العبد «قد»[6] يريد ما يكره الله منه إرادته، فقال: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾[7]، وقال: ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾[8]، وقال: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾[9]، فأخبر أنهم لو أرادوا لفعلوا كما فعل من أراد الخروج، وقال: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾[10]، وقال: ﴿يريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[11]، وقال: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾[12].

وما أشبه ما ذكرنا أكثر من «أن»[13] نأتي عليه في هذا الموضع.

فإن قال: فما معنى قوله: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾[14]؟.. قيل له: إن الله ذكر هذا المعنى في موضعين، وقد بينهما ودل عليهما بأوضح دليل وأشفى برهان على «أنهما»[15] «مشيئة»[16] في الطاعة، فقال: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾[17]، وهو عز وجل شاء الاستقامة ولم يشأ الاعوجاج ولا الكفر، وقال في موضع آخر: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾[18]، فالله قد شاء اتخاذ السبيل ولم يشأ العباد ذلك إلا وقد شاءه الله «تعالى»[19] لهم، فأما الصد عن السبيل وصرف العباد عن الطاعة فلم «يشأه»[20] عز وجل.

---

(1) الأعراف: ١٩.
(2) البقرة: ٢٢٣.
(3) الكهف: ٧٧.
(4) في النسختين أ، ب: فيما.
(5) في النسخة ب: بين.
(6) في النسخة أ: فلا.
(7) الأنفال: ٦٧.
(8) النساء: ٢٧.
(9) التوبة: ٤٦.
(10) الفتح: ١٥.
(11) النساء: ٦٠.
(12) المائدة: ٩١.
(13) غير موجودة في النسخة أ.
(14) الإنسان: ٣٠.
(15) في النسخة ب: أنها.
(16) في النسخة ب: مسيئته.
(17) التكوير: ٢٩.
(18) الإنسان: ٢٩، ٣٠.
(19) غير موجودة في النسخة ب.
(20) في النسخة ب: يشأ.

ويقال لهم: أليس المريد لشتمه غير حكيم؟.. فمَن قولهم: نعم: قيل لهم: وقد زعمتم أن الله يريد[1] شتمه ويكون حكيماً، فلا بد من الإقرار بذلك أو يتركوا قولهم، «ويقال لهم»[2] فما أنكرتم أن يخبر بالكذب ولا يكون كاذباً؟ فإن «امتنعوا»[3] من ذلك، قيل لهم، ولا يجب أن يكون حكيماً بإرادة السفه وإرادة شتم نفسه، ولا يجدون إلى الفصل سبيلاً، فإن أجازوا على الله أن يخبر بالكذب لم يأمنوا بعد إخباره عن البعث والنشور والجنة والنار أنها كلها كذب، ويكون بذلك صادقاً، ولا يجدون من الخروج «عن»[4] هذا الكلام سبيلاً، ويقال لهم: فما تريدون[5] من الكفار؟.. فإن قالوا: الكفر[6]، فقد أقروا على أنفسهم بأن يريدوا أن يُكْفَر الله، ويجب عليهم أن يجيزوا ذلك على النبي صلى الله عليه وآله بأن يكون «مريداً للكفر»[7] بالله تعالى، وهذا غاية سوء الثناء عليه، وإن قالوا إن الذي نريده من الكفار الإيمان، قيل لهم: فأيما أفضل، ما أردتم من الإيمان أو ما «أراده»[8] الله من الكفر، فإن قالوا ما «أراده»[9] الله خير مما أردنا من الإيمان فقد زعموا أن الكفر خير من الإيمان وإن قالوا إن ما أردنا من الإيمان خير مما أراده الله من الكفر فقد زعموا أنهم أولى بالخير والفضل من الله وكفاهم بذلك «خزياً»[10].

فيقال لهم: فما يجب على العباد؟ «أيجب»[11] عليهم أن يفعلوا ما تريدون أنتم «أو يريد»[12] الله؟ «فإن قالوا ما يريد الله»[13]، فقد زعموا أن على أكثر العباد أن يكفروا إذ كان الله «تعالى»[14] يريد لهم الكفر، وإن قالوا يجب على العباد أن يفعلوا ما «يريدون»[15] من الإيمان ولا يفعلوا ما يريد الله من الكفر فقد زعموا أن اتباع ما أرادوا هم أوجب على الخلق من اتباع ما أراد الله وكفاهم بهذا قبحاً، ولولا كراهة طول الكتاب لسألناهم في قولهم إن الله تعالى أراد المعاصي عن مسائل كثيرة يتبين

---

(1) في النسخة أ: يريده.
(2) في النسخة أ مكررة، وهي فيها بدون حرف العطف.
(3) في النسخة ب: منعوا.
(4) في النسخة أ: من.
(5) في النسخة ب بزيادة: أنتم.
(6) في النسخة ب بزيادة: نريد من الكفار.
(7) في النسخة ب: مريد الكفر.
(8) في النسخة ب: أراد.
(9) في النسخة ب: أراد.
(20) في النسخة أ: خيراً.
(11) في النسخة ب: يجب.
(12) في النسخة ب: أو ما يريد.
(13) غير موجودة في النسخة أ.
(14) غير موجودة في النسخة ب.
(15) في النسخة ب: نريد.

فيها فساد قولهم وفيما «ذكرنا»[1] كفاية، والحمد لله رب العالمين.

ومما جاء من الحديث ما يصحح مذهبنا في القضاء والمشيئة وغير ذلك «ما ذكرناه فمن ذلك»[2] ما روي عنه عليه السلام أنه قال لا يؤمن أحدكم حتى يرضى بقدر الله تعالى، وهذا مصحح لقولنا «إنا»[3] بقدر الله راضون وبالكفر غير راضين. وروي عن عبد الله بن شداد[4] عنه عليه السلام أنه كان يقول في دعائه: اللهم رضني بقضائك وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت. والنبي صلى الله عليه وآله لا يجوز أن يرضى بالكفر ولا بالظلم، وروي عنه عليه السلام أنه قال سيكون في آخر هذه الأمة قوم يعملون بالمعاصي «ثم يقولون»[5] هي من الله قضاء وقدر فإذا لقيتموهم فأعلموهم أني منهم بريء، وروي عنه عليه السلام أنه قال له رجل: بأبي أنت وأمي متى يرحم الله عباده ومتى يعذب الله عباده؟. قال[6]: يرحم الله «عباده»[7] إذا عملوا بالمعاصي فقالوا: منا، ويعذب الله عباده إذا عملوا بالمعاصي «فقالوا»[8] من الله قضاء[9]. وقد روي أن عمر بن الخطاب «رضي الله عنه»[10] أتي بسارق فقال: ما حملك على هذا؟.. فقال «قضاء»[11] الله وقدره. فضربه عمر ثلاثين سوطاً، ثم قطع يده. فقال قطعت يدك بسرقتك، وضربتك بكذبك على الله تعالى، وهذا خبر قد روته جميع الحشوية[12] ومعظم «رواة»[13] العامة، ونقله أحمد بن حنبل وغيره من الرواة.

---

(١) في النسخة ب: ذكرناه.

(٢) في النسخة ب تقديم وتأخير يجعل من العبارة: «من ذلك ما ذكرناه». ولعل العبارة لو كانت: «من ذلك ما روي»، لاستقام أسلوبها أكثر من ذلك.

(٣) في النسخة ب: لأنا.

(٤) من شيعة علي بن أبي طالب، قتل سنة ٨٢هـ.

(٥) في النسخة ب: حتى يقولون.

(٦) في النسخة ب: فقال.

(٧) غير موجودة في النسخة أ.

(٨) في النسخة أ: فقال.

(٩) الحديث في النسخة ب مضطرب وناقص، ونصه فيها: «فقال، صلى الله عليه وسلم: يرحم الله عباده إذا عملوا بالمعاصي فقالوا هي من الله قضاء وقدر». وهكذا عكس المعنى المراد.

(١٠) في النسخة ب بزيادة: أنه.

(١١) غير موجودة في النسخة ب.

(١٢) هم عوام المفكرين الذين لا طاقة لهم على استخدام العقل والتأويل.

(١٣) في النسخة أ: رواية.

وروي عن الأصبغ بن نباتة[1]، قال: لما رجع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ورضوانه من صفين[2]، قام إليه شيخ فقال «له»[3]: «يا أمير المؤمنين أخبرنا عن سيرنا إلى الشام، أكان بقضاء وقدر؟ فقال[4]: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئاً ولا هبطنا وادياً ولا علونا تلعة[5] إلا بقضاء وقدر، فقال «له»[6] الشيخ: عند الله تعالى أحتسب عنائي، والله ما أرى «أن»[7] لي من الأجر شيء. «فقال له» [8] علي «بلى» [9] أيها الشيخ لقد عظم الله أجركم بمسيركم وأنتم سائرون وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين. فقال: وكيف لم نكن مضطرين والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا ومنصرفنا؟.. فقال له: ويحك! لعلك ظننت قضاء لازماً وقدراً حتماً؟! لو كان ذلك كذلك «لبطل»[10] الثواب والعقاب «وسقط»[11] الوعد والوعيد والأمر من الله والنهي، ولم تكن «تأتي»[12] لائمة لمذنب ولا مَحْمَدة «لمحسن»[13] ولم يكن المحسن أولى «بالمدح»[14] من المسيء ولا المسيء أولى «بالذم»[15] من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان وجند الشيطان وخصماء الرحمن وشهود الزور والبهتان وأهل العمى عن الصواب وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله أمر

---

(١) التميمي الحنظلي، من شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) موقعة شهيرة بين أنصار علي وأنصار معاوية بن أبي سفيان.
(٣) غير موجودة في النسخة ب.
(٤) غير موجودة في النسخة أ.
(٥) التلعة ما علا من الارض وما سفل منها.
(٦) غير موجودة في النسخة ب.
(٧) في النسخة ب تقديم وتأخير يجعل العبارة: «ما أن أرى لي من الأجر شيئاً».
(٨) في النسخة أ: فقاله، وفي النسخة ب: فقال.
(٩) غير موجودة في النسخة أ.
(١٠) في النسخة أ: بطل.
(١١) غير موجودة في النسخة أ.
(١٢) غير موجودة في النسخة ب.
(١٣) في النسخة أ: محسن.
(١٤) في النسخة أ: بالذنب.
(١٥) في النسخة أ: بالذنب.

تخييراً ونهى تحذيراً وكلف يسيراً[1]، ولم يعص مغلوباً ولم يطع «مكرهاً»[2] ولم يرسل الرسل «عبثاً»[3] ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾[4] فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما؟.. «قال»[5]: ذلك الأمر من الله والحكم، ثم تلا هذه الآية: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾[6]، فنهض الشيخ مسروراً، وهو يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته ... يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً ... جزاك ربك «بالإحسان إحسانا»[7]

وروي عن جابر[8] عن النبي عليه السلام أنه قال: يكون في آخر الزمان قوم يعملون بالمعاصي ثم يقولون الله قدرها علينا، الراد عليهم يومئذ كالشاهر سيفه في سبيل الله. وروي أن رجلاً جاء إلى الحسن البصري فقال: يا أبا سعيد، إني طلقت امرأتي ثلاثاً فهل[9] من مخرج؟ فقال: ويحك!! ما حملك على ذلك؟.. قال: القضاء، فقال «له»[10] الحسن «البصري»[11]: كذبت على ربك وبانت منك امرأتك. وروي أن الحسن البصري «أيضاً»[12] مر «بفضيل»[13] بن برجان[14] وهو

---

(١) في النسخة ب بزيادة: «ولم يكلف عسيراً، واعطى على القليل كثيراً».

(٢) في النسخة أ: مكروهاً.

(٣) في النسخة ب: لعباً، وبزيادة: ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً.

(٤) ص: ٢٧.

(٥) في النسخة ب: فقال.

بقرة: ٨٣.

لة الأخيرة لهذا البيت في النسخة أ هكذا: «جزاك ربك الإحسان إحسان».

بن عبد الله بن عمر، صحابي، مات سنة ٧٨هـ أو سنة ٨٨هـ. على خلاف في ذلك.

خة ب. بزيادة: لي.

وجودة في النسخة ب.

ير موجودة في النسخة ب.

(١٠) غير موجودة في النسخة ب.

(١٣) في النسخة ب: على فضيل.

(١٤) سارق صلب في تنفيذ حد السرقة، وحاول، بجداله مع الحسن البصري، أن ينسب فعلته إلى القضاء والقدر، كما يدل سياق الحديث.

مصلوب، فقال: ما حملك على السرقة؟ قال: قضاء الله وقدره، قال: كذبت يالكع، أيقضي عليك أن تسرق ثم يقضي عليك أن تصلب؟! وروي أن ابن سيرين[1] سمع رجلاً وهو يسأل عن رجل آخر فقال: ما فعل فلان؟ فقال: هو كما شاء الله، فقال ابن سيرين: لا تقل كما شاء الله، ولكن قل: هو كما يعلم الله، لو كان كما شاء الله كان رجلاً صالحاً. وما أشبه هذا أكثر من أن يحصى، ولو لم يكن «ورد»[2] عن الرسول عليه السلام من الآثار ما نعلم به بطلان مذهب القدرية و«المجبرة»[3] إلا الخبر المشهور الذي «تلقته الأمة بالقبول»[4] وهو ما رواه شداد بن أوس[5]، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله «يقول»[6]:

من قال حين يصبح أو حين يمسي: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا أعبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت وأقر لك بالنعمة وأقر على نفسي بالذنب، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وقال «ابن سيرين»[7] لرجل له مملوك: لا تكلفه ما لا يستطيع، فإن كرهته فبعه. وقال عليه السلام: إذا أمرتكم «بأمر»[8] فأتوا منه ما استطعتم. وروي أنه قال لفاطمة عليها السلام، حين أخدمها غلاماً: لا تكلفيه ما لا يطيق. وروي عنه عليه السلام أنه قال: «فاستغفروا»[9] عن الشرك ما استطعتم.

وهذه الأخبار مما يستدل بها على بطلان قولهم في الاستطاعة «ويصحح»[10] قولنا: إن الإنسان[11] مستطع، وأن الله «تعالى»[12] لا يكلف عباده ما لا يطيقون، وإنما أوردناها لتكون رسالتنا هذه غير محتاجة إلى غيرها في هذا المعنى.

---

(١) هو محمد بن سيرين البصري الانصاري بالولاء، من علماء التابعين وفقائهم ورواة الحديث فيهم، اشتهر بتعبير الرؤيا، وله في ذلك كتاب «تعبير الرؤيا» وينسب إليه على سبيل الخطأ كتاب «منتخب الكلام في تفسير الاحلام» راجع «الاعلام لخير الدين الزركلي. الطبعة الثانية. جـ ٦ ص ٢٥».

(٢) في النسخة أ كلمة مطموسة وبعدها. رد.

(٣) في النسخة ب: الجبرية.

(٤) في النسخة أ بياض، وبهامشها عبارة غير مفهومة.

(٥) وكنيته أبو يعلى، صحابي من الانصار توفي بالقدس سنة ٥٨ هـ.

(٦) غير موجودة في النسخة أ.

(٧) غير موجودة في النسخة أ.

(٨) في النسخة ب: بشيء «بأمر».

(٩) في النسخة ب: استغفروا.

(١٠) في النسخة ب: وتصحيح.

(١١) في النسخة ب بزيادة: العبد.

(١٢) غير موجودة في النسخة ب.

ومن ذلك أيضاً (ما روي)[1] عن بنت رفيع قالت: بايعت[2] رسول الله «صلى الله عليه وآله»[3] في نسوة، فأخذ علينا ما في «الآية: ﴿لا يسرقن ولا يزنين..﴾ الآية»[4]، ثم قال: فيما استطعتن وأطقتن، قالت «قلنا»[5] الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا.

وذكر قتادة[6] قال: بايع رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه على السمع والطاعة فيما استطاعوا. وهذا يدل[7] كل مصنف على أن «النبي صلى الله عليه وآله»[8] وأتباعه لم يلزموا العباد الطاعة إلا فيما استطاعوا. وكيف يجوز على أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين أن يكلف عباده ما لا يطيقون وأن يلزمهم ما لا «يجدون»[9].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: أول ما «نتن من ابن آدم»[10] بطنه، فمن استطاع ألا يدخل بطنه إلا طيباً فليفعل. «وقال عليه السلام: من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل، فلم يوجب عليه السلام على أحد إلا إذا كان مستطيعاً له»[11]. وقال عليه السلام: من استطاع منكم أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمرة فليفعل. فلم يرغبهم عليه السلام إلا فيما يستطيعون. «وروى ابن عباس»[12] قال: قال رسول الله عليه وآله السلام: ألا أنبئكم بأعز الناس؟..

---

(1) في النسخة أ: روي.

(2) وهي غير بيعة العقبة الثالثة التي حضرتها امرأتان من الأنصار هما: نسيبة بنت كعب بن عمرو، وأسماء بنت عمرة بن عدي. (راجع الدرر في إختصار المغازي والسير. لابن عبد البر. تحقيق د. شوقي ضيف القاهرة ١٩٦٦م ص ٧٩).

(3) غير موجودة في النسخة ب.

(4) في النسخة ب: «آية السرقة والزنا، أن لا يسرقن ولا يزنين. الخ..».

(5) غير موجودة في النسخة أ.

(6) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة (٦٠ ـ ١١٧هـ) نسابة من التابعين.

(7) في النسخة أ وار زائدة لا محل لها.

(8) في النسخة ب: رسول الله.

(9) في النسخة أ: يحذرون.

(10) في النسخة ب: تبين من ابن آدم.

(11) غير موجودة في النسخة ب.

(12) في النسخة ب: وروي عن ابن عباس.

قالوا: بلى، قال: الذي يعفو إذا قدر. فبين عليه السلام أنه إنما يكون العفو إذا قدر العبد، وإذا لم يقدر فلا يكون العفو.

وقد قال الله «عز وجل»[1]: ﴿فاعفوا واصفحوا﴾[2]، وقال: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾[3]، وقال: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف﴾[4] «فعلمنا»[5] أنه كان يقدر على أن يعاقب، «فلذلك أمره»[6] بالعفو، ولا يجوز أن يعفو «عن من»[7] لا يقدر له على مضرة ولا على منفعة. وروي عنه «عليه السلام»[8] أنه قال: من كظم غيظاً وهو قادر على إمضائه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا. وروي عن ابن عباس «رحمة الله عليه»[9] في قوله «تعالى»[10]: ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾[11]، قال: وهم مستطيعون في دار الدنيا.

وروي عنه عليه السلام أنه قال: يسروا ولا تعسروا و«سكنوا»[12] ولا تنفروا، خير دينكم اليسر، وبذلك أتاكم كتاب الله.

قال الله «تعالى»[13]: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[14]، ﴿ويريد الله أن يخفف عنكم﴾[15].

واعلموا، رحمكم الله، أنه لو كان «يكلف»[16] خلقه[17] ما لا «يطيقون»[18]، كان غير مريد بهم اليسر، وغير مريد للتخفيف عنهم لأنه لا يكون اليسر والتخفيف في تكليف ما لا يطاق.

---

(1) في النسخة ب: تعالى.
(2) الأعراف: ١٠٩.
(3) المائدة: ١٣.
(4) الأعراف: ١٩٩.
(5) في النسخة أ: علمنا.
(6) في النسخة ب: فأمره الله ذلك.
(7) في النسخة ب: عما.
(8) غير موجودة في النسخة ب.
(9) غير موجودة في النسخة ب.
(10) غير موجودة في النسخة ب.
(11) القلم: ٤٣.
(12) في النسخة ب: اسكنوا.
(13) غير موجودة في النسخة ب.
(14) البقرة: ١٨٥.
(15) النساء: ٢٨.
(16) في النسخة ب: كلف.
(17) في النسخة ب بزيادة: عباده، بين قوسين، نقلاً عن «خ».
(18) في النسخة ب: يستطيعون.

وروي «عن»[1] سعيد بن عامر[2] بن حذيم لما استعمله عمر بن الخطاب على بعض كور[3] الشام خرج معه يوصيه، فلما انتهى إلى المكان، قال له سعيد وأنت فاتّق الله وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله وأحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحبه لنفسك وأهل بيتك وأقم وجهك «تعبداً لله»[4] ولا تقض «بقضائين يختلف أمرك[5] وتنزع إلى غير الحق وخض الغمرات إلى الحق ولا تخف في الله لومة لائم. فأخذ عمر بيده فأقعده ثم قال: ويحك!! ومن يطيق هذا؟ «فانظر»[6] كيف وصاه «وأمره»[7] بأن يفعل الخير ويجتهد في تحصيله. وما أشبه هذا في الحديث أكثر من أن يحصى، «الحمد لله والصلاة على آله. انتهى»[8].

«تمت الرسالة النفسية مصلياً على النبي وآله
عبد الرضا ابن خليل بن ابراهيم بن شاه
حسيني الطنيني الكاظمي.
في شهر جمادي الأول سنة خمس وتسعين وألف»[9].

---

(١) في النسخة أ: أن.
(٢) صحابي توفي بحمص سنة ٢٠هـ.
(٣) جمع كورة بسكون الواو، وهي البقعة التي تجتمع فيها المساكن والقرى.
(٤) في النسخة أ: لعبد الله.
(٥) في النسخة ب: بقضاء بين مختلف عليك أمره.
(٦) في النسخة أ: انظر.
(٧) في النسخة ب: وأمر.
(٨) غير موجودة في النسخة أ.
(٩) غير موجودة في النسخة ب.

المراجع

ابن الأثير «أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم»

ـ الكامل في التاريخ. جـ ٢ . تحقيق: عبد الوهاب النجار. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ.

ابن جني (أبو الفتح عثمان)

ـ الخصائص. جـ ١ ، ٢ . تحقيق: محمد علي النجار. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ ، سنة ١٩٥٥ م.

ابن حابس (أحمد بن يحيى بن حابس الصعدي اليماني)

ـ المقصد الحسن والمسلك الواضح السنن. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية. (٣٧ ٢٩١ ب).

ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي)

ـ تهذيب التهذيب. جـ ٢ . الطبعة الأولى. حيدر آباد، الهند. سنة ١٣٢٥ هـ.

ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)

ـ كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل. الطبعة الأولى. القاهرة سنة ١٣١٧ هـ.

ابن رشد (محمد بن أحمد)

ـ تهافت التهافت. طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م.

ـ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة. تحقيق: د. محمود قاسم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال طبعة القاهرة، مكتبة صبيح، بدون تاريخ.
ابن سعد (محمد)
ـ كتاب الطبقات الكبير. جـ ٥. طبعة ليدن سنة ١٣٢٢ هـ.
ابن عربي (محيي الدين)
ـ فصوص الحكم. تحقيق: د. أبو العلاء عفيفي. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.
ابن قتيبة
ـ المعارف. تحقيق: د. ثروت عكاشة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.
ابن المرتضى «أحمد بن يحيى»
ـ المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية. (٢٧٧٩٨ ب).
ابن النديم «محمد ابن إسحق»
ـ كتاب الفهرست. طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م.
أبو حيان التوحيدي
ـ البحر المحيط. طبعة القاهرة الأولى.
آرنولد (توماس. و)
ـ الدعوة إلى الإسلام. ترجمة: د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي. طبعة الاسكندرية.
د. ألبير نصري نادر
ـ فلسفة المعتزلة. جـ ١. طبعة الاسكندرية.
أوتو بريتزل
ـ مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الأولين في الاسلام. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة (وهو منشور كذيل لكتاب: مذهب الذرة عند المسلمين). طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

أوليري

ـ مسالك الثقافة الأغريقية إلى العرب. ترجمة: د. تمام حسان. طبعة القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية.

بيتس (د. س)

ـ مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذهب اليونان والهنود. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة/ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

التهانوي (محمد أعلى بن علي)

ـ كشاف اصطلاحات الفنون. مجلد ١، ٢، طبعة كلكتة، الهند سنة ١٨٩٢ م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)

ـ الحيوان. جـ ١، ٢، ٣، ٤، ٦ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة الأولى ١٩٣٨ ـ ١٩٤٤ م.

ـ البيان والتبيين. جـ ١، ٢، ٣ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة الأولى ١٩٤٨، ١٩٤٩ م.

ـ رسائل الجاحظ. جـ ١ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة ١٩٦٤ م.

ـ ثلاث رسائل (الرد على النصارى، ذم أخلاق الكتاب، القيان) تحقيق: يوشع فنكل. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ.

الجرجاني (علي بن محمد بن علي)

ـ التعريفات. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

جمال الدين القاسمي

ـ كتاب تاريخ الجهمية والمعتزلة. طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان)

ـ الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد. تحقيق: د. نيبرج. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م.

ابن الرازي (فخر الدين)
ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. تحقيق: د. علي سامي النشار. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

الرازي (محمد بن زكرياء)
ـ رسائل فلسفية. تحقيق: بول كراوس. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م.

روزنتال (فزانز)
ـ المفهوم الإسلامي للحرية قبل القرن التاسع عشر. طبعة ليدن «الانجليزية» سنة ١٩٦٠ م.

رينان (أرنست)
ـ ابن رشد والرشدية. ترجمة: عادل زعيتر. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧ م.

الزمخشري (محمود بن عمر)
ـ الكشاف. طبعة القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ.
ـ أساس البلاغة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

زهدي حسن جار الله
ـ المعتزلة. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ م.

الشريف المرتضى (علي بن الحسين الموسوي)
ـ أمالي المرتضى. القسم ١، ٢ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م.

الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم)
ـ الملل والنحل. جـ ١، ٢. تحقيق: محمد سيد كيلاني. طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م.

الصاحب بن عباد
ـ الابانة عن مذهب أهل العدل. تحقيق: محمد حسن آل ياسين. طبعة بغداد (ضمن مجموعة) سنة ١٩٦٣ م.

ـ رسائل الصاحب بن عباد. تحقيق: د. عبد الوهاب عزام، د. شوقي ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٣٣٦ هـ.

طاهر الجزائري

ـ أصل المعتزلة. (مقال منشور ضمن كتاب: القديم والحديث. لمحمد كردعلي) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥.

قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني

ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل. جـ ٤، ٥، ٦: ق ١، ٢، جـ ٧، ٨، ٩، ١٣، ١٦، ١٧، ٢٠: ق ١، ٢ تحقيق مجموعة من الأساتذة، بإشراف د. طه حسين، ومراجعة د. إبراهيم بيومي مدكور. .طبعة القاهرة.

الغزالي. (أبو حامد محمد بن محمد) د. فؤاد زكريا.

ـ تهافت الفلاسفة. طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م. سبينوزا. طبعة القاهرة الأولى.

د. فيليب حتي، د. إدوارد جرجي د. جبرائيل جبور

ـ تاريخ العرب «مطول» جـ ٢، ٣. طبعة بيروت الثانية سنة ١٩٥٣ م.

قدري حافظ طوقان

ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م.

القشيري (عبد الكريم بن هوازن)

ـ الرسالة القشيرية. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

كراوس (بول)

ـ التراجم الارسطوطالية المنسوبة الى ابن المقفع. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م(ضمن مجموعة عنوانها: التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية).

الكندي (يعقوب بن إسحق)

ـ رسائل الكندي الفلسفية جـ ١. تحقيق: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م.

الكواكبي (عبد الرحمن)
- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. طبعة القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر.

الحاكم أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمي البيهقي.
- شرح عيون المسائل. جـ ١. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (٢٧٦٢٣ ب).

محمد بن سليمان الكوفي
- خبر الإمام الهادي إلى الحق ودخوله اليمن. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (٢٩٠٩٢ ب).

د. محمد ضياء الدين الريس
- النظريات السياسية الإسلامية. طبعة القاهرة الثالثة سنة ١٩٦٠ م.

د. محمد عبد الهادي أبو ريدة
- إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

محمد فؤاد عبد الباقي
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. طبعة القاهرة سنة ١٣٧٨ م.

د. محمود قاسم
- نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني. طبعة القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية.

مونتجمري وات
- الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام. طبعة أدنبرة «الانجليزية» سنة ١٩٦٢ م.

للينو (كرلو ألفونسو)
- بحوث في المعتزلة. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ (ضمن مجموعة عنوانها: «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية»).

النوبختي (الحسن بن موسى)
- فرق الشيعة. طبعة النجف. سنة ١٩٥٩ م
يوسف كرم، د. مراد وهبة، د. يوسف شلالة
- المعجم الفلسفي. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.
يوليوس فلهوزن
- الخوارج والشيعة. ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م.

كشــاف الجزء الأول

١ ـ فهرس الأعلام

٢ ـ فهرس الفرق والمذاهب والتيارات الفكرية ..

٣ ـ فهرس الموضوعات ..

فهرس الأعلام

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(جـ)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(ش)

(ص)

عبد الرضا بن خليل بن إبراهيم : ص ١٠٧ ، ٣٤٢

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

فهرس
الفرق والمذاهب والتيارات الفكرية

(أ)

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(غ)

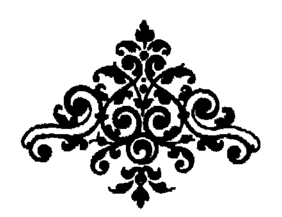
(ق)

(ك)

(م)

فهرس الموضوعات

رسائل العدل والتوحيد



الجزء الثاني

تأليف

الإمام يحيى بن الحسين

تمهيد

عن الرسائل، والمؤلف، والمخطوطات

هذه الرسائل التي نقدم بين يديها، والتي يدور الحديث فيها حول موضوعي «العدل» و«التوحيد»، نستطيع أن نقول: إنها من أوفى المصادر العربية الإسلامية القديمة حول هذا المبحث من مباحث الفكر العربي الإسلامي، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنها، وبالذات (كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية) أو في المصادر القديمة في هذا الباب، إذ ليس لدينا من الآثار الفكرية التي كتبت في هذا العصر المبكر كتاب قد حوى بين دفتيه، تقريباً، كل المسائل والشبهات والقضايا التي أثارها أو يمكن أن يثيرها الجدل في موضوع الجبر والاختيار، ومدى الحرية التي يتمتع بها الإنسان، كما حوى هذا الكتاب[1].

ويزيد من أهمية هذه الرسائل أن الفكر الإسلامي الذي تضمنته، من الممكن، بل ومن الضروري أن يتحول بالنسبة لنا إلى «جذور» نصل بها فكرنا المعاصر، و«أصول» ننسج بينها وبين مستقبلنا الفكري الكثير من الخيوط. . لا لأنها جزء عزيز علينا من الماضي والتراث، ولا لأنها رسائل قد كتبت تحت رايات الإسلام، ولا لأنها تمثل نقاء الفكر العربي الإسلامي الأصيل في موضوع الحرية الإنسانية. . لا لكل ذلك فحسب، ولكن للصلاحيات الجمة والشديدة التي تمتلكها أفكار هذه الرسائل، كي تمثل بالنسبة لفكرنا المعاصر «الأصول» و«الجذور»، وذلك دونما أدنى حيدة أو ميل عن الالتزام بالاستنارة وسعة الأفق والموقف التقدمي في الحياة الفكرية والثقافية، وأيضاً في الممارسة العملية لما في هذه الثقافة من قيم وآراء ونظريات.

* * *

(١) هذا التقديم الذي نخص به هذا الجزء من (رسائل العدل والتوحيد)، هو إضافة، في الدراسة، خاصة برسائل هذا الجزء؛ آثرنا بها رسائله، وذلك بالإضافة إلى الدراسة التي قدمنا بها للرسائل ككل في الجزء الاول، وهي الدراسة التي تعتبر تمهيداً وتقديماً لكل أجزاء الكتاب.

ونحن إذا ابتغينا بعض الأمثلة التي نبرهن بواسطتها على هذه الدعوى، ونفصل بها هذا الإجمال، فإن في العديد من صفحات هذه الرسائل العديد من الحجج والكثير من البراهين.

فمثلاً. . . يمتاز الفكر المتقدم والإنساني، والذي يتعاطف أصحابه مع قضية التقدم في عصرنا الراهن، يمتاز هذا الفكر وأصحابه بالانحياز إلى وجهة النظر التي ترى في التاريخ الإنساني والحضارة الإنسانية ثمرات صنعها الإنسان وأبدعتها الجماهير، ومن العبارات الشائعة والمألوفة لنا الآن: «إن الإنسان يصنع تاريخه، وحياته، وحضارته»، وحول هذه القضية تقوم مدارس في مختلف فروع العلوم الإنسانية، تعلى من قدر الإنسان، وتسلط الأضواء على آثاره في الحياة، دون أن يخل ذلك بالتسليم بالقوانين الموضوعية في الطبيعة، بل في الاتجاه الذي يرى في نمو الوعي الإنساني بهذه القوانين الموضوعية السبيل لإحكام سيطرة الإنسان عليها، مما يسهل عليه عملية السيطرة على الطبيعة وتسخيرها أكثر فأكثر لأغراضه في هذه الحياة.

فإذا ما وجدنا في النظريات التي اشتملت عليها هذه الرسائل، وانتصرت لها، حديثاً طويلاً، وحججاً وبراهين تنتصر لهذا الموقف الفكري، وتجاهد كي تثبت أن كل ما يحدث بيد الانسان وفي إطار حياته إنما هو من صنعه وفعله وخلقه وإبداعه. . كان من حقنا أن نرى في هذا الفكر خير جذور وأفضل أصول لفكرنا المعاصر والمستنير الذي نؤمن به ونجاهد لإشاعته في مجتمعنا الحديث.

ذلك أن المستوى الذي طرح به الإمام يحيى بن الحسين هذه القضية، قد تجاوز تلك الصياغات النظرية التي حاول أصحابها التقليل من شأن حرية الإنسان وصلاحياته في خلق حضارته وصنع حياته وتاريخه. . وذلك عندما حدد أن المصطلح الذي يجب ان يطلق على «فعل» الإنسان ليس هو مصطلح «الفعل» و«الصنع» فقط، وإنما هو مصطلح «الخلق» بمعنى «التقدير و«التخطيط» السابق للإبداع، ثم الإبداع على النحو الذي يحقق هذا «التقدير» و«التخطيط»، وعندما حكم بأن «أفعال» الإنسان إنما هي حقائق موضوعية و«أشياء»، وليست مجرد تصورات ذهنية لفعل لم يقم به الإنسان، فهو عندما يُسأل: «عن الأعمال التي عمل بها بنو آدم. . أشيء هي؟ أم ليست شيئاً؟» يجيب قائلاً: «إنها شيء

وأشياء »، وعندما يُسأل: «من خلق ذلك الشيء»؟ يقول: «إن خالق كل شيء عامله، وعامله فاعله، قال سبحانه ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1] فسمى العاملين خالقين، وقال شاعر من فصحاء العرب:

ولأنت تفرى ما خلقت — وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

يريد: أنت تتم ما دخلت فيه وصنعته وتكمل كل ما قمت به وعملته»[2].

* * *

وهو بعد أن يحسم هذا الموقف الفكري، لصالح قدرة الإنسان واستطاعته «خلق» الفعل، يحدد أن كل ما نراه ثمرات لفعل الإنسان في هذه الحياة إنما هو من خلقه، بينما المواد الاولية التي استخدمها الإنسان في الصنع والخلق، وكذلك مادة هذا العالم وأجرام هذا الكون هي من صنع القوة الإلّهية المسيطرة على هذا الوجود.. فأعضاء الإنسان، مثلاً، ليست من صنعه، وإنما صنعه وخلقه هو ما تأتيه هذه الاعضاء، فالله «لم يكن منه في ذلك كله فعل غير خلق الأداة، خلق الرّجل للمشي فمشى (أي الإنسان)، وخلق الأذن للسمع فسمع، وخلق الأنف للشم فشم، وخلق العين للنظر فنظر، وخلق الفرج للنكاح فنكح، فما ناله الإنسان من تلك الأداة فهو من فعله، وليس من فعل الله فعل عبده.. فالعين: الله خلقها، والنظر إلى الأشياء فعل العبد، واليد: الله خلقها، والإنسان يبطش بها، والرِّجل: الله خلقها، والإنسان بها مشى، فمن الله، سبحانه، خلق الأدوات وإيجاد الالات في الأبدان، وما تفرع منها فمن أفعال الإنسان»[3].

* * *

ونفس هذه القاعدة يطبقها الإمام يحيى على عالم الفعل الإنساني خارج نطاق جوارح الإنسان، أي فيما يتعلق بالعالم الذي يتعامل فيه الإنسان مع الطبيعة، فالله سبحانه، مثلاً، «هو الذي خلق الخشب والحجر والماء والمدر، هو دلَّهم على ذلك، وهم بنوا وعملوا المساكن وكل ما صنعوه من الأماكن، وهو جعل وخلق

(١) المؤمنون: ١٤.

(٢) أنظر (كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية). أجوبة المسائل السابعة والثامنة، وكذلك السادسة.

(٣) المصدر السابق. جواب المسألة السادسة.

الأنعام وجلودها، وهم عملوها بيوتاً . . وكذلك السرابيل التي تقي الحر وقت الحر وتقي القر وقت القر[1]، وكذلك السرابيل اللباس التي تقي وتحرس من البأس، فالله أوجد حديدها ودلهم على عملها، وهم يتولون فعلها وسردها وتأليفها ونسجها»[2].
أي «إن الله، سبحانه، أوجد الأصل الذي نُقِل وصنع وعمل من هذه . . الجلود والكرسف (القطن) والصوف والحديد، والعباد فعلوا الحدث الـذي صرَّفوهـا به وأحدثوه فيها من عملها ونسجها وصناعتها وغزلها بالأكف والأدوات التي جعلت لهم والاستطاعة التي ركبت فيهم، فالتأم في ذلك جلود وأيد وحركات، فكان الله عز وجل الخالق للأيدي والجلود، وكان العباد الفاعلين للحركات الصانعين لتلك المصنوعات، كذلك الله سبحانه خلق الحجارة والطين، والعباد بنوا الدور وشيدوا ما بنوا من القصور . . ففي هذا أبين الفرق بين أفعال المخلوقين وبين أفعال رب العالمين، فما كان من أفعال الله فليس من أفعال العباد، وما كان من أفعال العباد فليس من أفعال ذي العزة والأياد»[3].

فهو يحسم في هذه النصوص التي تماثلها نصوص أخرى كثيرة جداً في هذه الرسائل ـ قضية قديمـة جديدة، تتعلـق بحـرية الإنسـان، وبمـدى هذه الحـرية وفعاليتها، وذلك عندما يقرر أن كل الأفعال الانسانية الواقعة في إطار عالم الانسان ونطاق حياته وقدرته واستطاعته، إنما هي فعله وصنعه وخلقه وإبداعه.

* * *

كما تحسم هذه الرسائل قضية أخرى لا زالت مثارة في مباحـث الفلسفـة الحديثة، وهي الخاصة بنظرية المعرفة، وهل معرفة الانسان منه، نابعة من حياته وظروفه الموضوعية المحيطة به؟ أم أن هذه المعرفة هي المصدر والسبب في هذه الظروف الموضوعية؟ . . وإلى الرأي الأول ينحاز الإمام يحيى عندما يقرر:

١ ـ إن معرفة الخالق طريقها العقل، لا الكتب المقدسة والرسالات.

---

(١) القر: البرد الشديد.
(٢) المصدر السابق. جواب المسألة التاسعة عشرة. والسرد بالنسبة للحديد كالنسج بالنسبة للخيوط.
(٣) المصدر السابق. جواب المسألة الواحدة والاربعين.

٢ ـ وإن معرفة العبادات من حلال وحرام وغيرهما، طريقها الرسل، المجملة تعاليمهم في الكتب السماوية.
٣ ـ وإن المعرفة الانسانية التي جاءت وليدة للتجربة الانسانية، إنما مصدرها تجربة الإنسان في الحياة.

ولقد استدل على أن المعرفة الانسانية كسب للإنسان وفعل له، وليست شيئاً مخلوقاً من قِبَل قوة أخرى غيره، ولا هي شيء ملقى إلى عقله ولبه دون أن يكون من صنعه، بأن الإنسان قد يكون عالماً ثم يفعل، باختياره، ما به يجهل العلم، كالسكر والنوم مثلاً، وأن الإنسان قد يكون جاهلاً بالشيء فيفعل باختياره ما به يصبح عالماً بهذا الشيء، كأن يُحَصِّل أسباب علمه، وتعلمه، وهكذا «فإن المعرفة من العارف، تفرعت من لبه عند استعماله لفكره، واستخراجه ما أمر باستخراجه من التمييز بعقله، وقد نجد المبصر بعينيه يبصر إلى ما يحل له ويحرم عليه، ولو كان البصر من الله لكان الله المُدخِل له فيه، الناظر الباصر، دون الإنسان، إليه»[1].

وهكذا.. فكما أن الفعل الانساني هو خلق الانسان وصنعه، كذلك المعرفة الانسانية هي من صنع الانسان، فهو إذا صانع حضارته وتاريخه، وخالق حياته المادية والثقافية، كما نعبر نحن الان في أدبنا السياسي الحديث.

* * *

والميزة الأساسية التي امتاز بها فكر هذه الرسائل عن الفكر الفلسفي الذي لم يلتزم بالقرآن والنظريات الدينية للإسلام، هي أن هذه الرسائل قد قدمت هذا الفكر المتقدم كثمرة للفكر القرآني وتعاليم الإسلام.

وعندما تصور القائلون بالجبر وانعدام حرية الإنسان واختياره، إن في الحكم للإنسان بالحرية والاختيار افتئاتاً على الله، ومعاندة لإرادته، لم يُجْدِهم هذا الإرهاب الفكري قليلاً أو كثيراً، إذ أصر القائلون بالحرية والاختيار على إثبات إرادة للإنسان، مستقلة عن إرادة الخالق، وعلى أن لهذا الإنسان ميلاً ورغبة في

(١) المصدر السابق. جواب المسألة الخامسة.

الفعل أو الترك، دون أن يكون ذلك الميل مخلوقاً لله، أي أنه يريد باختياره، وقد يكون مراده هذا مراداً لله وقد لا يكون.

وعندما سأل المجبرة أهل العدل والتوحيد: هل يقع في ملك الله ما لا يريده؟! كان جوابهم: نعم.. ولكن.. ليس على الإطلاق.. وذلك لأن إرادة الله، سبحانه، على وجهين: «أحدهما: إرادة حتم، والاخرى: إرادة أمر معها تمكين وتفويض. فأما إرادة الحتم فهي ما أراد من خلق السماوات والارض والجبال.. وأما المعنى الآخر فهو الإرادة التي معها تمكين، وهو قوله، سبحانه: **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾**[1] فكان قضاؤه في ذلك، سبحانه، ما أمر به من أن لا نعبد معه غيره، وما أمر به من البر والإحسان الى الوالدين، فأراد الله سبحانه من العباد أن يطيعوه ويعملوا له بما ركب فيهم وأحسن به إليهم من الاستطاعات، وما أعطاهم من الالات، بالاختيار منهم لطاعته والايثار منهم لمرضاته»[2].

ومعنى هذا أن ملك الله يقع فيه ما لا يريده من المعاصي، إذا كان مراد الانسان هذا في إطار المرادات الانسانية التي معها تفويض وتمكين من الله للإنسان.

فالإنسان إذاً خالق للفعل المادي، والمعرفة النظرية، والإرادة والمشيئة الخاصة به في هذه الحياة.

***

وكما نفت هذه الرسائل وجود ذلك التناقض الذي توهمه البعض ما بين حرية الإنسان وإرادته واختياره وبين إرادة الله سبحانه وتعالى، كذلك نفت وجود أي تناقض بين أن يكون الانسان مختاراً في صنعه لأفعاله وخلقه لحياته المادية والفكرية وبين علم الله بما سيقع له، وبالمصير الذي سيئول إليه أمره، ففسر الإمام يحيى قول الله، سبحانه **﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم**

---

(١) الاسراء: ٢٣.

(٢) الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية. جواب المسألة الثانية عشرة.

أصحاب النار﴾[1] وقوله: ﴿**ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾[2] بما ينفي وجود هذا التعارض، وعندما سئل: هل كان باستطاعة الناس جميعاً أن يكونوا مطيعين، فتكون لهم الجنة؟ أو عاصين فتكون لهم جميعاً النار؟.. قال: «إنهم كانوا يستطيعون طاعته، كما يستطيعون معصيته، ولكنهم افترقت بهم الأهواء، فمنهم من اختار الإيمان والتقوى، ومنهم من اختار الضلالة والعمى، والله إنما حكم بالنيران على من اختار من الثقلين العصيان أو كره ما أنزل الرحمن، فعلْم الله وقع على اختيارهم وما يكون من أفعالهم ولم يدخلهم في صغيرة ولم يخرجهم من كبيرة. ولو علم لأنه إذا دعاهم وبصرهم وهداهم أجابوه بأسرهم وأطاعوه في كل أمرهم، إذاً لأخبر بذلك عنهم كما أخبر به عن بعضهم، وكذلك لو علم أنهم يختارون بأجمعهم المعصية لحكم عليهم بالنار كما حكم على الذين كفروا منهم»[3].

فلا إرادة الله، ولا مشيئته، ولا علمه، بمتناقضة مع النظرية المستنيرة المتقدمة التي ترى في الإنسان حراً مختاراً مريداً قادراً مستطيعاً، قد حباه الله التفويض والتمكين كي يخلق فعله ويصنع كل ما هو مقدور له في هذه الحياة.

***

ولقد تجلت عبقرية هذا الفكر، بل تقدميته وثوريته كذلك، عندما خرج به أصحابه من نطاق الذات الإنسانية بمعناها الفردي وحدودها الضيقة، وأبصروا الأبعاد الاجتماعية والسياسية لنظريتهم في الحرية والاختيار.. وفي كثير من صفحات هذه الرسائل تطالعنا الأمثلة والتطبيقات التي تقدم هذا الفكر في إطار المجتمع، وتتحدث عن الآثار الطيبة المترتبة على سلوك المجتمع طريق الحرية والاختيار، والآثار السيئة الناجمة عن اتباع الناس والمجتمع لنظريات الجبر والمجبرة في هذا المقام..

ويكفي أن نشير إلى أنهم قد أبصروا دور الفكر الجبري في جعل العامة

(١) غافر: ٦.

(٢) السجدة: ١٣.

(٣) كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية. جواب المسألة الخامسة والثلاثين.

وجمهور المحكومين يرضون بظلم الحكام الجائرين، لأنهم سيقولون، حينئذ: «إن هذا الظلم الذي نزل بهم بقضاء من الله وقدر، ولولا أن الله قضى عليهم بهذا الظلم الذي نزل بهم من هؤلاء الظالمين ما إذا قدر الظالم أن يظلمهم. غير أن هذا الظلم مقدر عليهم عند الله على يدي هذا الظالم»[1].

ولقد قادهم هذا الفهم الثوري لقضية الحرية والاختيار إلى أن يبصروا دور التأييد، أو حتى السكوت والخنوع، الذي تمنحه العامة للسلطة المستبدة، دوره في بقاء هذه السلطة وتدعيمها، ومسئولية العامة والجمهور المستكين عن المظالم التي يقترفها الطغاة والظالمون، فقالوا: إن أعوان الظلمة إذا تفرقوا عنهم «وأسلموهم لم تقم لهم دولة ولا تثبت لهم راية»[2].

كما يتحدث الإمام يحيى في نصوص كثيرة بهذه الرسائل عن دور الدعم المادي، والمالي بالذات، الذي تقدمه الجماهير الخانعة لسلطة النظام المستبد، دوره في بناء هذا النظام، ومسئولية دافع الضرائب هذا عن بقاء هذا الاستبداد وما يقترف أهله في حق الناس.. فالمسئولية هنا قد تعدت نطاق الحياة المباشرة للفرد دافع الضريبة، وامتدت إلى ميادين لا يعلم عنها هذا الفرد شيئاً، لأن هذه الميادين قد ترتب وجودها على الدعم المادي الذي قدمه للسلطة الجائرة حتى عاشت وتدعمت قبضتها وارتكبت هذه التصرفات.. وفي نص طويل يقول: إنه «إذا كان الفقير على غير استواء، ثم دفع صاحب الزكاة إليه شيئاً من المال فقد قواه على فسقه وفجوره وطغيانه، وكان شريكاً له في عصيانه، كدأب الذين يعينون الظالمين ويقيمون دولتهم بزرعهم وتجارتهم.. ولولا التجار والزارعون ما قامت للظالمين دولة ولا ثبتت لهم راية، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾**[3]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله بعثني بالرحمة واللُّحمة[4]، وجعل رزقي تحت ظلال رمحي، ولم يجعلني حراثاً ولا

---

(١) الامام يحيى بن الحسين (كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد). الفقرة السادسة الخاصة بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) المصدر السابق. نفس الفقرة.

(٣) هود: ١١٣.

(٤) أي القرابة والالفة والتأليف.

تاجراً، ألا إن شر عباد الله الحراثون والتجار، إلا من أخذ بالحق وأعطى الحق» لأن الحراثين يحرثون والظالمين يلعبون، ويحصدون وينامون، ويجوعون ويشبعون، ويسعون في صلاحهم وهم يسعون في هلاك الرعية، قد اتخذوا عباد الله خولاً، وماله دولاً، بما يقويهم التجار والحراثون.. ويروي.. إن الله يجعل أعوان الظالمين يوم القيامة في سرادق من نار، ويجعل لهم أظافر من حديد يحكون بها أبدانهم حتى تبدو أفئدتهم فتحرق، فيقولون: يا ربنا، ألم نكن نعبدك؟! قال: بلى، ولكنكم كنتم أعواناً للظالمين. وقال النبي صلى الله عليه وآله: «ملعون ملعون من كثّر سواد ظالم» وفي معاداة الظالمين ما يقوله عز وجل: ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم: إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده**﴾[1] فباين ابراهيم والذين معه آباءهم وأبناءهم وإخوانهم الذين بادؤا الله بالعداوة، وكذلك يجب على كل مؤمن أن يقتدي بفعلهم﴾[2].

وهكذا تجلت ثورية النظريات التي تضمنتها هذه الرسائل في الموقف من السلطة الظالمة، وفي إبصار العلاقة بين الفكر الجبري وبين تبرير المظالم الواقعة بالناس، وكذلك في رؤية الخيوط التي تربطما بين الدعم المادي، والاقتصادي منه بالذات، وبين بقاء هذه السلطة تمارس الظلم والطغيان على رقاب المظلومين.. وهو ما نسميه في أدبنا السياسي المعاصر: التأييد الاقتصادي والمالي الذي تمنحه الطبقات المستغِلة للسلطة التي تمثلها، كي يبقى لها هذا النظام السياسي الذي يحرس ويبقى على الاستغلال.. فالفكر الثوري في هذه الرسائل يدين «البناء التحتي» والقاعدة المادية للمجتمع الظالم، كما يدين «البناء الفوقي» والمؤسسات السياسية لهذا المجتمع، إذ هما سواء في الشركة الظالمة للمجتمع والناس.

* * *

وفي إطار الحرية الإنسانية ناقشت هذه الرسائل الكثير من القضايا الحيوية في عالم المال والاقتصاد، منها على سبيل المثال قضية «الأرزاق» وذلك عندما

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد. الفقرة الخاصة بالزكاة.

فرقت بين ما أحل الله للإنسان وبين ما حرم عليه من متع الحياة، فرأت أن الحلال الذي يحل للإنسان تناوله والتمتع به هو رزق الله لهذا الإنسان، قدره له، وقضى له به، أما الحرام الذي ليس من حقه فهو اغتصاب وسرقة حدثت من الإنسان دون قضاء من الله بها أو تقدير، ولذلك فإن تبعات الرزق الحلال المقدر من الله هي من نوع الزكاة والصدقة وما شرع في الأموال من حقوق معلومات، بينما المترتب على المال المأخوذ بلا وجه حق هو رده لذويه، وإقامة حدود الله على مغتصبيه وسارقيه والإمام يحيى يناقش المجبرة في شخص «الحسن بن محمد بن الحنفية» حول هذه القضية فيقول: «كيف يقول الحسن بن محمد: إن الله رزق هؤلاء الظالمين المعتدين الفاسقين رزقاً صيَّره لهم وسلمه في أيديهم، ثم يعذبهم عليه ويحاسبهم فيه؟!.. أم كيف يجترىء ويقول: إن الله جعله لمن حكم له به من ضَعَفَه المسلمين، ثم انتزعه منهم فجعله رزقاً للأغنياء الفاسقين دونهم؟! فكيف يكون ذلك، والله، سبحانه، يقول: **﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾**[1] **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾**[2]، فعلم أن في خلقه من سيأكل أموال اليتامى عدواناً وظلماً، فنهاهم عن ذلك وحرمه عليهم، وحكم بعذاب السعير لمن استخار ذلك فيهم... ثم يقال لهم (المجبرة): ما تقولون فيمن غصب مالاً، فأخذه.. أتوجبون عليه الزكاة فيه؟! أم توجبون رده إلى صاحبه عليه؟ فقد يجب عليكم، في قياسكم وقولكم، أن تقولوا: إنه رزق له رزقه الله إياه، وقدره له، ولولا ذلك لم يأخذه ولم يقدر على أكله وشربه، ولا على الانتفاع به، فإن كان كما تقولون.. فلن يجب عليه أبداً رده»[3].

وهكذا أرسوا في قضية الأرزاق قاعدة فكرية هامة، نستطيع أن نستخرج منها العديد من النتائج، منها ما يتعلق بالعدالة الاجتماعية، عندما نلاحق مغتصبي أموال الفقراء، رافضين الاعتراف بوجود حقوق لهم فيها، مهما طال الأمد على

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) النساء: ١٠.

(٣) الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية. جواب المسألة العاشرة.

تاريخ الاغتصاب، وتوالت من بعد الجيل المغتصب أجيال الأبناء والأحفاد، ومنها ما يتعلق بتغيير المفاهيم الشائعة لدى جمهور العامة، من مثل قولهم: لا يأخذ أحد سوى رزقه. وهي المفاهيم التي تشيع التكاسل والتواكل وتناهض الجد والطموح، فضلاً عن تبريرها المظالم الاجتماعية التي يعاني منها الفقراء والمستضعفون.

* * *

ومن القضايا الهامة التي طرحتها هذه الرسائل، في إطار الحديث عن الحرية الإنسانية، وخلق الإنسان لأفعاله، تلك القضية التي عرفت بقضية «الاجال»، والتي نستطيع من خلال نصوصها أن نقول: إن صاحب هذه الرسائل، مثله كمثل الكثيرين من القائلين بالعدل والتوحيد، قد رأى أن في نطاق عالمي «الموت» و«الحياة» مجالاً لحرية الإنسان وتأثير الإنسان.

ذلك أنهم قد فرقوا بين «الموت الطبيعي» الذي هو حق قضاه الله، وبين «القتل» الذي هو جرم وظلم اقترفه الإنسان ضد أخيه الإنسان، أو اقترفه الإنسان «المنتحر» ضد نفسه، فجعلوا الأول فعلاً لله، ونسبوا الثاني إلى فعل الإنسان، وأفاضوا في شرح هذه القضية، وقالوا: «إن الله وقّت لعباده آجالاً... وجعل فيهم قدرة على أن يقتل بعضهم بعضاً.. ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾[1]، فنهاهم عن قتل النفس، إذ علم أنهم عليه مقتدرون.. ولو لم يعلم أنهم كذلك.. لما نهاهم عنه.. لأن نهي الإنسان عن الطيران مستحيل.. وقد فرق الله بين فعل عباده في ذلك وبين فعله.. فقال: ﴿**وجاءت سكرة الموت بالحق، ذلك ما كنت منه تحيد**﴾[2]، فأخبر أن سكرة الموت.. من الله لا من الخلق.. فسمى ما كان منه: حقاً وحكماً، وما كان من عباده الظلمة: عدواناً وظلماً.. وقال: ﴿**ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون**﴾[3]، ففرق بين القتل والموت، فكان القتل من عباده فعلاً، والموت منه حتماً، وقال: ﴿**ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه**

---

(١) الانعام: ١٥١.

(٢) ق: ١٩.

(٣) آل عمران: ١٥٧.

كان منصوراً﴾[١]، فقال: ﴿قتل مظلوماً﴾،فأخبر بقوله: ﴿مظلوماً﴾ أن له قاتلاً ظالماً عنيداً ﴿وما ربك بظلام العبيد﴾[٢]، فإن كان قتل بأجله، فأين الظلم ممن قد استوفى كل أمله؟ وفنيت حياته، وجاءت وفاته، وفنيت أرزاقه، وانقضت أرماقه؟ . . »[٣].

ثم يمضي الإمام يحيى ليسأل القائلين بالجبر، الذين قالوا: إن الله هو الذي ينهي الأجل في كل الحالات، يسألهم: «عمن قتل نفسه بيده، أقتلها وهي حية في بقية من أجلها؟ أم ميتة قد انقضى أجلها؟ . . فإن قالوا: قتلها وهي حية في أجلها، فقد أقروا أنه كانت له بقية فقطعها بيده، قَلَّت البقية أم كثرت، وإن قالوا: قتلها بعد أن فني أجلها، فكل ما فني أجله فهو ميت لا شك عند فناء أجله، وقتل ميت ميتاً محال»[٤].

ثم إذا كان انتهاء الآجال، في حال القتل، من صنع الله وخلقه، لا من صنع القاتل، فلماذا طلب الله، سبحانه، من الرسول والمؤمنين أن يأخذوا حذرهم من العدو، عندما يقومون للصلاة وقت القتال، فيقول: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك، وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ود الذين كفروا لو تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون علكم ميلة واحدة﴾[٥]. . ففي هذه الآية دليل على أن القتل هنا هو صنع المشركين المحاربين، لا صنع الله[٦].

ونحن نستطيع أن نستخرج من هذا الموقف الفكري الهام، الكثير من النتائج التي يمكن للمجتمع المعاصر أن يستفيد منها كل الاستفادة، إذ باستطاعة المجتمع المسلم، إذا آمن بالتأثير الإنساني في موضوع الآجال، أن يسعى في سبيل التقدم الصحي والمعيشي مثلاً، مؤمناً بأنه سبيل لزيادة متوسط عمر الإنسان، وسبيل لخفض نسب الوفيات، وذلك دونما حرج ديني على العقيدة، لأن هذا الحرج

(١) الاسراء: ٣٣. (٢) فصلت: ٤٦.
(٣) الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية. جواب المسألة التاسعة.
(٤) المصدر السابق. جواب المسألة التاسعة. (٥) النساء: ١٠٢.
(٦) الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية. جواب المسألة التاسعة.

مصدره فقط فكر المجبرة لا فكر القائلين بالعدل والتوحيد. . كما نستطيع ـ انطلاقاً من هذا الموقف الفكري ـ أن نحدد بدقة مدى الجرم، ومدى جسامة المسئولية التي يتحملها من نسميهم في عصرنا «بمجرمي الحرب» الذين يتسببون في فناء الأعداد الغفيرة من البشر، بطريق مباشر في ميادين القتال، أو غير مباشر بخلق أسباب الحروب وإذكاء نيرانها، إذ أن في تحميلهم مسئولية القتل الذي أنهى الأجل بالنسبة لكل قتيل تحديد أدق لمسئوليتهم الاجرامية هذه، وإبراز وتجسيد لمدى فظاعة الجرم الذي يرتكبون. . وذلك على العكس من الفكر الجبري الذي يرى في قتل هؤلاء الضحايا، وفي الحروب عامة، قدراً من الله حدث لهم، وقضاء منه حل بهم، عندما استوفوا أجلهم في هذه الحياة.

***

وإذا كانت هذه هي بعض الأمثلة التي ابتغينا من وراء إيرادها، في هذا التقديم، الإشارة لأهمية هذه الرسائل، كتراث فكري عقلي يؤصل أكثر القيم إضاءة وإشراقاً في عالمنا المعاصر. وإذا كانت جميع هذه الأمثلة قد جاءت من حديث هذه الرسائل في موضوع «العدل»، فإن في حديثها عن موضوع «التوحيد» فكراً خصباً يسعف العقول المستنيرة التي تنشد تصورات فلسفية إسلامية للذات الإلٓهية والكون والعلاقة بينهما، تفتح الباب أمام التوفيق الموضوعي والمبدئي بين التصورات الفلسفية المعاصرة بخلفياتها العلمية وبين التصورات الفلسفية المثالية بما خلفها من فكر ديني عميق الجذور في حياة الإنسان[1].

ففي هذه الرسائل تصور توحيدي وتنزيهي وتجريدي للذات الإلٓهية يقرب بها من التصور الذي رآها فيه البعض «عقلاً ونظاماً وقانوناً» يدبر الكون ويهيمن عليه، ويحكم استمراره، ويرعى وجوده، دون أن تكون شيئاً مادياً أو يشبه المادة بأي شكل من الأشكال أو صفة من الصفات أو حال من الأحوال.

***

ونحن نستطيع أن نجد هذا التصور في العديد من نصوص الإمام يحيى، مثل ذلك الذي يقول فيه: إنه «إن سأل سائل: . . . ماذا يعبد الخلق؟.

---

(١) للوقوف على التفاصيل الخاصة بهذه القضية راجع كتابنا: (المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد). .

قيل له: يعبدون الخالق الذي فطرهم وصورهم وابتدعهم وأوجدهم. .

فإن قال: وأين معبودهم؟ أفي الأرض؟ أم في السماء؟ أم فيما بينهما من الأشياء؟ . .

قيل له: بل هو فيهما وفيما بينهما، وفوق السابعة العليا، ووراء الأرض السابعة السفلى، لا تحيط به أقطار السماوات والارضين، وهو المحيط بهن وبما فيهن من المخلوقين، فكينونته فيهن ككينونته في غيرهن مما فوقهن وتحتهن، ككينونته قبل إيجاد ما أوجد من سماواته وأرضه، فهو الاول الموجود من قبل كل موجود، والمكوِّن غير المكوَّن، والخالق غير مخلوق، والقديم الأزلي الذي لا غاية له ولا نهاية. .

فإن قال: فما معنى كينونته فيهن وفي غيرهن مما بينهن؟ ألِعِظَم جسم أحاط بهن، وكان كذلك فيهن؟ أم لسرعة تحوُّل وانتقال منهن إلى غيرهن ومن غيرهن إليهن؟ . .

قيل له: ليس إلهنا، سبحانه، كذلك، ولا يقال فيه بذلك، وهو سبحانه متعال عن الإنتقال، متقدس عن الزوال، وعن التصور في صور الأجسام. . .
ولكن معنى قولنا: إنه فيهن، هو أنه مدبر لهن، قاهر لكل ما فيهن، مالك لأمرهن ولأمر ما بينهن وما تحتهن وما فوقهن، لأنه مسخر لهن، ولا داخل كدخول الاشياء فيهن»[1].

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة، والقضايا الفكرية الخصبة والجريئة التي عالجت بها هذه الرسائل موضوعي «العدل» و«التوحيد» بوجه خاص، والاصول الخمسة التي قال بها أهل العدل والتوحيد بوجه عام. وهي نصوص وقضايا تقدم لفكرنا العربي الإسلامي المعاصر صفحات مشرقة من التراث القديم تمتلك صلاحيات كبرى كي تكون الجذور والأصول لفكر معاصر، بل ومستقبلي، في هذه القضايا والنظريات. .

---

(١) الرد على أهل الزيغ من المشبهين. المقدمة (ماذا نعبد؟).

- ٢ -

وصاحب هذه الرسائل هو الإمام الهادي إلى الحق أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ولد بالمدينة سنة ٢٤٥ هـ سنة ٨٥٩ م، وذلك قبل وفاة جده الإمام القاسم الرسي - الذي تقدمت له بعض الرسائل في الجزء الأول - بعام واحد.

ولقد عقدت له البيعة بإمامة الزيدية في سنة ٢٨٠ هـ سنة ٨٩٣ م، وكانت سنه يومئذ خمساً وثلاثين سنة، وذلك أثناء خلافة الخليفة العباسي «المعتضد». ولقد كانت له محاولة لم تنجح في إقامة دولة للشيعة الزيدية باليمن، رجع بعدها إلى الحجاز، ثم كرر المحاولة بعد أن دعاه أهل اليمن فدخل إلى «صعده» في شهر صفر سنة ٢٨٤ هـ سنة ٨٩٧ م حيث نجح في إقامة دولة زيدية مستقرة لأول مرة في تاريخ هذه الفرقة الإسلامية.. ولقد أصلح بين القبائل اليمنية المتنازعة، وخاصة قبائل «خولان»، وأنهى فتنتهم، ثم قام بفتح «نجران».

وإلى جانب الثراء الفكري الذي نلمسه عند الإمام يحيى من الكتب والرسائل التي بقيت لنا من آثاره الفكرية، فلقد كان رجل سيف وشجاعة وقتال.. ولقد كانت مقدرته الحربية تمتاز بجوانبها العملية، إذ كان يشارك بنفسه في المعارك والقتال.. حتى لقد أحصيت له ثلاث وسبعون معركة خاضها ضد القرامطة وحدهم، وكانوا يومئذ قد تغلبوا على «صنعاء» بجيش قاده عامل نجار من أهل الكوفة يدعى «علي بن الفضل» وعندما اشتد بأس هذا الجيش القرمطي، خافه الناس من أنصار الإمام يحيى، وحل الرعب في قلوبهم، فجمع الإمام يحيى أنصاره، وكانوا ألف رجل، وخطب فيهم قائلاً: «أتفزعون وأنتم ألفا رجل؟! أنتم

ألف، وأنا أقوم مقام ألف!!». ثم انتخب منهم ثلثمائة رجل سلحهم بأسلحة الباقين وشن بهم هجوماً ليلياً على القرامطة، وفي غفلة منهم، حقق النصر الذي أجلاهم به عن صنعاء[1].

وقبل أن يقيم الإمام يحيى دعائم دولته باليمن كان له نشاط فكري وسياسي ببلاد «الديلم» و«العراق» و«أمل». ويقول عنه الحاكم أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمي البيهقي: إنه كان جامعاً لشروط الإمامة، ويضرب به المثل في الشجاعة. ولقد مات مسموماً بمدينة «صعده» لعشر بقين من شهر ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ سنة ٩١٠ م، ومشهده في مسجده الجامع بهذه المدينة مشهور حتى الان. وكانت سنه عند وفاته ثلاثاً وخمسين سنة. وإلى اللقب الذي تلقب به ـ الإمام الهادي إلى الحق ـ ينسب المذهب الفقهي الذي ساد بلاد اليمن منذ ذلك التاريخ، والمعروف بمذهب الهادوية الزيدية.

* * *

وإن نظرة سريعة على تعداد الكتب والرسائل التي حفظت لنا من آثار الإمام يحيى حتى الآن، والتي تناول فيها الكثير من مناحي الفكر الإسلامي، تشير إلى مدى علمه وسعة أفقه وطول باعه في هذا الميدان، وهي كتب ورسائل لا زالت مخطوطة لم تطبع حتى الآن. بل إن مثلها كمثل الكثير من الكنوز الفكرية الخاصة بأهل العدل والتوحيد التي ظلت حبيسة مكتبات «صنعاء» محجوبة حتى عن الفهارس التي تتحدث عن مخطوطات تراثنا العربي الإسلامي.

ومن أهم الكتب والرسائل الباقية للإمام يحيى:

١ ـ الرد على المجبرة القدرية.

(١) راجع (المقصد الحسن والمسلك الواضح السنن) لاحمد بن يحيى بن حابس الصعدي اليماني. اللوحة ١٨٣. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم (٢٩١٣٧ ب) وأنظر كذلك: (شرح عيون المسائل) جـ ١. اللوحة ٢٨ للحاكم أبي سعد المحسن بن كرامة. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، رقم (٧٦٢٣ ب)، ومقدمة (كتاب البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الامصار) لاحمد بن يحيى بن المرتضى. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ م، و(الفهرست) لابن النديم. ص ١٩٤ طبعة ليبزج. وكتاب (خبر الإمام الهادي إلى الحق ودخوله اليمن) لابي جعفر محمد بن سليمان الكوفي. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم (٢٩٠٩٢ ب).

٢ ـ الرد على المجبرة والقدرية.
٣ ـ كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية في الجبر، وإثبات الحق ونقض قوله. (وهو جزءان).
٤ ـ كتاب فيه معرفة الله عز وجل من العدل والتوحيد وإثبات النبوة والإمامة في النبي وآله، عليهم السلام.
٥ ـ كتاب البالغ المدرك.
٦ ـ كتاب أصول الدين.
٧ ـ كتاب المسترشد.
٨ ـ تفسير معاني السنة، والرد على من زعم أنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.
٩ ـ جواب مسألة النبوة والإمامة.
١٠ ـ جواب لأهل صنعاء على كتاب كتبوه إليه عند قدومه إليها.
١١ ـ تثبيت إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.
١٢ ـ جواب مسألة لرجل من أهل «قم».
١٣ ـ جواب مسائل الحسن بن عبد الله الطبري.
١٤ ـ كتاب الجملة «جملة التوحيد».
١٥ ـ الرد على أهل الزيغ من المشبهين.
١٦ ـ كتاب إثبات النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم.
١٧ ـ كتاب المنزلة بين المنزلتين.
١٨ ـ كتاب تفسير الكرسي.
١٩ ـ كتاب الديانة.
٢٠ ـ كتاب الرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه.
٢١ ـ كتاب الخشية.
٢٢ ـ كتب القياس.
٢٣ ـ جواب مسائل أبي القاسم الرازي.
٢٤ ـ كتاب النهي والمناهي عن النبيﷺ.

٢٥ ـ مسألة في ذكر السجود لآدم عليه السلام.
٢٦ ـ كتاب العرش والكرسي.
٢٧ ـ كتاب الفنون في أبواب من العلم والفقه.
٢٨ ـ كتاب في تثبيت الإمامة.
٢٩ ـ عهد أهل الذمة.
٣٠ ـ جواب مسألة لابنه المرتضى.
٣١ ـ الأحكام في الحلال والحرام.
٣٢ ـ خطايا الأنبياء.
٣٣ ـ الرد على سليمان بن جرير.
٣٤ ـ كتاب الدعوة.
٣٥ ـ المسالك في ذكر الناجي من الفرق والهالك.
٣٦ ـ المستجاد في بيان علماء الاجتهاد.
٣٧ ـ الوافي في فقه الهادوية الزيدية (وهو مجموعة الفتاوى التي أصدرها الإمام يحيى، ومن قبله الإمام القاسم الرسي، جمعها أبو الحسن علي بن بلال الاملي الزيدي).
٣٨ ـ تفسير القرآن العظيم (وهو تفسير يضم جهوده وجهود جده، وأبنائه وأحفاده، جمعت من بعدهم تحت هذا العنوان).

وهذه الاثار الفكرية التي أبدعها الإمام يحيى، تلتـزم فكرياً بأصـول أهـل العدل والتوحيد، كما هي معروفة في مدرسة المعتزلة، وذلك باستثناء الموقف من الإمامة، فإنه يلتزم فيه موقف الشيعة الزيديين.

وهذه الرسائل التي حققناها له، والتي نقدم بين يديها، هي بعض من رسائله التي تدور حول أصلي «العدل» و«التوحيد».

* * *

- ٣ -

الرسائل والكتب التي ضمناها هذا الجزء من هذا الكتاب، قد اعتمدنا في تقويم نصها على نسختين إثنتين، مستقلة كل منهما عن الأخرى. .

الأولى: وهي التي رمزنا لها بالحرف «أ» أثناء تحقيق النص موجودة بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء، وعنوانها: (كتاب المجموع من كتب الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين)، ومنها «ميكروفيلم» بدار الكتب المصرية رقمه (٢٢١٨) ولقد قمنا بتصويرها وتكبيرها والاعتماد عليها في التحقيق. وتاريخ هذه النسخة يعود إلى القرن السابع الهجري (٦٤٨ هـ) والأصل المأخوذة عنه يعود تاريخه إلى القرن الخامس الهجري (سنة ٤٧٦ هـ)[١]، وخطها من نوع الخط القديم المختلف مع الخط النسخ في عدة مسائل منها رسم الهاء، وقواعد الإعجام وحروف المد. . الخ. . الخ. .

وهذه النسخة مراجعة على الاصل المأخوذة عنه، وقد تكون مراجعة على غيره، والمراجعات مثبتة بهوامش صفحاتها وبين السطور. . وعدد صفحات هذه النسخة يزيد على المائة والستين صفحة، وتشمل نحواً من ثلاثين رسالة وكتاب ومسألة للإمام يحيى.

والثانية: مصورة موجودة بدار الكتب المصرية لنسخة أخرى من (مجموع كتب الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين)، خطها نسخ، وتاريخ نسخها سنة ١٠٤١ هـ، وهي نسخة مستقلة عن النسخة «أ» تمام الاستقلال. . ولقد ثبتت لنا هذه الحقيقة بأدلة كثيرة، منها الاختلافات أثناء المقابلات في تقويم النص، ومنها

(١) اللوحة رقم ١٧٧ من النسخة أ.

ترتيب ورود الرسائل والكتب في (المجموع)، ومنها وجود رسائل في «أ» ليست في هذه، وبالعكس.. الخ.. الخ..

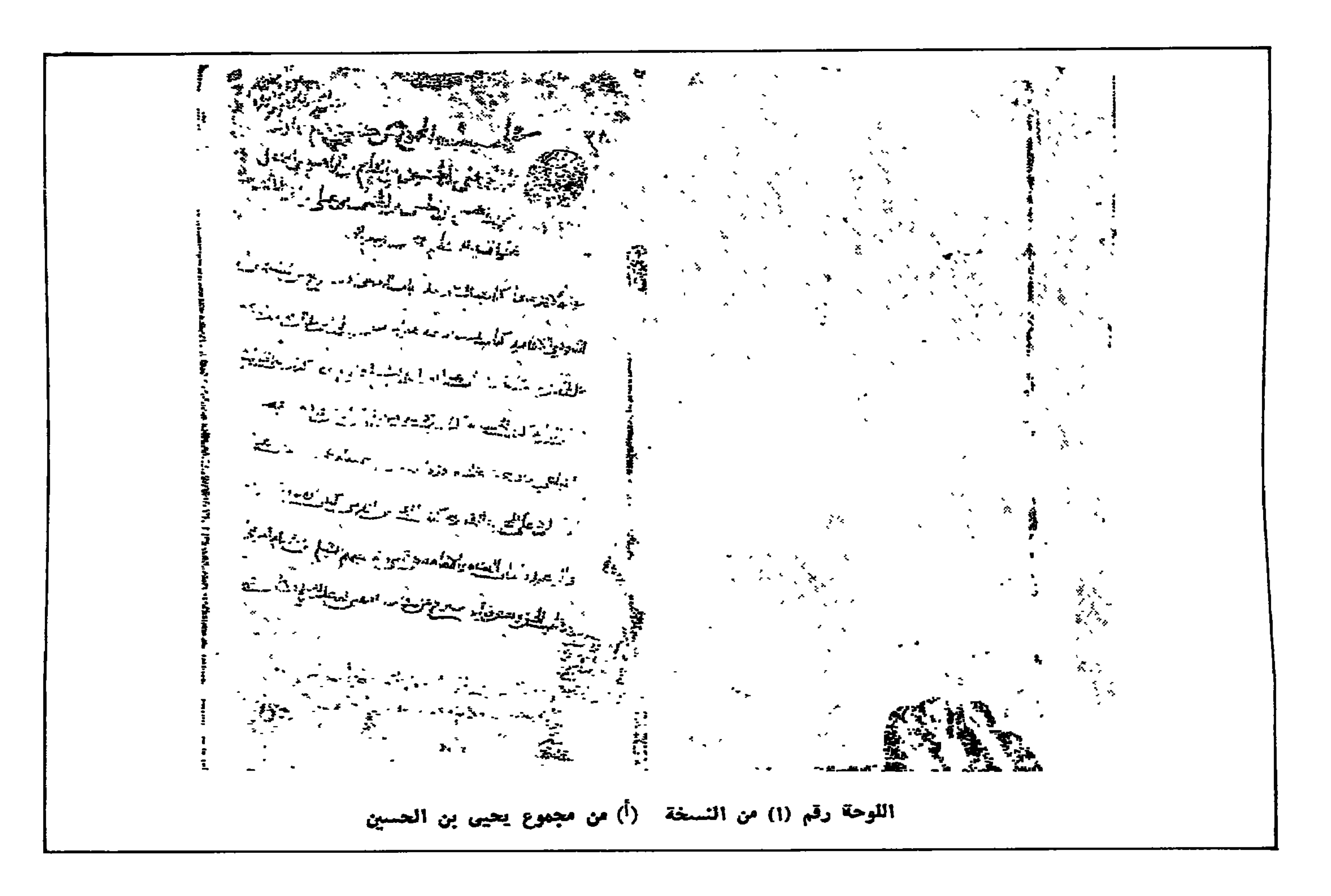
وهذه النسخة، كالسابقة، مراجعة على أصلها، وقد تكون مراجعة على غيره، والمراجعات مثبتة بالهوامش وبين السطور، أحياناً بخط الناسخ، وأحياناً بخط مغاير لخط الناسخ. وقياس لوحات هذه النسخة ٢٨ ×١٨ سم، ولقد رمزنا لها بالحرف «ب» أثناء التحقيق[١].

* * *

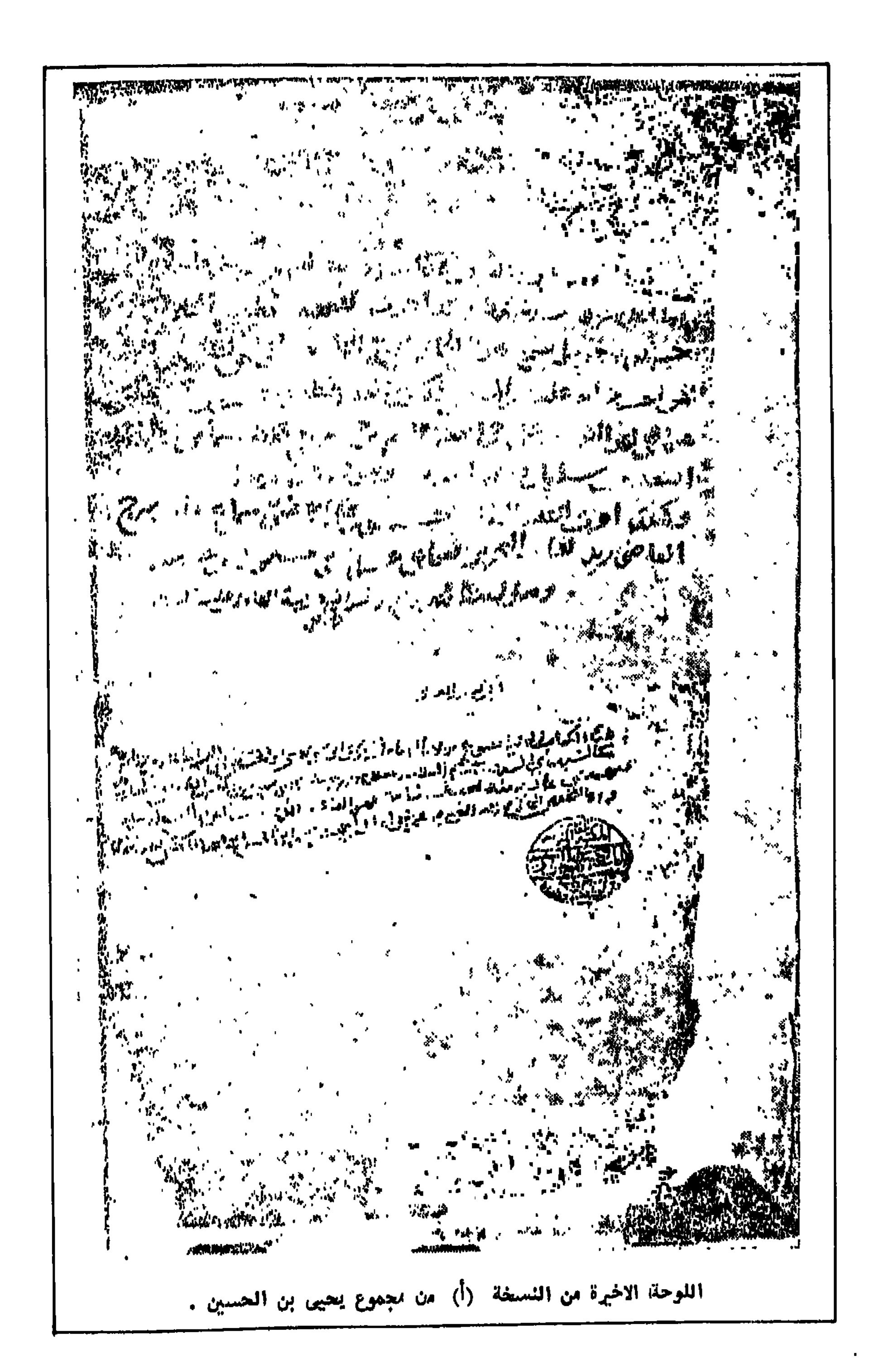
ولقد كانت النسختان وافيتين تمام الوفاء بالمطلوب لتقويم النص تقويماً تطمئن إليه النفس كل الإطمئنان، ولقد أشرنا إلى السقط الذي حدث بإحداها، والذي استكملته الاخرى، وكذلك إلى الرسائل التي انفردت بها إحداها وخلت منها الأخرى، أشرنا إلى كل ذلك في مكانه.. كما التزمنا في هوامش هذه الطبعة ترقيم لوحات النسخة الأم ـ «أ» ـ فيما عدا اللوحات التي انفردت بها النسخة «ب». ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى ما نبغي في هذا المقام.

محمد عمارة

(١) لهذه النسخة أصل أثري مشوه رقمه (٣٨ علم الكلام) بمكتبة جامع صنعاء، أشار إليه في أولى لوحات [illegible] المشرف على تصويرها المرحوم الاستاذ فؤاد [illegible]



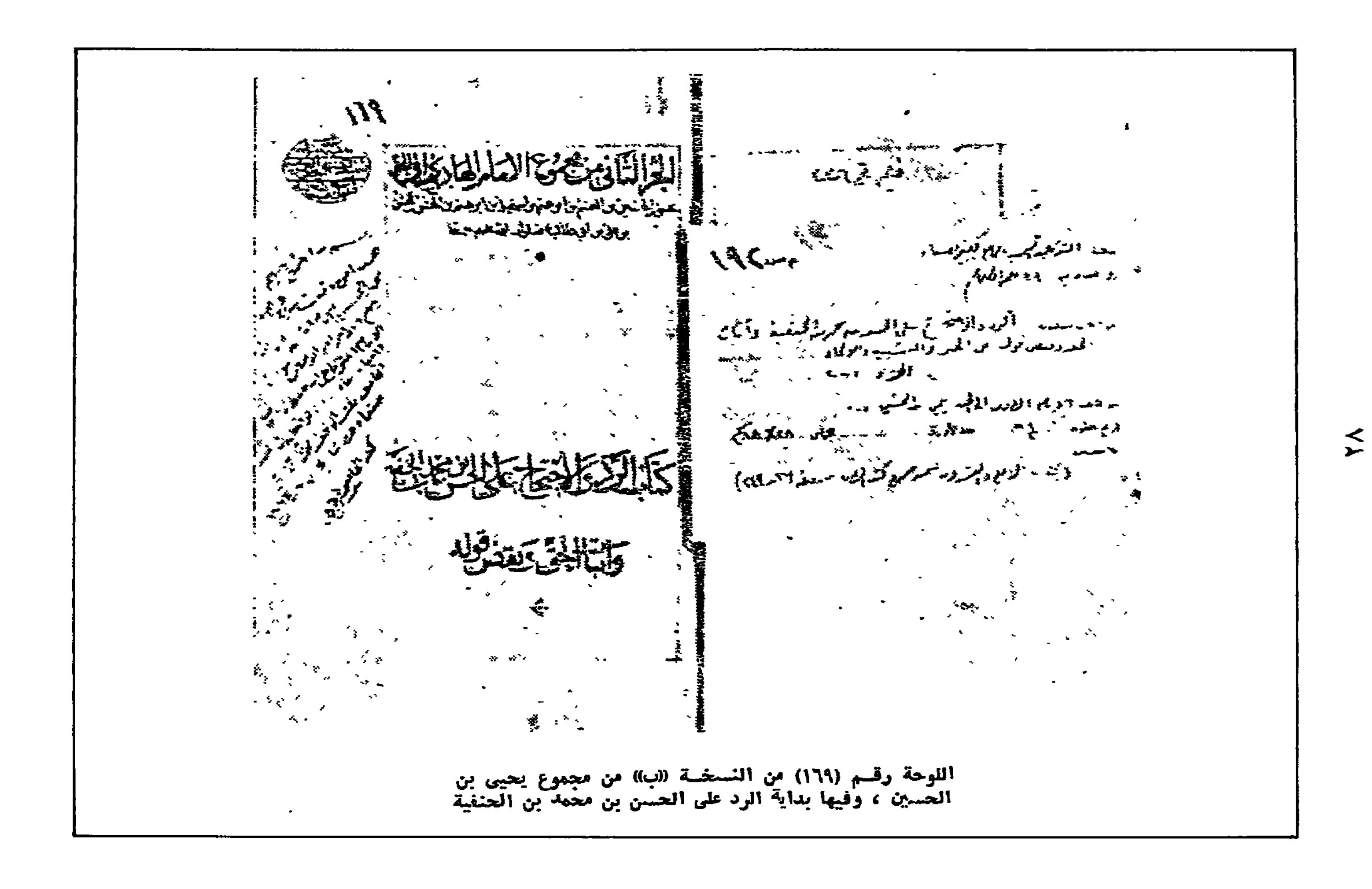
اللوحة رقم (1) من النسخة (أ) من مجموع يحيى بن الحسين



اللوحة الاخيرة من النسخة (أ) من مجموع يحيى بن الحسين .



اللوحة رقم (١٢٨) من النسخة ((أ)) من مجموع يحيى بن الحسين ، وفيها تظهر الإضافات التي حدثت كثمرة لمراجعتها على نسخة أقدم منها .



اللوحة رقم (١٦٩) من النسخة «ب» من مجموع يحيى بن الحسين ، وفيها بداية الرد على الحسن بن محمد بن الحنفية

الرد
على المجبرة القدرية

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

الحمد لله ، أحق ما افتتح به رد الجواب ، وخوطب به ذوو الألباب ، حمداً يوصل إلى جنته ، ويوجب المزيد من فضله ، فإليه أرغب في الصلاة على محمد ، صلى الله عليه وعلى آله .

سألتَ يا بني ، أرشدك الله ووفقك ، وسددك للفهم وعلمك ، عما اختلف فيه الناس ، وكثر فيه عند أهل الجهالة الإلتباس ، حتى نسبوا الله فيه إلى أقبح الصفات ، وبرأوا أنفسهم من ذلك وصانوها بزعمهم عنه ، واستقبحوه ، وبلغوا أشد ما يكون من الغضب على من نسبهم إلى شيء منه ، ورضوا به في العزيز ، ودعوه به .

فزعموا أن الله شاء شيئاً ونهى عنه ، وأراد شيئاً ومنع منه ، وأنه أرسل رسله إلى جميع خلقه يدعوهم إلى أمر قد منعهم منه ، وذكروا من هذا شيئاً وضروباً يكثر شرحها ، وأنا مبين لك جميع ذلك وشارحه في مواضعه ، ومحتج لله ، سبحانه ، بالبراءة مما نسبوه إليه ، وسموه به ، يا بني ، حتى يصح لك فساد أمرهم وقبيح لفظهم ، بما فيه المنفعة والشفاء والبرهان ، والاكتفاء من كتاب الله الفصيح ، وبما يصح عند كل ذي لب صحيح .

---

(١) للإمام يحيى رسالة أخرى عنوانها (كتاب الرد على المجبرة والقدرية) وهي تشغل في النسخة أ اللوحات ٨٩ ـ ٩٩ ولقد اخترنا هنا هذه الرسالة (الرد على المجبرة القدرية) التي انفردت بها النسخة ب .

شُبه المجبرة

١ ـ زعم أهل الجهل أن الله، سبحانه، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فكذلك الله، عز وجل، وتأولوا ذلك بجهلهم على أقبح التأويل وأسمج المعاني، ولم يعلموا ما أراد الله، سبحانه، من ذلك، ولو ميزوا ما قبل هذه الايات وما بعدها لتبين لهم الحق ووضح.

* * *

فأما ما قال الله، سبحانه، مخبراً عن قدرته ﴿ **يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾[1]، ولم يقل أضللت ولا هديت في هذا الموضع، لأنه ذكر الضلال والتثبيت منه في موضع آخر، فانظر كيف ذكر ذلك وكيف قاله (ومن)[2] فعله، فقال، سبحانه: ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء** ﴾[3] كل هذا التثبيت والضلال لم يكن إلا مادة وزيادة للمؤمنين وحرباً ونقمة للظالمين. ألا ترى كيف يقول: ﴿**الذين آمنوا**﴾ ولم يقل: الذين ظلموا؟ غير أنه لم يُثَبِّت إلا المؤمنين والمستحقين اسم الإيمان بعملهم، ولم يضل إلا الظالمين المستوجبين اسم الضلالة بفعلهم.

* * *

ويخبر، سبحانه، عن قدرته في خلقه، وأنه أراد هدي المؤمنين وثبتهم، وأنه لا يغلبه شيء من جميع الأشياء إذا أراده من جهة الجبر والقسر لأهله، لكن الله، سبحانه، أخبر عن قدرته في خلقه، وأنه لو أراد أن يضلهم أو يهديهم جميعاً لكان ذلك غير غالب له، غير أنه لم يرد ذلك، إلا من جهة التخيير منهم والإختيار لعبادته

---

(١) النحل: ٩٣، المدثر: ٣١.

(٢) في الأصل: من، بدون «واو» العطف.

(٣) ابراهيم: ٢٧.

والرغبة فيما رغبهم فيه والوقوف[1] عما حذرهم منه، وليخبر الجهال أن ما كان من العباد من الضلال (والعمى)[2] لو أراد أن لا يكون لأمكنه ذلك، وأن قدرته تبلغ كل شيء.

وإنما قوله: ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ خبراً عن نفسه، وإثباتاً له القدرة على كل شيء، لكي لا يظن جاهل أن الله عاجز عن أن يمنع الضُلّال من الضلالة، لأن في الناس متجاهلين كثيراً، ألا ترى إلى قوله، سبحانه، يحكي عن الجهال، إذ قالوا: ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾[3] فأراد، سبحانه، أن يثبت الحجة لنفسه على الجهال الذين يقولون مثل هذه المقالة فيه.

* * *

٢ ـ واحتجوا، أيضاً، بقول الله، سبحانه: ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله﴾[4]، فصدق الله، عز وجل، لولا أنه أذن بالإيمان، وخلى بينهم وبينه، ما عرفوه، ولا دلّهم عليه، ولا أمرهم به ولا أرسل إليهم المرسلين حتى بيّنوا لهم فضله وشريف منزلته. فأي إذن أكبر وأفعل وأخطر مما فعل الله بهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾[5].

* * *

٣ ـ واحتجوا أيضاً بقوله، عز وجل ذكره: ﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾[6]، فصدق الله العظيم، لقد علم منهم أنهم لا يؤمنون، اختياراً منهم ومحبة للفسق، ولو أنهم كانوا عنده مطيعين «لا»[7] مستحقين للفسق ما سماهم به، وإنما حقت كلمته عليهم بعد فسقهم وصدهم عن أمره ونهيه، وبعد

---

(١) أي التوقف والامتناع.
(٢) يمكن أن تقرأ: والغي.
(٣) آل عمران: ١٨١.
(٤) يونس: ١٠٠.
(٥) الزمر: ٥٤، والاية مذكورة في الاصل خطأ هكذا: (آمنوا بربكم وأسلموا له).
(٦) يوىس: ٣٣، والاية مذكورة في الاصل خطأ هكذا: (. . . كلمات ربك. . .).
(٧) في الاصل: بل.

الكفر منهم، لا الابتداء منه لهم، ألا ترى إلى قوله: «حقت كلمة ربك على الذين فسقوا» ولم يقل، سبحانه، على الذين آمنوا، ولا: على المسلمين، وإنما معنى حقت كلمة ربك على الذين فسقوا: أي وجب عليهم حكمه ووعيده، وقوله: ﴿أنهم لا يؤمنون﴾، اختياراً منهم للكفر ومحبة له، وأنه قد حكم عليهم بالفسق وخالفوا عن أمره ونهية.

وأما قوله: ﴿ ادخلوا في السلم كافة ﴾[1]، يعني بكافة: جميعاً، فإذا كان أمره للجميع فكيف يدخل قوم في السلم قد أدخلهم فيه؟ وكيف يأمر قوماً بالدخول فيه وقد منعهم؟ هذا فعل «متعنت عتل»[2] لا ينفذ له أمر في شيء مما يأمر به ولا مما يريده، فتعالى الله عن ذلك أحكم الحاكمين.

* * *

٤ ـ ثم احتجوا بقوله، سبحانه: ﴿وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون﴾، وجهلوا ما قبل ذلك من قوله: ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾[3]، وعبده من دون الله، وعَلِم ذلك منه ومن فعله،فأضله الله بعد ما فعل وبعد ما كان منه، ولعلمه أنه لا يؤمن ولا يدع ما هو عليه من الكفر. فهذا معنى علم الله به، لم يدخله العلم في شيء ولم يَحُلْ بينه وبين شيء، وإنما هو أخبر بإضلاله له والإضلال من الله إنما هو في إهماله وترك تسديده وتوفيقه للخير، ألا ترى كيف يقول، سبحانه، في موضع آخر: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾[4]، وذلك لعلمه، سبحانه، أنه قد استحوذ عليهم إبليس، وأحبوا ما هم فيه من الكفر والضلال حتى لم يتلفتوا إلى شيء مما يوعظون به ولا تعمل فيهم الموعظة، ولا يتدبرون ما هم عليه من الكفر الذي قد دخل في قلوبهم، فسواء أنذرتهم أم لم تنذرهم أو وعظتهم أم لم تعظهم لا يؤمنون، أي لا يصدقون بشيء مما تدعوهم إليه ولا يخافون مما تخوفهم منه، قد أعمت حلاوة الكفر أبصارهم وأصمت أسماعهم وختمت على قلوبهم حتى منعت

---

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) رسم الكلمتين في الأصل هكذا: منلعب عدلن.

(٣) الجاثية: ٢٢.

(٤) البقرة: ٦.

حلاوة الموعظة أن تصل أو تدخل في قلوبهم أو يلتفتون إلى شيء مما يعظهم به محمد صلى الله عليه وعلى آله.

* * *

٥ - واحتجوا، أيضاً، بقوله: ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها** ﴾[١] وتأولوا في ذلك بأقبح التأويل، ولم يتدبروا الآية فيصح لهم فساد تأويلهم، وزعموا أن المصيبة هي الكفر وغيره من أعمال الإثم، وليس ذلك كذلك، لأن آخر الاية يدل على غير ما تأولوا وقالوا، وإنما أراد بقوله، سبحانه: ما أصاب الناس في الأرض من مصيبة، ولا أصابتكم في أنفسكم، إلا وقد علم الله ذلك من قبل أن يبرأ النفس، وهو خلقها برؤها، فمعنى ما في الدنيا من الافات التي تقع في الأموال والثمار وغيرها من المصيبات[٢] التي يكثر شرحها، ولم يرد بذلك، سبحانه، الإيمان والكفر والعصيان، ولو أراد، سبحانه، ما تأوله الجاهلون من الجبر على الإيمان والكفر، ما قال: ﴿ **وبشر الصابرين** ﴾، و«كيف»[٣] يكون كافراً وفاسقاً من كان محسناً صابراً ومُيسَّراً بالخير. ألا ترى إلى تصديق ما قلنا في تمام الآية حين يقول: ﴿ **لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾[٤]. فصح عند كل «ذي»[٥] فهم أنه إنما أراد بهذا القول محن الدنيا وبلواها وفرحها وحزنها وكثرة المال ونقصانه، وزكاة[٦] ثماره، ولو كان مراده عز وجل بهذا القول الكفر والإيمان لم يقل: لا تأسوا على الإيمان إن فاتكم ولا تسروا به إن نلتموه ولا تفرحوا بفوات الكفر لكم، فأي سرور يسر العبد إذا لم يسره الإيمان؟ وأي فرح أعظم منه على العبد وأحلى من فوات الكفر له وتخلصه منه؟ والحجة في هذا نفسه قول من قال بما ذكرناه، ولم يقل: الذين إذا أصابهم الإيمان والكفر فقالوا إنا لله، وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون، فبهذا علمنا أن المعنى هو ما ذكرنا من محن الدنيا وآفاتها ولو كان على ما تاوله الجاهلون ما سُمّي مصيبة ولا امرهم بالصبر عليه للعلة

---

(١) الحديد: ٢٢.
(٢) أي المصائب والكوارث.
(٣) في الاصل هنا كلمة مشطوبة.
(٤) الحديد: ٢٣.
(٥) عير موجودة في الاصل.
(٦) أي نموها وزيادتها.

التي شرحت لك. كيف يجوز أن يأمرهم بالصبر على الكفر ويبشرهم بالثواب!؟ هذا أحول المحال.

* * *

٦ ـ واحتجوا، أيضاً، بقوله **﴿إلا إن يشاء الله﴾**[١]، فصدق الله، لولا أنه يشاء لهم التعريف بالإيمان والكفر، ودلهم على ما عرفوه فعرفهم به، وأرسل إليهم المرسلين وحضهم على اتباعهم، ما عرفوا الإيمان من الكفر والرضى من السخط. ثم قال في ذلك: **﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ﴾**[٢]، فهذه إرادة الله ومشيئته في خلقه، لا ما قال به الجاهلون.

* * *

٧ ـ ومما احتجوا به، أيضاً: **﴿فمنهم شقي وسعيد﴾**، فتأولوا ذلك على أحكم الحاكمين بأقبح التأويل، ولعمري لو نظروا ما في الاية من قبل هذا الكلام لأسفر لهم الأمر ولعرفوه، ألا ترى كيف يقول، سبحانه: **﴿ يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾**[٣]، يخبر، عز ذكره، أن ذلك الشقاء والسعادة إنما تكون في ذلك اليوم، يعني يوم القيامة لا أيام الدنيا، ولعمري أن يوم القيامة ليوم التغابن والحسرة والندامة، فمنهم ذلك اليوم شقي وسعيد، شقي قد شقي بعمله وبما وقع عليه من حكم الله له بالعذاب، وسعيد قد سعد في ذلك اليوم بعمله وبما قد حكم الله له به من الثواب. والشقي أشقى الأشقياء من شقي في ذلك اليوم، والسعيد أسعد السعداء من سعد في ذلك اليوم، وإنما أخبر الله، سبحانه، عن شقائهم وسعادتهم في ذلك اليوم، لا في الدنيا، ألا ترى كيف يقول: **﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾**[٤] يعني يوم القيامة، ولو كان الأمر على ما ظنوا لكانت المخاطبة عند أهل اللسان والمعرفة على غير هذا اللفظ، وكان اسم الشقاء والسعادة قد انتظمهم قبل ذلك اليوم، وكانوا مستغنين عن إرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، ولم يكن لله سبحانه، عليهم حجة إذ كان المشقى

---

(١) الانسان: ٣٠، التكوير: ٢٩.
(٢) النساء: ٢٦.
(٣) هود: ١٠٥.
(٤) هود: ١٠٣.

لبعض والمسعد لبعض، والمدخل لأهل الشقاء في المعصية ولأهل السعادة في الطاعة. وهذا أقبح ما نسب إلى الله وقيل به فيه. فنعوذ بالله من الضلالة والعمى، ونسأله الرشد والهدى.

* * *

٨ ـ ومما يحتجون به أيضاً، قول الله، سبحانه: ﴿ **ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾[١]، يقول: بفعلهم وعملهم حق عليهم قولي وثبتت عليهم حجتي، ووقع بهم العذاب، لان قولي وحكمي بالعذاب قد سبق على من عصاني، ثم قال: ﴿ **فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا، إنَّا نسيانكم، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون** ﴾[٢]، فصدق الله، عز وجل، لو شاء أن يهديهم جميعاً من جهة الجبر لهم، لفعله ولم يغلبه ذلك، ولكن لم يشأه سبحانه إلا بالتخيير والاختيار، لانه لو جبرهم على ذلك وأدخلهم فيه غصباً كان المستوجب للثواب دونهم، الا ترى إلى قوله، في آخر الآية، متبرئاً من فعلهم: ﴿ **وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون** ﴾، ولم يقل بمشيئتي لكم، ولا: بقضاي عليكم، ولا بإرادتي فيكم، ولا: بإدخالي لكم في القبيح من الفعل.

فافهم، وفقك الله، ما شرحت لك.

والنسيان، من الله، هو الترك لهم والإمهال، تقول العرب: نسيت الشيء ونسأته، أي تركته ولم أفعله.

* * *

٩ ـ ومما يحتجون به، أيضاً، قول الله، سبحانه: ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم، أفأنت تُكرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾[٣] فصدق الله، لو شاء ذلك لأمكنه أن يكرههم على الإيمان إن شاءوا أو أبوا، ولم يكن ذلك بغالب له ولا ما هو أعظم منه، إذ كان ذلك معجزاً وغالباً لمحمد صلى الله عليه وآله، لا يقدر

---

(١) السجدة: ١٣.
(٢) السجدة: ١٤.
(٣) يونس: ٩٩.

على ذلك منهم ولا يمكنه فيهم، فأخبر الله سبحانه أن ما لا تقدر عليه لو أراده هو، من جهة الجبر والإكراه، لامكنه، ولكنه لم يرد إلا من جهة التخيير منهم والإختيار والرغبة لما استوجبوا بذلك الفعل بثوابه وعقابه.

فافهم ذلك وميِّزه إن شاء الله.

* * *

١٠ ـ ومما يحتجون به قول الله، سبحانه: ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾[١]، فصدق الله، عز وجل، في قوله، غير أنهم لم يفهموا التأويل، لانه يقول، سبحانه: ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم** ﴾[٢]، وليسوا من أولئك. وإنما أراد الله، عز وجل، أن ينقض على الكفار قولهم، لأنه إنما كان الكفار إذا أصابهم مما يحبون من جميع الخير، مثل الخصب، وزكاء الزرع، وكثرة النسل، إبتداءً لهم من الله بالإحسان والمن وتوكيداً للحجة عليهم والإنعام، قالوا: «هذا من عند الله»، وإذا أخذهم الله بشيء من فعلهم وخبث نياتهم وعظم جرمهم وإكذابهم لمحمد، صلى الله عليه وآله، ولما جاءهم به، وابتلاهم الله بنقص الخصب وقلة المطر والزرع والنسل، قالوا: شؤم محمد ومن معه. فأخبر الله سبحانه، أن هذه الزيادة والنقصان في جميع ما ذكرنا من الله، فقال: ﴿**كل من عند الله**﴾ ثم شرح ذلك مبيناً للخبر: ﴿ **فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾[٣]، يقول: ثواب من الله، سبحانه، لكم على ما كان من الطاعة وخزي وعقاب منه، سبحانه، لكم على ما كان من أنفسكم من المعصية والعمل القبيح وترك الإئتمار لامره، فيقول: ما أصابكم من الزيادة فيه والصلاح فمن نعم الله عليكم وبفضله وإحسانه إليكم، وما أصابكم من نقصان ذلك وفساده فمن قبيح أعمالكم وسوء نياتكم وإصراركم على المعاصي، وإنما دخل عليكم من أنفسكم لَمَّا فعلتم ما فعلتم حتى وجب

(١) النساء: ٧٨.

(٢) آل عمران: ٧.

(٣) النساء: ٧٨، ٧٩.

«الشنآن»[1] عليكم، بذلك الفعل، من الله، سبحانه. وهذا تفسير ما جهلوا من ذلك.

* * *

١١ ـ ومما يحتجون به، أيضاً، قول نوح، عليه السلام، لقومه عندما جادلهم في الله، فأكثر، فقالوا: ﴿**يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾[2]، فقال نوح، عليه السلام: ﴿ **إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين، ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون** ﴾[3]، يقول لهم، صلى الله عليه: إن جدالي ونصحي لا ينفعكم إذا جاءكم عذاب ربكم ونزل بكم، لأنه لا يرد عذاب الله، سبحانه، إذا نزل بقوم، وهي سنته في الذين خلوا، لا يقبل توبتهم إذا نزل العذاب بهم، وكذلك إذا أراد الله أن يغويكم، فالإغواء من الله العذاب، فيقول: لا ينفعكم نصحي إذا نزل بكم إغواء الله وهو عذابه، كما قال، عز وجل، في موضع آخر: ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** ﴾[4]، ولم يُرِدْ نوح، عليه السلام، بالإغواء ما تأوله الجاهلون من الضلال لهم وإمدادهم بالغي والتمادي والكفر وإنما أراد بالاغواء العذاب النازل، ثم كذلك الإغواء في جميع ألسن العرب: لقيت غياً، أي عذاباً وبغياً، ولقي فلان غياً، كل هذا تحذير لهم لنزول العذاب بهم، وأنه لا تنفعهم نصيحة، إذا نزل العذاب بهم، لم يصرف عنهم. كذلك قال الله، سبحانه: **فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾[5] وكثير مثل ما ذكرنا في القرآن مما احتجوا به وتاولوه على غير ما أنزل الله، وفي فساد ما أفسدنا عليهم من تأويلهم فيما ذكرنا واحتججنا عليهم به ما يغني عن كثير من حججهم وقبيح تأويلهم وباطل قولهم.

---

(١) النون الاخيرة غير واضحة الرسم، والكلمة في الاصل مصححة بين السطرين بغير خط الناسخ، والتصحيح منشطوب، ومعناها الغضب.

(٢) هود: ٣٢.

(٣) هود: ٣٣، ٣٤.

(٤) مريم: ٥٩.

(٥) عافر: ٨٥.

القرآن يشهد لاهل العدل

١ ـ وقد قال الله ، سبحانه ، محتجاً على من نسب مثل ما نسبوا إليه في كثير من القرآن وفي مواضع هي أكثر مما احتجوا به وتأولوه ، فقال ، سبحانه : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾[١]، وقال ، عز ذكره ، مكذباً للمشركين ولمن قال بقولهم ، ومحتجاً عليهم ومخبراً بإفكهم وعوارهم : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا قل إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾[٢]، ثم قال ، عز ذكره : ﴿ **وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾[٣]، ينفي عن نفسه ، عز وجل ، ما أسندوا إليه من خلقهم شقياً وسعيداً ، ومن أن يضلهم بعد أن كان منه من الإبتداء لهم بالإحسان والدعاء والدلالة على الهدى وعلى ما يحب وعلى ما يكره وما يحذرون وما يتقون ، فإذا تبين لهم ذلك فصدوا عنه حقت عليهم كلمة الضلال وحاق بهم الإضلال من الله بذنوبهم ودنيء فعلهم ، ثم نسب من نسب إليه هذا القول وقال به عليه إلى قول الذين أشركوا : ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا من شيء كذلك كَذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إنْ تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون * قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾[٤]، يقول : مثل هذا القول قاله الذين من قبل هؤلاء حتى نزل باسنا وذاقوه ، وذلك أنهم كانوا يعملون الخبائث والمعاصي فإذا نُهوا عنها وقال لهم أنبياؤهم ومن يتبع الانبياء : لا تفعلوا ، ولا تعصوا ربكم ، قالوا : لو شاء ما أشركنا ولكنه أدخلنا في المعصية وقضاها علينا ، فاخبر الله ، عز وجل ، أن ذلك ليس

---

(١) النحل : ٩٠ .
(٢) الاعراف : ٢٨ .
(٣) التوبة : ١١٥ .
(٤) الانعام : ١٤٨ .

كذلك، وأنهم كانوا في ضلال وتكذيب لمن يقول لهم إن الله لم يامرهم ولم يقض عليهم بالمعصية حتى ذاقوا بأسه وهو عذابه، وتبرأ من ذلك، وعلم أنه لو كان شاء لهم الإشراك ما نزل بهم بأسه، ثم قال، محتجاً عليهم: ﴿ **هل عندكم من علم فتخرجوه لنا**﴾، يقول: من علم عن الله فبينوا لنا أن هذا الفعل والقول والمشيئة من عند الله، ثم قال، مكذباً لهم أيضاً: ﴿ **إن تتبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون** ﴾[1]، يقول: ان يتبعون الا أهواءهم بما يظنون، وان هم الا يخرصون، أي يكذبون في قولهم على أنه شاء لهم ومنهم الكفر وأنه لو شاء ما أشركنا ولكنه أدخلنا فيه ومنعنا من الدخول في الطاعة، ثم قال: ﴿ **فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾[2]، يقول: فلله الحجة بما قدمه إليهم ودعاهم إليه وأنذرهم على ألسن رسله، صلوات الله عليهم، ثم قال: «فلو شاء لهداكم أجمعين»، يعني يجبركم جميعاً على الهدى، ولكنه لم يشأ ذلك إلا بالتخيير منكم والإختيار له، وكذلك أرسلَ إليكم الرسل وأمركم بطاعتهم وحذركم معصيتهم، ولو شاء لكم الإيمان بالجبر منه والإكراه والمنع لكم ما احتاج أن يرسل إليكم رسله ولا يدعوكم إلى طاعته لأنه إذا أجبركم على ما يريد ولم يمكنكم ولم يفوضكم ولم يجعل لكم إرادة ولا قوة ولا استطاعة فهو الذي يجبركم على ما يريد ولا خيار لكم ولا حاجة له ولا لكم إلى الرسل ولا إلى الدعاة لأنه قد أشرككم فيما يريد من خير وشر، ومن كانت هذه حاله فإنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، غير ملوم في عمل الشر ولا محمود في عمل البر ولا حجة عليه، فإن عذب على قبيح فقد ظلم وإن أثيب «لم»[3] يستأهل ثواباً على جليل الطاعة، وليست هذه الصفة من صفة الحكماء، ألا ترى إلى قوله: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾[4]، فاخبر، سبحانه، أنه لم يخلقهم إلا لعبادته ولم يخلقهم لمعصيته، ولم يُشْقِ ولم يسعد ولم يجبر ولم يَطْبَع أحداً على شيء من هذا ولم يُسَمِّ مؤمناً ولا كافراً إلا بإيمانه وكفره وفعله، لا بخلقه، عز وجل، لانه ليس بظلام للعبيد، ولو طبعهم على شيء من هذا كان المحسن غير محسن

(١) الانعام: ١٤٨.
(٢) الانعام: ١٤٩.
(٣) في الاصل: فلم.
(٤) الذاريات: ٥٦.

والمسيء غير مسيء، لأن كل من فعل به شيء وأدخل فيه غصباً كان غير محمود عليه ولا مذموم فيه، وكان المحسن ليس بأحق باسم الإحسان من المسيء ولا المسيء بأحق باسم «السوء به»[1] من المحسن، والتبس الأمر فيما بينهما وأمكن «لكل أن يدعي»[2] ما أحب، لو قال المسيء: « أنا محسن لأمكنه ذلك، ولما عُرِف المسيء من المحسن على قولهم وقياسهم، ثم قال، سبحانه: ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يُجْزَ به** ﴾[3]، يقول: يعمل، ولم يقل: عملت به وقضيت عليه، وإنما كان أهل الكتاب، يعني اليهود وغيرهم من أهل الكتاب يقولون: ليس يعذبنا الله بعمل ما شئنا، نحن أبناء الله وأحباؤه، فكذبهم الله وأعلمهم وغيرهم أنه لا يظلم أحداً، وأنه من عمل شيئاً جزي به.

* * *

٢ ـ ثم قال، سبحانه: ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾[4]، يقول: بدلوا ما أنعم الله به عليهم من إرسال الرسل والدعاة والدلالة على الخير كفراً بذلك، أي جحدوا به، ودعوا الناس إلى المعصية والكفر به وأحلوهم، ثم قال، مخبراً لهم محتجاً عليهم: ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾[5]، والله أعدل وأحكم من أن ينهى عن شيء وهو منه، أو ينهى عبداً عن شيء قد أراده، أو عن شيء لا يقدر على عمله أو على الخروج منه، أو يأمرهم بشيء لا يمكنهم الدخول فيه، ولم يكلف الله عباده إلا ما يقدرون عليه ويطيقونه برحمته ورأفته وفضله، وكل ما نهى الله عنه فليس منه ولم يشأه، ألا ترى إلى قوله، عز وجل: ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾[6]، معنى الكفر ها هنا: الجحود له ولنعمه وفضله عليهم الذي ابتدأهم به، وإن يشكروا أي يطيعوا فيعملوا بطاعته يرضى ذلك الفعل منهم ويثيبهم عليه.

* * *

(١) في الاصل: السواية.
(٢) في الاصل رسمها هكذا: كل د مدعي.
(٣) النساء: ١٢٣.
(٤) ابراهيم: ٢٨.
(٥) الانعام: ١٥١.
(٦) الزمر: ٧.

٣ ـ ثم قال، أيضاً: ﴿ **فأما ثمود فهديناهم، فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾[(١)]، يخبر، عز ذكره، ويبين أن الذنوب من العباد بالإختيار والاستحباب منهم، وأنه قد هداهم فاستحبوا الكفر وآثروه على ما فعل بهم من الهدى، ثم قال: ﴿ **والذي قدر فهدى** ﴾[(٢)]، أي ابتدأ الخلق بما ذكرنا من الدلالة لهم على الخير والهدى.

ثم قال، عز وجل، لنبيه، عليه السلام، متبرئاً من الضلالة مسنداً لها إليهم: ﴿ **قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي إنه سميع قريب** ﴾[(٣)]، معنى ذلك: إن ضللت فإنما أضل من نفسي، «على» تقوم مقام «من»، لأن حروف الصفات يخلف بعضها بعضاً، وهذا كثير في أشعار العرب، قال الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت لدى لجج خضر لهن نئيج[(٤)]

يريد: من لجج، فجعل مكانها: «لدى»، وكذلك حروف الصفات يخلف بعضها بعضاً، أفترى محمداً يضل من نفسه ويهتدي من الله، وهذا الخلق يضلون من عند الله؟ معاذ الله، كيف ننسب هذا الفعل القبيح والاسم إلى الله والظلم ونبرىء منه أنفسنا، والله، عز وجل، يقول: ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه، سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾[(٥)]، ثم قال، عز وجل: ﴿ **قل أمر ربي بالقسط** ﴾[(٦)]، وقال: ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾[(٧)]، ولم يقل: وقضى ربك أن تكفروا به وتعبدوا سواه من الحجارة والنار وغيرهما من المعبودات، فكان أمره وقضاؤه ومشيئته أن لا يعبدوا غيره بالتخيير من العباد لا من جهة الجبر لهم على تركها، فقال: ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطْئاً كبيراً** ﴾[(٨)]، ثم قال أيضاً: ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان**

---

(١) فصلت: ١٧. (٢) الاعلى: ٣.

(٣) سبأ: ٥٠.

(٤) النئيج، للريح: الخفيف، وللحيوان: الخوار، وهذه بعض معانيها.

(٥) الاعراف: ١٨٠.

(٦) الاعراف: ٢٨، والاية مذكورة في ب خطأ، وهي فيها هكذا: (قل أمرني...)

(٧) الاسراء: ٢٣. (٨) الاسراء: ٣١.

فاحشة وساء سبيلا ﴾[1]، ثم قال، عز وجل: **﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾**[2]، **﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾**[3]، ثم قال: **﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾**[4]، ثم قال: **﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾**[5]، أفترى الله، سبحانه، قضى أن يجعل معه إلهاً آخر ورضي ذلك أو أراده أو شيئاً مما ذكرنا من قتل المشركين أولادهم، ثم عظم ذلك وذم عليه فاعله أشد الذم، ورضي بالزنا ثم قال: «إنه كان فاحشة وساء سبيلا »، وبقتل النفس بغير حق، أو بأكل مال اليتيم، أو الكذب، ثم قال: **﴿كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾**، فان كان قضاه، سبحانه، فكيف يسألهم عن شيء هو فعله بهم؟ وإن كان منهم فالسؤال لازم لهم والحجة عليهم، وإن كان منه، فكيف يسألهم عن فعله؟ . هو سبحانه، أعلم بما يفعل بهم منهم بأنفسهم.

أنظر إلى تبيان ذلك: كيف يقول وينذر الذين قالوا: **﴿ اتخذ الله ولداً، ما لهم به من علم ولا لآبائهم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً، فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾**[6]، أفترى الله، سبحانه وتقدست أسماؤه، قضى وأمر وشاء وأراد أن يقول الجاهلون: إنه اتخذ ولداً، ثم قال: كبرت كلمة تخرج من أفواههم؟ فكيف تكون كبيرة وهي قضاؤه وأمره؟ ثم قال: إن يقولون إلا كذبا، فكيف يقضي عليهم، سبحانه، بالكذب، أو يكذب نفسه، تعالى عن إكذاب نفسه وظلم عباده، فهو يتبرأ منه وينسبه إلى عباده.

ثم قال لنبيه، عليه السلام، عندما عَظُم إشراكهم عنده: لعلك باخع نفسك إن لم يؤمنوا، فلا تفعل بنفسك ذلك، فإنا قادرون على جبرهم وقسرهم على الايمان، ثم قال: **﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾**[7]، فقال، مفوضاً إليهم: **﴿ فمن شاء**

---

(١) الاسراء: ٣٢.
(٢) الانعام: ١٥١، الاسراء: ٣٣.
(٣) الانعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤.
(٤) الإسراء: ٣٦.
(٥) الاسراء: ٣٩.
(٦) الكهف: ٤ ـ ٦.
(٧) الكهف: ٢٩.

فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، أفتراه قال هذا القول وقد منع «الكافرون»[1] من الدخول في الايمان، وحال بين الفريقين وبين المشيئة والإختيار لأنفسهم، ثم قال، ساخراً منهم مستهزئاً بهم: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. معاذ الله، ما كان ربي بظلام للعبيد، لكن مكنهم وأعطاهم من القوة والإستطاعة ما مكنهم به من الايمان والكفر، ورغبهم وحذرهم ومكنهم وفوضهم، ثم قال، حينئذ: من شاء الكفر فقد جعلت السبيل إليه، ومن شاء الإيمان فقد جعلت له الطريق، ثم أعلمهم أن الكفر ظلم لأنفسهم وأنه قد أعد للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها، زيادة لهم في الوعيد على معاصيه، ثم قال: **﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾**[2] فأخبر أنه لا يضيع أجرهم إذا عملوا حسناً، ترغيباً منه لهم بالوعد على طاعته وترك معصيته ولو كان قضاه عليهم: عملوا، لأنهم مجبرون على ذلك الحسن، ومن جبر على شيء فغير محمود فيه، ولو كان ذلك كذلك لم يقل: **﴿ إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾**، كيف يكونون أحسنوا عملاً وهو المحسن لهم والحاتم عليهم.

٤ ـ ثم ما أقبح ما أسند أهل هذا القول إلى الله، سبحانه. ثم قال: **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾**[3]، فأخبر، سبحانه، أن الفحشاء والمنكر من الشيطان، وتبرأ منهما، ونسبهما إلى غيره، ووعد من اتبعه العذاب. فالله يبرىء نفسه من كل ظلم وفحشاء ومنكر وباطل وإضلال، والجاهلون يلزمونه ذلك.

٥ ـ وقال: **﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه؟ أفأنت تكون عليه وكيلا؟ ﴾**[4]، كل هذا يخبر عنهم بالقدرة على المعصية والفعل لها، وأن ذلك ليس منه ولا أراده، لأنه أكرم من أن ينهى عن شيء وهو يريده أو يأمر بشيء وهو يريد غيره، أو يحمل العباد عليه، وكل ما نهى الله عنه فليس منه، وكيف يكون منه ما نهى عنه؟ هذه صفة اللعابين، تعالى الله عنها علواً كبيراً. وقال، مخبراً ومخيراً: **﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها، وهم من فزع يومئذ آمنون، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم**

(١) في الاصل: الكفرين.
(٢) الكهف: ٣٠.
(٣) النور: ٢١.
(٤) الفرقان: ٤٣.

في النار، هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾[1]، فأخبر سبحانه، أنه يجزيهم بفعلهم في الحسنة والسيئة لا بفعله بهم وقضائه عليهم، وأن ذلك منهم وفيهم، ألا ترى كيف يقول: **﴿ هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾**؟ أي لم يظلمكم ولم يجزكم إلا بعملكم لا بغيره، توفيقاً منه لهم وتبرياً من الظلم إليهم، فلو كان قضى ذلك عليهم لما كانت عليهم حجة ولا تبرأ، سبحانه، من فعله ونسبه إليهم، إذ كان ذلك أكبر الظلم لهم، تبرا الله عن ذلك، ولم ينزهوه عنه فقد ظلموا أنفسهم، ثم قال، أيضاً: **﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها، ومن جاء بالسيئة فلا يُجزَى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾**[2]، وهذا، أيضاً، القول فيه كالقول في الذي قبله، ثم قال: **﴿ أم حسب الذين عملوا السيئات أن يسبقونا، ساء ما يحكمون ﴾**[3]، يقول: أم حسب الذين يعملون المعاصي أنهم يغلبون ويسبقون إلى العمل بها، ولو شئنا ما سبقونا إليها ولا (غلبونا)[4] بها، فكل هذا يُعَلِّم أنه بريء من أفعال العباد وأنها منهم بغير أمر له إلا بما فوض إليهم ومكنهم وخيَّرهم، ثم قال، لا شريك له: **﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إنّ الله لغني عن العالمين ﴾**[5]، وقال: **﴿ من كفر فعليه كفره، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾**[6]، فانظر كيف تبرأ في جميع الحالات من أعمال العباد، يخبر أنها منهم لا منه وأنه يجزيهم بفعلهم وعملهم لا بقضائه ولا بفعله، ولا شيء كان منه مُدْخِلاً لهم في شيء من هذه الأعمال.

وقال في قصة لقمان، صلى الله عليه: **﴿ إنّ الشرك لظلم عظيم ﴾**[7]، أفترى الله سبحانه استعظم الشرك وهو منه وقد قضاه وقدره وحتم به على فاعليه واستعظمه منهم وهو قضاه عليهم وحتمه في رقابهم وأدخلهم فيه، يا سبحان الله!! ما أقبح هذا من القول والصفة في بني آدم فكيف في الحكَم العدل؟

٦ ـ وقال: **﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾**[8]، أفتراه لم يجعل فيهم مقدرة على التقدم ولا على التأخر، وهو يقول: **﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو**

(١) النمل: ٨٩، ٩٠.
(٢) القصص: ٨٤.
(٣) العنكبوت: ٤.
(٤) غير واضحة الدلالة في الأصل.
(٥) العنكبوت: ٦.
(٦) الروم: ٤٤.
(٧) لقمان: ١٣.
(٨) المدثر: ٣٧.

يتأخر﴾، ثم قال: ﴿ ونبلو أخباركم ﴾[1] وقال: ﴿ لننظر كيف تعملون﴾[2]، فلو كان الأمر على ما يقول الجاهلون ما كان إليهم تقدم ولا تأخر ولا احتاجوا إلى بلوى ولا لينظر عملهم، فكان بكل ما يدخلهم فيه عالماً أنهم لا يقدرون على غيره، وأي مشيئة لهم حين يقول ﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾؟ وكيف لهم بالتقدم والتأخر وقد منعهم من ذلك وحال بقضائه وحكمه عليهم بينهم وبين ما أمرهم به من التقدم والتأخر، ومعنى ننظر أي نحكم عليكم بما يكون من خبركم، وكتاب الله كله على ما ذكرت من ثواب الله لعباده وعقابه لهم كل بما كانوا يعملون وبما كانوا يكسبون وبما كانوا يجحدون وبما كانوا يصنعون، لم يقل، عز وجل، في شيء منه: بقضاي عليكم ولا بمشيئتي ولا بإرادتي ولا بقدرتي فيكم، ولا بإدخالي لكم في الطاعة ولا بإخراجي لكم من المعصية. كل هذا بيِّن أن ثوابه وعقابه على عملهم، والكتاب، كما قلنا، يُصَدِّق بعضه بعضاً، ليس من كتاب الله شيء ينقض شيئاً، لأنه من حكيم عليم، ولولا ذلك لكان فيه الإختلاف، كما قال، سبحانه: ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[3].

٧ ـ ثم قال: ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾[4]، فكيف يقضي بالفواحش ثم يقول: قد خاب من دساها، أفتراه خيَّب نفسه؟! تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ثم قالوا: ﴿ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾[5]، وتعالى عن أن يقول هذا لنفسه ولكن قدَّمه شياطين الانس والجن، ألا ترى إلى قوله: ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾[6]، اعترافاً منهم بذنوبهم وأن عملهم وما نزل بهم من العقوبة كان بطاعتهم لسادتهم وكبرائهم، ولم يقولوا، وقد احتاجوا إلى الحجة لعظم ما نزل بهم: ربنا أطعناك واتبعنا قضاءك وأمرك وما قدرت لنا، ولو كان ذلك ما تركوا قوله لما لهم فيه من الحجة على الله سبحانه، والسبيل (هو)[7] سبيل القصد والخير، ألا ترى كيف يقول: ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا ﴾[8]، يقول: دلّلْناه على سبيل الخير، فإن شكر فذلك واجب عليه ولنفسه

---

(١) محمد: ٣١.
(٢) يونس: ١٤.
(٣) النساء: ٨٢.
(٤) الشمس: ١٠.
(٥) ص: ٦١.
(٦) الاحزاب: ٦٧.
(٧) في الاصل: فهو
(٨) الانسان: ٣.

يعمل ويمهد، وإن كفر بما قلنا به فذلك راجع ضرره عليه، وإن الله غني حميد عن شكره، وإنما ثواب شكره راجع عليه ونافع له.

٨ ـ وقال، سبحانه: ﴿ **ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين** ﴾[١]، أفترى الله، سبحانه، أراد بهذا القول نفسه، إن كان، في قولهم، هو المضل لعباده؟ سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً. ما أفحش ما يسندون إلى الله!!.

٩ ـ ألا تري إلى ما يقول آدم، عليه السلام، عند ما كان منه: ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[٢]، أفترى آدم، عليه السلام، استغفر ربه من قضائه عليه وقدره وحتمه لمعصيته عليه أم من ذنب عمله هو من نفسه والله بريء منه؟ أو ترى أن الله نهاه عن أكل الشجرة وقد قضى عليه أكلها وحتمه في رقبته، ولو كان ذلك كذلك ما أقر عليه السلام، على نفسه بالخطيئة، ولقال: هذا قضاؤك عليّ ومشيئك، وإنما أخطأت وأكلت من الشجرة، ولولا قضاؤك ومشيئتك ما قَدَرْتُ على أكلها، فلعلمه بالله أقر، صلى الله عليه أن الخطيئة كانت منه، وبرّأ ربه منها، تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً. وكذلك قال موسى، عليه السلام، لما وكز الرجل فقضى عليه، فقال موسى عند ذلك: ﴿ **هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين** ﴾[٣]، ولم يقل هذا من قضاء الله عليّ ولا من تقديره فيّ ولا من إضلاله لي، فبرأه، سبحانه، من ذلك ونسبه إلى الشيطان وإلى نفسه، فقال: ﴿ **رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي** ﴾[٤].

فهذا قول أنبياء الله، يلزمون أنفسهم الخطايا، ويبرئون من ذلك خالقهم، والجهال يبرئون أنفسهم من ذلك ويلزمون الذنوب خالقهم.

١٠ ـ وانظر إلى قول الله، سبحانه: ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت، قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** ﴾[٥]، أفترى الله، سبحانه، يعني

(١) فصلت: ٢٩.
(٢) الاعراف: ٢٣.
(٣) القصص: ١٥.
(٤) القصص: ١٦.
(٥) الزخرف: ٣٨.

نفسه بذلك أم يعني مجترم الذنب؟ تعالى الله من أن يضل أحداً أو يكون له أحد قريناً.

ثم أخبر عن كفرهم وقولهم الكذب على الله، وأنه غير راض بذلك فقال: ﴿ ألاَ إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾[1]، أفترى الله أمرهم بالكذب عليه وقضاه عليهم ثم تبرأ من شيء هو فعله ورمى به غيره، سبحانه، ألا ترى كيف يقول، عز وجل: ﴿ ثم يرم به بريئاً، فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾[2]، أفترى الله، عز وجل، بهتهم بما لم يفعلوا وظلمهم بما لم يعملوا، ووصف نفسه باحتمال البهتان والإثم المبين؟ كذب من قال على الله بهذا القول.

١١ ـ وقال، تقدست أسماؤه: ﴿(إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس)﴾[3] بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، وما أنت عليهم بوكيل ﴾[4] فبين لهم أنه بريء من فعلهم، وأنه إنما يجزيهم بما يكون فيهم بعد التبيين لهم والترغيب والتحذير، ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيٍّ عن بينة وإن الله لسميع عليهم ﴾[5]، أي من أهلك نفسه بالمعصية بعد ما عرفها فهو الهالك المُهْلِك لها، لأنه مدخل لنفسه فيها، ومن أحياها بالطاعة فقد عرف طريق الطّاعة بما قلناه من تعريف الله لهم الطريقين وهدايته لهم النجدين لكيلا يكون لأحد على الله حجة.

١٢ ـ ثم قال، عز وجل: ﴿ لا تفتروا على الله كذباً فيُسْحِتكم بعذاب وقد خاب من افترى ﴾[6]، أفتراه يعني نفسه بهذا السحت؟![7] ثم قال: ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾[8]، أفترى الله نهاهم عن قبيح اللفظ به وهو أمرهم به؟ وكره منهم أن يقولوا: ﴿ ثالث ثلاثة ﴾[9] وهو قضاه عليهم وشاءه منهم وأراده لهم؟! جلَّ الله عن هذه الصفة المشبهة لصفات اللعابين المتلعبين.

---

(١) الصافات: ١٥٢.
(٢) النساء: ١١٢.
(٣) غير موجودة في الاصل.
(٤) الزمر: ٤١.
(٥) الأنفال: ٤٢.
(٦) طه: ٦١.
(٧) من معانيه: العذاب والهلاك والاستئصال.
(٨) النساء: ١٧١.
(٩) المائدة: ٧٣.

١٣ ـ وقال، أيضاً، لنبيه عليه السلام: ﴿ **لِمَ تحرم ما أحل الله لك؟** ﴾[١] أفترى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، حرم ما أمر الله بتحريمه وقدره عليه وقضاه له ثم (يخبره)[٢] عن ذلك التحريم فينهاه عنه ويعاتبه فيه ويعيبه عليه، وهو الذي أدخله فيه وقضاه عليه؟! معاذ الله أن يكون هذا أبداً، لكن هذا التحريم كان من فعل محمد لا من فعل الله، ألا ترى إلى أمر الله سبحانه له بترك ما لم يرضه من فعله في ذلك، وأمره أن يرجع إلى ما أحلَّ له، ويكفر يمينه، فقال: ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾[٣]، ثم قال، سبحانه: ﴿ **وقال قرينه هذا ما لديَّ عتيد، ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، منَّاعٍ للخير مُعتدٍ مريب، الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد** ﴾[٤]، ثم قال، سبحانه: ﴿ **قال قرينه: ربنا ما أطغيته، ولكن كان في ضلال بعيد، قال: لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد، ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد** ﴾[٥]، وقال: ﴿ **والذي جعل مع الله إلهاً آخر** ﴾، أفترى الله سبحانه الذي أضله وأمره أن يجعل معه إلهاً آخر، ثم يقول ألقياه يعني: الضال والمضل، أفتراه أراد بهذا نفسه، إذ كان في قولهم أنه المضل لهم والمدخل لهم فيما دخلوا فيه من خير وشر، فكيف وقد تبرأ في آخر الآية: فقال: ﴿ **لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾، ولم يقل، سبحانه: لا تخاصموني ولا تحتجوا عليّ، لأنهم لم ينسبوا إليه شيئاً من الظلم ولا من الضلال لهم ولا من إدخالهم في شيء مما نهاهم عنه، وإنما نسب ذلك بعضهم إلى بعض، ولو نسبوا إليه كانت الخصومة معه لا مع غيره، وكانت الحجة لهم والقول عليه، ألا ترى إلى قول المذنب الذي جعل مع الله إلهاً آخر كيف يلزم الذنب غير ربه؟ وكيف لم يقل: أمرني ربي أن أجعَل معه إلهاً غيره؟ ثم قال: ﴿ **كل كفار عنيد مناع للخير** ﴾ أفترى أن هذه الصفات كلها، القبيحة، وصف الله بها نفسه؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

١٤ ـ ثم قال، سبحانه: ﴿ **وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم**

---

(١) التحريم: ١.
(٢) في الاصل: نستخبره.
(٣) التحريم: ٢.
(٤) ق: ٢٣ ـ ٢٦.
(٥) ق: ٢٧ ـ ٢٩.

شركاؤهم﴾[1] هم غيره فقد برأ نفسه، سبحانه أن يضل ويزين شيئاً من أراد بذكر الشركاء غيره من المغْوِين أم نفسه بهذا التزيين؟ فإن كان شركاؤهم هم غيره فقد برأ نفسه، سبحانه أن يضل ويزين شيئاً بهذا القول، وهذا غير معروف في اللغة، يذكر غيره ويخاطبه وهو يريد بالذكر نفسه، هذا محال في القول لا يقبله العقل.

١٥ - وانظر إلى قوله: فيما يحكيه عن الهدهد، فقال: ﴿ **وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل** ﴾[2]، ولم يقل زين الله لهم السجود للشمس، ولا أنه صدهم عن السبيل.

وكل نبي أو غيره ممن عقل يبرىء الله، سبحانه، من الذنوب ويستغفره منها ويسند الخطأ فيها إلى نفسه، ألا ترى إلى قوله، سبحانه لموسى، صلى الله عليه: ﴿ **اذهب إلى فرعون إنّه طغى، فقل: هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى، فأراه الآية الكبرى، فكذب وعصى، ثم أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى** ﴾[3]، أفترى الله، تبارك وتعالى، الذي أضل فرعون وأدبره عن الطاعة ومنعه أن يتزكى وأمره بالتكذيب والعصيان وأن يدعي أنه الله الأعلى، وقد فطره الله على ذلك وحمله عليه، ثم أرسل إليه موسى، صلوات الله عليه، يدعوه إلى أن يهتدي ويتزكى، وقد منعه منهما، وفطره على غيرهما، وحال بينه وبين العمل بهما، ثم يرسل إليه من أرسل، وأنزل به العذاب عندما كان من سعيه في طاعة الله، وأمره هذا أكبر الظلم وأقبح الصفة في المخلوقين، تعالى الله عما أسند إليه الجاهلون من هذه المقالة الفاسدة الضالة. ألا ترى إلى قول الله، سبحانه: ﴿ **وأضل فرعون قومه وما هدى** ﴾[4]، ينسب الضلالة إلى فرعون والإضلال، ويبرىء منها نفسه.

١٦ - وانظر أيضاً إلى قوله، عز وجل: ﴿ **اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة** ﴾[5]، يقول، سبحانه: استحبوا الضلالة على الهدى والعذاب على المغفرة، ممثلاً في ذلك بالبيع والشراء، لأنه في كلام[6] العرب هذا المثل.

---

(١) الانعام: ١٣٧.
(٢) النمل: ٢٤.
(٣) المنازعات: ١٧.
(٤) طه: ٧٩.
(٥) البقرة: ١٧٥.
(٦) في الأصل هنا: «في»، لا داعي لها.

١٧ - وانظر أيضاً إلى قوله في ابن آدم: ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾[١] ولم يقل، سبحانه: قَدَّرته ولا قضيته عليه ولا أمرته ولا رضيته منه، بل برأ نفسه من فعله وألزم المعصية أهلها وفاعلها، ألا ترى إلى قوله ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه، فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾ أخبر أن ذلك الفعل من نفسه لا من غيرها.

١٨ - وانظر إلى قوله، تبارك وتعالى، يحكي عن نوح، صلى الله عليه: ﴿ **رب إن ابني من أهلي، وإنَّ وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين** ﴾[٢] أفتراه قضى هذا القول على نوح ثم عابه عليه وعنفه فيه، فقال: ﴿ **إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾[٣]، وانظر إلى تبرئه نوح، عليه السلام لخالقه من ذلك، وإلزامه الذنب نفسه، فقال، عليه السلام: ﴿ **رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم** ﴾[٤]، فأخبره أن هذه المسألة منه، فاستغفر منها ولم يقل **إنّه** قضاؤك وقدرك عليّ، ولو كان قضاء الله عليه ما استغفر منها، كيف يستغفر الله من فعله؟ إنما يتوب العباد إلى الله ويستغفرونه من أفعالهم لا من فعله، كذلك كل فاعل قبيح يتوب منه ويستغفر ربه من فعله ولا يستغفر ربه من فعل غيره، ولا يُلْزِم الله من فعل غيره شيئاً.

١٩ - وانظر إلى قوله، عز وجل، لنبيه، عليه السلام: ﴿ **ولا تكن للخائنين خصيماً** ﴾[٥]، أفترى الله، سبحانه، نهى نبيه، عليه السلام، عن شيء هو يريده، قد قضى عليه فعله، وأمر نبيه بترك شيء لا يقدر على تركه؟ لو كان ذلك كذلك ما نهاه عنه، لعلمه أنه لا يقدر على تركه. وكثير في كتاب الله، عز وجل، مما نهى عنه أنبياءه وعابه عليهم وعاتبهم عليه، أفترى الله، سبحانه، عاب ذلك عليهم وكرهه من أفعالهم. وهم لا يجدون إلى الخروج سبيلاً؟ أو عاتبهم عليه وهو يعلم[٦] أنهم يطيقون رفضه والخروج منه، فكذلك عاتبهم عليه وذمه من أفعالهم.

* * *

(١) المائدة: ٣٠.
(٢) هود: ٤٥.
(٣) هود: ٤٦.
(٤) هود: ٤٧.
(٥) النساء: ١٠٥.
(٦) في الاصل، فوقها كلمة: عالم.

٢٠ ـ وانظر إلى ما يقول محمد، صلى الله عليه وعلى آله: ﴿ **ولا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المُعَذَّبين** ﴾[١]، أفتراه نهاه عن شيء يقدر عليه أو عَمَّا لا يقدر عليه؟ فإن كان نهاه عن شيء يقدر على تركه فالحجة لله، سبحانه، قائمة على خلقه، وإن كان نهاه عن شيء لا يقدر عليه، فليس لله على خلقه حجة، إذ كانت حاله كحالة من يُدْعَى إلى ما لا يطيق وكلف ما لا يقدر عليه، وعذب بذلك مظلوماً، وكيف يكون ذلك كذلك والله سبحانه، يقول: ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً** ﴾[٢]، فأين الرحمة ممن كلفهم ما لا يطيقون، وافترض عليهم ما لا يقدرون على تأديته، لمنعه لهم منه، وحجزه إياهم عنه؟ كذب من قال على الله بهذا القول وخاب في الدنيا والآخرة.

* * *

٢١ ـ ألا ترى كيف يخبر عن تمكينه لعباده وتخييره لهم وعن تَخَيُّره لهم وعن الإستطاعة والقدرة التي مكنهم بها من العمل للطاعة والمعصية، فقال: ﴿ **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم** ﴾[٣]، ثم قال: ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة** ﴾[٤]، ثم قال: ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾[٥].

فانظر الى قوله: ﴿ **ولو أن أهل الكتاب** ﴾، ﴿**ولو أن أهل القرى**﴾، ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوارة والانجيل** ﴾، ﴿**ولو أنهم فعلوا** ﴾. وهذا في القرآن كثير يدل عند أهل اللغة والمعرفة والنصفة[٦] على أنهم مُمَكَّنون مفوضون قادرون على ما أمروا به من العمل به والترك لما نهوا عنه، وكثير مما في كتاب الله، عز وجل، يشهد لنا بما قلنا، كرهنا بذكره التطويل عليك.

* * *

---

(١) الشعراء: ٢١٣.
(٢) النساء: ٢٩.
(٣) المائدة: ٦٥.
(٤) المائدة: ٦٦.
(٥) الاعراف: ٩٦.
(٦) أي العدل والانصاف.

فميز يا بني، علمك الله، ما قد شرحت لك من هذا القول، وتدبر ما حكيت لك من قول الكذابين على الله، يَبِنْ لك الصدق وتعلم الحق، لأنه واضح مبين لا يخفى على أهل المعرفة والعقل، لأن العقل أكثر حجج الله، سبحانه، على عباده، ولذلك لم يخاطب إلا ذوي الألباب والعقول، وإياهم قصد بالأمر والفرض والنهي وأسقط(جميع ذلك)[1] عن المجانين والصبيان الذين لا عقول لهم. فسبحان البر الرحيم بعباده، المنصف لهم، المتفضل عليهم بالإحسان، الدال لهم على الإيمان، المبتدي لهم بالنعمة قبل استحقاقها، المعافى لهم من النِّقَم بعد وجوبها.

واعلم، يا بني، أن جميع من قص الله عليك نبأه في كتابه من المخاطبين إذ الأنبياء، عليهم السلام، فمن دونهم، مقرون بالذنوب، معترفون بها، مستغفرون الله، سبحانه، من جميع ذلك، وفي أقل مما ذكرت أكثر الحجج وأبلغ الكلام وأجمل الموعظة وأحسن الهداية عند من عقل وأنصف.

(١) في الاصل تقديم وتأخير يحعل العبارة: ذلك جميع.

العقل يشهد لأهل العدل

ومن أكبر الحجج عليه ما يصح ويثبت عند أهل النُّهَى أنهم زعموا أن جميع ما في الأرض من خير أو شر الله قضاه وأراده وشاءه وقدره، وفي الأرض من يقول أن الله ثالث ثلاثة، وأن له، سبحانه ولداً وصاحبة، ومنهم من يقول أنه لا رب ولا خالق وأن الأشياء لم تزل كذا: ليل ونهار وشمس وقمر وسماء وأرض ومطر وصحو وموت وحياة[1]، ومن ينكح أمه وابنته وأخته وعمته وكل ذي رحم مُحَرَّم عليه[2]، ويأتي كل قبيح من الفعل رديء، ويغشى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويقول أن ذلك من الله ومن قضائه وإرادته ومشيئته، وأن كل عامل عمل منه شيئاً فبأمر الله ورضاه وإرادته.

فيا سبحان الله!! ما أعجب هذا من قول وأشنعه، وأحمق من زعم أن أحداً ما يعمل شيئاً مما ذكرنا لله عاص، وما أجهل من ذكر المعصية، كيف تكون المعصية عندهم؟ ومن صلى ومن زنا كلاهما مطيع لله قضى لهذا بالصلاة وقضى على هذا بالزنا، فكل من عمل شيئاً من الأشياء، حسناً كان أو قبيحاً، إيماناً أو كفراً، أو غيرهما من الأشياء كلها ففاعل ذلك الشيء مؤد لأمر الله وقضائه مستعمل

---

(١) وهم الدهريون أو الطبيعيون، الذين يرون أن الطبيعة مستكفية بنفسها غير محتاجة لموجد من خارجها، وأنه ليس ثمة حياة بعد الموت، كما يرون أن الحياة الخلقية إنما هي امتداد للحياة البيولوجية، ونسبتهم ليست إلى «الدهر» Eternity بمعنى الان الدائم الذي يتحد فيه الازل بالابد، وإنما نسبتهم إلى «الطبيعية» Naturalism راجع «الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني، رسالة الرد على الدهريين» ص ١٢٧ - ١٨٠. دراسة وتحقيق محمد عمارة ط القاهرة سنة ١٩٦٨ م. و (المعجم الفلسفي) للأساتذة: يوسف كرم، د. مراد وهبة، يوسف شلاله. ط القاهرة سنة ١٩٦٦م.

(٢) وأكثر ما يكون ذلك في المجتمعات القبلية ذات المستوى التطوري المتخلف في سلم الرقى الانساني، وكان بعض ذلك مسموحاً به عند قدماء المصريين، كما أن بعض ذلك قد حدث في المجتمع العبراني القديم وسجلته أسفار العهد القديم.

نفسه في أداء مشيئته وإرادته، فليس على وجه الأرض عاصٍ، ولا تعرف المعصية من الطاعة، ولا يعرف من يقع عليه اسم الطاعة ولا اسم المعصية، ولا من يستحقه، وكيف يكون من سعى في إرادة الله عاصياً؟. لا يعرف هذا الكلام في شيء من لغة العرب ولا العجم، وقد حد الله اسم المعصية التي ذكرها الله في كتابه، وسمى قوماً عصاة، وسمى من عمل به عاصياً، وبطل كل ما جاء في الكتاب من ذكر ذلك، على قولهم وقياسهم، وكل ما جاء لغير معنى ألا تكون المعصية غير هذه الأشياء كلها التي نعرفها ونعقلها مكنونة عند الله لم يبينها لنا ولم يشرحها ولم يدلنا عليها، غير أنه قد حذرنا العصيان ولم يعرفناه وعرفناه وعرفنا الإحسان والطاعة وحدها، فنحن للعصيان منكرون، إذ كان أكبر الفواحش هي التي عَدَّد، وهي عند أهل القبلة أشد الكفر، وقد سموها جميعاً كبائر من العصيان والذنوب.

وزعم هؤلاء أن الله شاءها وأمر بها وأرادها، فما كان سواها وسوى ما سموا كبائر فأمره أقرب وهو أهون ولا يرى معصية ولا عاصياً، إذ كان ما كان مضاداً لما ذكرنا من الصلاة والصيام والحج والإيمان، وجميع أعمال البر الله شاءها وقضاها وأمر بها فلا ترى بين المنزلتين فرقاً ولا عنهما تأخراً، كلاهما فرض، وكل من عمل شيئاً من الفعلين فهو لله مطيع، والله بفعله راضٍ، وليس على وجه الأرض لله عاصٍ كلا الفريقين مجتهد في أداء ما فرض الله عليه[1].

فلا بد لمن قال بهذه المقالة أن يبين المعصية، أين هي؟ وإلا فهو مبطل مفترٍ على الله أقبح الكذب، فنبرأ إلى الله من هذه المقالة وممن قال على الله بها، فبالله

---

(١) ونحن نستطيع أن ندرك خطورة هذا الموقف الفكري الذي يسوي بين الجميع ويزكي كل المواقف والاتجاهات، إذا علمنا أنه يطمس معالم الصراع الازلي والابدي بين ما هو حق وما هو باطل، ما هو متقدم وما هو متخلف، ما يدفع الحياة إلى الامام وما يشدها إلى الرجعة والوراء، ولم يقتصر هذا الموقف الخاطيء والصار على فريق الجبرية الكلامية، بل لقد برز متجسداً في فكر بعض المتصوفة أنصار وحدة الوجود، وعلى رأسهم الفيلسوف المتصوف «أبو بكر محمد بن علي محي الدين ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠م)، والذي يلخص عقيدته القائمة على هذا الاساس في قوله:

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه

كما يتحدث عن إيمان الذين يعبدون الاوثان، والحيوان، أصحاب التثليث، وفرعون.. الخ.. الخ.. راجع (فصوص الحكم) لابن عربي. دراسة وتحقيق د. أبو العلا عفيفي ص ٢٨٩ من التعليقات. ط القاهرة سنة ١٩٤٦م.

إن الأمر لواضح، وإن الشبهة في هذه المعرفة لبينة. وفقنا الله وإياك لأجمل الأقاويل وأحسنها وأليقها بالله، لأن الله، سبحانه، يقول: ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾[١]، فالله أحق بكل اسم حسن، وأبعد من كل اسم قبيح من (هؤلاء)[٢] الخلق الذين)[٣] يقولون عليه بهذا القول الذي يُبَرِّئون أنفسهم منه ويزعمون أنه لو كان منهم كان أكبر الظلم.

وزعم هؤلاء القوم أن محمداً، صلى الله عليه وآله، بعثه الله، ومن قبله من الأنبياء، عليهم السلام، يدعون عباد الله إلى عبادة الله، ولعمري أن ذلك كذلك، قال الله، سبحانه، لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾[٤]، وقال موسى وهارون عليهما السلام، لفرعون، لعنه الله: ﴿ **إنّا رسولا ربك** ﴾[٥]، وقال: ﴿ **أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾[٦]، معناها: ويزيدون، لأن الله سبحانه، لاتخفي عليه خافية ولا تعروه سنة ولا يدخل شك، وهذا في أشعار العرب كثير، قال الشاعر:

فلو كان البكاء يرد مَيّتا بكيت على عمير أو عقاق

ثم قال مبينا أنه يبكي عليهما جميعاً في البيت الثاني:

على المَرْئَيْن إذ هلكا جميعاً لشأنهما بحزن واحتراق

فأقام «أو» مقام «الواو»، وكذلك قال، عز وجل: ﴿ إذ[٧] أرسلنا إليهم اثنين **فكذبوهما فعززنا بثالث**﴾[٨]، فإذا كان الأمر على ما قال هؤلاء الظالمون، أن الله، تبارك وتعالى، قضى على قوم بالمعصية، لا يقدرون يعملون غيرها ولا يخرجون منها إلى شيء من الطاعة ولا من أعمال البر، وقضى على آخرين بالطاعة له وبالعمل بما يرضيه لا يقدرون يخرجون من الطاعة إلى العمل بشيء من المعصية، ممنوعاً من ذلك الفريقان، وكان مستعملاً فيما حتم في رقبته وقضى عليه لا يطيق الخروج منه إلى غيره، فإلى من أرسل الله الأنبياء والمرسلين وإلى من دعوا، ومن خاطبوا وعلى من احتجوا؟ أم من بعثهم وأطاعهم؟ أم من كانت حاجة العباد إليهم؟

---

(١) الاعراف: ١٨٠.
(٢) في الاصل: هذا.
(٢) في الاصل: الذي
(٤) الاعراف: ١٥٨
(٥) طه: ٤٧.
(٦) الصافات: ١٤٧
(٧) في الاصل: إذا
(٨) يس: ١٤.

أم ما كان المعنى عند الله، سبحانه، في إرسالهم؟ أتراه أرسلهم عبثاً أم سخرياً؟ أم بياناً وتوكيداً للحجة على العباد وتوفيقاً؟

فإن كان سبحانه أرسلهم إلى قوم، وقد منعهم من طاعته، يدعونهم إلى الدخول فيها، وقد حال بينهم وبين ذلك ومنعهم، طالباً للحجة عليهم بلا حجة لازمة بيِّنة، فهذا أكبر الظلم وأحول المحال، ليس أحكم الحاكمين يعبث ولا يلغو ولا يسخر ولا يستهزىء، ولا خلق الجنة والنار باطلاً، ولا أرسل المرسلين عبثاً، لو كان الله، سبحانه على ما يقولون، ما أرسل إلى خلقه رسولاً ولا دعاهم إلى طاعة ولا دلهم على ما يرضيه مما يسخطه، ولا احتج عليهم بالآيات المعجزات ولا بالبراهين الواضحات التي عجز عنها جميع الكهنة والسحرة والفراعنة وشياطين الإنس والجن فلم يقدروا أن يأتوا منها بشيء، مثل التسع آيات التي كانت مع موسى، عليه السلام، والمعجزات التي جاء بها غيره من الأنبياء، كل هذا احتجاج من الله، سبحانه، على خلقه، ليطيعوا أنبياءه ورسله ويجيبوهم إلى خلع الأنداد والأصنام والأوثان والآلهة المعبودة من دونه، ولكن الله، سبحانه، مكنهم وفوضهم، وأرسل إليهم الرسل يدعونهم إلى ما هم قادرون عليه، ويندبونهم إليه ليخرجوهم بذلك من ظلمة الشرك إلى نور الإسلام. ألا ترى إلى قوله، عز وجل: ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[1]، فلولا أن الله، تبارك وتعالى، قد علم أن عباده يقدرون على طاعة رسله ما أرسلهم إليهم ولا أمرهم بطاعتهم ولا حثهم على أداء ما جاءوا به من فرائضه وما دعوا به من اتباع مرضاته، وذلك لما مكنهم الله منه وجعل فيهم من القوة والإستطاعة ليركبوا بها طبقاً عن طبق، تفضلاً منه عليهم وإحساناً منه إليهم وإكمالاً للحجة فيهم وعليهم لئلا يكون لاحد على الله حجة بعد رسله وما شرع من فرائضه وما دعا إليه من طاعته وحذر من معصيته وذلك قوله: ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾[2].

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) النساء: ١٦٥

ومن أكبر عجائبهم أنهم يزعمون أن الله، تبارك وتعالى، قضى على العباد بالمعاصي قضاء حتماً لا يمكنهم الخروج من ذلك القضاء، وقدره عليهم، وشاءه لهم، ثم زعموا، مع هذا القول، أن محمداً، صلى الله عليه وآله، أُرْسِل إلى الناس كافة، وأن كل ما أمر به أو نهى عنه من تحليل شيء أو تحريم آخر لله رضى وطاعة ومراداً ومشيئة، إذ رجعوا فأكذبوا أنفسهم وطعنوا على نبيهم فزعموا أن جميع ما نهى الله عنه قضاء ومراد ومشيئة.

فانظر، يل بني، ما بين هذين القولين من التناقض والعمى والحيرة، بَيْنا محمد صلى الله عليه وآله، يحث على طاعة الله والقيام بأمره والأداء لفرضه، إذ صار ينهى عن جميع ذلك.

وانظر إلى ما هو أعجب من هذا، قولهم في إبليس، لعنه الله، يزعمون مرة أنه لله عاصٍ وعليه مفترٍ، بل[1] قد افترض عليه ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه، صلى الله عليه وآله، وتارة يزعمون أن ابليس لله ولي يدعو إلى قضائه، في معنى قولهم وما تلزمهم إياه الحجة، وإن كانوا غير مصرحين بولايته لله، غير أنهم زعموا أن جميع الفواحش التي يدعو إليها ابليس شاءها الله وأرادها، ومن كان إلى طاعة الله ومشيئته ومراده (داعياً)[2] فهو ولي لله مطيع، فَمَرَّةً عندهم ابليس مطيع ومرة عدو مفترٍ.

وانظر، أيضاً إلى هذا التمييز وهذه العقول التي جعلوا بها سبيل محمد وسبيل ابليس سواء، حتى جعلوا الصفة فيهما واحدة متشابهة كلاهما، وهو عندهم يدعو إلى قضاء الله وأمره ومراده، ويصدقون محمداً عليه السلام مرة فيما جاء به من القرآن والدعاء إلى الله وإلى أمره ومراده ومرة أخرى يكذبون ذلك ويقولون أن المعاصي من الله وأن الله شاءها وأرادها من العباد، وأنه، عليه السلام، نهى عن مشيئة الله وإرادته، فإن كان محمد، صلى الله عليه وآله، ينهى عما ذكره «وأن»[3] ابليس يدعو إلى ذلك الذي أراده الله من العباد، فلا تراه، في قياسهم، لله عاصياً، ولا عليه مفترياً، إذ كان في الدعاء إلى قضاء الله مجتهداً، ومن كانت هذه سبيله فهو

---

(١) هنا في الاصل عبارة زائدة هي: قد افترى

(٢) غير موجودة في الاصل.

(٣) في الاصل: وا أن

غير سبيل العاصين ولا أعرف، كما قلنا، وعلى قولهم، بينه وبين محمد، عليه السلام، فرقاً في الدعاء إلى قضاء الله، خاصة إذ كان محمد يدعو إلى بعض قضاء الله، ثم أمر ونهى، بزعمهم، عن بعض قضاء الله وأمره، وكذلك إبليس، لعنه الله، يدعو، على قولهم إلى بعض قضاء الله وأمره وينهى عن بعض قضاء الله وأمره، ومحمد صلى الله عليه وآله، نهى عما يدعو إليه ابليس من هذا القضاء، وابليس، لعنه الله، يدعو إلى ما ينهى عنه محمد، وكلاهما عدو الاخر.

فيا سبحان الله!! ماذا بينهما من التباعد! وما أشد اختلافهما، وأبين تناقض أمرهما عند أهل المعرفة والعقل، وأخبث قولهم هذا الذي قالوا به.

ومن الحجة عليهم، أيضاً، التي لا يجدون لها نقضاً، ولا بد لهم عندها من أن يكذبوا أنفسهم وقولهم، أو يلزموا محمداً، صلى الله عليه وآله، المعصية والتعدي فيما أمره الله به، يقال لهم: أخبرونا عن محمد، عليه السلام، حين أمره الله بدعاء الناس كافة إلى عبادته والعمل بفرائضه، فوجدهم، صلى الله عليه وآله، على ما كانوا عليه وبه عاملين من عبادة النار والحجارة والأصنام والأنداد، وأكل الربا، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، وقتل الأطفال وسفك الدم الحرام، والقول أن الله ثالث ثلاثة، وأن له ولداً وصاحبة، وأنه بخيل وأن يده مغلولة، وما أشبه هذا القول من الفواحش، أمرهم محمد صلى الله عليه وآله، بلزوم ذلك وحثهم على العمل به والإجتهاد فيه، وأمر أيضاً من وجده يعبد الله وحده، ويقول إنه ليس معه شريك ولا له شبيه ويسجد له من دون المعبودات كلها، ويحرم الزنا، والربا، وأكل مال اليتيم، وقتل الطفل، ويأمر بخلع المعبودات كلها من دون الله، أمرهم بلزوم ما هم عليه وحثهم على أدائه، لم يغير على أحد من العالمين شيئاً ولم «ينههم»[1] عن شيء ولم يأمرهم بشيء غير الاجتهاد «فيما»[2] هم فيه؟ فقد «صدق»[3] من زعم أن جميع الأشياء من الله وله رضا وقضاء وأمر ومشيئة، وإن كان، صلى الله عليه وآله، نهى عن شيء مما ذكرنا من العملين وميز بين المنزلتين، وسمى أحدهما طاعة ووعد من عمل بها الجنة، وسمى المنزلة الأخرى

---

(١) في الاصل مشطوب عليها، والسياق يتطلبها

(٢) في الاصل : فيها   (٣) في الاصل: فصدق

معصية وتوعد من عمل بها النار، فقد كذب من زعم أن كل شيء مراد الله و«قضاؤه»[1]، فان أحبوا فيكذبوا أنفسهم للزوم الحجة لهم، وأن أحبوا أن يقولوا أن محمداً، صلى الله عليه وآله، عاصٍ متعدٍ عليه، ناهٍ عن قضائه وأمره، وأن الله تبارك وتعالى لم يأمرهم بتحريم شيء مما حرم، وأن جميع ما حرم أحل منه بالتكليف منه لا من الله، نقض من قال هذا كتاب الله، عز وجل، إذ يقول له، صلى الله عليه وآله: ﴿ **قل إنما أتبع ما يوحي إليّ من ربي** ﴾[2]، وهذه الصفة والقول لا يجوزان في محمد، صلى الله عليه وآله، ولا له.

ومن الحجة عليهم أن يقال لهم: أخبرونا عن محمد، صلى الله عليه وآله، أكان عندكم رؤوفاً رحيماً حريصاً على العباد شفيقاً مريداً لهم أن يطيعوا الله ولا يعصوه؟.. وعن قول الله سبحانه فيه: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾[3] أكان كذلك أم كان عندكم على غير هذه الصفة من قلة الرأفة والرحمة والحرص؟. فلن يجدوا بداً من أن يقولوا: كان، صلى الله عليه وآله، رؤوفاً رحيماً، كما وصفه الله، فحينئذ يقال لهم: فأين الرأفة والرحمة ممن يأمر العباد بترك طاعة الله والخروج عن مشيئته ومراده والرد لقضائه وأمره، وكيف يكون عندكم حال من نهى عما ذكرنا وحال من أطاعه في ترك ما ذكرنا مما هو لله مشيئة ومراد؟ وأين الرأفة والرحمة ممن يأمر العباد بما لهم فيه الهلاك والغضب عند الله؟ هذا قول ينقض القرآن ويفسده، وهو حجة الله العظمى على عباده، وفيه تحريم ما حرم وتحليل ما أحل، فإذا كان المؤدى له، في قولكم، وعلى مذهبكم ينهى عن طاعة الله ومشيئته، فكيف السبيل عندكم أن يوثق به فيما أدى إلينا من تحليل وتحريم، إذ كان ينهي عن قضائه ومراده، فقد احتمل إن كان يفعل ذلك بلسانه أن يفعله ومثله في الكتاب الذي أداه فيحلل الحرام

---

(١) في الاصل: قضا

(٢) الأعراف: ٢٠٣ وهي مذكورة في ب خطأ هكذا: (وما أنا من المتكلمين أن أتبع)، وما يشبه هذه الاية نجده في سور: الانعام: ٥٠ ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك أن اتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ ويونس: ١٥ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون ما يوحى إليّ أني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ والاحقاف: ٩ ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين﴾.

(٣) التوبة: ١٢٨.

ويحرم الحلال. تعالى الله عما أسند إليه أهل هذه المقالة الحمقاء من التقلب بعباده والعبث بخلقه، وجل شأن محمد عليه السلام، أن يكون فيه شيء من هذه الصفة أو يكون على شيء مما يكره الله، سبحانه. بل لم يزل، صلوات الله عليه، ناهياً عن نهي الله داعياً إلى أمر الله، مستقلاً في ذلك كله بعداوة الآدميين والناس أجمعين، باذلاً لنفسه داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى قبضه الله إليه، وقد غفر ذنبه وشكر فعله، صلوات الله عليه وعلى آله.

فميز، يا بني، القولين، وفكر فيما بين المنزلتين، تصح لك الحجة ويَبِنْ لك الحق، لأن الحق غير خفي على ذي مِرَّة استوى.

نسأل الله التوفيق والتسديد، ونعوذ به مما أسند إليه المبطلون وقال به فيه الجاهلون، فكل من قال على الله، سبحانه، شيئاً مما ذكرنا، وأسند إليه، سبحانه، ما حكينا من قول أهل الضلالة والردى والحيرة والعمى، فما عرف الله العلي الأعلى في شيء من أيام الدنيا، وهو عند الله من أجهل الجاهلين وأكفر الكافرين وأضل الضالين، لأنه قد نسبه، سبحانه، إلى أقبح صفات المخلوقين المستهزئين العيابين المنهكين لعباد الله، الحاكمين فيهم بغير حكم الله، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

تم الكتاب والحمد لله رب الأرباب، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله الطيبين، وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

كتاب

فيه معرفة الله من العدل
والتوحيد وتصديق الوعد والوعيد
وإثبات النبوة والإمامة
في النبي وآله

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد:

قال الامام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ابن رسول الله، صلوات الله عليه وآبائه الطاهرين وسلامه:

أول ما يجب على العبد أن يعلم أن الله واحد أحد، صمد فرد، ليس له شبيه ولا نظير ولا عديل، ولا تدركه الأبصار في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك أن ما وقع عليه البصر فمحدود ضعيف محوى محاط به، له كل وبعض، وفوق وتحت، ويمين وشمال، وأمام وخلف، وأن الله «سبحانه»[1] لا يوصف بشيء من ذلك، وهكذا قال، لا شريك له: ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾[2]، وقال: ﴿ **قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[3]، والكفو «هو»[4] المِثْل والنظير والشبيه، والله سبحانه، ليس كمثله شيء. وقال: ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾[5]، «وقال»[6]: ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[7]، وقال: ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا** ﴾[8]، وقال: ﴿ **وما كنا غائبين** ﴾[9]، يعني في جميع ذلك أن علمه محيطبهم، لا أنه داخل في شيء من الأشياء كدخول الشيء في الشيء، ولا خارج من الأشياء بائن عنها، «فيغيب»[10] عليه شيء من أمورهم، بل هو العالم بنفسه، وأنه، عز وجل، شيء

---

(١) غير موجودة في أ
(٢) الأنعام: ١٠٣
(٣) الاخلاص: ١ - ٤
(٤) في أ، ب: فهو
(٥) الحديد: ٤
(٦) غير موجودة في أ
(٧) ق: ١٦
(٨) المجادلة: ٧
(٩) الاعراف: ٧
(١٠) في أ: فبغبي، وفي ب: معاً

لا كالأشياء، إذ الأشياء من خلقه وصنعه، وقال، عز وجل: ﴿ **قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله** ﴾[1]، فذكر سبحانه أنه شيء، لاثبات الوجود، ونفي العدم، والعدم لا شيء.

العدل

ثم يَعْلَم[2] أنه عز وجل عدل في جميع أفعاله، ناظر[3] لخلقه، رحيم بعباده، لا يكلفهم ما لا يطيقون ولا يسألهم ما لا يجدون، و﴿ **لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾[4]، وأنه لم يحلق الكفر ولا الجور ولا الظلم، ولا يأمر بها، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يظلم العباد، ولا يأمر بالفحشاء، وذلك أنه من فعل شيئاً من ذلك أو أراده أو رضي به فليس بحكيم ولا رحيم، وأن الله لرؤوف رحيم، جواد كريم، متفضل، وأنه لم يحل بينهم وبين الايمان، بل أمرهم بالطاعة ونهاهم عن المعصية، وأبان لهم طريق الطاعة والمعصية، وهداهم النجدين، ومكنهم من العملين، ثم قال: ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾[5]، وقال: ﴿ **فما لهم لا يؤمنون** ﴾[6]، وقال: ﴿ **وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر** ﴾[7]، «أو»[8] يأمرهم بالكفر ثم يقول: ﴿ **وكيف تكفرون** ﴾[9]، أو يصرفهم عن الايمان «ثم يقول»[10]: ﴿ **فأنّى تصرفون** ﴾[11]، أو يقضي عليهم بقتل الأنبياء، صلى الله عليهم، ثم يقول: ﴿ **فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين** ﴾[12]

والله، عز وجل، بريء من أفعال العباد، وذلك قوله، تبارك وتعالى: ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي،**

---

(١) الانعام: ١٩.
(٢) أي العبد
(٣) أي لاطف بهم ناظر لهم
(٤) النساء ٤٠
(٥) الكهف: ٢٩
(٦) الانشقاق: ٢٠
(٧) النساء: ٣٩
(٨) في أ: و
(٩) آل عمران: ١٠١
(١٠) في ب: فيقول
(١١) يونس: ٣٢
(١٢) البقرة: ٩١

يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[١]، وقال، سبحانه: ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾[٢]، ثم قال: ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون** ﴾[٣]، فأكذبهم الله في قولهم، ونفى عن نفسه ما نسبوه إليه بظلمهم. وقال، سبحانه: ﴿ **وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون** ﴾[٤]، فذكر أنه خلقهم للعبادة لا للمعصية، وكذلك نسب إليهم فعلهم حيث يقول: ﴿ **وكل شيء فعلوه في الزبر** ﴾[٥] يقول: فعلوه، ولم يقل فعله، بل نسبه إليهم إذ هم فعلوه.

وقال، عز وجل، في فعله هو: ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾[٦]، يقول: هو خالق كل شيء يكون، ولم يقل أنه خلق فعلهم، بل قال: ﴿ **وتخلقون افكا** ﴾[٧]، يقول: تصنعون وتقولون افكا، كما قال: ﴿ **تتخذون منه سكَرا** ﴾[٨] يقول: أنتم تجعلونه، وتبين الكفر والايمان من الله، عز وجل، وفعلهما من الادميين، ولولا أنه عز وجل بيَّن لخلقه الكفر والايمان ما إذا عرفوا الحق والباطل ولا المعتدل من المائل، ولكن عرَّفَهم بذلك كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه، في بعض مواعظه: « خلقنا ولم نك شيئاً، وأخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، فغذانا بلطفه، وأحيانا برزقه، وأطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، ووضع عنا الأقلام، وأزال عنا الآثام، فلم يكلفنا معرفة الحلال والحرام حتى إذا أكمل لنا العقول، وسهل لنا السبيل نصب لنا العَلَم والدليل، من سماء رفعها، وأرض وضعها، وشمس أطلعها، ورتوق فتقها، وعجائب خلقها، فعرفنا الخير من الشر، والنفع من الضر، والحسن من القبيح، والفاسد من الصحيح، والكذب من الصدق، والباطل من الحق، أرسل إلينا الرسل، وأنزل علينا الكتب، وبين لنا الحلال والحرام، والحدود والأحكام، فلما وصلت دعوته إلينا وقامت حجته علينا،

---

(١) النحل: ٩٠
(٢) الاعراف: ٢٨
(٣) الانعام: ١٤٨
(٤) الذاريات: ٥٦
(٥) القمر: ٥٢
(٦) الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢
(٧) العنكبوت: ١٧
(٨) النحل ٦٧

أمرنا ونهانا، وأنذرنا وحذرنا، ووعدنا وأوعدنا، فجعل لأهل طاعته الثواب، وعلى أهل معصيته العقاب، جزاءً وافق أعمالهم، ونكالاً بسوء فعالهم، من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد.

وتصديق ذلك في كتاب الله، عز وجل، حيث يقول: ﴿ **وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾[1]، ﴿ **لقد جاءت رسل ربِّنا بالحق** ﴾[1]، وقال النبي، صلى الله عليه وعلى أهل بيته: «صنفان من أمتي لا تنالهم شفاعتي، قد لعنوا على لسان سبعين نبياً: القدرية والمرجئة. قيل: وما القدرية يا رسول الله؟ وما المرجئة؟.. فقال: أما القدرية فهم الذين يعملون المعاصي ويقولون إنها من الله، قضى بها وقدرها علينا. وأما المرجئة فهم الذين يقولون: الإيمان قول بلا عمل. ثم قال، صلى الله عليه وآله: «القدرية مجوس هذه الأمة».

الوعد والوعيد

ثم يجب عليه[2] أن يعلم أن وعده ووعيده حق، من أطاعه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار أبد الأبد، لا ما يقول الجاهلون من خروج المعذبين من العذاب المهين إلى دار المتقين ومحل المؤمنين، وفي ذلك ما يقول رب العالمين: ﴿ **خالدين فيها أبدا** ﴾[3]، ويقول: ﴿ **وما هم بخارجين منها** ﴾[4]، ففي كل ذلك يخبر أنه من دخل النار فهو مقيم فيها غير خارج منها، فنعوذ بالله من الجهل والعمى ونسأله العون والهدى فإنه ولي كل النعماء ودافع كل «الأسواء»[5].

الإيمان برسالة محمد

ثم يجب عليه أن يعلم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، عبد الله ورسوله، وخيرته من خلقه، وصفوته من جميع بريته، خاتم النبيين، لا نبي بعده،

---

(١) الاعراف: ٤٣ — (٢) أي المؤمن

(٣) النساء: ٥٧، ١٢٢، المائدة: ١١٩، والتوبة: ٢٢، ١٠٠، والاحزاب: ٦٥، والتغابن: ٩، والطلاق: ١١ والجن: ٢٣، والبينة: ٨

(٤) المائدة: ٣٧. — (٥) في ب: الاسوى. والاسواء: القبيح من الاشياء

و«أنه»[1] قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ثم قبضه الله إليه حميداً مغفوراً. فصلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين وسلم.

إمامة علي

ثم يجب عليه أن يعلم أن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب أمير المؤمنين وسيد المسلمين ووصي رب العالمين ووزيره، وقاضي دينه، وأحق الناس بمقام رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، وأفضل الخلق بعده، وأعلمهم بما جاء به محمد، وأقومهم بأمر الله في خلقه، وفيه ما يقول الله، تبارك وتعالى: ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾[2]، فكان مؤتي الزكاة وهو راكع علي بن أبي طالب دون جميع المسلمين، وفيه يقول الله سبحانه: ﴿ **والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم** ﴾[3]، فكان السابق إلى ربه، غير مسبوق، وفيه يقول الله، عز وجل: ﴿ **أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يَهِدِّي إلا أن يُهْدَى فما لكم كيف تحكمون** ﴾[4] فكان الهادي إلى الحق، غير مهدي، والداعي إلى الصراط السوي، والسالك طريق الرسول الزكي، ومن سبق إلى الله، وكان الهادي إلى غامض أحكام كتاب الله، فهو أحق بالإمامة، لأن أسبقهم أهداهم، وأهداهم أتقاهم، وأتقاهم خيرهم، وخيرهم بكل خير أولاهم. وما جاء له من الذكر الجميل في واضح التنزيل فكثير غير قليل.

وفيه أنزل الله على رسوله بعد بئر خم[5]: ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل**

---

(١) غير موجودة في أ

(٢) المائدة: ٥٥

(٣) الواقعة: ١٠

(٤) يونس: ٣٥

(٥) بئر ماء بين مكة والمدينة، ويؤرخون لذلك بعودة الرسول من حجة الوداع سنة ١٠ هـ ولقد اصبح هذا الحدث عيداً شيعياً بدأ الاحتفال به «معز الدولة بن بويه» بالعراق سنة ٣٥٢ هـ سنة ٩٦٣ م ثم احتفل به الفاطميون بمصر في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٦٢ هـ سنة ٩٧٢م. راجع المقريزي (الخطط) جـ ١. ص ٤٩٢. ط بولاق و(اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا) ص ١٤٢. تحقيق د. جمال الدين الشيال. ط القاهرة سنة ١٩٦٧ م.

إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رسالته، والله يعصمك من الناس ﴾[1]، فوقف، صلى الله عليه وعلى أهل بيته، وقطع سيره، ولم يستجز أن يتقدم خطوة حتى ينفذ ما عزم عليه في علي، فنزل تحت الدوحة مكانه وجمع الناس، ثم قال: « أيها الناس. . . ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. فقال: اللهم اشهد، ثم قال: اللهم اشهد، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله ». والناس كلهم مجتمعون يسمعون كلام رسول الله، صلى الله عليه وآله، وهو رافع بيد علي حتى أبصر بياض «ابطيهما»[2] وهو ينادي بهذا القول.

وفيه يقول صلى الله عليه وعلى آله: « عليٌّ مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي »، ويقول: «عليٌّ مع الحق، والحق معه »، ويقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها » وقال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما »، وقال: « أنت أخي يا علي في الدنيا والاخرة »، وقال: «عليٌّ أقضى الخلق وأعلمهم».

* * *

ثم يجب عليه أن يعلم أن الحسن والحسين إبنا رسول الله صلى الله عليه وآله، وحبيباه، وأنهما إماماً عدل، واجبة طاعتهما، مفترضة ولايتهما، وفيهما وفي جدهما وأبيهما وأمهما يقول الله، تبارك وتعالى: **﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ﴾**[3] إلى قوله **﴿ فمن شاء ﴾**[4]، وفيهما ما يقول رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله: « كل بنى أنثى ينتمون إلى أبيهم إلا ابني فاطمة فأنا أبوهما وعصبتهما ». فهما ابناه وولداه بفرض الله وحكمه، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه في ابراهيم الخليل صلى الله عليه: **﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب**

---

(١) المائدة: ٦٧

(٢) في ا: اباطهما، وفي ب: باطهما.

(٣) الانسان: ٥

(٤) الانسان: ٢٩. أي أن المؤلف يريد القول بأن الايات من ٥ حتى ٢٩ من هذه السورة إنما هي شاهد على ما يقول.

ويوسف وموسى وهارون، وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ﴾[1]، فذكر أن عيسى من ذرية إبراهيم كما موسى وهارون من ذريته، وإنما جعله ولده وذريته بولادة مريم، وكان سواء عنده في معنى الولادة والقرابة: ولادة الابن وولادة البنت، إذ قد أجرى عيسى وموسى مجرى واحداً من إبراهيم، صلى الله عليهم.

وفيهما وفي أبيهما وأمهما ما يقول الله تبارك وتعالى لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله، إذ أمره بالمباهلة[2] للنصارى، فقال له: **﴿ قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾**[3]، فحضر، صلى الله عليه وآله، بعلي وفاطمة والحسن والحسين، صلى الله عليهم أجمعين.

* * *

ثم يجب أن يعلم أن الإمامة لا تجوز إلا في ولد الحسن والحسين، بتفضيل الله لهما، وجعله ذلك فيهما، وفي ذريتهما، حيث يقول، تبارك وتعالى: **﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال إني جاعلك للناس إماماً (قال ومن ذريتي، قال لا ينهال عهدي الظالمين)**[4]**﴾**[5]، فكانت النبوة والإمامة والوصية والملك في ولد ابراهيم، صلى الله عليه، إلى أن بعث الله محمداً، صلى الله عليه وعلى آله، فأفضت النبوة إليه، وختم الله الأنبياء به، وجعله خاتم النبيين وسيد المرسلين، وقال: **﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾**[6]، وقال: **﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبة ﴾**[7] وقال: **﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾**[8] وقال موسى، صلى الله عليه، لقومه: **﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء**

---

(١) الانعام: ٨٤
(٢) المباهلة: هي الملاعنة
(٣) آل عمران: ٦١
(٤) غير موجودة في أ
(٥) البقرة: ١٢٤
(٦) هود: ٧٣
(٧) الزخرف: ٢٨
(٨) النساء: ٥٤

وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾[1] وقال: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيباب وفضلناهم على العالمين ﴾[2]، وقال: ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾[3]، فكانت النبوة في ابراهيم، ثم أفضت الى إسماعيل، ثم إلى إسحق، ثم إلى ابنه يعقوب، ثم إلى ابنه يوسف، ثم في بني إسرائيل، وهو يعقوب، الأول فالأول، حتى كان آخرهم عيسى، صلى الله عليهم أجمعين، ثم حول الله النبوة إلى محمد خاتم النبيين، فقال، سبحانه: ﴿ محمد رسول الله ﴾[4]، ثم قال: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[5]، وقال النبي، صلى الله عليه وعلى آله: « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »[6] وقال الله سبحانه: ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[7]، فبين الأمر سبحانه فيهم، وأوضحه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً، ومحمد من ولد اسماعيل بن ابراهيم، وكذلك ذريته.

ثم قال سبحانه، ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾، فورثة الكتاب: محمد، وعلي، والحسن، والحسين، ومن أولدوه من الأخيار. ثم قال في ولدهم: ﴿ فمنهم ظالم نفسه ﴾[8]، ففيهم إذ كانوا بشراً ما في الناس، وقال: ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾[9]، كما قال في ولد إبراهيم وإسحق، صلى الله عليهما: ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾[10]، وكان فيما بيَّن الله، عز وجل، لخليله إبراهيم، صلى الله عليه، إذ قال إبراهيم:

---

(١) المائدة: ٢٠
(٢) الجاثية: ١٦
(٣) آل عمران: ٣٤
(٤) الفتح: ٢٩
(٥) الحشر ٧٠.
(٦) وهذه الرواية مقصورة على المتشيعين لاهل البيت، أما جمهور السنة فيروون الحديث هكذا: «أني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي».
(٧) الاحزاب: ٣٣
(٨) فاطر: ٣٢
(٩) هود ١١٣
(١٠) الصافات: ١١٣

﴿ومن ذريتي﴾ فقال له ربه: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾، ثم قال: ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾[1]، وقال: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[2] و﴿الظالمون﴾[3] و﴿الفاسقون ﴾[4].

وأن الامام[5] من بعد الحسن والحسين من ذريتهما من سار بسيرتهما وكان مثلهما واحتذى بحذوهما، فكان ورعاً تقياً صحيحاً نقياً، وفي أمر الله، سبحانه، مجاهداً، وفي حطام الدنيا زاهداً، وكان فَهِماً لما يحتاج إليه، عالماً بتفسير ما يرد عليه، شجاعاً كمياً[6]، بذولاً سخياً، رؤوفاً بالرعية متعطفاً محسناً حليماً، مساوياً لهم بنفسه، مشاوراً لهم في أمره غير مستأثر عليهم، ولا حاكم بغير الله فيهم، قائماً شاهراً لنفسه، رافعاً لرايته، مجتهداً، مفرقاً للدعاة في البلاد، غير مقصر في تأليف العباد، مخيفاً للظالمين، مُؤَمِّناً، لا يأمن الفاسقين، ولا يأمنونه، بل يطلبهم ويطلبونه، قد باينهم وباينوه، وناصبهم وناصبوه، فهم له خائفون وعلى إهلاكه جاهدون، يبغيهم الغوائل،ويدعو إلى جهادهم القبائل، متشرداً عنهم، خائفاً منهم، لا يردعه عن أمور الله، ولا يمنعه عن الإجتهاد عليهم كثرة الأرجاف، شمري[7] مشمر، مجتهد غير مقصر.

فمن كان كذلك من ذرية الحسن والحسين فهو الإمام المفترضة طاعته، الواجبة على الأمة نصرته، مثل من قام من ذريتهما من الأئمة الطاهرين الصابرين لله المحتسبين، مثل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه[8] إمام المتقين، والقائم بحجة رب العالمين، ومثل ابنه يحيى،

---

(١) هود: ١٨
(٢) المائدة: ٤٤
(٣) المائدة: ٤٥
(٤) المائدة: ٤٧

(٥) من هنا حتى قوله «ثمانية أصناف أو ثمانية آلاف أو ثمانية أنفس».. قبل عنوان (خطايا الانبياء) بقليل. صفحات سقطت من النسخة أ. واعتمدنا فيها على النسخة ب فقط، وأعطيناها ترقيمها، ويقع هذا الموضع من النسخة ب باللوحة ١٤٢.

(٦) الكمي، هو الشجاع المتحصن بالدروع والادوات الساترة لجسمه والحامية له من سهام الاعداء.

(٧) هو المجد في عمله المجرب، الماضي في الامور، ومثله المشمر.

(٨) وكان خروجه على هشام بن عبد الملك الاموي، ولقد استشهد في نفس العام الذي خرج فيه، وهناك خلاف في تاريخ هذا الحدث هل هو سنة ١٢٠ هـ أم سنة ١٢٢ هـ؟ راجع (المقصد الحسن والمسلك =

المحتذي بفعله، ومثل محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بـن علي بن أبي طالب، الذي جاء فيه الخبر عن رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، أنه خرج ذات يوم إلى باب المدينة، فوقف في موضع ومعه جماعة من أصحابه، فقال لهم: « ألا أنه سيقتل في هذا الموضع رجل من ولدي، اسمه كاسمي، واسم أبيه كاسم أبي، يسيل دمه من هاهنا إلى أحجار الزيت، وهو النفس الزكية، على قاتله ثلث عذاب أهل النار »[1].

ومثل إخوته ابراهيم[2] ويحيى[3] ابني عبد الله، ومثل الحسين ابن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو صاحب فخ[4]، ومثل محمد[5]، والقاسم[6] ابني إبراهيم بـن إسمـاعيـل بن إبراهيم بـن الحسن بـن الحسن بن علي بن أبي طالب، فمن كان كذلك من ذرية الحسن والحسين فهـو إمام لجميع المسلمين، لا يسعهم عصيانه، ولا يحل لهـم خذلانـه، بل يجـب عليهم موالاته وطاعته، ويعذب الله من خذلـه، ويثيب من نصـره، ويتولـى من تولاه، ويعادي من عاداه.

ومما روى الحسين بن علي بن أبي طالب، عليهم السلام، قال: أخبرنـي

= الواضح السنن) مخطوط مصور، دار الكتب المصرية (٢٩١٣٧ ب) اللوحات ١٧٨، ١٧٩. لأحمد بن يحيى بن حابس الصعدي اليماني.

(١) وكان خروج النفس الزكية بالمدينة صد بني العباس، طالباً الخلافة لنفسه، كما كان مقتله في ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ، وكانت قيادة الجيش العباسي بيد عيسى بن موسى.

(٢) وكان خروجه بالبصرة في نفس السنة التي خرج فيها النفس الزكية (سنة ١٤٥ هـ) ولقد قاتل العباسيين الذين قاد جيشهم عيسى بن موسى، وقتل إبراهيم في «باخمري» في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ.

(٣) وهو الذي قاتل العباسيين أيام الهادي، وأيام الرشيد، ثم أعطى له الرشيد أماناً، فجاء بغـداد، ثم حبسه الرشيد لدى جعفر البرمكي، الذي أطلق سراحه مما أعصب عليه الرشيد، وهناك خلاف في موته هل مات في حبسه؟ أم قتل عند سندي بن شاهك، مولى المنصور، الذي خدم الرشيد والمامون.

(٤) وفخ واد بمكة قد دفن فيه عدد من الصحابة منهم عبد الله بن عمر، وكان خـروج الحسين هذا ومقتله به سنة ١٦٩ هـ زمن الهادي العباسي، وكان قائد جيش الهادي في هذه الموقعة محمد بن سليمان.

(٥) هو محمد بن طباطبا (٧٣ - ١٩٩ هـ) أحد أئمة الزيدية.

(٦) هو الامام القاسم الرسي، جد الإمام يحيى بن الحسين. راجع المقريزي (اتعاظ الحنما باخبار الائمة الفاطميين الخلما) ص ٧ - ١٣.

أبي، قال: قال جدي رسول الله، صلى الله عليه وآله، قال: «إنه سيخرج منا رجل يقال له زيد، فينتهب ملك السلطان، فيقتل، ثم يصعد بروحه إلى السماء الدنيا، فيقول له النبيون جزى الله نبيك عنا أفضل الجزاء كما شهد لنا بالبلاغ، وأقول أنا: أقررت عيني يا بني وأديت عني، ثم يذهب بروحه من سماء إلى سماء حتى ينتهى به إلى الله، عز وجل، ويجيء أصحابه يوم القيامة يتخللون أعناق الناس بأيديهم أمثال الطوامير[1] فيقال: هؤلاء خلف الخلف ودعاة الحق إلى رب العالمين».

وفيه، عن محمد بن الحنفية[2] أنه قال: سيصلب منا رجل يقال له زيد بن علي في هذا الموضع، يعني موضعاً بالكوفة يقال له الكنايش، لم يسبقه الأولون ولا الآخرون فضلاً.

وفيه عن محمد بن علي بن الحسين باقر العلم[3]، أن قوماً وفدوا إليه فقالوا: يا بن رسول الله إن أخاك زيداً فينا، وهو يسألنا البيعة، فنبايعه؟ فقال لهم محمد: بايعوه، فأنه اليوم أفضلنا. وعنه أيضاً أنه اجتمع زيد ومحمد في مجلس، فتحدثوا، ثم قام زيد، فمضى، فأتبعه محمد بصره، ثم قال: لقد أنجبت أمك يا زيد.

وفيه ما قال جعفر بن محمد الصادق، رحمة الله عليه[4]، لما أراد زيد الخروج إلى الكوفة من المدينة، قال له جعفر: أنا معك يا عم، فقال له زيد: أو ما علمت يا ابن أخي أن قائمنا لقاعدنا وقاعدنا لقائمنا، فإذا خرجت أنا وأنت فمن يخلفنا في حرمنا، فتخلف جعفر بأمر عمه زيد.

وعن جعفر، أيضاً، لما أراد يحيى بن زيد اللحوق إلى أبيه، قال له ابن عمه جعفر أقرئه عني السلام وقل له: فإني أسأل الله أن ينصرك ويبقيك ولا يرينا فيك

---

(١) الصحائف، ومفردها طامور وطومار.

(٢) هو إمام الفرقة الكيسانية من فرق الشيعة، وفي تاريخ وفاته خلاف بين سنوات ٨١، ٨٣، ٧٢ و٧٣ هـ وفي محل وفاته خلاف كذلك بين المدينة، والطائف، وأيلة. راجع اتعاظ الحنفا للمقريزي. ص ٦.

(٣) هو أحد أئمة الشيعة الاثني العشر، وكان عالماً كبيراً، سمي بالباقر لعلمه العزير، إذ معنى: تبقرفي العلم: توسع فيه. ولد بالمدينة في ٣ صفر سنة ٥٧ هـ ومات بالحميمة، ودفن بالمدينة وهناك خلاف في تاريخ وفاته بين سنوات ١١٣ و١١٤و١١٧و١١٨ هـ. راجع اتعاظ الحنفا للمقريزي. ص ١٤.

(٤) هو أحد أئمة الشيعة الاثني عشر (+)، ومن كبار علمائهم، توفي بالمدينة سنة ١٤٨ هـ وفي تاريخ ميلاده خلاف بين سنتي ٨٠ و٨٣ هـ. راجع المصدر السابق. ص ١٤

مكروهاً، وإن كنت أزعم أني عليك إمام فأنا مشرك. وعنه، أيضاً، لما جاءه خبر قتل أبي قرة الصقيل بين يدي زيد بن علي، تلا هذه الاية: ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله** ﴾[1]، رحم الله أبا قرة وعنه، أيضاً، لما جاءه خبر قتل حمزة بين يدي زيد بن علي تلا هذه الاية: ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾[2]، وعنه لما جاءه خبر قتل عمه زيد وأصحابه، قال: ذهب والله زيد بن علي كما ذهب علي بن أبي طالب والحسن والحسين وأصحابهم شهيداً إلى الجنة التابع لهم مؤمن، والشاك فيهم[3] والراد عليهم كافر.

وإنما فَرَّق بين زيد وجعفر قوم كانوا بايعوا زيد بن علي، فلما بلغهم أن سلطان الكوفة يطلب من بايع زيداً ويعاقبهم، خافوا على أنفسهم، فخرجوا من بيعة زيد ورفضوه مخافة من هذا السلطان، ثم لم يدروا بم يحتجون على من لامهم وعاب عليهم فعلهم، فقالوا بالوصية حينئذ، فقالوا: كانت الوصية من علي بن الحسين إلى ابنه محمد، ومن محمد إلى جعفر، ليوهموا به على الناس، فضلوا وأضلوا كثيراً عن سواء السبيل، ابتغوا أهواء أنفسهم، وآثروا الدنيا على الاخرة، وتبعهم على قولهم هذا من أحب البقاء وكره الجهاد في سبيل الله.

ثم جاء قوم من بعد أولئك فوجدوا كلاماً مرسوماً في كتب ودفاتر، فأخذوا بذلك على غير تمييز ولا برهان، بل كابروا عقولهم، ونسبوا فعلهم هذا إلى الأخيار منهم، من ولد الرسول، عليهم السلام، كما نسبت الحشوية ماروت من أباطيلها وزور أقاويلها إلى رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ليثبت لهم باطلهم على من اتخذوه مأكلة لهم، وجعلوهم خدماً وخولاً، كما قال الله، عز وجل في أشباههم: ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه. ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولون على الله إلا الحق ودرسوا فيه** ﴾[4]، وكذلك هؤلاء الذين رفضوا زيد بن

(١) النساء: ١٠٠

(٢) الاحزاب: ٢٣

(٣) في الاصل هنا كلمة: فقاب

(٤) الاعراف: ١٦٨

علي وتركوه، ثم لم يرضوا بما أتوا من الكبائر، حتى نسبوا ذلك إلى المصطفين من آل الرسول.

فلما كان فعلهم على ما ذكرنا، سماهم حينئذ زيد روافض[1] ورفع يديه فقال: اللهم اجعل لعنتك ولعنة آبائي وأجدادي ولعنتي على هؤلاء الذين رفضوني، وخرجوا من بيعتي، كما رفض أهل حروری[2] علي ابن أبي طالب، عليه السلام، حتى حاربوه.

فهذا كان خبر من رفض زيد بن علي وخروج من بيعته.

وروي عن رسول الله، صلى الله عليه وآله، أنه قال لعلي بن أبي طالب: « يا علي، أنه سيخرج قوم في آخر الزمان، لهم نَبْز يعرفون به، يقال لهم الرافضة، فإن أدركتهم فاقتلهم فإنهم مشركون». فهم لعمري شر الخلق والخليقة.

* * *

وأما الوصية، فكل من قال بإمامة أمير المؤمنين ووصيته فهو يقول بالوصية، على أن الله، عز وجل، أوصى بخلقه على لسان النبي إلى علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وإلى الأخيار من ذرية الحسن والحسين، أولهم علي بن الحسين، وآخرهم المهدي، ثم الأئمة فيما بينهما، وذلك أن تثبيت الإمامة عند أهل الحق في هؤلاء الأئمة من الله عز وجل على لسان رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، فمن ثبت الله فيه الإمامة واختاره واصطفاه، وبين فيه صفات الإمام، فهو إمام عندهم، مستوجب للإمامة، لقول النبي، صلى الله عليه، وعلى آله، إذ يقول: « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر من ذريتي فهو خليفة الله في أرضه وخليفة كتابه وخليفة رسوله ». قال: « من ذريتي »، فولد الحسن والحسين من ذرية النبي، صلى الله عليه وآله. ثم قال: « عليكم بأهل بيتي، فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى، ولن

---

(١) وهذا هو أحد التفسيرات لتسمية « رافضة» وهناك من يرجع أصل هذه التسمية إلى « رفض» هذه الفرقة من فرق الشيعة الإعتراف بصحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان بن عفان، وتقدمهم في هذا الامر على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

(٢) المراد الخوارج الذين رفضوا التحكيم وقاتلوا علي بن ابي طالب.

يدخلوكم في باب ردى »، وقال: « مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى»، وقال: « النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهبت النجوم من السماء أتى أهل السماء ما يوعدون، وإذا ذهب أهل بيتي من الأرض أتى أهل الأرض ما يوعدون »، يعني في جميع ذلك: الصالحين من ولده، وقال صلى الله عليه وعلى أهل بيته: « من سمع داعيتنا أهل البيت فلم ينصره لم يقبل الله له توبة حتى تلفحه جهنم »، ثم قال: « من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية ».

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والله عز وجل قد جعل الأمر والنهي في خيار آل محمد عليه وعلى آله السلام، (ووراه)[1] عن ظالميهم وظالمي غيرهم ومكن أهل الحق منهم وأجازه لهم، وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[2]، ثم قال: ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾[3]، وقال سبحانه لرسله: ﴿ **وأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾[4]، وقوله لإبراهيم، صلى الله عليه: ﴿ **لا ينال عهدي الظالمين** ﴾[5]، وعلى هذا النحو قال، تبارك وتعالى: ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء** ﴾[6]، يعني الأنبياء ومن تبعهم من الأئمة الصادقين، كقوله: ﴿ **اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[7]، وكقول ابراهيم، عليه السلام: ﴿ **ومن تبعني فإنه مني** ﴾[8]، ثم قال: ﴿ **وتنزع**

---

(١) هكذا في الاصل، والمراد منعه
(٢) الحج: ٤١.
(٣) النور: ٥٥
(٤) ابراهيم: ١٤
(٥) البقرة: ١٢٤
(٦) آل عمران: ٢٦
(٧) التوبة: ١١٩
(٨) ابراهيم: ٣٦

الملك ممن تشاء ﴾[1]، فقد نزع الملك من الفراعنة والجبابرة، وإنما الملك هو الأمر والنهي، لا المال والسعة والجدَة، كما قال، عز وجل، عندما قالوا: ﴿ **أنّى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال، قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾**[2]، فقد بين، عز وجل، في هذه الآية، أن الملك هو الأمر والنهي، لا سعة المال، ثم قال: ﴿ **وتعز من تشاء ﴾**[3]، فقد أعز الأنبياء ومن تبعهم من الأئمة الصادقين وأوليائهم الصالحين، وذلك قوله، سبحانه: ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾**[4]، والمؤمن لا يملك من متاع الدنيا شيئا، فسماه الله عزيزاً، إذ فعله ذلك يوصله إلى دار العز أبد الأبد، ثم قال: ﴿ **وتذل من تشاء ﴾**[5]، فقد أذل الله الفراعنة ومن تبعهم من الظالمين، لأنهم معتدون غير محقين، فكل من كان في يده أمر ونهي وكان فعله مخالفاً للكتاب والسنة فهو فرعون من الفراعنة، وكل عالم متمرد فهو إبليس من الأبالسة، وكل من عصى الرحمن من سائر الناس فهو شيطان من الشياطين وذلك قوله: ﴿ **شياطين الانس والجن ﴾**[6]، ثم قال: ﴿ **من الجنة والناس ﴾**[7] والظالم وإن اتسع في هذه الدنيا من مال غيره وأكثر من مظالم الناس، ووقع عند الجاهل أنه عزيز، فهو عند الله، عز وجن، وعند أوليائه، ذليل، لأن فعله ذلك يورده إلى دار الذل أبد الأبد، كما قال الله، عز وجل: ﴿ **متاع قليل، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾**[8].

* * *

وقال النبي، صلى الله عليه وآله، في الأمراء الظالمين: « طعمة قليلة وندامة كثيرة ». وفعل هؤلاء الظالمين وأمرهم وسلطنتهم إنما تقوم بأعوانهم الذين يتبعونهم ويعينونهم على ظلمهم وإذا تفرق الأعوان منهم وأسلموهم لم تقم لهم دولة ولا

---

(١) آل عمران: ٢٦٦.
(٢) البقرة: ٢٤٧
(٣) آل عمران: ٢٦
(٤) المنافقون: ٨
(٥) آل عمران: ٢٦.
(٦) الانعام: ١١٢
(٧) الناس: ٦، اما آية السجدة: ١٣ فيها: ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾.
(٨) آل عمران: ١٩٧

تثبت لهم راية، فمتى كثرت جماعتهم تقووا بهم على باطلهم واستضعفوا المستضعفين من خلق الله، وأمهل لهم ربهم وتركهم ولم يُخَلِّ بينهم وبين من يظلمونهم، إذ كُلٌّ ظالم، القوي والمستضعف، وذلك قوله، عز وجل: ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون** ﴾[1]، وقال: ﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزا** ﴾[2]، ويقول: خلفناهم عليهم، كما قال: ﴿ **بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد** ﴾[3]، وكما قال النبي، صلى الله عليه وعلى آله: « لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم، حتى إذا بلغ الكتاب أجله كان الله المستنصر لنفسه، فيقول: ما منعكم إذ رأيتموني أُعْصَى أن لا تغضبوا لي ».

فمن هذه الجهة ترك الظالمين ولم يأخذهم، لأن الرعية في ظلمهم وتظالمهم فيما بينهم أصناف: فقوم يقولون على الله بالجبر والتشبيه وينفون عنه العدل والتوحيد وينسبون إليه، عز وجل؛ أفعال العباد، ويقولون إن هذا الظلم الذي نزل بهم بقضاء من الله وقدر، ولولا أن الله قضى عليهم بهذا الظلم الذي نزل بهم من هؤلاء الظالمين ما إذا قدر الظالم أن يظلمهم غير أن هذا الظلم مقدر عليهم عند الله على يدي هذا الظالم، فإذا كانت معرفتهم هذه المعرفة وكان معبودهم الذي يزعمون أنهم يعبدونه هذا فعله بهم، فمتى يصل هؤلاء إلى معرفة الخالق، ومتى يدعونه ويستعينون به على ظالمهم، إنما هم يدعون هذا الذي يزعمون أنه قضى عليهم بهذا الظلم وقدره، ولهذا يصلون وله يصومون ويحجون وبه في جميع ما ينزل بهم من الظلم والجور والمصائب في المال والولد والبدن، يستعينون به على دفع هذه المضار والبلوى التي نزلت بهم. فهم يعبدون صورة مصورة. وعلى هذا النحو أسلمهم ربهم وتركهم من التوفيق والسداد. وخذلهم ولم ينصرهم على ظالمهم. وكيف ينصرهم على ظالمهم وهو المقدر لهذا الظلم عليهم الذي نزل بهم؟ فهو الذي يدعونه، بزعمهم، اما أنهم لو أنصفوا عقولهم.

---

(١) الانعام: ١٢٩

(٢) مريم: ٨٣

(٣) الاسراء: ٥

وعرفوا الله عز وجل حق معرفته، ونفوا عنه ظلم عباده، كما نفاه، عز وجل، عن نفسه، ثم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ودعوا بهم حينئذ على ظالمهم إذا لاستجاب لهم دعوتهم وكشف ما بهم من الظلم والنور، وذلك قوله، عز وجل: **﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾**[1]، وقال: **﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾**[2]، **﴿ كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين﴾**[3]

---

(١) سافر: ٦٠.

(٢) الروم: ٤٧

(٣) يوسس: ١٠٣، والاية مدكورة في ب خحط هحدا: (وكان حقاً علينا).

الهدى

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

الهُدَى من الله، عز وجل، هديان: هدى مبتدأ، وهدى مكافأة، **فأما الهدى المبتدأ**: فقد هدى الله به البَرَّ والفاجر، وهو العقل والرسول والكتاب، فمن أنصف عقله وصدق رسوله وآمن بكتابه، وحلل حلاله وحرم حرامه، استوجب من الله الزيادة.

والهدى الثاني: جزاء على عمله ومكافأة على فعله، كما قال، عز وجل: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾**[1]، وقال: **﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾**[2].

ومن كابر عقله وكذب رسوله ورد كتابه، استوجب من الله الخذلان، وتركه من التوفيق والتسديد، وأضله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، وذلك قوله، تبارك وتعالى: **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾**[3] عنى الهدى الثاني، **﴿ومن يرد أن يضله﴾**[3] يقول: ومن يرد أن يوقع اسم الضلال عليه، بعد أن استوجب بفعله القبيح، **﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾**[4]، فقد بين، عز وجل، في آخر الاية أنه لم يضله ولم يضيق صدره إلا بعد عصيانه وكفره وضلاله، لأنه يقول: **﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾**[5] ولم يقل إنه يجعل الرجس على الذين آمنوا، ثم قال: **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على**

---

(١) محمد: ١٧.
(٢) مريم: ٧٦.
(٣) الانعام: ١٢٥.
(٤) الانعام: ١٢٥.
(٥) الانعام: ١٢٥.

علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾[1] كما اتخذ إلهه هواه أوقع عليه اسم الضلال وسماه به ودعاه بعد أن اتخذ إلهه هواه وختم على سمعه، وتركه من التوفيق والتسديد، وخذله ولم يؤيده ولم يسدده كما أيد وسدد الذي عبده، عز وجل، ثم قال: ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾[2] ثم قال: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾[3]، وقال: ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾[4]، ﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾[5]، ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾[6].

---

(١) الجاثية: ٢٣.
(٢) النحل: ٩٣، فاطر: ٨.
(٣) البقرة: ٢٦.
(٤) غافر: ٧٤.
(٥) غافر: ٣٤، والاية مذكورة في الاصل خطأ: (مسرف هكذا).
(٦) غافر: ٣٥.

الضلال

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

الضلال في كتاب الله، عز وجل، على وجوه، فوجه منها: قول الله، تبارك وتعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾[1]، يقول: إنهم ضلوا عن سواء السبيل، وهم النصارى.

والوجه الثاني: قوله، سبحانه: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾[2]، يقول عن شرائع النبوة فهداك الله.

وقال موسى: ﴿فَعَلْتُها إذا وأنا من الضالين﴾[3]، يقول: من الجاهلين بعاقبة فعلي، وقال أولاد يعقوب: ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾[4]، يقولون: جاهل عندما يؤثر يوسف علينا ونحن أنفع له من يوسف، صلى الله عليه.

والوجه الثالث: قوله: ﴿أن تضل إحداهما﴾[5]، أي تنسى إحداهما الشهادة، (فتُذَكِّر إحداهما الأخرى).

والوجه الرابع: قوله: ﴿أضل أعمالهم﴾[6]، يقول: أبطل أعمالهم.

والوجه الخامس: قوله سبحانه، في قصة فرعون والسامري، حيث يقول: ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾[7]، يقول: أغواهم وأرداهم ولم يرشدهم.

والوجه السادس: قوله، سبحانه: ﴿وأضله الله على علم﴾[8]، وقوله

---

(١) فاتحة الكتاب: ٥.
(٢) الضحى: ٧.
(٣) الشعراء: ٢٠.
(٤) يوسف: ٨.
(٥) البقرة: ٢٨٢.
(٦) محمد: ١، ٨.
(٧) طه: ٧٩.
(٨) الجاثية: ٢٣.

﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾[1]، و﴿يضل الله الظالمين﴾[2]، و﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾[3]، ونحو هذا في القرآن كثير. يعني في جميع ذلك، أنه يوقع عليه اسم الضلال ويدعوه به بعد العصيان والطغيان، لا أنه يغويهم عن الصراط المستقيم كما أغوى وأضل فرعون قومه، وإن أشبه اللفظ فمعناه متباين مفترق عند أهل العلم، إذ الله عز وجل، رحيم بعباده، ناظر لخلقه، وفرعون كافر لعين ملعون مُضِل غوي، وهو، عز وجل، قد عذب فرعون على فعله وضلاله وقبح سوء فعله بنفسه وقومه، وكيف يغوي خلقه ويضلهم ولا يرشدهم ثم يعذبهم على فعله، إذاً لكان لهم ظالماً وعليهم متعدياً، وهو مع ذلك يعيب على من فعل مثل هذا الفعل، إذ يقول، عز وجل: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾[4]، وبعث إليهم الرسول، وأنزل عليهم الكتاب، ثم قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة﴾[5]، فأمرهم أن يدخلوا كلهم في الإسلام والإيمان، فلو كان كما يقول الجاهلون إنه هدى قوماً وأضل قوماً ولم يهدهم، لم يكن لقوله: ﴿ادخلوا في السلم كافة﴾ معنى، إذ كان، عز وجل، بزعمهم، أدخل قوماً في الإسلام وحال بين قوم وبين الدخول في الإسلام، فما معنى قوله، لقوم داخلين في الإسلام: ادخلوا، وهم داخلون، كما لا نقول لقائم: قم، وكما لا نقول لجالس: اجلس. ويقول لقوم حال بينهم وبين الدخول في الإسلام ادخلوا، فكيف يقدرون على ذلك، وهو قد حال بينهم وبين الدخول في الإسلام، كما لم نقل لمُقْعَد: قم، ولا لأعمى: أبصر.

وهو، عز وجل، قد فرض الجهاد على جميع الناس، فقال ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾[6]، ثم قال لمن أعمى بصره ولم يعطه من القوة ما أعطى غيره: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾[7] فعذره في تخلفه عن الجهاد إذ لم يقدر على ذلك، وقال، سبحانه: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾[8] فلو كان، عز وجل، فعل لهم ما يقول

---

(١) النحل: ٩٣، فاطر: ٨.
(٢) ابراهيم: ٢٧.
(٣) غافر: ٣٤، والاية مذكورة في الاصل خطا هكذا: (مسرف كذاب).
(٤) النساء: ١١٢.
(٥) البقرة: ٢٠٨.
(٦) التوبة: ٤١.
(٧) النور: ٦١، الفتح: ١٧.
(٨) البقرة: ٢٨٦.

المبطلون، لكان من عصى وكفر وظلم وقتل أنبياءه وأولياءه وقال عليه بالزور والبهتان معذوراً عنده، سبحانه، ساعياً في قضائه وقدره، ولم يكن يوجد على الأرض عاص، إذ كان المطيع يسعى بقضاء الله وقدره، وكان العاصي كذلك يسعى ببعض قضائه وقدره، إذ يزعمون أنه خلق قوماً للجنة وخلق قوماً للنار. كذب العادلون[1] بالله وضلوا ضلالاً بعيداً وخسروا خسراً مبيناً.

---

(١) أي المشركون به.

العبادة

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:
تفسير العبادة على ثلاثة وجوه:

فوجه منها: قول الله، تبارك وتعالى: ﴿**يا بني آدم لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾[1]، يقول: لا تطيعوه، ﴿**وأن اعبدوني**﴾[1]، يقول: أطيعوني، وليس على وجه الأرض أحد يصلي للشيطان ولا يصوم له، بل كلهم يجمعون على لعنه، غير أنهم يعملون عمله ويسعون في مرضاته ويساعدونه على إرادته، فجعل الله، عز وجل، فعلهم ذلك للشيطان طاعة وعبادة، وذلك أن كل مطاع عنده، عز وجل، معبود. وكذلك قال رب العالمين، في قصة ابراهيم الخليل، صلى الله عليه، حيث يقول لأبيه: ﴿**لا تعبد الشيطان**﴾[2]، وقال فرعون، اللعين: ﴿**أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون**﴾[3]، يقول: مطيعون. وقال: ﴿**وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون**﴾[4] فكل من أطاع عدواً من أعداء الله وعاضده أو كاتفه فقد أشرك بعبادته غيره.

وقال، عز وجل: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾[5]، يعني: العابد والمعبود من الجن والانس، لا أنه يعني أنه يعبد المعبودات من الجماد، وذلك أن الجماد هو كما قال ابراهيم، صلى الله عليه وسلم، لأبيه: ﴿**لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً**﴾[6]، فضرر عبادة الصنم لا (يعدو)[7] صاحبه، وهو مأخوذ بفعله مُعَاقَب على

(١) يس: ٦٠.
(٢) مريم: ٤٤.
(٣) المؤمنون: ٤٧.
(٤) الانعام: ١٢١.
(٥) الانبياء: ٩٨.
(٦) مريم: ٤٢.
(٧) في الاصل: يعدوا.

عمله، وضرر عبادة شياطين الإنس والجن على عابده وعلى الإسلام والمسلمين، وذلك أن الصنم جماد، والجماد لا يفتق ولا يرتق، ولا يأمر ولا ينهي، وشيطان الإنس يأمر من تبعه وأطاعه بقتل المسلمين وهتك حرمتهم وأخذ أموالهم، ويأمرهم بالفسق والفجور والقول على الله بالزور والبهتان وبطاعة إبليس اللعين.

الإرادة

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

والإرادة من الله عز وجل، في خلقه، على معنيين:

إرادة حتم وجبر وقسر: وهي إرادة الله، عز وجل، في خلق السموات والأرض وما بينهما من الخلق، من الملائكة والجن والإنس والطير والدواب وغير ذلك، إرادة حتم وجبر، فجاء خَلْقُه كما أراد، لم يمتنع منه شيء ولم يغلبه شيء من الأشياء، كما قال، عز وجل: ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**﴾[1]، وقال: ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً، قالتا: أتينا طائعين**﴾[2]، يقول: كَوَّنهما فكانتا من غير مخاطبة ولا أمر، وذلك أن الله، عز وجل، لم يخاطب أحداً من خلقه إلا ذوي العقول من الملائكة والجن والإنس، وسائر خلقه حيوان لا عقول لها، وجماد لا روح فيه، وإنما خاطب الله، عز وجل، أهل العقول وأمرهم ونهاهم وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وبين لهم الحلال والحرام، فمن أطاعه وائتمر بأمره وانتهى عن نهيه استوجب من الله الحفظ والحياطة في دنياه الفانية والثواب الجزيل في آخرته الباقية، ومن عصاه منهم عذبه في الدنيا والآخرة. والذي لا عقل له من خلقه لا يجب له ثواب ولا عليه عقاب. ثم قال، عز وجل: ﴿**إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾[3]، يقول: إذا كوّنّاه كان بلا كلفة ولا اضطراب ولا تخيل ولا إضمار ولا تفكر، ولا تتقدم إرادته فعله ولا فعله إرادته، بل إرادته للشيء إيجاده وكونه، وإذا أراده فقد كونه، وإذا كونه فقد أراده، لا وقت بين إرادته للشيء وكونه.

والإرادة الثانية: من الله، عز وجل، إرادة تخيير وتحذير، معها تمكين

---

(١) الملك: ٣.

(٢) فصلت: ١١.

(٣) النحل: ٤٠.

وتفويض، أراد من خلقه الإيمان على هذا الوجه، لأنه لو أراد منهم الإيمان على نحو ما أراد خلقهم، ما إذا قَدَر واحد من خلقه على أن يخرج من الإيمان إلى الكفر كما لا يقدرون أن يتحولوا من صورهم إلى صور غيرهم من الخلق، ولكن ركب فيهم العقول، وأرسل إليهم الرسول، وهداهم النجدين، ومكنهم من العملين، ثم قال: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1]، وقال: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا﴾[2]، وقال: ﴿فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾[3]، فدل على أنه هداهم، واستحبوا هم العمى على الهدى، اختياراً من أنفسهم واستحباباً. ثم قال: ﴿اعملوا ما شئتم﴾[4]، لولا أن لهم مشيئة لم يقل: ﴿اعملوا ما شئتم﴾، ثم قال: ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾[5] لولا أن موسى، صلى الله عليه، علم أن للعالم فيما يريد مشيئة ما قال: ﴿لو شئت﴾، ثم قال: ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾[6]، قال: استحبوا هم لأنفسهم. ثم قال: ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾[7]، وقال: ﴿يحبهم ويحبونه﴾[8]، وقال: ﴿يريدون عَرض الدنيا﴾[9] ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾[10] ﴿يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾[11]. ثم قال سبحانه: ﴿سيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾[12]، فرد عليهم رب العالمين: ﴿يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾[13]، فبين، عز وجل، أنهم قادرون على الخروج مع الرسول، صلى الله عليه وآله، وفي هذا القرآن من هذا النحو كثير.

ثم قال الله، عز وجل: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾[14]، لولا أن محمداً، صلى الله «عليه»[15] وعلى آله، يقدر على أن يحب لم يقل له ربه: ﴿من أحببت﴾،

---

(١) الكهف: ٢٩.
(٢) الانسان: ٣.
(٣) فصلت: ١٧.
(٤) فصلت: ٤٠.
(٥) الكهف: ٧٧.
(٦) النحل: ١٠٧.
(٧) الحشر: ٩.
(٨) المائدة: ٥٤.
(٩) الأنفال: ٦٧.
(١٠) التوبة: ٣٢.
(١١) النساء: ٩١.
(١٢) التوبة: ٤٢، والاية في الاصل مذكورة خطأ: (يحلفون...).
(١٣) التوبة: ٤٢.
(١٤) القصص: ٥٦.
(١٥) غير موجودة في الأصل.

ثم قال: ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقال: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾[1]، وقال: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تُكْرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[2] وقال: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾[3]، وقال: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾[4]، وقال: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾[5] يعني، عز وجل، في هذه الآيات كلها وما أشبهها أنه سبحانه، لو شاء أن يجبرهم على الإيمان والهدى مشيئة حتم وجبر ويقسرهم عليه لأمكنه ذلك وما قدر واحد من خلقه أن يخرج مما حتم الله عليه وجبره وقسره، إذ كان محمد يعجز عن قسرهم على الإيمان، فقال له ربه: ﴿فإنما عليك البلاغ﴾[6]، فقد أبلغت وأديت ونصحت وعرفتهم بما ينفعهم ﴿فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾، فتريد أن تقتل نفسك ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾[7]، يقول: حزناً عليهم وشفقة، فذرهم ﴿ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾[8]، فقال: مما يمكرون، ولولا أنهم يقدرون على المكر والخديعة والمعصية ما قال: يمكرون.

ثم قال، في أهل الجنة: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾[9]، ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون﴾[10]، ثم قال، في أهل النار: ﴿اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾[11]، وقال: ﴿جزاء بما كانوا يجحدون﴾[12]، و﴿يصنعون﴾[13]، و﴿يمكرون﴾[14]، و﴿يستهزئون﴾[15]، و﴿يسخرون﴾[16]، و﴿يخدعون﴾[17]،

(1) السجدة: ١٣.
(2) يونس: ٩٩.
(3) هود: ١١٨.
(4) الانعام: ٣٥.
(5) الأنعام: ١٤٩.
(6) آل عمران: ٢٠، والرعد: ٢٤٠ والنحل: ٨٢.
(7) الكهف: ٦.
(8) النحل: ١٢٧.
(9) الأنعام: ١٨٢.
(10) الواقعة: ٢٢.
(11) الانعام: ٩٣.
(12) فصلت: ٢٨.
(13) المائدة: ١٤، ٦٣، والنحل: ١١٢، والنور: ٣٠، وفاطر: ٨.
(14) الانعام: ١٢٣، ١٢٤، ويوسف: ١٠٢، والنحل: ١٢٧، والنمل: ٧٠، وفاطر: ١٠.
(15) الانعام: ٥، ١٠، وهود: ٨، والحجرات: ١١، والنحل: ٣٤، والانبياء: ٤١، والشعراء: ٦، والروم: ١٠، ويس: ٣٠، والزمر: ٤٨، وغافر: ٨٣. والزخرف: ٧، والجاثية: ٣٣، والاحقاف: ٢٦.
(16) البقرة: ٢١٢، والصافات: ١٢.
(17) البقرة: ٩.

و﴿يفسقون﴾[1]، و﴿يكذبون﴾[2]، و﴿يقتلـون النبيين بغير حق﴾[3]، و﴿يقتلـون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعـذاب أليم﴾[4]، كل هذا اختيار من أنفسهم.

---

(١) البقرة: ٥٩، والانعام: ٤٩، والاعراف: ١٦٣، ١٦٥، والعنكبوت: ٣٤.

(٢) المطففين: ١١، والانشقاق: ٢٢.

(٣) البقرة: ٦١.

(٤) آل عمران: ٢١.

الإذن

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

الإذن في كتاب الله على وجهين:

علم، وأمر: قال الله، عز وجل: **﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾**[1]، يقول: بعلم الله، ويقول: **﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾**[2]، يقول: بعلم الله. وقال: **﴿فقل أذنتكم على سواء﴾**[3]، يقول: أعلمتكم، وقال: **﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾**[4]، يقول: اعلموا أنكم إن لم تقلعوا «عن»[5] الربا صرتم حرباً لله ولرسوله.

والإذن الثاني: إذن أمر، قال الله، عز وجل: **﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾**[6]، يقول: بأمر الله، لولا أن الله أمرها بالإيمان لم تؤمن ولكن جعل في الإنسان العقل، ثم أمره بالإيمان، فآمن بإذن الله وأمره.

---

(1) التغابن: ١١.
(2) البقرة: ١٠٢.
(3) الأنبياء: ١٠٩.
(4) البقرة: ٢٧٩.
(5) في الأصل: من.
(6) يونس: ١٠٠.

الكفر

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

الكفر، في كتاب الله، على معنيين:

أحدهما: كفر جحود وإنكار وتعطيل، وذلك قول الله، سبحانه، يحكي عن قوم من خلقه: **﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾**[1]، فهؤلاء الدهريون المعطلون[2]، الزنادقة[3]، الملحدون[4].

والكفر الثاني: كفر النعمة، وذلك قوله، سبحانه: **﴿وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾**[5]، يقول: حكم الله لشاكر النعمة بالزيادة ولكافر النعمة بالعذاب الأليم. قال: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**[6]، والكافر «هو»[7] كل من ارتكب معاصي الله وخالف أمره وضاد حكمه، فهو كافر لنعم الله ومعاند لله يجب البراء منه والمعاداة له، كما قال الله، سبحانه: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾**[8]، فحرم الله موادة من كان لله عاصياً وله معانداً.

---

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) الذين ذهبت بهم مبالغتهم في التنزيه لذات الله عن الصفات إلى حد تجريدها مما هو ضروري كي تكون فاعة ومؤثرة وموجودة.

(٣) الزندقة في الأصل تعني التحرر من الالتزام بالعقائد الدينية، وشاعت بمعنى إنكار الخالق، ورادفت الإلحاد.

(٤) والإلحاد يعني رفض جميع الحجج التي يؤسس عليها المؤمنون أدلتهم على وجود الله، ومعنى الكلمة في الاصل الميل عن القصد والإنحراف عن السبيل.

(٥) ابراهيم: ٧.

(٦) المائدة: ٤٤.

(٧) في الاصل: فهو.

(٨) المجادلة: ٢٢.

الشرك

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

الشرك في كتاب الله على وجوه: قال الله، عز وجل: ﴿**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾[1]، فالمشرك من عبد مع الله غيره كائناً ما كان من الجمادات والحيوان، فالجماد مثل ما كان المشركون يعبدون في الجاهلية من الأصنام من حجر أو عود أو نجم، ويقولون، إذا سئلوا عن عباداتهم: ﴿**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾[2]. وقوم منهم على وجه التقليد يقولون: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾[3].

والوجه الثاني من الشرك: «هو»[4] كما قال الله، عز وجل: ﴿**وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون**﴾[5]، فسماهم مشركين بتركهم أداء زكاتهم. وقال النبي، صلى الله عليه وآله: «مانع الزكاة وآكل الربا حَرْبائي في الدنيا والآخرة» ومن كان حرباً للنبي فهو مشرك، ثم قال، صلى الله عليه وعلى آله: «لا يقبل الله صلاة إلا بزكاة، كما لا يقبل صدقة من غلول»[6]، يعني أنه إذا غل الإنسان زكاة ماله، ثم تصدق ببعض ماله أو بكله، أن تلك الصدقة لا تقبل، وقال: «لا تقبل صلاة إلا بزكاة» وقال: «الزكاة قنطرة الإسلام».

والوجه الثالث من الشرك: أنه من أطاع عدواً من أعداء الله فهو مشرك بالله كما قال الله سبحانه: ﴿**وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن**

---

(١) التوبة: ٥.

(٢) الزمر: ٣.

(٣) الزخرف: ٢٣.

(٤) في الاصل: فهو.

(٥) فصلت: ٦، ٧.

(٦) أي الذي يخون ويأخذ حق الفقراء والمساكين خفية فيخفيه تهرباً من أدائه.

أطعتموهم إنكم لمشركون﴾[1]، فمن أطاع شيطاناً من الشياطين كان المطاع ظالماً أو عالماً متمرداً فقد عبده.

والوجه الرابع من الشرك: «قول»[2] النبي، صلى الله عليه وآله: «مدمن الخمر كعابد وثن، قيل: وما مدمنه يا رسول الله؟ الذي كل ما وجده شربه، ولو كان في كل عام مرة»، فجعل شارب الخمر كعابد الحجر، والخمر «هو»[3] ما خامر العقل فأفسده، كان من عنب أو زبيب أو تمر أو عسل أو ذرة أو شعير. وكل ما أسكر فهو حرام، يقول النبي، صلى الله عليه وآله: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»، وقال الله، عز وجل: **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾**[4]، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يتعاملون في الخمر والميسر، فيربحون منهما، فقال لهم ربهم: إثمهما أكبر من نفعهما، فالخمر هو ما خامر العقل فأفسده، والميسر هو القمار كله من نرد أو شطرنج أو لهو، ثم قال: عز وجل: **﴿فإنه رجس﴾**[5]، والرجس والإثم في كتاب الله محرمان. قال الله، عز وجل: **﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً﴾**[6]، فجعلها مثل الدم المسفوح ولحم الخنزير، وقال: **﴿إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم﴾**[7]، فذكر أن الإثم محرم، فلما نزلت الآية على النبي، صلى الله عليه وعلى آله، في تحريم الخمر كان قوم من أصحابه يشربونه قبل التحريم، فقالوا: يا رسول الله، فكيف «بفلان»[8] وإخواننا الذين كانوا يشربون الخمر حتى ماتوا؟ فأنزل الله على رسوله: **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا﴾**[9]، يقول: ليس عليهم جناح فيما شربوا قبل التحريم إذا تركوه من اليوم وأقلعوا «عنه»[10]، فكانت هذه الآية إلى آخرها معذرة للماضين وحجة على الباقين،

---

(١) الانعام: ١٢١.

(٢) في الأصل: فقول. والمراد ما يدل عليه قول الرسول عليه السلام.

(٣) في الأصل: فهو.

(٤) البقرة: ٢١٩.

(٥) المائدة: ٩٠.

(٦) الانعام: ١٤٥.

(٧) الاعراف: ٣٣.

(٨) في الأصل: بفلانا.

(٩) المائدة: ٩٣.

(١٠) في الاصل: منه.

وقال النبي، صلى الله عليه وآله: «حقيق على الله من ملأ جوفه في هذه الدنيا خمراً، أن يملأه الله يوم القيامة جمراً إلا من تاب وآمن» وقال صلى الله عليه وعلى آله: «جمعت الشرور في بيت، ثم كان مفتاحه الخمر».

وأما قوله سبحانه: ﴿**لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾[1]، يعني سكر النوم، وذلك أن قوماً من أصحاب النبي، صلى الله عليه وعلى آله، كانوا يصلون مع النبي، صلى الله عليه وآله، صلاة المغرب، ثم يجلسون ينتظرون العتمة[2]، فإذا جاءت العتمة قام النبي، صلى الله عليه وآله، يصلي بهم فيقومون وراءه وليس هم يدرون ما يقول النبي، صلى الله عليه وآله، مما بهم من الغلبة والسكر، خمر النوم، فنهاهم الله عن الصلاة وهم في ذلك حتى يعلموا ما يقولون لأن الله عز وجل لم يحل لأحد من خلقه خمراً قط.

---

(١) النساء: ٤٣.

(٢) هي الثلث الاول من الليل، والمراد هنا صلاة العشاء، لوقوعها فيها.

الزكاة

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

وأما الزكاة فواجبة على الإنسان في ماله إذا بلغ من الطعام خمسة أوسق في سنته، وجب عليه أن يُخرج عُشْر ما وقع من الطعام، والوَسَق ستون صاعاً، والستون صاعاً عشرون مكوكاً[1]، ثم ما زاد على ذلك فبحساب ذلك، كانت زيادتها قليلاً أو كثيراً.

وأما الماشية ففي أربعين شاة شاة، وفي ثلاثين من البقر تبيع أو تبيعة[2]، وفي خمس من الإبل شاة، وفي عشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمس وعشرين ابنة مخاض[3]، وفي ست وثلاثين ابنة لبون[4]، فإذا كثرت الإبل ففي كل خمسين حِقَّة[5]، وإذا كثرت الغنم ففي كل مائة شاة شاة، وإذا كثرت البقر ففي كل ثلاثين تبيع أو تبيعه، وفي كل أربعين مسنة[6].

وفي الذهب والفضة كائناً ما كان من نقد أو حلى أو دين أو صداق، فإذا حال

---

(١) وبالمكيال المصري المعاصر يساوي الصاع سدس كيلة، ومن ثم فالوسق يساوي عشر كيلات، أما المكوك فهو صاع ونصف تقريباً. راجع د. محمد ضياء الدين الريس (الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية) ص ٣٢٨، ٣٢٩. ط القاهرة. الطبعة الثانية سنة ١٩٦١م.

(٢) التبيع هو العجل المدرك. والمراد هنا ما أوفى سنتين ودخل في الثالثة.

(٣) المخاض: الحامل من الابل، والمراد هنا ما أوفت سنة ودخلت في الثانية.

(٤) أي ذات لبن، والمراد هنا ما أوفت سنتين ودخلت الثالثة.

(٥) الناقة الحقة: هي التي جاء وقت ضرابها، أي دارت السنة وتمت مدة حملها، والمراد هنا الناقة التي أوفت ثلاث سنين ودخلت الرابعة.

(٦) أي كبيرة، والمراد هنا ما أوفت ثلاث سنين. راجع باب الزكاة في (كتاب منهج السالك في مذهب الامام مالك) للشيخ محمد الغزالي. ط القاهرة مطبهة الصدق الخيرية، بدون تاريخ. و(كتاب دليل السالك لمذهب الامام مالك) للشيخ محمد محمد سعد. ط القاهرة. الطبعة الثانية سنة ١٩٢٣.

على وزن عشرين مثقالاً ذهباً ففيه ربع عُشْره، وما زاد على العشرين فبحساب ذلك.

وفي الفضة إذا بلغت مائتي درهم قفلة[1] وحال عليها الحول وجب فيها ربع عُشْرها.

وأما العطب[2] والقصب والثمار: ما لم يكن يكال، فإذا باع صاحبها في سنته بمائتي درهم قفلة أخرج عُشْرها.

والزكاة كلها إلى إمام المسلمين من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي يحكم بكتاب الله رب العالمين، ويسير في رعيته بسيرة جده خاتم النبيين، لقول الله عز وجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾[3]، ثم أمر خلقه أن يدفعوا إليه، فقال: ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا**﴾[4]، ولا تدفع إلى غير المحق، فإذا عدمت الرعية هذا الإمام ولم يوجد على ظاهر الدنيا في شرقها وغربها وجب عليهم أن يقسموها بين خمسة أصناف من المسلمين. بين الفقراء، والمساكين، وابن السبيل، والغارم، وفي الرقاب، ويتركوا الثلاثة العاملين عليها وهم الذين يجمعون الزكاة من الرعية لإمام المسلمين، والمؤلفة قلوبهم، وهم الذين لا يلحقون إمام المسلمين إلا بشيء يعطيهم ولا غناء للإمام عنهم يتألفهم بهذه الزكاة، وفي سبيل الله، فالسبيل هو القتل والقتال وصلاح الإسلام والمسلمين.

فأما الفقير: فهو رجل ليس له مال، وله عولة[5] ومنزل وخادم، فيجب له أن يأخذ من هذه الزكاة ما يقوم به ويعوله.

والمسكين: فهو الذي يدور ويطلب وليس معه شيء. وابن السبيل: مار الطريق، يحتاج إلى زاد وكسوة أو كراء. وفي الرقاب: رجل يكون له عبد فيكاتبه عبده على أنه يدفع إليه شيئاً معروفاً يتراضيان عليه: العبد والمولى، فيجب على صاحب الزكاة أن يعين هذا العبد على فك رقبته، وذلك قول الله تبارك وتعالى:

---

(١) أي جملة ومرة واحدة. راجع أساس البلاغة للزمخشري.
(٢) هكذا في الأصل.
(٣) التوبة: ١٠٣.
(٤) الانعام: ١٤١.
(٥) قوت العيال.

﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾[1]، ثم قال لأصحاب الزكاة: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾، فأمرهم أن يعينوا المكاتبين من أموال الله التي آتاهم، فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يدفع هذه الزكاة إلى هؤلاء المسلمين من الفقير والمسكين وابن السبيل والغارم والمكاتب، إلا أن يكونوا عارفين بالله عز وجل وبحدوده وأعدائه وأوليائه، فيوالون أولياءه، ويعادون أعداءه، ويُحِلُّون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يتعدون حداً من حدوده، وجب لهم حينئذ الزكاة، وإذا لم يكونوا على هذه الصفة لم يجب لهم من الزكاة شيء، وإن كانوا معدمين فقراء لأن الله، عز وجل، جعل هذه الزكاة لعباده المسلمين وأوليائه الصالحين لأن يبتغوا فيما رزقهم ويستغنوا بفضل الله الذي أفضل عليهم، ويثيب أهل الأموال فيما أخرجوا من زكوات أموالهم لأن يستعيُن كل بنعمة الله وفضله.

فإذا كان الفقير على غير الإستواء، ثم دفع صاحب الزكاة إليه شيئاً من المال، فقد قواه على فسقه وفجوره وطغيانه، وكان له شريكاً في عصيانه، كدأب الذين يعينون الظالمين ويقيمون دولتهم بزرعهم وتجارتهم، وينصرونهم على قتل المسلمين وهتك حريمهم وأخذ أموالهم، ولولا التجار والزارعون ما قامت للظالمين دولة ولا ثبتت لهم راية. ولذلك قال الله، تبارك وتعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾[2]، وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى «آله»[3]: «إن الله بعثني بالرحمة واللُّحْمة[4]، وجعل رزقي تحت ظلال رمحي، ولم يجعلني حراثاً ولا تاجراً، ألا إن شرار عباد الله الحراثون والتجار، إلا من أخذ الحق وأعطى الحق»، لأن الحراثين يحرثون والظالمين يلعبون، ويحصدون وينامون، ويجوعون ويشبعون، ويسعون في صلاحهم وهم يسعون في هلاك الرعية، فهم لهم خدم لا يؤجرون وأعوان لا يشكرون، فراعنة جبارون، وأهل خنا فاسقون، إن استُرْحِموا لم يرحموا، وإن استنصفوا لم ينصفوا، لا يذكرون المعاد، ولا

---

(1) النور: ٣٣.

(2) هود: ١١٣.

(3) غير موجودة في الاصل.

(4) القرابة.

يصلحون البلاد، ولا يرحمون العباد، معتكفون على اللهو والطنابير[1]، وضرب المعازف والمزامير، قد اتخذوا دين الله، دغلاً[2]، وعباده خولاً، وماله دولاً، بما يقويهم التجار والحراثون، ثم هم يقولون: إنهم مستضعفون، كأن لم يسمعوا قول الله، تبارك وتعالى، فيهم وفيمن اعتل بمثل علتهم، إذ يحكى عنهم قولهم: **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيم كنتم، قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾**[3]، وقال، سبحانه: **﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾**[4]، يقول: من هاجر من دار الظالمين، ولحق بدار الحق والمحقين، رزقه الله من الرزق الواسع ما يرغم أنف من ألجأه إلى الخروج من وطنه، وذلك ما يروى عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليهم السلام، أنه كان يقول: يروى أن الله، عز وجل، يجعل أعوان الظالمين يوم القيامة في سرادق من نار، ويجعل لهم أظافير[5] من حديد يحكون بها أبدانهم[6]، حتى تبدو أفئدتهم فتحرق، فيقولون: يا ربنا، ألم نكن نعبدك؟ قال: بلى، ولكنكم كنتم أعواناً للظالمين. وقال النبي، صلى الله عليه وآله: «ملعون ملعون من كثّر سواد ظالم»[7].

وفي معاداة الظالمين ما يقول الله، عز وجل: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾**[8]، فباين ابراهيم والذين معه آباءهم وأبناءهم وإخوانهم الذين بادؤوا الله بالعداوة، وكذلك يجب على كل مؤمن أن يقتدي بفعلهم.

---

(١) جمع طنبور، آلة موسيقية طويلة العنق ذات أوتار نحاسية.

(٢) من معانيه الريبة، والحقد، والعيلة، والخيانة.. الخ.. الخ.

(٣) النساء: ٩٧.

(٤) النساء: ١٠٠.

(٥) جمع الجمع لاظفار، التي مفردها ظفر.

(٦) مكانها في الأصل كلمة غير واضحة.

(٧) من معاني السواد: المال الكثير، والعدد الكثير، والريف والقرى المحيطة بالمدينة.

(٨) الممتحنة: ٤.

المحكم والمتشابه

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

إعلم أن القرآن محكم ومتشابه، وتنزيل وتأويل، وناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وحلال وحرام، وأمثال وعبر وأخبار وقصص، وظاهر وباطن. وكل ما ذكرنا يصدق بعضه بعضاً، فأوله كآخره، وظاهره كباطنه، ليس فيه تناقض، وذلك أنه كتاب عزيز جاء من رب عزيز على يدي رسول كريم، وتصديق ذلك في كتاب الله حيث يقول﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾[1] ويقول: ﴿**بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ**﴾[2]، ويقول: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾[3].

فإذا فهم الرجل ذلك أخذ حينئذ بمحكم القرآن، وأقر بمتشابهه، أنه من الله، كما قال الله سبحانه: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه**﴾[4]، ثم بين، عز وجل، لأي معنى تركوا المحكم وأخذوا بالمتشابه، قال: لابتغاء الفتنة والهلكة، فلذلك جعل المحكم إماماً للمتشابه، كما جعله حيث يقول: ﴿ **هن أم الكتاب**﴾.

فالمحكم كما قال الله: ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾[5]، و﴿**ليس كمثله شيء**﴾[6] و﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾[7] ونحو ذلك.

---

(١) فصلت: ٤٢.
(٢) البروج: ٢١.
(٣) النساء: ٨٢.
(٤) آل عمران: ٧.
(٥) الاخلاص: ٤.
(٦) الشورى: ١١.
(٧) الانعام: ١٠٣.

والمتشابه مثل قوله: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾[1]، معناها بَيِّن عند أهل العلم، وذلك أن تفسيره عندهم: أن الوجوه يومئذ تكون نضرة مشرقة ناعمة، إلى ثواب ربها منتظرة، كما تقول: لا أنظر إلا إلى الله وإلى محمد، ومحمد غائب، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة، معناه: لا يبشرهم برحمته ولا ينيلهم ما أنال أهل الجنة من الثواب، فعندما لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، يراهم.

ثم قال: ﴿**من كان يرجو لقاء ربه**﴾ يقول، ثواب ربه ﴿**فليعمل عملاً صالحاً**﴾[2]، وقال: ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾[3].

وأما الله عز وجل، فلا يُرَى في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك أن ما وقع عليه البصر فليس بخالق ولا قادر. وكذلك يأخذ الإنسان في العدل والتوحيد بهذه الآيات: ﴿**إن الله لا يأمر بالفحشاء**﴾[4] ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾[5]، وإذا مر عليه شيء من القرآن يقع عنده أنه مخالف لهذه الآية، فليعلم أن تفسيره مثل تفسير المحكم، إلا أنه جهل تفسيره، مثل قول الله، عز وجل: ﴿**وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض**﴾[6] أي تختارون اسم الفساد، كما قال: ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر**﴾[7]، أي يقول: أعلمناه.

والوجه الثاني في القضاء: أمر، كما قال، سبحانه: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾[8] يقول: أمر ربك ألا تعبدوا إلا إياه.

والوجه الثالث قضاء: خلق، وذلك قوله: ﴿**فقضاهن سبع سماوات في يومين**﴾[9]، يقول: خلقهن في يومين. فأما أن يكون يقضي رب العالمين على خلقه بمعصية، ثم يعذبهم عليها، فهذا محال باطل من المقال.

ثم قال: ﴿**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب**

---

(١) القيامة: ٢٢. (٢) الكهف: ١١٠.

(٣) المطففون: ١٥. وفي الاصل ذكرت الاية خطأ هكذا: (ثم أنهم).

(٤) الاعراف: ٢٨. (٥) الزمر: ٧.

(٦) الاسراء: ٤. (٧) الحجرات: ٦٦.

(٨) الاسراء: ٢٣. (٩) فصلت: ١٢.

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾[1]، فتفسيرها على التقديم والتأخير.

يقول: قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ﴿أولئك شر مكاناً﴾ وجعل منهم القردة والخنازير خارج من الكلام، ثم قال: ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ بيانها في أولها حيث يقول: ﴿ويحرفون الكلم عن مواضعه يقولون أن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾[2] بعدما كان من عصيانهم ومن مخالفتهم للحق وأهله.

ثم قال، عز وجل: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم وآشدد على قلوبهم﴾[3]، بقوله: آتيتهم يا رب هذه الأموال والأولاد والأبدان والخيل والرجال، يعني أنه خلقهم لا أنه ملكهم ﴿ربنا ليضلوا﴾، يقول: لئلا يضلوا عن سبيلك، فضلوا، وصرفوا نعمتك التي أمرتهم أن يصرفوها في طاعتك لا في معصيتك، فعندما فعلوا ذلك ﴿ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنون﴾، يقول: إنهم لا يؤمنون اختياراً من أنفسهم المعصية والكفر، ثم قال: ﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾[4] يقول: إن هي إلا محنتك تضل بها من تشاء، فوقع اسم الضلال على من يستحقه بعد هذه الفتنة قامت «بها» مقام «بعد». ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾[5] يقول بعد ظلمهم إذا تابوا، وقال: ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾[6] يقول: على جذوع النخل قامت في مقام علي، ﴿ونصرناه من القوم﴾يقول على القوم ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾[7]. وقال: ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾[8]، يقول: أهل القرية

---

(1) المائدة: ٦٠.
(2) المائدة: ٤١.
(3) يونس: ٨٨.
(4) الاعراف: ١٥٥.
(5) الرعد: ٦.
(6) طه: ٧١.
(7) الانبياء: ٧٧.
(8) يوسف: ٨٢.

وأهل العير. وقال: ﴿إنما ذلكم الشيطان يُخَوِّف أولياءه﴾[1]، يقول: يخوف الناس بأوليائه وقال: ﴿يحبونهم كحب الله﴾، يقول: يحبون أندادهم كحب المؤمنين لله ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[2]، ﴿يخشون الناس كخشية الله﴾[3]، يقول: يخشون الناس كخشية المؤمنين لله.

وقال: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾[4]، والعرش (هو)[5] الملك، كما قال: ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾[6] قال الشاعر:

تداركتها عَبْساً وقد ثل عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

يقول: إنه تهدم عزها وملكها. ومعنى: ﴿ويحمل عرش ربك﴾ يقول: يتقلدون أمر الله ونهيه في خلقه، كما قال: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾[7]، يقول: يتقلدون أمورهم، وقال:

حُمِّلت أمراً جليلاً فاضطلعت به وقمت فيه بحق الله يا عمرا

يقول: قلدت أمراً جليلاً. (فوقهم)، يقول: منهم، قامت فوق مقام من (ثمانية)، يمكن أن تكون[8] ثمانية أصناف أو ثمانية آلاف، أو ثمانية أنفس. ويقول: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾[9]، يقول: عن شده، كما قال:

قامت بنا الحرب على ساق فشمرنا على

ويقول ابليس اللعين: ﴿رب بما أغويتني﴾[10]، يقول: دعوتني بهذا الاسم بعد أن استوجبته، و﴿ما ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾[11]، يقول: يعذبكم، الإغواء، في هذا الموضع: العذاب، كما قال: ﴿فسوف يلقون غياً﴾[12].

---

(١) آل عمران: ١٧٥.
(٢) البقرة: ١٦٥.
(٣) النساء: ٧٧.
(٤) الحاقة: ١٧.
(٥) في الاصل: فهو.
(٦) النمل: ٢٦.
(٧) العنكبوت: ١٣.
(٨) من هنا يبدأ ثانية اعتمادنا على النسخة أ مع النسخة ب، وينتهي السقط الذي وقع في النسخة أ، ويستمر ترقيمنا معتمداً على لوحات النسخة أ.
(٩) القلم: ٤٢.
(١٠) الحجر: ٣٩.
(١١) هود: ٣٤.
(١٢) مريم: ٥٩.

خطايا الأنبياء

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

اعلم أن الأنبياء صلوات الله عليهم لم يعص أحد منهم متعمداً، يعلم أن لله معصية فيتعمدها، وذلك لا يجوز على الأنبياء لأنهم أصفياؤه ورسله اختارهم على علم سبق منه فيهم، أنه إذا بعثهم إلى خلقه سيبلغون الرسالة ويؤدون الأمانة ولا يعصونه في شيء من الأشياء، فعلى ذلك اصطفاهم واختارهم. قال في قصة آدم، عليه السلام: **﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾**[1] وقال في قصة نوح عندما دعا ربه: **﴿رب إن ابني من أهلي﴾** فقال له ربه: **﴿إنه ليس من أهلك﴾**، يقول: ليس من أهل طاعتك: **﴿إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾**، فقال نوح: **﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾**[2]، فتاب عليه السلام من ذلك.

وكذلك يوسف، صلى الله عليه، عندما أخذ يوسف أخاه على دين الملك، فقال رب العالمين في ذلك: **﴿كذلك كِدْنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾**[3]، وقال موسى، عندما قتل القبطي: **﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾**[4] **﴿وهذا من عمل الشيطان﴾**[5]، وقال: **﴿فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾**[6]، يقول: من الجاهلين لعاقبة أمري.

وداود، عليه السلام، عندما نظر إلى امرأة «أوريا» فأعجبته، ثم كان يذكرها في نفسه دائماً ويقول: لو دريت إن هذه المرأة على هذه الصفة لتزوجتها قبل أن

---

(١) طه: ١١٥.
(٢) هود: ٤٥ ـ ٤٧.
(٣) يوسف: ٧٦.
(٤) القصص: ١٦.
(٥) القصص: ١٥.
(٦) الشعراء: ٢٠.

يتزوجها «أوريا»، فلما أن بعث الله إليه الملَكين اللذين تخاصما إليه، وحكم داود بينهما بالحق، علم أنه مخطىء في ذلك فتاب إلى ربه، فتاب الله عليه.

وكذلك سليمان، ويونس، وأيوب، وجميع الأنبياء، صلوات الله عليهم، ما كانت خطاياهم وعصيانهم إلا على وجه الزلل والنسيان. فاعلم ذلك، ولا تنسب إليهم ما لا يليق بهم، لأنهم بررة أنقياء أصفياء، صلوات الله عليهم.

الكتاب

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

تفسير «الكتاب» في القرآن على وجوه شتى:

فوجه منها: علم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب**﴾[1]، يقول: في علم الله. ويقول: ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها**﴾[2]، يقول: في علم الله من قبل أن يخلق الأنفس. ويقول﴿**كتب الله**﴾ يقول: علم الله ﴿**لأغلبن أنا ورسلي**﴾[3]، وقال: ﴿**ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾[4] يقول: في علم مبين، وقال: ﴿**وكل شيء فعلوه في الزُّبُر**﴾[5]، يقول: في علم الله، وقال: ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق**﴾[6]، يعني: علمه، عز وجل، وقال: ﴿**لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم**﴾[7]، يقول: علم.

فالكتاب ها هنا كتاب علم، لأن الله (تبارك)[8] وتعالى قد علم أنهم سيختارون البراز إلى مضاجعهم، فإذا برزوا اختياراً من أنفسهم للبراز قَتَلوا أو قُتِلوا، فالبراز فعل من البارز والقتل فعل من القاتل المعتدي، فعلم الله محيط (بالقاتل والبارز)[9]، وليس العلم الذي جبرها على البراز والقتل، والبراز والقتل فعل من البارز والقاتل، وعلم الله محيط بهما.

---

(١) فاطر: ١١.
(٢) الحديد: ٢٢.
(٣) المجادلة: ٢١.
(٤) الانعام: ٥٩.
(٥) القمر: ٥٢.
(٦) الجاثية: ٢٩.
(٧) آل عمران: ١٥٤.
(٨) غير موجودة في ب.
(٩) في أ: بالبارز والقاتل.

كما قال، عز وجل: ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾[1]، التقلب من الخلق، وعلم الله محيطبهم، ولا يقدر أحد أن يخرج من علم الله، وليس علم الله الذي يُدْخِلهم في الطاعة ويخرجهم من المعصية (ولا علمه الذي يدخلهم في المعصية ويخرجهم من الطاعة)[2]، ولكن (قوماً)[3] اختاروا الطاعة على المعصية فاستوجبوا من الله الرضى والرضوان، لأنهم سعوا في إرادة الله ومشيئته، واختار قوم المعصية على الطاعة، فاستوجبوا من الله السخطوالعقوبة، لأنهم سعوا في سخط الله وكرهوا رضوانه، ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾[4]، واتبعوا أهواءهم، وأرضوا الشيطان بفعلهم، فصاروا في حزبه ﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾[5]، لأن الله لا يُقَدِّر أبداً ما يكره، ولا يقدر إلا ما يرضى، وليست مشيئته تقع إلا على رضاه، ولا يكره إلا ما يسخطه. فاعلم ذلك، ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾، كما قال عز وجل: ﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه، فمنهم شقي﴾[6] في ذلك اليوم بعمله القبيح الذي قدمه في دار دنياه، ومنهم سعيد بعمله الصالح الذي قدمه في هذه الدنيا، ولذلك قال: عز وجل: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾[7]، يقول: إنه يعيدهم ويخلقهم يوم القيامة خلقاً ثانياً (لجنهم)[8]، من خرج من الدنيا عاصياً. وإن كان لفظ «ذرأنا» لفظ ماض فمعناه مستقبل، كما قال: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾[9]، ونادى أصحاب الاعراف، يقول: إنهم سينادون، لا إنه، عز وجل، خلقهم للنار في هذه الدنيا، هو سبحانه يقول خلاف ذلك في كتابه، قال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[10]، لم يخلق جميع خلقه إلا لعبادته، ولذلك ركب فيهم العقول، وأرسل إليهم الرسول، وأنزل عليهم الكتب ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾[11]، وقال: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[12] في الكرامة.

---

(1) محمد: ١٩.
(2) غير موجودة في أ.
(3) في أ، ب: قوم.
(4) محمد: ٢٨.
(5) المجادلة: ١٩.
(6) هود: ١٠٥.
(7) الاعراف: ١٧٩.
(8) غير موجودة في أ.
(9) الاعراف: ٤٤.
(10) الذاريات: ٥٦.
(11) النجم: ٣١.
(12) يونس: ٢٦.

والوجه الثاني: من كتاب الله قوله سبحانه: **﴿وكتبنا عليهم فيها﴾**، يقول: فرضنا عليهم: **﴿أن النفس بالنفس﴾**[1] إلى آخر الاية.

والوجه الثالث: قوله، عز وجل: **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب﴾**[2]، يعني القرآن.

والوجه الرابع: «قوله»[3] **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾**[4] يقول: أوجب على نفسه الرحمة، أنهم إذا تابوا رحمهم، وأوجب لهم على نفسه الرحمة، فالكاتب والمكتوب عليه في هذا الموضع واحد، وهو الله رب العالمين، وكذلك قوله: **﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾**[5]، يقول عيسى، عليه السلام: تعلم ما غاب عني من أمري، (ولا أعلم ما في نفسك) يقول: لا أعلم ما غاب عني من أمرك، وكذلك قوله: **﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾**[6]، وقوله: **﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾**[7]، وقوله **﴿تجري بأعيننا﴾**[8] و(قوله)[9]: **﴿بل يداه مبسوطتان﴾**[10] **﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾**[11] فكل هذه الايات وما أشبهها من الايات، فإنما يريد عز وجل ذاته، لا أن ثَمَّ نفساً ووجهاً ويداً وعيناً ويميناً سواه. فاعلم ذلك و«تفكر»[12] في جميعه يَبِنْ لك الصواب وينفي عنك الشك والارتياب بحول الله وقوته.

تم الكتاب، والحمد لله وحده، وصلواته
على رسوله سيدنا محمد وآله وسلامه[13]

---

(١) المائدة: ٤٥.
(٢) الزمر: ٢.
(٣) غير موجودة في أ.
(٤) القصص: ٨٨.
(٥) القمر: ١٤.
(٦) غير موجودة في أ.
(٧) الانعام: ١٢.
(٨) المائدة: ١١٦.
(٩) البقرة: ١١٥.
(١٠) المائدة: ٦٤.
(١١) الزمر: ٦٧.
(١٢) في أ، ب: تفسر.
(١٣) عبارة أ: «تم الكتاب المجموع، والحمد لله وحده أولاً وآخراً، وصلواته على رسوله سيدنا محمد وآله وسلامه، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وبتمام ذكره تم الكتاب المجموع لما اتفق فيه من كتب للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين كرم الله وجهه».

كتاب

الرد والاحتجاج على
الحسن بن محمد بن الحنفية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي علا على الأشياء بِطوْله، وتقدس عن مشابهة المخلوقين بحوله، الذي علا فقدر، وقدر فقهر، وعُصِيَ فغفر، وأطيع فشكر، الذي لا مثل له فيساويه، ولا ضد له فيناويه، الذي لا تدركه الأبصار، ولا تجن[1] منه الأستار، العالم بما تجن قعور البحور، وما تكن جوانح الصدور، العالم بما سيكون، سبحانه، من قبل أن يكون، اللطيف الخبير، السميع البصير، الجليل الحكيم، الكريم الرحيم، الذي دنا فنأى، ونأى، سبحانه، فدنا، رابع كل ثلاثة، وسادس كل خمسة، الداني من الأشياء بغير ملامسة، المحيط بها من غير مخالطة، العالم بباطنها من غير ممازجة، فعلمه بما تحت الأرضين السفلى كعلمه بما فوق السماوات العلى، الموجد للأشياء من غير شيء، وجاعل الروح في كل حي، خلق خلقه حين أراده، وإذا شاء، سبحانه، أباده، بلا كلفة ولا اضطرار، ولا بتخيل ولا إضمار، ولا حاجة منه إلى الأعوان، إذا أراد إيجاد شيء كان، بلا كلفة، البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، الذي لم يلده والد فيكون مولوداً، ولم يلد ولداً فيكون لذلك محدوداً، الخالق غير مخلوق، والرازق غير مرزوق، الذي بقدرته قامت السماوات بغير عماد، وفرش لعباده الأرض ذات المهاد، فاستقلت الأقطار، وسُجِّرت[2] البحار، وهطلت الأمطار، ونبتت الأشجار، وجرت الأنهار، وأينعت الثمار، فالق الحب والنوى، ومالك الآخرة والدنيا، زارع كل ما يحرثون، ومنزل الماء الذي يشربون، وخالق النار التي يورون، محصي الأعمال، ومؤجل الآجال، ومجري الأرزاق، ومسبب الأرفاق[3] الصادق في كل قول قوله، النافذ في كل شيء فعله، الذي أمر ونهى، فأمر

---

(١) تستر

(٢) فاضت.

(٣) المنافع.

بالتقوى، وزهد في الدنيا، ونهى عن العصيان، وحض على «الإحسان»[1] وخلق ثواباً وجعل، فأعد للمطيعين الجنان، وأجج للعاصين النيران، ﴿**ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى**﴾[2]، قابل التوبة، مقيل العثرة، مجيب الدعوة، الذي لا يعافص[3] من عصاه، ولا يخيب أبداً من رجاه، يقبل اليسير الصغير، ويعطي عليه الكثير، الذي لم يزل قادراً ولا يزال، فسبحان ذي القدرة والعز والجلال.

أحمده على نعمائه، وأعوذ به من بلوائه وأستجير به من نقمته، وأستديمه لنعمته، الذي شملت خلائقه نعماؤه، وتظاهر عليهم إحسانه وآلاؤه، سائق كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عظيمة (وأذى)[4]. أشهد له سبحانه، بالربوبية وبالعدل والصدق والوحدانية، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مقلب القلوب، الغافر لمن تاب من موبقات الذنوب، البريء المتعالي عن كل نَصَب ولغوب[5]، البائن عن الصفات، (فليست)[6] تحده (المقالات)[7]، ولا تنقصه الساعات، ولا تعروه السنات، المحمود في كل الحالات.

وأشهد أن محمداً عبده، ورسوله إلى خلقه، وأمينه على وحيه، صلى الله عليه وعلى آله، الداعي إليه، بعثه، سبحانه، بحجته، واستنقذ به من النار أهل طاعته، بعثه في طامية طمياء[8]، ودياجير مظلمة عمياء، وأهاويل فتنة دهماء، فدفع فسق الكفر والفساد، وأبهج سبيل الحق والرشاد، وأدحض عبادة الأوثان، وأخلص عبادة الرحمن، وصدع بأمر ربه، وأنفذ ما أمره به، ودعا إليه علانية وسراً وأمر بعبادته، سبحانه، جهراً، صابراً على التكذيب والأذى داعياً لهم إلى الخير والهدى، حتى قبضه الله إليه، وقد رضي عمله، وتقبل سعيه، وغفر ذنبه، وشكر فعله، فصلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار الصادقين الأبرار.

---

(١) في ب: الايمان.
(٢) النجم: ٣١.
(٣) يصارع، ويثخن، ويقتلع.
(٤) في أ، ب: أذل.
(٥) التعب والاعياء الشديد.
(٦) في أ: فليس.
(٧) في أ، ب: القالات.
(٨) شدة شديدة.

ثم نقول، بعد الحمد لله والثناء عليه، والصلاة على محمد، صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

أما بعد. .

فإنه وقع إلينا كلام الحسن بن محمد بن الحنفية[1]، يؤكد فيه الجبر، ويشدد

---

(١) والحسن بن محمد بن الحنفية الذي خصص المؤلف هذا الكتاب للرد عليه ونقض قوله هو غير الحسن بن محمد بن الحنفية حفيد الإمام علي بن أبي طالب وأخو أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، والمتوفى سنة ٩٩ أو سنة ١٠٠هـ (٧١٨ م) ذلك أن الحسن بن محمد هذا إنما كان يرى رأي أصحاب العدل والتوحيد، وهو معدود في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة، والحاكم أبو سعد محسن بن كرامة يقول في الجزء الاول من (شرح عيون المسائل) في اللوحة ٧٢ من المصورة (٢٧٦٢٣ ب) بدار الكتب المصرية، وهو يتحدث عن الطبقة الثالثة للمعتزلة: «ومنهم. . الحسن بن محمد، وهو أستاذ عيلان الدمشقي، عنه أخذ المذهب» ويقول عنه ابن سعد في (كتاب الطبقات الكبير) جـ ٥ ص ٢٤١ ط ليدن سنة ١٣٢٢هـ أنه «كان من ظرفاء بني هاشم وأهل العقل منهم» كما يقول عنه الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني في (تهذيب التهذيب) جـ ٢ ص ٣٢٠ ط حيدر آباد سنة ١٣٢٥هـ أنه «توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، وليس له عقب، وكان يقدم على أخيه أبي هاشم في الفصل والهيئة. . وكان من أوثق الناس عند الناس». إذن فمن هو الحسن بن محمد بن الحنفية الذي يرد عليه الإمام يحيى هنا؟؟ ان كتب الطبقات، والتي تتحدث عن فرق الشيعة لا تهتم كثيراً بالحديث عن ابناء محمد بن الحنفية، لانه ليس سوى فرقة «الكيسانية» من فرق الشيعة هي التي تولتهم فيما يتعلق بالإمامة، أما سائر فرق الشيعة فانها تتولى الحسن والحسين وأحفادهما باعتبارهما أبناء فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام، ونحن نجد عدداً من أئمة الشيعة ورجالات أهل البيت ممن يحملون اسم الحسن، ومنهم: الحسن العسكري، الإمام الحادي عشر من أئمة الشيعة الاثني عشرية والمتوفى سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣م)، والحسن العلوي مؤسس دولة العلويين بطبرستان، وهو الحفيد السادس للإمام علي، ولقد توفي سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣م) وهما معاصران للإمام يحيى بن الحسين، ولكن نسبهما يرتفع إلى أبناء فاطمة الزهراء من الإمام علي، وليس إلى محمد بن الحنفية، إلا ان أبا محمد الحسن بن موسى النوبختي يجلي لنا الحقيقة في كتابه (فرق الشيعة) ص ٥٢، ٥٣ ط النجف سنة ١٩٥٩، فيذكر، عرضاً، أنه قد كان هناك من أحفاد محمد بن الحنفية اثنان باسم الحسن أحدهما «الحسن بن علي بن محمد بن حنفية» والثاني «الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية» وأن كلا منهما كان إماماً من أئمة (الكيسانية الخلص) «المختارية»، وهذه الفرقة كانت من غلاة الشيعة، وهؤلاء الغلاة هم الذين ظهرت بينهم أفكار الجبر والتشبيه التي يناقشها ويرد عليها الإمام يحيى بن الحسين في هذا الكتاب، وفي اللوحة ٣٢ من الجزء الاول من (شرح عيون المسائل) يقول الحاكم أن الشيخ أبا القاسم قد ذكر أن لهؤلاء الغلاة «أقوالاً سوى قولهم بالإمامة، وهو القول بالبداء والرجعة وحدوث العلم وأكثرهم يعتقدون الجبر والتشبيه» كما يتحدث في اللوحة ٣٣ من نفس المخطوط عن أنه قد نشا منهم «القول بالتناسخ» ثم يمضي نافياً أن يكون في الصحابة أو التابعين من قال بأقوال هؤلاء الغلاة فيذكر أنه «لا =

في ذلك منه الأمر، ويزعم فيه أن الله، سبحانه، جبر العباد أجمعين، من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين، وجميع الثقلين، على كل الأعمال، من صالح أو فاسد أو طالح، فرأينا أن نجيبه في ذلك، وننقض عليه ما جاء به من المهالك، ونثبت عليه في ذلك كله، لربنا وسيدنا وخالقنا ما هو أهله مما هو عليه، وما لا يجوز لخلق الله، أن يقول بغيره فيه، فاختصرنا له في قوله الجواب، وتركنا، خشية التطويل، كثيراً من الأسباب[1]. فلينظر من نظر في قولنا وقوله، وجوابنا لسؤاله، بلب حاضر ورأى حي صادر، يبن له الحق، إن شاء الله، ويثبت في قلبه الصدق. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه أجمعين، محمد، خاتم النبيين، وعلى أهل بيته الطاهرين وسلم.

= سلف لهم، ومن نظر في الاخبار علم أنه ليس لهم في الصحابة والتابعين سلف، وأن أقوالهم مما حدثت بعد ذلك، إلا أن البدع إذا ظهرت أولاً تكون في قلة ثم تزيد حتى تظهر وتصير فرقة»وهو هنا ينفي، صمنياً، أن يكون الحسن بن محمد بن الحنفية، الذي يرد عليه الإمام يحيى، هو حفيد أمير المؤمنين علي بن ابي طالب، لانه من هؤلاء السلف الذين لم يحدثوا هذه البدع المكرية في الجبر والتشبيه.

(١) الطرق والسبل والادلة.

المسألة الأولى

فكان أول ما سأل عنه أن قال: أخبرونا عن رسل الله، من بني آدم، هل جعل الله لهم السبيل والاستطاعة إلى ترك البلاغ؟ ولو شاءوا لغيروا ما أُمِرُوا به من تبليغ الوحي والعمل بالسنن؟ أو ألزموا على ذلك إلزاماً، فلا يستطيعون علـى تركه ولا الزيادة فيه ولا النقصان منه؟

فإن قالوا: نعم، قد جعل الله لهم سبيلاً واستطاعة لترك البلاغ، فلو شاءوا لغيروا ما نزل إليهم من كتابه وحكمته، فقد دخلوا في أعظم مما كرهوا حين زعموا أن الرسل لو شاءوا لم يعبدوا الله بالتوحيد، ولم يعملوا له بطاعة، إذ زعموا أنهم كانوا يقدرون على كتمان الوحي (والسنن)[1].

فيقال لهم: وأنتم الآن لا تدرون هل بلغت الرسل كل ما جاءهم من الوحي والسنن أم لا؟

فإن قالوا: نعم، يقدر الرسل على كتمان الوحي والسنن إذا أرادت ذلك، احتُجَّ عليهم، وإن قالوا: لم يكن الرسل يقدرون على كتمان الوحي ولا إبـدال الفرائض ولا ترك البلاغ، لأن الله ألزمهم البلاغ إلزاماً، فلا يقـدرون علـى تركه وكتمانه، فقد أجابوا، وفي ذلك نقض لقولهم.

جوابها:

بسم الله الرحمن الرحيم

فكان أول ما سأل عنه، أن قال: أخبرونا عن قولكم فيما نسأل عنه، نبئونا،

---

(١) في ب: ومر السنن، والمراد الشرائع والنواميس.

هل الأنبياء، صلوات الله عليهم، مستطيعون لعمل فعلين متضادين في حالين مختلفين؟

وقولنا في ذلك، والله الموفق لكل رشد وخير، والدافع لكل سوء وضير، أن رسل الله، صلوات الله عليهم، قد أدوا ما أمرهم الله بأدائه، على ما أمرهم، لم يشبهم في ذلك تقصير، ولم يتعلق عليهم في ذلك من التفريط جليل ولا صغير، وأنهم كانوا في ذلك كله لأمر الله مؤثرين، وعلى طاعته، سبحانه، مثابرين، وأن الله، سبحانه، لم يكلفهم أداء الرسالة حتى أوجد فيهم ما يحتاجون إليه من الاستطاعة، ثم أمرهم بعد ونهاهم وكلفهم من أداء الوحي ما كلفهم، فبلغوا عنه ما به أمرهم على اختيار منهم لذلك وإيثار منهم لطاعته وحياطة لمرضاته، لم يكن منه جبر لهم على أدائه، ولا إدخال لهم قسراً في تبليغه، بل أمرهم بالتبليغ فَبَلَّغوا، وحثهم على الصبر فصبروا، فقال، سبحانه: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾[1]، فقال: بلغ ما أنزل إليك، ولو لم يكن التبليغ منه، صلى الله عليه وآله، باستطاعة وتَخَيُّر، لم يقل له: «بلغ» إذ الأمر لمن لا يقدر أن يفعل فعلاً حتى يُدْخَل فيه إدخالاً، ويُقلَّب فيه تقليباً محال، لأن الفاعل هو المُدْخِل لا المُدْخَل والمُقَلِّب لا المُقَلَّب فلم يأمر الله، عز وجل، أحداً بأمر إلا وهو يعلم أنه يقدر على ضده، فحثه بأمره على طاعته ونهاه عن معصيته، ألا تسمع كيف يقول: ﴿**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ولا تستعجل لهم، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون**﴾[2]، فأمره باحتذاء ما فعل من هو قبله من الرسل، من الصبر على الأذى والتكذيب، والشتم والترهيب، ولو كان الله، سبحانه، هو المدخل لهم في الصبر إدخالاً، ولم يكن منهم له افتعالاً، لقال: صبرناك كما صبرناهم، ولم يقل: اصبر، كما صبر أولوا العزم من الرسل، وكيف يأمر، ذو الحكمة والفضل، مأموراً بما يعلم أنه يفعله من الفعل؟ فجل الله عن ذلك، وجل عن أن يكون كذلك، فهل سمعه من جهله، سبحانه يأمر أحداً من خلقه أن يفعل شيئاً مما هو من فعله مما يتولى إحداثه فيهم؟ ويقضي به، تبارك وتعالى، عليهم؟ مما ليس لهم فيه فعل ولا

---

(١) المائدة: ٦٧.	(٢) الاحقاف: ٣٥.

افتعال، ولا تصرف بإدخال ولا إخراج، مثل الموت والحياة وإيجاد السمع والبصر والأفئدة؟ بل ذكر ذلك كله عن نفسه، وأضاف فعله إليه بأسره، فقال: ﴿ **إنا (نحن)**[1] **نحيي ونميت وإلينا المصير**﴾[2]، ولم يأمرهم أن يموتوا ولا بأن يحيوا، وقال، سبحانه، إخباراً عمن سلف، وتوفيقاً واحتجاجاً على من جاء بعدهم وخلف: ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**﴾[3]، فقال: جعلنا لهم ولم يقل: اجعلوا ولا تجعلوا. ثم قال: فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، فأراد، سبحانه، منهم، إذ فعل لهم الأسماع أن يفعلوا هم الاستماع «بها»[4]، فيسمعوا ما جاء به الرسول من أخبار من هلك من قبلهم وإنذار من أنذر ممن هو أشد منهم بطشاً فلم يقبل الهدى فأُهْلِك، قال، سبحانه: ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾[5]، فأراد إذ فعل لهم سمعاً أن يسمعوا به أخبار من نزل به ما نزل، فينتهوا ويسمعوا لرسله ويطيعوا ويسلموا للحق ويجيبوا، وكذلك إذ فعل لهم أبصاراً أراد أن يبصروا بها إلى ما خلق من السماوات والأرض وأنفسهم وما ذرأ وبث، فيعلموا أن لهذا خالقاً ومدبراً فيؤمنوا، وكذلك الأفئدة أراد بجعلها لهم إذ أوجدها فيهم أن يفكروا ويدبروا فيعتبروا ويميزوا فيهتدوا ولو كان، سبحانه وتعالى عن ذلك، المتولي لفعل أفعالهم لم يحتاجوا إلى الإسماع والتبصير والتفكير، إذ كان الله المتولي لإنفاذ ما أرادوا والمُمْضِي، دونهم لكل فعل منهم، ولم يقل، عز وجل: ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم﴾، وكيف يستمعون إذا أسمعوا، ويستبصرون إذا أبصروا وينتفعون إذا فكروا، وهم لا ينالون ذلك ولا يقدرون عليه، وغيرهم الفاعل «له»[6] المصرف لهم فيه؟

---

(١) غير موجودة في ب.
(٢) ق: ٤٣.
(٣) الاحقاف: ٢٦.
(٤) سقطت من ب.
(٥) ق: ٣٧.
(٦) سقطت في أ.

فتعالى مَنْ فعله غير فعل خلقه، ومَنْ أمر عباده باتباع حقه. ألا تسمع كيف قوله سبحانه، وإخباره عن المؤمنين والفاسقين، فقال: **﴿ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيراً﴾**[1]، وقال، في الفاسقين: **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أساطير الأولين﴾**[2]، فمدح المؤمنين على ما قالوا من الصدق في رب العالمين، وذم الفاسقين على قولهم الباطل في أحسن الخالقين.

ولو لم يكن العباد متخيرين، ولا مما أرادوا متمكنين، وكان الحامل لهم على أفعالهم، المدخل لهم في كل أعمالهم، رب العالمين، لكان هو القائل، لما نزل من الحق: أساطير الأولين، ولم يكونوا هم القائلون بما قالوا من قولهم، والناطقون بما أنطقهم عند العدل الجواد الرؤوف الرحيم بالعباد، بمذمومين ولا عليه بمعاقبين، ففي أقل من ذلك حجة لذوي الإيمان المميزين.

وأما ما قال: من أنهم إن كانوا، صلوات الله عليهم، قادرين على التبليغ والترك، وكان تبليغهم اختياراً منهم للطاعة على المعصية ولرضاه على سخطه، فما يدريكم لعلهم قد تركوا وبدلوا وغيروا وخانوا أو ستروا واجباً وخالفوا؟.

قيل له في ذلك من الحجة، والحمد لله، أبين البيان وأنور القول والبرهان: ألا تعلم، أيها السائل، أن الله، سبحانه، لا يزكي إلا زكياً رفيعاً؟، ولا يذكر بالطاعة إلا سامعاً مطيعاً؟، ولا بالأداء إلا مؤدياً؟.. وقد وجدنا الله، سبحانه، ذكر في توراته التي أنزلها على موسى بن عمران تبليغ من بعثه من أنبيائه بوحيه، من نوح، وابراهيم وغيرهما، وأثنى عليهم بذلك، وحض موسى، صلوات الله عليه الاقتداء بهم والإيثار لما آثروا من الطاعة لربهم، ثم قص قصة موسى، صلى الله عليه، وذكر فضله «وتبليغه»[3] وصبره واجتهاده وفعله في الانجيل الذي أنزله على عبده المسيح، المطهر من كل قبيح، صلوات الله عليه، ثم قص قصة عيسى على محمد، وذكر له من قصته واجتهاده وتبليغه وتبليغ غيره من الرسل، فقال: **﴿وإذ قال عيسى بن مريم: يا بني اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾**[4]، فصدق بما جاء به موسى، وبشر بما أمر من التبشير به من

(1) النحل: ٣٠.
(2) النحل: ٢٤.
(3) سقطت من أ.
(4) الصف: ٦.

البشير النذير الرؤوف بالمؤمنين الرحيم محمد الرسول الكريم، ثم ذكر لنا في كتابه أن رسوله قد بلغ وأنذر، وأخبر أنه قد أدى كل ما يجب عليه، فقال: **﴿ما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾**[1]، وقال: **﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾**[2]، ولو كان منه، صلى الله عليه وآله، غير الاجتهاد لم يقل سبحانه: **﴿ فما أنت بملوم﴾** . فقد برأه الله من كل دنس ولوم.

فقد بطلت حجة من أراد الطعن على الأنبياء المهتدين، المؤدين لأمر الله الخانعين، بما قال عنهم وذكر فيهم رب السماوات والأرضين. والحمد لله وسلامه على المرسلين.

تمت المسألة

(١) المائدة ٩٩.
(٢) الذاريات: ٥٤.

المسألة الثانية

ثم أتبع هذه المسألة، فقال: أخبرونا عن ابليس، ما أخطر المعصية على باله؟ أو من أوقع التكبر في نفسه؟

فإن قالوا: نفسه أمرته بالمعصية، وهواه حمله على التكبر، فقل: من جعل نفسه أمَّارة بالمعصية، وهواه حاملاً على التكبر؟

فإن قالوا: الله، كان ذلك نقضاً لقولهم، ويقال لهم: فمن أعطاه علم الخديعة والمكر؟ الله جعل ذلك في نفسه؟ أو شيء جعله هو لنفسه؟

فإن قالوا: الله جعل ذلك له، كان ذلك نقضاً لقولهم، وإن قالوا: إن ذلك لم يكن من الله عطاء ولا قسماً، فقد دخل عليهم أعظم مما هربوا منه حين زعموا أن غير الله يجعل في خلقه ما لم يرد الله أن يكون فيهم، فما أعظم هذا من القول!!

وسلهم: من أين علم ابليس أن آدم يكون له ذرية وأن الموت يقضي عليهم وأنه يكون بينهم لله عباد مخلصون وأنه يحتنكهم إلا قليلاً منهم؟

فإن قالوا: إن الله أعلمه ذلك، فقد نقض ذلك قولهم، وإن قالوا: إن ابليس علمه من قِبَل نفسه، فقد زعموا أن ابليس يعلم الغيب، فسبحان الله العظيم!!

جوابها

وأما ما سأل عنه وقاله من أمر ابليس فقال: من أخطر المعصية على باله؟ ومن أوقع التكبر والمكر والخديعة في نفسه؟

فإنا نقول في ذلك أن الله أعطى ابليس من الفهم واللب ما يقدر به على التمييز بين الأمور، ويعرف به الخيرات من الشرور، ويقف به على الصالح من ذلك والطالح، وإنما أعطاه الله ذلك، وجعله وكل الخلق المتعبدين كذلك، لأن يعرفوه أو يعرف ما افترض الله عليهم وعليه، فيتبع ذلك دونَ غيره، ويَثابر عليه، ويعرف ما

يسخط الله فيجتنبه ويتقيه، ويحاذر انتقامه فيه، ولو لم يعطه وغيره ذلك لم يهتدوا أبداً إلى فعل خير ولا شر ولا تخير طاعة ولا إيثار هوى ولا اتباع تقوى، ولو كان الخلق كذلك لكان معنى الثواب ساقطاً عنهم ولما جرى أبداً عقاب عليهم، ولو لم يجر عقاب ولم يُنَل ثواب لم يُحْتَج إلى جنة ولا نار، ولما وقع تمييز بين فجار ولا أبرار، وقد ميز الله ذلك فقال: ﴿**لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون**﴾[1]، ولو كان ذلك كذلك لكان معنى الملك والتمليك عند الله، سبحانه، ساقطاً هناك، ولكنه سبحانه، لما خلق الخلق لم يكن للخلق بد من عمل، ولم يكن العمل كله لله رضى، ولا كله سخطاً[2]، «ولما كان»[3] من الأعمال مُرْضٍ لله ومسخط، لم يكن بد من الأمر بالعمل المرضي والنهي عن العمل المسخط، فلما كان ذلك كذلك لم يكن بد من الترغيب على العمل الصالح بالثواب، والترهيب على العمل الطالح بالعقاب، فجعل الجنان ترغيباً، والنيران ترهيباً، وترهيب الشيء من الشيء الذي لا يستطيع أن يرهبه محال، كما أن ترغيب الشيء فيما لا يقدر على أن يرغب فيه فاحش من الفعال، ولا يكون ترغيب إلا لمن يقدر على الرغبة، ولا ترهيب إلا لمن يقدر على الرهبة، ولا أمر ولا نهي إلا لمن يميز بين المأمور به والمنهى عنه، فجعل الله وركب فيهم استطاعة وتمييزاً، ليعرفوا رضاه فيتبعوه، ويفهموا سخطه فيتجنبوه، فيثيبهم أو يعاقبهم على ما يكون من أفعالهم باختيارهم، لأن المثيب على فعله إنما هو مجاز لنفسه، ثم أمرهم عز وجل، ونهاهم، ثم قال: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾[4]، ولو لم يعلم أن له مشيئة وتمييزاً واقتداراً على الفعل والترك لم يقل: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾. وقال: سبحانه: ﴿**يا يحيى خذ الكتاب بقوة، وآتيناه الحكم صبياً**﴾[5]، ولو لم يكن فيه استطاعة مركبة قبل الأمر، ولم يكن قادراً على أخذ الكتاب، لم يقل خذ وهو لا يقدر على الأخذ، لأن القائل للحجارة وما كان مثلها، يقال: مخطىء محيل[6] في المقال. فتعالى الله عن ذلك. وقال: ﴿**قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله، ليجزي قوماً بما كانوا**

---

(١) الحشر: ٢٠.
(٢) في ب نجد هنا كلمتي: طرا معاً.
(٣) في ا: وكان.
(٤) الكهف: ٢٩.
(٥) مريم: ١٢.
(٦) في الاصل: محل.

يكسبون﴾[1]، ولو لم يكن المؤمنون يقدرون على الغفران لمن أمروا بالمغفرة له لم يقل: يغفروا، وكان يحدث فيهم الغفران لأولئك، فيغفروا، ولم يكن ليأمرهم من الامر بما لا يطيقون.

وأعطى إبليس اللعين ما أعطاه من الفهم والتمييز لأن يطيعه ولا يعصيه، وأراد أن يطيعه تخيراً وإيثاراً لطاعته، فكانت هذه إرادة معها تمكين واستطاعة، ولم يرد أن يطيعه قسراً، ولا أن يمنعه من المعصية جبراً، فمكنه وهداه، ثم أمره ونهاه، فرفض، له الويل، تقواه، واتبع هواه، وكفر نعم ربه، وكره تنزيله وحكمه، فكان، كما قال الله، سبحانه: ﴿**والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**﴾[2]، فلو كانت الكراهة لما أنزل الله قضاء له فيهم، وفعلاً أدخله، سبحانه، عليهم، لكانت من الله، لا منهم، ولكان الكاره لتنزيله، لا هم، ولكانوا ناجين من العقاب، وكانوا متصرفين في أمره في كل الأسباب، وكذلك المهتدون، لو كان هو الذي فعل هداهم، وزادهم في تقواهم، لم يقل: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم**﴾[3] ولو كان ذلك، كما يقول الجاهلون، وينسب إلى الله، الضالون، لكان من اهتدى ومن كره وأبى في الأمر عند الله، شرعاً، واحداً، إذ كان كلهم في أمره وقضائه له مطيعاً متقلباً متصرفاً في إرادته سريعاً.

وأما قوله من أين علم إبليس أن آدم يكون له ذرية؟، وأن الموت يقضي عليهم؟ فإن جوابنا له في ذلك: أن الله أعلمه ملائكته، فسمعه إبليس من ملائكة الله فيما كان يسترق من السمع كما قالوا وحكى الله عنهم في قوله: ﴿**وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً**﴾[4]، فكانوا قبل أن يبعث الله نبيه، صلى الله عليه وآله، ويكرمه بما أكرمه من الوحي إليه يسترقون السمع، فلما أن بعثه الله «حجبهم»[5] عن المقاعد التي كانوا يقعدونها من السماء ويسترقون من الملائكة الأخبار فيها، فيهبطون بها إلى إخوانهم من كهنة الإنس وأوليائهم، كما قال، ذو المن والجلال: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن يوحي**

---

(١) الجاثية: ١٤.

(٢) محمد: ٨.

(٣) محمد: ١٧.

(٤) الجن: ٩.

(٥) في ب: حجبه.

بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾[1]، فلما أرسل الله رسوله بالوحي البالغ والنور الساطع حجبهم عن علم شيء من أخبار السماء، لكيلا يسبقوا به ولا «يلقوه»[2] إلى إخوانهم من كهنة أهل الدنيا، فقذفهم بما جعل لهم من النجوم شهباً رصداً، فرماهم بالنجوم من السماء، ولم يكن قبل ذلك بشيء منها يرمى فَهِيل[3] لذلك أهل الأرض والشياطين في الهواء، فقالوا في ذلك، كما أخبر الله به عنهم وحكى من قولهم: ﴿أنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً، وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾[4]، فمن الملائكة علم إبليس أخبار آدم وذريته، ولو لم يعلم الله الملائكة بذلك لم يعلمه إبليس ولاهم كما لم يعلموا «ما»[5] كتمهم من أسماء الأشياء التي أعلمهم آدم بأسمائها في وقت ما علمه الله أسماءها وكتم الملائكة إياها، كما قال، سبحانه: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾[6]، فأنبأهم حين أمره الله أن ينبئهم بأسمائهم ما كان قد «خفي»[7] عنهم علمه من الأشياء، فعندما رأى إبليس اللعين الرجيم[8] «تعليم»[9] الله لآدم وتعظيمه لقدره وإسجاده الملائكة من أجله، ولما أظهر فيه من عجائب تدبيره وصنعه، حسده على ذلك غاية الحسد حتى أخرجه حسده لآدم إلى الكفر بربه، وخالف فيما ترك من السجود عن أمره، ثم خشي أن يؤاخذه الله معافصة[10] على ذنبه، فطلب الإنظار والتأخير من ربه، فأنظره وأمهله الله إلى يوم حشره.

ولو حجب الله علم آدم وذريته عن الملائكة لم يكن ليعلمه إبليس ولا هم،

---

(١) الانعام: ١١٣.
(٢) رسمها في أ، ب: لعسوه.
(٣) أي رأوا تهاويل مفزعة.
(٤) الجن: ٩.
(٥) في أ، ب: ما.
(٦) البقرة: ٣١ ـ ٣٣.
(٧) في أ، ب: عني.
(٨) في أ، ب: الرجين.
(٩) مكانها في ب مغطى بالسواد، وعبارة أ: ما رأى إبليس اللعين الرجين من كرامة الله لادم.
(١٠) مصارعة واثخاناً واقتلاعاً.

وليس إعلامه إياهم، سبحانه، أنه سيجعل لآدم ذرية كإعلامه من قبل إيجاده لآدم بآدم حين يقول، عز وجل: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾**[1]، وكما أعلمنا في كتابه، على لسان نبيه، صلى الله عليه وآله، بما يكون في دار الآخرة من الثواب والعقاب والمجازاة بين العباد، وليس على الله في ذلك من حجة كبيرة ولا صغيرة.

* * *

وأما ما سأل عنه من استكبار إبليس، وقال: ممن هو؟ أمن الله؟ أم منه؟ أم من غيره؟ فسبحان الله! ما أَبْيَنَ جهل من شك في هذا، أيتوهم أو يظن ذو عقل أن الله ألزم إبليس التكبر والاجتراء عليه فأدخله قسراً فيه؟ وهو يسمع أخبار الله في ذلك عنه، وأنه نسب التكبر إليه، فقال سبحانه: **﴿وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبا واستكبر وكان من الكافرين﴾**[2]، فذكر أن الاستكبار والكفر من فعل إبليس الكافر المستكبر، ولو كان الله أدخله في الإستكبار فاستكبر، وقضى عليه بالكفر فكفر، لم يقل فيه: **﴿وكان من الكافرين﴾**، ولكان أصدق الصادقين يقول فيه: إنه أطوع المطيعين. وما كان من استكبار إبليس فهو كاستكبار غيره من الناس، قال الله، سبحانه: **﴿ويوم يُعْرَض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾**[3]، ولو كان الكبر والفسق من الله فيهم فعلاً، وله سبحانه عملاً، لم يجزهم عذاب الهون على فعله الذي أدخلهم فيه، بل كان يثيبهم عليه ويكرمهم لديه.

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣٤.

(٣) الاحقاف: ٢٠.

المسألة الثالثة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد، المسألة عن آدم، عليه السلام، وزوجته، فقال: خبرونا عن آدم وزوجته حين أسكنهما الله الجنة، «ما كانت»[1] محبة الله ومشيئته لهما في دخولهما فيها، أخلودهما فيها وإقامتهما أم في خروجهما منها؟ فإن زعموا أن محبة الله ومشيئته كانت في خلودهما فقد كذبوا، لأن أهل الجنة لا يموتون ولا يتوالدون ولا يمرضون ولا يجوعون ولا يخرجون، وقد قضى الله الموت على خلقه جميعاً، وقضى على آدم أن تكون له ذرية تكون منهم الأنبياء والرسل والصديقون والمؤمنون والشهداء والكافرون، ثم قال: **﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخْرَجون﴾**[2]، ثم قال: **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾**[3]، وكيف يكون ما قالوا وقد قضى الله القيامة والحساب والموازين والجنة والنار. سبحان الله! ما أعظم هذا من قولهم. وإن قالوا: إن محبة الله ومشيئته كانت في خروج آدم وزوجته من الجنة وهبوطهما إلى الأرض، فقد زعموا أنه لم يكن ليخرجهما من الجنة إلا الخطيئة التي عملاها والأكل من الشجرة التي نُهِيا عنها، فقد أقروا لله بقدرته ونفاذ علمه، وفي ذلك نقض قولهم.

تمت مسألته

جوابها:

وأما ما سأل عنه من إرادة الله في آدم وزوجته حين أسكنهما الجنة، أكانت إرادته خلودهما فيها؟ أم خروجهما عنها؟، وما توهم من هذه الجنة التي كان فيها آدم وزوجته أنها جنة المأوى التي جعلها الله ثواباً للعاملين ومقراً دائماً لعباده المؤمنين، فإنا

---

(١) في ب: أكانت.

(٢) الاعراف: ٢٥.

(٣) طه: ٥٥.

نقول: إن الجنة كان فيها آدم وزوجته هي جنة من جنات الدنيا ذوات الأنهار والغرف والأشجار، فسماها الله جنة، وهذا «موجود»[١] في لغة العرب غير مفقود، تسمى ما كان من الضِّياع والبساتين ذا فواكه وأشجار وعيون جناناً، أما سمعت إلى قول الله سبحانه ما أبين نوره وبرهانه، وكيف حكى عن الأمم الماضين، الفراعنة المتجبرين، حين يقول، سبحانه: **﴿كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾**[٢]، وقال: **﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾**[٣]، فسمى الله ما كان من الأرضين على ذلك من الحالات في قديم الدهر وحديثه جنات، وأن آدم كان في موضع قد برأه الله له «من الأرض»[٤]، كريم شريف عظيم، خلقه فيه وأجرى رزقه ومرافقه عليه، وليس كما ظن الحسن بن محمد وتوهم من فاحش الظن والمقال أن أهل الجنة منها خارجون وعنها منتقلون، وأن آدم وحواء كانا فيها ثم أُخْرِجا، وليس كذلك، بل هو كما قال رب العالمين وأصدق الصادقين فيمن صار إلى جنة المأوى من عباده الصالحين: **﴿خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه﴾**[٥]، وكما قال: **﴿لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾**[٦]، وأخبر أن من دخل جنة المأوى غير خارج منها أبداً، وأنه لن يذوق بعد دخوله إياها نصباً ولا شقاء، وقال، عز وجل، إخباراً منه أنه لا يدخل الجنة إلا المطيعون المجازون من العالمين، فقال: **﴿وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾**[٧]، فأخبر سبحانه، أن الجنة لا يدخلها إلا من اتقى وتقدم منه العمل بالحسنى، فأولئك الذين تزلف لهم الجنة، قال الله، تعالى: **﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود، لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾**[٨].

---

(١) في ب: فموجود، وعبارة أ: فهذا موجود في لسان العرب.
(٢) الدخان: ٢٦.
(٣) الكهف ٣٩، وهي مذكورة في ب خطأ هكذا: (فلولا . . .).
(٤) سقطت من أ: وعبارة أ: براه الله إياه.
(٥) البينة: ٨.
(٦) الحجر: ٤٨.
(٧) النازعات: ٣٧.
(٨) ق: ٣١.

وأما ما سأل عنه من قول الله: ﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾، ومن قوله: **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾**، وما توهم من ذلك أن هذه الأرض التي خلّق منها آدم هي أرض الجنة وعَرْصَتها، وأن كل العباد راجع إليها، فليس ذلك كما توهم ولا كما قال، وإنما عنى الله بكل ما ذكر من هذه الأقوال هذي الأرض التي منها خلقوا وفيها يدفنون ومن أجداثها يبعثون، قال الله تعالى: **﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً﴾**[1]، وقال، سبحانه: **﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير﴾**[2].

وأما ما سأل عنه فقال: ما كانت إرادة الله في آدم وزوجته؟ أيخلدان في الجنة؟ أم أراد أن يخرجا منها ويهبطا عنها؟ فإنا نقول: إن إرادة الله في وقت خلق آدم وزوجته سكناهما في الجنة ومقامهما، وإن إرادته وحكمه عندما كان من غفلتهما واستزلال الشيطان لهما حتى كان منهما ما كان من معصيتهما لسبب الغفلة والنسيان لما عهد إليهما ربهما من اجتناب الشجرة التي عنها نهاهما، فطلبا البقاء والحياة والاستزادة من العمل الصالح ورجوا أن يخلدا ثم يزدادا طاعة لربهما وتكثر عبادتهما لخالقهما، «فغوى»[3]، صلى الله عليه، في الشجرة ناسياً، ولم يكن ذلك عن مباينة الله بالعصيان، ولا عن قلة معرفة ما يجب للرحمن، قال الله، تبارك وتعالى: **﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾**[4]، فلما أن كان ذلك منهما أراد الله أن يهبطهما من الجنة التي كان قد كفاهما فيها لباسهما وقُوتَهما، فأخرجهما منها إلى غيرها من الأرض، وبدلهما بالراحة تعباً، وبالكفاية للمؤنة طلباً وحرثاً وزرعاً[5]، فكانت إرادته في وقت إيجادهما:

---

(١) المرسلات: ٢٥.
(٢) ق: ٤٤.
(٣) في أ، ب: فهوى.
(٤) طه: ١١٥.
(٥) رأى الامام يحيى في مكان الجنة التي هبط منها آدم، وهل هي جنة الخلد السماوية؟ ام جنة ارضية؟ هو أحد وجهات النظر في قضية خلافية بين المفسرين لايات القرآن التي تناولت قصة آدم هذه، وبالذات آية البقرة: ٢٥ **﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً...﴾** الاية، ويرجع الخلاف حول هذه القصية إلى عهد ابن عباس، ورعم أن النسفي يقول إن المعتزلة قالت إنها «كانت بستاناً باليمن، لان الجنة لا تكليف فيها ولا خروج منها» إلا أننا نجد الزمخشري، وهو معتزلي يرى أنها كانت في السماء، كما يحكي أبو حيان التوحيدي عن الجبائي، وهو معتزلي، أنها كانت في السماء. ويحكي أبو حيان عن ابن عباس قوله: «كانوا في جنة عدن لا في جنة الخلد، وخلق آدم من جنة عدن» قال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الاصبهاني: كانت في الارض، قيل بارض عدن.. =

الكفاية لهما، وفي وقت نسيانهما: ما حكم به من إخراجهما وإهباطهما منها إلى غيرها، فالهبوط هو القدوم من بلد إلى بلد، كقول العرب: هبطنا من بلد كذا وكذا إلى بلد كذا وكذا، وهبطنا عليك أرضك، وقال الله، المتقدس الأعلى، فيمن كان مع عبده ونبيه موسى، ممن كان ينزل عليه المن والسلوى ويظلل بالغمام ويسقي زلال الماء، فطلبوا وسألوا البدل بذلك بما هو أقل وأدنى، فقالوا: **﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. قال: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم﴾**[1]، فقال: اهبطوا مصر، أي أقدموا وانزلوا مصر تجدوا فيه ما سألتم من هذه الأدنى، فأراد سبحانه أن يسكنها آدم أولاً، ويخرجه منها آخراً، كما شاء أن يسكن ذريته الدنيا ثم يخرجهم منها إذا شاء إلى الاخرة، وكما شاء وأراد أن يصلي له نبيه، صلى الله عليه وآله، إلى بيت المقدس، ثم شاء أن ينقله عنه إلى ما هو أعظم، فينقله إلى بيته الحرام المكرم، كما شاء، سبحانه، أن يفترض على أمة موسى من الفرائض، المشددة والأمور المؤكدة، فافترض ذلك عليهم، ولم يرض منهم بسواه، من ذلك ما حرم عليهم من المآكل من الشحوم اللذيذة وغيرها، وما حظر عليهم لمن صيد البحر في يوم سبتهم، حتى كانت الحيتان يوم السبت تأتيهم وتظهر لهم وتكثر عندهم وتشرع قريباً منهم إمتحاناً من الله لهم، فكانوا لله في تركها مطيعين، وكانوا عنده على ذلك مكرمين، ثم عتوا من بعد ذلك وفسقوا، وخالفوا فتصيدوا، فأخذهم «الله»[2] بذنوبهم فجعل منهم القردة والخنازير، فقال، سبحانه، في ذلك: **﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، كذلك نبلوهم بما كانوا**

= وقالت الجمهور هي في السماء وهي دار الثواب». والبيضاوي يذكر رأي الفريقين، وينحاز لرأي الجمهور، فيقول: «والجنة دار الثواب، لان اللام للعهد ولا معهود غيرها، ومن زعم أنها لم تخلق بعد قال: إنه بستان كان بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان خلقه الله تعالى امتحاناً لآدم، وحمل الإهباط على الإنتقال منه إلى أرض الهند كما في قوله تعالى: ﴿اهبطوا مصر﴾، (البحر المحيط) لأبي حيان التوحيدي جـ ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٧، جـ ١ ص ٢٧٤، ٢٨١ طبعة القاهرة الاولى سنة ١٣٢٨هـ. و(الكشاف) للزمخشري. جـ ١ ص ٤٥، ٢٥٩ ـ ٢٦٢. وتفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التاويل) جـ ١ ص ٣٤. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤هـ. و(تفسير البيضاوي) ص ٢٦.

(١) البقرة: ٦١.

(٢) غير موجودة في أ.

يفسقون﴾[1]، ثم أراد الله التخفيف عن عباده فبعث فيهم عيسى، صلى الله عليه، فأحل لهم بعض ما قد حرم عليهم، قال الله، تعالى، يخبرنا عما جاء به عيسى وقاله، مما أمره الله به، جل جلاله، حين يقول: **﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون، فإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾**[2].

ثم أراد التخفيف عنهم، والنقل لهم إلى أفضل الأديان، إلى دين ابراهيم الأواه الحليم، فبعث محمداً، صلى الله عليه وعلى آله، بذلك، فصدع بأمر ربه وأنفذ ما أُرْسِلَ به، فكان ذلك إرادة من بعد إرادة، ومتعبداً من بعد متعبد، فصرف الله فيه العباد، فتبارك الله ذو العزة والأياد.

وكذلك حكم على من عصاه بالمعصية، فإن تاب حكم له بالطاعة، وإن عاد فعصى حكم عليه بما حكم على أهل الردى، وإن تاب وأناب، إلى الله وأجاب، حكم له بالهدى والثواب.

فهذه أحكام من الله وإرادات، أراد الله، سبحانه، أن يتصرف في المخلوقين على قدر ما يكون منهم من العملين، فقال، جل وعز: **﴿من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم إلى ربكم تُرجَعون﴾**[3].

وأما ما ذكر من العلم، وأن العلم لا يخلو من أن يكون الله العالم[4] بنفسه ويكون العلم من صفاته في ذاته لا صفته لغيره، أو يكون العلم غيره، فمن قال: إن العلم غيره، فقد جعل مع الله سواه، ولو كان مع الله سواه، لكان أحدهما قديماً والآخر مُحْدَثاً، فيجب على من قال بذلك أن يبين أيهما المُحْدِث لصاحبه، فإن قال إن العلم أحدث الخالق كفر، وإن قال إن الله أحدث العلم فقد زعم أن الله كان غير عالم حتى أحدث العلم، ومتى لم يكن العلم فضده لا شك ثابت وهو الجهل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإن رجع هذا القائل الضال إلى الحق من المقال فقال في الله بالصدق، تبارك وتعالى ذو الجلال، فقال: إنه العالم بنفسه الذي لم يزل ولا يزول، وأنه الواحد ذو الأفعال، وأنه لا علم ولا عالم سواه، وأنه الله

---

(١) الاعراف: ١٦٣.
(٢) آل عمران: ٥٠.
(٣) فصلت: ٤٦.
(٤) في ب: عالم.

الواحد العالم، وجب عليه، من بعد ذلك، أن يعلم أن كل ما نسبه إلى العلم فقد نسبه إلى الله، وسواء قال: أدخله العلم في شيء، أو قال أدخله الله فيه وحمله، سبحانه، عليه، فالله، عز وجل، بريء من ظلم العباد متقدس عن أفعالهم، فأفعالهم بائنة من فعله، وأفعاله بائنة من أفعالهم، لم يحل بين أحد وبين طاعته، ولم يدخل أحداً في معصيته، فعلم الله بما يكون من أفعال عباده «عير»[1] أعمالهم، ولم يضطرهم إلى عمل في حال من حالاتهم، فالعلم بهم محيط فهم متصرفون فيه، وينتقلون من معلوم إلى معلوم بما ركب فيهم من الإستطاعة والقدرة، قد علم ممن عصاه أنه سيعصي، وأن من تاب فقد علم أنه سيتوب، وإن عاد فقد علم أنه سيعود، وليس علمه بأنه سيختار المعصية أدخله في العصيان، لأن ضده قد يكون من العبد وهو التوبة والإحسان، فكيف يجوز على الواحد الرحمن أن ينقل من عباده أحداً من رضاه إلى سخطه، إذاً لقد جبره على معصيته، ولو جبره عليها، إذاً لما كان بد للعبد من الدخول فيها، ولو دخل العبد فيما أدخله ربه «فيه»[2] لوجب له الثواب عليه، ولكان لله من المطيعين، إذ هو جارٍ على مشيئة رب العالمين، ولَمَا كان في الخلق عاص، ولكان الله عن كلهم راضياً، ولكان، في القياس، إبليس عند الله مرضياً، إذ هو يجب «أن»[3]، يدعو إلى ما شاء الله لعباده ورضي، ولما ذمه في التكبر والعصيان، إذ الحامل له والمدخل له فيه الرحمن، ولما قال: ﴿**يا إبليس ما منعك أن تسجد إذ أمرتك**﴾ وهو يعلم أنه المانع له من السجود. فتبارك الله عن ذلك، الواحد المعبود.

ألا ترى كيف تبرأ من أفعالهم، ويأمر بالمجاهدة لهم على اليسير من أعمالهم، ولو كان المتولي لذلك فيهم لما عابه، سبحانه، منهم ولما حض عباده على تغيير ما أحدث فيهم، عليهم، ألا تسمع كيف يقول: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل، واقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾[4]، فقال: «اقتتلوا» فألزمهم الفعل، وقال: ﴿**فقاتلوا التي تبغي**

---

(١) أ، ب: فغير.

(٢) عبارة أ: أدخل العبد فيما أدخله فيه ربه.

(٣) في ب: أبداً، وعبارة أ: يحب أبداً ويدعو.

(٤) الحجرات: ٩.

حتى تفيء إلى أمر الله﴾، فأوجب على غيرهم من المؤمنين نصر المظلومين، فلو كان، على قول الجاهلين، لكان قد ألزم المؤمنين قتال من لا يجب قتاله، ومن تجب ولايته، إذ أجاب الله في دعوته وجرى له في طاعته، وبغى على من أمره بالبغي عليه، ولو كان الله المحدث البَغْيَ في الفاعل له، لكان قد أمر عباده بقتاله حَصْراً فيه دون غيره حتى يفيء هو ويرجع عن إرادته ومشيئته، ولكان أيضاً قتال عباده قتاله دونهم، فكان مقاتلاً نفسه على فعله، إذ كان فعل المُقاتَل والمُقاتِل له فعلاً واحداً، فتبارك الله المتقدس عن ظلم العباد، المتعال عن اتخاذ الصواحب والأولاد، كما قال سبحانه: **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾**.

والحمد لله «الحميد» على ما خصنا به من التوحيد، ودلنا به من الدلالات فيما أبان من خلق الأرضين والسماوات وغيرهما من الأيات.

تم الجواب

المسألة الرابعة

ثم أتبع ذلك «المسألة»[١] عن أهل النار «وعن النار»[٢]، فقال: «خبرونا»[٣] «عن أهل النار»[٤] أَلِخيْرٍ أراد الله بهم فوضعها فيهم؟ «أم»[٥] الشر أراد بهم؟ . . فإن قالوا: الخير أراد بهم، فيقال لهم: «وكيف»[٦] ذلك، وقد جعلها وقد علم أنهم لا ينتفعون بها، وأنها لا تكون إلا في مضرتهم، وإن زعموا أنه جعلها فيهم ليضرهم انتقض عليهم قولهم. تمت المسألة.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من أمر النار، وقال: «لم»[٧] خلقها «الله»[٨] الرحمن؟ الشر أراد بخلقه «لها»[٩] ؟ أم لإحسان؟ . . فنقول: إن الله، تبارك وتعالى، جعل النار في دار الدنيا مزجرة لمن اهتدى، لما فيها من التذكرة بالنار التي وعدها «الله[١٠] للكافرين» في دار الآخرة، ولا شيء، «والحمد لله، أبين نوراً ولا أظهر خبراً[١١]» من أن يكون خلق خلقاً أراد منهم أمراً وكره منهم ضده، «وأمرهم»[١٢] بما أراده، ونهاهم عما سخطه، ثم خلق لهم ثواباً وأعد «لهم»[١٣] عنده عقاباً، ثم استدعاهم إلى الطاعة بالثواب ونهاهم عن المعصية بالعقاب، فعُبِدَ خوفاً من عقابه وأطيع

---

(١) في ب: مسألته.
(٢) سقطت من ب.
(٣) في ب: أخبرونا.
(٤) سقطت من ب.
(٥) في أ: أو.
(٦) في ب: كيف، بدون واو.
(٧) في أ، ب: لمن.
(٨) غير موجودة في ب.
(٩) سقطت من أ.
(١٠) في أ: الكافرين: بدون لفظ الجلالة.
(١١) عبارة أ: ولله الحمد وأظهر نوراً ولا أبين خبراً.
(١٢) في أ: فأمرهم.
(١٣) سقطت من أ.

«طمعاً»[1] فيما جعل من ثوابه كما قال: «تعالى»[2] ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون**﴾[3]، فجافوا، لمخافته وطلب مرضاته، منهم الجنوب، وطهروا أنفسهم من الذنوب، وطيبوا منهم السرائر والقلوب، فأمَّنوا بالطاعة أنفسهم من نِحَل العاصين، واستوجبوا بذلك اسم المؤمنين، فكانوا كما قال فيهم ووصفهم رب العالمين حين يقول: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**﴾[4]، فخافوا ربهم «واهتدوا»[5]، ومن عذابه نجوا، فلما أعلم الله العباد أجمعين أن الجنة مصير المؤمنين وأن النار مقر الفاسقين، «ليحذر أولوا الألباب النيران»[6]، فأعملوا أنفسهم في الفرار إلى الرحمن، راغبين فيما رغبهم فيه من الجنان، فسبحان من لطف بعباده بما جعل لهم من النار في بلاده، تخويفاً وترهيباً ومنافع وتقوية وترغيباً، ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم**﴾[7]، ثم قال: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون**﴾[8] وقال: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾[9]، فجعلها لهم في الدنيا مزجرة وتخويفاً وتحذيراً من «نار»[10] الاخرة، مع مالهم فيها في دار الدنيا من المنافع التي لا تحصى والمرافق الجمة التي لا تستقصى، بها يطبخون ويخبزون، وبها من القر يحترسون، وبها في ظلمات الليل يبصرون، وبها ينالون من الحديد ما ينالون من تصريفه في أسبابهم وتقويمه «لمعاشهم»[11]، من أدوات حرثهم وحفرهم وغير ذلك من منافعهم، «وبها ما

---

(١) سقطت من ب.
(٢) سقطت من ب.
(٣) السجدة: ١٦.
(٤) الانفال: ٢.
(٥) في أ: فاهتدوا.
(٦) في أ: حذر أهل الالباب النيران.
(٧) الانفال: ٤٢.
(٨) الانعام: ١٦٠.
(٩) الزلزلة: ٧.
(١٠) سقطت من ب.
(١١) في أ: في معاشهم.

يعدون»[1] لأعداء الله من السلاح، من السيوف والدروع التي تقيهم بأسهم، كما قال، سبحانه: ﴿**وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم**﴾[2].

ألا ترى وتسمع كيف قال رب العالمين، حين «يذكر»[3] ويُذَكِّر بالآية عباده «المتقين»[4]، فقال: ﴿**أفرأيتم النار التي تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين**﴾[5]، فجعلها الله الواحد الأعلى منفعة في الدنيا للخلق طراً، ونكالاً في الاخرة لمن استأهلها لا تفتأ[6].

ففي هذا، والحمد لله من الجواب «ما أزاح من قَلْبِ التحير والشك والارتياب»[7]، وثبت، في إيجاد النار، الحكمة لرب الأرباب.

تم جواب مسألته

---

(١) في النسخة ب: وما بها يعدون، وفي النسخة أ: وبها بعدون لاعداء الله ما يعدون من السيوف والدروع وعير ذلك من السلاح التي تقيهم من بأسهم.

(٢) الانبياء: ٨٠.

(٣) سقطت في ب.

(٤) في أ: المؤمنين.

(٥) الواقعة: ٧١ ـ ٧٣.

(٦) أي لا تنطفىء، وفي النسخة أ: لا يفنى.

(٧) عبارة أ: ما أراح من قلب ذي الشك والتحير والإرتياب.

المسألة الخامسة

ثم أتبع المسألة «عن»[1] المعرفة، فقال: هل يستطيعون أن يجهلوا ما جعلهم الله به عارفين؟ أم لا يستطيعون؟ . . فإن قالوا: لا، فقد انتقض قولهم عليهم، وإن قالوا: نعم، فقل: هل يستطيعون أن يجهلوا معرفة الله، فلا يعرفون أنه خالق كل شيء ومصور كل شيء؟ فإن قالوا: هذه الفطرة، وليس يثاب أحد عليها، فالخلق كلهم يعرفون أنه الله، فقل: هل يستطيعون أن يجهلوا الليل والنهار والسماء والأرض والدنيا والآخرة والناس والخلق كلهم أن الله خلقهم كما شاء وكيف شاء؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا، والناس كلهم شهود على كذبهم، وإن قالوا: لا، فقد تابعوك. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه، فقال: هل يستطيعون أن يجهلوا ما يعرفون؟ أو يعرفوا ما يجهلون؟ . . فإن مسألته تخرج على ثلاثة معان، ونحن لها مفسرون، ولكلها، إن شاء الله، مميزون:

أولها[2]: معرفة الخالق، وهي «لا»[3] تدرك إلا بالعقل الصحيح والقلب النضيج[4]، قال «الله»[5] سبحانه: **﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾**[6]، وقال «سبحانه»[7]: **﴿وليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾**[8]، وقال: **﴿إن في ذلك**

---

(١) في أ: في.
(٢) في أ: فأولهن.
(٣) في أ، ب: فلن.
(٤) المحكم.
(٥) سقطت من أ.
(٦) الحشر: ٢.
(٧) سقطت في ب.
(٨) ص: ٢٩.

لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[1]، فإذا صح مَرْكَب اللب وثبت فهم القلب، ثم تدبر أمره جميع الخلق وقصدوا في ذلك قصد الحق «تفرع»[2] لهم من الألباب وَجَوْدَة فكرهم وإنصافهم لعقولهم ما يدلهم على معرفة خالقهم وقدرة سيدهم ومالكهم «ودلهم»[3] ذلك على أن لِمَا يرون من خلق أنفسهم واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح وغير ذلك من الأشياء خالقاً، ليس كمثله شيء، ولا يشبهه «في ذلك كله شيء»[4]، ألا تسمع كيف يدل على نفسه بما أبان من قدرته في خلق سماواته وأرضه «وما بث فيهما»[5] كل أوان من صنعه، وينزل من السماء «بقدر»[6] من رزقه، فقال، سبحانه: **﴿إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقهم وما بث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح آيات لقوم يعلقون﴾**[7] فإذا صح للمخلوق لبه وطاب «له بالطاعة»[8] قلبه، ثم فكر «وفي»[9] أمره كله تدبر، بأن له أمر خالقه، وثبت في صدره اقتدار مصوره.

وأما المعنى الثاني: فما أمر الله العباد بعلمه، وحرم عليهم ما هم فيه من جهله، من الحلال والحرام، «والصلاة والزكاة»[10] والصيام والحج إلى بيته والوقوف بمشاعره العظام، وكل ما جاء به محمد، عليه السلام، مما تعبد الله به العباد، وألزمهم فيه الإجتهاد، وهذا «لا»[11] يعلم ولا يسمع إلا بمُخْبِر عن الله مستمع متكلم «بالحق»[12] مناد، ولمن خالفه في ذلك معاد، وكذلك وبذلك بعث الله الأنبياء إلى عباده ليؤدوا «إليهم»[13] فرائضه وأمره، وينادوهم بذلك فيسمعوا، ويعلموهم إياه فينتصحوا «فينجوا»[14] «ولو لم»[15]، يكلموهم به ويسمعوهم إياه

---

(١) ق: ٣٧.
(٢) أقرب ما تقرأ عليه.
(٣) في أ: فدلهم.
(٤) عبارة أ: شيء في ذلك كله.
(٥) في أ: وما يليهما فمن.
(٦) في أ: ما يقدر.
(٧) الجاثية: ٣، وفي أ: «وما أنزل من السماء من ماء» وهو خطأ.
(٨) في أ: لله بطاعته.
(٩) في ب: في.
(١٠) في أ: الصلوات والزكوات.
(١١) في أ، ب: فلا.
(١٢) سقطت من أ.
(١٣) سقطت من أ.
(١٤) سقطت من أ.
(١٥) في أ: فلولم.

لم يقفوا على علم ذلك أبداً، ولم يعرفوا حدوده أصلاً، فلم يكن في الفرائض لهم بُدٌّ من مبلغين، ومرسلين مبشرين ومنذرين، ففعل الله بهم كذلك، وبعث إليهم الرسل بذلك، رحمة منه، سبحانه، لهم، وعائدة منه بفضله عليهم.

والمعنى الثالث: فهو ما أُدْرِكَ وعلم بالتجربة مما لم يكن ليدرك أبداً إلا بها، ولا يصح لطالب إلا منها، من ذلك ما أدركه المطبون من علم ما يضر وما ينفع، وما يهيج وما «يقمع»[1] وما يقتل من السموم وما يردع السم عن السُّموم، وما يفسد العصب وما يُجْتَلَب بأكله العطب، وغير ذلك مما يطول ذكره ويعظم لو شرحناه، أمره، مما لا يدرك أبداً إلا بالتجربة أولاً.

فمن هذه الثلاثة المعاني تصح المعارف كلها للعارفين، ويثبت الفهم للمتفهمين، وقد يجهل ذلك كله من شاء أن يجهله، كما يعرفه من شاء أن يعرفه بأهون الأمر وألطف الخبر. فأما التجربة فيجهلها من لم يجرب الأشياء. وأما الفهم والتمييز بالعقل فقد يبطله شارب الخمر بشربه الخمرة فيزيل بذلك ما ركب فيه من لبه، ومن ذلك رقاد الراقد، إذا رقد لم يعلم ممن يدخل إليه أو يخرج عنه «بأحد»[2]، والتبس عليه الليل والنهار، وعميت عنه، بكليتها، الأخبار، حتى ربما استرقد ليلاً فلا يعلم حتى يهجم عليه النهار، وربما رقد نهاراً فلا يعلم حتى يهجم عليه الظلام ويزول الإبصار. فكيف يقول أن أحداً لا يقدر على جهل ما علم ولا علم ما جهل لسبب يعلم ولا بحيلة تفهم؟، ألا ترى أن السكران يعلم في حال سلامة عقله بما يشينه وينقصه ويفضحه، من عمله، حتى لو أعطى من يدعي المروءة منهم ورشى جزاء من «الرشاء»[3] عظيماً، حين سلامة لبه، على أن يكشف له ثوباً أو يبدي من نفسه عيوباً لم يكن ليفعل، وإذا شرب وسكر لم يعلم له «لشرابه، وجاءت وظهرت منه في نفسه، ولها الفضيحة والنكاية»[4]، فهل ذلك إلا

---

(١) في أ: يقع.

(٢) هكذا في النسختين: أ، ب.

(٣) في أ: الدنيا، وهي كما أثبتناها هنا في ب بين السطرين بغير خط الناسخ بدلاً من: المال، المشطوبة، وكذلك في أ: جزءاً، بدلاً من جزاء.

(٤) هكذا في النسختين: أ، ب، وفي النسخة ب لا توجد: «وظهرت منه»، والعبارة مضطربة، ولكن إذا قرأنا الكلمة الاولى: لشرابه، استقام المعنى.

من جهله بما كان يعلم، وقلة معرفته في تلك الحال بما كان يعمل، أَوَمَا رأى من علم علماء وروى رواية وحكاء، من علماء وحكماء، بل مَنْ أحكَمَ القرآن، وتلا عن ظهر[1] قلبه الفرقان، ثم ترك قراءته دهراً فجهل ونسي ما علم منه طراً، أو ما رأى من كان دهره جاهلاً وعن كل خير وعلم غافلاً ثم انتبه لنفسه وأنف من جهله فتعلم فعلم ونظر ففهم؟!

وكل ما ذكرنا، والحمد لله، مُنْقِض لكل ما عنه سأل وظن بذلك أنه قد أحال في الكلام كل محال، ولم يعلم أنه في قوله قد أحال وأخطأ في كل ما عنه سأل وتعسف في مدلهمات ظُلَم المقال، وكشفنا عنه وعن غيره من الخلق ممن يريد ويقصد الحق «طمياء»[2] دَيْجور جهله وبينا له ما التبس عليه من أمره حين أقدم بالقول فقال: هل يقدر انسان أو قدر قطذو بيان على أن يجهل ما علم أو يعلم ما جهل، في حالة من الحالات أو وقت من الاوقات، وزعم أن أحداً لا يَدْخُله في ذلك أبداً إرتياب ولا يجهله بسبب من الأسباب، وقد وجدنا ذلك بخلاف قوله وعلمنا أن فعل ربه بخلاف فعله، لا ما نسب هو إلى ربه وقلده، سبحانه، ما ليس من صنعة فعلها، فعلمنا أن الإبصار إلى ظلام الليل وإشراق النهار من فعل الإنسان لا من فعل الرحمن.

ثم إن المعرفة من العارف، تفرعت من لبه عند استعماله لفكره واستخراجه ما أمر باستخراجه من التمييز بعقله، وقد نجد المبصر بعينه يبصر إلى ما يحل له ويحرم عليه، ولو كان البصر من الله لكان الله المدخل له فيه، الناظر الباصر دون الإنسان إليه، تعالى عن ذلك رب العالمين، وتقدس عن مقال الجاهلين. تم جواب مسألته.

---

(١) في النسخة ب لا نجد اللوحة ١٨٢ حيث أنها طمست أثناء «وصل» أجزاء الفيلم رقم ٣٣٦ التي كبرت على أساسه المصورة «٢٩٠٩٥ ب» بدار الكتب المصرية، ولقد اعتمدنا فيها على النسخة «أ» فقط.

(٢) هذا أقرب ما تقرأ عليه، ومعناها الشدة الشديدة.

المسألة السادسة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة، فقال: أخبرونا عن النـاس، من أنطقهم؟ والكلام من خلقه؟ فإن قالوا: الله، فقد انتقض قولهم، وذلك لأن الكلام يكون فيه الصدق والـكذب والتـوحيد والإشـراك، وأعظـم الـكذب الشـرك بالله والتكذيب والإفتراء عليه، وإن أنكروا أن يكون الله خلق المنطق والـكلام فذلك الكفر والشرك بالله والتكذيب بما جاء به من عنده، فقل: خبرونا عن قول الله إذ قال في كتابه ﴿**وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون**﴾[1]. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه مما ضل فيه ونسبه إلى الله وقال به من المنكر عليه، فقال: خبرونا عن الناس من أنطقهم؟ وعن الكلام من خلقه؟ فنقول: إن الله أنطقهم كما هداهم، وهداهم كما بصرهم، وبصرهم كما أسمعهم، وأسمعهم كما مشاهم، وأمشاهم كما أبطشهم، وأبطشهم كما أقامهم، وأقامهم كما أقعدهم، وأقعدهـم كما أشمهم، وأشمهم كما أنكحهم، فلم يكن منه في ذلك كله فعـل غير خلـق الأداة، خلق الرِّجل للمشي فمشى، وخلق الأذن للسمع فسمـع، وخلـق الأنف للشم فشم، وخلق العين للنظر فنظر، وخلق الفرج للنكاح فنكح، فما ناله الإنسان من تلك الأداة فهو من فعله، وليس من فعل الله فعل عبده، الله خلق الفرج امتناناً عليه به لينال به من الشهـوة ما نال، وفعـل العبـد «هـو»[2] النـكاح، فهـل يرى الحسن بن محمد «الوسن»[3] الجاهل بقول غير ذلك، أو يقدر على نقض حرف

(١) فصلت: ٢١. (٢) في الاصل: فهو.

(٣) في النسخة أ رسم الكلمة هكذا: الوسر، والوش، من معانيها: الغافل.

مما شرحنا أو به قلنا أوحججنا؟ ،والحمد لله الواحد الأعلى.

وكذلك كان فعله سبحانه في إنطاقهم، خلق لهم الألسنة واللهوات وما يكون به الكلام من الآلات، ثم أمرهم أن يذكروه ويسبحوه، فقال، سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه: ﴿**فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين**﴾[1]، وقال: ﴿**فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون**﴾[2]، ونهاهم أن يقولوا عليه غير الحق فقال: ﴿**ولا تقولوا على الله إلا الحق**﴾[3]، فجعل لهم سبب القول فيه، ونسبه إليهم، ولم ينسبه إليه، وجعله، جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله، عن افترائهم عليه، ولو كان الكلام من فعله، وكان الناطق به على ألسنتهم، لكان هو القائل في نفسه ما أنكره عليهم، من ذلك قول فرعون: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾[4]، وقول الكافرين لكتاب رب العالمين: ﴿**أساطير الأولين**﴾[5]، و﴿**هذا إفك قديم**﴾[6]، ومن ذلك ما قالوا للأنبياء المطهرين، صلوات الله وبركاته عليهم أجمعين، وما رموهم به من السحر والجنون، قال الله، تعالى: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون، أتواصوا به، بل هم قوم طاغون**﴾[7]، أفَيَرى الجاهل المفتري، الظالم لنفسه، الغوي، يقول: إن الله، سبحانه، كذب أنبياءه ورماهم بما قال الكافرون من السحر والجنون فيهم، وحمل الكافرين على أن يسيئوا بهم الظنون، وينسبوا إليهم الكذب والسحر والجنون، بل كيف ينطقهم بالتكذيب لهم والافتراء عليهم، وهو يأمرهم بالطاعة لهم، ويعطيهم الجنان على الإيمان بهم، فقال، سبحانه: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾[8]، وقال: ﴿**والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم، لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب**

(١) البقرة: ١٩٨.
(٢) البقرة: ١٥٢.
(٣) النساء: ١٧١.
(٤) النازعات: ٢٤.
(٥) المؤمنون: ٨٣.
(٦) الاحقاف: ١١.
(٧) الذاريات: ٥٢.
(٨) الحديد: ٢١.

الجحيم﴾[1]، كذب القائلون على الله بذلك، ووقعوا عنده في المهالك، فسبحان الرؤوف الرحيم، العدل الجواد الكريم.

***

وأما ما سأل عنه مما التبس عليه، وتحير فيه لقلة العلم بالله فيه، من «قوله»[2]، سبحانه **﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾**[3]، «هو جعل فينا»[4]، فتوهم أن معنى **﴿أنطقنا الله﴾**[5] هو: تكلم علينا وقال ما قلنا، وليس في ذلك كذلك، بل هو على ما شرحناه أولاً، ومعنى **﴿أنطقنا الله﴾** أي جعل فينا استطاعة ننطق بها، وأذن لنا بالنطق فنطقنا، وشهدنا حينئذ بما علمنا، ولو كان الله الذي فعل الكلام بعينه، وولي قوله بنفسه دون غيره، لقالت جلودهم: نطق الله علينا فيكم، وشهد «هو»[6] لا نحن عليكم وتكلم علينا بما علم منكم، تعالى الله عما يقول المبطلون ويضيف إليه الملحدون، وليس إنطاقه إياها في الآخرة إلا كإنطاقه للألسنة في الدنيا والآخرة، وليس إنطاقه للألسنة إلا كإسماعه السمع، فلما جعل في السمع استطاعة على أن يسمع سمع، وكذلك «العين واليد»[7] والرِّجل، فالعين الله خلقها، والنظر إلى الأشياء فعل العبد، واليد الله خلقها، والإنسان يبطش بها، والرجل «الله»[8] خلقها، والإنسان «بها مشى»[9]، فمن الله، سبحانه، خلق الأدوات، وإيجاد الآلات في الأبدان، وما تفرع منها فمن «أفعال»[10] الإنسان، وذلك، «ولله الحمد»[11] ذو المن، «بيِّن»[12] «الشأن»[13] لمن عرف الله على حقيقة العرفان. تم جواب مسألته.

---

(1) الحديد: ١٩.
(2) في أ: قول الله.
(3) فصلت: ٢١.
(4) سقطت من ب.
(5) غير موجودة في أ.
(6) في أ: هاو.
(7) في أ: اليد والعين.
(8) في ب: فالله.
(9) في أ: شي بها.
(10) في أ: فعل.
(11) في أ: والحمد لله.
(12) في ب: تبين.
(13) في أ: البيان.

المسألة السابعة

ثم أتبع ذلك المسألة عن الحركات، فقال: من خلقها؟

فإن «قالوا»[1]: الله خلقها، كان ذلك نقضاً لقولهم، وذلك أن كل عمل، من خير أو شر، طاعة أو معصية، إنما يكون بالحركات. فإن قالوا: إن الله لم يخلقها، فقد أشركوا بالله، وذلك ابتلاء عمل، لأنه لا يتم خلق الإنسان إلا بالحركة. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه[2] فقال: من خلق الحركات اللواتي تكون من الخلق في الحالات؟ فنقول: سبحان الله الرحيم، العدل، الجواد، البريء من أفعال العباد، المقدس عن القضاء بالفساد، كما قال في نفسه ذو الأياد: ﴿**إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾[3]، ثم نقول: إن بين أفعال الله وأفعال خلقه «فرقا بيّناً»[4]، وأنه واضح في الخلق عند من أراد معاني الحق، فأفعال الله متتابعات متلاحقات في كل شأن، وأفعال المخلوقين، ذوي العجز المربوبين، «غير»[5] متلاحقات، بل هن عن التلاحق عاجزات، وآخر أفعال الله بأولهن لاحق، وأولهن لآخرهن غير سابق، فأفعال الخالق موجودات، معلومات، ثابتات متجسمات، وأفعال الخلق «زائلات»[6] غير موجودات، بل هن في كل الحالات معدومات، وفي ذلك، والحمد لله من البيان، ما فرّق عند ذوي العلم والإتقان،

---

(١) في أ: قال.

(٢) عبارة ب: وهو أن سأل فقال.

(٣) الاعراف: ٢٨.

(٤) في أ: فرق بين.

(٥) في أ، ب: فغير.

(٦) في أ، ب فزائلات.

بين أفعال الخالق، ذي البقاء والجلال، وبين أفعال الخلق «ذوي»[1] الفناء والزوال.

ألا ترى وتسمع كيف أكذب الله من نسب أفعال العباد إلى ربه؟ فأكذبه سبحانه، ونفاها عن نفسه، حين يقول: ﴿**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾، وقال: ﴿**ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين**﴾[2]، أفظن من جهل و«عمي»[3] أن الله فعل كذبهم عليه ثم رماهم به وقال إنهم قالوه فيه؟ فمن يا ويحه إذاً الكذوب المبطل، الظالم المتعدي، الغشوم المدغل[4]؟ من قال وفعل؟ أم من لم يقل ولم يفعل؟ أما سمع الحسن بن محمد قول الجليل، وما حكى «أوضح»[5] التنزيل عمن ظلم وجار و«أساء»[6] وفعل فعلاً ثم رمى به إلهه واعتدى، من قصي بن كلاب[7] ومن به اقتدى، ممن سلك مسلكه وتبعه، وشرع في ذلك مشرعه، فسن لقريش سنة اتبعتها، واقتدى جميع العرب بها، فبحر لهم البحائر[8] وسيب لهم السوائب[9]، ووصل لهم الوصائل[10]، وحمى لهم الحام[11]، فكانوا على ذلك حتى ظهر الإسلام، وأكرمهم الله بمحمد، عليه السلام، فقال الله سبحانه، في ذلك، ونفى

---

(١) في ب: ذي.

(٢) الزمر: ٦٠.

(٣) في ب: غبي.

(٤) من معانيها: المريب، والخائن، والواشي، والمغتال.

(٥) في أ: واضح.

(٦) في النسخة ب: أسى.

(٧) سيد مكة في الجاهلية.

(٨) جمع بحيرة، التي بحرت أذنها، أي شقت، وهي الناقة كانت تترك في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن آخرها ذكر، فلا تركب، ولا تمنع عن ماء أو مرعى، ويحرم لبنها إلا على ولدها أو لضيف.

(٩) جمع سائبة، وتجمع على سيب كذلك، وهي التي تعامل كما تعامل البحيرة بسبب النذر.

(١٠) جمع وصيلة وهي التي وصلت أخاها من أولاد الغنم إذا ولدت أنثى وذكر، فلم تذبح، لانهم كانوا يجعلون الانثى لهم والذكر لالهتهم، فإذا اجتمعا كانت الام وصيلة.

(١١) وهو فحل الإبل إذا انتجت أنثاه من صلبه عشرة أبطن، وكانوا يحرمون في الجاهلية ظهره، ويقولون: قد حمى ظهره. راجع «تفسير البيضاوي» لآية: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ «المائدة: ١٠٣» ص ١٩١ ط ـ القاهرة سنة ١٩٢٦ م.

عن نفسه ما رموه به من ذلك، وألزمهم فعله، وبرّاً منه، تبارك وتعالى، نفسه، فقال: **﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب، وأكثرهم لا يعقلون﴾** [1].

أفترى الحسن بن محمد ومن استجهله فقال بقوله وذهب مذهبه، يقولون لله، إذ نفى ذلك من فعلهم عن نفسه، بل أنت فعلته فيهم وخلقته «وركبته»[2] لديهم، وأدخلتهم فيه، وقضيته عليهم؟ لقد كذّبوا إذاً الرحمن العلي الأعلى، وصدقوا قريشاً الجاهلية الجهلاء، وكفروا بالله كفراً يقيناً، واحتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً.

ففي هذا والحمد لله من الحجة كفاية لمن كانت له بالحق من الخلق عناية.

* * *

ومما نحتج به على الحسن بن محمد من المقال، وندحض به قوله المحال، أن يقال له: إذا كنت تزعم أن الله خلق هذه الحركات التي هي «من»[3] أفعال العباد، من أخذ وإعطاء، وحذو واحتذاء، ولبس وارتداء، وقول ومقال، وزور ومحال، فلا نشك نحن ولا أنت ولا أحد علم شيئاً أو فهم، أن قريشاً بَنَتْ بنخلة العُزّى، وثقيفاً بالطائف اللات، فزينوهما بالجواهر والعقيان ثم عبدوهما وجعلوهما قسماً من دون الله «الرحمن»[4]، ومن ذلك ما جعلت ونحتت وأقامت ونصبت، على الكعبة وفيها، قريش من الأصنام، وما كانوا يجلون ويعظمون ويذبحون لهبل[5] وأشباهه عند بيت الله الحرام، فيقول الحسن بن محمد: إن الله تعالى، بنى لهم اللات[6] والعزى[7]، وأمرهم بعبادتهما والقسم دونه بهما، وأنه أقام لهم تلك الأصنام، وأضل بها كل من ضل بها من الأنام، وعظمهن، وذبح، جل عن ذلك، لهن، وقرب تلك القرابين إليهن. لعمر الحسن بن محمد وأتباعه

---

(١) المائدة: ١٠٣.

(٢) في ب: تركته.

(٣) سقطت من ب.

(٤) سقطت في النسخة أ.

(٥) صنم كان بالكعبة قبل انتصار الاسلام.

(٦) صنم كانت لقريش، أو لثقيف بالطائف.

(٧) صنم كانت لغطفان، قطعها خالد بن الوليد عندما بعثه إليها الرسول عليه السلام. راجع «تفسير البيضاوي» لآية: «أفرأيتم اللات والعزى» «النجم: ١٩» ص ٧٢٧.

وأهل «البدعة»[1] من أشياعه، لو كان الله خلق وفعل أفعال الفاعلين، لكان العابد، دون من عبدهن، لهن، فلذلك يلزم من قال ذلك، بلا شك، بهذا القول الكفر، إذ يقولون: إن الله فاعل أفعال قريش دونها، وفاعل كل ما فعله من الفواحش غيرها، فَلِمَ، يا ويحه! إذاً بعث محمداً إليهم يعيب ذلك عليهم؟! لقد بعثه إذاً يعيب عليه «فعله دونهم»[2] ويبطل ما صنع، ويخفض ما رفع، «وقريش»[3] إذاً كانت لله مطيعة، وفي مرضاة خالقها ماضية سريعة فيما فعل، معظمة مُحِلَّة لما أحل، ومحمد لله[4] في فعله مضاد، وفي كل قضائه محاد، فلقد، إذاً، هدم محمد، صلى الله عليه وآله»[5]، ما بنى الرحمن، وعانده وخالف عليه في كل ما شاد، فهذا أكفر الكفر وأعظم الفرية «على الله»[6] والأمر، فسبحان من هو بريء من عصيان كل عاص، وطغيان كل مفتر طاغ. تم جواب مسألته.

(١) في النسخة أ: البلاغة.
(٢) في أ: فعلهم دونهم.
(٣) سقطت من ب.
(٤) في ب عبارة: «ولم يكن محمد الله لله» بين السطرين بغير خط الناسخ.
(٥) سقطت من أ.
(٦) سقطت من ب.

المسألة الثامنة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن الأعمال، فقال: خبرونا عن الأعمال التي عمل بها بنو آدم، أشيء هي؟ أم ليست شيئاً؟.. فإن قالوا: بل هي شيء، فقل: من خلق ذلك الشيء؟ فإن قالوا: الله خلقه، انتقض «عليهم قولهم»[1]، وإن قالوا: ليس «ذلك»[2] مخلوقاً، كان ذلك شركاً بالله وتكذيباً لكتابه، لأن الله، سبحانه، خالق كل شيء، «فقل لهم»[3]: ألم تعلموا أن أفعال بني آدم شيء، فإن قالوا: نعم، فقل: والله خلقها، فإن قالوا: ليست بشيء، فقل لهم: فقد زعمتم أن الله يثيب على غير شيء، ويعذب على غير شيء، ويغضب من غير شيء «ويرضى من غير شيء»[4]، ويدخل الجنة بغير شيء، ويدخل النار بغير شيء. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من أفعال العباد، فقال: أشيء هي أم غير شيء؟ وقال: إن كانت شيئاً فمن خلقها؟ وإن لم تكن شيئاً فهل يعذب أو يثيب الله على غير شيء؟.. فإنا نقول، وإلى الله، سبحانه، نؤول: إنها شيء وأشياء، وطاعة وعصيان، وإساءة وإحسان، ألم تسمع الله، سبحانه، يقول: **﴿لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، أن دعوا للرحمن ولداً، «وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً»[5]﴾**[6]، فسمى تحرك ألسنتهم بما قالوا من الكذب والافتراء شيئاً، ثم أخبر بأن السماوات لو كان فيهن من العقول والتمييز

(1) في أ: قولهم عليهم.
(2) سقطت من ب.
(3) في أ: وقل لهم.
(4) سقطت من أ.
(5) غير موجودة في أ.
(6) مريم: ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢.

ما فيكم لانفطرن لإعظام ما جاء من قولكم، وكذلك لو «أن الجبال»[1] كان فيها بعض ما ركب «فيكم من الفهم»[2] لخرت لإعظام اجترائكم على الخالق بما به اجترأتم. وقال، سبحانه: ﴿**وكل شيء فعلوه في الزبر**﴾[3]، فسمى افعالهم شيئاً، فقد أوقع في الزبر، والزبر «هي»[4] الكتب.

وقال ابن عباس: إن الزبر التي ذكر الله أن أفعالهم فيها هي هذه «الكتب»[5] التي أنزلها الله على أنبيائه من التوراة والإنجيل والفرقان، الكريم الجليل[6] ونحن «نقول»[7]: إن الزبر هي الكتب التي ذكر الله في قوله: ﴿**ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾[8]، وفي قوله: ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**﴾[9]، فهذه التي ذكر الله من الكتب عنده، وأنه يظهرها يوم دينه وحشره هي الزبر «التي»[10] ذكر الله أن أفعالهم فيها، لا ما قال ابن عباس من أنها «هي»[11] المنزلة على أنبيائه، من توراته وإنجيله وما نزل على محمد من فرقانه، ألا تسمع كيف يقون: ﴿**وكل شيء فعلوه في الزبر، وكل صغير وكبير مستطر**﴾[12] وهذه الكتب المطهرة، من التوراة والإنجيل والفرقان، المكرمة، ففيها بعض ما فعل العباد وكثير منها لم يقص خبره ولم يذكر، جل جلاله، أمره، كما قال ذو العزة والأياد، ورافع السماء وداحي الأرض ذات المهاد، ﴿**منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك**﴾[13] وقال: ﴿**«نحن»[14] نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون**﴾[15]، يريد نقص عليك بعض خبرهما وما كان من محاورتهما وأمرهما، وقال، سبحانه، في أهل الكهف، وما كان من سؤال قريش «للنبي»[16] عنهم، فقال الله، في ذلك: ﴿**إذ يتنازعون**

---

(1) سقطت من أ.

(2) في أ: من الفهم بكم.

(3) القمر: ٥٢.

(4) في أ، ب: فهي.

(5) سقطت من ب.

(6) في أ، ب عبارة مكررة هي: «فقال هي الزبر التي ذكر الله أن أفعالهم فيها».

(7) في أ، ب: فنقول.

(8) الاسراء: ١٣.

(9) الجاثية: ٢٩.

(10) في ب: الذي.

(11) في أ: هذه.

(12) القمر: ٥٢، ٥٣.

(13) غافر: ٧٨.

(14) غير موجودة في ب.

(15) القصص: ٣.

(16) في أ: النبي صلى الله عليه.

«بينهم»[1] أمرهم، فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم، رجماً بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾[2]، وقال، سبحانه: ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾، وقال: ﴿من نبأ موسى وفرعون﴾، فأخبر نبيه، صلى الله عليه وآله بما مان من قول أهل بلدهم فيهم، وقص عليه قبل ذلك ما كان من فعلهم في أنفسهم، رحمة الله عليهم، واعتزالهم إلى الكهف، وإخلاصهم لله دينهم، ثم أمره بأن لا يماري فيهم إلا مراء ظاهراً، وكتمه عدتهم، ثم قال ﴿قل ربي[3] أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل﴾ففي كل ذلك يخبر أنه لم يعلمه، صلى الله عليه وآله، ولم يخبره في كتابه من أخبار من مضى وفات في قديم الدهر «وانقضى»[4] إلا باليسير من القصص دون الكثير، ويدل على أن ما لم يقص عليه من أخبار الأمم الماضية والحقب الخالية أكثر مما قص وأعظم وأطول وأطم، وكل ذلك «دليل»[5] من الله، في واضح التنزيل، على أن ما ذكر الله من الزبر التي فيها كل ما فعله العباد مستطر غير هذه الكتب التي ذكر فيها جزءاً وترك ولم يذكر بعضاً، لأن ما جمع فيه كل شيء بخلاف ما جمع فيه بعض شيء، إذ نصف الشيء وبعضه خلاف الشيء كله.

فأما الكتب التي ذكرها الله في كتابه ونزل فيها ما نزل من وحيه وقرآنه فهي ما أقسم به، سبحانه، حين يقسم فيقول: ﴿والطور، وكتاب مسطور، في رق منشور﴾[6]، وقوله: ﴿وأنزلنا عليك الكتاب تِبْياناً لكل شيء﴾[7]، وقوله: ﴿إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون﴾[8] وقال: سبحانه، فيما حكى عن مؤمني الجن إذ صرفهم إلى نبيه يستمعون منه القرآن، فقال: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضي وَلَّوْا إلى قومهم منذرين، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً

(١) في أ: أمرهم: بينهم.
(٢) الكهف: ٢١، ٢٢.
(٣) في ب: قال: له لا أعلم، والاية في أ نقف عند: بعدتهم.
(٤) سقطت من ب.
(٥) في أ، ب: فدليل.
(٦) الطور: أ.
(٧) النحل: ٨٩.
(٨) الواقعة: ٧٨.

لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾[1]، فهذا، وما كان مثله في القرآن من ذكر الكتاب والكتب «هو»[2] ما أوحى الله ونزل، سبحانه، مما قص فيه من أخبار خلقه، وما أراد، وترك ما لم يرد من أخبار العباد.

ثم نقول، من بعد شرحنا ما أراد الله في قوله: **﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾**: إن هذه الزبر، وإن الاستنساخ، وإن الكتاب الذي يخرج لهم فيه أخبارهم وما كان من أعمالهم، فهو كاللوح المحفوظ، واللوح، والكتاب، والزبر عند رب الأرباب، فهو العلم المعلوم، المحيط بالملك المفهوم، الذي لا يَزِلُّ شيء من الأشياء عنه، ولا يخرج، ولله الحمد، منه، وهو علم الله، العالم بنفسه، المتقدس عن شبه خلقه، وإنما يحتاج إلى كتاب المعلومات من يكِلُّ علمه في بعض الحالات، فأما رب الأرباب فهو محيط بكل الأسباب، فكل ما عمل الخلق فهو في «العلم»[3] المستطر، أي فمعناه معلوم مختبر، يوقفهم في يوم حسابهم عليه، فيعرفونه طراً لديه، فلا يضل عن أفهامهم، بقدرة الله، شيء من أعمالهم، **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**[4]. وقال: **﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾**[5] قال لقمان لابنه، وهو يعظه **﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير﴾**[6] وقال في ذلك رب العالمين: **﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾**[7]، فأخبر أنهم يلاقون كل ما كانوا يفعلون، وأن ذلك كله، صغيره وكبيره مثبت في الزبر عنده، وكل هذه الأسباب تدل على أن الزبر خلاف ما نزل من الكتاب.

ثم قال: إن أثبتوا أن أفعال العباد شيء، فسلهم: من خلق ذلك الشيء؟

فنحن، بحمد الله، نقول: وعليه منا المعمول: إن خالق كل شيء عامله، وعامله «فاعله»[8]، قال، سبحانه: **﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**[9]، فسمى

---

(1) الاحقاف: ٢٩.
(2) في أ، ب: فهو.
(3) في ب: الكتاب.
(4) الزلزلة: ٧.
(5) الكهف: ٤٩.
(6) لقمان: ١٦.
(7) الانبياء: ٤٧.
(8) في أ، ب: ففاعله.
(9) المؤمنون: ١٤.

العاملين خالقين، وقال شاعر من فصحاء العرب:

ولأنــت تفــري ما خلقت … وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

يريد: «أنك»[1] تتم ما دخلت فيه وصنعته وتكمل كل ما قمت به وعملته، وغيرك لا يُصْدِر إذا أورد وأنت تصدر حين تورد، وقد بَرَى من يفسد ويسرق ويكذب ويفسق، فهل يقول الحسن بن محمد، في ذي الجلال خالقه، أنه المتولي لذلك الفعل دون فاعله؟ فيكون قد قال بخلاف قول الله، ورد في ذلك كله على الله حين يقول: **﴿أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾**[2]، فميز بين الحرث والزرع، فجعل شق الأرض وحرثها وتسويتها وبذرها لهم فعلاً، وجعل إخراجه وفلق حبه وزرعه وتقويته له فعلاً، فقال، سبحانه: **﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾**[3]، وكذلك تقول العرب للغلام، إذا أرادت له الخير والإكرام: زرعك الله زرعاً حسناً، تريد: بلغك وأنبتك نباتاً حسناً، قال الله، سبحانه: **﴿فتقبلها ربها بقبول حسنٍ وأنبتها نباتاً حسناً﴾**[4]، يريد أنشأها وكبرها وغذاها فأحسن بإرزاقه غذاءها.

وقد يكون من هذه الأشياء التي هي أفعال، الزنا وشرب الخمر وارتكاب «الرذائل»[5]، فماذا يقول الجاهلون في هذه الأشياء؟ مَنْ فعلها عندهم؟ الخالق؟ أم المخلوق؟ ومن أظهرها وأوجدها؟ الرب؟ أم المربوب؟؟ فتقدس وتعالى ذو الجلال عما يقول المبطلون.

بل، ما يقول، ويحه وويله من الله، سبحانه و«هوله»[6]، في هؤلاء المجوس الذين أقاموا لأنفسهم ناراً وبنوا لها، تعظيماً وإجلالاً، داراً، ليلهم ونهارهم يؤججونها ويوقدونها، وهم في ذلك من دون الله يعبدونها، أهم اجترأوا على الله فيما فعلوا؟ أم الله أدخلهم في عبادة ما عبدوا؟

فإن قال: بل فعله المجوس الأنجاس، وتعدى به على الله العصاة الأرجاس، فقد أصاب الجواب وأجاب في ذلك بالصواب، وإن قال: إن الله

---

(١) في ب: أنت.
(٢) الواقعة: ٦٣.
(٣) الانعام: ٩٥.
(٤) آل عمران: ٣٧.
(٥) في أ: الردى، وفي ب: الردا.
(٦) في أ، ب: عوله.

فعله، وأدخلهم فيه، وقَسَرهم على ذلك، وأجبرهم عليه، فقد زعم أنهم يصبحون ويمسون لله مطيعين، وفي مرضاته، سبحانه، ساعين، إذ هم في قضائه وإرادته متصرفون، وفيما أدخلهم فيه داخلون، وعما صرفهم عنه من طاعته منصرفون.

بل، فليخبرنا أهل هذه المقالة من أهل المحاربة لله والضلالة، ما الذي يجب عليهم ويرضونه في أحبابهم وفيهم، إذا رأوا مجوسياً يشتم الله؟ التَّغْيير عليه؟ أم الإقساط إليه والإحسان؟ فإن قالوا: بل يجب عليه التغيير والنكير إن نحن سمعنا شاتماً يشتم الرحمن اللطيف الخبير، قيل لهم: لم ذاك، وأنتم تزعمون، في أصل قولكم، أن الشاتم بريء من شتمه، وأن الله، سبحانه، «الشاتم دون المجوسي لنفسه»[1]، إذا زعمتم أن ذلك فعل الله دون مخلوقه وعبده، «فلئن»[2] كان عليه الله بذلك قضى فما قضى إلا بما أراد سبحانه، وارتضى، أفتنكرون على المجوس المؤتمرين بما أراده منهم رب العالمين؟! لقد، إذا، سخطتم من الله ما ارتضى، ورضيتم له من ذلك ما لم يرد ولم يشأ، بل الواجب في ذلك على كلكم، إن كان القول في الله كقولكم، تكرمة المجوس والإحسان إليهم، إذ قد قاموا لله بما قضى به عليهم، فهم لله، في قولكم ومذهبكم، مطيعون، وأنتم، ومن قال بقولكم، لله، سبحانه، عاصون، إذ أنتم لما أراد منهم ولم ينكره عليهم منكرون، وأنتم لهم ظالمون، وعليهم بالمنكر متحاملون.

ففي قليل مما احتججنا به من عدل الله ما كفى عن إعادة ما ذكرنا أولاً وشفى، والحمد لله عن التطويل وأغنى، غير أنا لا نجد بداً إذا كرر وسأل من أن نشرح ونفسر كل ما يقوله من المقال، وإذا احتج بالمحال أبطلناه، وإذا عارض الحق بالباطل دفعناه، كما قال مولانا لا مولاه: **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما يصفون﴾**[3] وقال، في تولي المحقين وخذلان المبطلين: **﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾**[4]، يقول، سبحانه: لا ولي ولا متولي ولا مرشد لهم ولا كافي. تم جواب مسألته.

---

(١) في أ: الشاتم لنفسه دون المجوس.

(٢) في ب: فان.

(٣) الانبياء: ١٨.

(٤) محمد: ١١.

المسألة التاسعة

ثم أتبع ذلك المسألة عن الآجال فقال: خبرونا عن الآجال، من وقتها، أموقتة هي أم غير موقتة؟ فإن قالوا: الله وقتها فقد أجابوك، فقل: هل يستطيع أحد أن يزيد فيها أو ينقص منها؟ إن شاء عجلها عن وقتها وإن شاء أخرها؟ فإن قالوا: لا، فقد انتقض عليهم قولهم، وإن قالوا: نعم، فقل لهم: فقد زعمتم أن الناس يستطيعون أن يقدموا ما أخر الله، ويؤخروا ما قدم الله «وهذا هو»[1] التكذيب لما جاء من عند الله، وذلك قوله: ﴿**ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، والله خبير بما تعملون**﴾[2]. تمت مسألته.

جوابها:

«أما ما سأل»[3] عن الآجال فقال: هل يستطيع أحد أن ينقص منها أو يتعدى فتنقطع ويتلف بعضها؟ وزعم أن ذلك لا يكون أبداً ولا يقدر عليه أحد أصلاً، ولا ينال أحد على أحد تعدياً.

فقول أهل الحق أجمعين، والله سبحانه، على ذلك المعين، أن الله وقت لعباده آجالاً وصرف لهم في أمورهم أمثالاً، وجعل فيهم قدرة على أن يقتل بعضهم بعضاً، فمن شاء خاف ربه في كل حال واتقى، ومن شاء كفر وظلم وأساء وجار في فعله وخالف واعتدى، ألا تسمع كيف يقول رب العالمين لجميع من أمره من المأمورين: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾[4]، فنهاهم عن قتل النفس، إذ علم أنهم عليه مقتدرون، وفي ذلك ولله الحمد، مُطْلَقون، وله

---

(1) في ب: وهو هذا.

(2) المنافقون: ١١.

(3) في ب: وسأل.

(4) الانعام: ١٥١.

مطيقون، ولو لم يعلم أنهم كذلك، ولا أنهم يقدرون على شيء من ذلك لما نهاهم عنه ولا حذرهم منه، لأن نهي الإنسان عن الطيران مستحيل في اللغة واللسان وعند كل من عرف البيان، ولقد فرق الله بين فعل عباده في ذلك وبين فعله، وبين، سبحانه، لهم كل أمرهم من أمره، فقال، سبحانه: **﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾**[1]، فأخبر أن سكرة الموت وورود ما ينتظر من الفَوْت من الله، لا من الخلق، فصدق الله، إن الموت يأتي بالحق وينزل بما وعد من الصدق، فسمى ما كان منه حقاً وحكماً، وما كان من عباده الظلمة عدواناً وظلماً، ولو كانا من الله، شرعاً سواء، لذكر الله أنهما منه جميعاً حقاً، وقال، جل جلاله: **﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾**[2]، ففرق بين القتل والموت، فكان القتل من عباده فعلاً، والموت، عز وجل، منه حتماً، وقال: **﴿ومن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾**[3]، فقال: «قتل مظلوماً»، فأخبر بقوله: «مظلوماً» أن له قاتلاً ظلوماً عنيداً، **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾**[4]، فإن كان قُتِل بأجله فأين الظلم ممن قد استوفى كل أمله وفنيت حياته، وجاءت وفاته، وفنيت أرزاقه، وانقضت أرماقه، فما يرى إذاً ذو عقل للقاتل في مقتول فعلاً، ولا عليه تعدياً ولا قتلاً ولا جناية ولا ظلماً، ولا يرى له حاكم عليه حكماً أكثر من جرح إن كان جرحه أو وكز إن كان وكزه، لأن قاتله ومفني أرزاقه ومبيد أيام حياته هو رب العالمين، في قول الجاهلين. ولو كان ذلك كذلك لنجا القاتل من المهالك ولم يكن على من جرح إنساناً متعمداً جرحاً فقتله أكثر من أن يجرح جرحاً مثله ويخلى، فإن مات منه مضى، وإن برىء منه فقد سلم ونجا، وكذلك قال الله: **﴿والجروح قصاص﴾**[5]، فما معنى قوله: «النفس بالنفس» عندهم، وماذا يقع عليه حقاً ظنهم «أشيء»[6] سوى إخراج نَفْسِهِ من جسده كما أتلف وأخرج نفس صاحبه بجرحه، ولو كان كما يقولون لكان واجباً على الحكام إذ يحكمون أن يقتصوا منه لأولياء المقتول جرحاً، وخلوا عنه بعد ذلك، ولا يطلبون لنفسه تلفاً ولا قتلاً، وإن انقطع أمله وحان أجله

(١) ق: ١٩.
(٢) آل عمران: ١٥٧.
(٣) الاسراء: ٣٣.
(٤) فصلت: ٤٦.
(٥) المائدة: ٤٥.
(٦) في ب: ابشأ.

مات، وإن لم يحن أجله ونجا من القتل والفوات فيكون قد أتوا على ما قال الله في قوله: «والجروح قصاص»، لا، بل أراد، سبحانه، من ولي الأمر إخراج نَفْسه وإتلاف روحه وقطع عمره، ليجد غب[1] ما اكتسب من فعله، وقال، سبحانه: **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾**، فما هذا السلطان الذي جعله الله لولي المقتول عند من قال بهذا البهتان والزور من القول المخبول؟! ، فلا يجدون بداً، والحمد، من أن يقولوا أنه ما جعل الله له من القتل عليه وأطلقه له فيه بجناية يديه، فله أن يقتله إن شاء وإن شاء أخذ الدية وأعفى.

ثم يقال لهم: هل جعل الله له سلطاناً على ما يقدر إذا شاء عليه أم على ما لا يصير أبداً إليه؟ فإن قالوا: على ما يقدر عليه، فقد رجعوا عن مقالتهم، وتابوا إلى الله من جهالتهم، وإن قالوا: على ما لا ينال أبطلوا كتاب الله ذي الجلال، ونسبوه، سبحانه، إلى الاستهزاء وقول الزور في ذلك والردى.

ثم يقال لهم: هل يقدر أحد من المخلوقين على قتل أحد من المربوبين، وإن كان لم ينقطع أجله ولم يفن في ذلك أمله ولم يبلغ المدى الذي جعله الله مداه وصيره له أجلاً وجعله منتهاه؟ فإن قالوا: يقدر على ذلك منه بما جعل الله من الاستطاعة فيه، فقد تركوا قولهم، وقالوا بالحق، ورجعوا، وقالوا على خالقهم، سبحانه، بالصدق، وإن هم قالوا بخلاف ذلك، فقد أبطلوا ما جعل الله لولي المقتول من السلطان، وأكذبوا الله فيما أنزل من البرهان، وإن قالوا: نحن نقول أن السلطان هو قتله بما قتل، ولم يمكن الولي تركه أبداً، لأنه إذا وجب عليه السلطان فقد انقطعت حياته وحلت وفاته، فلم يقدر على تخلية سبيله، ولا بد للولي من أن يقتله بقتيله.

قيل لهم: فأين قول الله، جل جلاله وتقدس عن أن يحويه قول أو يناله: **﴿فمن عُفِيَ له من أخيه شيء﴾**[2]، فما معنى عفي؟.. وإن جحدوا القرآن وأبطلوه كفروا، وإن سلموا للحق فقالوا: يمكنه العفو والصفح وأن يتصدق بذلك ويهبه ويأخذ الدية ويتركه، قيل لهم: يا سبحان الله! ما أشد تناقض قولكم وأفحش ما

---

(1) عاقبة.

(2) البقرة: ١٧٨.

تجيبون به من مذهبكم ورأيكم!! ألستم تقولون في أصل مقالتكم إنه لا يوقف ولا يقدر عليه ولا ينال منه حتى ينقطع أجله فحينئذ يقتله من أطلق له قتله، وأنه إذا سلم إلى صاحبه فقد انقطع أجله وذهبت أيامه، فكيف إذاً يقدر ولي القتيل على تركه والعفو عنه؟ وعلى تخلية سبيله يعيش ويأكل ويظل يمشي ويقعد ويورد ويصدر ويقبل ويدبر وقد انقطع أجله وذهبت أيامه وفنيت أرزاقه؟ أيقدر هذا على أن يعفو، والعفو يكون به للقاتل الحياة وتزول عنه الوفاة، فكيف يقدر على ذلك وقد انقطع عنه، بزعمكم، أجله، وذهب عمله وفني رزقه وكتب الله عليه موته؟ كذب العادلون بالله، وقالوا ظلماً، واستحقوا بذلك عند الله إثماً وجعلوا أمور الله كلها عبثاً وهزؤاً.

ويقال لهم: ما تقولون في قول الله، سبحانه: **﴿ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾**[1]، فسمى الله، الجليل، قتلهم، لكل من قتلوا من قتيل، عصياناً، وذكره منهم جوراً وعدواناً، فما قولكم في ذلك؟ وما تدينون به وتعتقدون؟ أتقولون أن قتل الفاسقين لمن قتلوا من المؤمنين كان بأمر من رب العالمين وقضاء منه على الكافرين؟ ولو كان ذلك كذلك لوجب لمن أنفذ قضاء ربه أجزل الثواب على فعله وأمره، وقد وعدهم الله على ذلك النيران، وألزمهم في ذلك اسم العدوان، وهذا «أعظم»[2] الكفر بالرحمن، وما لم يقل به عليه الشيطان، وإن قلتم: بل كان ذلك لمن فعله فعلاً، ومنهم على المؤمنين اعتداء، انتقض قولكم ورجعتم إلى الحق في الله والصدق.

ويقال لهم: إذا زعمتم أن الأجل انقطع بأمر الله، وأن الله جاء به، وأن انقطاعه من عنده، فمن جاء بالقاتل حتى قتل المقتول، الله جاء به وقضاه عليه وأدخله فيه؟ أم إبليس أغواه وزين قتله لديه؟.. فإن زعمتم أن الله جاء بأجله وبقاتله لينفذ ذلك من علم الله فيه، فقد زعمتم أن الله جاء بالظلم والعدوان وأدخل العبد في العصيان، فإن كان ذلك عندكم كذلك فعلام يعذب الله الإنسان «إذ كان»[3] في قولكم: الله جمعهما على «العصيان»[4] والظلم والبهتان.

---

(١) البقرة: ٦١.

(٢) في ب: فأعظم.

(٣) في ب: إذا كان.

(٤) غير موجودة في ب.

ويُسْألون، فيقال: ألستم تزعمون أنه لن تخرج نَفْس من أحد، من حر ولا عبد، حتى يأتي أجله ويستوفى أمله وكل عمله؟ وذلك من الله، زعمتم، فما تقولون في رجل ضرب السكين ضربة واحدة في نحر عبد مسكين، فمات، وأنتم تنظرون، فما الذي أوجب الله عليكم من الشهادة؟ أتشهدون أنه قتيله؟ أم «تقولون: بل نشهد»[1] أنه وجأه[2] وجرحه، ولا ندري من قتله؟ أم تقولون: إن ربه الذي أتلفه، لأنه جاء بأجله، ولو لم يأت أجله لدامت حياته وطال عمره، ولم يكن الجرح ليرزأه؟ فهكذا تقولون؟ أم عليه، بَتاً، بالقتل تشهدون؟ فإن شهدتم بالقتل أصبتم، وإن قلتم غير ذلك أحلتم، وماذا تحكمون على هذا الذي رأيتموه وجأ نحر المقتول، وفهمتموه، وقامت عليه بذلك شهود، وكلهم عند الإمام عدل محمود، أترون وتحكمون بقتله كما قتل؟، قال الله، سبحانه: ﴿النفس بالنفس﴾[3]، أم تجرحونه جرحاً مثله، فإن مات فذاك، وإن سلم تركتموه لعلمكم أن الذي قتل الأول هو مجيء أجله وفناء أيامه وانقضاء «أمله»[4] وتحلون عن هذا لما له من تأخير الأجل وطول الرزق والأمل، لقد أبطلتم إذاً حكم ربكم وفضحتم أنفسكم لأهل ملتكم.

ويُسْألون، أيضاً، عمن قتل نفسه بيده، أقتلها وهي حية في بقية من أجلها؟ أم ميتة قد انقضى أجلها؟ فإن قالوا: قتلها وهي حية في أجلها فقد أقروا أنه كانت له بقية فقطعها بيده، قلّت البقية أم كثرت، وإن قالوا: قتلها بعد أن فني أجلها، فكل ما فني أجله فهو ميت لا شك عند فناء أجله، وقتل ميت ميتاً محال. فلله الحمد على ما هدى إليه من الحجة والمقال، وله الحول في ذلك والقوة، وله الجبروت والقدرة.

ويقال لهم: ويحكم! قال الله سبحانه: ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم** ﴾[5]، وذلك أن المشركين كانوا يقتلون أولادهم خشية الفاقة والعالة والفقر، فنهاهم الله عن ذلك، وأخبرهم أنه يرزقهم وإياهم كما خلقهم،

---

(١) في أ: أم تشهدون.
(٢) ضربه.
(٣) المائدة: ٤٥.
(٤) في ب: أيامه.
(٥) الاسراء: ٣١.

فكيف نهاهم عن قتل من قد جاء أجله وحان موته؟ وكيف يرزقهم وقد أفنى، بزعمكم، أرزاقهم بما جعل من قتل آبائهم لهم من انقطاع آجالهم؟ وكيف نهاهم عن قتل من (ليست)[1] له حياة ولا بد أن تحل به الوفاة، فلقد أمرهم إذاً أن يحيوا من قد أمات وأفنى أجله ففات، فأي قول أشنع من هذا القول في الله الكريم؟! فسبحان الممهل الحكيم!

وقال، سبحانه، لرسوله، صلى الله عليه وآله: ﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة، فلتقم طائفة منهم معك، وليأخذوا أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حِذْرهم وأسلحتهم، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة**﴾[2]، أفتقولون أن الله، سبحانه، أمر نبيه أن يعبىء أصحابه فرقتين، فرقة تؤدي معه صلاة الفريضة، وفرقة تحرس النبي وأصحابه وتَلْقَى (الكريهة)[3] وليس في ذلك منفعة ولا خير ولا دفع ما يخاف من التلف والضير من ميل العدو على المؤمنين ميلة واحدة، فيكون في ذلك ما يخاف من الواقعة، وأن ما أمر الله به من الاحتذار والحذر غير نافع له ولا لأصحابه وأن آجالهم إن كانت قد جاءت قتلهم أعداؤهم، احترسوا أم لا، وإن لم تكن جاءت لم يقدروا عليهم، ولو ألقوا بأيديهم إليهم. فهذا من قولكم أعظم التخطئة لربكم وأجهل الجهل لنبيكم، لقد أبطلتم إذاً كتاب الرحمن وقلتم شططاً (وبهتاناً)[4].

ويقال للجهلة الضالين من المشبهين المجبرين: ما قولكم في قول ربكم، وما يخرج ذلك عندكم، حين يقول، سبحانه: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض**﴾[5]، ما أراد الله بهذا من قوله؟ أليس هذا عتاب منه لرسوله، يخبره أنه لم يكن ينبغي له أن يأسرهم ولا يطيع أصحابه في التشاغل بأخذهم دون الإثخان لهم بقتلهم؟ ثم قال، سبحانه وجل جلاله وعز سلطانه: ﴿**تريدون عرض الدنيا**﴾[5]، يريد بذلك ما أخذوه منهم وفيهم من الفداء، ثم قال: ﴿**والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم**﴾[5]، يقول: والله يريد منكم الاجتهاد في أمر الآخرة وما

(١) في ب: ليس.

(٢) النساء: ١٠٢.

(٣) في ب: الكرهة.

(٤) في ب: من البهتان.

(٥) الانفال: ٦٧.

يقربكم إليه ويزيد في كرامتكم لديه، ثم قال: **﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾**[1]، يقول: لولا حكم من الله سبق بالعفو عنكم في وقت أسركم وترككم الاستقصاء في قتل عدوكم لمسكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذاب عظيم. فتبارك الله الحليم الكريم. وأخبر الله، تبارك وتعالى، نبيه، صلى الله عليه وآله، أنه قد فعل ما كان غيره أحب إلى الله وأرضى. ولم يتعمد، صلى الله عليه وآله، لله في ذلك اسخاطاً بل لعله توهم أن الأسر، في ذلك الوقت، (أنكأ للكافرين وأذل وأشقى)[2] حتى أعلمه الله أن القتل في وقت قيام الحرب كان أنفع، وعلى الإسلام وأهله بالخير أرجع.

***

أفيقول الحسن بن محمد وأشياعه، ومن كان على الجهل من أتباعه، أن آجالهم كانت قد جاءت فدفعها رسول الله صلى الله عليه وآله، عنهم، فعاب الله عليه ما فعل من دفع وفاتهم وتأخير ما كان الله قد جاء به من حضور آجالهم؟ أم يقولون إن آجالهم لم تأت ولم تحضر، وقد بقي لهم من الحياة زمان وأعصر، فإنه قد كانت لهم مدة باقية وأرزاق دارَّة غير فانية، فلم يستطع رسول الله، صلى الله عليه وآله، أن يقطع ما لم يقدر على قطعه من آجالهم، وأن يبيد ما قد بقي من أعمارهم، فلامه الله إذ لم يفعل ما لم يستطع ويبيد ويقطع من ذلك ما لم ينقطع، فلا بد أن يقولوا بأحد هذين المعنيين أو يتقلدوا وينتحلوا أحد هذين القولين، فيكونوا بانتحال أحدهما (كافرين)[3] وفي دين الله، سبحانه، فاجرين، أو يقولوا على الله ورسوله بالحق، فيقروا أن رسول الله، صلى الله عليه وآله، ومن كان معه من الخلق كانوا يقدرون على قتلهم والإثخان لهم وترك أسرهم، ولامهم الله في ذلك إذ هفوا ولهوا ولم يفعلوا.

تم جواب مسألته.

---

(١) الأنفال: ٦٨.

(٢) في أ: أنكأ وللكافرين أذل وأشقى.

(٣) في ب: كفرين.

المسألة العاشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن الأرزاق، فقال: أخبرونا عن الأرزاق، من قدرها؟ ومقدرة هي؟ أم غير مقدرة؟ ومقسومة هي؟ أم غير مقسومة؟.

فإن قالوا: نعم، هي مقدرة ومقسومة، فقد انتقض قولهم، فقل لهم: فهل يستطيع أحد أن يأخذ إلا رزقه؟ أو يأخذ إلا ما قسم الله له؟ فإن قالوا: إن الله خلق الأموال والأطعمة والأشربة فذلك رزقه، وبين (لهم)[1] حلالها ومأخذها، فإن أخذوها من باب الحلال كانت حلالاً، وإن أخذوها من باب الحرام كانت حراماً، فقل لهم: أفهم يأخذون لأنفسهم ما شاءوا؟ فأيهم شاء أن يكون غنياً مكثراً كان؟ وأيهم شاء أن يكون فقيراً معدماً كان؟ فإن قالوا: نعم، كذبوا، لأن الناس كلهم حريص أن يكون غنياً وكاره أن يكون فقيراً. وقد قال الله، سبحانه، خلافاً لقولهم: **﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾**[2]، وقال: **﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت إيمانهم فهم فيه سواء، أفبنعمة الله يجحدون﴾**[3]، في آي كثيرة من كتاب الله، سبحانه. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه الجاهلون، وتوهم، في الله، المبطلون، أن الله الواحد الخلاق حرم على عباده أرزاقاً رزقهم إياها، وتفضل عليهم بها، فرزقهم رزقاً

---

(1) غير موجودة في أ.
(2) الزخرف: ٣٢.
(3) النحل: ٧١.

وآتاهم ثم عاقبهم على ما أعطاهم، وأنه لا يأكل أحد ولا يلبس ولا ينتفع إلا بما رزقه الله وآتاه وصير إليه بما قدره له وأعطاه، فقالوا في ذلك بتجوير الرحمن ونسبوه إلى الظلم والعدوان، فقالوا: إنه يطعم ويرزق عباده طعاماً ثم يكتبه عليهم حراماً، فيوجب عليهم، على قبول ما أعطاهم، العقاب، ويحرمهم، بأخذ ما صير إليهم، الثواب، وقد وجدناه، سبحانه، يكذبهم في قولهم، ويبين ذلك لنا ولهم بما قسم بين عباده من الأرزاق ورفق عليهم من الأرفاق[1]، من ذلك ما حكم به في الغنائم والصدقات، وما جعل من ذلك لذوي المسكنة والفاقات، فقال، سبحانه: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب**﴾[2] الآية، فحكم بذلك لمن سمى من أولئك، فحرمهم ذلك الفاسقون، وأكله، دونهم، الظالمون، فشربوا به الخمور، وركبوا به الذكور، وأظهروا به الفجور، وأصروا على معاصي الله إصراراً وجاهروا (الله)[3] بالمعصية في ذلك جهاراً، فأعد الله لهم على ذلك النيران، وحرمهم ثواب الجنان.

(وكيف)[4] يقول الحسن بن محمد ذو الغفلات، ومن تبعه من ذوي الجهالات، أن الله، سبحانه، (رزق)[5] هؤلاء الظالمين، هذا، وقد حكم به في كتابه للفقراء والمساكين، وقال الله، سبحانه: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾[6] فحكم بذلك لنفسه ولرسوله وقرابة نبيه ومن سمى من اليتامى والمساكين وابن السبيل في تنزيله، فاستأثر به الفاسقون عليهم ولم ينفذوا ما جعل الله من ذلك لهم، بل دحروهم دحراً، ونصبوا لهم، دونه، العداوة سراً وجهراً، وقد جعله الله لأوليائه رزقاً، وحكم لهم به حكماً حقاً، فغلب عليه الفاجرون وظلموهم فيه ظلماً، وقال، سبحانه: ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى، فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما أتاكم**

---

(١) أحد معانيها المنافع.

(٢) التوبة: ٦٠ وتمام الاية ﴿والغامرين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾.

(٣) غير موجودة في أ.

(٤) في أ: فكيف.

(٥) في ب: رزقه.

(٦) الانفال: ٤١.

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[١] .

فكان الذي أتى به صلى الله عليه وآله، ما أنزل الله في وحيه من فرائضه وقسمه فيه في أوليائه من خلقه، فخالف على ذلك الفاجرون، ورفضوا ما جاء به خاتم النبيين من الله رب السماوات والأرض، فجعلوه دُولة بين أغنيائهم، وحرموه من جعله الله له من فقرائهم، عماية وصمماً، ومجاهرة لله وظلماً، فأخذوا ما جعل الله لغيرهم، وتعدوا ما حكم الله به فيهم، ولا يشك من كان لبه سالماً، وكان بأمر الله عالماً، أنهم على ذلك معذبون، وأنهم على مخالفته فيه مسئولون.

(فكيف)[٢] يقول الحسن بن محمد: إن الله رزق هؤلاء الظالمين المعتدين الفاسقين رزقاً ثم صيره لهم وسلمه في أيديهم، ثم يعذبهم عليه ويحاسبهم فيه؟! أم كيف يجتريء ويقول: إن الله، رب العالمين والسماوات والأرض، جعله لمن حكم له به من ضعفة المسلمين ثم انتزعه منهم فجعله رزقاً للأغنياء الفاسقين دونهم، فكيف يكون ذلك والله سبحانه، يقول: **﴿كيلا يكون دُولة بين الأغنياء منكم﴾**، أو لم يسمع من ضل وغوى فقال على خالقه بالقول الردي، الله، سبحانه، كيف يقول في الوحي المذكور في كتابه المسطور: **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾**[٣]، فعلم أن في خلقه من سيأكل أموال اليتامى عدواناً وظلماً فنهاهم عن ذلك وحرمه عليهم، وحكم بعذاب السعير لمن استخار ذلك فيهم، أفيقول المبطلون أن الله، سبحانه، جعل أموال اليتامى، لمن نهاه عن أكلها، رزقاً، ثم نهاهم عن أكل ما رزقهم وآتاهم؟! لقد قالوا على الله كذباً وضلوا ضلالاً بعيداً.

ثم قال، جل جلاله، وصدق في كل قوله مقاله **﴿يوصيكم الله في أولادكم، للذكر مثل حظ الأنثيين﴾**[٤]، فحكم للأنثى بجزء (وحكم)[٥] للذكر بجزئين، ثم قال: **﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه**

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) في أ: وكيف.

(٣) النساء: ١٠.

(٤) النساء: ١١. وفي ب يقف نص الاية عند: «مما ترك».

(٥) غير موجودة في ب.

أبواه فلأمِّه الثلث﴾ فما يقول من ضل وعمى وحار وشقي إن (هو)[1] تعدى، وفي المخالفة تردى، فحرم بتعديه الوالد ومنع من ميراث أبيه الولد، وأخذ ذلك فأكل به واكتسى وشرب وتزوج ولها، هل يكون ذلك عندهم له من الله رزقاً رزقه إياه؟ وقد يسمعون حكم الله به للورثة دون من أخذه واصطفاه، فقد أبطلوا بذلك حكم الرحمن، ونقضوا ما نزل، سبحانه، في الفرقان. وإن قالوا: بل أخذ ما ليس له حقاً، وأكل من ذلك ما لم يجعله الله له زرقاً، كانوا في ذلك بالحق قائلين، وعن قول الباطل والمنكر راجعين.

ثم يقال لهم: ما تقولون فيمن غصب مالاً فأخذه، وتعدى فيه وسرقه، فأكله حراماً وشربه، أتوجبون عليه الزكاة فيه؟ أم توجبون رده إلى صاحبه عليه؟ فقد يجب عليكم في قياسكم وقولكم أن تقولوا: إنه رزق له رزقه الله إياه وقدره له[2]، ولولا ذلك لم يأخذه ولم يقدر على أكله وشربه ولا على الانتفاع به، فإن كان كما تقولون وإليه تذهبون أن كل ما غصب غاصب أو أخذه من المال أخذاً غصباً، فهو من الله له بتقدير وعطاء ورزق، فلن يجب عليه أبداً رده ولا أن ينازعه فيه ضده، بل هو أحق به من كل مستحق، وهو له ملك بتمليك الله له إياه وحق، فأْمُروه فليؤد ما أوجب الله على أهل الأموال في الأموال من الزكاة والحج والإنفاق في سبيل الله والإفاضة على كل من سأله ورجاه.

ألا تسمعون كيف يقول الله، ذو الجلال وذو القوة والقدرة والمحال، حين يقول: **﴿ولله على الناس حج البيت، من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾**[3] والسبيل (هو)[4] الجدة مع صحة الأبدان من مانعات حوادث الأزمان، فعند المقدرة والسلامة والأمان يجب فرض الحج على كل إنسان، وهذا في أصل قولكم، وما تذكرونه من رأيكم، بما قد حوى وأخذ من المال الحرام مستطيع لحج بيت الله الحرام قادر على ذلك بما أخذ من أخيه وأخرجه بالغصب والغلبة له من يديه، إذ تزعمون أن كل ما أخذ وأكل وشرب ولبس فهو رزق مقسوم، ومن الله، جل جلاله، عطاء لعباده معلوم.

---

(١) في أ، ب: وصى.

(٢) في ب بزيادة كلمة: لها.

(٣) آل عمران: ٩٧. وفي ب تقف الاية عند: «سبيلا».

(٤) في أ، ب: فهو.

وقال الله، سبحانه: ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾[1]، فلا يشك أن الزكاة تجب فيما رزق الله العبيد من رزق إذا بلغ ما تجب فيه الزكاة وتقع، فليتصدق وليقرض الله قرضاً حسناً مما في يديه، فإن الله يقول: ﴿ **إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم**﴾[2]، ولن يقبل الله إلا الحلال، ولن يضاعف إلا لمن أنفق مما ملك من الأموال، فإن كان هذا له من الله عطاء فأْمُروه فلينفذ ما أمره الله به وليؤد ما عليه فيه، وانهروا عنه المطالب له به، الذي أخذه غصباً من يديه واستأثر به عليه.

وإن قلتم: لا يجب عليه فيما في يديه من هذا المال المغصوب حق ولا يلزمه فرض وأوجبتم على أنفسكم أخذه من يديه ورده على صاحبه، وقلتم: لا يكون إلا ذلك، والحق كذلك، فقد أزلتم عنه ملك ما غصب، وحرمتم عليه منه ما أكل، وأقررتم أن ما أخذ من ذلك فأكله وشربه ليس له من الله رزقاً ولا نائلاً ولا عطاء، وأن عليكم أن تأخذوا ما في يديه من المال فتردوه إلى من كان له من الرجال، وتُضَمِّنوه ما أتلف منه، وتوجبوا عليه، إن كان أخذه من دار أو بيت أو حرز أو قرار ما أوجب عليه الواحد الجبار من القطع، فإنه يقول، سبحانه: ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾[3].

فيا سبحان الله! ما أبين الحق وأنور الصدق، فلو كان الله رزقه ما أكل مما سرق وغصب لما أوجب عليه أن يقطع الحاكم يده في أن أخذ ما أعطاه ربه وآتاه وأكل ما به غذاه، فسبحان البعيد من ذلك، الصادق في قوله، العدل في جميع أموره وفعله.

فإن هم من بعد ذلك سألونا فقالوا: هل يقدر أحد أن يأكل غير ما رزقه الله؟ قيل لهم: إن مسألتكم هذه تخرج على معنيين، وتنصرف في وجهين:

فإن أردتم أن كل شيء مما بث الله وأخرج رزق العباد، فكذلك لعمري هو، لأن الله قد سماه، في الجملة، بذلك، فقال: ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء مباركاً، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا**

(١) البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠، والنساء: ٧٧، والنور: ٥٦، والمزمل: ٢٠.
(٢) الحديد: ١٨.
(٣) المائدة: ٣٨.

به بلدة ميتاً، كذلك الخروج﴾[1]، يقول، سبحانه: أخرجنا به ما لا يخرج من الحب والأكل إلا بالماء وقال: ﴿أفرأيتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[2]، وقال: ﴿إنا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقاً، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً، متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[3]، فقال: شققنا الأرض شقاً، يريد شققناها عن النبات الذي يخرج منها من الحب والفواكه وغيره، وفلقناها فلقاً، والأبُّ (هو)[4] الحشيش والعشب الذي تأكله الأنعام، وينبت في الأودية والجبال والاكام، متاعاً لكم ولأنعامكم، يقول: بلاغاً[5] لكم ولأنعامكم إلى وقت انقضاء آجالها وآجالكم، فرزقناكم فواكه وحباً وزرقنا أنعامكم عضاها[6] وأباً، فكل ما أخرج قد سماه لأهله ومن يملكه رزقاً، فهو رزق لمن أجاز الله له أكله وأحل له أخذه وأمره عليه بشكره، فقال: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[7]، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾[8] وقال: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾[9]، فرزق ذو المن والسلطان والجبروت والبرهان كل عبد ما أحل له وأمره بأخذه، فأما ما نهاه عن أكله وعذبه في قبضه، فليس ذلك، لعمرهم، من رزقه، وكيف يجوز على ذي الجلال والجبروت أن يجعل لعباده رزقاً وقوتاً به يعيشون وفيه يتقلبون، ثم ينهاهم عن أخذ ما أعطاهم وإليه ساقهم وهداهم.

فهذا، والحمد لله، لا يعيى على من وهبه الله علماً وآتاه تمييزاً ولباً، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطيبين.

تم جواب مسألته

---

(1) ق: ١٩ - ١١.
(2) الواقعة: ٦٣.
(3) عبس: ٢٥ - ٣٢.
(4) في أ، ب: فهو.
(5) يبلغ للشيء ويكفي الوصول للمطلوب.
(6) العض، بكسر العين، ما صغر من شجر الشوك وجمعه أعضاص، وبضم العين يطلق على الشعير، والحنطة، والقت، واليابس من الحشيش وأيضاً ما صغر من شجر الشوك، وبالجملة فالمراد هنا ما يكون طعاماً للأنعام.
(7) البقرة: ٦.
(8) البقرة: ١٧٢.
(9) النحل: ١١٤.

المسألة الحادية عشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن العقول، فقال: خبرونا عن العقول، أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فإن قالوا: مخلوقة، فقل: أمقسومة هي بين العباد أم غير مقسومة؟ فإن قالوا: بل هي مقسومة، فقل: فأخبرونا من أين عرف بعض الناس الهُدَى فأخذ به، وجهله بعضهم فتركه، وكلهم حريص على الهدى، كاره للضلالة، راغب في العلم، مبغض للجهالة، وقد زعمتم أن الله قد جعل سبيلهم واحداً وعقولهم واستطاعتهم واحدة، وهي حجة الله عليهم؟

فإن قالوا: بتوفيق من الله، فقد أجابوا، وإن قالوا: أخذ هداه منهم من أحب وتركه منهم من أتبع هواه وأطاع إبليس إلى دعائه، قيل لهم: فما صير بعضهم تابعاً لهواه؟ والعقول فيهم كاملة مستوية؟ فإن قالوا: بتوفيق من الله وفق من شاء منهم، فقد أجابوا، وإن قالوا: فضل الله بعضهم على بعض فقد صدقوا، وإن قالوا غير ذلك، فقد كذبوا.

إلا أنه لو كان الناس في العقول سواء، ما كان من الناس جاهل وعاقل وأحمق وحليم، ولَسُمِّي الجاهل عاقلاً والعاقل جاهلاً، ولكن الأمر في هذا أبين من ذلك، ولكنهم قوم يجهلون. وإن قالوا ذلك من قِبَل الأدب والتعليم، فقل: لو كانت عقولهم مستوية، ما احتاج بعضهم إلى بعض في أدب ولا تعليم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما عنه سأل وقال مما ألحد فيه من المقال، فقال: أخبرونا عن العقول أمخلوقة هي أم مقسومة أم غير مخلوقة ولا مقسومة؟ فنحن، والحمد لله، نقول: إن

الله خلق العقول وأوجدها فيهم، وجعلها حجة له عليهم، وسببها لهم، سبحانه وتعالى، تسبيباً، وركبها فيهم، احتجاجاً عليهم، تركيباً، فهي حجة الله العظيمة، ونعمته على خلقه، الكريمة، تدعو أبداً إلى الخير والهدى، وتنفي عن الخلق الضلالة والردى، تدل على الخالق ذي الجلال، وتنفي عمن أراد الحق التكمُّه والضلال، فهي أبداً لمن استعملها داعية إلى الإسلام، مخرجة له من حنادس دياجير الظلام، ثم قسمها، سبحانه، بين خلقه ليدلهم على ما أوجب عليهم من حقه، فأعطى كل من أوجب عليه أداء فريضة منها أكثر مما يحتاج إليه في أداء ما افترض عليه، فليس مَنْهِيٌّ يجب عليه عقاب ولا مأمور يجب له ثواب إلا وقد ركب الله فيه من العقل وقسم له وعليه أكثر من الحاجة في أداء مفترضه وما يخرجه، بحمد الله، إن استعمله من جهالته. ثم أمرهم باستعمال ما أعطاهم من الحجة المركبة فيهم، وأخبرهم أنهم إن لم يستعملوها لم يصلوا إلى علم ما لعلمه أعطوها، فأمرهم أن يستعملوها فيفكروا وينظروا ويميزوا ويتدبروا، فإذا فكروا وميزوا بتلك الحجة التي لن يضل معها طول الأبد، أن أنصفها بحمد الله، من أحد، ولذلك ما قاله، جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: **﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾**[1]، يقول: أنظروا بأبصاركم ثم دبروا فاعتبروا بعقولكم فيما ترون وتبصرون، هل له من خالق غير الله، فيما تعلمون؟! كما قال، سبحانه ألهم إله غير الله سبحانه عما يشركون، وقال: **﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾**[2]، وقال: **﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء، أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه، أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾**[3]، ثم قال، تنبيهاً لهم وحثاً على استعمال العقول، ليصح لهم الحق من القول إذا نظروا فيما ذكر الله مما أراهم وفطر لهم: تفكروا، فقال الله سبحانه: **﴿حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، إن في السماوات**

---

(١) الحشر: ٢.

(٢) الزخرف: ٩.

(٣) القصص: ٧١ - ٧٣.

والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾[1]، فقال، في أول السورة: لآيات للمؤمنين يقول: يصدقون بما يرون وينصفون العقل فيقبلون منه ما عليه يدلهم حين يبصرون ويستبصرون في الحق ويستدلون على الله بما ذرأ من الخلق فيكونون بذلك مؤمنين، ولله بالخلق والقدرة مقرين، ثم قال: (لقوم يوقنون)، فأخبر أنه قد ذرأ وجعل لهم من الدلالة عليه في خلق أنفسهم ما بأقل قليله على خالقهم يستدلون، وبأنه الله الذي لا إله إلا هو يوقنون، ثم (كرر)[2] الدلالة لهم والإحتجاج عليهم بذكر ما أنزل من السماء من رزق فأحيا لهم به الزروع وفرع به في الأصول الفروع، ثم (ذرر)[3] الإحتجاج والتوقيف لهم والتعريف فذكر تصريف الرياح وما يكون فيها وبها من الألقاح فقال: (وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون)، فتتابعت الآيات متناسقات بما فيهن من العبر والدلالات حتى وصل إلى قوم يعقلون، فأخبر بذلك أن كل ما ذكر لا يعلم ولا يخبر ولا يفهم إلا بما ركب وجعل لهم فيه من حجة العقل، فقال، سبحانه، احتجاجاً عليهم وتنبيهاً في ذلك كله لهم من الأبصار التي لا ينتفع بها في التذكرة وحثاً على استعمال الألباب في كل الأسباب: **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾**[4]، يقول: توفيقاً لهم وتعريفاً واحتجاجاً على ذوي العقول، وقال: **﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾**[5]، فحض بالأمر بالاعتبار ذوي الأبصار.

وقال، سبحانه: **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾**[6] فنظر قوم وفكروا، وعقولهم في ذلك أنصفوا، فأبصروا واهتدوا وعرفوا الحق فرشدوا، وأنكر قوم وخالفوا ما تفرع لهم من المعقول، فجحدوا، فعاقبهم الله على ذلك من فعلهم، وأضلوا أنفسهم بمكابرة عقولهم، وأبطلوا النظر واتبعوا الجبر، فاتبعوا الهوى وتركوا الهدى، وتعلقوا بالأخبار المنقولة الكاذبة ورفضوا ما فيهم من حجة

---

(١) الجاثية: ١ ـ ٥.
(٢) في أ: ذكر.
(٣) في أ: ذكر.
(٤) ق: ٦ ـ ٨.
(٥) الحشر: ٢.
(٦) محمد: ٢٤.

الله الصادقة، فبذلك عندوا، وأنفسهم بالتجبر منهم أهلكوا، فليس للعباد على الخالق من حجة يحتجون بها، ولا متعلق ولا طُلْبَةٍ في ذلك يطلبونها، بصرهم وهداهم، وركب فيهم ما كفاهم، وبعث إليهم المرسلين مبشرين لهم ومنذرين، فأمروهم ونهوهم وعذابه حذروهم، وإلى ثوابه دعوهم، وأروهم عجائب الآيات، واحتجوا عليهم بالدلالات، **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم﴾**[1].

فهذا قولنا في ربنا، وشرحنا لما احتج به، سبحانه، علينا.

فإن قالوا، وبما ندفعه، إن شاء الله بحقنا تعلقوا: ألستم تزعمون، وبغير شك تقولون: إن الله قسم العقول بين خلقه، وجعلها لهم حجة فيهم، نعمة أنعم بها عليهم، وأيادي أكملها لديهم، ثم تقولون أنه افترض عليهم فروضاً فجعلها عليهم كلهم شرعاً سواء، إن أدوها أثيبوا وإن تركوها عوقبوا، ثم يقولون ونقول: إن ذلك لا ينال إلا بالعقول، وقد نرى اختلاف العقول في الناس أجمعين، فنعلم أنهم فيها متفاضلون، وأن ليس هم فيها على القسمة متساوين، فأين ما يحوطون من عدل رب العالمين، وقد ساوى (بين عباده)[2] فيما افترض عليهم، وجعل ذلك، سبحانه، سواء فيهم، ثم فضل بعضهم على بعض فيما لا يُنال أداء ما فرض من الطاعات ولا يوصل إلى تمييز شيء من شيء إلا به من الألات، من العقل الرصين والفهم المبين؟

قلنا لهم: قد سألتم، فاسمعوا ما به أُجبتم، فكذلك بالعدل على الله نقول، وفي كل أمرنا فيه، سبحانه، نحول، وسنبين لكم، إن شاء الله، الجواب، ونشرح لكل ما تتكمَّهون فيه من الارتياب، ونختصر ذلك لكم بما يقر في أفهامكم ويثبت إن كنتم للحق طالبين مريدين في ألبابكم، فنقول، إن الله تبارك وتعالى افترض على خلقه فروضاً، وأوجب عليهم، سبحانه، أموراً، ثم أعطاهم ما بأقل قليله يُنَال أداء ذلك من الالات، ويقتدر على أدائه متى قصد من (الساعات)[3]، فجعل في

---

(١) الانفال: ٤٢. (٢) في أ: بينهم.

(٣) هكذا في أ، ب. يحتمل أن المراد الازمنة والاوقات المستعملة كظروف للأعمال.

أقلهم عقلاً من العقل ما ينال بأقل قليله تمييز ما أوجب الله عليه تمييزه، والإحاطة بما أوجب عليه الإحاطة به من معرفته والإقرار بوحدانيته والأداء لكل فرائضه فساوى بين عباده فيما إليه يحتاجون، وله، في فرائضه، يستعملون، ثم زاد، بعد أن ساوى بينهم، في الحجة، من شاء، فضاعف له العطاء والكرامة، وزاده في العقل والسلامة، كما زاد بعضهم بسطة في العلم والجسم، فليس لأحد على الله في ذلك حجة، إذ قد أنالهم من ذلك أكثر من البغية لئلا يكون للمخلوقين عليه حجة فيما فضل بعضهم على بعض من الجَلَد والطول والجمال والهيئة والكمال والبياض والفصاحة، فكل ما أدخلتم عليه فيما فضل الله به بعض الخلق من العقول، فواجب عليكم لنا أن تجيبونا به فيما بين البياض والسواد والقصر والطول حذو المقال بالمثال ليس لكم، والحمد لله، عنه تَحَرُّف ولا انتقال إلا بأن ترجعوا إلى الصدق، فقد بان لكم والحمد لله الحق، فاتقوا إملاء الشيطان وتسويله وإغواءه، وتخييله، ولا تكونوا من الذين قال الله فيهم: ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم وأملى لهم**﴾[1] وسنضرب لكم، بقوة الله وحوله، في ذلك مثلاً يبين لكم أموركم، ويخامر نور حقه ضميركم وصدوركم:

أرأيتم رجلاً له بيتان من حشيش، وله غلامان، فدفع إلى أحد غلاميه شمعة واحدة متوقدة، ودفع إلى الاخر ثلاث شمعات، ثم قال لهما: ليحرق كل واحد بما معه ما في أحد هذين البيتين من الحشيش، فهل ترون لصاحب الشمعة الواحدة المتوقدة المتلهبة على مولاه حجة في أن أعطى صاحبه ثلاثاً وأعطاه واحدة، فيقول لا والله، ما أقدر أن أحرق بيتاً من حشيش بهذه الشمعة الواحدة، فأعطني ثلاثاً مثل صاحبي وإلا فلا حيلة لي في إحراقه؟

وقد يعلم كل ذي عقل سوي من رشيد أو غوي، أن الذي يكفي هذا الحشيش من هذه الشمعة لفحة واحدة، وأن من معه ثلاث شمعات، وعشر، واحد في القدرة على إحراق ما أُمِر بإحراقه، وإنفاذ أمر سيده فيه، فهل تقولون لسيده: كلفته وصاحبه إحراق بيتين من حشيش متساويين، ثم كلفته إحراقه بشمعة واحدة،

(١) محمد: ٢٥.

وكلفت صاحبه إحراق بيته بثلاث، فأعطه ثلاثاً وإلا فقد كلفته ما لا يناله بهذه الواحدة ولا يطيقه، فأنت له في ذلك ظالم وعليه بفعلك هذا متحامل.

أم تقولون للعبد: أنت مخطىء في فعلك، جاهل في قولك، فأنت تنال بهذه من حشيشك مثل ما ينال صاحبك بشمعاته في حشيشه، والأمر في قليل النار وكثيرها، عند تأججها وإلتهابها، سواء، لا حجة لك على مولاك فيما كلفك وأعطاك.

فكذلك، ولله الحمد، الأمر فيما أعطى الله العباد من حجته فيما فضل به من شاء من بعد ذلك من خليقته، فأما من سلب عقله من المجانين والأطفال، فلم يوجب الله عليهم الأعمال، بل أزاح عنهم ذلك ولم يوجبه عليهم، وحالهم في وقتهم ذلك عند الله (حال)[1] لا يسألهم فيها عما افترض من الأعمال حتى يفيقوا، ومما هم فيه يخرجوا، ويبلغ الأطفال من الفهم ما يصح لهم به التمييز ويخرجوا من حال الطفولية والصغر إلى حال القوة والكبر، وفي ذلك ما قال الرسول، صلى الله عليه وآله: «رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يعقل».

والحمد لله العدل في فعله، الرحيم بخلقه، الذي كلف يسيراً، وأعطى عليه كثيراً.

تم جواب مسألته.

---

(١) في أ، ب: فحال.

المسألة الثانية عشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن الإرادة، فقال: أخبرونا عن الإرادة، إذا أراد الله شيئاً، يكون؟ أو لا يكون؟ فإنه قد قال: ﴿فعال لما يريد﴾[1]، فإن قالوا: نعم، قيل لهم: وهل أراد الله أن يدخل خلقه كلهم في الهدى؟ فإن قالوا: نعم، قد أراد أن يدخلوا كلهم في الهدى على غير جبر منه ولا إكراه، فيقال لهم: فهل دخلوا في الهدى، كما أراد، على غير وجه الجبر منه لهم والإكراه؟ تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من (إرادة)[2] الله، سبحانه، فقال: إذا أراد الله شيئاً يكون؟ أو لا؟ فإنه قد قال الله ﴿فعال لما يريد﴾، فكذلك قولنا في خالقنا ومصورنا وبارئنا ومميتنا ومحيينا، سبحانه وجل وتقدست أسماؤه، كما قال في نفسه (فعال لما يريد)، فكل ما شاء أن يفعله، سبحانه، فعله.

ثم نقول، من بعد إثبات القدرة للرحمن ونفي التشبيه والتجوير عنه في كل ما شاء: إن الإرادة من الله، على معنيين، نَيِّرَيْن، عند من عَلَّمه الله وفهمه، بَيِّنَيْن.

فإحداهما: إرادة حتم (وجبر)[3] والأخرى إرادة أمر، معها تمكين وتفويض، فأما إرادة الحتم فهي ما أراد من خلق السموات والأرض والجبال وما أنبت من الأشجار ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾[4]، وما أراد، سبحانه، من قضاء الموت على خلقه من جميع أهل سماواته وأرضه، والذهاب والفوت، فقال، سبحانه: ﴿كل نفس ذائقة الموت

(١) هود: ١٠٧، والبروج: ١٦.
(٢) في أ: الارادة.
(٣) سقطت من ب.
(٤) النحل: ٨.

وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[1]، وقال: ﴿كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام﴾[2]، فأخبر بما حكم به على خلقه، وبما ألزمهم في ذلك وأوجبه عليهم من حتمه، فقال: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[3]، وقال لنبيه، صلى الله عليه وآله، إخباراً منه بما حتم عليه: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾[4].

ومن إرادة الحتم التي أراد الله فعلها ففعلها، قوله: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا: أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها﴾[5]، فكان قضاؤه فيهن خلقه، سبحانه، لهن حين أراد إيجادهن وصورهن وأوحى ما شاء فيهن من أمرهن، ومن ذلك ما يقول الواحد الجبار ذو الملكوت الغفار: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾[6]، فذكر أن الموت منه، وأنه يقضي به و(يبديه)[7]، فكان هذا منه إرادة حتم ليس لأحد فيها منهم فعل.

ومن ذلك ما قال الله، سبحانه: ﴿ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[8]، فأراد خلقه فخلقه، وقال: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾[9]، فأخبر عن نفسه بما أراد أن يجعله منهم فجعله وصوره وأوجده، كما قال: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[10].

وأما المعنى الآخر: فهو الإرادة التي معها تمكين، وهو قوله سبحانه:

---

(1) آل عمران: ١٨٥.
(2) الرحمن: ٢٦.
(3) الجاثية: ٢٦.
(4) الزمر: ٣٠.
(5) فصلت: ١١، ١٢.
(6) الزمر: ٤٢.
(7) في ب: يبد.
(8) ق: ١٦.
(9) الحجرات: ١٣.
(10) يس: ٨٢.

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾[1]، فكان قضاؤه في ذلك، سبحانه، ما أمر به من أن لا نعبد معه غيره، وما أمر به من البر والإحسان إلى الوالدين، فأراد الله، سبحانه، من العباد أن يطيعوه ويعملوا له بما ركب فيهم وأحسن به إليهم من الاستطاعات، وما أعطاهم من الالات، بالاختيار منهم لطاعته، والإيثار منهم لمرضاته، ليثيبهم على فعلهم ويعاقبهم على تركهم، ولو أراد منهم الطاعة جبراً، وصرفهم عن المعصية قسراً، لكان كلهم جارياً في طاعته تابعاً لمرضاته، ولم يكن المذنب الشاسع أولى بالعقوبة من «المهتدي»[2] الطائع، ولم يكن العامل بالطاعة «أحق»[3] من عامل المعصية، إذ كانا كلاهما أُدْخِلا في عملهما إدخالاً واستعملا في إرادة الله استعمالاً. فتبارك الله عن ظلم العباد، وتقدس عن القضاء بالفساد، الذي لم يطع كرهاً ولم يعص مغلوباً، بل أمر ونهى، وحذر وهدى، وعَرَّف النجدين، وبين العملين، ثم أعطى كل شيء خلقه، وأعد للمطيعين الثواب وللعاصين العقاب، ثم قال، سبحانه: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾**[4]، وقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾**[5]، فأمرهم، سبحانه، بالإيمان، وحضهم على التقي والإحسان، ونهاهم عن الكفر والطغيان وعن جميع ما لم يُرِد من العصيان، فقال، سبحانه: **﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾**[6]، وقال: **﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾**[7]، ومثل هذا في القرآن كثير، وقال: **﴿لا تأكلوا الربا﴾**[8]، وقال: **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾**[9]، الاية. ولله الحمد باين البيان، فأمرهم بما أراد من طاعته ونهاهم، سبحانه، عن معصيته.

ثم قال، سبحانه، من بعد أن أعطاهم من الاستطاعة ما أعطاهم، ثم أمرهم

---

(1) الاسراء: ٢٣.
(2) في ب: المؤمن.
(3) في ب: بأهل.
(4) آل عمران: ١٠٢.
(5) النساء: ١٣٦.
(6) الاسراء: ٣٢.
(7) الانعام: ٥١: ١٥١.
(8) آل عمران: ١٣٠.
(9) النساء: ١٠، وتمام الاية: **﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾**.

ونهاهم، فقال: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾[1]، وقال: ﴿**من يعمل سوءاً يجز به، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً**﴾[2]، ثم قال، سبحانه: ﴿**فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم، إن هذا لهو حق اليقين**﴾[3].

ثم قال، من بعد إكمال الحجة عليهم وإثباتها فيهم: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفقاً**﴾[4].

أفلا ترى كيف بين ما كان منه فعلاً، وبين ما أمر به العباد أمراً، فلم يقل فيما حتم به عليهم حتماً وما كان منه عليهم قضاء وحكماً من الموت ولا من الخلق: موتوا، ولا: لا تموتوا ولا: اخلقوا، ولا: لا تخلقوا، ولم يقل فيما أراده منهم فعلاً بتخيير واختيار لعظيم المنة والاختيار: كل من قضينا عليه المعاصي عاص، كما قال: ﴿**كل من عليها فان**﴾، ولم يقل أمرنا وقضينا عليه بالعصيان، كما قال: ﴿**إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير**﴾[5]، بل أخبر أنه من ذلك بريء، فقال: ﴿**إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾[6]، فتبارك الله الواحد الأعلى الذي إذا أراد أن يفعل شيئاً كان بلا كلفة ولا إضمار ولا تفكر ولا إضطراب، إذا آراده أوجده، وإذا أوجده فقد أراده، فقضاؤه كائن وفعله من أفعال العباد بائن، ليس له مثل ينال ولا شبه تضرب له فيه الأمثال، وهو الواحد المتعال، الصمد الواحد الأحد الذي ﴿**لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد**﴾[7].

تم جواب مسألته

---

(1) الزلزلة: ٧.
(2) النساء: ١٢٣.
(3) الواقعة: ٨٨ ـ ٩٥.
(4) الكهف: ٢٩.
(5) ق: ٤٣.
(6) الاعراف: ٢٨.
(7) الاخلاص: ٣، ٤.

المسألة الثالثة عشرة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن الطبع والختم، فقال: أرأيتم من طبع الله على قلبه وختم على سمعه وبصره، أهو ممن دُعِيَ إلى الإيمان فيثاب على أخذه ويعاقب على تركه؟ فإن قالوا: نعم، فقل: كيف يقبلون الايمان، وقد ختم على قلوبهم، والله يقول: ﴿**سواء عليهم، أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾[1]، فهل ضرهم الطبع أو الختم؟ أم نفعهم؟ أم لم يضرهم ولم ينفعهم؟ فإن قالوا: إنما ختم على قلوبهم بكفرهم، فقل: هل ضرهم الطبع حين فعل بهم، وحال بينهم وبين التوبة والدخول في الإيمان؟ فإن قالوا: لم يضرهم، ولو شاءوا آمنوا، فالله قد كذبهم، واجترأوا على الرد على الله قوله، فقل: فتراهم حين طبع على قلوبهم حين لم يقبلوا الإيمان؟، فإن قالوا: فإنهم لا يقدرون على الإيمان حتى يفتح الله قلوبهم فقد أقروا لله بقدرته، وانتقض عليهم قولهم، إذ زعموا أن الختم قد ضرهم وأنهم يعذبون على ما كان من تركهم الإيمان وأخذهم بالكفر بعد الختم وعملهم بما لا يستطيعون تركه. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من الطبع والختم من الله فقال: أرأيتم من طبع الله على قلبه وختم على سمعه وبصره، أهو ممن دعي إلى الإيمان فيثاب على أخذه ويعاقب على تركه؟ فقولنا في ذلك على الله بالحق، إن الله لم يرد بذلك إذ قاله أنه طبع على قلوبهم لا يقدرون على الفهم معه، ولا أنه ختم على سمعهم ختماً لا يقدرون على السمع والإستماع، وعلى البصر فلا يقدرون على الإبصار والإنطباع، وذلك «أبين»[2] الأمر ولا ينكره مَنْ عقل.

(١) يس: ١٠. (٢) في أ، ب: فابين.

ألم تر وتسمع أن الجاهلية كانوا أرصن عقولاً وأعظم أحلاماً وأكثر أفهاماً من أهل هذا الدهر؟ ولذلك قالت قريش للرسول فيما كان يعيب من آلهتهم ويبين لهم في ذلك من جهالتهم، فكانوا يقولون لعمه أبي طالب ومن قام معه دون رسول الله، صلى الله عليه وعلى أهل بيته وقرابته: عاب آلهتنا، وسخف عقولنا، وأطاش أحلامنا. فكانوا ذوي أحلام وعقول جمة وأفهام، فكيف يكون من طبع على قلبه، على ما قد يسمعون عنه من فهمه، وكذلك كانوا يستمعون إلى الرسول إذا قرأ القرآن ويقولون في قراءته كل قول ويدبرون فيه التدبير ويسطرون فيما جاء به الأساطير.

من ذلك ما كان يقول ويتبعونه عليه من القول منهم الوليد بن المغيرة، اللعين، وكانوا له على كفره تابعين، حين تلا عليهم قول رب العالمين، فقال ما حكى الله عنه في سورة «نون» حين يقول: **﴿فلا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾**[1].

كذلك كان يقول الوليد الملعون: إنْ هذا إلا قول البشر، ويقولون: معلم مجنون، كما حكى الله في الكتاب المكنون، وقال فيهم ربهم وذكر عنهم ومنهم، فقال، سبحانه: **﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون﴾**[2]، ويسمعهم ما كان رسول الله، صلى الله عليه وآله، يحاججهم به ويقرأ القرآن عليهم ويأمره الله، سبحانه، بذلك فيهم، فيقول: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾**[3]، وقال، جل جلاله وصدق في كل قول مقاله: **﴿وأصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾**[4]، وقال: **﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾**[5].

فهل يقول أحد من ذوي العقول أن من كانت هذه حاله كان مختوماً على

---

(١) القلم: ١٠ - ١٥.

(٢) الدخان: ١٣.

(٣) الشعراء: ٢١٤.

(٤) المزمل: ١٠. وفي ب مذكورة خطأ هكذا: (فاصبر...).

(٥) طه: ١٣٠. وفي أ، ب مذكورة خطأ هكذا: (واصبر...).

سمعه، ورسول الله، صلى الله عليه وآله، يناجيه ويناديه؟ وهل يجوز على الرسول أن ينادي ويناجي من سمعه مختوم؟ وكذلك كان نظرهم وأبصارهم فيما يأمرهم الله أن يبصروه من السماوات والأرض، إذ يقول: ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج**﴾[1] فهل يجوز على الله أن يأمر بالإبصار من هو بالختم أعمى؟ فهذا لا يجوز على ديان الاخرة، والدنيا، ولن يقدر أحد أن يقول أنهم كانوا عمياناً لا يبصرون وأنهم كانوا صماً لا يسمعون، ومن ذلك ما قد بان منهم ما كانوا عليه من الكمال والمعرفة والعقول والتمييز في كل حال، فإن قالوا: إن الله طبع على قلوبهم وختم على سمعهم وأبصارهم عما جاء به الرسول من الحكمة والقول فقطوخلوا وما سوى ذلك فقد وقعوا في أعظم مما كرهوا من المهالك إذ زعموا أن الله سبحانه ختم[2] على سمعهم وأبصارهم فلا يبصرونه ولا يسمعونه، وطبع على قلوبهم فلا يفقهونه ولا يميزونه، ثم أرسل نبيه، صلى الله عليه وآله، يدعوهم إلى مغالبته ونفي ما فعل بهم وركب فيهم وتغييره، تعالى الله عن ذلك، وإزاحته عن أنفسهم إذ كان قد أرسله إليهم يدعوهم إلى الإيمان والاهتداء والخير والبر والإحسان والطاعة له ولنبيه والإستماع لأمرهما والعمل بالقول وباللسان والضمير بطاعتهما، وقد علم أنهم لا يقدرون على ذلك، فنسب من قال بهذا إلى الله العبث والاستهزاء بنبيه، صلى الله عليه وآله، وزعم أن رسول الله، صلى الله عليه وآله، أتاهم يدعوهم إلى المحال ويأمرهم بالمغالبة والدفع لما فعل فيهم ذو الجلال.

ألا تسمع كيف قد أثبت لهم الفهم بما يقال لهم، والمعرفة بما يتلى عليهم في قوله، سبحانه: ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم وأملى لهم**﴾[3]، فأخبر الله الواحد الجليل فيما أوحي ونزل من التنزيل أن الهدى قد تبين لهم وصح لديهم وثبت في قلوبهم، ولولا سلامة القلوب من الختم الذي يذهب إليه الجاهلون، ويقول به، على الله سبحانه، الظالمون،

---

(١) ق: ٦.

(٢) في أ هنا عبارة زائدة هي: على عن شيء بعينه. وفي ب بزيادة: على نبي بعينه.

(٣) محمد: ٢٥.

لم يثبت أبداً في قلوبهم الهدى، ولو لم يثبت لم يبن، ثم أخبر الله ما سبب إرتدارهم في الطغيان ومعصيتهم من بعد أن بين لهم ذلك الرحمن، فقال: «الشيطان سول لهم وأملى لهم»، ولم يقل: الرحمن ردهم وأضلهم، ثم أخبر بالسبب الذي كان عنهم فتمكن، إذ قالوه، الشيطان منهم، فقال، سبحانه: **﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله، سنطيعكم في بعض الأمر، والله يعلم إسرارهم﴾**[1].

ثم أخبر بما يصيرون إليه عند موتهم من ضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم، فقال: **﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾**[2]، ثم أخبر لِمَ فعل ذلك بهم، وحتم عليهم بضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم، فقال: **﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾**[3]، ثم قال: **﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾**[4]، أفيظن أحد ممن وهب لباً وتمييزاً وعلماً أن الله، سبحانه، أوجب ما أوجب عليهم، وذكر ما ذكره عنهم، وأمرهم بالسير في الأرضين، والنظر في آثار الأولين ممن هلك بما هم عليه من الكفران وبما يختارونه من الفجور والعصيان، ولم يجعل لهم إلى ذلك سبيلاً ويركب، إليهم، فيه دليلاً، وهم لا يقدرون على ذلك لما قد فعله بهم من الختم على أسماعهم وأبصارهم والطبع على قلوبهم التي بها يعقلون وبسلامتها يميزون ويفهمون؟ كذب العادلون بالله والقائلون الزور على الله، بل سلم ذلك لهم ووفره لإكمال الحجة عليهم، ثم أمرهم بالتسديد، وما ربك بظلام للعبيد.

***

ثم نذكر، من بعد دفع هذه المهالك، ونشرح الصدق بما علمنا الله من ذلك، فنقول: إن معنى الختم والطبع من الله، تبارك وتعالى، هو على معنى التمثيل لهم والتقريع، وإثبات الحجة عليهم وتبيين ضلالتهم لهم، فيقول، سبحانه: إن امتناعكم من فعل الرشيد وقلة قبولكم له، كمن طبع على قلبه بما منعه

(١) محمد: ٢٦.
(٢) محمد: ٢٧.
(٣) محمد: ٢٨.
(٤) محمد: ١٠.

من لبه وحرمه من تمييزه ونظره، وجودة فهمه، وبما عدم من النظر والغوصان في بحور الفكر من البهائم التي قد منعها الله من ذلك كله إذ لـم يجعل لها عقولاً تميز بها، فلما أن لم يجعل لها سبيلاً إلى ما يناله البشر من العقل والفهم والتمييز والنظر كان ذلك منه فيها فعلاً وكان منه طبعاً على قلوبها عما فهمه من التمييز أربابها.

فَمَثَّلَهُم في قلة تفهمُهم وإنصافهم لمعقولهم وتركهـم لرشدهـم واتباعهـم لغيهم بمن طبع على قلبه وختم، عن التمييز، على سمعه وبصره، عن أن تعلم ما يعلمون أو تفهم ما يفهمون من البهائم التي جعلت قلوبها علـى غير ما جعلـت قلوبهم من ذلك وختم عليها فكانت بهائم سوائم كذلك، ألم تر كيف يقـول ذو العزة والإنعام: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[1]، وقـال: ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[2]، يقول: إذ أعطوا من الفهم والتمييز النطق وجودة التحرف في غامض الفكر ما لم تعطه البهائم وما قد حجبها عنه العزيز العالم وخلقها على غيره من الخلق وصورها على ما قد يراه «جميع»[3] الخلق فأبوا استعمال ما ركب فيهم، وأمتن الله به، سبحانه، عليهم، وتركوا النصفة وأخذوا في المكابرة والمعاندة لربهم والكفر لنعمـة خالقهـم، فكانـوا لذلك وفيه أضـل من الأنعام، إذ تركوا ما لو علمته الأنعام وعرفته وميزته وفهمته لقبلتـه وتسارعـت إليه ولدخلت بأجمعها فيه، ثم لثابرت، إلى الممات، عليه.

فهذا والحمد لله قول لا ينكسر على من قال به، بل يصح وينير لذوي العقول ويستبين ويصح، وقد يخرج ذلك على معنى آخر، فيكون على قدر علمه منهم بما سيكون من اختيارهم للضلال وإيثارهم للسفال وتركهم للهدى وقلة رغبتهـم في التقى، وأنهم للعنتهم وحميتهم وشدة حسدهم لنبيهم لا يختارون ما جاء به من الله براً بهم، وأنهم لا يطيعونه فيما دعاهم، من حظهـم، إليه، وأنهـم سيجاهـرون بالجرأة عليه، فلما أن علم الله منهم أنهم يختارون، بما ركب فيهم من القـدرة والإستطاعة وسلم لهم من الجـوارح والالـة، معصيتـه علـى طاعتـه، ومخالفـة

---

(١) الاعراف ١٧٩، وهي في أ ب مذكورة خطأ هكذا: (إن هم إلا كالانعام).

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) في ب: جمع.

مرضاته، وأنهم يلقونه يوم الحشر كفاراً كذلك، فختم لهم، إذ قد علم من غاية أمرهم فختم عليها ولها بما علم أنه يكون آخر اختيارها وعملها، وكذلك قيل في محمد، سيد المرسلين، إنه صلى الله عليه وآله خاتم النبيين، فسمي خاتمهم إذ كان آخرهم، فلما أن علم الله آخر أعمالهم وما عليه يكون فناء آجالهم، ختم بذلك عليهم ودعاهم به وذكره عنه وفيهم، فكان ذلك العمل منهم اختياراً، وكان ما قال الله فيهم منه إخباراً.

وأما ما ذكر الله من الطبع على قلب من على قلبه طبع، فسنقول فيه بوجه من قال به، إن شاء الله، أصاب ووجده بيناً نيراً في اللسان والإعراب، وهو ما تقول به العرب لمن ذكر في ملأ من الناس عن إنسان شيئاً مما يفعله ويكتسبه ويصنعه من الردى والخنا: يا فلان طبعت ويحك فلاناً وأفسدته وطرحته بما طبعته به من أعينهم[1]، فعلى ذلك يُخَرَّج الطبع من الله لقلوب الفاسقين، عند ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين وعباده المؤمنين، فيكون طبعه لها عندهم هو ما ذكر وأخبر به عنها من باطن أسرارها وفاحش إضمارها وفسادها وقلة قبولها للحق واهتدائها وكفرها لربها وحسدها لنبيها، وبما فيها من الدغل[2] والعداوة لخاتم النبيين والمشاقة لرب العالمين والمنافقة للمؤمنين والصد عن سبيل أحكم الحاكمين، كما قال أصدق الصادقين: **﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم﴾**[3]، فيكون ما قص عنهم من قصصهم وأخبر به من الضلالة عنهم ومن الحيرة والتَّكَمُّه[4] والجهالة والكفر والنفاق والسفالة، وما سماهم به من ذلك ودعاهم طبعاً طبعهم به، فهذه، والحمد لله، حجة فيما سأل عنه من الختم والطبع شاء فيه مُجْزِيةٌ لمن أراد الحق من جميع الناس كافية. والحمد لله على توفيقه، ونشكره على تسديده، وكذلك يقول المحقون، لا ما قال، في الله، المبطلون: أنه

---

(١) عبارة ب: طبعت ويحك عندهم وأفسدته وطرحته بما طبعته في أعينهم.

(٢) الدغل: من معانيه: الخيانة والوشاية، والغيلة، والفساد، والحقد الباطن، والتماس العيوب.

(٣) محمد: ٣٢.

(٤) من معاني التكمة: أن يصير صاحبه أعمى، أو اعشى، أو ذاهب العقل، أو لا يدري وجهته التي هو موليها.

سبحانه، ختم على الأسماع فلا تسمع وعلى الأبصار فلا تنفع ، وأنه على قلوب الكافرين طبع ، ثم أمرهم بخلاف ما فعل بهم ، وكلفهم فعل ما منه منعهم ، وعنه ، سبحانه ، حجزهم ، ثم عذبهم على ترك ما لا يقدرون على فعله لما قد حجزهم عنه به من طبعه وختمه ، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وخسر المبطلون خسراناً مبيناً.

تم جواب مسألته

المسألة الرابعة عشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن الزيادة، فقال: خبرونا عن الزيادة، فان الله يقول: **﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾**[1]، وقوله لقوم: **﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾**[2]، ألستم تعلمون أن الله زادها مرضاً، ومد آخرين في طغيانهم يعمهون، وأعقب قوماً نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه؟ فإن قالوا: نعم، ولكنه صنع ذلك بهم عقوبة بذنوبهم، فيقال لهم: «نعم»[3] أفنيسوا معذورين بما عملوا من معصية حين فعل بهم ذلك؟ فإن قالوا: لا، فقل: فقد دخلتم فيما عبتم إذ زعمتم أن الله يعذب قوماً على ما لم يستطيعوا تركه لأنه فعل ذلك بهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله «سبحانه»[4] وتوهم فيه من التجوير له في فعله، فقال: خبرونا عن الزيادة التي ذكرها الله، سبحانه وعظم عن كل شأن شأنه، حين يقول سبحانه: **﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾**، وعن قول

---

(١) البقرة: ٩.
(٢) التوبة: ٧٦.
(٣) في ا، ب: فنعم.
(٤) غير موجودة في ب.

الله سبحانه: ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه** ﴾.

فسنجيب، ان شاء الله في ذلك من الجواب بما يقبله ذَوُوا الإنصاف والالباب، فنقول في ذلك على الله سبحانه بالصواب:

فأما قوله، سبحانه: ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾ فهم المنافقون الذين يحتجرون[1] من الرسول ومن المؤمنين بانتحال الإيمان وتلاوة ما أنزل من القرآن، وقلوبهم لذلك منكرة، وفي دين الله فاجرة، وبه، سبحانه، كافرة، فهم يراءون بألسنتهم الرسول مخافة القتل والتنكيل، وهم عن الله بضمائرهم حائدون، وللحق بينهم وفي سرائرهم معاندون، ألا تسمع كيف يقول فيهم، ويدل بصفاتهم عليهم، حين يقول: ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾[2]، وقال، سبحانه، يخبر عنهم بما هم فيه وما يجتمعون في خلواتهم من المشاقة عليه: ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون** ﴾[3]، ومن ذلك ما قال، سبحانه، في الأعراب: ﴿ **قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً، إن الله غفور رحيم** ﴾[4]، ومن قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ما يقول الله، سبحانه: ﴿ **سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم** ﴾[5]، فأخبر الله عنهم بما كان من كذبهم فيما ذكروا أنه شغلهم، وأخبر بنفاقهم وتوهمهم، وما وهموا نبيه، صلى الله عليه وآله، من إحقاقهم فيما طلبوا منه من الاستغفار لهم والصفح في ذلك عنهم، فأمره الله، سبحانه، أن يخبرهم أن استغفاره لهم غير دافع عقوبة الله عنهم إذا أراد الله الانتقام في ذلك منهم، فقال،

---

(١) أي يستترون ويتخفون.
(٢) البقرة: ١٤.
(٣) البقرة: ٧٦.
(٤) الحجرات: ١٣.
(٥) الفتح: ١١.

سبحانه: ﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً، بل كان الله بما تعملون خبيراً** ﴾، ثم أخبر نبيه، صلى الله عليه وآله، عن أمورهم بما كانوا يتوهمون أنه قد «خفي»[1] عليه علمه مما كانوا ظنوه وآجنّوه في صدورهم، فقال ذو المعارج والجلال: ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وزين ذلك في قلوبكم، وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾[2]، فأخبرهم، سبحانه، بما ظنوا من الظن القبيح في الرسول والمؤمنين وتوهموا، وما زين في قلوبهم الشيطان من ذلك وأملى، وأنهم كانوا في ذلك قوماً بوراً.

وأما قوله، جل جلاله وتقدس عن «أن» يحويه قول[3] ويشبهه شيء أو يناله: ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ فقد تخرج على معنيين، وكلاهما، ان شاء الله، للحق مضاف.

فأما أحدهما فأن يكون المرض الذي في قلوبهم هو الشك الذي هم فيه يلعبون من حجدانهم لما يرون من آيات ربهم، فقلوبهم لذلك مريضة فلا يؤدون لله، سبحانه، من فرائضه فريضة، فهم في شكهم ولعبهم يترددون وفي «خطيئاتهم»[4] و«طمياء»[5] حيرتهم يعمهون، كما قال، سبحانه: ﴿ **بل هم في شك يلعبون** ﴾[6]، فقد تكون زيادة الله لهم من المرض الذي ذكر أنه في قلوبهم لشكهم وضلالهم هو بما يزيد نبيه، صلى الله عليه وآله، من الوحي والبرهان وتنزيل ما نزل من القرآن الذي به مرضت قلوبهم ومنه دويت صدورهم، فكلمازاد الله منه نبيه تبياناً وعلماً وفضلاً وحكماً إزداد لذلك مرض قلوبهم تراكماً وزادهم الله بتنزيل الحق غيظاً وغماً، وقد يكون ذلك المرض حل في قلوبهم لشدة الحسد منهم لنبيهم، صلى الله عليه وآله، على ما جعل الله من البركات واليمن في كل الحالات لديه، ولما خصه الله به دونهم وآثره به، سبحانه، عليهم من هبوط الملائكة نحوه، وما عظم به الله له خطره وقدره، فجعله له صفياً، يوحي إليه وينزل إليه وحيه بفرائضه عليه، وما خصه به من أن جعل طاعته له طاعة، ومعصيته له

---

(1) في ب: غبي.
(2) الفتح: ١٢.
(3) عبارة ب: عن يشبه شيء أو يتاله.
(4) غير موجودة في ب.
(5) غير واضحة في الاصل.
(6) الدخان: ٩

معصية، فقال: ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾[1]، وقال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾[2]، وقال، سبحانه: ﴿ **ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[3]، وقال: ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾[4].

فلما أن رأت قريش هذه الكرامات البينات النيرات التي لا يقدرون على دفعها ولا يأتون أبداً بمثلها، اشتد لذلك حسدها لرسول العالمين وعهدوا[5] عليه وعلى من معه من المؤمنين، فمنعه الله منهم، ورد حسدهم وبغيهم في نحورهم، فنصبوا له المحاربة وطالبوه أشد المطالبة، فردهم الله بغيظهم، كما قال سبحانه: ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾[6]، وذلك حين تحزبت قريش والعرب وطلبوا رسول الله صلى الله عليه وآله، غاية الطلب، فكفاه الله في ذلك اليوم والمسلمين القتال بأخيه ووصيه[7] علي بن أبي طالب أفضل المستشهدين، فقتل عمرو بن عبد ود[8] اللعين، وكان

---

(١) النساء: ٨. (٢) النساء: ٥٩، ومحمد: ٣٣.

(٣) الحشر: ٧. (٤) الفتح: ١٧.

(٥) أي تحالفوا وتعاقدوا، والمراد بذلك حلف قريش والعرب في غزوة الاحزاب.

(٦) الاحزاب: ٢٥.

(٧) وتعبير «وصيه» يعكس وجهه نظر الشيعة القائلين بالوصية من الرسول لعلي بن أبي طالب بإمارة المؤمنين من بعده، والمؤلف زيدي، يرى، كالزيدية، ثبوت الوصية.

(٨) وهو من بني عامر بن لؤي، وكان أحد أربعة اقتحموا الخندق على المسلمين يوم غزوة الاحزاب من إحدى الثغرات، والثلاثة الاخرون هم: عكرمة بن أبي جبل، وهبيرة بن ابي وهب، وضرار بن الخطاب الفهري وعندما نازله علي «ثار النقع بينهما حتى حال دونهما، فما انجلى النقع حتى رؤي علي على صدر عمرو يقطع رأسه. فلما رأى أصحابه أنه قد قتله علي اقتحموا بخيلهم الثغرة منهزمين هاربين، وقال علي، رضي الله عنه، في ذلك:

نصر الحجارة من سفاهة رايه ونصرت دين محمد بضراب

لا تحسبن الله خاذل دينه ونبيه يا معشر الاحزاب

نازلته وتركته متجدلا كالجذع بين دكادك وروابي»

(والمتجدل: اللاصق بالارض، والدكادك: الرمل اللين، والروابي: التلال).

راجع (الدرر في اختصار المغازي والسير) لابن عبد البر ص ١٨٥، ١٨٦، تحقيق. شوقي ضيف. ط. القاهرة سنة ١٩٦٦م.

عماد المشركين وفارس المتحزبين، فانهزم بقتله جميع الكافرين، وفل الله حد المبطلين، وأظهر دعوة المحقين، ونصر رسوله خاتم النبيين، وكبت أعداءه المحادين، قال، سبحانه: **﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم، وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ﴾**[1] فلما أن أذلهم وهزمهم وكبتهم كما كبت الذين من قبلهم تدارك[2] الكبت في قلوبهم وترادفت الحسرات في صدورهم ومرضت لذلك وبه منهم القلوب وأحاطت به منهم الذنوب، فهم في كل يوم يرون من نصر الله لنبيه ويسمعون عنه ما يزيدهم حسداً، ويحدث لهم في قلوبهم مرضاً، حتى صدق الله رسوله الرؤيا بالحق التي كانت في غزوة الحديبية، أراه وأكمل له من دخول مكة آمناً لا يخاف رصاداً، فنزل بالمشركين من ذلك ما كانوا يخافون، وحقق الله لرسوله ما كانوا يحذرون ومن بغى عليه، لينصرنه الله أن الله لقوي عزيز.

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: **﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتان من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾**، فقد يمكن أن الله سبحانه، لما أن كذبوه وأخلفوه خذلهم، ومن الارشاد والتوفيق تركهم، فتَكَمَّهوا في ضلالهم وارتكبوا من أعمالهم، فأعقبهم كثرة ضلالهم وعظيم إجترائهم على قول الزور والبهتان، وارتكاب الضلال والعصيان تمادياً في ذلك حتى مردوا على الكذب والفساد والنفاق وقول المحال والإلحاد، فيجوز أن يقال: أعقبهم الله نفاقاً إذ تركهم من التوفيق والتسديد والتحقيق حتى غلب عليهم الهوى، ورفضوا الخير والهدى، واستعملوا بينهم النفاق في كل أمرهم، فعادوا منافقين، وللرشد تاركين، ينافق بعضهم بعضاً، ويفرضه في العيب له فرضاً[3]، وقد يكون الذين أعقبهم في قلوبهم النفاق هو فعلهم وكذبهم وغدرهم في موعدهم الذي أوجبوه لخالقهم، وذلك أن الكذب والردى يجر بعضه بعضاً، فلما أن كذبوا فيما قالوا ووعدوا خالقهم من أنفسهم فأخلفوا كانوا لغيره فيما يعدون

---

(١) المجادلة: ٥. (٢) أي تلاحق وتتابع.

(٣) أي يقطعه قطعاً. والفرض أحد معانيه: الحز والقطع.

أخلف، ولسواه، سبحانه، أكذب، فكاذَبوا بيناتهم وأبطلوا بالزور قالاتهم، فدعت حالةٌ حالةً، حتى تكمهوا في الغي والضلالة، ودعا ما كان منهم أولاً من الكذب والإخلاف إلى قلة الصدق والانصاف، فحل بينهم التضاغن وذهب عنهم الائتلاف، فعاد كل منافق في قوله غير صادق، فكأن الذي أعقبهم النفاق آخراً هو فعلهم للكذب والإخلاف أولاً، فجر فعل الضغائن إلى ارتكاب موبقات الكبائر حتى صار ذلك لهم عادات، وكان لهم وعليهم علامات يعرفون بها دون غيرهم ودلالات، فهذا أيضاً معنى يصح في اللسان ويعرفه من كان ذا بيان. والحمد لله ذي الجلال والبرهان والجبروت والسلطان.

وأما ما سأل عنه من معنى قول الله سبحانه: ﴿ **إلى يوم يلقونه** ﴾، فقد يمكن أن يكون المعنيُّ باللقاء هو الله الرحمن الأعلى، يريد بقوله: «يلقونه»، أي يلقون حكمه ويعاينوه، وقد يكون الذي «يلقونه»[1] ما تقدم من عملهم ومضي، فيعاينوه في الآخرة يوم الحساب ويجدونه عند الله مثبتاً في الكتاب، كما قال، سبحانه: ﴿ **إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾[2]، وقال: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**[3]، يقول، سبحانه: يرى جَزَاءً جَزَاءً، ويعاين ما حكم عليه به من الخير والثواب والعذاب والعقاب، فيكون لقاؤهم لأعمالهم هو توقيف الله لهم على القليل والكثير من أفعالهم، وما يكون منه، سبحانه، على ذلك من جزائهم، فيلقى المحسنون ما وعدهم الله في إحسانهم ذلك من الثواب ويلقى المجرمون ما وعدهم من العقاب.

تم جواب مسألته

---

(١) في ب: يلقاهو.

(٢) يس: ١٢.

(٣) الزلزلة: ٧.

المسألة الخامسة عشرة

ثم أتبع ذلك «الحسن بن محمد»[1] المسألة عن ما صنع الله بعباده، فقال: خبرونا عما صنع الله بالعباد، هل يعذبهم عليه؟ فإن قالوا: لا، فقل: خبرونا عمن زاده الله كفراً، ومده في طغيانه، وأعقبه النفاق في قلبه هل يعذبه عليه؟ فان قالوا: نعم، فقد دخلوا فيما يعيبون، وان قالوا: لا، فقد زعمتم أن الله لا يعذب من كان على الكفر، ولا يضر من كان عليه، وأنتم تزعمون أن الله إنما صنع ذلك عقوبة لهم، وسلهم: هل استطاع هؤلاء التّرك لما صنع الله بهم، والخروج منه؟ فإن قالوا: لا، فقد أجابوا، وإن قالوا: نعم، فقد كذبوا بكتاب الله، وخالفوا قول الله، إذ يقول: ﴿ **فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه** ﴾، فقول الله، بزعمهم، باطل في قوله: ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾[2]، تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه مما إلتبس عليه، فتعسف بقول الزور فيه، فقال: أخبرونا وبما عندكم نبئونا عن قول الله، سبحانه: ﴿ **ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾[3]، وفيما صنع الله بالعباد، تقولون: هل يعذبهم على ما فيه أدخلهم وعليه جبرهم؟

فلعمري، لقد تقدم في ذلك الجواب، وقلنا فيه، إن شاء الله، بالصواب، ولا بد أن نقول فيما سأل عنه في هذا الجواب، نأتي على شرحه، إن شاء الله، بشرح شاف، فنقول:

---

(١) سقطت من أ.

(٢) الانعام: ١١٠.

(٣) البقرة: ٧.

إن معنى قوله، سبحانه: ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ هو تركه توفيقه وتسديده وعونه ولطفه وتأييده، لما خرجوا من طاعته وارتكبوا بطغيانهم من معصيته، فولى بعضهم بعضاً، ولم يقم لهم، سبحانه، أمراً، كما قال سبحانه: ﴿ وكيف نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾[1]، فلم يبرأ سبحانه منهم، ويكلهم إلى أنفسهم، جل وعظم شأنه، إلا من بعد أن تولوا وكفروا وتعدوا واستوجبوا منه الحد، لأن بما تمادوا فيه من الطغيان كما يستوجب الرشد والتوفيق بالطاعة منه المؤمنون ويستأهل بالاهتداء منه والزيادة في الهدى المهتدون، كما قال أحكم الحاكمين وأصدق القائلين: ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾[2] فأخبرنا سبحانه أنه ولي المتقين، مجانب خاذل للفاسقين، وكذلك قال سبحانه رب العالمين: ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[3]، يريد، سبحانه، أنه ولي الذين آمنوا والمتولي في كل الأسباب لهم، وأنه الخاذل للكافرين والتارك لتأييدهم، الرافض لتوفيقهم وتسديدهم، ألا ترى كيف يقول ويخبر بتأييده وصنعه وتسديده ولطفه للمؤمنين، وتخليته بين المؤمنين والكافرين وممن أطغاهم من الطاغوت والطواغيت، فهم الذين أجابوا إلى دعاتهم واتبعوهم في أهوائهم من مستجيبي الشيطان وأبالسة الإنس الملاعين الذين أطغوهم واستهووهم في الردى والطغيان، ومنوهم مع الإقامة على ذلك، من الله الغفران، قال الله، سبحانه: ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾[4].

وأما ما قال وعنه سأل فقال: هل يعذب الله أحداً على فعله به؟ أم يقدر الخلق على الخروج مما أدخلهم، جل جلاله، فيه؟

فقولنا في ذلك على الله بما تقدم من شرحنا «له»[5] من أن الله جل جلاله أعز وأكرم وأرأف وأرحم وأحلم من أن يدخل عباده في سبب من الأسباب أراده ثم يعذبهم عليه ويعاقبهم فيه، إن هذا ألا جور الجور من الفعل، وأنه من فاعله

(١) الأنعام: ١٢٩.
(٢) محمد: ١٧.
(٣) محمد: ١١.
(٤) البقرة: ٢٥٧.
(٥) غير موجودة في أ.

لأجهل الجهل، فلو كانت أفعاله لا تتم إلا بأفعالهم لكانت حاله في العجز كحالهم، ولكان مضطراً إلى خلقهم وإيجادهم، إذ لا يتم له فعل إلا بأعمالهم، فلقد آتاهم إذاً نظراً منه لنفسه لا لهم، وضرورة الخالق إلى الخلق في فعله كضرورة الخلق إلى الخالق في أمره، فكل إلى غيره محتاج، وذلك «بين»[1] على قياسهم في المنهاج، ولو اشتبهت الحالات لاشتبهت، بلا شك، الذات، فسبحان من بان عن خلقه فليس له حد ينال ولا مثل يضرب له به الأمثال، الذي بان من كل فعل فعله وجل عن كل قول قوله.

وأما ما قال من قوله: هل يقدر الخلق على أن يخرجوا مما أدخلهم الله فيه وصنعه بهم؟ فإن إدخال الله وصنعه بالعباد يكون على معنيين كليهما متضادين، أحدهما: إدخال حكم وأمر وافتراض منه، معه تمكين واختيار، لم يرد الله أن يدخلهم فيه جبراً، بل أراد أن يدخلوا اختياراً بما ركب فيهم وأعطاهم من الآلات والاستطاعات، ليكمل لهم الثواب على الطاعات، ولو أدخل قوماً في الطاعة وأدخل آخرين في المعصية ثم أثاب وعاقب لكان على «غير»[2] فعلهم عاقب وأثاب، جل الله عن ذلك رب الأرباب، فهم قادرون على الخروج من هذا الفعل على ما ذكرنا من تمكين الله الواحد الأعلى.

وأما المعنى «الثاني»[3] الذي أدخلهم فيه وصنعه بهم، فهو ما خلقهم عليه وصورهم من الخلقة وقومهم عليه من الفطرة من الأجسام والعروق والعصب والعظام والأسماع والأبصار، وما عليه الجن من السرعة والذهاب في الهواء، وما خلق عليه الآدميين من الثقل و«الخفة»[4]، فلا يقدر جنِّيٌّ يزيح ما فيه من الخفة فيثقل، ولا آدمي عن الثقل إلا الخفة يرحل، وكذلك لا يقدرون على الخروج من سواد إلى بياض، ولا من بياض إلى سواد، ولا من قصر إلى طول، ولا من طول إلى قصر، فهذا ما لا يقدر عليه الخلق ولا ينالونه، وذلك أن الله خلقهم وجبلهم عليه فلم يزدادوا من محبوبه ولم ينقصوا من مكروهه.

تم جواب مسألته[5]

---

(١) في أ، ب: فبين.
(٢) في ب: غيره.
(٣) في ب: الآخر.
(٤) في أ، ب: الخفاء.
(٥) غير موجودة في ب.

المسألة السادسة عشرة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة، عن قول الله، سبحانه: ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾[1]، أليس إنما يريد الغنيمة أو المشركين وغلبتهم النصر؟، فإن قالوا: نعم، فقل: هل كانوا يقدرون على أن لا يقاتلوا ولا يخرجوا إلى القتال؟، فإن قالوا: نعم، فقد زعموا أنهم كانوا يقدرون على أن يخلف الله وعده الذي وعده رسوله، وهذا قول عظيم يدخلهم في أعظم مما كرهوا، وإن زعموا أنهم لم يكونوا يقدرون على أن يخرجوا للقتال، لا المؤمنون ولا الكافرون، أقروا بما كرهوا، فإن الله قد أراد أن يقاتل المؤمنون الكافرين وأن يقاتل الكافرون المؤمنين، وأن الفريقين لم يكونوا يستطيعون التخلف ولا الترك للقتال حتى ينجز الله وعده ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ويوهن كيدهم، وكذلك أراد بالفريقين جميعاً، وقد كان فيما صنع الله بالفريقين يوم بدر بينة لنبيه وبرهان، وذلك أن الله، سبحانه، لم يكل المؤمنين إلى ما زعم الجهال المكذبون أن الله جعل في العباد استطاعة ثم وكلهم إليها، فلم يرض حتى أيدهم بنصره وأمدهم بملائكته ثم أجرهم على صبرهم على البأس، وهو صبَّرهم وأجرهم على الثبات، وهو ثبتهم وأجرهم على ائتلافهم، وهو ألف بينهم وأجرهم على صرامتهم، وهو ربط على قلوبهم وأجرهم على ظفرهم، وهو ألقى الرعب في قلوب عدوهم، وهذا كله خلاف لقولهم ورد عليهم فجعل غلبة المؤمنين الكافرين نصراً وعزاً وتأييداً، وجعل غلبة الكافرين دُولة بلاء وإملاء فأنزل في قتال المؤمنين الكافرين بأحد[2]: ﴿ فأثابكم غماً

---

(١) الأنفال: ٧.

(٢) مكان على جبل، يقع عند شفير الوادي في مقابله المدينة، وكانت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، راجع (الدرر في اختصار المغازي والسير) لابن عبد البر ص ١٥٣ - ١٦٦، وهنا في الاصل عبارة زائدة هي: إلى المشركين من المؤمنين.

بغم﴾، أما الغم الأول فالهزيمة والقتل، وأما الغم الآخر قال الله تعالى: ﴿«لكيلا تحزنوا على ما فاتكم» من الغنيمة، «ولا ما أصابكم﴾ يعني من قتل من إخوانكم﴾ قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾[1] فإن قالوا: إن الله إنما فعل بذنوبهم ومعصيتهم، قيل: فإنه إنما عصى منهم نفر يسير وهم الرماة، نحو من خمسين رجلاً، فقد عم ذلك البلاء جميع المؤمنين حتى وصل إلى نبي الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فشج في وجهه وكسرت رباعيته، وقد كان المسلمون يوم أحد سبعمائة أو يزيدون، فأخبر الله أنه صنع ذلك بهم فأثابهم غماً بغم، أفليس الله قد أراد أن يصيبهم ذلك بأيدي الكافرين، ولأن ينهزموا، وأن يقتل من قتل منهم، ثم أخبر أيضاً بما صنع بهم بعد الذي كان منه إليهم من الغم، فقال: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾[2]، قال الله لنبيه: ﴿قل إن الأمر كله لله﴾[3]،ثم قال: ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾. فأخبر عما أخفوا في أنفسهم، فقال: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا﴾، يقولون: لو كنا في بيوتنا ما أصابنا القتل، قال الله، تكذيباً لهم: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾، فأخبر أنه قد كتب القتل على قوم قبل أن يقتلوا، وجعل لهم مضاجع إليها يصيرون، ثم نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأن يظنوا بالله كظنهم، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير﴾[4]، وقال في غلبة الكافرين المؤمنين وهزيمة المؤمنين، فقال: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾[5]، وقال: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا﴾[6] في آي كثيرة يخبر أن الأمر كله منه، وهو يدبر أمر خلقه، ويصرفهم كيف

---

(١) آل عمران: ١٥٣.
(٢) آل عمران: ١٥٤.
(٣) آل عمران: ١٥٤.
(٤) آل عمران: ١٥٥.
(٥) آل عمران: ١٤٠.
(٦) آل عمران: ١٦٦.

يشاء، وأخبر أن الذي أصاب المؤمنين يوم أحد إنما كان بإذن الله من قتل الكافرين إياهم وهزيمتهم لهم، حتى قتل منهم سبعون رجلاً، وأنتم تزعمون أنه لم يأذن في المعاصي وأنها لا تكون بإذنه، ولكن الإذن قد يكون على معنيين: أما أحدهما فيكون أمراً منه يأمر به، والآخر يكون إذناً على وجه الإرادة، أنه أراد أن يكون، لأنه فعال لما يريد، ثم قد عيَّر الذين قالوا لإخوانهم: ﴿**إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزاً، لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا**﴾، وكذبهم وأخبر بما قد سبق منه لهم وما قد كتب عليهم، وعير الذين قالوا: ﴿**لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا**﴾ فكذبهم الله لما قالوا من ذلك.

فلو تدبرتم كتاب الله وآمنتم بما فيه ما عارضتم أمور الله تعالى ولا عبتم «ولفهمتم قضاءه»[1]، تردون عليهم، برأيكم، أمره، وتعقبون حكمه، وتظلمون عدله، وتقولون «إنه»[2] فعل بخلقه شيئاً ثم عذبهم عليه بما صنع بهم فقد ظلمهم، فسبحان الله ما أعظم قولكم وأضعف رأيكم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من القتال، فقال: هل أراد الله من المؤمنين أن يقاتلوا الكافرين؟ ومن الكافرين أن يقاتلوا المؤمنين؟ أم أراده من المؤمنين دون الكافرين «بذلك»؟[3].

«ولله الشكر»[4] نقول، وإليه أمورنا تؤول فنقول: إن الله شرع حقاً وأوجب صدقاً، فدعا إليه الناس، وكشف عنهم به الالتباس، ثم أوجب على الخلق كلهم الدخول فيه والمقاتلة عليه، فكل من كان على «ما»[5] شيْرعة الله «تعالى»[6] من الحق فقد أراد الله منه مقاتلة من خالف عنه من الخلق، وإنما أراد، سبحانه، من عباده أن يقاتلوا على ما رضيه من دينه، فأما ما لم يرده من أفعال الكافرين ولم يشرعه ولم يرضه من عبادة أصنام المشركين، فكيف يريد من أصحابه القتال عليه، وقد

---

(١) في ب: ولا عبتم قضاؤه.
(٢) في ب: أنه.
(٣) في أ: فبذلك.
(٤) في أ: ولله الحمد.
(٥) سقطت من ب.
(٦) سقطت من ب .

كرهه منهم، وذمهم على المقام فيه، ودعاهم إلى الخروج منه، وقد علم كل من كان له علم وآتاه الله شيئاً من فهم الحكمة أن المشركين عن آلهتهم كانوا يدافعون وعن دينهم يقاتلون وعلى ما كان آباؤهم من القتال يثابرون، فإن كان الله أراد منهم ذلك، وجعلهم فيه كذلك، فقد ارتضاه، وعلى الأديان كلها اصطفاه، كما ارتضى الذي بعث به خاتم النبيين وأراده، وأمر بالقتال عليه المؤمنين، فإن قالوا: ارتضاه وأراده وأمر بالقتال عليه عباده، كفروا بالرحمن وتابعوا قول الشيطان، وإن قالوا: بل سخطه وسبه، وأمرهم لإشقائهم بالمقاتلة عليه، فقد سووا عنده بين ما ارتضاه وبين ما سخطه أو أباه، وهل يأمر بحياطة ما لا يريد إلا الجاهل غير الرشيد؟! فإن كان حكم عليهم بعمل الردى لما أراد بهم بزعمهم، من الشقاء، فعلى ماذا يعذبهم ويشقيهم وفي الحميم يصليهم، وهم له طائعون وفي إرادته منهم متصرفون؟! أهذا عندهم من صواب الحكيم، العدل في فعله الرحيم؟!، بل هذا من فعال الجائرين، وأعظم ما عاب، سبحانه، من اعتداء الظالمين. فلا يجدون بداً من أن ينسبوا إلى الله التجهيل والظلم والتعدي والجور الجليل، أو يدخلوا في الحق ويرجعوا إلى الصدق، فيقولوا: إن الله أمر وأراد حياطة ما ارتضى، وكره ونهى عن حياطة ما لم يشأ.

وأما ما ذكر من قول الله «عز وجل»[1]: **﴿وإذ يريكهم الله في منامك قليلاً، ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم، إنه عليم بذات الصدور، وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً، ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾**[2]، فقال وتوهم أن هذا الأمر المفعول الذي يقضيه الله، هو قضاؤه على الفريقين بالقتال والمزاحفة والاقتتال، وليس ذلك «ولله الحمد»[3] على ما قال، ولا على ما توهم من المحال، أن الله يقضي على الكافرين بقتال المؤمنين، ولا أنه يقلل المؤمنين في أعين الكافرين تشجيعاً منه لهم على قتال المؤمنين وتأييداً بذلك لهم على المهتدين، ولكن قللهم في أعينهم لكيلا يروهم بحالة الكثرة مع ما في قلوبهم من هيبة الروعة فيهزموا ويذهبوا ويرجعوا ولا يقاتلوا،

(١) في ب: جل وعز.
(٢) الأنفال: ٤٣.
(٣) في أ: والحمد لله.

فكان ذلك خذلاناً لهم وحرباً عليهم، وقللهم في أعين المؤمنين لكيلا يروهم على الكثرة التي كانوا عليها فيهابوا ويخافوا، فقللهم في أعينهم تأييداً منه لهم، ومعونة وإحساناً إليهم، فأما قوله: ﴿ **ليقضي الله أمراً كان مفعولاً** ﴾ فمعناه: ليقضي الله وعداً كان منجزاً، وهو ما وعد رسوله والمؤمنين من النصر إذا نصروه والتسديد لهم إذا قصدوه.

ألا تسمع كيف يقول: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[1]، ويقول: ﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾[2]، فقضى، تبارك وتعالى، لرسوله وللمؤمنين، عند الالتقاء، بما وعدهم من النصر، وفعل لهم بما ضمن فعله من الأمر، وتغنيمهم ما وعدهم من إحدى الطائفتين: طائفة الجيش، وطائفة العير، فغنمهم الله طائفة الجيش كما وعدهم من الأمر واتخاذ ما وعد المؤمنين من النصر على الكافرين، فهو الأمر الذي ذكر الله أنه كان مفعولاً، لا ما يتوهم أهل هذا القول الفاسد المخذول.

وأما قوله: ﴿ **هو الذي أيدكم بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم** ﴾[3]، فنصر الله رسوله، كما قال، سبحانه: ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾[4] فألف الله على ذلك بين المؤمنين، لا كما ظن الحسن بن محمد وأصحابه أهل العمى والقول بالردى: أن التأليف من الله كان بين الكافرين والمؤمنين في القتال، وأنه ساق بعضهم إلى بعض جبراً حتى ألف بينهم للقتال، وهذا «أحول»[5] المحال، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ألا ترون كيف قال: ﴿ **أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ و﴿ **ألف بين قلوبهم** ﴾، فرد اسم المضمر في الهاء والميم من «قلوبهم» على الاسم الظاهر من «المؤمنين»؟، فسبحان أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

---

(١) محمد: ٧.
(٢) الحج: ٤٠.
(٣) الانفال: ٦٢.
(٤) الفتح: ٢٦.
(٥) في آ، ب: فاحول.

وأما ما سأل عنه من قول الله، تبارك وتعالى: ﴿**وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**﴾[1]، وقال: لو لم يخرج المشركون، أليس كان يبطل وعد الله لنبيه وللمؤمنين؟ فقولنا في ذلك: أن الله، سبحانه، وعد نبيه، كما قال، إحدى الطائفتين، طائفة العير وطائفة الجيش المستعير، وأن الله لم يجبر الفاسقين على الخروج إلى قتال المؤمنين، بل عن ذلك نهاهم، وإلى طاعته وطاعة رسوله دعاهم، فقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون**﴾[2]، ونقول: لو أطاعوا الله فيما أمرهم لم يخرجوا لمحاربة الحق ولم ينصبوا.

فأما ما قال من أن ذلك لو كان «لبطل»[3] وعد الله أهل الإيمان، الذي وعدهم من الغنيمة والإحسان، فليس ذلك كما قال أهل الجهالة والعمى والضلال، ولكن الله سبحانه، علم أنهم سيخرجون، وعلى الحق والمحقين سيبغون، فلما أن علم ما يكون من اختيارهم حكم بما علم منهم عليهم، وبشر رسول الله صلى الله عليه وآله، بما سيسوق من الغنيمة والنصر إليه، ولو علم منهم اختيار المقام لما وعد غنائمهم نبيه، صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أن خرجوا، وعلى الله ورسوله أجلبوا، خذلهم سبحانه وأخزاهم وأذلهم وأرادهم، وألقى الرعب في قلوبهم كما قال، سبحانه: ﴿**سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً**﴾[4]، فأرداهم ،ونصر المؤمنين، وأعز، بتأييده، الدين، وكبت الكافرين، فأتاهم بالسيف قتلاً، وشتت أمرهم وجمعهم هزيمة وأسراً، وأنزل الملائكة المقربين مدداً للمؤمنين، واعزازاً للحق والمحقين، فزادهم قوة إلى قوتهم المركبة الثابتة فيهم.

وأما ما سأل عنه وقال وتوهم من المحال في قول الله، تبارك وتعالى: ﴿**فأثابكم غماً بغم**﴾، و«أن»[5] ذلك الغم هو غمهم «يوم حنين»[6] حين أدال المشركين على النبي والمؤمنين، فغلط وأخطأ في ذلك، ولم يكن، ولله الحمد

(١) الانفال: ٧.
(٢) الانفال: ٢٠.
(٣) في أ: يبطل.
(٤) آل عمران: ١٥١.
(٥) عير موجودة في الاصل.
(٦) سقطت من ب.

كذلك، ولم يدل الله الكافرين على المؤمنين، لأن الإدالة هي معونة وتأييد ونصر وتسديد، ولم يقل مؤمن بالله: إن الله نصر في ذلك اليوم أعداءه على أوليائه «ولا نصر»[1] جيش أبي سفيان «اللعين»[2] على جيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن الله أراد بالمؤمنين المحنة والبلاء حتى يعلم الله أهل الصبر والإحتساب والتقى، ألا تسمع كيف قال الله: ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم**﴾[3]، فنصرهم في أول الأمر وأراهم ما يحبون، فخالفوا نبيه وعصوه في تنحيهم عن باب الشِّعْب الذي أوقفهم عليه وأمرهم أن يرموا من صار من المشركين إليه، فلما رأوا الهزيمة على المشركين قد أقبلت، وتيقنوا أنها بهم قد حلت، طمعوا فيما يطمع فيه مثلهم من الغنائم، ورجوا أن يكون شدهم على الكفار مع أصحابهم، أصلح، وفي الأمر الذي يراودون أنجح، فزلوا وعصوا الرسول فيما أمرهم من الثبوت على باب الشعب، وكان ثباتهم عليه على المشركين أصعب، فلما أن تنحوا أمكن للكافرين ما أرادوا، فظفروا من المسلمين ببعض ما أحبوا، ثم لاقوا من بعد ذلك من نصر الله للحق ما كرهوا، فثبت الله من بعد ذلك المؤمنين، وغفر لأهل الخطيئة المذنبين، وأنزل عليهم السكينة، وغشاهم النعاس أمنة منه، كما قال الله سبحانه: ﴿**ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية الأولى، يقولون هل لنا من الأمر من شيء**﴾، قال الله، سبحانه، لنبيه، صلى الله عليه وآله: ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾ ثم قال، سبحانه، «لنبيه»[4]: ﴿**يخفون في أنفسهم، ما لا يبدون لك**﴾ ثم أخبر عما أخفوا، وما من المنكر أحيوا فقال: ﴿**يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا**﴾، وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وآله، حين أتته قريش ونزلوا بأحد، شاور أصحابه، فأشاروا عليه بأن يثبت في المدينة، فإن أقاموا أضرهم المقام حتى ينصرفوا، وإن صاروا إلى المدينة فدخلوا، قاتلهم بها الصغير والكبير والنساء من فوق البيوت، فأراد ذلك رسول

---

(١) في أ: أعان.
(٢) سقطت من أ.
(٣) محمد: ٣١.
(٤) سقطت من أ.

الله ، صلى الله عليه وآله ، ثم أشاروا عليه من بعد بالخروج إليهم ، فنهض فلبس لأمَتَه[1] ثم خرج عليهم ، فقالوا : يا رسول الله ، قد رأينا رأياً ، إنا لم نقاتل ببلدنا وبين دورنا أحداً إلا أظهرنا الله عليه وبلغنا فيه ما نريد ، فأقم بنا مكاننا على رأينا الأول ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، «كان هذا أولاً ، إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها حتى يقاتل عدوه» ، فخرج وخرج معه ألف من الناس ، فلما فصل من المدينة رجع عنه عبد الله بن أبي سلول ، رأس المنافقين ، في ثلثمائة من الفاسقين ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله ، حتى لقي القوم ، فكان من أمرهم ما ذكرنا ومن حالهم ما شرحنا ، فذلك قولهم : **﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا﴾** نقول[2]: لو أطاعنا وكان الرأي إلينا لكنا قد ثبتنا في بلدنا حتى يدخلوا علينا فنقاتلهم ويرجعوا عنا فنتبعهم ، فقال سبحانه : **﴿ قل إن الأمر كله لله﴾**، أي الأمر أمر نبيه الذي افترض عليكم طاعته ، فليس لأحد منكم سبيل إلى مخالفته إلا بالكفر والعصيان للواحد العزيز الرحمن ، ثم أعلاهم من بعد تلك اليقظة وأنزل عليهم الأمنة ورد إليهم النصر وشد لهم ما أضعفوه من الأمر وصرف عنهم أعداءهم لأن يدركوا كل ما طلبوا أو طمعوا به فيهم من القوة والظهور عليهم .

وأما ما ضل فيه من قوله : **﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم﴾**، فقال : إن الله كتب على الكافرين قتل المؤمنين ، وكتب على المؤمنين ظهور الكافرين وقتلهم إياهم ، فتوهم أن الكتاب من الله هو حتم وفعل فيهم «وقضاء»[3] كائن قضى به عليهم ، ولو كان ذلك كما ظن الحسن بن محمد لكان المشركون لله مطيعين ولأمره وقضائه منفذين ، ولم يكن عليهم في ذلك إثم ، ولا عند الله جرم ، بل كانوا في ذلك مثابين وعليه غير معاقبين ، ولم يكن المؤمنون بمثابين إذ الله فعل بهم ذلك من القتل وقضاه عليهم ، وكل في الطاعة له سواء ، تبارك عن ذلك العلي الأعلى .

فأما وجه الحق في ذلك ، ومعنى قول الله ، سبحانه : **﴿كتب عليهم﴾**، هو علم منهم لا أنه أكرههم ولا قضى عليهم ، ولكن علم من يختار الخروج ولقاء

---

(١) درعه ، وجمعها لام ولؤم بفتح الهمزة.
(٢) الفاعل هنا ضمير يعود على المنافقين.
(٣) في ب : قضى .

الأعداء ومن يقتل عند التنازل واللقاء، فعِلْمُه وقع على اختيارهم، فخروجهم فعلهم لا فعله، وقتلهم فعل الكفار لا قضاؤه، فهم على خروجهم وقتالهم واجتهادهم مأجورون، وعند الله مستشهدون، والفسقة المشركون على قتلهم معاقبون، وعند الله في الآخرة معذبون، فكل نال بفعله من الله ما أوجبه عليه من الثواب والعقاب. والحمد لله رب الأرباب، والمجازي للخلق يوم الحساب.

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾، فقال، بزعمه، وتوهم، بجهله أن الله يديل أهل الكفر والعصيان على أهل الطاعة والإيمان، وأنه أدال يوم أحد المشركين على النبي ومن كان معه من المؤمنين، فليس ذلك كما ذهب إليه، وسنشرح ذلك، إن شاء الله تعالى، ونرد بالحق قوله عليه.

فنقول: إن الله جل جلاله، يديل المؤمنين على الكافرين، ولا يديل الكافرين على المهتدين، كذلك قال في يوم حنين: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾[1]، فكان بِرَدِّه الكرة للموحدين هو المديل لهم على الكافرين، ولم يقل في شيء من كتابه وما نزله من آياته أنه أدال أهل الشرك والنفاق على أهل الدين والإحقاق.

***

فأما ما ذكر الله من المداولة بالأيام بين جميع الأنام، فإن مداولته للأيام هو إتيانه بالليل تارة وتارة بالنهار، وأما ما يأتي ويداول بين عباده وأرضه فيهما من الأمطار التي يحيي بها الأرضين ويعيش بها جميع العالمين، قال، سبحانه: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾[2]، فسقى اليوم قوماً هم إلى السقي يحتاجون، وسقى غداً آخرين، وما يحدث في الأيام من الأرزاق للعباد وإحياء ما شاء من البلاد وبالمداولة بالأيام بين الأنام ما نزل بهم من المصائب الهائلات، وما يمن به عليهم من الآلاء والنعم السابغات، من ذلك ما

(١) الاسراء: ٦. (٢) ق: ٩ - ١١.

يأخذ من الأقارب والآباء والأخوة والأبناء وجماعة القربى، وما يهب، عز وجل، لمن يشاء من الأولاد الذكور وما يصرف ويدفع من الشرور، فهذه الأشياء كلها التي تكون في لياليه، سبحانه، وأيامه مداولة منه، لا شك، بين عباده، فأما ما يظن الجهال وأهل التَّكَمُّه في الضلال من أن معنى هذه الآية هو إدالة الفاسقين على الحق والمحقين، وأنه يمكن في الأرض للفاجرين ويمهد للفسقة العاصين «بما قد حرم عليهم ولم يجعله بحمد الله لهم بل شدده عليهم غاية التشديد في ترك مشاقة أهل الحق والتسديد، وأمر في ذلك بالاتباع لهم وترك الخلاف في جميع الأسباب عليهم»[1] «فهذا كذب منهم على رب العالمين، وكيف يجوز أن يديل ويمهد للعاصين»[2]، بل كيف يتوهم على الرحمن الكريم الواحد ذي الجلال العظيم أن يكون أدالهم وأعطاهم ما عنه زجرهم ونهاهم؟ فتبارك ذو السلطان المبين عن مقالة أهل الضلال الجاهلين. «والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم»[3].

تم جواب مسألته

(١، ٢) في أ: تقديم وتأخير بين العبارتين.

(٣) غير موجودة في ب.

المسألة السابعة عشرة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن قول الله، عز وجل، ﴿**وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله**﴾[1]، فقال: خبرونا عن الإذن، وإنكاركم أن يكون الله أذن في المعاصي، فقل: الإذن من الله على وجهين:

فإذن أذن فيه أمر بأمره، وإذن أذن فيه إرادة منه أن يكون لما يشاء من أمره، وما كان من معصية فلا تكون إلا بإذنه وكذلك أظنه، وذلك إرادة منه، فإن قالوا: نعم، فقد أقروا بنفاذ أمره وإرادته، وإن جحدوا وأنكروا، فإن الله قد أكذبهم في كتابه، فقال للمؤمنين: ﴿**وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله**﴾، يعني بذلك ما أصابهم من القتل والهزيمة، وإنما كان ذلك تأييداً للكافرين، فقد أذن الله للكافرين أن ينالوهم بما أصابوهم من القتل والجراح والهزيمة، فإن زعموا أن اذن الله أمره فقد زعموا أن الله أمر بالمعاصي، وأمر المشركين أن يقتلوا المؤمنين، وكل مأمور إذا فعل ما أمر به فهو مطيع وله عليه أجر، والكتاب يكذبهم، وإن زعموا أن إرادته على وجهين: على وجه الأمر، والآخر على وجه الإرادة، فقد أقروا بالحق، وفي ذلك نقض لقولهم ورد عليهم، فقد زعموا أن الله يريد أن يكون ما لا يأمر به ولا يرضاه. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما قال، وعنه «بجهالته»[2] سأل، من قول الله «تبارك و»[3] تعالى: ﴿**وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله**﴾، فقال: إن ذلك عنده من الله إذن للكافرين

---

(1) آل عمران: ١٦٦.

(2) غير موجودة في أ.

(3) غير موجودة في ب.

فيما نالوه من الرسول والمؤمنين في يوم أحد من القتل، وما نالوا به حمزة، رحمه الله، من المثل[1]، وما نالوا به الرسول، صلى الله عليه وآله، من الجراح، وما اجترأوا على الله فيه وعليه من هشم وجنته وكسر رباعيته، فكيف يتوهم من كان له عقل وفهم يبين به عن الجهل، أن الله أذن لأعدائه في فعل ذلك بأوليائه؟ كذب من ظن ذلك وقال على الله بهتاناً وزوراً، وكانوا عنده، سبحانه، قوماً بوراً، وكيف يأذن للفاسقين في القتل والسواد على المؤمنين وهم الخيرة عنده من عباده أجمعين، بل الإذن منه للمؤمنين في قتل المشركين وقتالهم حتى يسلموا أو يفيئوا عن جهلهم وضلالهم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه، للمؤمنين: ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها**﴾[2]، ويقول: ﴿**قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة**﴾[3]، ويقول، سبحانه: ﴿**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾[4]، ففي كل ذلك يأمر المهتدين بقتال الضالين «المضلين»[5] وبقتل المحادين المشركين، فهل سمع الحسن بن محمد بشيء من كتاب الله، سبحانه، وأمره وإذنه للمؤمنين؟ وزجره أمراً منه للكافرين بقتال المؤمنين أو «حضاً»[6] لهم على المسلمين؟ بل في كل كتابه يأمر بقتال الكافرين ويحض على محاربة الفاسقين، من ذلك قوله: ﴿**قاتلوا المشركين كافة**﴾[7]، وقال، ترغيباً في «قتال»[8] الناكثين، وتفضيلاً للمؤمنين المجاهدين على جميع العالمين: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾[9]، فدل، بما جعل لهم من الجزاء وأعد لهم على ذلك من كريم العطاء، أن ذلك من فعلهم له رضى.

ثم قال فيمن تعدى على المؤمنين، وخالف فيهم حكم رب العالمين: ﴿**إن**

---

(١) التمثيل والتنكيل.
(٢) محمد: ٤.
(٣) التوبة: ١٢٣.
(٤) التوبة: ٥.
(٥) في ب: المبطلين.
(٦) في أ، ب: خطأ.
(٧) التوبة: ٣٦.
(٨) في أ: جهاد.
(٩) التوبة: ١١١.

الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾[1]، فأخبر أنهم، على ذلك، عنده معذبون، فدل ذلك من فعل العدل الرحيم، على أنهم كانوا له مخالفين، وفي تعديهم وقتلهم له عاصين، وعلى فعلهم، لا فعله، أوجب عليهم العذاب، ولو كان أذن لهم في ذلك لأجزل لهم عليه الثواب، فسبحان الرؤوف الجواد، البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، المتقدس عن الإذْن بالفساد.

فليعلم من سمع قولنا من العالم أن الإذن من الله على معنيين:

فأما أحدهما: فإذْن أمر وإرادة وحكم ومشيئة، وذلك قوله، سبحانه: **﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾**[2]، فهذا معناه معنى حكم بالزيادة للشاكرين وبالعذاب للكافرين، وكذلك قوله: **﴿أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير﴾**[3].

وأما المعنى الآخر: فإذن تخلية وإمهال للعصاة فيما يكون منهم من العصيان فعلى ذلك يخرج معنى قول الله، سبحانه: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله﴾، يعني، تعالى، بتخلية الله لهم، وكذلك قال، سبحانه، في هاروت وماروت ومن يتعلم منهما: **﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾**[4]، يريد، سبحانه، بتخلية الله لهم لإثبات الحجة عليهم، إذ قد مكنهم من العمل والفعل، ثم أمرهم بتقواهم وبصرهم غيهم وهداهم، وعن تعليم السحر وتعلمه نهاهم، فإن ائتمروا، وتعليم السحر وتعلمه تركوا، أنيلوا الثواب، وإن أبوا، وما نُهوا عنه تخيروا، وجب عليهم بفعلهم العقاب، وحُرِموا بذلك من الله الثواب.

تم جواب مسألته

---

(١) البروج: ١٠.

(٢) ابراهيم: ٧.

(٣) الحج: ٣٩.

(٤) البقرة: ١٠٢.

المسألة الثامنة عشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن التزيين، فقال: خبرونا عن التزيين بالإرادة دون الأمر، فإن أنكروا أن الله يزين لعباده دون أن يكون أمراً منه، فقد رد الله عليهم قولهم، فقال، في الأنعام: **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله، فيسبوا الله عَدْواً بغير علم، كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾**[1] وقال، في السجدة: **﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم﴾**[2]، وقال، في النمل: **﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾**[3]، هذا كله تزيين إرادة؟ أو ليس إرادة؟. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه، وقال، وتوهم من زور «المقال» ، من أن الله، تباركت أسماؤه، وعزت بكريم ولايته أولياؤه، زين للكافرين أعمالهم تزييناً، وحسنها في قلوبهم تحسيناً، وأنه أراد بذلك منهم إقامتهم فيها، ومثابرتهم عليها، جل الله عن ذلك، وتقدس عن أن يكون كذلك، واحتج في مقاله، وفيما ارتكب من ضلاله، بقول الله، سبحانه: **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فتسبوا الله عدوا بغير علم، كذلك زينا لكم أمة عملهم﴾**، فصدق الله فيما قال، تبارك وتعالى فيما قال، وتقدس ذو الجبروت والجلال؟

فأما قوله تبارك وتعالى: **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله، فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾**، فإن هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام المخزومي، لعنه

---

(1) الانعام: ١٠٨.

(2) فصلت: ٢٥.

(3) النمل: ٤.

الله ، وذلك أنه لقي أبا طالب ، عم رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال: يا أبا طالب ، إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ، ويقع في أدياننا. واللات والعزى لئن لم يكف عن شتمه آلهتنا لنشتمن إلهه. فأنزل الله في ذلك ما ذكر في أول هذه الآية ، تأديباً للمؤمنين ، فأمرهم بالكف عن شتم أصنام المشركين لكيلا «يجترئوا»[1] بغير علم على شتم رب العالمين.

وأما ما احتج به الحسن بن محمد في الآيات المنزلات آية النمل وآية الأنعام وآية حم السجدة ، وما ذكر فيهن ذو الجلال والإكرام من قوله: «زيَّنا» و«قيَّضنا» ، فإن ذلك من الله هو الإمهال وترك المعافصة لهم بقطع الآجال ، وما كان في ذلك منه لأهل الجهل من التبري منهم والجدل منه ، فسبحانه ، لمن عشا عن ذكر ربه منهم ، فلما أن أُمهلوا وعلى ما هم عليه من الشرك والكفر تُركوا وبالعقوبات لم يُعاجَلوا ، وأملى لهم ليرجعوا فتمادوا ولم ينيبوا ورأوا من إمهال الله وتأخيره لهم ، وصرف ما عاجل به غيرهم من القرون الماضية والأمم الخالية ، من ثمود وعاد وفرعون «ذي»[2] الأوتاد وقوم نوح وقوم لوط وأصحاب الرس والأيكة وقوم تُبّع والمؤتفكة ، وغير ذلك من القرون المهلكة ، فزادهم تأخير ذلك عنهم اجتراء وتكذيباً ومجانة وافتراء وترتيباً بصرف ذلك عنهم ما هم عليه من أعمالهم وفاحش قولهم وأفعالهم ، فكان إملاء الله لهم وتركهم ليرجعوا أو لتثبت الحجة عليهم وتنقطع المعذرة إليهم ، هو الذي أطمعهم وزين عملهم لهم فجاز أن يقول: «زينا لهم» إذ قد تفضلنا وأمهلنا وأحسنا في التأني بكم ورحمنا ، وكذلك تقول العرب لعبيدها ، يقول الرجل لمملوكه ، إذا تركه من العقوبة على ذنب من بعد ذنب وتأني به وعفا عنه وصفح ليرجع ويصلح فتمادى في العصيان ولم يشكر من سيده الإحسان ، فيقول له سيده: أنا زينت لك وأطمعتك فيما أنت فيه إذ تركتك وتانيت بك ولم آخذك ولم أعاجلك.

فهذا على مجاز الكلام المعروف عند أهل الفصاحة والتمام.

وأما الآية التي في حم السجدة فكذلك ، الله أوجد القرناء وخلقهم ، ولم

(١) في ب: يجتر.

(٢) في ب: و.

يجمع بينهم وبين من أطاعهم، ولم يامرهم بطاعتهم ولا اتباعهم، بل «حضهم»[1] على مخالفتهم، وأخبر بعداوتهم، ونهاهم عن اتباع الهوى، فقال: **﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾**[2]، **﴿ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم﴾**[3]، وقال فيمن يأمر ويوسوس بالسوء من الشياطين: **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾**[4]، فبيَّن كل ما افترض وأمر به، فلم يترك لذي عِلَّة قبله متعلقاً، فكان نقيضه لهم ما ذكر من القرناء هو تخليته لهم وتبرئة منهم، وترك الدفع لنوازل الأسواء عنهم، وذلك فيما تقدم عنهم من الكفر بربهم والشِّرْك بخالقهم.

تم جواب مسألته

«وبتمامها»[5] تم الجزء الأول. والحمد لله كثيراً «وصلواته على خير خلقه محمد النبي وآله الطيبين وسلامه»[6]، «وحسبنا الله وحده وكفى»[7]، ويتلوه الجزء الثاني من مسائل الحسن بن محمد بن الحنفية في تثبيت الجبر والتشبيه، ورد الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم، عليه السلام، في نفي ذلك عن الله، سبحانه، وإثبات العدل والتوحيد وتصديق الوعد والوعيد.

---

(١) في ب: حظهم.
(٢) الكهف: ٢٨.
(٣) القلم: ١٠.
(٤) فاطر: ٦.
(٥) سقطت من أ.
(٦) عبارة أ: وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين وسلم.
(٧) غير موجودة في ب.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

المسألة التاسعة عشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه: **﴿ومن ظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها ونسي ماقدمت يداه﴾**إلى آخر الآية ،فقال:«أخبرونا»[1]عن الجعل بالإرادة دون الأمر، فإن أنكروا، فأخبرهم أن الله يقول: **﴿ومنْ أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا﴾**[2]، وقال، سبحانه: **﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة، والله قدير والله غفور رحيم﴾**[3]، وفي آيات كثيرة من الكتاب، فيقال لهم: ما ذلك الذي جعل الله، وهو كائن كما جعل؟ فإن قالوا: إنما ذلك الدعاء، فقلنا: إن الدعاء قبل ذلك، فقد دعا العباد جميعاً، وهذا شيء قد خص به من يشاء من خلقه ولم يعمهم، لأنه إنما يهتدي من جعل الله في قلبه الهدى ولم يعمهم بالهدى، فإن قالوا: قد نعلم أن الله قد جعل الناس كلهم مهتدين، ولا نقول إن الله قد جعلهم كفاراً، فقل: إن الله يرد عليكم قولكم في كتابه، فإنه قد قال: **﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾**[4]، ألا ترى أن الله قد جعل منهم القردة والخنازير؟ فإن زعموا أن الله إنما سماهم بذلك ونسبهم إليه، وإن أقروا أن الله جعلهم عبدة الطاغوت فذلك نقض ونسبهم إليه فقل: فلذلك لم يجعلهم قردة وخنازير، وإنما سماهم لقولهم، وإن قالوا: إن الله لم يجعلهم عبدة الطاغوت، كان ذلك تكذيباً منهم، فقل: فإن الله قد قال، أيضاً: **﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها**

---

(١) العبارة في ب: ثم أتبع المسألة: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه﴾ الاية فقال: خبرونا..

(٢) الكهف: ٥٧.

(٣) الممتحنة.

(٤) المائدة: ٦٠.

ليمكروا فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾[1]، ألا يرون أن الله يخبر أنه قد جعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها؟ فإن قالوا إنه لم يجعلهم فيها ليمكروا فيها، كان ذلك تكذيباً منهم، وإن أقروا كان ذلك نقضاً لقولهم.

وقد قال الله لقوم فرعون: **﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾**[2]، فإن قالوا: نعم، كان ذلك نقضاً لقولهم، وإن قالوا: لا، فقد كذبوا، والله يقول: **﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكناناً، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم﴾**[3]، ألا ترى أن الناس هم غزلوا ونسجوا وعملوا الدروع واتخذوا المساكن والبيوت، ثم نسب ذلك منه وإليه، وأخبر أنه خلقه، فَمَنَّ به عليهم، وذلك أنه أراده، فكان ما أراد، ولم يأمر به. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، عز وجل: **﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكِنَّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾**، فتوهم وظن فقال: إن الله جعل على قلوبهم أكنة حتى لا يفقهوه، وفي آذانهم وقرا، وأن ذلك من الله، فعل بهم ليشقيهم، وليس ذلك لعمره كذلك، ولو كان الله، عز وجل، الذي حجب قلوبهم وآذانهم عن ذلك لم يبعث الرسل إليهم ولم يحتجَّ ببرهانه عليهم وكانوا عنده في تركهم لذلك معذورين، وكانوا على ذلك مثابين، إذ هم لِمَا أرسل إليهم به غير مستطيعين، وقد قال الله سبحانه: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾**[4]، وقال: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾**[5]، فكيف يكلفهم الايمان وقد حجب قلوبهم عن الاعتبار؟!، فتبارك الله العزيز الجبار.

---

(1) الانعام: ١٢٣.
(2) القصص: ٤١.
(3) النحل: ٨٠، ٨١.
(4) البقرة: ٢٣٣، ٢٨٦.
(5) الطلاق: ٧.

بل معنى قوله، جل جلاله، ذلك هو إنكار لقولهم الذي قالوا حين دعاهم الرسول إلى الحق وبين ما هم عليه من الباطل والفسق، فقالوا له، استهزاء وعبثاً، ﴿**قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون**﴾[1]، فقال الله، سبحانه، لنبيه، صلى الله عليه وآله، يحكي قولهم، ويرد كذبهم عليهم، فقال: ﴿**إنا جعلنا**﴾، يريد سبحانه: إنا جعلنا على قلوبهم أكنة كما قالوا وفي آذانهم وقراً كما ذكروا، بل الزور في ذلك قالوا، وبالباطل تكلموا، فأراد بذلك معنى الإنكار عليهم والتكذيب لهم والتقريع بكذبهم، وتوقيف نبيه، صلى الله عليه وآله، على باطل قولهم، وجليل ما أتوا به من مُحالهم، فقال: «إنا»، وهو يريد إننا، فطرح الألف، استخفافاً لها، والقرآن «عربي»[2]، إلى النور والحق يهدي، والعرب تطرح الألف من كلامها وهي تريدها، فيخرج لفظ الكلام لفظ إخبار ونفي وهو تقريع وإيجاب واستفهام، وتثبتها وهي لا تريدها، فيخرج لفظ الكلام لفظ شك ومعناه معنى خبر وإيجاب، في كل ما جاءت به من الأسباب، من ذلك قول الله، سبحانه: ﴿**لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد**﴾[3]، فقال: لا أقسم، وإنما أراد: ألاَ أقسم، فطرح الألف منها، فخرج لفظها لفظ نفي وهي قسم وإيجاب، وقال في عبده ونبيه يونس، صلى الله عليه: ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾[4]، فقال: أو يزيدون، فأثبت الألف وهو لا يريدها، فخرج لفظ الكلام لفظ شك، ومعناه معنى إيجاب وخبر، أراد، سبحانه: وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون على مائة ألف، فأراد بقوله: ﴿**إنا جعلنا**﴾، التقريع لهم، والتوقيف لنبيه على كذبهم، لا ما يقول الجاهلون أنه أخبر عن فعله بهم، ألا ترى كيف يدل آخر الآية على أولها، من قوله: ﴿**وإن تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً**﴾، يقول: فإن كان الأمر على ما يقولون وكنا قد فعلنا بهم ما قد يذكرون، فَلِمَ أرسلناك تدعوهم إلى الهدى وتزحزحهم عن الردى، وهم لو يكونوا كذلك، وكنا فعلنا بهم شيئاً من ذلك، ثم دعوتهم إلى الهداية لم يطيقوا أن يهتدوا إذاً أبداً، ألا تسمع قوله: ﴿**وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً**﴾، فقال: «إذا»[5] يريد إن كان

---

(١) فصلت: ٥.

(٢) في الاصل: فعربي.

(٣) البلد: ١، ٢.

(٤) الصافات: ١٤٧.

(٥) سقطت من أ، وفي ب «يريد» مكررة.

ما يقولون علينا مما ذكروا أنه على أبصارهم وأسماعهم وقلوبهم فعلاً منا بهم، فلن يهتدوا إذاً أبداً إن كنا منعناهم بذلك عن الإهتداء، فكيف نرسلك إلى من لا يستطيع أن يهتدي، ولا يفلح، ولا يقتدي؟! فهذا ما لا نفعله بك ولا بهم، ولا نجيزه فيك ولا فيهم، ولا نراه حسناً من فاعل لو فعله من البشر.

وقد يُمْكِن أن يكون الجعل من الله، عز وجل، للأكنة والوقر الذي هو الخذلان لهم وتركهم من التوفيق والتسديد، فلما تركوا من عون الله وتسديده تكمهوا وغووا وهلكوا ومالت قلوبهم في أكنة الهوى فأعقبهم ذلك شقاء ووقراً، فالوقر ها هنا هو ترك الإستماع للحق وما يركبون من الفسق.

وأما ما قال وعنه سأل من قول الله، عز وجل: **﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم﴾**، فتوهم أن الله جعل فيهم مودة قسرهم عليها وأدخلهم جبراً فيها، وليس ذلك، بحمد الله، كذلك، وتفسير هذه الآية «فهو»[1] يخرج على معنيين، وكلاهما شاف، ومن التطويل كاف:

فأولهما: ما جعل الله للمؤمنين من الإذن وأطلق لهم من البر والإقساط والإحسان إلى من كان على غير الإيمان من المشركين الذين لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم ولم يظاهروا على إخراجهم، فقال: **﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾**، ثم قال: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين﴾**[2]، فكان ما أطلق لهم من البر والإقساط أول الرحمة منه لهم، وجعل المودة بينهم إذ قد أطلق لهم من الفعل ما يجلب المودة ويزرع المحبة، من اللطف والبر، في العلانية والسر، فلما أن تباروا وتنافعوا، جرت المحبة والمودة للمؤمنين في قلوب الكافرين لما ينفعونهم به ويحسنون إليهم فيه، فكان الإذن من الله، عز وجل للمؤمنين بما يجتلب المودة في الإقساط إلى الكافرين أفضل المنة منه على المحسنين، وقد تكون تلك المودة هي ما في الإيمان من البركة واليمن وما

---

(١) هكذا في ب، وفي أ: فقد.

(٢) الممتحنة: ٨.

جعل الله بين المؤمنين من المحبة وافترض عليهم من التواد على الدين وحكم به من الإخوة بين المؤمنين حيث يقول: ﴿إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾[1]، فكان كل من دخل فيما أُمِرَ بالدخول فيه من الإيمان إذا دخل، وإلى الله سبحانه، أقبل، سدده الله، سبحانه، ووفقه وحببه إليه من بعد إقباله إليه، وبغض إليه الكفر، كما قال الرحمن: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزَيَّنَه في قلوبكم وكَرَّهَ إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون﴾[2]، فكأن كل من دخل في الإسلام من جميع الأنام أخرجته بركة الإيمان من الحقد والدغل والحسد حتى يعود إلى المؤاخاة على الحق، والقول في ذلك على الله بالصدق، فهذا ما لا ينكره ذو عقل وتمييز. ألا تسمع كيف حكى الله، عز وجل، لك عنهم، وذكر لك قولهم، حين كانوا يدخلون في الدين، ويتابعون المسلمين على اليقين، حين يقول: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون: ربنا آغْفِرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾[3]، فلما أن دخلوا في الإيمان صاروا عليه وفيه نعم الأخوان، متحابين متواصلين متواخين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فكانوا كما قال الله، جل جلاله: ﴿والذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[4].

وأما ما نسب الحسن بن محمد إلى الله، جل ثناؤه، من فاحش المقال، فزعم أن الله جعل عَبَدَةَ الطاغوت للطاغوت عابدين، وفيما أسخطه من ذلك، أدخلهم مجبورين، واحتج بما لم يعلم معناه من تفسير القرآن ومنزل الفرقان، الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، فقال: قال الله في ذلك: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) الحجرات: ٧.

(٣) الحشر: ١٠.

(٤) الحج: ٤١.

منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾، فقال الحسن بن محمد: ألا ترى أنه قد جعل منهم القردة والخنازير ومن يعبد الطاغوت؟، وقال: إن أنكروا أن الله جعل منهم القردة والخنازير «وعبدة»[1] الطاغوت، فقد كذبوا الله، وإن أقروا فقد رجعوا عن قولهم، ولِمَ، يا ويحه! وويله! إن لم يتب من الله وغوله؟!!، ألا تسمع كيف فرق الله عز وجل، بين فعله وفعل عبيده؟ ألا ترى أن مسخه لمن مسخ لم يكن لهم فيه فعل بل نزل بهم وهم له كارهون، وحل بهم وهم عليه مُكْرَهون، وأن عبادة الطاغوت كانت فيهم، وأنها، بلا شك، مقالتهم؟، فبين ما دخلوا فيه طائعين وله متخيرين، وبين ما فعل بهم مجبورين وبه معاقبين فرق عند ذي العلم من أهل المعرفة والحكم.

فنقول في ذلك: إن الله لم يأخذهم ولم يجعل منهم ما جعل من القردة والخنازير، ومسخ منهم من مسخ من المذنبين إلا بعد الإعذار والإنذار مراراً بعد مرار، فلما أبوا وعموا عن أمره، سبحانه، وخالفوا، أُخذوا بذنوبهم، فلم يجدوا من دون الله ولياً ولا نصيراً.

وأما قوله: «وعبد الطاغوت»، فإن ذلك مردود على أول الآية، وهو مقدم في المعنى، وكثير مثل ذلك على ما يكون على التقديم والتأخير، يعلمه من عباده العالم الخبير، فمعناه: أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وعبد الطاغوت، وجعل منهم القردة والخنازير، أراد أن من عبد الطاغوت فهو شر من ذلك، فهذا موضع ما ظن من «عبد الطاغوت». ألا ترى كيف أهلك من كان كذلك؟ ومن اجترأ من الخلق كاجتراء أولئك، وكذلك قوله فيما يتوهم وذهب إليه، فأهلك وهلك، ولله الحمد فيه، فقال: إن الله جعل في المجرمين ذلك وابتلاهم به وحملهم عليه، ثم احتج في ذلك من قول الله، عز وجل، بما عليه لا له، فقال: قد قال الله فيما قلنا وبه تكلمنا: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾، فقال: ألا ترون أن الله قد جعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، فقد جعلهم مكارين، وقضى به عليهم، وركَّبه فيهم.

---

(١) في ب: عبد.

فقولنا في ذلك: أنَّ «جَعْل الله لهم هو خلقه لهم»[1] وتصويرهم في كل قرية كما صور غيرهم، وأما قوله: «ليمكروا»، فإنما أراد «الله»[2]، سبحانه، لأن لا يمكروا، فطرح «لا» وهو يريدها استخفافاً لها، والقرآن «عربي بلسان»[3] العرب نزل، وهذا تفعله العرب، تطرح «لا» وهي تريدها، وتأتي بها وهي لا تريدها، فيخرج اللفظ بخلاف المعنى، يخرج اللفظ لفظ نفي وهو إيجاب، ويخرج لفظ إيجاب وهو معنى نفي، قال الله، عز وجل: **﴿لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾**[4]، فقال «لئلا» فخرج لفظها لفظ نفي ومعناها معنى إيجاب، فأتى بـ «لا» وهو لا يريدها، وإنما معناها: ليعلم أهل الكتاب، وقال: **﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾**[5]، فخرج اللفظ لفظ إيجاب ومعناها نفي، يريد، سبحانه: لئلا يزدادوا إثماً.

وقال الشاعر:

ما زال ذو الخيرات لا يقول ويصدق القول ولا يَحُول

فقال: لا يقول، وإنما يريد: يقول، فأدخلها وهو لا يريدها، ووصل بها كلامه ليتم له بيته استخفافاً لها، وقال آخر:

بيوم حدود لا فصحتم أباكم وحاربتم والخيل يدمى شكيمها

فقال: لا فصحتم أباكم، وإنما يريد: فصحتم، فأدخلها وهو لا يريدها، وقال آخر:

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القِرَى، أن تشتمونا

فقال: أن تشتمونا، فخرج لفظها لفظ إيجاب في قوله: أن تشتمونا، ومعناها معنى نفي، أراد: لأن لا تشتمونا.

وأما ما قال وذكر، واحتج به مما لا يعرفه وسَطَّر، فقال: قال الله، في قوم

---

(1) عبارة ب: أن الله جعله لهم هو خلقهم.

(2) غير موجودة في أ.

(3) في ب: فبلسان، وعبارة أ: فعربي بلسان.

(4) الحديد: ٢٩.

(5) آل عمران: ١٧٨.

فرعون: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لايُنْصَرون﴾ وادعى على الله، سبحانه، أنه جعل من كان كذلك منهم كافراً، ومن كان منهم كافراً فاجراً، وأنه طبعهم على ذلك، وفيه ركّبهم وخلقهم، وليس ذلك، والحمد لله، على ما ذكر، ولا على ما قال وخبر. وهذا يخرج من الله على معنيين عدلين محققين.

أحدهما: أن يكون جَعْله لهم هو ما أوجده منهم وخلقه من أجسامهم لا ما ذهب إليه من فعل أفعالهم.

والمعنى الآخر: أن يكون ذو الجلال والإكرام حكم عليهم بما يكون منهم من أعمالهم ودعائهم إلى خلاف طاعته من الكفر به والصد عن سبيله، وما كانوا يفعلون ويجترئون به على الله، فكانت حال من يطيعهم على كفرهم ويشركهم في فعلهم ويدعوهم إلى غيهم، عند الله، كحالهم، فلما أن دعوا إلى ما يقرب إلى النار مما كان يفعله الفجار، كانوا أئمة يدعون إلى الجحيم، فحكم عليهم بفعلهم العليم، ودعاهم وسماهم به الرحمن الرحيم، فكان دعاؤه إياهم بذلك من فعلهم وتسمية لهم بما دعوا إليه إخوانهم من النار، جَعْلاً في مجاز كلام العرب، كما يجوز أن يقال لمن قال لصاحبه: يا حمار: جعلته، ويحك! حماراً، وإنما يراد بذلك تسميته لا خلقه، وكذلك إذا دعاه بالضلال، قيل: جعلته ضالاً، إذ قد سميته به.

فأما ما قال وتوهم أنه إذا خرج في اللفظ شيء كان كذلك في المعنى، فقال: وقد قال الله، سبحانه: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها **أثاثاً ومتاعاً إلى حين، والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكناناً، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم﴾**، فتوهم الحسن بن محمد على الله، تبارك وتعالى أنه الفاعل لكل ذلك، وليس ذلك، والحمد لله، كذلك، وسنفسره إن شاء الله ونبينه، وبالحق نميزه. فنقول: إن معنى قوله، جل جلاله، ﴿جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ «هو»[1]، كما قال، سبحانه:

---

(١) في أ، ب: فهو، وعبارة أ: فهو كمال سبحانه.

هو الذي خلق الخشب والحجر، والماء والمدر، هو دلهم على ذلك، وهم بنوا وعملوا المساكن وكل ما صنعوه من الأماكن، وهو جعل وخلق الأنعام وجلودها، وهم عملوها بيوتاً، ولو لم يخلق الجلود لم يقدروا على عمل ما ذكر من البيوت، وكذلك لو لم يخلق الحجر والخشب والمدر لم يبنوا بيوتاً يسكونونها ولا دوراً يأوونها، وكذلك السرابيل التي تقي الحر وقت الحر وتقي القر وقت القر، وكذلك السرابيل، اللباس التي تقي وتحرس من البأس، فالله، عز وجل، أوجد حديدها ودلهم على عملها وهم «يتولون»[1] فعلها وسَرْدَها[2] وتأليفها ونسجها.

وأما ما ذكر من قول الله جل ثناؤه: ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾، فكذلك فعل، عز وجل، فهو المتولي لذلك، لم يفعله غيره، وهو جاعله، فجعل من الأكنان وِقَاءً أوفى من البنيان، وجعل من الظلال لما خلق من الأشجار وغيرها من الجبال ما تبين فيه القدرة والمنة لذي الجلال، فما كان من فعل العباد خلاف أفعال ذي المنة والأياد، وما كان من فعل الرحمن فخلاف فعل الإنسان، لا كما يقول المتكمهون الجهال: الله، سبحانه، والعبيد سواء في الأفعال، كذب المبطلون.

تم جواب مسألته

---

(١) في أ: تولوا، وفي ب: يتولوا.

(٢) السرد بالنسبة للدرع: هو النسج، وللجلد: الخرز، والأشياء عموماً: الصنعة الداخلة عليها.

المسألة العشرون

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة، فقال: خبرونا عن الإغراء بالإرادة دون الأمر، فإن الله يقول: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم: **فنسوا حظاً مما ذُكِّروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**﴾[1]، فسلهم: هل كان هؤلاء يستطيعون أن يخرجوا مما صنع الله بهم وأن يتركوا العداوة بينهم؟ فإن قالوا: نعم: كذبوا كتاب الله، وإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من الإغراء بالإرادة دون الأمر، فزعم أن الله، جل ثناؤه، يأمر بما لا يريد، ويريد من الأشياء ما لا يشاء كينونته، فأخطأ في قوله وأمره، ونسب الجهالة في ذلك إلى ربه، ورضي فيه بما لا يرضاه في نفسه، ولا يراه حسناً من أَمَتِهِ وعبده. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ألا ترى أن الأمر بما لا يشاء من أجهل الجاهلين؟ وعن الحكمة من أبعد المبعدين؟ فكيف اجترأ الحسن بن محمد على رب العالمين، فنسب إليه أشد ما يعاب به «المربوبون»[2]؟! ثم احتج في قوله: وسطر أفحش القول في ربه، فقال: قال الله: **﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾**، فقال: إن الله، تبارك وتعالى، أغرى بينهم ولم يرد الإغراء ولم يأمر بالإغراء وأدخلهم من ذلك فيما لم يشأ. وليس ذلك كما قال، وأول الاية يدل على عدل الله في ذلك حين أخبر بما كان منهم، وذكر من الترك والرفض ما أُمِروا باخذه، والاخذ

---

(1) المائدة: ١٤.

(2) في ب: المربوبين.

لما أمروا بتركه، فلما أن فعلوا من ذلك ما عنه نهوا، استأهلوا من الله سبحانه، الترك والخذلان بما كان منهم لله من العصيان، فتركهم من الرشد والتوفيق، فضلوا، وعن الخير والصلاح في كل أمرهم عموا، والبر والتواصل تركوا، فَغَرِيَت[1] بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ونشأ على ذلك خلف من بعد خلف، فكان ذلك لسبب خذلان الله لهم وسخطه عليهم لذلك، فلما كان ذلك كذلك جاز أن يقال: إن الله أغرى بينهم العداوة، وبكل ضلال قالوا، فنسب المسيح منهم قوم إلى أنه رب، ونسبه قوم آخرون إلى أنه ابن للرب، وقال آخرون بما قال في نفسه أنه عبد الله، حين أخبر عنه بقوله حين أشارت إليه أمه، قال الله، جل ثناؤه: **﴿فأشارت إليه، قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً، قال: إني عبد الله، آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾**[2]، فلما أن اختلفوا، وعلى الحق لم يأتلفوا، كفر بعضهم بعضاً، وبرىء فاسق من منافق، ومنافق من فاسق، وخذلهم الله فيه، ولعنهم، سبحانه، عليه، غريت بينهم العداوة إلى يوم القيامة، فلما كان عز وجل، الذي خذلهم فضلوا، وتركهم فهلكوا، قال: **﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾**، وهذا ولله الحمد، في اللسان معروف.

تم جواب مسألته

---

(١) أي أولعوا بها ولعاً ذاتياً، دون أن يحملهم عليها حامل.

(٢) مريم: ٢٩.

المسألة الحادية والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة، فقال: خبرونا عن قول الله: **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم، وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾**[1]، وذلك يوم الحديبية، فسلهم: هل كان واحد من الفريقين يستطيع أن يبسط يده إلى أخيه، والله، عز وجل، يخبر أنه قد كف بعضهم عن بعض بإرادة لا بأمر؟ فإن قالوا: نعم، قد كانوا يستطيعون أن يقاتل بعضهم بعضاً كذبوا كتاب الله، عز وجل، وإن قالوا: لا، فهذا نقض لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾**، فقال: هل كان يستطيع أحد أن يمد يده إلى عدوه، وقد كف الله، سبحانه، أيدي حزبه، من رسوله والمؤمنين، عن حزب الشيطان الفاسقين، وأذن لرسوله وأطلق «له»[2] مهادنة قريش ومن معهم من المشركين نظراً منه، سبحانه، للمؤمنين، ففعل ذلك رسول الله، صلى الله عليه وآله، لما أن طلبته قريش منه، ولو لم يأذن الله له، عز وجل، في ذلك لم يفعله، ولم يك ليرجع يوم الحديبية حتى يقاتلهم، وعلى الحق وبالحق ينازلهم، ولقد أراد ذلك، صلى الله عليه وآله، وبايع أصحابه على الموت فيه بيعة ثانية، وهي البيعة التي ذكر الله عن المؤمنين ورضي بها عنهم وأنزل السكينة عليهم وصرف القتال وكف أيدي الكل من الرجال بما أطلق لرسوله، صلى الله عليه وآله، من إجابته لهم إلى ما طلبوا من المهادنة في ذلك العام والرجوع عنهم والدخول في السنة المقبلة

---

(١) الفتح: ٢٤.

(٢) في أ: عليهم.

إلى البيت الحرام، فأطلق له الرجوع عنهم والترك لمقاتلتهم لما ذكر سبحانه، فمن كان بمكة ممن كان بمكة من المؤمنين والمؤمنات لأن لا يطأوهم فيقتلوهم بغير علم فيصيبهم منهم معرة عند الله بالحكم، والمعرة ها هنا «هي»[1] الدية لا ما قال غيرنا به فيها من الإثم، وكيف يأثم من بر وكرم وقاتل على الحق كما ذكر الله، عز وجل، من خالفه من الخلق فقتل مؤمناً بغير علم ولا تعمد «وهو إنما»[2] قتله وهو يحسبه كافراً، ويظنه في دين الله فاجراً، فهو والحمد لله في ذلك غير آثم ولا متعمد في فعله ولا ظالم، ولكنه مخطىء فعليه سَلَماً على مثله، وهو ما ذكر الله في قوله حين يقول: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله﴾[3]، وإنما جعل عليه العتق والدية تعظيماً لقتل المؤمن وتشديداً على المؤمنين في التثبت والتبيين عن قتال الكافرين، كما قال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[4].

وأما معنى قوله، سبحانه: ﴿من بعد أن أظفركم عليهم﴾، فهو الحكم لهم من الله عز وجل، بالنصر إذ نصروه، ومن ذلك ما قال ذو العز والجلال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[5]، ولا نصر يكون أكبر من نصره لرسول الله، صلى الله عليه وآله، ومن معه من المؤمنين، فحكم الله، سبحانه، لهم على أعدائه بالنصر إذا التقوا وبالغلبة إن احتربوا، ألا تسمع كيف يقول: ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار، ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾[6]، يقول: حكم الله للمؤمنين بالنصر على الفاسقين، ولن تجد لما حكم به رب العالمين للمؤمنين تبديلاً، فهذا معنى الآية وتفسيرها لا كما قال من نسب إلى الله، جل ثناؤه، فاحش المقال من جبر العباد على الخير، وإدخالهم قسراً في كل شر وضير.

تم جواب مسألته

---

(١) في أ، ب: فهي.
(٢) في ب: وهي إنما.
(٣) النساء: ٩٢.
(٤) الحجرات: ٦.
(٥) محمد: ٧.
(٦) الفتح: ٢٣.

المسألة الثانية والعشرون

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عما وعد الله، جل ثناؤه، رسوله والمؤمنين من الغنائم الكثيرة التي قال: ﴿تأخذونها﴾، هل كانت تلك الغنائم التي وعدهم إياها تكون إلا من الكافرين؟ فإن قالوا: لا، فقل: «فهل»[1]، كان أولئك الكافرون يستطيعون أن يؤمنوا حتى لا تَحِلّ غنائمهم ولا دماؤهم ولا أموالهم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا قول الله عز وجل، وإن قالوا: لا، فذلك نقض لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه، وفيه تكلم وقال في الغنائم التي وعدها الله المؤمنين وأخبرهم أنهم يأخذونها من الكافرين، فقال الحسن بن محمد في ذلك: هل كان الكافرون يستطيعون الإيمان وهم لو آمنوا لم تحل غنائمهم؟. وهم لو لم تؤخذ غنائمهم لم يتم وعد الله لنبيه، فلا بد أن يثبتوا على كفرهم جبراً حتى تؤخذ منهم الغنائم قسراً، فقولنا في ذلك، الحق لا قول المبطل الهالك: إن الله سبحانه، علم من أهل الغنائم قبل أن يَعِد نبيه غنائمهم أنهم لا يؤمنون وأنهم سيثبتون على الكفر ويقاتلون، وأنهم لا يسمعون لله ورسوله ولا يطيعون، فوعده غنائمهم والنصر عليهم إذ علم أنهم لا يختارون الإيمان ولا يطيعون الرحمن، وأنهم يختارون الإقامة على الضلال والكفران، والمحادة لله ورسوله والعصيان، فلذلك وعد المؤمنين غنائمهم، وأجاز لهم سَبْيَهم، وأحل مقاتلتهم واسترقاق ذراريهم، وذلك بما جنت أنفسهم عليهم. تم جواب مسألته.

---

(١) في أ: هل.

المسألة الثالثة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة، عن قول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إِذْ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾[1]، وذلك أن ناساً من اليهود كانوا أرادوا قتل رسول الله، صلى الله عليه وآله، ونفر من أصحابه، فأخبر الله، عز وجل، رسوله، وكف أيديهم عنه وعن أصحابه، فسلهم: هل كانوا يستطيعون أن يبسطوا أيديهم عليهم، وقد كفها الله عنهم؟ أم لا؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا قول الله، جل ثناؤه، وإن قالوا: لا، فذلك نقض لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه «مما تَحَيَّر فيه»[2] من قول الله، عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم، إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾، فتوهم الحسن بن محمد أن الله، عز وجل، كف أيديهم عن رسول الله، صلى الله عليه وآله، ومن كان معه وعن أصحابه المؤمنين غصباً، حتى لم يكن لهم في ذلك حيلة، ولم يبسط أيديهم «بالسواية»[3] إليه، وأنه قبضها عنهم قبضاً ومنعهم منعاً، وليس ذلك كما توهم ولا هو على ما به تكلم، وسنشرح ذلك إن شاء الله، ونقول فيه بالحق على الله، فنقول: إن رسول الله، صلى الله عليه وآله، كان خرج إلى يهود بني النضير في نفر من أصحابه، وكان بنو النضير ينزلون قريباً من المدينة، ليستعينهم في ديتين وقعتا خطأً على بعض المسلمين، فلما أن أتاهم رحبوا به وأَدَبُوه، وكل ما طلب منهم وعدوه، ثم تآمروا به وبأصحابه، وعزموا على الغدر به

---

(1) المائدة: ١١.

(2) غير موجودة في أ.

(3) السواية: المكروه.

ومن معه من أعوانه، فأهبط الله عز وجل، بذلك جبريل، صلى الله عليه وعلى رسوله فأخبره به وأوقفه عليه، فنهض، صلى الله عليه وآله، مسرعاً هو ومن معه حتى رجعوا، ثم هيئوا وخرجوا إليهم فقاتلوهم وأقاموا عشرين ليلة يحصرونهم في حصونهم ثم نزلوا من بعد ذلك على حكم سعد بن معاذ، وكان من كبار الأنصار وذوي القدر منهم والأخطار، وكانوا يتكلمون إليه، ويظنون، لما كان بينه وبينهم في الجاهلية من المداناة والإحسان، أنه سيحابيهم ويحكم بما ينجيهم كلهم، فحكم بأن يقتل رجالهم وتسبى ذراريهم وحُرَمُهم[1] وفي ذلك ما قال رسول الله، صلى الله عليه وآله: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»، ففعل ذلك بهم، و«أخرجهم»[2] أو أهلكهم، وأبادهم وقتلهم، فكان إعلام الله عز وجل لنبيه، صلى الله عليه وآله، بما اجتمعوا عليه وعزموا وصاروا فيه إليه، كفاً لأيديهم ونقضاً لعزيمتهم وإبطالاً لتدبيرهم، فهذا معنى ما تحير فيه الحسن بن محمد من تفسير الآية، لا ما قال به على الله، عز وجل، من البهتان، وما حمل من محكم القرآن على متشابه القرآن[3].

تم جواب مسألته

---

(١) جمع حرمة، وهي أهل الرجل وزوجه.

(٢) ب: آخرهم، وفي أ: احراهم بدون أعجام.

(٣) ما في كتب السيرة عن هذه الواقعة التاريخية يؤيد الإمام يحيي، ويرفض تفسير ابن الحنفية، فلقد كان كف أيدي بني النضير عن رسول الله بواسطة قيامه عن مكانه إلى جوار جدار من جدرهم، وذهابه إلى المدينة بسبب إخبار الوحي له بأنهم قد عزموا على أن يلقوا عليه حجراً من أعلى الجدار، ولقد كان قيامه مسرعاً وحده، وليس مع أصحابه، كما ذكر الإمام يحيى، وكان معه في هذا المجلس أبو بكر وعمر وعلي ونفر آخرون، فلما غاب عنهم الرسول، سألوا عنه، فقال رجل قادم من المدينة: «لقيته وقد دخل أزقة المدينة» فلحق به الصحابة فسألوه: «أقمت ولم نشعر؟ قال: همت يهود بالغدر، فأخبرني الله بذلك فقمت». راجع (الدرر في اختصار المغازي والسير) لابن عبد البر. ص ١٧٤. و(الطبقات الكبرى) لابن سعد. جـ٢ القسم الأول. ص ٤٠ وما بعدها. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩.

المسألة الرابعة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، عز وجل، لعيسى بن مريم، وهو يذكر نعمة الله عليه، فقال: **﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلا سحر مبين﴾**[1]، فهل كان لبني اسرائيل أن يبسطوا أيديهم على عيسى عليه السلام؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا قول الله، وإن قالوا: لا فذلك نقض لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله لعيسى بن مريم المسيح العبد الكريم: **﴿وإذ كففت بني اسرائيل عنك إذ جئتم بالبينات، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾**، فقال: هل كانت بنو اسرائيل تقدر على أن تبسط أيديها إليه، وقد كفها الله عنه، وأنعم بذلك عليه؟ فقولنا في ذلك: إن الله لم يكف أيديهم عنه جبراً، ولكنه ألقى في قلوبهم الهيبة له ولمن معه من الحواريين، وأعلم نبيه، صلى الله عليه، بما يريدون منه وما يريدون فيه فَحَذَّرَهُم واستعد بمن معه لهم فخافوهم وحذروهم فلاشى عزيمتهم وأبطل في ذلك إرادتهم، ومَنَّ على نبيه، صلى الله عليه، بما ألقى له وللحق في قلوبهم من الهيبة والمخافة، فرجعوا خائبين ومما أرادوا موءسين، وأعز الله، سبحانه، المؤمنين، وكبت الفاسقين، فهذا، إن شاء الله، معنى ما ذكر الله من كف أيديهم عن عيسى بن مريم، صلى الله عليه، بينهم، والمظهر للحق فيهم، والمطلق لهم بعض الذي حرم عليهم، المبرىء لأكمههم وأبرصهم، الشافي لسقيمهم، والمحيي لميتهم، والمنبي لهم عما يأكلون

---

(١) المائدة: ١١٠.

ويدخرون في بيوتهم، «وتلك أعظم»[1] آيات ربهم وبراهين خالقهم، فلما عتوا عن أمر خالقهم، قال، حين ذلك نبيهم، صلى الله عليه وسلم، ﴿ **مَن أنصاري الى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله**﴾، وأعوانك وأنصارك وخدامك، فأمن معه من بني إسرائيل الحواريون وكفر سائر الإسرائيليين، فأيد الله المؤمنين، فأصبحوا، كما قال الله: «ظاهرين»، حين يقول، عز وجل: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله، قال الحواريون: نحن أنصار الله، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين**﴾[2]، فهذا قولنا في رب العالمين، لا كقول الجاهلين الذين نسبوا الى الله، عز وجل، أفعال العباد، وقلدوه ما يكون في ذلك من الفساد، فتعالى الله الواحد الرحمن عن زخرف أقاويل الشيطان، المضاهين لمذاهب عبدة الأوثان، وما حكى فيهم الرحمن من قولهم: ﴿ **لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء**﴾ الآية[3].

تم جواب مسألته.

(١) في أ، ب: وذلك فاعظم.

(٢) الصف: ١٤.

(٣) النحل: ٣٥، وتمام الاية: ﴿ . . . وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾.

المسألة الخامسة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، سبحانه: **﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾**[1]، وقال في سورة الحشر: **﴿وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾**[2]، وقال: **﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾**[3]، فأخبرونا عن الرعب الذي قذف الله في قلوب الكافرين، هل كانوا يستطيعون أن يمتنعوا منه، وأن يصرفوه عن قلوبهم؟، فإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم، وإن قالوا: نعم، فقد كذبوا كتاب الله، وزعموا أن العباد يمتنعون من الله، وإن قالوا: إنما صنع الله ذلك بهم بكفرهم، فقل: ألستم تعلمون أن الرعب شيء لطيف لا يراه الناس ولا يردونه ولا يمتنعون منه حين يدخل في قلوبهم، فيوهن الله بذلك كيدهم، وينقض قولهم؟ فإن قالوا: نعم، فقل: وكذلك أيضاً التوفيق، شيء لطيف لا يراه العباد، يلقيه الله في قلوب المؤمنين، وأمور الله كلها كذلك، من أراد به خيراً وفقه وسدده وأرشده، وكان ذلك عوناً من الله لهم، ومن أراد به سوءاً ثبطه وعوقه وخذله وتركه وهواه ووكله إلى نفسه، فوكله إلى الضعف والهوان، والله غالب على أمره. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: **﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾**، فإنا نقول: إن الرعب إنما ألقاه

---

(١) آل عمران: ١٥١. (٢) الحشر: ٢. (٣) الاحزاب: ٢٦.

الله، جل ثناؤه، في قلوبهم نكالاً وانتقاماً منهم على كفرهم وإشراكهم، ألا تسمع كيف فسر آخر الاية أولها، فقال: ﴿**بما أشركوا بالله**﴾، فكذلك الله سبحانه انتقم منهم بما أشركوا وكفروا وخذلهم وتركهم من التسديد والتوفيق فهلكوا وتلاشوا، وعبدوا فضلوا، وهانوا فتفرقوا، إذ وكلهم إلى الضعف من أنفسهم، وإلى حولهم وقوتهم فهانوا ورُعِبوا من القتال ولقاء المؤمنين في تلك الحال، فكان تركهم لهم بما قدموا من شركهم رعباً داخلاً في قلوبهم مخامراً لصدورهم.

وأما ما ذكر من قول الله، سبحانه، في بني النضير من اليهود: ﴿**وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾، فكذلك فعل الله بهم، وذلك أنهم كانوا قد هادنوا الرسول، عليه السلام، وخضعوا لأهل دعوة الإيمان والإسلام، حتى كان يوم الأحزاب فجاءت قريش ومن تحزب معها من العرب من اليمن ومضر، وأمدهم في ذلك يهود خيبر، يقاتلون الرسول والمؤمنين مع أعداء الله الفاسقين، فلما أتى يهود خيبر أرسلوا إلى يهود بني النضير فوعدوهم أن يقاتلوا الرسول من ورائه إذا حميت الحرب بينه وبينهم، فنزلت بنو عامر أُحُدَ من فوق المؤمنين، ونزلت قريش بطن الوادي من أسفل منهم، وكانت اليهود، يهود خيبر قِبَل المسلمين مما يلي الحرة، وبنو النضير من وراء الرسول، صلى الله عليه وآله، وفي ذلك ما يقول الله، عز وجل: ﴿**إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا**﴾[1]، فكان فيمن نزل أحد من العرب رجل أشجعي، يحب الإيمان ويبغض أهل العدوان[2] فأفسد بين المشركين طراً، وذلك أنه أتى قريشاً فقال لها: إن العرب قد ظاهرت محمداً عليكم، ووعدته

---

(١) الاحزاب: ١٠.

(٢) في هامش ب بعير خط الناسخ عبارة: «هو نعيم بن مسعود». . وكان قد جاء الرسول عليه السلام فقال: «يا رسول الله، أني قد أسلمت ولم يعلم قومي باسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت رجل واحد من غطفان، فلو خرجت فخذلت عنا كان أحب الينا من بقائك، فاخرج فأن الحرب خدعة. . .» راجع قصته في (الدرر في اختصار المغازي والسير) لابن عبد البر. ص ١٨٦، ١٨٧.

المحاربة معه لكم، وآية ذلك أنهم لن يبدأوه بالمحاربة، فخذوا حذركم ولا تبدأوه حتى يقاتلوه قبلكم، ثم أتى أصحابه وبني عمه وجماعة العرب، فقال: إن قريشاً قد عاقدت محمداً عليكم، وعلامة ذلك أنهم لن يبدأوه بالمحاربة قبلكم، فاعملوا لأنفسكم ودبروا أموركم، ولا تقاتلوا حتى ترسلوا إليهم فيقاتلوا قبلكم، فإن فعلوا، وإلا فاحذروا مكرهم والحقوا وشيكاً ببلدكم، ثم أتى يهود خيبر فقال: إن قريشاً قد عاقدت محمداً عليكم، وآية ذلك أنها لا «تبدأه»[1] بالمحاربة قبلكم، وأتى قريشاً فقال لها: إن اليهود قد ظاهرت محمداً عليكم، وآية ذلك أنهم لا يبدأونه بالمنابذة قبلكم، فطرح في قلوب كل لكل بلاء وحقداً ومخافة وشحناء، فأقام كل ينتظر أن يبدأ بالمحاربة غيره، فلما طال ذلك عليهم وتراسلوا بينهم، يسأل كل كلاً أن يَنْصِيب لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حرباً، وكلهم يأمر صاحبه أن يبدأ، فصح لذلك عندهم قول الأشجعي، فتفرقوا، وفسدت قلوب بعضهم على بعض، فرحلت العرب طراً راجعة إلى بلدها، وأرسل الله، سبحانه، الريح على قريش واليهود، وأمد المؤمنين «بالنصر منه»[2]، والجنود، فلم يقم لقريش خباء ولا ظل ولا يستوقد لهم نار إلا أطفأتها الريح و«فرقتها»[3] وحرقتهم بها، فأقاموا ثلاثاً لا يختبزون ولا يصطلون، فاشتد عليهم القر والجوع، ورماهم الله بالذل، فأزمعوا على الرجوع، ورحلوا راجعين، وخاسرين خائبين نادمين، وفي ذلك «ما»[4] يقول رب العالمين: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً**﴾[5]، فرجع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقاتل بني النضير، إذ نقضوا عهده، وخالفوا أمره فحاصرهم حتى جهدوا، فقالوا: يا محمد، خلنا نخرج من البلد بما حملت إبلنا التي في الحضرة معنا من متاعنا ونخلي لك الباقي وما لنا من الضياع، وبشرط ألا نخرج بسلاح ونترك الديار والنخل والقرى، فرضي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بذلك، فخرجوا بإبلهم عليها جَيِّد متاعهم وتحف أثوابهم، فلما قلعوا التحف تهدمت وجوه البيوت، وذلك تدبير منهم، ليخربوها عليهم،

---

(١) في أ، ب: تبدأوه.
(٢) عبارة أ: منه بالنصر.
(٣) في ب: سرقتها.
(٤) غير موجودة في أ.
(٥) الاحزاب: ٩.

فكان أحدهم إذا هدم لحاف[1] بيته بطل البيت، ثم خرجوا على الإبل بالتحف، فذلك قول الله، سبحانه: ﴿**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم** بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾، فخرجوا جالين، ولنعمهم تاركين، وذلك قول أصدق الصادقين: ﴿**ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار**﴾[2]، والتعذيب «هو»[3] القتل، فكان الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو ما كان من خذلانه لهم حتى عمي عليهم رشدهم وفاسدوا إخوانهم[4]، ودخل الفزع، "عند ذلك، من النبي والمؤمنين في قلوبهم، وأيقنوا أنه إذا علم بما كان من مظاهرتهم عليه وصاروا من الغدر به إليه، أنه لا يتركهم، وأنه يقاتلهم على فعلهم حتى يظهر الله، عز وجل، الحق ويزهق الباطل من الخلق، وهذا معنى إلقاء الله الرعب في قلوب الفاسقين لما أرادوا من هلاك المؤمنين، وكذلك كان فعله بأهل خيبر حتى أخذوا وأسروا وقتلوا وسبوا، فهذا قولنا في إلقاء الله الرعب في قلوب الفاسقين، لا ما ذهب إليه من خالف المحقين، وعند من قول الصدق في رب العالمين.

تم جواب مسألته

---

(١) في ب: بحاف. والمراد قطع الخشب التي هي بمثابة قوائم للأبواب والنوافذ، وهي التي تشد الجدر بعضها إلى بعض.

(٢) الحشر: ٣.

(٣) في أ، ب: فهو.

(٤) في طبقات ابن سعد تاييد لتفسير الإمام يحيى لمصدر الرعب الذي ألقي في قلوب بني النصير، حيث «اعتزلتهم قريظة فلم تعنهم، وخذلهم ابن أبي وحلفاؤه من عطفان». راجع (الطبقات الكبرى) جـ ٢. القسم الاول. ص ٤١.

المسألة السادسة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة عن الذَّرْو بالإرادة فقال: خبرونا عن الذرو بالإرادة، فإن الله يقول: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾**[1]، فسلهم: هل يستطيع هؤلاء أن ينقلبوا عما ذرأهم الله له؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا وزعموا أنهم يستطيعون أن يبدلوا خلقهم وإرادة الله فيهم، وإن قالوا: لا، كان نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، عز وجل: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾**، فقال: هل يستطيع أحد أن يخرج أو ينتقل مما ذُرِىء له، وتوهم، بل قال: إن الله ذو الجلال والإكرام خلق لجهنم قوماً كافرين ذرأهم وأوجدهم إبتداء فاسقين وخلقهم ضالين مضلين، لا ينفع فيهم دعاء، ولا يقدرون طول الزمان على الإهتداء، لما قد خلقوا له من الشقاء، فهم أبداً بفعل الفواحش مولعون، ولعمل الهدى غير مطيقين، وأنهم على ذلك مجبولون. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فنقول في ذلك على الله بالحق، والله الموفق لكل خير وصدق، فنقول: إن معنى الآية خلاف ما ذهب إليه الحسن بن محمد، وإن القول خلاف ما قال به فيه، بل معناه على الصدق والمَعاد، لِعِلْم الله بما يكون من العباد، فقال: «ذرأنا»، فأخبر عما سيكون في آخر

---

(١) الاعراف: ١٧٩.

الأمر ويوم القيامة والحشر من الـذرو الثاني لا الـذرو الأول الماضـي، فكذلك «الله»[1] رب العالمين يذرأ لجهنم في يوم الـدين جميع من مات علـى كفـره من الكافرين فيعذبهم على فعلهم ويعاقبهم على ما تقدم من كفرهم، كما قال الرحمن الرحيم الرؤوف الكريم: **﴿كل نفس بما كسبت رهينـة إلا أصحـاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين، ما سلككم في سقر، قالوا: لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين، فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾**[2].

فهذا معنى ما ذكر الله من الذرو في الكتاب، لا ما ذهب إليه الحسن بـن محمد ذو الشك والارتياب، من أن الله، سبحانه، خلق للنار خلقاً تعمل بالمعاصي أبداً، لا يقدرون على هدى ولا طاعة في سنة ولا شهر ولا يوم ولا ساعة، وأن الله، سبحانه، خلق للجنة أصحاباً مجبولين لله على الطاعة في كل الأسباب.

فيا عجباً من قولهم المحال! وكذبهم على الله في المقال!، فأين، ويحهم! المعاصي والطغيان ممن عمل بما ألزمه الله في كل شأن؟ بل كُلٌّ مطيع، وفي مراد الله سريع؟ فإن كان ذلك من الله كذلك، فَلِمَ بعث الأنبياء إليهم يدعونهم؟ وأوجب عليهم طاعتهم؟!، وطاعة الأنبياء «هي»[3] العمل بطاعة الله، ومعصيتهم «هي»[4] المعصية لله، «قال»[5] الله، سبحانه: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعـوا الله وأطيعـوا الرسول﴾**[6]، وقال: **﴿ومن يطع الله ورسولـه ندخلـه جنـات تجـري من تحتهـا الأنهار﴾**[7]، وقال: **﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم﴾**[8]، وقال: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾**[9]، وقال: **﴿فَفِرّوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾**[10]، فأين الطاعة ممن جبل على المعصية؟ وأين الفرار ممن منعه منه الجبار؟ وكيف لا يعصي الرسول والرحمن «الرحيم»[11] من قد حيل بينه وبين الإحسان!؟

---

(1) غير موجودة في أ.
(2) المدثر: ٤٢.
(3) في أ، ب: فهي.
(4) في أ، ب: فهي.
(5) في أ، ب: فقال.
(6) النساء: ٥٩، محمد: ٣٣.
(7) النساء: ١٣، الفتح: ١٧.
(8) الجن: ٢٣.
(9) النساء: ١، لقمان: ٣٣.
(10) الزاريات: ٥٠.
(11) سقطت من أ.

ومن ذلك قول إبراهيم، صلى الله عليه، لأبيه: ﴿**يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً**﴾(1)، فماذا يقول الكافرون وينسب إلى الله وإلى نبيه الضالون في هذا العلم الذي جاء ابراهيم؟ أتراه أتاه من العلم، إن كان الله قد خلق أباه للنار، أن أباه يقدر أن يخرج إلى غير ما خلقه الله له من النار حتى يصير إلى الجنان؟ أم يقولون إن العلم الذي جاء هو أن أباه إن كان الله، جلى ثناؤه، خلقه للشقاء، وحال بينه وبين الهدى، يقدر على مغالبة الرحيم، والخروج مما أعد له من الجحيم، والمصير إلى دار النعيم؟ والله، سبحانه، المخلف لذلك، بل جبله على غيره ومنعه من رشده؟ أم تقولون في إبراهيم الأواه الحليم الصديق الكريم أنه دعا أباه إلى إتباعه وضمن له ما ضمن من إرشاده ونهاه عن عبادة الشيطان الرجيم وأمره بطاعة الرحمن الرحيم، وهو يعلم أن الله، جل جلاله، قد منعه من الخير، وأدخله إدخالاً في الشر والضير؟! فلقد، إذا، أمره بمغالبة ربه، وهجره واعتزله على غير دينه.

ثم يقال لهم: خبرونا، وعما نسألكم عنه أجيبونا: هل بعث الله، جل ثناؤه، نبيه إلى الخلق طراً؟ فإنه يقول: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾(2)، يدعوهم إلى طاعته وينهاهم عن معصيته، أم بعثه إلى بعض ولم يبعثه إلى بعض؟ فإن قالوا: بعثه إلى الخلق طراً، فقل: فما دعاهم إليه؟ فإن قالوا: إلى الثبات على ما هم عليه من الكفر، كفروا، وإن قالوا: دعاهم إلى الإيمان، قيل لهم: فهل يقدرون على ذلك من الشأن؟ وقد جبلوا، على قولكم، على الكفران؟!، فإن قالوا: نعم، تركوا قولهم، وإن قالوا: لا، جهلوا ربهم ونبيهم، إذ زعموا أن الله، سبحانه، بعث نبيه يدعو إلى الخير والهدى من لا يقدر على الإهتداء، ومن قد حال الله بينه وبين التقى، وهذا فاحش أفعال الظلمة الجهال، وما لا يجوز في الله ذي الجلال أن يحول بين عبده وبين طاعته ثم يرسل إليه ويأمره بمرضاته وقد أخرجه منها وأدخله في ضدها، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

تم جواب مسألته

---

(1) مريم: ٤٢، ٤٣. وفي ب الاية مذكورة خطأ هكذا: (أهدك صراطاً مستقيماً).

(2) سبأ: ٢٨.

المسألة السابعة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله ، عز وجل: ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم**﴾[1]، فقال لهم: خبرونا عن هؤلاء الذين قال الله: ﴿**ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾، هل يستطيعون أن يكونوا على غير ما وصفهم الله به؟ وأن يتركوا ما خلقهم له؟ فان قالوا: لا يستطيعون، فقد أجابوا وصدقوا، وإن قالوا: نعم، هم يستطيعون أن يكونوا على غير ما خلقهم، فقد كذبوا وخالفوا، وإن زعموا أن الله، جل ثناؤه، انما خلق أهل الايمان للرحمة، فنحن نقبل منكم ونصدقكم إن زعمتم أن الله، جل ثناؤه، خلق خلقاً من خلقه خصهم بالرحمة، فلا يستطيعون أن يكونوا على غير ما خلقهم، لأنه قد استثنى لهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم**﴾، فإنا نقول: إن معنى قوله: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» هو إخبار عن قدرته وانفاذ ما شاء من إرادته، فأخبر، سبحانه: لو شاء أن يجعلهم أمة واحدة لجعلهم قسراً ولأدخلهم في طاعته جبراً، ولكنه لم يرد قسرهم على ذلك، ولم يرد أن يدخلهم في الطاعة كذلك، للحكمة النيرة والحجة الباهرة، ليُثِيبَ، على عملهم، المثابين، ويعاقب، على اجترامهم، المعاقبين، لا ما يقول به المبطلون، ويذهب إليه الجاهلون، من أنه لم يرد من العاصين الطاعة ولم يكره من الفجرة المعصية، وأنه لو أراد ذلك منهم لفعلوه، ولو شاء أن يعبدوه لعبدوه، وقالوا على الله، عز وجل،

(١) هود: ١١٨

الأقاويل الردية، و «ضاهوا»[1] في ذلك قول الجاهلية حين قالوا: **﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾**[2]، وقال، سبحانه، يكذبهم فيما وهموا من أنه يريد عبادة أحد دونه، أو أنه لا يشاء أن يعبدوه: **﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يَخْرُصُون، أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾**[3]، ثم أخبر بما به عبدوا من يعبدون، ومن به، في ذلك، يقتدون، فقال: **﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾**[4]، ثم أخبر نبيه، صلى الله عليه وآله، بقول من كان قبلهم ممن أهلك بمثل قولهم، فقال: **وكذلك ما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾**[5]، فكيف يقول الجهال وأهل الغي والضلال أن الله سبحانه، يشاء من عباده، أو لهم، الكفر؟ وقد يسمعون في ذلك قوله، ويرون ما نزل بإخوانهم، على قولهم، من نكير قولهم، أو لم يسمعوا الله، سبحانه، يقول: **﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم، ولا يرضى لعباده الكفر﴾**[6]، فقال: **﴿إن تكفروا﴾**، فأخبر بذلك أن الكفر فعل منهم ولهم، إذ نسبه، سبحانه، إليهم، وذكره عنهم، ثم قال: **﴿لا يرضى لعباده الكفر﴾**، فأخبر أنه لا يرضى ما كان من كفرهم، فكيف يقول الجاهلون، في ربهم. إنه قضى بما لم يرض لهم عليهم؟! فأكذبوا في ذلك رب الأرباب وعاندوه في كل الأسباب، فقالوا: إنه رضي بما قال، سبحانه، أنه لم يرضه، وقالوا: انه سخط ما قال أنه رضيه، فعاندوه في ذلك عناداً، وجاهروه بالمكابرة جهاراً، ففي هذا، والحمد لله، من البيان ما يكفي عن ذكر غيره من الحجج والبرهان.

وأما قوله، جل جلاله[7]: **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾**، فإنا نقول في ذلك بالحق «المبين»[8] على رب السماوات والأرضين، فنقول: ان معنى قوله: «ولا يزالون مختلفين»، أي لا يزال أهل الحق لأهل الباطل

---

(1) في ب: ظاهوا

(2) الزخرف: ٢٠. والاية في ب مذكورة خطأ هكذا: (ولو شاء الله).

(3) الزخرف: ٢١.

(4) الزخرف: ٢٢.

(5) الزخرف: ٢٣.

(6) الزمر: ٧.

(7) في ا: بزيادة: «عن يحويه قول أو يناله»، وصحنها عن أن يحويه.

(8) سقطت من ب.

مخالفين، وعليهم في باطلهم وفسقهم منكرين، «ولذلك خلقهم» رب العالمين، وبه أمرهم، سبحانه أكرم الأكرمين، فخلق جميع خلقه ليعبدوه لا ليعصوه، وأمرهم أن يطيعوه ولا يخالفوه، وأن يجاهدوا الكافرين كافة أجمعين حتى يفيئوا إلى طاعة رب العالمين، فخلقهم، سبحانه، لما شاء من ذلك، وشاء ما أمرهم به، وأمرهم بما خلقهم له من طاعته ومجاهدة أعدائه والنصر لأوليائه، فقال، سبحانه، في ذلك: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة**﴾[1]، وقال: ﴿**قاتلوا الذين يَلُونكُم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[2] وقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة**﴾[3]، وقال: ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم،أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه،أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**﴾[4]، ففي كل ذلك يأمر المحقين بمخالفة المبطلين، وبالبراءة والعداوة للفاسقين الناكثين، وبالتحاب والتواصل والتبارّ والتواخي على الدين. ومن ذلك ما يقول، جل جلاله أكرم الأكرمين: ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾[5]. ، وقد قيل في قوله: ﴿**ولذلك خلقهم**﴾ إنه مردود على ما ذكر من الرحمة، وكل ذلك، والحمد لله «جائز»[6] أن يقال به على ذي الجلال والقدرة، لا ما يقول الضالون: إن الله عز وجل، خلقهم للضلال والإختلاف، وركب فيهم العداوة وقلة الإئتلاف، وكيف يكون ذلك والله يأمر بقتال من بغى وظلم وتجاهل وأساء حتى يفيء إلى البر والتقوى، وذلك قوله، تبارك وتعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾[7]، ففي هذا، والحمد لله، من الدلالة على ما قلنا ما أجزى وكفى.

تم جواب مسألته

---

(١) التوبة: ٣٦.
(٢) التوبة: ١٢٣.
(٣) الممتحنة: ١.
(٤) المجادلة: ٢٢.
(٥) الحجرات: ١٠.
(٦) في ا، ب: فجائز
(٧) الحجرات: ٩.

المسألة الثامنة والعشرون

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن قول الله، سبحانه: «ان الانسان خلق هلوعاً»، فقال: خبرونا عن قول الله: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً﴾، ثم استثنى أيضاً، فقال: ﴿إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾[1]، فيقال لهم: ألا ترون أن الله، عز وجل، قد صنفهم صنفين، فمنهم من خلقه هلوعاً جزوعاً، ومنهم من لم يخلقه كذلك، فأخبرونا: هل يستطيع هذا الذي خلقه خلوقاً جزوعاً منوعاً أن يكون على غير ما خلقه الله عليه؟ فإن قالوا: نعم، فقد زعموا أن الناس يقدرون على أن يبدلوا خلق الله الذي خلقهم عليه، وإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

أوما ما سأل عنه، وتوهم أنه قد تعلق في شيء منه بحجة له من قول الله؛ ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾، فقال: إن الله عز وجل، قد صنفهم صنفين، وخلقهم خَلْقَيْن، فجعل منهم هلعين «جزعين»[2]، وآخرين صابرين، ثم قال: هل يقدر من خلقه الله هلوعاً جزوعاً «منوعاً»[3] أن يكون محسناً قوياً صبوراً؟ فقولنا في ذلك، إن شاء الله، بما هو الحق، لا قول غيرنا، فنقول: إن الله، جل ثناؤه، لم يخبر عن فعله، ولا أنه خلق هلعهم، ولا جعل في ذي الصبر والإحسان صبرهم، وإنما أخبر، سبحانه، عن ضعف بنية الإنسان وأنه لا يحتمل ما اشتد وصعب من الشأن، فدل بذلك من ضعف بنية الأدميين ومن قوة غيرهم من المخلوقين، واختلاف طبائع المربوبين من الجان والملائكة المقربين على قدرة رب العالمين

---

(١) المعارج: ١٩. (٢) غير موجودة في ب. (٣) غير موجودة في أ.

وخالق السماوات والأرضين، وأخبر، سبحانه، أنه خلق خلقه أطواراً مختلفة، وجعل البِنْيَة فيهم عير مؤتلفة، فكلف كل صنف منهم دون ما يطيقه أضعفهم، فكلف الملائكة المقربين ما لم يكلف الجان أجمعين وكلف الإنسان دون ما يطيق من الشأن، فكانت بنية الملائكة وطاقتهم خلاف بنية الجان وحالتهم، وكانت بنية الجان واقتدارهم خلاف بنية الإنس واستطاعتهم، وكذلك افتراق كل ما خلق رب العالمين، فكل ما خلقه فهو على تركيب رب العالمين ليس فيه تفاوت، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرَّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير**﴾[1]، وكذلك كل شيء خلقه، سبحانه، من الأشياء، وذلك كله «دليل»[2] على قدرة الرب الأعلى، وخالق الأرضين والسماوات العُلَى، فأخبر الله، سبحانه، عن بنية الإنسان بالضعف والسحاقة[3] ولم يكلفه في ذلك الا دون الطاقة، فلذلك ما قال، سبحانه: «ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعا»، يقول: جعل على بنية لا تطيق الأمر الشديد، فهو يهلع، ومن كل فادح يجزع، ثم قال: ﴿**إلا المصلين**﴾، وأخبر أن من كان لله مطيعاً من المؤمنين أصبر عند المحنة من الفاسقين، وأن المحنة لا يطيق لها ولا يقوم لها من الناس إلا ذوو ألاصطبار من عباده الصالحين، وأمر، سبحانه، نبيه والمؤمنين بالصبر، فقال: ﴿**واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾[4]، وقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾[5]، فأمرهم بالصبر وحضهم عليه في كل أمر، ونهى من يطيق ويحتمل عن الوهن والعجز فقال: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا**﴾[6] وتدعون الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم[7].

ولو كان خلق الوهن وما كان من أفعالهم لما كان جزع ولا هلع ولا صبر ولا

---

(١) الملك: ٣، ٤.

(٢) في ١، ب: فدليل.

(٣) من معانيها اللين الشديد، وهو المراد هنا.

(٤) لقمان: ١٧.

(٥) آل عمران: ٢٠٠.

(٦) آل عمران: ١٣٩.

(٧) عبارة الأصل في النسختين مضطربة، ففي ب: «وقال فلا تهنوا وأنتم وتدعون. وفي أ: . . . تحزنوا عو إلى السلم . . .».

عَدَّدَ من أعمالهم، بل كان عمله، سبحانه، لا عملهم، وفعله كل ذلك لا فعلهم، ولو كان ذلك فعل الرحمن لما أثاب على صبره الإنسان.

ألا تسمع كيف يقول ذو الجلال والقدرة والطول: **﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾**[1]، وقال، سبحانه: **﴿والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾**[2]، فضمن للصابرين على الجهاد النصر، وللعاملين المؤدين للفريضة المغفرة والأجر، وقال، سبحانه، يحكي عن رسوله، صلى الله عليه وآله، ما قال لأبي بكر، إذ هما في الغار من المشركين مختفيان، إذ هلع أبو بكر وحزن وجزع، فقال، صلى الله عليه وآله: **﴿لا تحزن ان الله معنا﴾**[3]، فنهاه عن الحزن.

ولو كان الهلع والحزن والجزع تركيباً في الإنسان من الله الواحد ذي السلطان لما أمره الرسول صلى الله عليه وآله، بتركه، ولما قدر على رفض ما كان فيه من ربه، ولكان من هلع وجزع عند الله كمن أطاع وصبر وسمع، إذ هما من الله فِعْل في العالمين، وهم، إن كان ذلك، طرا مطيعون، إذ هم في كل ما صرفوا متصرفون، ولو كان ذلك فعلاً من الله فيهم، وكان على ذلك خلقهم لم يلمهم ولم يعاقبهم على الجزع والجبن والإنهزام وتولية الأدبار عند لقاء الفسقة الأشرار، وذلك قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾**[4]، فكيف يوجب الغضب عليهم ويجعل النار مأواهم على فعل ما عليه خلقهم وسوَّاهم!؟ تعالى الله عن ذلك وتقدس أن يكون كذلك، بل ذلك فعل منهم، ولذلك رجع وباله عليهم، فمن كان لله مريداً صبر عند المحنة ومن كان عنه

---

(١) آل عمران: ١٢٥.
(٢) الاحزاب: ٣٥.
(٣) التوبة: ٤٠.
(٤) الانفال: ١٦.

بعيداً هلع، وعند النوازل جزع، وإنما يكون ذلك على قدر اليقين والتسليم لله من المؤمنين.

ومن ذلك يوم حنين، حين انهزم المسلمون وجزعوا، وثبت مع رسول الله، صلى الله عليه وآله، الذين ثبتوا، ثم ناداهم الرسول فرجعوا، أفيقول الحسن بن محمد: إن الله، سبحانه، خلقهم جُزَّعاً، فانهزموا لما خلقهم عليه من الجزع، ثم ناداهم الرسول فاستحيوا منه فكروا، وعن خلق الله الذي خلقهم عليه غيروا، فتركوا ما ركب الله من الجزع والجبن!؟ أم يقول: إن الله عز وجل، خلقهم في أول الأمر جزعاً هلعاً، ثم نقل خلقهم آخر، فجعلهم صبراً!؟ لقد ضل إذاً ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً، بل ذلك منهم كله أوله وآخره، ولذلك أثيبوا على الرجوع، ولو لم يرجعوا لعوقبوا على الذهاب والشسوع، فليفرق من عقل بين ما أخبر الله، سبحانه، عنه وبين ما فعله وجعله، فبينهما، ولله الحمد، فرق عند ذوي «العقول»[1] عظيم، وأمر «واضح»[2] في اللسان بين جسيم.

تم جواب مسألته

(١) في أ: الأذهان.

(٢) غير موجودة في أ.

المسألة التاسعة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، سبحانه، حين يقول للمؤمنين: «**ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**»[1]، هل كان هؤلاء الذين ذكر يستطيعون أن يقبلوا الهدى وأن يسمعوا المنفعة في دينهم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا وجحدوا، وإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله: ﴿**ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون**﴾، فتوهم أنهم كانوا لا يسمعون لصمم جعله الله، سبحانه، في آذانهم، أو لسبب جعله حاجزاً بين الهدى وبينهم، وليس ذلك، والحمد لله، كذلك، ولو كان الله فعل ذلك بهم لما عاب صممهم، ولكان أعذر لهم من أنفسهم، ولما بعث إليهم المرسلين، ولا أمرهم باتباع المهتدين، وإنما أراد الله، سبحانه، بذلك حض المؤمنين على الطاعة لرب العالمين، والإستماع لسيد المرسلين، فقال للمؤمنين: ﴿**ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون**﴾، يقول: لا تكونوا كالذين قالوا أطعنا بألسنتهم وهم كاذبون في قلوبهم، بل قلوبهم منكرة لذلك جاحدة له، يدارون بالقول خوفاً من المؤمنين والرسول ويكفرون من «ورائه»[2] بكل الدين والتنزيل، وهم الذين قال فيهم الرحمن الجليل: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون**﴾[3]، وقال: ﴿**يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم**﴾[4] وهم الذين قال الله فيهم من

(١) الانفال: ٢١.

(٢) في ب: راه.

(٣) البقرة: ١٤.

(٤) الفتح: ١١.

منافقي قريس والأعراب وغيرهم: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾[1]. فنهى المؤمنين عن مشابهة المنافقين، ولم يكن قوله ما قال إخباراً منه بتركيب ما ذمه منهم فيهم، ولو كان الله، سبحانه، فعله فيهم لما نهى المؤمنين عن ذلك، إذ هو فعله لا فعلهم، فكيف ينهاهم عن أن يفعلوا فعله، ولو جاز أن ينهاهم عن فعل ما فعله فيهم لكانوا مقتدرين على أن يفعلوا كفعله، إذاً لخلقوا كخلقه، ولو خلقوا كخلقه لامتنعوا بلا شك مما يكرهون من أفعاله، من موتهم وابتلائه إياهم بما يبتليهم به وليُزيدوا فيما آتاهم مما يحبونه، فتعالى من هو على خلاف ذلك والمتقدس عن أن يكون كذلك.

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ فقال: هل كان هؤلاء يقدرون على أن يقبلوا الهدى؟ أو أن يسمعوا ما يُدلّون عليه منه؟ فصدق الله سبحانه: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾[2] يقول: الذين لا يهتدون إن هُدوا، ولا يقبلون الحق إن دُعوا، ولا ينتهون إذا نُهوا، فضرب الله لهم ذلك مثلاً إذ كانوا في الضلال على هذه الحال، وهم في ذلك لقبول الحق مطيعون، وعلى اتباع الصدق مقتدرون، فلما أن تركوا ذلك شبههم بالصم البكم الذين لا يعقلون إذ تركوا فعل ما كانوا يطيقون.

تم جواب مسألته

---

(1) المنافقون: ١.

(2) الأنفال: ٢٢.

المسألة الثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عما ضرب الله «عز وجل»[1] للمنافقين من المثل في قوله: **﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾**[2] فنقول: ألا يرون أن الله هو الذي ذهب بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون؟ فأخبرونا هل كان هؤلاء «يستطيعون»[3] سماع الهدى، وقد وصفهم الله سبحانه بالصمم وهل كان لهم أن يقبلوا الهدى وقد وصفهم الله سبحانه بالعمى؟ وهل كانوا ينتفعون بنور الهدى وقد ذهب الله به؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا بكتاب الله وجحدوا بآياته، وإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، في المنافقين، وما ضرب لهم من المثل في قوله: **﴿مثلهم كمثل الذين استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾** فقال: ضرب مثلهم ثم جهل فقال: خلقهم وكفرهم، فرجع عن الحق الذي نطق به في أول كلامه حين يقول: ضرب مثلاً، ثم قال: هل يستطيعون سماع الهدى، وقد وصفهم الله، جل ثناؤه، بالصمم والعمى؟ فقولنا في ذلك: أن الله، جل وعلا، لم يخلقهم كذلك، ولم يجعلهم عمياً، ولا عن سماع الخير والتقى صماً، وأن الله تبارك، وتعالى، ضرب لهم هذا مثلاً، فقال، سبحانه: إن هؤلاء الذين أتاهم

---

(١) غير موجودة في أ.

(٢) البقرة: ١٨.

(٣) في أ، ب: لايستطيعون.

الهدى وكشف لهم عن الحق الغطاء فأنار لديهم، وثبت في صدورهم، وأيقنوا أنه من عند خالقهم، فكفروا بربهم، وخالفوا أمر نبيهم، وآثروا ظلمتهم على ما أضاء من الحق لهم، فتركهم الله وخذلهم، ومثّلهم إذ تركوا حظهم، وما أنار من الحق عندهم، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم فكان الذي شبهه بضوء النار هو الهدى الذي أخرجه الله لهم وامتنّ به عليهم، فتركوه ولم يتبعوه، ولم يستضيئوا بنوره، وناصبوه وعاندوه، لا ما يقول الحسن بن محمد أن الله، سبحانه، فعل ذلك بهم، وجعلهم عن إستماع الحق صماً وعمياً، وعن قبول الصدق حاجزاً، فجهل الفرق بين المَثَل والفعل، وكيف يجعلهم الله كذلك، ويخلقهم على ذلك، ثم يرسل إليهم نبيه يدعوهم إلى الهدى ويخرجهم من الحيرة والعمى، وهم عن الخروج ممنوعون وعن الدخول في الحق مصروفون؟ فالله سبحانه، إذا أرسله يدعوهم إلى الخروج عما فيه أدخلهم، وعليه، جل وعز، عن ذلك، جبلهم، فنسبوا في ذلك الى الله الإستهزاء واللعب والإعماء والجهالة والخطأ والظلم لعباده، والفساد في بلاده. كذب القائلون على الله بذلك، وضلوا ضلالاً بعيداً.

تم جواب مسألته

المسألة الحادية والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسالة عن قول الله في الإملاء: ﴿**ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً**﴾[1] فقال: خبرونا عن قول الله: ﴿**ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم، إنما نملـي لهـم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين**﴾، فقال: أخبرونـا عن هؤلاء، الله أراد بهـم في إملائه لهم ليزدادوا إثماً، كما قال؟ فإن قالوا: نعم، نقض ذلك قولهم، وإن قالوا لا، كذبوا. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿**ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم، إنما نملي لهـم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين**﴾، فقال: إن الله أملي لهم ليزدادوا في الكفر والإجتراء عليه، وليس ذلك كما قال، بل قولـه أحـول المحـال، وسنشـرح ذلك، والقـوة بالله، ونفسره، ونذكر ما أراد الله، إن شاء الله، به، فنقول: إن معنى إملائه لهم هو لأن لا يزدادوا إثماً وليتوبوا ويرجعوا، ومن وَسَـنِ ضلالتهم ينتهـوا، لا ما يقول أهل الجهالة ممن تحير وتكمه في الضلالة: أن الله أملى لهم كي يزدادوا إثماً وضلالة واجتراء، وكيف يملي لهم كذلك وقد نهاهم عن يسير ذلك فقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم**﴾[2]، فنهاهم عن يسير الإثم وقليله، فكيف يملي لهم ليزدادوا من عظيمه وكثيره؟

فأما قوله: ﴿**ليزدادوا إثماً**﴾ فإنما أراد، سبحانه لأن لا يزدادوا إثماً، فطرح

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الحجرات: ١٢.

«لا، وهو يريدها، فخرج لفظ الكلام إخباراً ومعناه معنى نفي، والعرب تطرحها وهي تريدها وتثبتها وهي لا تريدها، قال الله، سبحانه: **﴿لئَلاَّ يعلم أهل الكتاب ألاَّ يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾**[1]، فقال: «لئلا» فأثبت «لا» وهو لا يريدها، فخرج لفظ الكلام لفظ إيجاب ومعناه معنى نفي، أراد، سبحانه، ليعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله، وهذا «موجود»[2] في أشعارهم مثبت في أخبارهم.

قال الشاعر:

نزلتم منزل الأضياف منا ... فجعلنا القِرَى أن تشتمونا

فقال: فجعلنا القرى أن تشتمونا، وإنما معناه: فجعلنا القرى لأن لا تشتمونا، فطرح «لا» وهو يريدها، فخرج لفظ الكلام بخلاف معناه. وقال آخر:

ما زال ذو الخيرات لا يقول ... ويصدق القول ولا يحول

فقال: لا يقول، فأتى بـ «لا» وهو لا يريدها، ولأن معناها: ما زال ذو الخيرات يقول، فخرج اللفظ خلاف المعنى.

تم جواب مسألته

---

(١) الحديد: ٢٩.

(٢) في أ، ب: فموجود.

المسألة الثانية والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله عز وجل، في الإغفال: ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً**﴾[1]، فقال: أخبرونا عن هذا الذي أغفل الله قلبه عن ذكره، هل أراد الله أن يطيعه؟ فان قالوا: نعم، فقد كذبوا وجحدوا، وإن قالوا: لا، فقد نقض ذلك قولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا**﴾، فقال: خبرونا عن هذا الذي أغفل الله قلبه عن ذكره، هل أراد الله أن يطيعه؟ فتوهم، ويله وغوله إن لم يتب من الله ويحه!!، أن الله تبارك وتعالى، أدخله في الغفلة، وحال بينه بذلك وبين الطاعة، فليس كما توهم، ألا يسمع الى قول الله، عز وجل: ﴿**واتبع هواه وكان أمره فرطاً**﴾، فأخبر، سبحانه، أنه متبع في ذلك لهواه، ضال عن رشده، تارك لهداه، ولو كان ذلك من الله لم يكن العبد مُتْبِعا لنفسه هواه، بل كان. داخلاً لله فيما شاء وارتضى، وسنفسر معنى الاية، إن شاء الله، والقوة بالله وله: إن الله تبارك وتعالى، نهى نبيه عن طاعة من أغفل قلبه ممن آثر هواه على هداه، وأما معنى ما ذكر الله، سبحانه، من الإغفال فقد يخرج على معنيين، والحمد لله، شافيين كافيين:

أحدهما: الخذلان من الله والترك لمن اتبع هواه وآثره على طاعة مولاه، فلما أن عصى وضل وغوى، وترك ما دل عليه من الهدى، استوجب من الله الخذلان، لمّا كان فيه من الضلال والكفران، فغفل وضل وجهل إذ لم يكن معه من الله توفيق ولا إرشاد، فتسربل سربال الغي والفساد.

---

(١) الكهف: ٢٨.

وأما المعنى الاخر: فبيِّن في لسان العرب موجود، معروف عند كلها محدود، وهو أن يكون معنى قوله: ﴿أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي تركناه من ذكرنا، والذكر «هو»[1] التذكرة من الله والتنبيه والتسديد والتعريف والهداية الى الخير والتوفيق، فيقول، سبحانه: تركنا قلبه من تذكيرنا وعوننا وهدايتنا، بما أصر عليه من الإشراك بنا والإجتراء علينا، تقول العرب: يا فلان أغفلت فلاناً، ويقول القائل: لا تغفلني، أي تتركني، وتقول العرب: قم مني، أي قم عني، فتخلف بعض حروف الصفات ببعض وتقيم بعضها مقام بعض.

قال الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت لدى لُجَجٍ خضر لهن نئيج

فقال: لدى لجج، وإنما يريد: على لجج، فذكر السحاب وشربها من البحار واستقلالها بما فيها من الأمطار. وقال آخر:

أغفلت تغلب من معروفك الكاسي فخلت قلبك منهم مغضباً قاسي

فقال: أغفلت تغلب من معروفك، أي تركتها من عطائك ونوالك ومنتك وأوصالك، ثم قال: فخلت قلبك منهم مغضباً قاسي، فقال: منهم، وإنما يريد: عليهم مغضباً، فأقام حرف الصفة وهو «من» مقام أختها وهي «على»، فأقام «منهم» مقام «عليهم»، فهذا معنى الآية، إن شاء الله، ومخرجها، لا ما توهم الجهال على ذي المعالي والجلال من الجبر لعباده والإضلال والظلم والتجبر بالإغفال.

تم جواب مسألته

---

(١) في أ، ب: فهو.

المسألة الثالثة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله في الأز، فقال: خبرونا عن قول الله، سبحانه: **﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تأزهم أزاً﴾**(1)، فيقال لهم: هل أراد الله سبحانه أن يؤمن هؤلاء الذين أرسل عليهم الشياطين؟ فإن قالوا: نعم، فقد كفروا وجحدوا، وإن قالوا: لا، فقد نقض ذلك قولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: **﴿ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تأزهم أزاً﴾**، فقال: هل أراد الله من هؤلاء الذين أرسل عليهم الشياطين تأزُّهم أن يكونوا به من المؤمنين؟ وبما أنزل، عز وجل، من المصدقين؟ وقد أرسل عليهم مردة الشياطين؟! فتوهم، بجهله، أن الله أرسل الشياطين على الادميين إرسالاً، وجبرهم على تحييرهم وتضليلهم جبراً، وأدخل الشياطين في إغوائهم قسراً، ليضلوهم عن الهدى ويوقعوهم في الردى، وأن ذلك كان من الله للشياطين أمراً وقضاء قضى به عليهم قسراً، وليس ذلك كما قال، ولا على ما ذهب إليه من فاحش المقال، وكيف يرسل الشياطين على عباده إرسالاً، ويدخلها في الإغواء لهم إدخالاً، ثم يعذبها عليه، ويعاقبها فيه ؟! ألا تسمع كيف يقول، سبحانه: **﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾**(2)؟، فلم، إن كان أرسله عليهم، إذاً يعاقبه على ما صنع فيهم؟ بل هو على غير ما يقول في الرحمن أهل الضلالة والطغيان.

ثم نقول من بعد ذلك إن معنى قوله، سبحانه: **﴿ألم ترأنا أرسلنا الشياطين**

---

(1) مريم: ٨٣.
(2) ص: ٨٥.

على الكافرين «تأزهم»﴾[1] هو: خلينا ولم نحل بين أحد، من بعد أن أمرنا ونهينا[2].
وليس إرساله للشياطين إلا كإرساله للآدميين، فكل قد أمره بطاعته ونهاه عن معصيته وجعل فيه ما يعبده به من استطاعته، ثم بصرهم وهداهم ولم يحل بين أحد وبين العمل، فمن عمل بالطاعة أثابه ومن عمل بالمعصية عاقبه، ولم يخرج أحداً من معصيته جبراً، ولم يدخله في طاعته قسراً، فكان من أعطى من الجن والإنس من الإستطاعات وترك قسرهم على الطاعات إرسالاً وتخلية منه لهم في الحالات، لا ما يقول به أهل الجهالات. **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم﴾**[3]، فلما أخذل الكافرين بكفرهم، ولعنهم بجرائمهم، وتبرأ منهم بعصيانهم، غويت بهم الشياطين وسولت لهم فأمْلَت فاتبعوها ولم يعصوها ويبعدوها، ولم يتذكروا عندما يطيف بهم طائف الشيطان، بل تكمهوا وغووا وعموا، ولم يكونوا في ذلك عنده كالذين اتقوا عند إلمام الشيطان بهم كما فعلوا، قال الله، سبحانه: **﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾**[4]، يقول، سبحانه: ذكروا ما نهاهم الله عنه «من طاعته»[5]، وأمرهم به من مخالفته، واتخاذه عدواً حين يقول: **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾**[6]، فلما أن طاف بالمؤمنين ودعاهم الى ما أجابه إليه من الكفر بالله الفاسقون، ذكروا الله وتذكروا أمره ونهيه، وما أمرهم به من طاعته وحذرهم من معصيته، فأبصروا الحق واجتنبوا اللعين وعصوه، وفيما دعاهم إليه من العصيان خالفوه. ألا تسمع كيف أثنى عليهم بذلك ربهم، وذكر عنهم سيدهم وخالقهم حين يقول: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾**[7]، يقول، سبحانه: إن عبادي المؤمنين وأوليائي المتقين لا يجعلون لك عليهم سلطاناً

---

(١) غير موجودة في أ.
(٢) العبارة في ب هكذا: «خلينا ولم نحل وبين أنا من بعد أن أمرنا ونهينا».
(٣) الانفال: ٤٢.
(٤) الاعراف: ٢٠١.
(٥) غير موجودة في أ.
(٦) فاطر: ٦.
(٧) الحجر: ٤٢.

ولا يطيعونك فيما تأمرهم به من العصيان، بل يحترسون منك بطاعة الرحمن، وتلاوة القرآن، ويُخَلِّفونك صاغراً في كل شأن فلا يجري ولا يجوز لك عليهم سلطان، وليس تخليته للشياطين إلا كإذنه للساحرين حين يقول: ﴿**وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله**﴾[1]، فإذنه في ذلك تخليته وترك الصرف، لهم جبراً، عن معصيته، والإدخال لهم، جبراً، في طاعته.

تم جواب مسألته

(١) البقرة: ١٠٢.

المسألة الرابعة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة «عن قول الله سبحانه»[1] في موسى، وما وعد أمه أن يرده إليها ويجعله من المرسلين، «فقال»[2] خبرونا عن قول الله، سبحانه: ﴿**وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾[3]، هل كان فرعون يستطيع أن يقتل موسى حتى لا يرده الله إلى أمه ولا يجعله من المرسلين؟ فإن قالوا: نعم، كذبوا وجحدوا، وإن قالوا: لا، فقد نقض ذلك قولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، عز وجل، في موسى: ﴿**وأوحينا الى أم موسى** أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين»، فقال: هل كان يستطيع فرعون أن يقتل موسى حتى لا يرده إلى أمه ولا يجعله من المرسلين؟ فقال: إن الله أخرج فرعون من أكبر المعاصي بعد الشرك به من قتله نبيه إخراجاً، ومنعه من معصيته منعاً، وقسره على الخروج قسراً، ولو جاز أن يخرج عدوه من معاصيه قسراً لكان قد أدخله في ضدها من الطاعة جبراً، ولو كان يخرج العاصين من معاصي رب العالمين لكان عباده المؤمنون أولى بذلك، ولو أخرج عباده ومنعهم من معاصيه قسراً لأدخلهم في طاعته جبراً، ولو فعل ذلك بهم لسقط معنى الأمر والنهي، ولكان العامل دونهم، الفاعل لأفعالهم، تعالى الله

---

(1) غير موجودة في ب.

(2) غير موجودة في ب.

(3) القصص: ٧.

عن ذلك، ولم يُطَع، سبحانه، مكرهاً، ولم يعص، جل جلاله، مغلوباً، بل نقول في ذلك بالحق، إن شاء الله فنقول: إن الله لما أن علم أنه إذ ألقى على موسى، صلى الله عليه، من المحبة التي ذكر أنه ألقاها عليه في قولـه: **﴿وألقيت عليك محبة مني﴾**[1]، فلما ألقى عليه المحبة أحبته لذلك امرأة فرعون، فسألت فرعون تركه عندما هم به من قتله حين تبين له ما كان من فعله في صغره، فتركه لها، وصفح عنه بحب محبتها واتباع شأوها[2]، فكان ذلك نجاة لموسى مما هَمَّ به فيه فرعون الكافر الملعون، فلما أن علم الله سبحانه، أن ذلك سيكون من اختيار فرعون، وأنه سيختار إجابة امرأته الى ما طلبت من ترك قتل نبي الله، حكم عليه بما علم من صَيُّور أمره، فكان ما ألقى عليه من المحبة منه، سبحانه، سبباً لنجاته، فنجاه الله من فرعون، ورده الى أمه كي تقر عينها ولا تحزن فأخبر الله في ذلك، ووعدها ما وعدها لعلمه بما سيكون من امرأة فرعون وطلبها في موسى وإجابة فرعون لها كما أخبر عما يكون يوم الدين، فهذا معنى ما ذكر الله من ذلك، إن شاء الله، لا ما قاله الفاسقون، وذهب إليه الضالون.

تم جواب مسألته

(١) طه: ٣٩.

(٢) أحد معانيه: الغاية.

المسألة الخامسة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، سبحانه: ﴿**وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار**﴾[1]، وقوله: ﴿**وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين**﴾ وقوله: ﴿**ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها**﴾[2] «فقال»[3] أخبرونا عن بني آدم كلهم. هل كانوا يستطيعون أن يطيعوا الله جميعاً، فلا يعصوه؟، ويعبده كلهم حتى لا يعبدوا غيره؟ فيوجب لهم الجنة ويحرم عليهم النار فلا يدخلها أحد منهم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا بكتاب الله، وزعموا أنهم يقدرون على أن يبطلوا قول الله، تبارك وتعالى عن ذلك، «وإن»[4] قالوا: لا، لم يكونوا يستطيعون أن يطيعوا ولا يعبدوا، كان ذلك نقضاً لقولهم، وإبطالاً لحجتهم، تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: ﴿**وكذلك حقت كلمة ربك على** الذين كفروا أنهم أصحاب النار» فقال: خبرونا عن قول الله: «وكذلك حقت كلمة **ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار**﴾، فقال: هل يستطيع هؤلاء أن يطيعوا، وقد حق عليهم من الله القول والأمر ووقع الحكم والجبر؟ فتوهم الحسن بن محمد لقلة علمه وكثرة جهله أن الله تبارك وتعالى حكم عليهم بما أدخلهم فيه وجبلهم عليه، فظلم ربه وكَفَّر نفسه، وليس ذلك على ما قال، ولا على ما ذهب إليه من

---

(١) غافر: ٦.

(٢) السجدة: ١٣. والنص في ب هكذا: إنهم أصحاب النار. وقوله ولكن حق القول مني... مع زيادة كلمة «التلاوة» قبل الاية.

(٣) في ب: فيقال.

(٤) في ب: فإن.

المحال، وسنفسر ذلك من قول الله، تبارك وتعالى، فنقول: إن الكلمة التي حقت هي حكمه على من كفر من الخلق بالنيران، من الجِنَّة والإنسان، فإن الله، تبارك وتعالى، علم بما سيكون منهم من العصيان والإحسان، فأوجب للمحسنين الثواب وعلى المذنبين العقاب.

«فأما»[1] ما سأل عنه من قوله: هل كانوا يستطيعون أن يطيعوا الله جميعاً فلا يعصوه؟ فكذلك نقول: إنهم كانوا يستطيعون طاعته، كما يطيقون معصيته، ولكنهم افترقت بهم الأهواء، فمنهم من اختار الإيمان والتقوى، ومنهم من اختار الضلالة والعمى، والله، تبارك وتعالى، «إنما»[2] حكم بالنيران على من اختار من الثقلين العصيان أو كره ما أنزل الرحمن، فعِلْم الله وقع على اختيارهم وما يكون من أفعالهم، ولم يدخلهم في صغيرة، ولم يخرجهم من كبيرة، ولو علم أنه إذا دعاهم وبصرهم وهداهم أجابوه بأسرهم وأطاعوه في كل أمرهم، إذاً لأخبر بذلك عنهم كما أخبر به عن بعضهم، وكذلك لو علم أنهم يختارون بأجمعهم المعصية، لحكم عليهم بالنار كما حكم على الذين كفروا منهم. وأما قوله، سبحانه: **﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾** فكذلك الله، سبحانه، لو شاء أن يجبر العباد على طاعته جبرا، ويخرجهم من معصيته قسراً، لفعل ذلك بهم، ولو فعل ذلك بهم، وحكم به عليهم، لم يكن ليوجد ناراً، ولا ليخلق ثواباً، ولكان الناس كلهم مصروفين لا متصرفين، ومفعولاً بهم لا فاعلين، ولكنه، سبحانه، أراد أن لا يثيب «ولا يعاقب»[3] إلا عاقلاً متخيراً «مميزاً»[4] فأمر[5] العباد ونهاهم وبصرهم وهداهم، وجعل منهم استطاعات ينالون بها المعاصي والطاعات، ليطيع المطيع فيستأهل بعمله وتخيره الثواب، ويعصي العاصي فيستوجب باكتسابه العقاب.

---

(١) في أ: وأما.

(٢) في أ، ب: فإنما.

(٣) غير موجودة في أ.

(٤) غير موجودة في ب.

(٥) العبارة في ب قد تقرأ: ممن أمر من العباد.

فأما قوله: ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فهو: وجب وحق الحكم مني بما حكمت به ومضى ووقع عليه ما جعلته من عقاب المذنبين وثواب المحسنين من الجنة والناس أجمعين، فهذا معنى قوله، سبحانه، لا ما قال المبطلون، ونسب إليه، سبحانه، الجاهلون، من ظلم العباد والإدخال لهم في الفساد.

تم جواب مسألته.

المسألة السادسة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، سبحانه: **﴿أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾**[1]، فيقال لهم: ألستم تقرون أنه قد فضل بعض خلقه على بعض في الدنيا والآخرة وخصهم؟ وخص بذلك بعض خلقه دون بعض؟ فإن قالوا: نعم، انتقض قولهم، وأن الطاعة والإيمان مما فضل الله به عباده وخصهم به من رحمته، وإن قالوا: لا، فقد جحدوا بآيات الله وكذبوا كتابه. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله «جل جلاله»[2]: **﴿أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾**، فقال: إن الله سبحانه، فضل قوماً، بأن أدخلهم في الإيمان، على قوم، أدخلهم في الكفر والعصيان، فَضَلَّ بذلك وغوى، وهلك عند الله وشقى، ونسب إلى الله، سبحانه، من ذلك الجور والردى، فتعالى وتقدس عن ذلك ربنا، وليس كما قال الجهال، من أهل السفاهة والضلال، بل هو كما قال ذو الجلال، حين يقول: **﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾**[3]، وكما قال، سبحانه، لنبيه، عليه السلام: **﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم، زهرة الحياة الدنيا﴾**[4]، ففضل بعضهم على بعض بما وهب من الذكور، وبما يجعل ويوسع به من الأرزاق، ويمن به ويتفضل على من يشاء من الأرفاق. وما يرزق من يشاء من الحسن والجمال والمنطق

---

(١) الإسراء: ٢١.
(٢) في أ: سبحانه.
(٣) الشورى: ٤٩.
(٤) طه: ١٣١.

والكمال، وكم قد رأينا وفهمنا وعاينا من مولود يولد أعمى وآخر يكون ذا زيادة ونقصان، وآخر سَوِي غير زائد ولا ناقص، قد تمت عليه من الله النعماء، وصرفت عنه وعن والديه فيه البلوى، فهذا، وما كان مثله، مما فضل الله به بعضاً على بعض مما ليس لهم فيه على الله حجة، يفعل من ذلك ما يشاء، سبحانه ذو الجلال والحكمة، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وأما قوله: ﴿**وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً**﴾، يقول: إن إعطاءنا وامتناننا ومجازاتنا لأهل طاعتنا في معادهم وآخرتهم على أعمالهم أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، على اجتهادهم في مرضاتنا، فمن كثر عمله بالخير كان عند الله في الآخرة أكبر درجات ممن نقص عمله، وذلك قوله، سبحانه: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون**﴾[1].

تم جواب مسألته

(١) الانعام: ١٦٠.

المسألة السابعة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، تبارك وتعالى، لإبليس: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾**[1]، وقال: **﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾**[2]، وقال إبليس: **﴿لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلَصين﴾**[3]، فقال: أخبرونا عن هذا السلطان، ما هو؟ فإن قالوا: هو التخييل، فقل: فما أكثر ما لقي منه المؤمنون وأطفالهم، وإن قالوا: هو الدعاء فقل: فهذا ما لا يَدَّعوا به المؤمن والكافر والخلق كلهم حتى عرض للأنبياء فدعاهم، والتمس فتنتهم فدعاهم كلهم إلى المعصية، وإن قالوا: هو التضليل، ولن يصل بذلك إلى عباد الله المؤمنين، لأن الله عصمهم، وهو الوكيل عليهم، فقد أجابوا، ونقض ذلك قولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، عز وجل، لإبليس: **﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾**، ومن قوله: **﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾**، وعن قول إبليس حين قال: **﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾**، فقال: ما هذا السلطان الذي ليس للشيطان على المؤمنين؟

---

(١) الحجرات: ٤٢.

(٢) النحل: ٩٩.

(٣) الحجر: ٣٩، ص: ٨٢، ٨٣.

فتوهم، لجهله وسوء نظره وعلمه، أن الله، تبارك وتعالى، حال بين إبليس وبين بعض العباد حولاً، ومنعه من الوسوسة لهم منعاً، وقسرهم عنه قسراً، وليس ذلك كما قال. ألا تسمع ما ذكر الله عن آدم وزوجته، وكيف كانت وسوسته لهما حتى أوقعهما فيه، وكذلك اعترض لعيسى ابن مريم حتى دحره ولم يطمعه في شيء مما ذكره، ولغيرهما من الأنبياء والمؤمنين، فلو منعه الله من أحد من المؤمنين منعاً وقسره على الوسوسة له قسراً، لكان ذلك لأبيهم آدم، صلى الله عليه، ولكنه، سبحانه، منعه من ذلك بالنهي له والزجر عما هو عليه من إغوائه، وعاقبه عليه، وأعد له النار والعذاب فيه، فقال: **﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾**[1].

فأما السلطان الذي ذكر الله، عز وجل، أنه ليس له على المؤمنين، في قوله: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾**، فهو ما علم من المؤمنين من طرده ودحره وترك طاعته في وسوسته وأمره، وأنهم لا يجعلون له عليهم سلطاناً بشيء من الطاعة له من العصيان لربهم، وأنهم لا يزالون مؤثرين لطاعة الرحمن محترسين من الشيطان بتلاوة القرآن والاعتصام بذي الجلال المنان، فهم أبداً لله مراقبون، وفي طاعته ساعون، وللشيطان اللعين معادون، كما أمرهم ربهم حين يقول: **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾**[2]، وفي كل ما أمرهم به مخالفون، فأولئك هم المهتدون الذين على ربهم يتوكلون، فليس له على هؤلاء سلطان، وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، وكذلك سلطانه على أوليائه، وهو دعاؤه لهم وإغواؤه إياهم، وقبولهم منه، ومثابرتهم عليه، فلما أن قبلوا منه ولم يعصوه كانت طاعتهم له السلطان عليهم إذ أطاعوه وفي دعائه أتبعوه.

تم جواب مسألته

---

(١) هود: ١١٩، السجدة: ١٣، ص: ٨٥.

(٢) فاطر: ٦.

المسألة الثامنة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة فقال: أخبرونا، هل يخص الله برحمته من يشاء من خلقه؟ أم ليست له خاصة؟ وإنما هو أمر عام، فمن شاء ترك ومن شاء أخذ؟ فإن قالوا ذلك فقد كذبوا، والله، سبحانه، يخبر بخلاف قولهم إذ يقول لنبيه، عليه السلام: ﴿**ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك**﴾[1]، وقال، أيضاً، لمن أراد أن يخصه بالهدى من خلقه: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**﴾[2]، وقال، أيضاً: ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين**﴾[3]، فقال: أخبرونا عن الشرح، ما هو؟ أهو الهدى؟ أم الدعاء؟، فإن قالوا: إنه الدعاء، زعموا أن كل كافر مشروح الصدر بالإسلام، وإن الخلق كلهم جميعاً قد شرحت صدورهم، لأنهم قد دعوا كلهم، وإن قالوا: «هو الهدى الذي يَمُنُّ به على من يشاء من عباده»[4] فقد أجابوا. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه فقال: «أخبرونا»[5] هل يختص الله برحمته من يشاء من خلقه؟ أم ليست له خاصة؟ فإنا نقول كما قال الله سبحانه: ﴿**وأن الفضل بيد الله**

---

(١) الانشراح: ١، ٢.

(٢) الانعام: ١٥٢.

(٣) الزمر: ٢٢.

(٤) عبارة أ: هو المهدي من به على من يشاء.

(٥) غير موجودة في أ.

يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[1]، ثم نقول: إن اختصاص الله برحمته من يشاء من عباده يخرج على معنيين.

فأما أحدهما: فهو مشيئته أن يزيد المهتدين هُدى ويزيد المؤمنين تقوى، وذلك قوله، سبحانه: **﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾**[2]، وقوله سبحانه: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفْلَين من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾**[3]، فشاء، سبحانه، أن يزيد ويختص برحمته من ثابر على طاعته وسارع إلى مرضاته، كما شاء أن يخذل من آثر هواه وأسخط بفعله مولاه.

وأما المعنى الآخر: فهو ما يختص به من يشاء من السلامة والإغناء وصرف المكاره والبلوى، فتبارك الله الواحد الأعلى، فهذا ومثله معنى اختصاص الله بالرحمة لمن يشاء، لا ما يقول الفاسقون ويذهب إليه الضالون من أن الله تبارك وتعالى يخرج من المعصية عباده قسراً، ويدخلهم في طاعته جبراً.

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه، لنبيه صلى الله عليه وآله: **﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾**، فإنا نقول: إن الشرح من الله لصدره هو توفيقه وتسديده وترغيبه بالهدى وتأييده، وتعليمه ما كان يجهله، وتفهيمه، فشرح الله بالإيمان صدره، ورفع بالوحي المنزل قدره، وأما الوزر الذي وضعه الله عن ظهره، فهو ما يغفر له من ذنوبه، ومن الوزر ما كان منه من الضلال عن الوحي والهدى، فوضعه الله، سبحانه، عنه، بهداه له. ومما خصه الله به من النصرة والزيادة في تقواه، فجعله من بعد أن كان جاهلاً عالماً، ومن بعد أن كان متِّبعاً متَّبَعاً، ومن ذلك ما وضع عنه من وزر الفقر وضرائه، وما امتن به عليه من بعد العيلة وأغناه، كما قال، تباركت أسماؤه: **﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾**[4]، وأما قوله، سبحانه: **﴿الذي أنقض ظهرك﴾**، فهو أوقره وفدحه وغمه وكربه من الضلال عن العمل برضى رب الجلال، فوضع الله عنه ثقل ذلك بما بصره وأوحى إليه

---

(1) الحديد: ٢٩.
(2) التغابن: ١١.
(3) الحديد: ٢٨.
(4) الضحى: ٨.

وفضله وأمتن به عليه، وليس ذلك الوزر حملاً من الأحمال على ظهر، ولا وقراً وقر بحمله، وإنما ذلك على المثل، قال الشاعر:

حملت أمراً (عظيماً)[1] فاضطلعت به جزاك عنا إله الخلق رضوانا

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾**[2]، فجوابنا في ذلك أن الشرح من الله هو التوفيق والتسديد والتبصير والتنبيه، وأن معنى قوله، جل جلاله: **﴿يجعل صدره ضيقاً حَرَجا كأنما يصَّعَّد في السماء﴾**، هو بما يَدَّارك عليه من الأمر والدعاء، وما أمر به عبده ورسوله ونزل عليه، فكلما زاد الله في إقامة الحجة عليهم والدعاء لهم، وإظهار الحق لديهم، ازدادوا طغياناً وإثماً وتمادياً وعمى، فخذلهم الله لذلك وأرداهم وأذلهم وأشقاهم، فعادت صدورهم لما فيها من الشك والبلاء وما يخافون من ظهور الحق عليهم والهدى، ضيقة حرجة، كأنما تصعد في السماء، وإنما مثل الله صفتها بالتصعيد في السماء، لأن التصعيد أشد الشدة وأعظم البلاء، ولذلك ما قال الله، جل ثناؤه، في الوليد بن المغيرة المخزومي[3]. **﴿ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالاً ممدوداً، وبَنِين شهوداً، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد، كلا، إنه كان لآياتنا عنيداً، سأرهقه صعوداً﴾**[4]، فلما أنعم الله عليه بما ذكر، فأبى وأعرض واستكبر وخالف وكفر، وعده الله إرهاق الصعود، وهو الأمر الصعب الشديد من العذاب في دار الآخرة بالنار والأغلال الحديد، فلما كان الصعد[5] الذي لا تَعَرُّض[6] فيه ولا سهولة في حيله، وأنه مصعد فيه أبداً، وكان أشد ما يلقى من سلك سبيلاً، ماشياً أو راكباً، مثل الله لهم ما أعد من العذاب والبلاء.

تم جواب مسألته

---

(١) في ب: شديداً. (٢) الانعام: ١٢٥.

(٣) كان من أكابر معاندي الرسول عليه السلام، والمكابرين عن الاهتداء، رغم اقتناعهم بصدق الرسول، ولقد أسلم من أولاده العشرة: خالد، وعمارة، وهشام.

(٤) المدثر: ١١ - ١٧. (٥) المشقة والعذاب. (٦) التعرض: الإقامة.

المسائل ٣٩ - ٤٣

ثم أتبع ذلك «الحسن بن محمد»[١] المسألة عن قول الله «سبحانه»[٢] في التأييد، وذلك قوله لعيسى ابن مريم: **﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾**[٣]، وقوله، للمؤمنين: **﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾**[٤]، في آي كثيرة، فخص الله من يشاء من خلقه من الأنبياء والمؤمنين، ألا ترى أن الله، عز وجل، لم يكِلْهم إلى ما زعمتم أنه جعل فيهم من الاستطاعة؟ وهي الحجة، زعمتم، على جميع خلقه، حتى جاءهم سوى ذلك من أمره، فأيدهم به، ورعب عدوهم، فغلبوا برعبه، ونصرهم فقهروا بنصره، ثم قال، فيما من به على المؤمنين، ويعلمهم ما صنع بهم مما لم يصنعه بغيرهم، فقال: **﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾**[٥]، وقال، أيضاً: **﴿فأنزل الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾**[٦]، فلم يرض لهم ما زعمتم بما جعل من الاستطاعة حتى جاءهم من أمره وعونه سوى ذلك. وقوله، لرسوله: **﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾**[٧]، وقوله لأصحاب الكهف: **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً﴾**[٨]، فلم يرض لهؤلاء ما جعل فيهم من الاستطاعة التي زعمتم أنها حجة على خلقه وأنه يحتج عليهم بما أخذوا أمره وركِبوا معصيته حتى

---

(١) غير موجودة في أ.
(٢) غير موجودة في ب.
(٣) البقرة: ٨٧
(٤) الصف: ١٤.
(٥) الفتح: ٤.
(٦) الفتح: ٢٦.
(٧) الاسراء: ٧٤، ٧٥.
(٨) الكهف: ١٤.

أتاهم من أمره ما بلغوا به ما يشاء من رحمته وهداه، وكذلك هو يفعل ما يشاء، سبحانه وبحمده، يضل من يشاء ولا يُسأل عما يفعل «والخلق»[1] يسألون.

وإن قالوا[2]: أخبرونا عن الأعمال، أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فأنتم تزعمون أن الله خلقها؟ فإن قالوا: كيف نسبها الله إلى خلقه، وجعلهم الذين عملوا، وتكلموا؟ فقولوا[3]: ألا ترون أن الله، عز وجل، قد قال: ﴿**والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً**﴾، وقال: ﴿**وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم**﴾[4]، وأنتم تعلمون أن الناس هم الذين غزلوا ونسجوا السرابيل، وعملوا الدروع، وبنوا البيوت، واتخذوا المَظالَّ، وقد مَنَّ علينا به، وأخبرنا أنه جعله، وذلك أنه ألهمنا بمنته، أن غزلنا، وهو عملنا ذلك، ونسجنا، وعملنا ما عملنا، وأخبرنا أنه قد جعله، فكذلك خلق ما عملنا من طاعة أو معصية ونحن عملناها جميعاً، وكذلك قال، أيضاً: ﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون**﴾[5]، ألا ترون أن الله، سبحانه، خلق الثمرة في الشجرة وأخرجها منها، ونسب الخروج منها إليها؟ وقال: ﴿**تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها**﴾ وكذلك أعمال العباد، خلقها، ثم نسبها إليهم، وأخبر أنهم عملوها.

فإن قالوا: أخبرونا عن العباد، أمجبورون على الأعمال، من الإيمان والكفر والمعصية؟ أم لا؟ فقل: منهم من هو مجبور على ذلك، ومنهم من هو غير مجبور، فأما الذين جبروا على الطاعة فمنهم أهل مكة، افتتحها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قسراً، فأسلموا كرهاً، ولو لم يسلموا قتلهم واستحل دماءهم وأموالهم، فهذا وجه القسر والجبر وأما الوجه الآخر فإن الله، تبارك وتعالى، قد

---

(١) في أ: وهم.
(٢) أي أهل العدل.
(٣) الأمر هنا من محمد بن الحسن بن الحنفية لأصحابه.
(٤) النحل: ٨٠.
(٥) إبراهيم: ٢٤.

قذف في قلوبهم الهدى، وكَرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم قال: ﴿**أولئك هم الراشدون**﴾[1]، وقد قال في كتابه: ﴿**وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾[2].

فإن قالوا: أخبرونا عن المشركين الذين لم يسلموا، أجبروا على الشرك؟ فيقال لهم: إن المشركين لم يريدوا الإسلام فيجبروا على الشرك، ذلك أنهم لو أرادوا الإيمان فأكرهوا على الشرك، كما أراد المشركون الشرك ورضوا به، وأراد الله أن يهديهم فجبرهم على الهدى وهم كارهون فإن قالوا: فإن لم يكونوا مجبورين ولا مكرهين، فهل يستطيع ترك الشرك وقبول الهدى؟ فقل: لا، إلا أن يشاء الله، فإن قال: فكيف لا يكونون مجبورين، ولا يستطيعون أن يتركوا شركهم؟ فقل: كذلك الله يفعل ما يشاء، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا مضل لمن هدى ولا هادي لمن يضل. تمت (مسائل الحسن بن محمد كلها)[3].

أجوبتها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، (عز وجل)[4]: ﴿**وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس**﴾، وقوله للمؤمنين: ﴿**فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين**﴾، وقوله: ﴿**هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم**﴾وقوله: ﴿**فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها**﴾، فكذلك الله، أحكم الحاكمين، أتى نبيه، صلى الله عليه وآله وسلم، بينات كل أمر، وأيده بروح القدس والنصر، وكذلك أيد عباده المؤمنين على أعدائه الفاسقين، وذلك من الله (واجب)[5] للمطيعين.

ألا تسمع كيف يقول: ﴿**ولينصرن الله من ينصره**﴾[6]، وقوله: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾[7]، وقوله: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم**

---

(١) الحجرات: ٧
(٢) آل عمران: ٨٣.
(٣) في أ: مسألة الحسن بن محمد.
(٤) غير موجودة في أ.
(٥) في أ، ب: فواجب.
(٦) الحج: ٤٠.
(٧) محمد: ٧.

تقواهم﴾[1]، فكل من آمن بالله واتقى فقد استوجب من الله الزيادة[2] بالنصر والهدى، وذلك من الله للمؤمنين (عطاء)[3] وجزاء، فكل من آمن بالله وأطاعه في أمره وجاهد أعداءه، فقد ذكر الله، سبحانه، أنه يجازيه على ذلك بما ذكر فيما سأل عنه في هذه الايات من التفضيل بالمعونات.

***

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: **﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لاتجد لك علينا نصيراً﴾**، فإن الجواب في ذلك: أن رسول الله، صلى الله عليه وآله، لم يركن إليهم بترخيص لهم في دينهم ولا إسعاف لهم في شيء من أمرهم، ولا بتولي أحد منهم، ولكنه، صلى الله عليه وآله، كان رحيماً رفيقاً حليماً وَصولاً للأرحام كريماً، كان صلى الله عليه وآله، ربما رق لهم من العذاب الذي أعد لهم ربهم، رحمة بهم، فأنزل الله، سبحانه، عليه تحريم الرحمة لهم، فأمره والمؤمنين بترك الرحمة لأهل المعاصي الفاسقين، فقال: **﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾**[4]، وقال: **﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾**[5]، فثبته الله بما أنزل عليه من ذلك.

فلما أن علم أن رحمتهم لله تُسْخِط، غلظ عليهم، واشتد قلبه عن الرحمة بهم لما أمره الله، سبحانه فيهم، فكان ذلك تثبيتاً منه له عن أن يركن إلى ما يدعوه إليه الكرم والصلة للرحم من الرحمة، لا ما يقول الضالون على الله وعلى رسوله من أنه كاد أن يركن إليهم ويميل بالمحاباة في (صفهم)[6]، ثم قال، سبحانه: **﴿إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾**، يقول: لو رحمتهم ورفقت من بعد نهينا

---

(١) محمد: ١٧.

(٢) عبارة أ: استوجب من الله النصر.

(٣) في أ: فضل

(٤) التوبة: ٧٣.

(٥) النور: ٢.

(٦) في ب: صفوهم، وفي أ: طغوهم.

لك عن ذلك بهم ، لكنت لنا من العاصين وكنت عندنا على ذلك من المعذبين[1] .

***

وأما ما سأل عنه من قول الله ، سبحانه: **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً﴾**، فآخر هذه الاية دليل على تفسير ما سأل عنه في أولها، ألا تسمع منه كيف ذكر عنهم ما ذكر من الإيمان والإخلاص لله الواحد الرحمن، فلما أن آمنوا زادهم إيماناً، وكذلك يفعل الله بعباده المؤمنين، ألا ترى كيف قال: **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم﴾**، فكذلك يفعل الله بمن آمن واتقى، كما يخذل من عند عن أمره وعصى، ولولا ما ركب فيهم من الاستطاعة أولاً ما نالوا زيادة الله لهم في الهدى آخراً، ولكن بما جعل فيهم من الاستطاعة ما يقدرون على الطاعة والعصيان، فآثروا الطاعة ورفضوا المعصية، فصاروا بذلك مؤمنين، فاستأهلوا من الله الزيادة في كل خير والدفع منه عنهم لكل ضير. ألا ترى كيف يقول: **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾**، يقول: لما أن عملوا الطاعة بما فيهم من القدرة والاستطاعة زدناهم من الخير والكرامة.

ثم قال الحسن بن محمد: وكذلك الله يفعل ما يشاء، يضل من يشاء، ولا يسأل عما يفعل والخلق يسألون، فتوهم، ويحه! إن الله، سبحانه، يضل عن سبيل الرشاد قوماً منعهم بالإضلال عن الرشاد وكيف يكون ذلك وقد أمرهم بالاهتداء، وبعث إليهم الأنبياء يدعونهم إلى البر والتقوى، وهم لذلك غير مستطيعين ولا عليه مقتدرين، لقد، إذاً، ظلمهم فيما إليه دعاهم، إذ عنه قد

---

(١) يقول النسفي إن هذه الايات نزلت لما قالت قريش للرسول: «إجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك». والبيضاوي يقول إنها نزلت في ثقيف «قالوا: لن ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفخر بها على العرب.. وقيل في قريش قالوا: لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا وتمسها بيدك» وتفسير الإمام يحيى للآية فيه إكبار لمقام النبوة والنبي وملاءمة للوقاع التاريخية أكثر من هذه التفاسير. تفسير البيضاوي ص ٤٠٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ وتفسير النسفي جـ ٢. ص ٢٤٩، ٢٥٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ.

حجرهم وأغواهم، فتبارك الله عن مقالة الجهال من أهل الجبر والضلال.

* * *

وأما ما تكلم ومَوَّه به فقال: إن سألونا عن أفعال العباد: مخلوقة هي؟ أم غير مخلوقة؟ ثم قال: هي مخلوقة، إذ نسبها الله إليه كما نسب غيرها من أفعالنا إليه، من ذلك قوله: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ وقال: ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم﴾، والسرابيل والبيوت (العباد)[1] يعملونها، وقد نسبها الله، جل جلاله، إليه، فكذلك أعمالنا، هي منا وهي فعله فينا.

فجوابنا في ذلك: إنه بخلاف ما قال، وأنه قد أخطأ في القياس إذ قاس أفعال العباد التي هم فاعلوها ومن بعد العدم أوجدوها إلى ما فعلوا فيه من خَرْز الجلود وعمل الحديد ونسج الثياب التي الله، تبارك وتعالى، خلق أصلها وأوجد أولها وصورها، فلما أن كان الله، سبحانه، الذي أوجد ذلك كله كان هو الجاعل له في أصله والممتن به على جميع خلقه، وأفعال العباد في ذلك (لم)[2] يخلقها الله، سبحانه، ولكن الله أوجد ما ذكر من أصولها، والعباد صنعوا ما صنعوا فيها وعملوا ما عملوا منها، فنسب إليه صنع ما أوجد من هذه الأصول التي (قد)[3] فُرِّغت وجعلت ونقلت، فبين هذا وبين أفعال العباد فرق عند من كان له عقل.

هل رأى أو سمع: خلق، في شيء من الكتاب المنزل، أن الله، سبحانه، ذكر أنه فعل شيئاً مما فعلوه من الفجور والردى، وشرب الخمور وارتكاب الهوى؟ بل نسب ذلك كله إلى فاعله، ونفاه، سبحانه، عن نفسه.

فإن قالوا: إن الله، سبحانه، خلق الأدوات التي تكون بها الأفعال في كل الحالات من الفروج والأيدي والألسن واللهوات، كما خلق الجلود والقطن والحديد والصوف، فنحن نقول: إذ قد أوجد أصل أفعال العباد أن منه أفعالهم، كما نقول إن السرابيل منه إذ أوجد أصولها.

قلنا لهم في ذلك: ليس هذا كذلك، لأن الله، سبحانه، أوجد الأصل الذي

---

(١) في أ، ب: فالعباد (٢) في أ، ب: فلم (٣) غير موجودة في أ.

نقل وصنع وعمل من هذه التي نسبها إليه من الجلود والكرسف[1] والصوف والحديد، والعباد فعلوا الحَدَث الذي صرفوها به وأحدثوه فيها، من عملها ونسجها وصناعتها وغزلها بالأكف والأدوات التي جعلت لهم والاستطاعة التي ركبت فيهم، فالتأم في ذلك جلود وأيد وحركات، فكان الله، عز وجل، الخالق للأيدي والجلود، وكان العباد الفاعلين للحركات الصانعين لتلك المصنوعات. كذلك الله، سبحانه، خلق الحجارة والطين، والعباد بنوا الدور وشيدوا ما بنوا من القصور، فاجتمعت في ذلك الحجارة والأكف العمالة والحركات التي دبرت لها الحجارات، فكان الله، جل ثناؤه، خالق الأيدي والصخور، والعباد أحدثوا الحركات وبنوا الدور، وأفعال الله، سبحانه، (كائنة)[2] عندما يريدها بلا تَخَيُّل ولا حركات ولا تأليف شيء إلى شيء بالأكف العمالات، ففي هذا أبين الفرق بين أفعال المخلوقين وبين أفعال رب العالمين، فما كان من فعل الله فليس من أفعال العباد، وما كان من أفعال العباد فليس من أفعال ذي العزة والأياد.

كذلك لو أن رجلاً سرق صوفاً فنسجه سربالاً وثوباً، لم يعذبه الله سبحانه على حزم الصوف ولا على قبضه به من اليد والكف وإنما يعذبه على أخذه وحوزه عن ربه، واستئثاره عليه به، وما كان من انتفاعه به ولبسه، فعذبه، سبحانه، على ما كان من حركاته وفعله، ولم يعذبه على ما خلق وصور من نفس المسروق وصورته.

وكذلك يعذب الزاني على زناه، والزنا هو الإيلاج والحركة والإخراج ولم يكن الزنا إلا بالفرجين والحركة، فالفرجان فعل الله، والحركة والزنا فعل العبد ذي الفَسالة والردى، فالله، عز وجل، يعذبه على زناه وإدخاله وإخراجه وحركاته لا على ما خلقه له من الفرج، فخلق الله الآلات وما أنعم به على العبد من الأدوات لينالوا به المنافع واللذات من طريق ما أحل لهم لا من وجه ما حرم عليهم، ثم أمرهم في ذلك باجتناب المعصية وحضهم على فعل الطاعة.

* * *

---

(١) القطن.

(٢) في أ، ب: فكائنة.

وأما ما سأل عنه، وفيه قال بالمحال، وقاس على مقاييس الضلال، فقال: قال الله، تبارك وتعالى: ﴿ألم تـر كيـف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾، فقال: ألا ترون أن الله خلق الثمرة في الشجرة فأخرجها منها؟ ثم نسب الثمرة إليها فقال: ﴿تؤتي أكلهـا كل حين بإذن ربهـا﴾؟ فكذلك نقول: إن أعمال العباد، الله، سبحانه، خلقها، والعباد عملوها، ثم نسبها إليهم وأخبر أنهم عملوها.

فقولنا في ذلك: أنه غالط في القياس، أو أراد معنى فأخطأ في مقاله، لأنه مَثَّل ما ليس بمأمور ولا منهي فقاس فعل العباد فيما أوجدوه بفعل الله الذي لم يفعلوه، وإنما قياس الشجرة وما أوجد الله، سبحانه، فيها من الثمرة قياس الناقة والإمرأة، الله، سبحانه، خلق الأولاد فيهما، وهما ولدتا، قال الله، سبحانه، في امرأة عمران وفيما نذرت مما في بطنها للرحمن حين يقول: ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر والأنثى﴾[1]، فقال: (وضعتها)، فنسب الولد وما كان من تخليصها وتسليمها في وضعها لها إليها، والله، سبحانه، الذي جعلها في بطنها وأخرجها بقدرته منها، ولولا إخراجه لها وتخليصه إياها إذاً لم تخلصها أبداً أمها، قال الله، عز وجل: في ذلك: ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾[2]، فلا يشك أنه المخرج والمخلص للولد من الظلمات الثلاث، من المشيمة، والرحم، والبطن، قال الله، سبحانه: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون﴾[3] وقال، جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾[4]، فنسب إليهما ولادتهما إياه، إذ كان الخارج منهما والمصور فيهما، والله، سبحانه، المصور له والمقدر تصويره وخلقه، فكذلك نسب إلى الشجرة ايتاء أكلها، وهو الخالق لها ولثمرها.

---

(١) آل عمران: ٣٦.

(٢) الروم: ١٩.

(٣) الزمر: ٦.

(٤) العنكبوت: ٨.

فأما قياس أفعال العباد التي نهوا عنها وأمروا بها وعوقبوا عليها وأثيبوا بها فليس هذا قياسها، وسنأتي به ونذكر، إن شاء الله، ما هو مثلها، فنقول لمن قال: إن الله، سبحانه، خلق أفعال العباد وركبها فيهم وأنطقهم وقضى بها عليهم، ثم نسبها إليهم: ما تقول إذا قلت ذلك، وكان الأمر عندك كذلك، في مشرك أشرك بالله وجحده؟ وفي قتل من قتل الأنبياء بغير حق؟ الذين قال الله فيهم: ﴿**ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس**﴾[1]، الله فعل ذلك بهم كما فعل غيره من (أفعالهم)[2]؟ فإن قالوا: نعم، الله فعله وخلقه وقضاه وركبه، فقد زعموا أن الله، عز وجل، كفر بنفسه، وأمر بالشرك به، وقتل أنبيائه وهذا (أكفر)[3] الكفر وأجهل الجهل بالرحمن، عز وجل، عند كل من عرف الحق وكان ذا إيمان. وإن قال: لا، رجع عن قوله، وتاب إلى ربه، وإن قال: فعل الطاعة وخلق بعض المعصية ولم يفعل عظائم العصيان ولا فوادح ما نأتي به من الكفران، قيل له: فلا نراك إلا قد أثبت للعبد فعلاً لا محالة دون الرحمن، فإن جاز أن يكون من العبد فعل لم يخلقه الله ولم يفعله جاز أن تكون له أفعال كثيرة وأمور جمة غير يسيرة والأمر في ذلك (على)[4] قولنا لا على قولك، وشرحنا، بحمد الله، لا شرحك، لأنك قد أجمعت معنا على قولنا إذ قد أقررت لنا ببعض فعلنا ونفيته عن خالقنا وربنا، ونحن لا نطيعك في قليل من ذلك ولا كثير ولا ننسب إلى الله من أفعال عباده عظيماً ولا حقيراً. فهذا قياس ما إليه ذهب، لا ما ارتكب فيه من المحال والعطب.

* * *

(ثم قال)[5] إن قال قائل: خبرونا عن العباد، أمجبورون على الأعمال، من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية والغدر؟ أم لا؟ فقل: منهم من هو مجبور على ذلك، ومنهم من هو غير مجبور، فأما الذين أجبروا على الطاعة فهم أهل مكة، افتتحها رسول الله، صلى الله عليه وآله، قسراً، فأسلموا لذلك كرهاً، ولو لم

---

(١) آل عمران: ٢١.
(٢) في ب: إجرامهم.
(٣) في أ، ب: فأكفر.
(٤) في أ، ب: فعلى.
(٥) عبارة ب: قال: ثم

يسلموا قتلهم واستحل دماءهم وأموالهم، فهذا وجه القسر والجبر، وأما الوجه الآخر، فإن الله قذف في قلوبهم الهدى وحبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم قال: ﴿**أولئك هم الراشدون**﴾، ثم قال: ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكراهاً وإليه يرجعون**﴾.

فردنا عليه فيما يقول أنا نقول: الحمد لله على ما رزقنا من العقول، والفهم بما نقول، فيا ويح الحسن بن محمد! (الجاهل المجبر في أمره الغافل[1] بينا يقول: إن الله يجبر العباد على الطاعة له والانقياد، إذ رجع فصرف ذلك إلى الرسول، فيا ويح ذي الجهل! من نازعه في ذلك؟ أو من ذا الذي لم يكن من أضداده قوله لذلك، ألا يسمع قول الله، سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه، فيمن أكرهته قريش على الكفر والعصيان ودعته إلى الخروج من الحق والإيمان، وصالت عليه بصولتها، وأذاقته ما قدرت عليه من أليم عقوبتها، حتى أعطاهم ما أرادوا بلسانه وقوله، وقلبه مخالف لما لفظ به من مقاله، مطمئن بالإيمان، مخالف لدين أهل العصيان، فقال في ذلك الرحمن: ﴿**إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم**﴾[2]، وكان الذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان عمار بن ياسر «رحمة الله عليه»[3]، ذو المعرفة بالله والإيمان، فلا يشك مميز عاقل، ولا ينكر ما قلنا به جاهل، من أن الخلق يكره بعضهم بعضاً على القول والفعل لما لا يحب ويرضى وإن[4] كان ضمير القلوب مخالفاً للكلام، وهذا «موجود»[5] في لغة جميع الأنام، فأما علم الضمير فلا يطلع عليه إلا الواحد القدير.

***

ثم قال: إن معنى قوله، سبحانه وجل عن كل شأن شأنه: ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون**﴾، هو جبر منه لهم على إسلامهم،

---

(١) عبارة ب، وتجاهل في أمره الغافل الجاهل الوسن.
(٢) النحل: ١٠٦.
(٣) غير موجودة في أ.
(٤) في ب: فان.
(٥) في أ، ب: فموجود.

وإخراج لهم من ضلالهم وكفرانهم، بالجبر والتحويل والقسر، واحتج في ذلك بقول الله، سبحانه: ﴿**وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان**﴾، فلا تأويل، معنى الإسلام من الخلق، أصاب، ولا في معنى ما ذكر الله، عز وجل، من التحبيب والتكريه أجاب. وإنما معنى قول الله، سبحانه: ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾، هو المعرفة به والإقرار بربوبيته، وأنه الخالق غير مخلوق، والرازق غير مرزوق، كما قال، سبحانه: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله، فأنى يؤفكون**﴾[1]، فهذا معنى ما أراد «الله»[2]، والله أعلم، بقوله ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض**﴾ ﴿**طوعاً وكرهاً**﴾[3]، لأن الإسلام يخرج في اللغة على معنيين:

«**أحدهما**»[4]: الإقرار بفعل الفاعل والتسليم له وترك المكابرة له في فعله والمعاندة له بالإنكار لما يحدث من صنعه.

والمعنى الثاني: «هو»[5] الاستسلام لأمر الأمر والانفاذ لما حكم به والانقياد لجميع ما قيد إليه وصرف من الأفعال فيه.

فعلى المعنى الأول يخرج تفسير الاية لا على المعنى الثاني الذي توهم الحسن بن محمد أن عليه يخرج معناها، ولو كان ذلك كلذلك أو قارب شيئاً من ذلك لكان جميع الخلق لله مطيعين وفي أمره، سبحانه، متصرفين، طائعين كانوا أو كارهين، ولو كان كما يقول هو ومن معه من الجاهلين إذا لما وجد أنبياء الله لله في الأرض عاصين، ولكان الله، تبارك وتعالى، بإكراهه لهم على طاعته وإدخالهم قسراً في مرضاته مجتزئاً مُكْفياً عن نهيهم عن معصيته، ولما احتاج الخلق إلى المرسلين، ولما حذرهم الله ما حذر من مردة الجن والعالمين.

وأما قوله: ﴿**طوعاً وكرهاً**﴾، فالمطيع منهم في ذلك هو من أطاع الحجة المركبة فيه والشاهدة بالحق له وعليه، من اللب الذي ينال به التمييز بين كل

---

(١) العنكبوت: ٦١.
(٢) غير موجودة في ب.
(٣) غير موجودة في ب.
(٤) في أ، ب: فاحدهما.
(٥) في أ، ب: فهو

شيئين، ويثبت له به الرضى والسخط في الحالين، فمن أنصف لبه، وقبل ما أدى إليه معقوله، من معرفة ربه، كان منصفاً طائعاً، متحرياً للحق خاضعاً، والمكره «هو»[1]. من كفر وتعدى. وكابر لبه وأبى، وعنّد عن الحق وأساء، حتى أدركه البلاء، واشتد عليه الشقاء، ونزلت به النوازل، واغتال لبه في ذلك الغوائل، ورجع صاغراً إلى إنصاف لبه، ولجأ فيما ناله إلى ربه، واستسلم وأسلم له كما ذكر ذو الجلال ممن تعدى في الغي والمقال حين يقول، ويخبر عنهم ويقص ما كان من أخبارهم، حين يقول ويخبر عن فرعون، «حين يقول»[2]، فقال **﴿حتى إذا أدركه الغرق، قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾**[3]، ومثل قوله: **﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾**[4]، ومثل قوله: **﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾**[5].

أما معنى تحبيب الله، عز وجل، إلى العباد الإيمان وتكريهه للكفر والفسوق والعصيان، فهو بما جعل وحكم لمن آمن واتقى من الجنان والنعيم والجزاء والإحسان، وبما كان يريهم ويشرعه لديهم من نصر المؤمنين والإظهار لحجتهم والاعزاز لدينهم. والتكريه منه لما ذكر، فهو بما أوجب على فاعل ذلك من العقوبات في الآخرة بالنيران، وفي الدنيا بالقتل والسبي والذل والخذلان، فلما جعل ما جعل من الثواب للمؤمنين، وما أعد وحكم بما حكم به من العقاب على الكافرين، رَغِب الراغبون في الثواب وأوجبوا له الإيمان وآمنوا، وهاب واتقى وخاف العقاب الخائفون، فاتقوا وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان لخوف العقاب فاهتدوا، وزهدوا أهل الكفر في كفرهم، لما يرون من ذلهم وصغارهم، وظهور الحق والمحقين واعتلائهم، فتركوا الفسوق ودخلوا في الحق، فهذا إن شاء الله، معنى ما ذكر من ذلك العلي الأعلى، لا ما قال وذهب إليه أهل الإفك[6] على الله وقالوا فيه من الجبر للمخلوقين على ما يكون من أفعالهم والإدخال لهم بالقسر في

---

(1) في أ، ب: فهو.
(2) غير موجودة في أ.
(3) يونس: ٩٠.
(4) العنكبوت: ٦٥.
(5) الروم: ٣٣.
(6) في ب بدون: أهل.

فاحش أعمالهم من «الغي»[1] والفجور والمنكرات والشرور، والحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وسلام على المرسلين.

***

ثم قال: إن قال قائل: خبرونا عن المشركين الذين لم يسلموا، هل جبروا على الشرك؟ قيل له: إن المشركين لم يريدوا الإسلام فيجبروا على الشرك، وذلك لو أنهم أرادوا الإيمان وأكرهوا على الشرك، كما أراد المشركون الشرك ورضوا به، وأراد الله، جل ثناؤه، أن يهديهم فجبرهم على الهدى وهم كارهون. ثم قال: فإن قال «قائل»[2]: فإن لم يكونوا مجبورين ولا مكرهين، فهل يستطيعون ترك الشرك وقبول الهدى، فقُلْ: لا، إلا إن شاء الله. فزعم في آخر قوله أنهم لا يستطيعون ترك الشرك وقبول الهدى، فأبطل حجته وقوله أولاً حين يقول: إنهم إنما يكونون مجبورين على الشرك لو أرادوا الهدى فمنعوا منه وأدخلوا في الردى، فأثبت هذا القول لهم الفعل، وأقر أنهم يقدرون على فعل ما لا يريد الرحمن حتى يجبرهم على غيره من الشأن، لأن الإرادة والنية فعل لصاحبهما، ولذلك ما روي عن النبي، صلى الله عليه وآله، يعطي ويثاب فيها وعليها.

***

وإذا صح أن العباد يفعلون ويريدون ما لا يشاء ربهم حتى يجبرهم على غير ذلك من فعلهم، فقد بطل ما «يخرِصُه»[3] الحسن بن محمد من زخرف قوله، وثبت وصح ما يقول به أهل المعرفة بالله من العدل بإقراره، ثم زعم أن من لم يقدر على ترك الشرك والكفر بربه غير مكره ولا مجبور على ما هو فيه من فعله، وهذا «عين»[4] المحال، وأفحش ما يقال به من المقال، وإبطال المعقول، والمكابرة لصحيح العقول، لأن من حيل بينه وبين القيام لسبب من الأسباب، فقد جبر على العقود بلا شك ولا ارتياب، وكذلك من أوقدت له نار ثم ألقي فيها، ومنع من التحرف عنها، وحيل بينه وبين الخروج منها، فقد جبر وجبل على الاحتراق فيها، وكذلك الطير

---

(1) في ب: البغي.
(2) غير موجودة في أ.
(3) في ب: يحوطه.
(4) في أ، ب: فعين.

إذا قص جناحاه الخافقان، فقد حيل بينه وبين ما يريد من الطيران، وكذلك من لم يجعل فيه، من الخلق، استطاعة فعل، فقد حيل بينه وبينه، لا يشك في ذلك عاقلان، ولا يختلف فيه جاهلان.

وأما ما سأل عنه من قوله، وكذبه على ملائكة ربه، فقال: خبرونا عن الاستطاعة التي تزعمون أن الله، جل ثناؤه، جعلها في عباده حجة عليهم، وأنها مركبة فيهم ليعملوا أو يتركوا، هل جعلها في الملائكة المقربين؟ أم لا؟ ثم قال: فإن قالوا: نعم: «قد»[1] جعلها فيهم وامْتَنَّ بها عليهم، فقولوا لهم: فأنتم إذاً لا تدرون عن الملائكة هل بلغت؟! أم لا؟ أم هل أدت ما أمرت بأدائه؟ أم هل قصرت في شيء مما أمرت به؟ إذ تزعمون أنها قادرة على ما تهوى تاركة لما تشاء.

فقولنا في ذلك: إن الله، سبحانه، ركب الاستطاعة في عباده وجعلها في جميع خلقه المأمورين المميزين، ومنهم الملائكة المقربون، صلوات الله عليهم، ثم أمرهم ونهاهم من بعد أن أوجد فيهم ما أوجده، سبحانه، في غيرهم من الاستطاعة الكاملة والنعمة الشاملة، وأمرهم ونهاهم، ولولا ما ركب فيهم من الاستطاعة لما جرى أمره عليهم، من ذلك قوله: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**﴾[2]، فأمرهم بالسجود من أجله، ولما رأوا ما ابتدع من جليل صنعه، ولعظيم ما فيه من قدرته، إذ خلقه من طين من صلصال من حَمَأٍ مسنون، والمسنون «هو»[3] ما داخله الأُجُون[4] فأَسِنَ لذلك وأجن وتغير فصار لما فيه من الأجون حمأ، كما ذكر الله، مسنوناً، ثم صوره رجلاً، ثم نفخ فيه الروح فصار جسماً متكلماً لحماً وعروقاً وعظاماً ودماً يقبل ويدبر ويورد ويصدر بعد أن كان طيناً لازباً، فسجد الملائكة، عليهم السلام، لله المهيمن ذي الإنعام من أجل ما أحدث في آدم، صلى الله عليه، من الخلق، وجعله أباً لكل الخلق، فكانوا بائتمارهم في ذلك لله مطيعين، وعليه مثابين، ولأمر الله مؤدين، ولو لم يكن فيهم استطاعة ولا ما

---

(١) في أ، ب: فقد.

(٢) البقرة: ٣٤، الاسراء: ٦١، الكهف: ٥٠، طه: ١١٦.

(٣) في أ، ب: فهو.

(٤) هو الماء المتغير لوناً وطعماً.

يقدرون به على السجود من الإله لم يأمرهم، سبحانه، بما لا يستطيعون، ولم يكلفهم العدل الجواد ما لا يطيقون، لأنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين وأعدل العادلين، وليس ما ذكر المبطلون، وقال به الضالون، من صفات الرحيم، ولا من أفعال العزيز العليم، لأن من أمر مأموراً بأن يفعل مفعولاً لا يقدر على فعله، كان بلا شك ظالماً له في أمره، وكان قد كلفه في ذلك محالاً، وكان له بذلك غاشماً ظالماً، وليس الله بظلام للعبيد، كما قال في ذلك ذو الجلال الحميد: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾[1]، وقال، سبحانه: ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾[2]، فيا سبحان الله!!، ما أجهل من نسب ورضي لربه ما لا يرضاه وما لا ينسبه إلى نفسه من تكليف العباد ما لا يطاق، ثم رضي ذلك ونسبه إلى الواحد الخلاق، كما قال الله، جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿**وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم**﴾[3]، فأخبر، سبحانه، أنهم كانوا ينسبون إلى الله اتخاذ البنات ولا يرضون بهن لأنفسهم ولا يحبون الإناث، بل إذا رُزِق أحدهم بما رضيه لربه، بانت الكراهية منه في وجهه، فشابهوهم في فعلهم، واحتذوا في ذلك بقولهم، فقالوا: إن الله يكلف عباده ما لا يطيقون فعله، ويعاقبهم على ترك ما لم يقدرهم على صنعه، وهم ينفونه عن أنفسهم، ويبرءون منه أخس عبيدهم، فسبحان من أمهلهم وتفضل بالانتظار لهم.

ثم قال: ما يدريكم أن الملائكة مستطيعون، ولما يشاءون من الأعمال متخيرون، وعلى العمل والترك قادرون؟ لعلهم قد تركوا بعض ما به أمروا، وقصروا في أداء بعض الوحي، وفرطوا في نصر النبي والمؤمنين، وفي غير ذلك مما أمرهم به رب العالمين.

فقولنا في ذلك له[4]: إنا علمنا براءتهم، صلوات الله عليهم، وإنفاذهم لكل ما أمرهم به ربهم، على ما أمرهم به، غير مفرطين في شيء منه، لقوله فيهم، سبحانه، وثنائه بما أثنى عليهم من ترك التفريط في أمره والاستقصاء في كل إرادته،

---

(١) فصلت: ٤٦.

(٢) الكهف: ٤٩.

(٣) الزخرف: ١٧.

(٤) عبارة ب: فقولنا له في ذلك.

والتقديس له والتسبيح الليل والنهار، وذلك «قول»[1] الواحد الجبار: **﴿له من في السموات والأرض، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾**[2]، وفي ترك التفريط فيما أمرهم به رب العالمين، ما يقول، سبحانه، في القرآن المبين: **﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا، وهم لا يفرطون﴾**[3]، ويقول، تبارك وتعالى، فيهم، ويثني بما يعلم من أفعالهم عليهم، حين يقول: **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**[4]، وفي ذلك ما يقول، سبحانه، ويحكي عن المبطلين بما قالوا في الله رب العالمين، حين يقول: **﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، سبحانه، بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾**[5]، فوجدناه، تبارك وتعالى، يذكر الاجتهاد منهم له عنهم، فقلنا فيهم بما قاله ربنا وربهم، فتعالى أصدق الصادقين عن مقالة الفسقة الجاهلين.

ومن الدليل على معرفة «حقائقهم»[6] والوقوف على محض فعلهم واجتهادهم تولي الله لهم ومعاداته لمن عاداهم، ألا تسمع كيف يقول، الواحد ذو الجلال والطول: **﴿من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾**[7]، فذكر، سبحانه وجل عن كل شأن شانه، أنه عدو لمن عاداهم، وإذا صحت العداوة والمقاضاة منه لمن ناضاهم[8] فقد ثبتت منه الولاية بلا شك لمن والاهم، ألا تسمع كيف جعل من عاداهم فاجراً؟ وسماه في واضح التنزيل كافراً؟ حين يقول في آخر الأية، جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: **﴿فإن الله عدو للكافرين﴾**، ولن يوالي أبداً من كان في أمره مقصراً، ولن يشهد بالوفاء لمن كان عنده، سبحانه، غادراً، فبهذا ومثله من تنزيله، مما قد ذكره وبينه في وحيه وقبله، شَهِدْنا للملائكة المقربين بالاجتهاد في الطاعة لرب العالمين.

---

(1) في أ، ب: فقول.
(2) الانبياء: ٢٠.
(3) الانعام: ٦١.
(4) التحريم: ٦.
(5) الانبياء: ٢٦.
(6) في أ: أحقاقهم
(7) البقرة: ٩٨.
(8) المراد: شاقهم.

ثم قال تغليظاً لمن كان معه على رأيه من أهل الجهالة وذوي الحيرة والتكمه والضلالة، نسأل من أثبت في الحق الاستطاعة، فيقال لهم: هل يثيب الله خلقه على ما عملوا من الطاعة، مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟ «ثم قال»[1]: وهل يعاقبهم على ما عملوا به من معصيته؟ فبيَّن بهذه الكلمات الأخرات في المعصية حتى ما تكلم به في كلمات الطاعة من فظيع ما جاء به من الكفر في قوله، والتظليم لله ربه، وبين جهله لتُبَّاعِهِ دون غيرهم ممن هو على خلاف رأيه ورأيهم، حين يقول: هل يثيب الله خلقه على ما عملوا به من الطاعة مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟، ثم قال: وهلي يعاقبهم على ما عملوا به من المعصية؟ فبيَّن مسألته الثانية في المعصية ولم يتمها، كما أتم المسألة في الطاعة، خوفاً من أن يشهد وينطق على نفسه بالكفر والفضيحة، وذلك أنه كان يجب عليه أن يتم الثانية كما أتم الأولى فيقول: وهل يعاقبهم على ما عملوا به من معصيته مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟، ولو كان ذلك في الله، سبحانه، لكان الله، سبحانه، المُدْخِل للعاصين في المعصية، المكره لهم عليها، ولو كان ذلك كذلك، تعالى الله عن ذلك، لم يكن في الخلق لله عاص، بل كان كلهم في أمر الله نافذاً ماضياً، ولم يكن إبليس عند الله بمذموم، ولا محمد، صلى الله عليه وآله، بمحمود، ولم تكن الملائكة المقربون بأحمد عند الله من مردة الشياطين، إذ كل لا سبيل له إلى غير ما يفعل، ولا حيلة له من العمل في غير ما يعمل، لحَتْم الله وقضائه بذلك عليهم، وإدخالهم، بقضائه فيه، وحملهم وجبرهم وقسرهم عليه، فتعالى الله عما يشركون، وتقدس عما يقول المبطلون.

* * *

«تمت مسائل الحسن بن محمد بن الحنفية في تثبيت الجبر والتشبيه والإلحاد، ورد الهادي إلى الحق أمير المؤمنين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليهم السلام، عليه، ونفى ذلك عن الله، سبحانه، وإثبات العدل له والتوحيد،

---

(١) غير موجودة في أ.

وتصديق الوعد والوعيد»[1] «والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين وسلم»[2].

«فرغ من تحريره في شهر جمادى الأولى
من سنة إحدى وأربعين وألف»[3].

(1) غير موجودة في أ.

(2) عبارة أ: «والحمد لله رب العالمين، وصلواته على خير خلقه أجمعين: محمد وآله الطاهرين الاخيار الصالحين الابرار المنتخبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. تم وكمل بحمد الله تعالى وعونه وتوفيقه ومنه. قال في الاصل: فرغ من كتابته أول شهر محرم سنة ست وسبعين وأربعمائة».

(3) غير موجودة في أ، بالطبع، وهي تأريخ لزمن نسخ النسخة ب.

الجملة

أي جملة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وهو الذي لا يمكن الأوهام أن تناله، ولا العقول أن تختاله، ولا الألسن أن تمتحنه، ولا الاسماع أن تشتمله، ولا الأبصار أن تتمثله.

إن الله تبارك وتعالى، اصطفى الإسلام ديناً، فلم يؤامر فيه مَلَكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، ولم يجعله بأماني الناس، ولم يتبع الحق أهواءهم، ولكنه اصطفى من الملائكة رسلاً إلى من انتخبه من خلقه فبعثهم أنبياء يدعون الناس إلى خلع الأنداد وترك عبادة الأصنام، وأن يُخلَع كل معبود من دون الله، تبارك وتعالى، ثم كلف جميع خلقه، الذين حَمَّلهم الدين فكلفهم إياه وأقام عليهم حجته، أن يعلموا أنه أحد صمد **﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾**[1]، وأنه لم يزل ولا يزول، ولا يتغير من حال إلى حال، ولا تقع عليه الاوهام، ولا تقدره العقول، ولا تحيط به الأقطار، ولا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأنه العالم الذي لا يجهل، والقادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يغلب، والدائم الذي لا يبيد، والحي الذي لا يموت، والحليم الذي لا يعجل.

وأنه الأول الذي لا شيء قبله، والاخر الذي لا شيء بعده.

وأنه القديم وما سواه مُحْدَث، وأنه الغني وما سواه فقير، وأنه العزيز وما سواه ذليل، وأنه الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، وأنه العدل في قضائه، الجواد في عطائه، الناظر لخلقه، الرحيم بعباده، الذي **﴿لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة**

(١) الإخلاص: ٣، ٤.

يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾[1] وأنه خلق خلقه لعبادته من غير حاجة منه إليهم ولا منفعة تصل إليه من عبادتهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ولكنه تفضل عليهم بخلقه إياهم، وأنه طوّقهم[2] وقواهم، ثم أمرهم ونهاهم، فلم يكلف أحداً فوق طاقته، ولم يعذبه على غير معصيته، ولم يمنع أحداً ما ينال به طاعته وينتهي به عن معصيته وينجو به من عذابه ويصير به إلى ثوابه، ولم يقض شيئاً عابه، ولم يلم أحداً على شيء من تدبيره «وتقديره»[3] ولم يعذب أحداً على أمر خلقه وأراده ولم يرد ما «يسخطه»[4]، ولم يغضب مما كونه، ولم يكره شيئاً أراده، ولم يرض الكفر لعباده، ولم يحب الفساد لعباده ولا الجهر بالسوء من القول، ولم يأمر بما لا يريده، ولم ينه عما يريده.

وأنه أمر بالطاعة ونهى عن المعصية، وأن كل ما أمر به منسوب إليه وكل ما نهى عنه فغير مضاف إليه ولا منسوب، وأنه لم يأخذ أحداً على الغرة، ولم يعذب إلا بعد قيام الحجة، فأثاب على طاعته، وعذب على معصيته، فلن تزر وازرة وزر أخرى في حكمه، **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾**[5].

وأن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأشرفهم عند الله أكثرهم طاعة لله، وأنه لا ذل ولا صغر في الجنة، ولا عز ولا شرف في النار، وأنه صادق الوعد والوعيد في أخباره كلها.

وأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا خلف لوعد الله، وأنه لا يبدل القول لديه، وأنه **﴿لا يخلف الميعاد﴾**[6]، وأن قوله أصوب الأقاويل، وأن حديثه أصدق الأحاديث.

وأنه أنزل على محمد كتاباً مهيمناً، بلسان عربي مبين، وأنه **﴿لا يأتيه الباطل**

---

(١) النساء: ٤٠.
(٢) أي جعل لهم طاقة.
(٣) غير موجودة في ب.
(٤) في ب: أسخطه.
(٥) النجم: ٣٩.
(٦) آل عمران: ٩.

من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[1]، وأحل فيه الحلال، وحرم الحرام، وشرع فيه الشرائع، ثم قال: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم﴾[2].

فدعى محمد الداعي إلى معرفة الله والإقرار بربوبيته، وإلى خلع كل معبود من دون الله، وإلى معرفة نبوته والإقرار بذلك ظاهراً وباطناً، حتى يشهدوا بألسنتهم وقلوبهم أن لا إله إلا الله، وان محمداً عبده ورسوله، وإلى الإقرار بما جاء من عند الله، والأداء لجميع ما افترض الله عليهم، والإيمان بملائكته ورسله وكتبه، والإيمان بالبعث والموت والحساب والجنة والنار، وأن يقيموا الصلوات الخمس في مواقيتها بحسن طهورها وإسباغ وضوئها وتكبيرها وخشوعها وقراءتها وركوعها وسجودها، والغسل من الجنابة بماء طاهر، ووضوء وغسل إذا أمكن الماء، وإلا فالتيمم بالصعيد الطيب «وصيام»[3] شهر رمضان باجتناب الرفث[4] والفسوق[5] والعصيان، وغض البصر، والحج إلى بيت الله الحرام، من استطاع إليه سبيلاً، والسبيل: الزاد والراحلة للأصحاء البالغين.

والجهاد في سبيل الله بنية صادقة، ونصحاً لله ولدينه وللمؤمنين عامة، والبغض في الله، وموالاة أولياء الله، من دان بدين الله واعتصم بحبل الله، والمعاداة لأعداء الله، من كفر بالله وفجر في دين الله، وتحريم دماء المسلمين[6] وأموالهم، وأذاهم، ومؤازرتهم على الإيمان، واستحلال دماء الكفار على ما كان يستحله منهم رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ما خلى من أعطى الجزية من أهل الذمة من المجوس والنصارى والصابئين.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإظهار الحق بقدرة، فمن لم يستطع

---

(١) فصلت: ٤٢. (٢) الانفال: ٤٢. (٣) في أ: وصام.

(٤) الرفث، هو قول الفحش والمراد: الجماع.

(٥) المسوق، هو الفجور والخروج عن جادة الحق.

(٦) في ب نجد فوق كلمة المسلمين كلمة: المؤمنين، وليس هناك شطب لاحداهما وفي أ نجد «المؤمنين» فقط. ونحن نلاحظ أن المؤلف يؤثر كلمة «المؤمنين» على كلمة «المسلمين» إذا كان الوصف لغير الفاسقين الذي يعصون الله ويرتكبون الكبائر مع انخراطهم في موكب أهل القبلة.

فلا جناح عليه، وأداء الزكاة على شرط رسول الله، ﷺ، وتنفيذ الصدقات ووضعها على ما أمر الله في كتابه من قوله: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب**﴾ الاية[1]، ووضع الفيء والغنيمة على ما أمر الله في كتابه من قوله إذ يقول: ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى**﴾[2]، وإلى تحريم ما حرم الله في كتابه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، إلى قوله: ﴿**بالأزلام**﴾[3]، وإلى اجتناب الخمور، وشهادات الزور، وقذف المحصنات والفرار من الزحف، والبخس في المكيال والميزان، «ومنع»[4] ما حرم الله من نكاح الأمهات والبنات والأخوات، وما ذكر معهن، إلى قوله: إلا ما قد سلف[5]. وأشباه ذلك مما قد ذكر الله من تحريم الزنا وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وأكل أموال اليتامى ظلماً وإتيان الذُّكْران من العالمين، وأخذ الرشا في الحكم، وتعطيل الحدود، والسرقة، والخيانة.

---

(١) التوبة: ٦٠، وتمام الاية: ﴿.. والغارمين في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾.

(٢) الحشر: ٧، وتمام الاية: ﴿... واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾.

(٣) وهي الاية ٣ من سورة المائدة، حيث يقول الله، سبحانه: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما زكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام﴾ والازلام جمع زلم وهي الاقداح الثلاثة كانوا يجرون القرعة عليها ليقرروا المضي فيمايعزمون عليه أو العدول.وكان يكتب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الاخر: نهاني ربي، وكان الثالث غفل من الكتابة، وفي حالة خروج الاخير يجيلون القرعة ثانية راجع (تفسير البيضاوي) ص ١٦٧.

(٤) في الأصل: مع.

(٥) وهي الايات ٢٢، ٢٣، من سورة النساء حيث يقول الله، سبحانه: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف، انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً، حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف أن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

من لم تبلغه الدعوة

فإن كان في الدنيا أحد لم تأته الأخبار، فعلم أنه وما أشبهه مخلوق، وأن الله خالقه وخالق الخلق، وأنه قديم وما سواه محدث، وأنه لا شبه له ولا نظير، وأنه عدل لا يجور، وحكم لا يظلم، فقد أصاب جملة التوحيد والعدل.

فإن شبهه بعد ذلك بشيء، أو شَكَّ في أنه يشبه شيئاً، أو ظن أنه يظلم ويجور، فقد نقض جملته وخرج مما دخل فيه.

من بلغته الدعوة

وأما من أتته الأنباء والأخبار، وقامت عليه الحجة بالرسل والكتب و«الاثبات»[1]، فإذا هو عرف الجملة وأقر بها، وعرف الرسول وشهد الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأقر بجميع ما يأتي به النبي، صلى الله عليه وآله، من عند الله، وأنه الحق، وضمن أداء جميع ما فرض عليه، فهو بعد مؤمن مسلم. فإن جحد شيئاً من تلك الأصول المنصوص عليها، أو شك فيها، بعد قيام الحجة عليه فقد نقض جملته، وصار بذلك من الكافرين.

ومن العلم بدين الله عندنا معرفة النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومعرفة من هو، ومِمَّن هو، وأنه لا نبي بعده، وأنه لم يكن يعلم الغيب، ولا ينتحله أحد دون الله بعده، وأن القرآن كتاب الله، وأنه أخبر فيه أن حجته بالغة، وأنها عند جميع الناس في لغاتهم معروفة، وأن أنبياء الله لم يزل يُحتَج بها، ويقر أنها من خالقها، وأنهم جميعاً جاءوا بالبينات والآيات، وهن الحجج، وأن تلك الحجج ميراث الأنبياء يورثونها أتباعهم. وأن الله أبان رسله بالأعلام[2] والدلالة التي لا يقدر الخلق عليها، ولا تكون إلا من فعل الخالق، كإحياء الموتى، وإلقاء العصا فصارت حية تسعى، وكمجيء الشجرة، وكلام الذئب، وأن هذا ما لا يعطاه أحد

---

(١) رسمها في أ ، ب هكذا: والانبا.

(٢) أي المعجزات.

إلا الأنبياء والرسل، وأن أتباع الرسل إنما يخبرون عن حجج الرسل ويدعون إليها الناس ويحتجون عليهم بها.

وأن مما احتج الله به أن جعل كتابه عربياً مبيناً، بلغة العرب وكلامهم، وجعله مع ذلك لا يشبه الشعر ولا الرسائل ولا الخطب ولا السجع، ولكنه أبانه من ذلك كله، فلا يطيق أحد أن يأتي بمثله.

وأن الله قد أقام سنة نبيه فيما لم يبينه في الكتاب مفسراً مشروحاً، من عدد الصلوات وأوقاتها وحدودها، وتفسير الحج والعمرة، وأن ذلك لا يكون إلا في الكعبة.

وأنه جعل الزكاة في الأموال، تؤخذ من الأغنياء وتوضع في الفقراء، وأنه لا يحل أخذ مال أحد من أهل الصلاة إلا بطيب من نفسه أو بالميراث أو بفرض يلزمه أو بحق يجب عليه، وإن فجروا وضلوا بالحدود، ما لم يخرجوا من الملة وحكمها، وحرم منهم الدماء وجميع الجراحات إلا ما أحل الله من إقامة الحدود على من أصابها ممن أقر على نفسه في صحة من عقله، أو قامت عليه بذلك بينة، عل ما بينه الله في كتابه وسنة رسوله، عليه وعلى آله السلام.

وأن القصاص سواء بين أهل الملة جميعاً فيما بين شريفهم ووضيعهم وأبرارهم وفجارهم ما لم يخرجوا من الملة. وأن الله أوجب عليهم الامتناع من الظلم إذا قدروا، ومعونة المظلومين إذا استطاعوا، ولا يتعدوا في ذلك ولا في غيره حد الله.

وأن الصيام في شهر معلوم، شهر رمضان، سوى ما يجب لله من كفارة اليمين والظهار وقتل الخطأ وفي التمتع بالعمرة إلى الحج إذا لم يجد الهَدْي[1]، وفيمن أوجب على نفسه نذراً، وفيما أوجب على المسافر والحائض من قضاء ما فاتهم من شهر رمضان، وكذلك المريض.

وفيما «ينفقون»[2] ويأتون من الطعام والشراب والنكاح ومن الغسل من الجنابة.

---

(١) الذبيحة.

(٢) في ب رسمها هكذا: ينفون، وفي أ رسمها غير واضح.

وأن من الكتاب ناسخاً ومنسوخاً، نحو أمر القبلتين، وإمساك النساء الفواجر في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً.

وأن من تعمد أن يخبر بما يعلم أنه لم يكن فيقول: إنه قد كان، أو بما يعلم أنه لا يكون فيقول إنه يكون أو يقول قد كان فهو كاذب، أو بما لا يعلم أو بما لا يفعل فهو جاهل، وأن الله من ذلك بريء.

وأن شرائع الأنبياء كانت مختلفة، وأنها على اختلافها يجمعها اسم الدين والطاعة والإيمان والهدى والتقوى والبر والإحسان، وأن بعضهم لم يقصص علينا باسمه، ولم يبين لنا في كتابه ولا سمى نبياً بعينه، وإن علمنا ما جهلنا من ذلك كان ديناً وإيماناً فرضه الله على تلك الأمم ووضعه عنا.

وأنه لا يجوز لمدع دعواه إلا ببينة، فمن ادعى مما في يد غيره مما لا يدرك علمه إلا بالشهود لم يعط ما ادعاه إلا بشاهدي عدل، أو بإقرار المدَّعَى عليه للمدعي.

ثم بين سنته في الشهود[1]، فأبطل شهادة كل فاسق منهم أو خصمهم، وأن بعض الشهود ربما شهدوا بالزور الذي لا يعلمه إلا الله، وأن على الحكام أن يمضوا الشهادة مع جهلهم بما يغيب به الشهود، إلا أن الله يعلم أنهم قد شهدوا على باطل.

أفضل العلم

وأن أفضل الدين كله العلم بالله، تبارك وتعالى، وبدينه، وأنه لا ينفع قول إلا بعمل ولا عمل إلا بعلم في إثبات اسم ولا ثواب. وذلك أن من أقر بالحق ولم يعمل به لم يستحق الأسماء الزكية ولا ثواب أهلها، ومن ضيع العلم بالله وبدينه لم ينتفع بشيء من علمه، وأن كلهم متعلم وكلهم محتاج إلى العلم مفضل له ولأهله، وذام للجهل عائب له وأهله، وأنهم لم يزالوا يتقربون إلى الله بالقول السديد

---

(١) وذلك في الايات: ٢٨٢ من سورة البقرة، ٤، ٦، ١٣، من سورة النور، ٦ من سورة الحجرات.. الخ.. الخ..

والعمل الصالح ويعبدونه بذلك. وأن اسم دينهم الذي تعبدهم الله به، ودانوا به، الذي بُلِّغ، «الايمان»[1] والاسلام والتقوى والبر ونحو ذلك، وأن قد حرم الله على المسلمين أن يزكوا أنفسهم، وأن قد أوجب عليهم أن ينسبوا جميع المسلمين إلى الايمان والاسلام، وأنهم قد كانوا يثبتون لهم اسم الايمان ثم لا يعلمون بسرائرهم، وأنهم قد كانوا يتولى بعضهم بعضاً على أنهم سمعوا منهم بعض ذلك وإن لم يروا منهم عملاً، وكذلك يفعلون فيمن يرونه يعمل وإن لم يسمعوا منهم قولاً، فإن الاسم الذي قد ثبت عندهم على الظاهر وإن لم يعلموا الباطن، وأنه لا يحصي أحد منهم جميع ما فرض الله، وأن الله لم يكلفهم «إحصاءه»[2] ولا إحصاء أهله.

وأن دينهم: أنهم يرجون ثواب الله ويخافون عقابه، وأنه لا خوف على أولياء الله في الأخرة ولا هم يحزنون، وأن أولياء الله المؤمنون، وأن الله قد استحق ولاية وليه وعداوة عدوه على جميع العالمين «الذين قامت عليهم بذلك حجة الدين»[3] وأن من لم تنفع ولايته وتضر عداوته «من جميع الخلق»[4] معيب عندهم منقوص. وأن الله أحق أن تنفع ولايته وتضر عداوته من جميع الخلق.

وأن الأنبياء لم تزل مستحقة لثواب الله منذ بعثها الله، وأنها لم تكفر قطولم تفسق ولم تُقِم على شيء من الذنوب بعلم ولا تعمد، وربما أذنبت على طريق الظن وطريق النسيان، وأن ذنوبها صغائر مغفورة وأنها لا تأتي الكبائر، وأن من قذف الأنبياء بالكفر والكبائر فهو أولى بالكفر.

وأن المؤمنين مُقِرُّون جميعاً على أنفسهم بالذنوب، وأنهم ينتفون من الكفر والفسق، ويكرهون أن ينسبوا إليه.

وأن الله قد ميز بين صغائر الأمور وكبائرها، فلم يجعل السبة والكذبة وأشباهه كالكفر بالنبي، صلى الله عليه وعلى آله، والكتاب وأشباه ذلك، والنظرة

---

(١) في أ، ب: بالايمان.

(٢) في ب: إحصاؤه.

(٣) غير موجودة في أ.

(٤) غير موجودة في أ.

كالقتل والزنا والربا والسرقة وأشباههن[1]، وأنه قد خالف بين أحكامهن وأسمائهن وأسماء أهلهن، وأنهم لا يشهدون على ذنب بعينه أنه صغير مغفور إلا أن يكون الله قد سمى من ذلك شيئاً في الكتاب بعينه، أو سماه الرسول، صلى الله عليه وآله، ما خلا ذنوب الأنبياء، عليهم السلام.

وأنهم لا يزالون يُفَسِّقون أهل الكبائر من أصحاب الحدود ويبغضونهم ويشتمونهم، ويحبون أهل الخير وإن أذنبوا على الظن والنسيان، ما لم يخرجوا إلى الكبائر، وأنهم لا يزالون يعظمون القتل والزنا ونحوهن، والسرقة ممن فعلها، وأن معنى الكبير والقليل والعظيم واحد.

وأن الجنة دار للمتقين، وأن النار دار للفاسقين، وأنهم لا يزالون يبغضون من اطلعوا على فسقه وإن كان يستغفر الله حتى يظهر التوبة النصوح.

وأنهم يستحبون أن يكتم كل امرىء على نفسه وإن أصاب حداً. وأن التوبة عندهم مقبولة ممن حُدَّ وممن لم يُحَدَّ، وأن من سمى أهل الحدود «كافرين»[2] ثم حكم عليهم بحكم الكفار عابوه ومن سماهم مؤمنين وحكم لهم بحكم المؤمنين عابوه. وأن اسم الملة اسم يجمع جميع المنطوين إلى الإسلام وإن كان فيهم فجور.

وأن الله قد بين حكمه في جميع «الكافرين»[3] من مشركي العرب من أهل اللات والعزى، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمنتقلين من جميع أصناف أهل الكفر من دين إلى دين، والمرتدين عن الإسلام بعد إظهار الدين. وبين حكمه في المؤمنين والفاسقين والمنافقين والمستترين بالكفر. وأنه لم يكن يقاتل[4] أحداً من المشركين حتى يدعوه، وأنه قد أبان ذلك كله وفصله. وأنه لا يوجد في زمان النبي، عليه السلام، كافر ليس بمشرك، وأنهم

---

(١) عبارة أ هكذا: «فلم يجعل السبة والكذبة والنظرة كالقتل والزنا والربا والسرقة وأشباههن، ولم يجعل القتل وأشباهه كالكفر بالنبي صلى الله عليه وآله والكتاب وأشباه ذلك، وأنه قد خالف». . الخ. . . والخلاف بين النسختين أساساً في التقديم والتأخير.

(٢) في ب: كفرين. (٣) في ب: الكفرين. (٤) أي الرسول.

لا يعتمدون أحداً ممن أقر بالنبي عليه وعلى آله السلام، يكفر إلى يوم القيامة، أو يلحق بالمرتدين.

وأن النفاق استسرار بالطعن في دين الله ودين الرسول، وأن الله قد أقام حجته فيما فرض من دينه بتحريم الشك فيه والإنكار له جميعاً.

وأن التَّقيَّة[1] جائزة فيما حُمِل الناس عليه وهم له كارهون يخافون القتل والمثلة، وذلك فيما لا يرجع ضرره على أحد من العالمين.

وأن رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، قد كان يعذر[2] نفسه وغيره فيما لم يأت به جبريل من الدين، مما لم يعرف إلا بالسمع، مما لم يأت به جبريل عليه السلام، حتى يأتيه به. وأنه لم يكن يترك أهل دعوته يظهرون قبيحاً وأنه لم يكن يكتم شيئاً من الدين الذي أمره الله بإظهاره، ولا يعطي فيه تقية، وأنه لم يزل له مظهراً، يأمر أتباعه بإظهاره والدعاء إليه.

وأن الشيطان يحب دفن الدين ويدعو إلى إماتته، وأنه لا يجوز تغيير شيء مما أثبت النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، وأن الدنيا فانية وأن الآخرة باقية «إلى»[3] الأبد.

وأن الملائكة والجن والإنس أجناس شتى، وأن الملائكة أفضل برية الله، وأنهم مقربون في كل خبر، مقربون في كل منزلة، مفضلون في كل ذكر.

وأنه جعل من دينه مَوْقتاً محدوداً: صلاة وصياماً ونحوهما، وجعل منه متمهلاً[4] فيه لا يدرك حده. بر الوالدين، وصلة الرحم، والأمر بالمعروف والنهي

---

(١) هي أن يظهر الإنسان الطاعة حيث تجب عليه الثورة ضد نظام لا ترضاه عقيدته أو موقف يتنافى مع مبدئه، ولقد كان الخوارج، عموماً، ينكرون جوازها، والمؤلف يتخذ هنا موقفاً وسطاً، فيجوزها للمضطرين شريطة أن لا يكون في ذلك ما يتنافى مع الصالح العام ونفع المجموع، أي أن جوازها مشروط بأن يكون الضرر فردياً فقط.

(٢) من المعذرة، وهي رفع اللوم والذنب.

(٣) غير موجودة في ب.

(٤) غير واضحة الدلالة في ب، وما أثبتناه في أ، والمتمهل في الدين ضد المتشدد المنبت الذي لا يوغل فيه برفق.

عن المنكر، ونحو ذلك من الأمور التي تعرف عند المشاهدة. وأن الله لا يلبس حكمه، ولا يخلف قوله، وأن الحق الواجب على المسلمين في دينهم التثبت فيما غاب عنهم حتى يجيئهم اليقين من تواتر الأخبار وتظاهرها.

وأن الله لا يظلم عباده شيئاً، ولا يعذب إلا بعد إنذار، ولا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يحملها إلا طاقتها، ولا يفرض طاعته إلا على أهل الصحة والسلامة والعقل والقوة، وأنه دعا جميع عباده المكلفين إلى دينه، وأنه يحب طاعته ويبغض معصيته، وأنه جعل بعض الأعمال أفضل من بعض وبعض الأقاويل أفضل من بعض، وبعض العلم أفضل من بعض. وأن من العلم غامضاً خفياً ومنه واضحاً جلياً، وأن جهل بعض ذلك واسع وجهل بعضه ضيق، وأنه لا ينزل أحداً من الناس كلهم من منزلة النبي في تصديق له ولا في تكذيب ولا شك في قوله. وأنهم يعملون بالأخبار المجتمع عليها، ويَشُكُّون في القول الشاذ وإن روي عن النبي، عليه السلام.

وأن الله افترض اتخاذ الإمام العادل إمام ليؤتم به، وسمي خليفة ليخلف النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، في أعماله. وأنه من خالف حكمه حكم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وفارقه، فليس بإمام ولا خليفة، مُتَبِّرٌ[1] ظالم.

وأن الأخذ بجميع ما أجمعوا عليه صواب وبر وهدى، وأن الترك لما أجمعوا عليه ضلال وخطأ.

---

(١) مهلك ظالم.

خاتمة

فهذه صفة جملة الدين، وكثير من تفسيرها في التوحيد وغيره، ونرجو أن تكون هذه الجملة تدل على الصواب كله وتنفي الخطأ كله، وأن نكون قد ذكرنا فيها أموراً قد أقام الله بها حجته على جميع العالمين في جميع ما هم ذاكرون من خطأ أو صواب، وأن يكون قد دخل في هذه الجملة جميع «أصناف»[1] الاختلاف وقول أهل البدع.

فمن زعم أن هذه الجملة على غير ما ذكرنا، فليعرض جميع ما قال الناس عليها، فما وافقها قَبِله وما خالفها تركه، فإنا نرجو أن لا يخرج من ذلك شيء أبداً إلا أُدرك صوابه وخطأه من هذه الجملة، إن شاء الله تعالى.

ومن ظن أن شيئاً من هذه الجملة ليس بحق فليعرضه على كتاب الله وسنة رسوله، عليه السلام، وفطرة العقول، فمن عمل بما أمره الله به وانتهى عما نهاه الله عنه، ودان بذلك فله ما لنا وعليه ما علينا بتولي كل مهتد «مضى»[2] قبلنا، وسيرتنا في ولينا كسيرة نبينا، عليه السلام، في ولينا، وسيرتنا في عدونا كسيرة نبينا في عدونا:

الله ربنا، والقرآن إمامنا، والاسلام ديننا، والكعبة قبلتنا، والموت غايتنا، والحشر يجمعنا، والموقف موعدنا، وحكم الله يفصل بيننا، والجنة والنار أمامنا. نسأل الله الجنة برحمته، ونعوذ بالله من النار بعفوه.

إلى هذا ندعو مَن أجابنا ونجيب من دعانا. هذا ديننا ونحلتنا، والطيبون من

---

(١) غير موجودة في أ.

(٢) غير مقروءة في ب.

آل محمد قادتنا. فمن وافقنا على هذا فهو ولينا، ومن خالفنا فهو عدونا، والله ولي المؤمنين وعدو الفاسقين.

«تم الأصل»[1]، والحمد لله وحده وصلواته على رسوله «سيدنا»[2] محمد «النبي وعلى آله وسلم»[3].

---

(١) في أ: تم ذلك.
(٢) غير موجودة في
(٣) عبارة أ: وعلى أهل بيته الطيبين وسلم.

الرد
على أهل الزيغ من المشبهين

ماذا نعبد؟

إن سأل «مسترشد سائل»[1] أو قال متعنت «قال»[2] «أو ملحد»[3]: ماذا يعبد الخلق؟

قيل له: يعبدون الخالق الذي فطرهم وصورهم وابتدعهم وأوجدهم.

فان قال: وأين معبودهم؟ أفي الأرض؟ أم في السماء؟ أم فيما بينهما من الأشياء؟..

قيل له: بل هو فيهما وفيما بينهما، وفوق السابعة العليا، ووراء الأرض السابعة السفلى، لا تحيطبه أقطار السماوات والأرضين، وهو المحيطبهن وبما فيهن من المخلوقين، فكينونته فيهن ككينونته في غيرهن، مما فوقهن وتحتهن، ككينونته قبل إيجاد ما أوجد من سماواته وأرضه، فهو الأول الموجود من قبل كل موجود، والمكوِّن غير مكوَّن، والخالق غير مخلوق، والقديم الأزلي الذي لا غاية له ولا نهاية، الذي لم يحدث بعد عدم، ولم يكن لأزليته غاية في العدم، البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، المتقدس عن القضاء بالفساد، والصادق الوعد والوعيد، المحتج بالبراهين النيرة على العبيد، الداني في علوه، والعالي في دنوه، خالق السموات والأرضين، وهو الموجد لأولهن والمبيد آخراً لما أوجد منهن والمبدل بهن في يوم الدين غيرهن.

فإن قال: فما معنى كينونته فيهن وفي غيرهن مما بينهن؟ العِظَم جسم أحاطبهن وكان كذلك فيهن؟ أم لسرعة تَحَوُّل وانتقال منهن إلى غيرهن، ومن غيرهن إليهن؟

قيل له: ليس إلهنا، سبحانه، كذلك، ولا يقال فيه بذلك، وهو سبحانه

(١) في ب تقديم وتأخير يجعل العبارة: سائل مسترشد.
(٢) في أ، ب: قائل.
(٣) غير موجودة في أ.

متعال عن الانتقال، متقدس عن الزوال، وعن التصور في صور الأجسام، تعالى عن ذلك ذو الجلال والإكرام.

ولكن معنى قولنا: إنه فيهن، هو أنه مدبر لهن قاهر لكل ما فيهن، ما لك لأمرهن ما بينهن وما تحتهن وما فوقهن، لأنه مسخر لهن، ولا داخل كدخول الأشياء فيهن[1].

فإن قال السائل المتعنت: فما هو، في ذاته، عندكم إذا كان كذلك في قولكم، وما تعتقدون في دينكم، أجسم[2] هو أم عرض[3]؟

قيل له: تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً، لا نعتقد شيئاً من ذلك، وليس ربنا سبحانه كذلك، لأن الجسم محدود مبعض، والله ليس كذلك، والعرض لا قوام له إلا بغيره، والله «هو»[4] المقيم لكل شيء، والذي لا يحتاج إلى معونة شيء، فلذلك قلنا: إن ربنا على خلاف قولك.

---

(١) وذلك على العكس من نظرية وحدة الوجود التي تتجلى في فكر محيى الدىن بن عربي، الذي يجعل «الحق» (الله) هو عين «الخلق» (الموجودات) كما يجعل «الخلق» مجلي «الحق»، وينتهي إلى أنهما شيء واحد، رغم اعترافه بأن «للحق» وجوداً حقيقياً في ذاته غير وجوده الاضافي في أعيان الممكنات، ولقد قدم ابن عربي صياغات كثيرة لنظريته هذه في عديد من كتبه، ومن أشعاره المعبرة عن ذلك:

فيحمدني وأحمده ... ويعبدني وأعبده
لذاك الحق أوجدني ... فأعلمه فأوجده

وقوله:

فنحن له كما ثبتت ... أدلته ونحن لنا
وليس له سوى كوني ... فنحن له كنحن بنا
فلي وجهان، هو وأنا ... وليس له أنا بأنا
ولكن في مظهره ... فنحن له كمثل إنا

أي (إناء). راجع (فصوص الحكم) لابن عربي. ص٢٧، ٨٣، ٨٤.

(٢) هو الشيء المادي المدرك بالحواس، والموضوع في مكان، أو هو ما له يمين وشمال وظهر وبطن، وأعلى وأسفل، يقسمونه إلى جسم رياضي، وطبيعي وحي. راجع «المعجم الفلسفي» للأستاذ: يوسف كرم، د. مراد وهبة، يوسف شلاله.

(٣) هو ما قام بغيره، ويقابل «الجوهر» و«الذات»، وهو إما قار الذات، وأما لازم، وإما مفارق، وهو عند ابن رشد ينقسم إلى المقولات التسع التي هي: الكمية، والكيفية، والاضافة، وأين، ومتى، والوضع، وله، وأن يفعل، وأن ينفعل. راجع «المعجم الفلسفي».

(٤) في الاصل: فهو.

فإن قال: أفنوراً تعبدون؟ أم ظلمة هو تقولون؟ أم غير ذلك مما يعقل تذكرون؟ وإلا فما أراكم تعبدون شيئاً عليه تقفون. ولا تدعونني إلى عبادة شيء «لا»[1] أعرفه، ولا إلى الإقرار بإله «لا»[2] يقف عقلي ووهمي على صفته، فكيف أعبد ما لا أعرف؟، أو أتعبد لما لست عليه أقف؟ وإنما لا يجب على أن أقر به فضلاً عن أن أعبده. وإنما يجب علي أن أعبد إلهاً عرفته فلم أنكره، ووقعت عليه حواسي فلم أدفعه، فأما ما لم أقف عليه بعقلي، ولم أعرفه بشيء من حواسي، فكيف يكون عندي ثابتاً، فضلاً عن أن يكون واحداً قادراً فاعلاً؟

والوحدانية «إنما»[3] تكون عندي وتثبت في قلبي لما عرفته بصفاته ووجدته بذاته، فحينئذ أقف على وحدانيته، فأما ما لم أقف له على تحديد، ولم أعرفه بكون ذاته، فكيف أوحده، بل كيف أعبده؟ أوجدوا لي بقولكم حجة وتبياناً، وأظهروا لي بذلك حقاً وسلطاناً.

قيل له: لعجز حواسك وعقلك عن درك معبودك، جل جلاله، بالتحديد، صح له سبحانه، ما أنكرت من التوحيد، لأن حواسك وعقلك أدوات مجعولات مركبات على درك المخلوقات مثلهن المصورات بالخلق كتصويرهن، فأما ما لم يكن لهن مشابهاً، ولا لمعانيهن مشاكلاً، وكان عن ذلك متعالياً، ولم يكن له حد ينال، ولا شبه تضرب له به الأمثال، فلا يدرك، جل جلاله، بهن، ولا تدرك معرفته بشيء منهن، ولا يستدل عليه إلا بما دل به على نفسه، من أنه هو، وأنه القائم بذاته.

فلما صح عند ذوي العقول والتبيان، وثبت عند كل ذي فهم وبيان، أن الحواس المخلوقة والألباب المجعولة لا تقع إلا على مثلها، ولا تلحق إلا بشكلها، ولا تَحُدُّ إلا نظيرها، صحت له، سبحانه، لَمَّا عجزت عن درك تحديده، الوحدانية، وثبتت للممتنع عليها من ذلك الربوبية، لأنه مخالف لها في كل معانيها، وبائن عنها في كل أسبابها. ولو شاكلها في سبب من الأسباب لوقع عليه ما يقع عليها من درك الألباب.

---

(1) غير موجودة في الاصل. (2) غير موجودة في الاصل. (3) في الاصل: فإنما.

فلما تباينت ذاته وذاتها، فكانت هي فعله وكان هو فاعلها بانت بأحق الحقائق صفاته وصفاتها، فكان دَرْكُ الأفهام والعقول لها بالتبعيض والتحديد والانحدار منها والتصعيد، وكانَ درك معرفته، سبحانه، بأفعاله وما أظهر من آياته ودل به على نفسه من دلالاته، من خلق أرضه وسماواته، وما ابتدع بينهما من خلقه، فكان الدرك بالصنع والأفعال للصانع الفاعل، كالدرك بالعيان سواء بسواء عند كل ذي فهم عاقل، وكان درك الحواس لما شاكلها وما كان منها ومثلها في التحديد والعيان، وكان دركها لما باينها فلم يشاكلها وكان على خلاف ما هي عليه من تقديرها وتصويرها متقدساً عن مشاكلتها بما ندركه من أفعاله، ونقف عليه من آياته في أنفسها دون غيرها، ثم في غيرها من بعدها.

فلما أن وجدت العقول والحواس أجساماً مثلها، مصورات في الخلق كتصويرها، وأعراضاً لا تقوم إلا بغيرها، استدلت على الفاعل بفعله، ووقفت على معرفة الخالق بخلقه، كما نعرف كل ذي عمل بعمله، ونستدل على كل صانع بفعله، لأنك متى وقفت على جدار مبني علمت أن له فاعلاً بانياً، وكذلك إذا وقفت على ثوب معمول، علمت أن له عاملاً غير مجهول، وكذلك لو سمعت حاسة السمع صوتاً لعلم السامع أن له مصَوِّتاً منه كان، ومن بعد خروجه من حلقه بان لسامعه ووضح علمه لعامله.

وكذلك لما رأت حاسة البصر الآيات المجعولات، وما فطر الله من الأرضين والسماوات علم ذو الحاسة بعقله وتمييزه أن لذلك مدبراً جاعلاً وخالقاً محدثاً فاعلاً، ليس لشيء من خلقه مشابهاً ولا مُشاكِلاً، لأن كل ما يدرك بالتحديد والتبعيض والعيان من الأشياء، فالأشياء لا تخلو من أن يكون غيرها جعلها أو هي جعلت أنفسها، فلما أن كان ذلك كذلك، نظرنا في خلقها لأنفسها فاستحال عندنا، وامتنعت من قبوله عقولنا، لأنها كانت من قبل الجعل عدماً، والعدم «لا»[1] يجعل موجوداً، ولا يخلق جسماً، لأنه ليس بشيء وما لم يَعن بشيء فلا يفعل شيئاً أبداً، فضلاً عن أن يخلق جسماً.

---

(١) في الاصل: فلا.

فلما أن بطل، لما ذكرنا، أن تكون جعلت أنفسها، ثبت أن الجاعل لها غيرها، المصور المقدر لخلقها، وأنه مباين في كل الأمور لها، غير مشاكل لشيء منها. .

فلما أن صح بُعْدُه عن مُشَاكلتها صح عجز المجعولات عن درك جاعلها، وثبت انحسارها عن تحديد خالقها، فلما أن صح عجزها عن دركه وثبت انحسارها عن تحديد خالقها، ثبت بذلك، أيها السائل، ما أنكرت من معرفته سبحانه.

فلما ثبتت لك معرفته، صحت لك بلا شك وحدانيته، ولما صحت له الوحدانية وجبت له، سبحانه وجل جلاله الربوبية. فافهم ما عنه سألت وانظر فيه إذا نظرت بلب حاضر ورأي وارد صادر، يَبِن لك في ذلك الصواب وينكشف لك عنه الحجاب، إن شاء الله، والقوة بالله، وله.

حجج العقل والنقل ـ هل تتضاد؟

ومن الحجة أيضاً في ذلك ، ولمن قال ذلك ، أن يقال له : أخبرنا عن العقل الذي «تريد ، بزعمك »[1] أن تقف به على معرفة ربك ، أَحُجة هو لله فيك أم ليس بحجة له عليك؟ فلا يجد بداً من أن يقول هو حجة لله فيَّ ، ركبها سبحانه للاحتجاج بها علي ، فإذا قال ذلك وكان الأمر عنده فيه كذلك؟

قيل له : أوليس كذلك القرآن هو حجة عليك وعلى غيرك من الرحمن؟ فإذا قال : نعم ، كذلك أقول ، وإلى ذلك اعتقادي يؤول .

قيل له : فهل يجوز أن تضاد حجج الله وتختلف ، وتباعد المعاني فلا تأتلف ، فتدل إحداهن على معنى وتبطله وتنكره الأخرى؟ فكلما أثبتت حجة العقل لله حجة على العباد أنكرتها ودفعتها وخالفتها وأبطلتها حجة الله في الكتاب ، وكلما أثبتت حجة الله في القرآن شيئاً دفعته حجة العقول دفعاً؟ فإن قال : نعم ، يكون ذلك ويوجد ، استُغني عن مناظرته بجهله ، واستدل على كفره بذلك ، وخالف الخلق أجمعين ، وقال بما لم يقل به أحد من العالمين ، وافتضح عند نفسه فضلاً عن غيره ، لأنه يزعم أن حجج الله تتناقض وتتضاد وما تناقض وتضاد فليس بحجة لله على العباد .

وإن رجع إلى الحق ، وتعلق من القول بالصدق فقال : لا يجوز ذلك ، ولا يكون أبداً كذلك ، لأن حجج الله على الخلق يؤكد بعضها بعضاً ويشهد ناطقها من القرآن لمستجن مركبها في الإنسان ، ويشهد عقل الإنسان لنواطق حجج القرآن ، وكذلك ما نطق به الرسول يشهد له القرآن والعقول .

---

(1) مطموستان في ب .

من ذلك ما يروى عن النبي، المصطفى عليه أفضل صلاة أرحم الراحمين، من أنه قال: سيُكْذَب علي كما كذب على الأنبياء من قبلي، فما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو مني وأنا قلته، وما خالف كتاب الله فليس مني ولم أقله.

فأخبر، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه لا يأتي منه قول مخالف للكتاب، لأنه حجة لله على خلقه، لا يوضح ولا يدل إلا ما دل عليه القرآن وأوضح.

فإذا فهم ما قلنا به من ذلك، السائل، وقال به، من أن حجج الله يؤكد بعضها بعضاً، ولا يبطل شيء منها شيئاً، قيل له: كيف ـ يا لك الخير ـ تريد من العقل المخلوق أن يصف لك الخالق ويقف عليه بتحديد، وفي ذلك إبطال ما نطق به القرآن من التوحيد لله الواحد الحميد؟ وذلك قول الرحمن فيما نزل من النور والفرقان حين يقول: ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[1]، وحين يقول، سبحانه: ﴿ **قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[2]، والكفو هو المثل والنظير، في الصغير كان من الأمور أو الكبير.

وهذا كله، وما كان من القرآن مثله، فينفي عن الله التشبيه، فكذلك حجة الله من العقول في الإنسان تنفي ما نفاه عن الله المحكم من القرآن، ولو ثَبَّت لك عقلك أو صحح لك لبك، أن ربك كغيره من الأشياء، فتعالى عن ذلك العلي الأعلى، ولو كان ذلك لتناقضت حجج الرحمن في كل قول وبيان، ولو تناقضت حججه لبطلت فرائضه، ولو بطلت فرائضه لبطل معنى إرساله للرسل، ولو بطل معنى إرساله لرسله، لبطل معنى أمره ونهيه، ولو بطل معنى أمره ونهيه لبطل معنى ثوابه وعقابه، ولو بطل معنى ثوابه وعقابه لبطل معنى خلقه لدنياه وآخرته، ولو بطل معنى خلقه لدنياه وآخرته لبطل معنى خلقه لسماواته وأرضه، ولو بطل معنى خلقه لسماواته وأرضه لبطل معنى خلقه لما فيهما وبينهما من خلقه، ولو بطل معنى خلقه لما فيهما وما بينهما من خلقه لما كان لما أوجد من ذلك معنى، ولو لم يكن لجميع

---

(١) الشورى: ١١.

(٢) الاخلاص: ١ ـ ٤.

ما أوجد من الأشياء أو بعضها معنى ثابت مفهوم صحيح بيِّن معلوم لدخل بذلك على الحكمة الفساد، لأن الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لسبب وأمر ومعنى. ومن فعل فعلاً لغير معنى فإنما ذلك منه عبث أو جهل، ولو دخل على الحكيم ضد الحكمة لكان اسم الجهل له لازماً، ومن لزمه اسم الجهل فليس بخالق، والخالق «هو»[1] الحكيم غير الجاهل. فتعالى الله الرحمن الرحيم، الخلاق الحكيم لا إله إلا هو الواحد الكريم، عما يقول المبطلون، ويضيف إليه الفاسقون، ويصفه به الجاهلون.

فلينظر من نظر في كتابنا هذا إلى ما يؤول إليه قول من قال بتناقض حجج الرحمن واختلافها في الشرح والبيان، فإنه يؤول إلى جحدان الخالق وإبطاله ودفعه له مما يُدْخِل عليه من الجهل في خلق ما يخلق إذ خلق بزعم من جهل وفسق لغير معنى.

وقد نعلم أن من فعل فعلاً لغير سبب ولا معنى فإنما عبث واستهزأ وضاد الحكمة فيما به أتى، والله، سبحانه «مخالف»[2] لذلك، ومتعال، سبحانه، عن الكينونة كذلك.

فقد بان، بحمد الله، لكل ذي عقل وعرفان، وفهم وتمييز وتبيان، أن من قال بتناقض حجج الرحمن غير عارف به ولا مقر، ومن لم يعرف الله جل جلاله فلم يعبده، ومن لم يعبده فقد عبد غيره، ومن عبد غيره فهو من الكافرين، ومن كان من الكافرين فقد خرج، بحمد الله، من حد المؤمنين. فنعوذ بالله من الجهل والعمى، ونسأله الزيادة في الرحمة والهدى، وحسبنا الله «ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير، والحمد لله رب «العالمين»[3]، وصلى الله على سيد المرسلين، محمد وأهل بيته الطيبين[4].

---

(١) في الاصل: فهو.

(٢) في الاصل: فمخالف.

(٣) مكشوطة في الاصل.

(٤) عبارة أ: وكفى، وصلى الله على محمد المصطفى، وعلى من طاب من عترته وزكى.

المراجع

ابن الأثير «أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم»

ـ الكامل في التاريخ. جـ ٢. تحقيق: عبد الوهاب النجار. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ.

ابن جني (أبو الفتح عثمان)

ـ الخصائص. جـ ١، ٢. تحقيق: محمد علي النجار. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢، سنة ١٩٥٥ م.

ابن حابس (أحمد بن يحيى بن حابس الصعدي اليماني)

ـ المقصد الحسن والمسلك الواضح السنن. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية. (٣٧ ٢٩١ ب).

ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي)

ـ تهذيب التهذيب. جـ ٢. الطبعة الأولى. حيدر آباد، الهند. سنة ١٣٢٥ هـ.

ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)

ـ كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل. الطبعة الأولى. القاهرة سنة ١٣١٧ هـ.

ابن رشد (محمد بن أحمد)

ـ تهافت التهافت. طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م.

ـ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة. تحقيق: د. محمود قاسم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال طبعة القاهرة، مكتبة صبيح، بدون تاريخ.

ابن سعد (محمد)

- كتاب الطبقات الكبير. جـ ٥. طبعة ليدن سنة ١٣٢٢ هـ.

ابن عربي (محيي الدين)

- فصوص الحكم. تحقيق: د. أبو العلاء عفيفي. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

ابن قتيبة

- المعارف. تحقيق: د. ثروت عكاشة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

ابن المرتضى «أحمد بن يحيى»

- المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية. (٢٧٧٩٨ ب).

ابن النديم «محمد ابن إسحق»

- كتاب الفهرست. طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م.

أبو حيان التوحيدي

- البحر المحيط. طبعة القاهرة الأولى.

آرنولد (توماس. و)

- الدعوة إلى الإسلام. ترجمة: د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي. طبعة الاسكندرية.

د. ألبير نصري نادر

- فلسفة المعتزلة. جـ ١. طبعة الاسكندرية.

أوتو بريتزل

- مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الأولين في الاسلام. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة (وهو منشور كذيل لكتاب: مذهب الذرة عند المسلمين). طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

أوليري

ـ مسالك الثقافة الأغريقية إلى العرب. ترجمة: د. تمام حسان. طبعة القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية.

بيتس (د. س)

ـ مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذهب اليونان والهنود. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة/ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

التهانوي (محمد أعلى بن علي)

ـ كشاف اصطلاحات الفنون. مجلد ١، ٢، طبعة كلكتة، الهند سنة ١٨٩٢ م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)

ـ الحيوان. جـ ١، ٢، ٣، ٤، ٦ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة الأولى ١٩٣٨ ـ ١٩٤٤ م.

ـ البيان والتبيين. جـ ١، ٢، ٣ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة الأولى ١٩٤٨، ١٩٤٩ م.

ـ رسائل الجاحظ. جـ ١ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة ١٩٦٤ م.

ـ ثلاث رسائل (الرد على النصارى، ذم أخلاق الكتاب، القيان) تحقيق: يوشع فنكل. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ.

الجرجاني (علي بن محمد بن علي)

ـ التعريفات. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

جمال الدين القاسمي

ـ كتاب تاريخ الجهمية والمعتزلة. طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان)

ـ الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد. تحقيق: د. نيبرج. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م.

الرازي (فخر الدين)
- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. تحقيق: د. علي سامي النشار
طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

الرازي (محمد بن زكرياء)
- رسائل فلسفية. تحقيق: بول كراوس. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م.

روزنتال (فزانز)
- المفهوم الإسلامي للحرية قبل القرن التاسع عشر. طبعة ليدن «الانجليزية» سنة ١٩٦٠ م.

رينان (أرنست)
- ابن رشد والرشدية. ترجمة: عادل زعيتر. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧ م.

الزمخشري (محمود بن عمر)
- الكشاف. طبعة القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ.
- أساس البلاغة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

زهدي حسن جار الله
- المعتزلة. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ م.

الشريف المرتضى (علي بن الحسين الموسوي)
- أمالي المرتضى. القسم ١، ٢ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م.

الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم)
- الملل والنحل. جـ ١، ٢. تحقيق: محمد سيد كيلاني. طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م.

الصاحب بن عباد
- الابانة عن مذهب أهل العدل. تحقيق: محمد حسن آل ياسين. طبعة بغداد (ضمن مجموعة) سنة ١٩٦٣ م.

ـ رسائل الصاحب بن عباد. تحقيق: د. عبد الوهاب عزام، د. شوقي ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٣٣٦ هـ.

طاهر الجزائري

ـ أصل المعتزلة. (مقال منشور ضمن كتاب: القديم والحديث. لمحمد كردعلي) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥.

قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني

ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل. جـ ٤، ٥، ٦: ق ١، ٢، جـ ٧، ٨، ٩، ١٣، ١٦، ١٧، ٢٠: ق ١، ٢ تحقيق مجموعة من الأساتذة، بإشراف د. طه حسين، ومراجعة د. إبراهيم بيومي مدكور. طبعة القاهرة.

الغزالي. (أبو حامد محمد بن محمد)

ـ تهافت الفلاسفة. طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م. سبينوزا. طبعة القاهرة الأولى.

د. فؤاد زكريا ـ سبينوزا. طبعة القاهرة الأولى.

د. فيليب حتي، د. إدوارد جرجي د. جبرائيل جبور

ـ تاريخ العرب «مطول» جـ ٢، ٣. طبعة بيروت الثانية سنة ١٩٥٣ م.

قدري حافظ طوقان

ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م.

القشيري (عبد الكريم بن هوازن)

ـ الرسالة القشيرية. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

كراوس (بول)

ـ التراجم الارسطوطالية المنسوبة الى ابن المقفع. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م(ضمن مجموعة عنوانها: التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية).

الكندي (يعقوب بن إسحق)

ـ رسائل الكندي الفلسفية جـ ١. تحقيق: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م.

الكواكبي (عبد الرحمن)
ـ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. طبعة القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر.

الحاكم أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمي البيهقي
ـ شرح عيون المسائل. جـ ١. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (٢٧٦٢٣ ب).

محمد بن سليمان الكوفي
ـ خبر الإمام الهادي إلى الحق ودخوله اليمن. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (٢٩٠٩٢ ب).

د. محمد ضياء الدين الريس
ـ النظريات السياسية الإسلامية. طبعة القاهرة الثالثة سنة ١٩٦٠ م.

د. محمد عبد الهادي أبو ريدة
ـ إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

محمد فؤاد عبد الباقي
ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. طبعة القاهرة سنة ١٣٧٨ م.

د. محمود قاسم
ـ نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني. طبعة القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية.

مونتجمري وات
ـ الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام. طبعة أدنبرة «الانجليزية» سنة ١٩٦٢ م.

نلينو (كرلو ألفونسو)
ـ بحوث في المعتزلة. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ (ضمن مجموعة عنوانها: «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية»).

النوبختي (الحسن بن موسى)
- فرق الشيعة. طبعة النجف. سنة ١٩٥٩ م
يوسف كرم، د. مراد وهبة، د. يوسف شلالة
- المعجم الفلسفي. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.
يوليوس فلهوزن
- الخوارج والشيعة. ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م.

كشاف الجزء الثانى

فهرس الأعلام

(ا)

(ب)

(جـ)

(ض)

(ع)

(ف)

(ن)

فهرس
الفرق والمذاهب والتيارات الفكرية

فهرس الموضوعات

كتـاب

كتـاب

الجملة

الرد

. رقم الايداع : ٨٧/٤٠٤٩

ترقيم دولى : ١ ــ ٠٩٠ ــ ١٤٨ ــ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ــ هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ ــ برقيا : شروق ــ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ــ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE